ترجمان

هيلما غرانكفست

أحوال الزواج في قرية فلسطينية

ترجمة: خديجة قاسم وإخلاص القنانوة

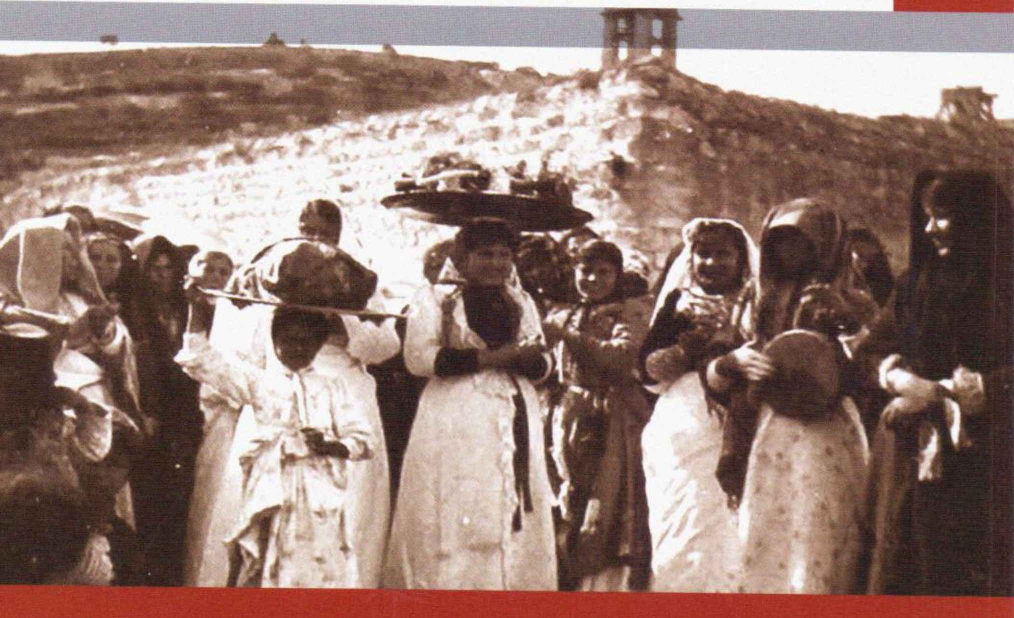

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

أحوال الزواج في قرية فلسطينية

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

أحوال الزواج في قرية فلسطينية

هيلما غرانكفست

ترجمة

خديجة قاسم

إخلاص خالد القنانوة

مراجعة

عمر الغول

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
غرانكفست، هيلما ناتاليا، 1890 -

أحوال الزواج في قرية فلسطينية/ هيلما غرانكفست؛ ترجمة خديجة قاسم، إخلاص خالد القنانوة؛ مراجعة عمر الغول.

2 ج. في 1 مج.: صور، جداول؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-056-7

1. الزواج - الضفة الغربية - أرطاس. 2. الزواج - العادات والتقاليد - الضفة الغربية - أرطاس. 3. الفلسطينيون - أحوال اجتماعية. 4 أرطاس - أحوال اجتماعية. أ. قاسم، خديجة. ب. القنانوة، إخلاص خالد. ج. الغول، عمر. د. العنوان. هـ السلسلة.

392.5095694

هذه ترجمة لكتاب

Marriage Conditions in a Palestinian Village
by Hilma Granqvist

عن دار النشر

Helsingfors, 1931
Centraltryckeri och Bokbinderi Aktiebolag

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع رقم: 826 - منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية - الدفنة، ص. ب: 10277 - الدوحة - قطر
هاتف: 44199777 - 00974 فاكس: 44831651 - 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب - شارع سليم تقلا - بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 - 11 - رياض الصلح - بيروت 2180 1107 - لبنان
هاتف: 8 - 1991837 - 00961 فاكس: 1991839 - 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، أيلول/ سبتمبر 2015

المحتويات

الجزء الأول

توطئة وشكر 13

هيلما غرانكفست: رائدة علم الأنثروبولوجيا في فلسطين 15

المقدمة 35

الفصل الأول: عن منهج البحث 37

الفصل الثاني: سن الزواج 63

1 – الخطبة عند الولادة (عطية إلجورة) 63

2 – خِطْبة الأطفال في العموم 77

3 – أسباب زواج الأطفال والزواج المبكر 88

الفصل الثالث: اختيار العروس 95

1 – من يختار العروس؟ 95

2 – من أي الأوساط تُنتقى العروس؟ 115

3 – كيف يجدون العروس الغريبة؟ 158

الفصل الرابع: الزواج بالعياض 173
1- تبادل عروس بعروس 173
2- مهر العروس 185
3- الجدل حول شراء العروس 201
أشجار الأنساب، قوائم الزواج، جداول الزواج 231
الخلاصة 283
المراجع 289

الجزء الثاني

توطئة وشكر 297
المقدمة 299

مراسم الزواج

الفصل الأول: مراسم الخِطبة 303
1- الطلب الرسمي للعروس 303
2- المفاوضات الرسمية على مهر العروس 306
3- وليمة الخِطبة أو الطبخ للعروس 308
أ) وليمة الخطبة لعروس القرية 309
ب) يجب على الخطيبين أن يتجنب أحدهما الآخر 311
ج) وليمة الخِطبة للمرأة الغربية 313

4- عقد الزواج 319
أ) وكيل العروس 319
ب) مراسم العقد 321
الفصل الثاني: مواسم الأعراس 327
1- أوقات العرس في القرية 327
2- ملاحظات إضافية 330
الفصل الثالث: الاستعداد والاحتفالات التمهيدية للأعراس 335
1- أمسيات الفرح 335
أ) رقص النساء وشرب القهوة 335
ب) رقص الرجال 336
ج) حال العروس خلال أمسيات الفرح 340
2- شراء ملابس العرس 341
3- جهاز العروس «تشسوت العروس» 344
4- ليلة الحناء 346
الفصل الرابع: إحضار العروس 353
1- الاستعدادات في الصباح 353
2- الموكب من بيت العريس إلى بيت العروس 358
3- انتظار العروس 367
4- كلمات الوداع 377
5- العروس تترك بيتها 380

6- موكب العودة بالعروس 383

الفصل الخامس: في بيت العريس 401

1- وصول العروس 401

2- دخول العروسين إلى بيت العريس 403

3- وليمة العرس 416

4- الإعداد للقاء العروسين في المساء 420

5- ويأتي العريس إلى عروسه 424

6- التهاني 428

7- خلوة العروسين 430

الفصل السادس: أسبوع العرس 437

الحياة الزوجية

الفصل السابع: المرأة في بيت زوجها 453

1- الزوجة وأقارب زوجها 453

2- الزوج والزوجة 462

3- معاملة الزوجة ومكانتها 482

الفصل الثامن: تعدد الزوجات 489

1- سليم مسلّم يتزوج امرأة ثانية 489

2- الضرائر والزوج 503

3- الرجال متعددو الزوجات 520

4- أسباب تعدد الزوجات 529
5- الضرائر والأطفال في العائلات المتعددة الزوجات 535
الفصل التاسع: مشكلة المرأة الحردانة (المرأة المتزوجة وبيت أبيها) 543
1- حالات من الواقع 545
2- بيت أبيها مفتوح دائمًا 552
3- الصعوبات التي تواجه المرأة الحردانة 554
أ) الحمل 554
ب) أولادها 560
ج) مكانتها في بيت زوجها 563
4- ذهبت قملة وعادت صؤابة 565
5- ذهبت قملة وعادت جملًا 568
6- عودة فاطمة علي 573
7- الزوجة الغريبة 580
8- المرأة المقطوعة 583
9- زوج المرأة وأخوها 584
الفصل العاشر: الطلاق 589
الفصل الحادي عشر: الأرمل والأرملة 625
1- موت الزوجة أو الزوج 625
2- زواج الأرمل وعطية القبر 631
3- إعلان الأرملة حملها وإحجامها عن الزواج 636

4- زواج الرجل أرملةَ أخيه 642
5- زواج الأرامل 651
6- لماذا تتزوج الأرملة؟ 653
7- الزوج «الزائر» (جوز مِتْسَرِّب) 653
8- مكانة الأرملة 663
الخاتمة 671
قائمة المراجع 673
ثبت الأعلام 681
الثبت التعريفي 693
فهرس عام 699

الجزء الأول

توطئة وشكر

أود أن أعبر عن امتناني لـ «المجمع العلمي الفنلندي» (Societas Scientiarum Fennica) الذي شمل الجزء الأول ضمن سلسلته، ولا سيما البروفيسور ويسترمارك والبروفيسور رافائيل كارستن اللذين أوصيا بنشره.

وأنتهز الفرصة لأعبر للبروفيسور ويسترمارك عن شكري الصادق لما أظهره من اهتمام بالغ بعملي، ولتشجيعه اللطيف، ونصحه الحسن.

وقد تفضلت الآنسة أغنس داوسون (بكالوريوس في الاقتصاد) بمساعدتي بنقله إلى الإنكليزية، وبقراءة المسوّدات.

وغاية ما أصبو إليه، أن أتمكن من نشر عملي الكامل عن الزواج في أقرب وقت ممكن، وأن تسنح لي الفرصة لنشر المادة الغنية والمتنوعة عن عادات وتقاليد أخرى جمعتها في أثناء فترة إقامتي في فلسطين.

هلسنكي
كانون الأول/ ديسمبر، 1931

هيلما غرانكفست
رائدة علم الأنثروبولوجيا في فلسطين

الدكتورة فلسطين نايلي

قبل نحو تسعين عامًا، ذهبت طالبة فنلندية تدعى هيلما غرانكفست (1890-1972) في رحلة إلى قرية «أرطاس»، إلى الجنوب من بيت لحم في فلسطين. وكانت قد وصلت إلى القدس قبل ذلك بأسابيع، بغية دراسة نساء العهد القديم. وهكذا وصلت إلى فلسطين «تسلك دروبًا مطروقة»، بحثًا عن بقايا الأزمنة التوراتية في المجتمع الفلسطيني المعاصر. وعند معايشتها المجتمع الفلسطيني بوجه عام، وأهالي أرطاس خصوصًا، تطلعاتهم ومناهجهم؛ قررت دراسة حياة المرأة الفلسطينية المعاصرة. وتطلّب ذلك دراسة شاملة لحياة القرية. فوضعت خمس دراسات مونوغرافية رائدة عن «الأحداث الثلاثة الأهم في حياة البشر»، وهي الولادة والزواج والموت، في قرية أرطاس. ونشرت دراساتها باللغة الإنكليزية، ولم تترجم قط إلى العربية أو أي لغة أخرى. وتُعدُّ هذه الترجمة لدراستيها الأولى والثانية اللتين تناولتا الزواج، أحد أغنى مصادر التوثيق لحياة القرية الفلسطينية المتاحة للقارئ العربي.

دراسات مونوغرافية وصور فوتوغرافية

تتناول دراسات غرانكفست المونوغرافية(*) العادات والتقاليد المرتبطة

(*) المونوغرافيا (monography): الدراسة المفردة أو البحث التفصيلي لموضوع واحد ضيق النطاق من كافة جوانبه دون إهمال أي جانب أو عنصر [المراجع].

بالزواج والولادة والطفولة والموت في أرطاس. وكانت دراستها الأولى الموسومة بعنوان: **أحوال الزواج في قرية فلسطينية** (*Marriage Conditions in a Palestinian Village*) هي أطروحتها للدكتوراه التي قدمتها في عام 1931 في جامعة أكاديمية أوبو الخاصة في فنلندا، بعد أن رفضتها جامعة هلسنكي. وأوصى العالمان الأنثروبولوجيان الفنلنديان ذائعا الصيت إدوارد ويسترمارك (EdwardWestermarck) ورافائيل كارستن (Rafael Karsten) بنشر أطروحتها التي أتبعتها بمجلد ثان في عام 1935. وقدمت غرانكفست في المجلدين اللذين تناولا الزواج دراسة شاملة لجميع واقعات الزواج على مدى الأعوام المئة التي سبقت عملها الميداني، وهي الفترة التي اتفق أن انتهت إليها ذاكرة القرويين. وتناولت فيهما جميع تفاصيل طلبات الزواج والأعراس والحياة الزوجية بما في ذلك من تعدد الزوجات والطلاق وحياة الأرملة.

وفي عام 1947 نشر كتابها **الولادة والطفولة عند العرب** (*Birth and Childhood Among the Arabs*) في هلسنكي. وتفصّل غرانكفست في هذا الكتاب العادات والممارسات التي تسبق الولادة والتي تليها، والرضاعة، وختان الأولاد، وتعليم الأطفال، والألعاب، والمهام المنزلية. وبعد ذلك بثلاث سنوات نشرت كتابها **مشكلات الطفولة عند العرب** (*Child Problems among the Arabs*) في كوبنهاغن. واشتمل هذا الكتاب على معالجة مسائل تسمية الطفل، وصحته، ووفيات الأطفال، والمخاوف الشائعة، والتدابير المتبعة لحماية الأطفال، ومكانة الأطفال لدى عائلاتهم.

أما آخر كتبها فحمل عنوان **الموت والدفن عند المسلمين: العادات والتقاليد العربية في قرية في الأردن** (*Muslim Death and Burial - Arab Customs and Traditions studied in a village in Jordan*) ونشر في هلسنكي في عام 1965. وتناولت غرانكفست في هذا العمل، المرض والاستشفاء والموت والدفن من خلال وصف ممارسات واقعية، وسرد أقوال مأثورة وأغانٍ من أرطاس.

ونشر جُلّ أعمال غرانكفست باللغة الإنكليزية باستثناء مقالة كتبتها بالألمانية عن القصص الشعبية التي روتها نساء أرطاس، وكتاب باللغة السويدية

بعنوان حياة العائلة العربية نشر في عام 1939، وحاز الجائزة الاسكندنافية لترويج الأدبيات العلمية بين العامة.

والتقطت غرانكفست نحو ألف صورة فوتوغرافية خلال عملها الميداني في أرطاس، لم يُنشر منها سوى عدد قليل في المجلد الثاني من كتابها أحوال الزواج في قرية فلسطينية. وكان في نيتها نشر كتاب يعرض صورها الفوتوغرافية، لكنها توفيت قبل إتمام هذا المشروع. ونشر جزء من صورها الفوتوغرافية بعد وفاتها في عام 1981 في كتاب كارن سيغر (Karen Seger) صورة لقرية فلسطينية (*Portrait of a Palestinian Village*) وتعد صور غرانكفست الفوتوغرافية من الصور الإثنوغرافية الأولى من فلسطين التي تصف حياة القرية اليومية، وتوثق عمل المرأة.

خلفيتها الأكاديمية ومشروعها البحثي

حصلت هيلما غرانكفست على شهادة جامعية في التعليم قبل أن تواصل دراساتها العليا في التربية وعلم نفس الطفل والفلسفة. ثم حصلت على درجة الماجستير في الفلسفة من جامعة هلسنكي بإشراف غونَّار لاندتمان (Gunnar Landtman) الذي نصحها بالتركيز على النساء في العهد القديم في بحثها لنيل درجة الدكتوراه. ولهذا قررت غرانكفست توسيع معارفها في علمي اللاهوت والآثار في برلين ولايبزغ قبل أن تغادر إلى القدس للمشاركة في مساق أكاديمي في المعهد البروتستانتي الألماني الذي تغلب فيه الصبغة الآثارية[1].

وفي إطار هذا المساق شاركت في كثير من الجولات في المناطق الريفية المحيطة بالقدس. وحدا بها اطلاعها على الواقع المحلي إلى إعادة النظر في موضوع بحثها، وباتت تعتقد أن عليها البدء بدراسة عن نساء فلسطين المعاصرات. ووجدت في أرطاس ظروفًا مواتية لعملها، كان من أهمها وجود لويز بالدنسبيرغر، وهي امرأة فرنسية مسنَّة عاشت في أرطاس سنوات طويلة؛ فهي ابنة مبشر ألزاسي استقر به المقام في القرية منذ أواسط القرن التاسع عشر،

(1) انظر: Kristi Suolinna, «Hilma Granqvist: A Scholar of the Westermarck School in Its Decline,» *Acta Sociologica*, vol. 43, no. 4 (2000), p. 318.

وعلى الرغم من ذهابه إلى العمل في إحدى المدارس التبشيرية في القدس لاحقًا، فقد كان يقضي نهايات الأسبوع والعطلات هو وعائلته في القرية على مدى عقود عديدة. ولأن لويز ولدت في القدس، فقد كانت تتحدث العربية والإنكليزية والفرنسية بطلاقة، وكانت إلى ذلك تنتمي إلى مجتمع القرية وتتمتع بثقة سكانها.

ولم يطل المقام بغرانكفست في أرطاس قبل أن تحسم أمرها بتغيير موضوع البحث ومنهجه بالكامل؛ فقد أدركت أن دراسة المرأة الفلسطينية لا يمكن إنجازها من دون تحليل المجتمع الفلسطيني كله، ولهذا فقد عزمت على البدء بدراسة إثنوغرافية مستفيضة لقرية أرطاس. وأرادت في بادئ الأمر أن تجعل دراستها دراسة مقارنة، ولكن، كلما طال بها المكث في القرية، ازدادت قناعتها بأفضلية الدراسة المونوغرافية؛ فقد ظنت أن دراسة كهذه «قد تكون تنقيبًا حقيقيًا عن العادات والتقاليد وطرائق التفكير في القرية».

وسعت غرانكفست بكل نشاط إلى تعلم المزيد عن مناهج جديدة في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية؛ كالمنهج الوظيفي على وجه التحديد، ونأت بنفسها بذلك عن التدريب الأولي الذي كانت تلقته. وفي ما بين فترتي عملها الميداني الأوليين (1925-1927 و1930-1931) شاركت في مساق أنثروبولوجي مع إدوارد ويسترمارك في مدرسة لندن للاقتصاد، ومساق في الإثنولوجيا في جامعة لايبزغ في ألمانيا. ثم التحقت في عام 1938 بمساق في لندن مع رايموند فيرث (Raymond Firth) وبرونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) وهما اثنان من أهم من يمثل المدرسة البريطانية الأنثروبولوجية الحديثة.

غرانكفست والدراسات الاستشراقية الكلاسيكية

لو كانت غرانكفست مضت في دراستها للنساء في العهد القديم، لكانت لبت تطلعات عدد كبير من المؤلفين الأوروبيين الذين تناولوا المجتمع الفلسطيني في تلك الأيام. فعلى سبيل المثال، كتب المستشرق الفرنسي غانو (Ganneau) في عام 1880:

«... لم تزل النساء مستودعًا للذكريات القديمة التي ربما كان من العبث أن تطلبها بين الرجال؛ فهن يتخلفن عن أزواجهن حقًا بقرون عديدة... وقد يكون من المثير للغاية تناول بنات كنعان بالبحث العميق، ودراسة عاداتهن المميزة، ورقصاتهن في المآتم، وأغانيهن عند الزواج وفي رثاء الموتى، وتحيزاتهن، وخرافاتهن العجيبة، وأساليبهن المعتادة في التعبير، وأمور أخرى متنوعة، وصولاً إلى أدوات زينتهن التي استنكرها إشعياء كعتاد الوثنية... وللدنوّ من هذه الطائفة الجامحة، لا بد من امرأة؛ فامرأة أوروبية مستعدة للتغلغل في - ما قد أسميه - حرم أفكارهن وعاداتهن من غير عون من ترجمان، كانت لتظفر بغنيمة علمية أثمن بكثير من أي شيء قد يجده المرء في حريم السلاطين المبتذل في إسطنبول والقاهرة».

وتبين كلمات غانو ما يرجوه من المرأة الباحثة: إن عليها أن «تنهب» عالم المرأة «الشرقية» تمامًا كما نهب بعض علماء الآثار الأوروبيين قطعًا أثرية في تلك الحقبة. وعلاقات السلطة بين الباحث و«موضوع» بحثه واضحة بصورة فجّة في كلامه هذا. غير أن نهج غرانكفست كان مختلفًا أيما اختلاف عن توقعات غانو؛ إذ لم يكن لديها تصور راسخ لماهية المرأة «الشرقية»، وأدركت أن الظنون المفترضة حول تخلفهن واضطهادهن تقوضت من خلال الاستماع إليهن يتحدثن عن حياتهن.

وتركت غرانكفست الحياة اليومية في فلسطين تقود بحثها، ونأت بنفسها تدريجيًا عن المناهج التوراتية في تناول الأرض المقدسة. ويظهر هذا جليًا في وصفها مشهدًا من حياة القرية شهدته مع لويز بالدنسبيرغر:

«وفي إحدى نزهاتنا الطويلة، صادفنا على طريق الخليل امرأة من أرطاس تركب حمارًا وفي حُجرها طفل صغير، بينما يمشي زوجها بجانبهما. فهتفت الست لويزا: «انظروا! يوسف ومريم»، والتقطت لهما صورة لتكون برهانًا على أن الرجل الشرقي يمكن أن يكون شهمًا تجاه زوجته».

فحيث رأت لويز بالدنسبيرغر صورة ذكّرتها بشخصيات توراتية، دُهشت هيلما غرانكفست لبادرة هذا الرجل، لتعارضها مع الأحكام الأوروبية المسبق حول النساء العربيات المضطهدات. وعلى الرغم من أن مضيفتها الفرنسية

كانت دليلًا وعونًا لها، إلا أن غرانكفست حافظت على مسافة حاسمة من هذه الرؤية للواقع التي كانت شائعة في مناهج الدراسات الاستشراقية لفلسطين. وقد حددت في كتابها الأخير نطاق دراساتها بكونه «أنثروبولوجيا الفلسطينيين المسلمين»، فبينت بذلك اختلافها، حتى من حيث الدلالة، إزاء أطر البحث الاستشراقي الأخرى.

وانتقدت هيلما غرانكفست الأدبيات السابقة لتعميماتها التي شملت مناطق جغرافية مختلفة وافتقارها إلى الدقة. ورأت أن هذه العيوب تعزى، في الأقل جزئيًا، إلى ما سمته «الخطر التوراتي»؛ أي الربط الذي يفتقر إلى التمحيص بين عادات فلسطين المعاصرة وتلك التي كانت سائدة في الأزمنة التوراتية.

غير أن عملها لم يخلُ تمامًا من النظرة التوراتية؛ فقد كتبت في عام 1947 تقول:

> ليست الحفريات في المواضع القديمة في فلسطين وحدها ذات قيمة، فعادات العرب في أيامنا هذه أيضًا تُبرز الكثير من النظائر للعادات والتقاليد التوراتية، وتوضح الحياة الموصوفة في العهد القديم. وكلما كانت العادات أقدم، كان المكان أجدر بالدراسات الإثنولوجية والأنثروبولوجية. وقد ثبت أن أرطاس كانت خيارًا موفقًا.

ولم تتحرر غرانكفست تمامًا من العناصر الاستشراقية لتدريبها؛ ففي فهرس المجلد الثاني من كتابها أحوال الزواج في قرية فلسطينية تشير غرانكفست إلى أوجه الشبه بين العادات التي لاحظتها، وعادات الناس في العهد القديم. ولهذا ترى العالمة الأنثروبولوجية الهولندية أناليس مورز (Annelies Moors) أن عمل غرانكفست «كتوليفة من النقد والقبول».

منهجيتها

فقدت غرانكفست، بقرارها تغيير موضوع البحث، دعم مشرف أطروحتها. وإلى ذلك، كان في مشروع بحثها الجديد، في الحقيقة، الكثير من الإبداع والتجديد. حتى إنه لم يكن في وسعها الاستناد إلى أيٍّ من الدراسات السابقة

كمثال يحتذى. فقد بادرت إلى خوض بِيْدٍ لم يسبقها إليها أحد من قبل في غير مسلك سلكته، وكان عليها أن تطور منهجيتها الخاصة.

وقررت أن تؤلف بين الملاحظة المشارِكة، وجمع البيانات الإحصائية، والتأويلات الشعبية للخروج بصورة شاملة لحياة الفرد في مجتمع القرية. وعاشت في أرطاس فترات طويلة لكي تنغمس في حياة القرية وتكتسب ثقة سكانها؛ فباتت تعرف بـ «الست حليمة»، وهو اسم لا يزال يتذكرها الناس به في أرطاس حتى يومنا هذا. وتضمن عملها المشاركة في جميع مناحي حياة النساء في القرية، لتغدو تدريجيًا جزءًا منها، وهذا ما استطاعت أن تلاحظه عالمة اللاهوت الأميركية فلورنس فيتش (Florence Fitch) في عام 1930، إذ كتبت تقول:

> كانت تتجاذب أطراف الحديث مع النساء إذا وردن النبع لملء جرارهن، وإذا زرعن، أو عشّبن بساتينهن، أو تجلس على الأرض وهن يخطن. وتمشي بصحبتهن من السوق وإليه في بيت لحم، حيث كن يذهبن لبيع غلالهن من الطماطم والقرنبيط. وكانت دومًا حاضرة عند تزيين العروس لزوجها، وعند كسوة الصبي الصغير ثيابًا زاهية ليوم ختانه. وكانت مع الأم في مخاضها عند ولادة طفلها الأول. وكانت تتبع الأم الثكلى إلى القبر حيث دفن ابنها الصغير. ودعتها نساء أرطاس «أختًا»، وأطلقن عليها اسم «ست حليمة». واسم حليمة لا يختلف كثيرًا عن هيلما، وهو ذو دلالات مقدسة عند المسلمين؛ وهذا ما بلغه إجلالهم إياها.

وبتركيزها على قرية واحدة، نأت غرانكفست بنفسها عن المنهج المقارن الذي كان في تلك الفترة في بداية تعرضه للتشكيك شيئًا فشيئًا من المدرسة الأنثروبولوجية الوظيفية. وفي الفصل الذي تناولت فيه المنهجية، ساقت مسوغات اختيارها الدراسة الأحادية على الدراسة المقارنة، مستلهمة كتابات مالينوفسكي على نحو متكرر. غير أنه، وعلى الرغم من نبذها المتعمد للمقارنات والتعميمات في المتن، إلا أن حواشيها تحوي بعض المقارنات.

وعلى الرغم من أن هجرها المنهج المقارن لم يكن كاملًا، إلا أن نزعتها

إلى المدرسة الأنثروبولوجية الوظيفية بدت واضحة؛ إذ تأثرت على نحو خاص بأعمال و. هـ. ر. ريفرز الذي كان طوّر منهج علم الأنساب. وقد رأى ريفرز أن هذا المنهج هو السبيل للوصول إلى مستودع المعلومات التي تراكمها المجتمعات كلها وتحيط بها علمًا، ثم استخدامها أساسًا للدراسة الأنثروبولوجية.

وكانت «لجنة البحث»، المؤلفة من لويز بالدنسبيرغر وامرأتين من القرية هما عليا إبراهيم وحمدية سند، أحد أهم عناصر دراسة غرانكفست. وكانت غرانكفست تطلب من مخبرتيها تفسير العادات والتقاليد التي كانت تلاحظها على الدوام «كي لا تضفي على الأحداث تفسيرات أوروبية، أو وجهات نظر أو دوافع غريبة عن سكان القرية». وقد أتيحت الفرصة لفلورنس فيتش بمشاهدة «لجنة بحث» غرانكفست في أثناء عملها، فقد كتبت تقول:

> استخدمت غرفة المعيشة الصغيرة في منزل الآنسة بالدنسبيرغر كغرفة دراسة، وعملت كل من عليا وحمدية، وهما امرأتان قرويتان اختيرتا بعناية، كمساعدتين. ولربما أتت إحداهما بعد الفطور بقليل، ليبدأ عمل اليوم الجاد بعد التحيات الصباحية المعتادة؛ فتجلس الآنستان بالدنسبيرغر وغرانكفست إلى الطاولة وتسألان الأسئلة لتجيب عنها المرأتان العربيتان، فتكتب الآنسة بالدنسبيرغر ما تقوله المرأة كتابة صوتية، وكذلك تفعل الآنسة غرانكفست. ولربما تحدثت عن خِطبة جرت عصر الأمس، أو عن قريب يسكن قرية أخرى جاء لزيارة بعض الجيران. [...] أو ربما استأنفت موضوع أشجار العائلات في أرطاس الذي لا ينتهي أبدًا. [...]. وكان من دقة الآنسة غرانكفست، أنها لم تكن لتقبل بمادة قبل أن تسمعها من ثلاثة أشخاص مختلفين في وقتين مختلفين، على ألا يجتمع اثنان من هؤلاء في آن.

وعلى الرغم من أن غرانكفست فقدت دعم مشرف أطروحتها، إلا أنها تمكنت من إحاطة نفسها بأناس أعانوها وقدموا لها النصح. فإضافةً إلى أساتذتها الأوروبيين كإدوارد ويسترمارك، عرفت المختص بالفلكلور الفلسطيني توفيق كنعان وتبادلت معه الآراء حول عملها. وإلى ذلك، أفادت من مساعدة معلمين محليين مثل إلياس حداد وإبراهيم عطا وجودي دوكماك (Judy Docmac).

التمييز بين النظرية والتطبيق من وجهة نظر نسائية

اختارت غرانكفست متعمدة العمل من وجهة نظر النساء؛ وكان ذلك هو السبيل الوحيد الممكن للاندماج في مجتمع القرية الذي يتشدد في الفصل بين الجنسين[2]. وعلى أي حال، فقد رأت غرانكفست أن النساء كن أفضل من الرجال في رواية الأخبار والأحاديث لاهتمامهن الكبير بالتفاصيل، ولأنهن كن أقل تأثرًا بالعناصر الغريبة عن ثقافتهن من الرجال إلى حد ما؛ فكلما وصفت ممارسة اجتماعية أو عادة ما، كانت تفضل أن تدع نساء القرية يفسرنها على أن تقدم تفسيرها أو تأويلها هي. ومن منظورها هي، كان لاعتمادها على النساء كمخبرات، أثر مهم في طبيعة دراساتها الأحادية:

> «واتخذ بحثي طابعه هذا، في الغالب، لأنني حزت جل مادته من النساء. ومع ذلك، لا ينبغي أن ينتظر المرء أن يجد فيه ما يبين أحوالهن، من سعادة أو شقاء. ولا شك في أنهن يشعرن بوطأة أعبائهن أحيانًا، ويتفق معهن الفلاحون (الرجال) في ذلك، لكنهن، بوجه عام، أكثر واقعية من أن ينغمسن في تدبر خواطرهن وتحليلها. وأقل شكواهن كانت من الرجال، وكن يتندرن بكثير من جوانب حياتهن الأخرى التي نراها نحن مثيرة للأسى، كتعدد الزوجات مثلًا، وهذا يبعث على الراحة والسرور، إزاء ما اعتدنا عليه من تذمر الغربيين من اضطهاد النساء في الشرق».

واستمعت غرانكفست بحرص لمخبرتيها. ونتيجة لذلك، هي لا تعرض صورة متناغمة لمجتمع القرية؛ وإنما تظهر، وعلى نحو متكرر، مرونةً عند الناس، بل وحتى تناقضًا في سلوكهم في الواقع. وتؤكد الاختلاف بين النظرية والتطبيق، والذي يظهر جليًا في كثير من شؤون الحياة في أرطاس، كما هي الحال في اختيار الزوجة على سبيل المثال؛ فبينما تشدق الرجال بشدة ميلهم إلى زواج امرأة من أرطاس، ولا سيما من بنات عمومتهم، نجد في الواقع أن نصف الزيجات التي دونتها غرانكفست كانت بين رجال من أرطاس ونساء من أماكن أخرى.

---

(2) المصدر نفسه، ص 319.

تقدير أعمال غرانكفست ورفضها، ونهضتها

كان بعد وفاة غرانكفست أن أُقر على نطاق واسع ما امتاز به عملها من الريادة والإبداع في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية. فكما ذكرت سابقًا، رفضت جامعة هلسنكي أطروحتها للدكتوراه في عام 1930، ولم يقبل بها سوى جامعة أكاديمية أوبو الخاصة في عام 1931. فكيف يمكن تفسير هذا الرفض؟

إن للإجابة عن هذا السؤال عناصر عديدة؛ أولًا، كان للاستشراق في فنلندا أثره في معظم الفروع الأكاديمية المتعلقة ببحث غرانكفست. وبما تنطوي عليه أعمالها من دلالات، تفند غرانكفست المبادئ الأساسية للاستشراق، وإن لم يكن انسلاخها عن هذا المنهج تامًّا. وخلافًا لزملائها، لم تُضْفِ منظورًا توراتيًا على المجتمع الفلسطيني لمحاولة العثور على آثار سرمدية للحياة في العهد القديم، بل تناولت هذا المجتمع كما كان في الفترة التي درسته فيها.

ثانيًا، واجهت غرانكفست بعض العقبات التي لم يكن لها أي صلة بعملها أو منهجها. فإضافةً إلى كونها امرأة، ربما كان لعاملين آخرين شأن في عرقلة مسيرة عمل غرانكفست؛ ففي الثلاثينات، كان يعيبها أن تكون فنلندية ناطقة بالسويدية، إذ كانت الجامعات الفنلندية مضطرة للإقلال في تعيين الناطقين بالسويدية في محيط من تنامي القومية الفنلندية، وشح الموارد المادية للبحث العلمي.

ثالثًا، لم ينسجم منهج غرانكفست تمامًا مع أيٍّ من الفروع الأكاديمية المعروفة التي ربما كان لها صلة ببحثها (علم الاجتماع، الفلسفة الاجتماعية والأخلاقية، والاستشراق الكلاسيكي)[3]. وفي إطار الأنثروبولوجيا، نأت غرانكفست بنفسها عن المنهج المقارن، ومالت إلى المنهج الوظيفي، من غير أن تتبع التوجه السائد للمدرسة الوظيفية آنذاك من دراسة المجموعات الإثنية والقبائل.

---

(3) انظر: Riina Isotalo, «Edward Westermarck and Hilma Granqvist in the Field of Orientalist Discourse in Finland,» *Third Nordic Conference on Middle Eastern Studies*, Joensuu, Finland, June 1995.

ومع ذلك، فقد اعترف بعض علماء الأنثروبولوجيا البارزين بالفضل العظيم لعمل غرانكفست؛ ففي نقد لكتابها **أحوال الزواج في قرية فلسطينية**، كتب إدوارد إ. إيفانز - برتشارد (Edward E. Evans-Pritchard) في عام 1937 يقول:

«ليس من السهل أن يوفي المرء كتاب الآنسة غرانكفست حقه من الثناء؛ فقدرتها على الوصف واستخدام النصوص فائقة، ومادتها الإحصائية منظمة بشكل جيد. وأساليب عملها الميداني لم يتفوق عليها أحد من علماء الأنثروبولوجيا. وتُبرز بوضوح في تدوينها لمادتها كيف تؤثر القواعد الرسمية والممارسة الفعلية بعضها في بعض، وكذلك العلاقات بين سلوك الفرد والبنية الاجتماعية. وعرّفت العلاقات الاجتماعية المتبادلة وشرحتها بإسهاب كبير. وفسرت القواعد الاجتماعية بكلمات مخبرتيها، وكذلك بالاستشهاد بفيض من المواقف الواقعية التي استدعت تطبيقها. وإلى ذلك، فإن هذه الدراسة لا تقتصر على طقوس الزواج، أو حتى على علاقات الزواج، بل تعالج أحوال العائلة وعلاقات ذوي القربى بوجه عام. وينبغي أن نهنئ المؤلفة على عملها المتميز».

وأشادت مارغريت ميد بمنهج غرانكفست التحليلي في نقد لكتابيها **الولادة والطفولة عند العرب ومشاكل الطفولة عند العرب**، نشر في عام 1951:

«تناولت غرانكفست المادة ونظمتها تبعًا لأهمية فهم شيء عن حياة النساء والأطفال من دون الاستعانة بأيٍّ من أدوات التحليل النفسي... وإخلاص عالمة الإثنولوجيا لمادتها، وغزارة الأمثلة، والتعليق المنقول حرفيًا، يجعل من الممكن استخدام هذا الكتاب في تفسير أنواع أخرى من البيانات حول الثقافة العربية».

وعلى الرغم من هذا التقدير، لم تحصل غرانكفست قط على وظيفة في الأوساط الأكاديمية. واعتاشت من خلال كتابة مقالات لمجلة **سومن كوفالتي** (*Suomen Kuvalehti*) الفنلندية. ويعد أرشيفها الشخصي الذي يحوي مدوناتها بالسويدية والإنكليزية والألمانية والعربية والفرنسية شاهدًا على حياة علمية كُرست للبحث في فلسطين. وبعد وفاتها في عام 1972 منحت مدوناتها إلى

صندوق استكشاف فلسطين (*Palestine Exploration Fund*) في لندن ونظمها العالمان الأنثروبولوجيان شيلا وير (Shelagh Weir) وإيمانويل ماركس (Emanuel Marx).

وتعود نهضة عمل غرانكفست في ثمانينات القرن الماضي إلى التقاء تطورات مختلفة؛ **أولًا**، لم يكن نقد إدوارد سعيد للاستشراق بداية لإعادة تقويم نقدي للكتابات الاستشراقية وحسب، بل كذلك تلك الكتابات التي تميزت باختلافها في وقت كان فيه الخطاب الاستشراقي هو السائد. **ثانيًا**، منذ ثمانينيات القرن الماضي، حول علماء الاجتماع والمؤرخون اهتمامهم إلى الفترة السابقة لنكبة عام 1948، وهي الفترة التي قدمت فيها غرانكفست دراسة لا نظير لها عن المجتمع الريفي. **ثالثًا**، عد الباحثون في فروع أكاديمية مستحدثة، وهي دراسات المرأة ودراسات الجنوسة (Gender Studies)، عمل غرانكفست بحثًا رائدًا، وكانت هذه الفروع برزت تدريجيًا في جامعات أنكلوسكسونية واسكندنافية في ثمانينيات القرن الماضي.

وبالنسبة إلى هؤلاء الباحثين، شكل أسلوب غرانكفست في العمل من وجهة نظر أنثوية مثالًا مبكرًا ورائدًا حقًا على بحث ذي حساسية تجاه قضايا الجنوسة. وعزا الباحثون، في الوقت نفسه، رفض عملها إلى أنها امرأة تجرأت على التشكيك بالمنهج الاستشراقي الذي صاغ الرجال جلّه. وفي نهاية التسعينيات، تأسست في فنلندا شبكة أكاديمية عالمية، أطلق عليها اسم شبكة حليمة الشمالية لدراسة الجنوسة والمجتمع في الشرق الأوسط (*Halima Nordic Network for Research on Gender and Society in the Middle East*) تقديرًا لهيلما غرانكفست. وشاركت هذه الشبكة في رعاية مؤتمر دولي عن الجنوسة والمجتمع في الشرق الأوسط في بلدة بيت جالا في عام 1997، وحمل المؤتمر عنوان «على خطى هيلما غرانكفست»، وضم باحثين فلسطينيين وأوروبيين ممن ألهمهم عمل غرانكفست في أبحاثهم الخاصة.

عمل غرانكفست في الإطارين الزمني والمكاني:

أرطاس في بداية القرن العشرين

كان أحد أهم أسباب اختيار غرانكفست لأرطاس وجود لويز بالدنسبيرغر

فيها، لكن ثمة عوامل أخرى جعلت من القرية خيارًا متميزًا لها؛ فتاريخ القرية الحديث والقديم جعلها في الواقع مرصدًا مثاليًا للحياة الأسرية والاجتماعية.

يعتقد أن اسم القرية مشتق من اللاتينية *hortus conclusus* ويعني «حديقة مغلقة»، وقد عد إشارة إلى حدائق استجمام الملك سليمان. وبنقله إلى العربية، يصبح الاسم «الجنة المقفلة» ويمكن أن يفهم هذا كإشارة إلى حديقة مغلقة أو جنة مغلقة. ويعزز وجود الماء بغزارة، المزاعم القائلة إن وادي أرطاس هو موضع حدائق سليمان المسماة عيطام. وتقع القرية بالقرب من منطقة جبلية غنية بعيون الماء، وتتاخمها ثلاث برك كبيرة تسمى «برك سليمان» بنيت اثنتان منها في عهد الملك هيرود لتجميع الماء للقدس. وتعزى مكانة أرطاس الخاصة في أثناء الحكم الروماني، والبيزنطي، والإسلامي، والصليبي، والمملوكي، والعثماني، إلى صلة القربى بالبنية التحتية المائية للقدس. وقد تركت هذه الفترات التاريخية جميعها آثارها على «المشهد الحضاري» للقرية، و«تاريخها المميز» متغلغل في تراثها.

وبحسب التأريخ الشفوي، كان هناك جانب سلبي للمكانة المميزة التي تمتع بها سكان أرطاس؛ إذ جلب عليهم ذلك نزاعات وعداوات مع القرى المجاورة. وبوجوه كالحة، قالت لي نساء من أرطاس كنت التقيت بهن في عمّان عام 2006 «ذبحت أرطاس سبع مرات». ووقعت أعمال العنف هذه في ما يبدو خلال العهد العثماني بين القرن السابع عشر وأواسط القرن التاسع عشر، ولكن من الصعب تحديد تسلسل هذه الأحداث ومعرفة تفاصيلها الدقيقة.

وفي ما يتعلق ببحث غرانكفست، فقد تزامنت بداية ذاكرة الأنساب التي رسمتها في معرض دراستها للزواج مع الفترة التي استعاد فيها القرويون بيوتهم أخيرًا، بعد سنوات من العيش في الكهوف المجاورة، وفي قلعة البرك القريبة. وارتبطت عودتهم جزئيًا على الأقل بنشوء مستوطنة لأوروبيين وأميركيين من أتباع الديانة المسيحية الميلرية في وادي أرطاس. وفي الواقع، فقد دفع مؤسس هذه المستوطنة جون ميشولام دية كان يدين بها أهل أرطاس لإحدى الجماعات المجاورة (ربما التعامرة) مقابل الحق في استئجار قطعة أرض كبيرة

في الوادي. وبعد دفع الدية، أعاد القرويون بناء بيوتهم، بعد أن مكثوا على مقربة منها، يزرعون أراضيهم خلال فترة تهجيرهم.

وقد وجدت غرانكفست في أرطاس مجتمعًا خاض تجربة التهجير، ومع ذلك حافظ على روابط قوية. ومن الواضح أن مجتمعًا كهذا هو أكثر ميلًا من غيره من مجتمعات القرى الأخرى إلى الاهتمام بذاكرة الأنساب اهتمامًا بالغًا. ويسري هذا على قرويي أرطاس حتى يومنا هذا، بوجود نصفهم خارج فلسطين نتيجة لحرب عام 1967؛ فلا يزال عدد كبير من الرطاسنة (أهالي أرطاس) القاطنين في عمّان يحافظون على صلات مهمة مع قريتهم، بما في ذلك صلات الزواج كوسيلة للمحافظة على أنساب القرية وهويتها. ولهؤلاء المهجرين، ثمة دلالات خاصة للتاريخ الشفوي المتعلق بالمجازر السبع التي قاسى منها أجدادهم، ولعودتهم العتيدة، فهم لا ينفكون يأملون بعودة إلى بيوتهم في نهاية المطاف.

وعرضت غرانكفست لنفحات من تاريخ القرية في الفصل الأول من المجلد الأول من كتاب أحوال الزواج في قرية فلسطينية، لكنها أحالت جُلَّه إلى الحواشي. كما أنها أغفلت وبشكل كامل تقريبًا الأحداث التاريخية الذي تزامنت مع الفترة التي أجرت فيها عملها الميداني، ولا سيما تأثير سياسات الانتداب البريطاني وإجراءاته.

وعندما جاءت غرانكفست إلى أرطاس للمرة الأولى في عام 1925، كان يسكن القرية ست عشرة أسرة، أي ما يعادل نحو مئتي شخص[4]. وأصبحت القرية ما بين عامي 1925 و1926 موضع نزاع مهم حول الموارد المائية بين حكومة الانتداب من جهة، والقرويين من جهة أخرى، تساندهم في قضيتهم اللجنة التنفيذية العربية. فقد قررت الحكومة تحويل مياه النبع الرئيس للقرية؛ أي عين أرطاس، إلى القدس لمدة سنة واحدة، بعد موجة جفاف قاسية كان

(4) انظر: نظمي الجُبعة، المشهد الحضاري في أرطاس (رام الله: مركز المعمار الشعبي - رواق، 2000)، ص 65. تعود هذه الأرقام إلى عام 1913.

لها أثرها في موارد المدينة المائية. وتقدم سكان القرية بالتماس إلى المحكمة العليا في فلسطين، ثم رفعت القضية إلى مجلس شورى الملك الخاص في لندن، وهو أعلى هيئة قضائية في بريطانيا، حيث نطق المجلس بحكمه لمصلحة الحكومة.

وكان لهذا القرار أثر بالغ في القرويين؛ فهم لم يعتمدوا على مياه النبع في معيشتهم فحسب، بل كذلك في إنتاجهم الزراعي، والذي كان أساس وجودهم. وأكدت اللجنة التنفيذية العربية الداعمة للقرويين الطبيعة العنصرية لهذا الحكم الذي كان يرمي إلى توفير كميات كافية من المياه للقدس، ليس لحاجات سكانها الحيوية فحسب، بل أيضًا للنشاط العمراني المسعور بغية استيعاب حركة الهجرة اليهودية. ولذلك، فقد كان الصراع حول تحويل مياه عين أرطاس أكبر بكثير من محض خلاف محلي، فكما قال المؤرخ الفرنسي فنسان لومير، كانت تلك هي الإشارة الأولى لنشوء الوعي الفلسطيني المتعلق بالسياسات المائية، وبالتالي فهي متصلة أساسًا بقضية الوعي القومي الفلسطيني[5].

ولم تأتِ غرانكفست على ذكر ذلك في دراساتها الأحادية البتة. فبينما تذكر فقر القرويين وقلة الإمكانات المتاحة لهم للتعليم، تبقى دراساتها عن حياة القرية بمعزل عن الشؤون الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية، كما هي حال جل الأدبيات عن المجتمع الفلسطيني في تلك الفترة. وعلى أي حال، لا تنتقص هذه السمة للكتابات الأنثروبولوجية والفلكلورية عن فلسطين، والموروثة عن المناهج التوراتية والاستشراقية، من أهميتها كمصدر للتاريخ الاجتماعي والحضاري، كما أنها لا تقلل من أهميتها في الحفاظ على التراث المعنوي.

أهمية عمل غرانكفست من وجهة نظر محلية

لم تكتب هيلما غرانكفست لأولئك الذين وصفت حياتهم؛ وإنما كتبت في الغالب، كما فعل جميع علماء الأنثروبولوجيا في عصرها، للقارئ الأوروبي

---

(5) انظر: *Vincent Lemire, «The Awakening of Palestinian Hydropolitical Consciousness: The Artas-Jerusalem Water Conflict of 1925,» Jerusalem Quarterly*, no. 48 (2012), pp. 31-52.

المهتم بالمجتمعات العربية، أو بالأرض المقدسة. ولم يخطر لها أن عملها كان سيحظى يومًا بهذه المكانة الرفيعة في أرطاس أو في فلسطين بوجه عام. وكما قال أحد مؤسسي حركة الفلكلور الفلسطيني الحديثة وهو عالم الأنثروبولوجيا شريف كناعنة:

«إن عمل هيلما غرانكسفت بين الفلسطينيين [...] كان، إلى حد ما تنبُّئيًا؛ فقد كان مفصلًا، وشاملًا، ودقيقًا، وصادقًا بما يكفي ليبعث في المرء إحساسًا بأنها عرفت أن الفلسطينيين سيحتاجون يومًا ما إلى اللجوء إلى فلكلورهم وتراثهم الشعبي. وها قد جاء ذلك اليوم؛ فالفلسطينيون اليوم هم على الأرجح أكثر شعوب الأرض قلقًا على مصيرهم، لأنهم يواجهون ظروفًا تهدد هويتهم ووجودهم».

ومن منظور حركة الفلكلور الفلسطيني، تعاظمت أهمية عمل غرانكفست، وبصورة مأساوية، نتيجة للنكبة الفلسطينية؛ فهي ببساطة توثق أسلوب حياة لم يستسلم لنمط التطور الطبيعي لأي مجتمع آخر، ولكن كان عليه أن يصمد في وجه الاعتداءات المستمرة للنظام الاستعماري الإسرائيلي الساعي بجهد حثيث لمصادرة ممتلكات المجتمع الفلسطيني، وتغريبه، وتقطيع أوصاله. ويشكل عمل غرانكفست أكثر السجلات تفصيلًا للممارسات الاجتماعية والثقافية للفلاحين الفلسطينيين، والذين يمثلون لحركة الفلكلور الفلسطيني، رمز تجذُّر الشعب الفلسطيني في أرضه.

وفي أرطاس نفسها، أعيد دمج المعرفة الإثنوغرافية التي أنتجتها غرانكفست ولجنة بحثها في الموروث المحلي، واستخدمت وسيلةً لتمكين القرويين من خلال عمل مركز أرطاس للتراث الشعبي الفلسطيني. وقد كان لمؤسس هذا المركز، موسى سند (1949-2005) اليد الطولى في هذه العملية. وكان موسى سند معلمًا، كما أنه ابن أخي حمدية سند، وهي إحدى مخبرتي غرانكفست الرئيستين. وعرف بين الباحثين «كمؤرخ أرطاس»، وفي المؤسسات المحلية والمنظمات الدولية كأحد أنشط مشجعي التنمية المستدامة لقريته.

وقد قال عن نفسه إن حياته تغيرت بالكامل عندما التقى في عام 1972 غريبًا في القرية، فسأله هذا عن اسمه، ثم أراه شجرة عائلته في كتاب غرانكفست أحوال الزواج، فشعر بالخجل من أن يعرف غريب عن قريته أكثر مما يعرف هو. ومنذ ذلك اليوم بدأ يسأل كبار السن في القرية أن يخبروه بكل ما يعرفون عن تاريخهم، ودوّن ذلك كله. كما عزم على إدامة تحديث أشجار العائلات، فطلب من تلاميذه في مدرسة القرية إبلاغه بأي واقعة زواج أو ولادة أو وفاة في القرية.

وعندما تقاعد في عام 1993، أسس مركز أرطاس للتراث الشعبي الفلسطيني بمساعدة ودعم من مجلس إدارة ضم عددًا من أهم أعضاء حركة الفلكلور الفلسطيني، من بينهم سميحة خليل والأستاذ الدكتور شريف كناعنة. ومنذ تأسيسه، كان للمركز نشاط كبير في الحفاظ على التراث وتعزيزه، والسياحة البديلة والتنمية المستدامة. ونظم المركز مهرجانات الفلكلور السنوية التي جذبت اهتمام الزائرين من أنحاء فلسطين كافة. ويشمل المركز متحف أرطاس الإثنوغرافي، القائم في أحد المباني التاريخية في قلب القرية التاريخي. وكأن موسى سند، باختياره هذا الاسم للمتحف، قد نسبه إلى عمل غرانكفست. وقال موسى سند في غرانكفست، ذاكرًا إياها بالاسم الذي أطلقه عليها القرويون: «ساعدتنا الست حليمة في الحفاظ على ثقافتنا وتاريخنا، وأقل ما يمكنني فعله هو الحفاظ على ذكراها، والاعتناء بتراثنا الفلسطيني قدر المستطاع».

خاتمة

لقد أتاحت غرانكفست للناس الذين درست حياتهم الحديث عن أنفسهم، في وقت كان فيه علماء الأنثروبولوجيا لا يزالون يتحدثون نيابة عنهم. وتعد دراساتها الأحادية شواهد للحياة اليومية للقرويين الفلسطينيين في زمن كان ينظر فيه إلى فلسطين في الغالب من منظور توراتي أو استشراقي. ومن أبرز ما يثير الانتباه هو أن غرانكفست استطاعت أن تنأى بنفسها عن المنهج التوراتي في مكان زاخر بالقرائن التوراتية كوادي أرطاس. ومع أنها لم تولِ التحولات

التاريخية المؤثرة في حياة أرطاس في تلك الفترة اهتمامًا كافيًا، إلا أنها لم تعرض مجتمع القرية كمجتمع عصي على التغيير، بل أبرزت التعقيدات والتناقضات في الممارسات الاجتماعية والثقافية التي غالبًا ما كانت تحجب في كتابات المستشرقين الباحثين عن «الشرق الخالد». ومن خلال إتاحة الفرصة لأهل أرطاس للحديث عن أنفسهم، تركت غرانكفست لهم ولأهل فلسطين تراثًا مكينًا.

فلسطين نايلي
أستاذة وباحثة أنثروبولوجية – جامعة باريس
باحثة مشاركة – المعهد الفرنسي للشرق الأدنى

Falestin Naili
Postdoctoral researcher - Université de Paris-Est Marne-la-Vallée
Chercheure associée - Institut français du Proche-Orient

قائمة المراجع

الجُبعة، نظمي. المشهد الحضاري في أرطاس. رام الله: مركز المعمار الشعبي – رواق، 2000.

Fitch, Florence Mary. «An A.A.U.W. Fellow in Palestine.» *A.A.U.W. Journal*: 1930.

Isotalo, Riina. «Edward Westermarck and Hilma Granqvist in the Field of Orientalist Discourse in Finland.» *Third Nordic Conference on Middle Eastern Studies*, Joensuu, Finland, June 1995.

Lemire, Vincent. «The Awakening of Palestinian Hydropolitical Consciousness: The Artas-Jerusalem Water Conflict of 1925.» *Jerusalem Quarterly*: no. 48, 2012.

Suolinna, Kristi. «Hilma Granqvist: A Scholar of the Westermarck School in Its Decline.» *Acta Sociologica*: vol. 43, no. 4, 2000.

المقدمة

وصلتُ إلى القدس في الثاني عشر من شهر آب/ أغسطس من عام 1925، لأستكمل دراستي في مبحث كنت قد اشتغلت فيه سنوات عديدة حتى ذلك الحين، يعنى بمسألة النساء في العهد القديم. وكل من أعار هذه المسألة أي اهتمام، يعرف أن المعلومات المتاحة لدراستها عرضية ومشتتة؛ فنحن نتعرف إلى عدد كبير من النساء المتميزات، المثيرات للاهتمام، في العهد القديم، لكننا لا نكاد نجد فيه شيئًا عن أحوال نساء إسرائيل بوجه عام. وقد اتضح لي، في أثناء عملي، أنه لا يمكن الحصول على نتائج مرضية عن هؤلاء النساء، إذا ما اقتصر البحث على المصادر الأدبية في المكتبات الأوروبية، وبات يحدوني الأمل بأن تتيح لي مراقبة الحياة والأحوال في الأراضي المقدسة المزيد من الفهم للمشكلات المتعلقة بالنساء، وتقديم تصور آخر عنهن، وأن تمكنني من الانغماس في البحث والتعمق فيه[1].

وقد أفدت من فرصة المشاركة في المساق الذي أداره البروفيسور أ. ألت (A. Alt)، في الخريف نفسه (من شهر آب/ أغسطس حتى شهر تشرين أول/ أكتوبر)، في المعهد الألماني البروتستانتي لدراسة آثار البلاد المقدسة في القدس (Deutsches evangelisches Institut für Altertumswissenchaft des Heiligen Landes). ومع أن المساق كان ذا صبغة آثارية بطبيعته، فإنه تضمن مقدمة ممتازة عن المشكلات العامة المعاصرة المتعلقة بالبحث في فلسطين.

---

(1) يقول دلمان (Dalman) في كتابه: Gustaf Dalman, *Palästinischer Divan* (Leipzig: J. C. Hinrichs, 1901), p. V,

«إن دراسة العادات الشعبية الفلسطينية هي خير وسيلة توضيحية تستعين بها الأبحاث التوراتية».

ولو كنت اكتفيت بمشاركتي في مثل هذا المساق الدراسي، لتمسكت بمبحثي الأصلي عن النساء في العهد القديم؛ فخلال رحلات المساق الاستكشافية المتكررة للبلاد، على ظهور الخيل أو بالسيارات، أدركت أنني كنت في ذلك المكان حيث يمكنني رؤية الكثير مما يتعلق بالنساء وملاحظته، فاستكملت صورة حياة النساء في العهد القديم، إلا أنه لم يكن بوسعي الحصول على حقائق جديدة ذات قيمة موضوعية فعلية، تخرج عن نطاق ما كان معروفًا من قبل، إلا ببحث منهجي مستقل في حياة النساء. وكان لاطلاعي على طبيعة مناطق مختلفة من البلاد وحياتها، قبل أن أحصر اهتمامي في مهمتي الخاصة، أهمية بالغة، لكنني كنت في حاجة إلى أكثر مما أمكن رؤيته وملاحظته في أثناء رحلاتي؛ فقد كان يلزمني أن أعيش بين الناس، وأسمعهم يتحدثون عن أنفسهم، وأدوّن أحاديثهم عن حياتهم، وعاداتهم، ونظرتهم إلى الأشياء. لهذا قررت أن أبقى في فلسطين بعد نهاية المساق، ولما كانت الظروف مواتية بشكل خاص في «أرطاس»، وهي قرية عربية مسلمة تقع إلى الجنوب من بيت لحم على أطراف صحراء اليهودية [يقصد بها جنوب الضفة الغربية]، فقد قررت أن أبدأ هناك الدراسات الفلكلورية الضرورية لعملي.

الفصل الأول

عن منهج البحث(*)

لم يطل بي المقام في قرية أرطاس، حتى عزمت على تغيير خطة عملي بالكامل.

خلال تجوالي في هذه القرية، صادفت نساءً كن زوجاتٍ لرجال متعددي الزوجات، وتبين أنه كانت لإحداهن ضُرَّة، لحاجة البيت إلى عاملة، ولم يكن من عادتهم آنذاك الاستعانة بالخادمات. وكانت هناك امرأة أخرى اتخذت لنفسها ضُرة؛ لأنها لم تنجب ولدًا، فإن توفي زوجها، استولى أقاربه على البيت، مما سيلزمها بتركه؛ إذ لا ولد لها يبرر بقاءها فيه؛ لذا اضطرت، لضمان بقائها في البيت، أن تعرض على زوجها الزواج بأخرى، ثم أصرت على ذلك على الرغم من اعتراضه في البداية؛ فكانت لدينا ههنا أمثلة صريحة على مزايا تعدد الزوجات في ظل بعض الظروف الاجتماعية. ودفعني عثوري على هذه الشواهد الواقعية الملموسة إلى انتهاج منهج جديد، وتساءلت: ألا ينبغي على الباحث أن يفهم المجتمع الفلسطيني أولًا، لكي يفهم حياة المرأة وأحوالها في

(*) عمدت المترجمتان إلى توضيح العلاقة بين أسماء الأشخاص المذكورة في الكتاب (ابن/ابنة/أخ/أخت) بصورة بيِّنة، فكتبتا الاسم كاملًا تيسيرًا على القارئ العربي من الدخول في متاهات الأرقام، وإضافة الرقم الوارد في أشجار الأنساب بين قوسين معقوفين، التزامًا منهما بمنهج غرانكفست الأنثروبولوجي الذي يعتمد في بنائه على أشجار الأنساب. فعلى سبيل المثال، يرد الاسم «عليا» في الترجمة العربية على النحو الآتي: عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) وليس بصيغة عليا (ابنة [1]) كما هي الحال في الأصل الإنكليزي [المحرر].

فلسطين فهمًا تامًا؟! فهناك قوانين وضوابط تحكمه، وأواصر تربط بعضه ببعضه الآخر، إن أدركنا كنهها، فإنها ستمنحنا رؤية جديدة، وتفسيرًا آخر لحياة النساء. ولكن هذا يتطلب أمورًا أخرى كثيرة، ولا يتحقق بمجرد البحث في الوقائع ذات الصلة المباشرة فحسب. وهكذا عقدت العزم على ترك دراستي، وهي المرأة في العهد القديم حتى حين، وأن أدرس مجتمع قريتي الصغيرة بصورة شاملة قدر المستطاع[1]. ونتيجة لذلك، كان عليَّ أن أقيم بأرطاس لفترة طويلة. وعلى الرغم من أنني مكثت في البلاد حتى نهاية شهر آذار/مارس من عام 1927، أي نحو عشرين شهرًا، فإنني لم أقض منها خارج أرطاس سوى شهر واحد أمضيته في نابلس في بحث منهجي مباشر عن الفلكلور[2]. أما رحلاتي اليومية القصيرة، إلى المناطق المجاورة من حين إلى آخر، فقد كانت، في المقام الأول، بغرض الاطلاع على ظروف مهمة لفهم حياة القرية في أرطاس، والتثبت في حينه من صحة المعلومات التي حصلت عليها هناك. وقد كانت خطتي تتضمن الانتقال إلى أماكن أخرى، حال «انتهائي» من جمع المعلومات ودراسة الحياة بأرطاس.

ولكن لم يتسن لي تحقيق ذلك خلال فترة إقامتي الأولى في فلسطين؛

(1) أقنعتني الحقائق أن من الخطأ عزل عادة ما ودراستها على حدة، عوضًا من محاولة دراسة الظواهر جميعها بشكل موسع ومتساو قدر المستطاع، وتحديد الصلات في ما بينها. وهكذا، توصلت، بطريقة عملية بحتة إلى رؤية مشابهة لتلك التي توصل إليها برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) في كتابه: Bronislaw Malinowski, *Argonauts of the Western Pacific* (London: E. P. Dutton and Co, 1922), p. 11,

«على الباحث الإثنولوجي الميداني أن يحيط بجد ووعي بالنطاق الكامل للظواهر المتعلقة بكل جانب من جوانب الثقافة القبلية التي يدرسها... فعالِم الإثنولوجيا الذي ينوي دراسة الدين فحسب، أو التكنولوجيا فحسب، أو التنظيم الاجتماعي فحسب، إنما يقتطع لنفسه مجالًا مصطنعًا للدراسة، وسيواجه عوائق أساسية في طريق عمله».

(2) يضاف إلى ذلك، ما سبقت الإشارة إليه من مشاركتي في المساق الدراسي في خريف عام 1925 في المعهد الألماني الفلسطيني في القدس. كما أتاح لي مساق دراسي مشابه في عام 1926 فرصًا أخرى للقيام بجولات استكشافية طويلة، ورؤية قرى ونواح مختلفة من البلاد، وإجراء بعض المقارنات. لكن، وكما كانت عليه الحال في السنة السابقة، لم يكن ليتسنى لي دراسة الفلكلور بالمعنى الحقيقي للكلمة خلال هذه الجولات الاستكشافية.

إذ إن بحثي الإثنولوجي في هذه القرية استنفد كل طاقتي. ونجحت في مقاومة الإغراء الذي راودني مرارًا لإجراء «دراسات مقارنة» في أجزاء أخرى من البلاد.

وحتى لو كان لدي ما يلزم من الوقت والموارد، فإنني لو كنت خضت في أي دراسات لقرى أخرى وساكنيها، لكان ذلك ضربًا من العبث، ولكنت كمن يكشط السطح ولا يجاوزه؛ بتدوين ما قد يتذكره أحدهم فيحدثني به. وفي المقابل، فإن طول إقامتي في قرية واحدة، ألزم محدثيَّ بالتعمق وبذل غاية ما في وسعهم لإطلاعي على الوقائع المعروفة كلها. ولعل ذلك أشبه بـ «تنقيب» حقيقي عن كل العادات والتقاليد وطرائق التفكير في القرية. وفي فلسطين، حيث تجري في الوقت الحاضر تنقيبات آثارية مكثفة في الأماكن التوراتية القديمة، هناك نظير لذلك في متناول اليد؛ فحتى الآثاريون لم يرضوا بأن يجوبوا البلاد لعمل حفرية هنا وحفرية هناك، لعلَّهم يعثرون على قطعة ثمينة، أو عينات صغيرة، وإنما هي تنقيبات آثارية منظمة في موضع واحد، بقصد التعرف إلى بنائه، وحدوده، ومخططه. وعلى نسق مشابه، إذا ما رغب عالِم الإثنولوجيا الميداني في إنجاز عمل مستفيض وموثوق، فمن الحكمة أن يحصر اهتمامه في منطقة محدودة، يمكنه أن يتطلع إلى الإحاطة بجميع جوانبها. ومن الممتع جدًا أن نرى كيف ينعكس كل شيء في عالم مصغر، يمكن فيه للمرء أن يلاحظ كل التفاصيل الصغيرة. وهنا تبرز المسائل نفسها، لكنها تكون أشد وضوحًا بسبب صلة بعضها ببعض؛ فلا يفقد الباحث توازنه وصلته بالواقع من خلال الأفكار التجريدية والتعميمات.

ويعد المنهج المقارن، منذ حين، أداة لعلم الإثنولوجيا[3]، ولا يزال يقدم خدمة جليلة لهذا العلم، ويفضي إلى نتائج مرموقة، لكنه لا يكفي وحده؛ ولا بد من تعزيزه بدراسات أحادية بحتة[4]، وهذا أمر ضروري، نظرًا إلى ضعف

(3) انظر: James George Frazer, *Folklore in the Old Testament*, I (London: Macmillan and co, 1919), p. VIII.

(4) لهذا يقول إدوارد ويسترمارك (Edward Westermarck) في كتابه: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, I (London: Macmillan, 1925), p. 14, =

المصادر ذات العلاقة[5]. وليس ضعفها بالأمر المستغرب؛ فهي كثيرًا ما تُجمع عرَضًا، وتتألف إلى حد بعيد من آراء وأقوال لرحالة ومبشرين، لم يكن لديهم الوقت أو الحرص الكافي لدراسة الشواهد بصورة دقيقة، كما أنهم كثيرًا ما خلطوا بها انطباعاتهم وآراءهم الشخصية التي قد تكون شديدة التعنت، أو أقحموا تلك الآراء مكان الوقائع. ولا بد من معالجة هذا الضعف قبل فوات الأوان[6]

= «ومن المآخذ الشائعة على المنهج المقارن أنه ينزع الظاهرة الثقافية من الكيان الكل التي هي جزء منه، وبذلك يصورها من منظور خاطئ...». ويشير في الصفحة 15 إلى أن هذه الانتقادات فيها الكثير من الصواب، والكثير من المغالاة أيضًا، لكنه يضيف: «لقد أيدت بنفسي الرأي القائل، في ما يخص المراحل الدنيا من الحضارة، أنه ليس هناك أبحاث، بعد العمل الميداني في علم الاجتماع، نحن أشد حاجة إليها من الدراسات الأحادية لفئة محددة من الظواهر أو المؤسسات الاجتماعية، ضمن مجموعة معينة من القبائل التي تجمعها أواصر قربى، لا لشيء، إلا لأن الظواهر الاجتماعية ليست ظواهر معزولة، وإنما هي شديدة التأثر بالأحوال المحلية، والبيئة المادية، والظروف المعيشية للناس تحت الدراسة، وعاداتهم، وخصائصهم الذهنية. ويكون أخذ هذه العوامل مجتمعة في الحسبان أيسر إذا ما اقتصرت الدراسة على قوم واحد أو مجموعة عرقية واحدة، عوضًا عن سعي الدراسة إلى الإحاطة بمؤسسة اجتماعية ما موجودة على امتداد العالم غير المتحضر كله».

(5) انظر ويسترمارك في الصفحة 12 وما يليها من المجلد الأول من المرجع المشار إليه سابقاً: «عادة ما يعترض الباحثون على المنهج المقارن، بأن استخدامه لا يكاد يلبي الحرص اللازم في تمحيص مصادر المعلومات فيه. ولا شك في أن لهذا القول حظه من السداد؛ فكل عالم اجتماع استخدم هذا المنهج على نطاق واسع كان حريًا به أن يصرخ قائلًا: «أنا آثم»، وحتى من يتعامل منهم مع مجموعة خاصة من الظواهر المتقاربة، قلما تسنح له الفرصة لإخضاع نتائجه للبحث النقدي كالتي تسنح لكاتب الدراسة الأحادية عن قوم بعينهم».

(6) يقول مالينوفسكي في كتابه: Malinowski, *Argonauts of the Western Pacific*, p. XVI,
«لأنه وإن كان لا يزال هناك عدد كبير من المجتمعات الأصيلة متيسرة للدراسة العلمية في الوقت الحاضر، إلا أن هذه المجتمعات أو ثقافتها ستختفي عمليًا خلال جيل أو جيلين». أما في ما يتعلق بفلسطين، فقد كان ويلسون (Wilson) كتب في عام 1906 في كتابه: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London: John Murray, 1906), p. 4,
«من الأهمية بمكان أيضًا، أن تُدرس وتوثق السلوكيات والعادات السائدة الآن بدقة؛ إذ يتهددها خطر كبير بالضياع خلال فترة قصيرة». وفي عام 1921، نشرت مادة احتوت العنوان التحذيري: «أهمية دراسة الفلكلور الفلسطيني على الفور»، في دورية: *Bulletin of theAmerican Schools of Oriental Research*, no. 4 (1921), p. 4,
وأخذت هذه المادة من تقرير كتبه المدير بالوكالة للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية (American School of Oriental Research) في القدس آنذاك د. ألبرايت (Dr. Albright) لبلده الأم، وفيه يقول: «نظرًا إلى السرعة غير المسبوقة للتطور الاقتصادي والاجتماعي في فلسطين اليوم، حيث تتنافس الأعراق كافة =

بدراسات منهجية يقوم بها علماء الإثنولوجيا[7] المدربون رجالاً ونساءً[8].

ومن المثير للاهتمام ملاحظة التغيير الذي طرأ على منهج العمل الإثنولوجي؛ فقد ظهرت نزعة جديدة في طريقة جمع المادة. ولم يعد المرء يقنع بما يتردد من أقوال عامة تقتصر على ما تقتضيه العادات، أو باستخدام تعابير مبهمة، مثل «متعدِّدو الزوجات كُثُر»، أو أنَّ «الطلاق يحدث بكثرة»؛ فقد بات الباحث يصر على الحصول على وقائع ملموسة، وتفاصيل[9]، وأرقام، كما بات المرء ينشئ جداول إحصائية[10]

= بعضها مع بعض في عصرنة الثقافة والمعتقدات، بات النهوض بدراسة مستفيضة للفولكلور الفلسطيني ضرورة ملحة؛ ففي كل عام يطوي النسيان تفاصيل مهمة ولافتة، ومن النادر حقًا العثور على فلاح شاب يعرف الكثير؛ فقد قيل لنا في إحدى القرى «يعتقد كبار السن كذا وكذا، لكننا نحن الشباب لا نعتقد ذلك». وهذه الدراسة ذات أهمية بالغة لفهم عقلية الفلاح الفلسطيني، التي تشبه، بلا ريب، في كثير من جوانبها، عقلية أسلافه الإسرائيليين والكنعانيين».

(7) أكد البروفيسور فريتس كراوزه (Fritz Krause) في حلقاته الدراسية في لايبزغ (Leipzig) في صيف عام 1927 غير مرة، أن الإثنولوجيا، في كثير من جوانبها، ينبغي أن تبدأ من البداية، إذا جاز التعبير؛ أي إن مهمتها في المقام الأول هي توجيه الاهتمام نحو جمع المشاهدات والوقائع الدقيقة، ثم في مرحلة متأخرة، بتجديد النقاش حول المسائل النظرية، ولكن ليس قبل إعادة وضع الأسس لذلك.

(8) يقول البروفيسور ويسترمارك في توصية كتبها لي في الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير من عام 1925: «إضافة إلى ذلك، فإن أبحاثي في المغرب أقنعتني بأن دراسة المرأة الشرقية كما ينبغي لا تتسنى إلا للنساء». انظر أيضًا محاضرته عن نساء المغرب المشار إليها في عدد تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1929 في مجلة *Hufvudstadsbladet*. وهناك رأي عام يسود بين المختصين في الإثنولوجيا يقول إن الرجال لا يمكنهم الحصول على المعلومات المتوافرة كلها، ولا سيما تلك المتعلقة بحياة النساء ومكانتهن.

(9) يقول مالينوفسكي في كتابه: Malinowski, *Argonauts of the Western Pacific*, p. 1,

«ولكي أجمل النقطة الأساس الأولى من المنهج يمكنني القول إن كل ظاهرة ينبغي أن تدرس من خلال أكبر عدد ممكن من مظاهرها الملموسة؛ على أن يدرس كل مظهر بوساطة مسح شامل للأمثلة التفصيلية».

(10) تقول السيدة سيدني ويب (Sidney Webb): Sidney Webb, «Methods of Investigation,» in: *Sociological Papers*, III. (London: Macmillans, 1907), pp. 349f.

«ثم هناك المنهج الإحصائي. ومن الجلي أنه ضروري في كل الدراسات التي تعتمد على الملاحظة تقريبًا، أيًا كان عدد الشواهد المدروسة، لمنع الوقوع في فخ الحالات الفردية... وقد أحسن البروفيسور إيدجورث (Edgeworth) إذ قال: «لا يكتشف المنهج الإحصائي الحقائق مطلقًا، لكنه يمنع، في كثير من الأحيان، الوقوع في الخطأ».

وسلاسل أنساب[11]. ويَسِمُ هذا كله علم الإثنولوجيا بالدقة والرصانة، على غرار ما يحدث في علم المناخ؛ إذ لم يعد يكتفى بتقارير الأرصاد الجوية العامة، وبات المرء يجتهد في تقديم قياسات وقراءات بأجهزة دقيقة[12] ما أمكن ذلك. ولم يعد الباحث في حاجة للخروج باستنتاجات مبنية على الحدس والتخمين؛ إذ بات بإمكانه استخلاص النتائج وصياغة النظريات على أساس صلب[13]. وبالطبع، فإنه

---

(11) طور و. هـ. ر. ريفرز (W. H. R. Rivers) منهج علم الأنساب في صورته الأكمل في أعماله. انظر مالينوفسكي في الصفحة 14 من المرجع المشار إليه سابقًا.

يقول د. ريفرز نفسه في كتابه: W. H. R. Rivers, *The Todas* (London:Macmillan & Co, 1906), p. 11,

«لقد كانت أهم أداة بحث على الإطلاق تلك التي زودني بها منهج دراسة الأنساب»، ويضيف في كتابه: W. H. R. Rivers, *Essays on the Depopulation of Melanesia* (Cambridge: The University press, 1922), p. 97,

«وجدت هذا الاهتمام بعلم الأنساب أينما عملت، وقد شكلت سلاسل الأنساب على الدوام الأساس لأبحاثي في الإثنوغرافيا». ويصف ريفرز بالتفصيل منهج علم الأنساب ومزاياه الكثيرة. انظر للمؤلف نفسه: W. H. R. Rivers, «A Genealogical Method of Collecting Social and Vital Statistics,» *The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*, vol. XXX (1900), pp. 74ff, and «The Genealogical Method of Anthropological Inquiry,» in: *The Sociological Review*, III. (London: John Murray, 1910), pp. 1ff

في ما يتعلق بالمنهج المتبع في ترتيب المادة المتعلقة بعلم الأنساب إذ كانت ضخمة، انظر المؤلف نفسه في كتابه: W. H. R. Rivers, *The Todas Reports of the Cambridge Anthropological Expedition to Torres Straits*, V and VI. (Cambridge: Cambridge University Press, 1904; 1905),

وهناك مثال جيد على استخدام هذا المنهج عند سليغمان (Seligman) في مقالته: C. G. Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II. (Cambridge: Harvard University Press, 1918).

(12) يقول ريفرز في مقالته: Rivers, «The Genealogical Method of Anthropological Inquiry,» in: *The Sociological Review*, p. 12,

«إن منهج علم الأنساب، ومناهج مشابهة... ستقطع شوطًا كبيرًا على طريق وضع الإثنولوجيا على قدم المساواة مع علوم أخرى».

(13) في الصفحة 9 من المرجع المشار إليه سابقًا: «يتيح منهج علم الأنساب البحث في مسائل تجريدية، وذلك على أساس مادي بحت»، انظر للمؤلف نفسه المقالة الموسومة بالعنوان: Rivers, «A Genealogical Method of Collecting Social and Vital Statistics,» *The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*, p. 82,

«تكمن القيمة العظيمة لمنهج علم الأنساب في أنه يمكّن الباحث من دراسة المسائل التجريدية التي تكون مفاهيم الإنسان البدائي حولها مبهمة، بوساطة الوقائع المادية، التي هو خبير بها. فهي وسيلة لاستغلال ذخيرة المعلومات التي مكنته ذاكرته الاستثنائية للتفاصيل من تجميعها».

من الأهمية بمكان، في هذه الحالة، جمع الوقائع الفعلية[14] كلها قدر الإمكان؛ ليتسنى لنا موازنة بعضها ببعضها الآخر. ويلزم أن تكون هناك وسيلة مختلفة للتقويم، للتفاصيل فيها شأن كبير، بحيث لا تُظهر أوجه التشابه فحسب، بل كذلك أوجه الاختلاف، فيلقي بعضها الضوء على بعضها الآخر. وينبغي أن تُقدم النسب أيضًا بالأرقام[15] ما أمكن ذلك؛ فالتقاليد والإحصاءات يتمم كل منهما الأخرى ليعكسا الكل.

ولا يمكن تطبيق هذه التدابير، بطبيعة الحال، إلا في منطقة محدودة، يمكن مسحها بالفعل. وهي تشكل الكل الذي يمكن رؤية كل شيء فيه في نصابه الصحيح. ولكن، حتى إذا وقع الاختيار على مجتمع صغير، فإن الوقت والصبر ضروريان إذا ما اتُّخذ منهج علم الأنساب والمنهج الإحصائي أساسًا للبحث الإثنولوجي، والتُزم بتطبيقهما على الدوام. ويمكن، بل ينبغي، ترسيخ الكثير من الإحصاءات كأساس للدراسات النظرية، ويقع عبء جمع البيانات الإحصائية على عاتق الإثنولوجي الميداني، والحالة المُثلى لذلك، أن يجمع بياناته من خلال شبكة متكاملة من نقاط المراقبة، ليتمكن بعد ذلك من رسم خريطة للنتائج من أماكن ومناطق مختلفة. ولكن واقع الحال ليس كذلك؛ إذ علينا أن نقنع، ولفترة طويلة مقبلة، بإحصاءات ومشاهدات جُمعت من أماكن معزولة، باعتبارها نمطًا لما يجري في الواقع.

وتطور البحث الإثنولوجي في حلقات ضاقت شيئًا فشيئًا؛ فقد صيغت نظريات عامة بالاستناد إلى معلومات من بلدان مختلفة، كان الجنس البشري كله محورها وغايتها الكبرى. ثم اتجه بعض المشتغلين إلى التركيز على بلد

---

(14) يقول مالينوفسكي: Malinowski, *Argonauts of the Western Pacific*, pp. 13f.

«وهكذا، فإن جمع بيانات مادية تتعلق بنطاق واسع من الوقائع، هو أحد أهم أساسيات المنهج الميداني؛ فلا ينبغي الاكتفاء بسرد بعض الأمثلة وحسب، وإنما لا بد من شمول جميع الحالات ذات العلاقة قدر الإمكان».

(15) يتحدث مالينوفسكي في الصفحة 17 من المرجع المشار إليه سابقًا عن «منهج التوثيق الإحصائي بوساطة الشواهد المادية».

واحد دون غيره، من خلال معلومات تتعلق بقرى ومناطق مختلفة[16]. وأخيرًا وصلنا إلى الحلقة الأضيق، حيث القرية، أو مكان بعينه هو الدراسة كلها، وحيث تشكل المعلومات المستقاة من الأفراد أدلة الدراسة[17]. وينبغي أيضًا أن تكون هذه، مرة أخرى، مرحلة انتقالية ننطلق منها نحو أمور أكثر عمومية. بيد أن هذه المناهج يمكن استخدامها أيضًا جنبًا إلى جنب؛ فأهم ما في الأمر أن تكون هناك جوانب عدة، ومرونة، وألا نتعنت في التمسك بأساليب معينة؛ فلمثل ذلك، لا يزال علم الإثنولوجيا حديث العهد[18].

كيف هي الأحوال في فلسطين، في هذا الصدد، في الوقت الحاضر؟ إن الأدبيات المتوافرة عن الموضوع لا ترقى إلى المستوى المطلوب؛ فلدى قراءة عمل ككتاب فريزر (Frazer) **الفلكلور في العهد القديم** (*Folk-Lore in the Old Testament*)؛ حيث يتوقع القارئ تمامًا أن يورد المؤلف شواهد من الأراضي المقدسة، يلفت الانتباه إلى أن الكاتب جمع مادة غزيرة من أدبيات العالم بكل عناية وإحاطة، لكنه لم يورد من فلسطين إلا النزر اليسير؛ ما يدل على شح الدراسات الإثنولوجية عن هذه البلاد. وأنا على يقين، بل إنني أستطيع، في بعض الحالات، أن أبرهن على أن شح الدراسات الإثنولوجية لا يعزى

---

(16) في هذا الباب من الطريف أن نقرأ ما كتبه البروفيسور ويسترمارك عن خططه كعالم شاب آنذاك، وقد عزم على الاطلاع المباشر على بعض أشكال الحضارة المختلفة عن حضارتنا، إذ يقول في كتابه: Edward Westermarck, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London: Macmillan & Co., Ltd, 1926), p. V,

«فكرت مليًا بالذهاب إلى الشرق لدراسة الأعراق، المتحضرة منها والبدائية. فأبحرت إلى المغرب في عام 1898، لكني لم أذهب أبعد من ذلك؛ إذ سرعان ما أدركت كم هو شاق أن يتعرف بسكان بلد واحد كما ينبغي؛ إذ يتطلب الأمر إقامة مطوّلة بينهم، ومعرفة بلغتهم».

(17) انظر: J. Lionel Tayler, «The Study of Individuals [Individuology] and their Natural Grouping [Sociology],» in: *Sociological Papers*, III (London, 1907), p. 113,

«ومن خلال الدراسات التي تعنى بالأفراد سينبثق المنهج العلمي لعلم الاجتماع».

(18) يقول فريزر عن دراسات الفلكلور بشكل عام في كتابه: Frazer, *Folklore in the Old Testament*, p. IX,

«تلك الدراسة لا تزال في مهدها، وربما ينبغي أن تبقى نظرياتنا عن الموضوع الذي تتناوله تجريبية وتمهيدية لفترة زمنية طويلة مقبلة، تشبه أن تكون صناديق صغيرة نصنف فيها الشواهد الكثيرة مؤقتًا، وليست قوالب حديدية تصبُّ فيها إلى الأبد».

إلى قلة في الشواهد أو المادة[19]، وإنما يعود ذلك، في جانب كبير منه، إلى أن هذه المادة لم تجمع وتدون حتى الآن، وحتى الموجود منها، ولا سيما الأدبيات الأقدم، فإنه يفتقر إلى الدقة والضبط. والسبب في ذلك أن جامعيها لم يتجنبوا خطرين: أولهما ذلك الذي يخص «الأراضي المقدسة» دون غيرها، والذي سأسميه «الخطر التوراتي»؛ فهؤلاء انجرّوا دونما تمحيص إلى القول أن العادات والتقاليد والنظرة إلى الحياة الموجودة اليوم بفلسطين، تماثل تلك الواردة في الكتاب المقدس، ولا سيما في العهد القديم[20]. ففي كثير من الأحيان، يجد المرء نفسه مفتونًا بفكرة بناء جسر بين الماضي والحاضر من خلال دمج الشواهد الحديثة بالآيات التوراتية، ولا مفر من الاعتراف أن هذا التوافق بين القديم والحديث موجود؛ فالأرض والطبيعة تحتمان ذلك. ولكن ينبغي للمرء أن يتذكر دائمًا أن التراث مدار البحث هو تراث العرب المسلمين،

---

(19) من ذلك، على سبيل المثال، العادة التي يصفها فريزر (في الصفحة 342 من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه سابقًا)، والتي بموجبها يقدم رجلكيعقوب في العهد القديم (الآية الثامنة عشرة وما يليها من الإصحاح التاسع والعشرين من سفر التكوين) خدمة في مقابل حصول على زوجة، لكنه لا يذكر مثالًا واحدًا من فلسطين، على الرغم من وجود أمثلة كثيرة على هذه العادة في قريتي الصغيرة (انظر أدناه في الصفحة 153 وما يليها، والصفحة 165 من هذا الكتاب). ويتكرر ذلك - أي غياب أي أمثلة من فلسطين - عند حديثه عن طقوس التبني والولادة الجديدة (في الصفحة 4 وما يليها من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه سابقًا)، وقد حالفني الحظ في الحصول على مادة مثيرة للاهتمام عن تلك الطقوس، وآمل أن أنشرها لاحقًا. انظر صيغة التبني التي تقال عند الدخول في روابط الأُخوة للذكور والإناث، والتي دونتُها في أرطاس في: H. Granqvist, «Bruderschaft und Frauenehre,» in: *Palästina Jahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, XXIII. (Berlin: E. S. Mittler & Sohn, 1927), p. 126, 128.

(20) إن القول بأن حياة الفلاحين في الوقت الحاضر تشبه في كثير من جوانبها الحياة في فلسطين خلال الفترة الإسرائيلية أو حتى الفترة الكنعانية، وأنها ربما تلقي الضوء عليها، هو رأي عبر عنه الكثيرون. انظر: Dalman, *Palästinischer Divan*, p. V,

انظر أيضًا: W. F. Albright, «Importance of Studying Palestinian Folklore at once,» *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*, no. 4 (1921), p. 4; Elihu Grant, *The People of Palestine* (London, 1921), pp. 45-46, and Claude Reignier Conder, *Tent Work in Palestine* (London: Murray, 1885), pp. 303-304, 306, 314,

ويقول كوندر في الصفحة 335 من المرجع أعلاه: «وأوجه الشبه لافتة جدًّا حتى إنه من المسوّغ أن نطلق على الفلاحين اللقب البسيط (الكنعانيين العصريين)»، انظر: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, pp. 3-4, and Hughes Vincent, *Canaan d'après l'exploration récente* (Paris: J. Gabalda & cie, 1907), p. 25.

وليس تراث اليهود، وأن هناك فترة زمنية تقدر بنحو ألفي عام وأكثر بينهما، وهي فجوة لا يمكن تفنيدها بمجرد الاستناد إلى كتاب الشرق الذي لا يتغير (*The Immovable East*). ولقد بقيت من الماضي بعض العادات، لكنها ليست بادية على السطح مباشرة، ولا يمكن تمييزها على الفور[21]؛ فلا يجوز أن تُشفع العادة التي يلاحظها الإثنولوجي بنص مناسب من العهد القديم من باب التزيين. فإن كنت أقتبس من التوراة في عملي أقل مما يقتبس معظم الأعمال الأخرى، فمرد ذلك خوفٌ، ربما كان مفرطًا، من الخلط بين القديم والحديث من غير تمحيص. ولكثرة التجاوزات من هذا القبيل، ينبغي أن يكون مدى ارتباط هذه العادة أو تلك بالعصور الغابرة موضع دراسة خاصة.

أما الخطر الآخر الذي يتعرض له البحث في الفلكلور الفلسطيني، فيتمثل في التعميمات التي تطغى على وصف العادات والتقاليد، بما لا يتفق مع الفروق الكبيرة المتعلقة بالبلدان والناس التي يشار إليها على الدوام[22]. وكان

---

(21) انظر دلمان في الصفحة V في المرجع المشار إليه سابقًا، وللمؤلف نفسه: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I, 1 (Gütersloh: Evangelischer, 1928), p. VII,

وانظر أيضًا غرانت في الصفحة 46 من المرجع المشار إليه سابقًا.

(22) إذ من المعروف أن القدس خليط من أمم وديانات مختلفة جدًا. وبحسب غرانت: Grant, *The People of Palestine*, p. 172,

يستطيع المرء أن يسمع في البلدة وضواحيها أكثر من خمسين لغة ولهجة مختلفة. واللغات الرسمية هي العربية والإنكليزية والعبرية. أما الديانات السائدة فهي الإسلام والمسيحية واليهودية، لكن هناك الكثير من العقائد والطوائف المختلفة العائدة لهذه الديانات كلها، وكل هذا يقتضي ضمنًا تنوعًا عظيمًا في الآراء والعادات. ولدينا أخيرًا ثلاث مجموعات سكانية أصلية مختلفة: الحضر، والفلاحون، والبدو. ويقول كلاين (Klein) في مقالته: F. A. Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), pp. 100f.,

«وتتباين هذه الفئات الثلاث في ما بينها بشكل واضح وإلى حد بعيد، ليس في اللغة واللباس والبناء وفرش البيوت وحسب، بل كذلك في الأعراف وأنماط المعيشة، حتى إنه ليمكن للمرء أن يميز الحضر والفلاحين والبدو بعضهم من بعض بمحض النظرة الأولى أو سماع الجملة الأولى». ويمتد هذا الاختلاف بحسب كلاين (في الصفحة 101 من المرجع المشار إليه سابقًا) إلى أفراد وبلدات بعينها وقرى وقبائل بدوية بشكل عام، في ما يتعلق بالفروقات الكبيرة في فلسطين، انظر أيضًا: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel* (Leipzig: H. G. Wallmann, 1903), pp. 1 and 8 sq.; Conder, *Tent Work in Palestine*, pp. 336, 340 sq.; Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine* (Cambridge: Deighton, Bell, and co., 1864), p. 200, and J. A. Jaussen, *Coutumes Palestiniennes. I. Naplouse et sondistrict* (Paris: Librairie orientaliste, 1927), p. VII.

الكُتّاب الأوائل قد جمعوا المعلومات أو التقطوها هنا وهناك، ثم لم يتورعوا عن تقديمها على أنها فلسطينية على وجه العموم؛ فيقول بيروتي (Pierotti)، مثلًا، عند وصفه عادات الزواج: «ما أصفه رائج بين اليونانيين، لكنه شائع أيضًا لدى من هم سواهم من سكان البلاد»[23]. ولا يذكر آخرون مطلقًا أين رصدوا ملاحظاتهم، أو يذكرون ذلك باقتضاب؛ إذ لم يبدُ الأمر لهم مهمًا، ويمكن أن تستثني من ذلك حفلات الخِطبة أو الزواج، والتي لدينا منها مجموعة من الوقائع الدقيقة من أماكن مختلفة مثل لِفتا والقبيبة ونابلس[24]، ووصلنا وصف أكثر اقتضابًا من أماكن أخرى[25]. وعليه، فالأساس موجود لإجراء دراسة مقارنة عن عادات الخِطبة والزواج «الفلسطينية». وبالطبع، لا بد من وجود تشابه عظيم، بل تطابق لكثير من العادات والتقاليد ووجهات النظر بين المناطق الفلسطينية المختلفة، ولكن ما دامت المقولة التي تتردد عن الاختلافات الكبيرة في العادات والتقاليد ووجهات النظر بين الناس في أماكن مختلفة من فلسطين تتضمن شيئًا من الصحة، فيجب أن تكون البيانات أكثر عمقًا وتفصيلًا، لا أن يقال إنها «فلسطينية» من دون أي شكل من التفصيل.

وتوصل جوسان (Jaussen) إلى استنتاج مشابه. ومن الجدير بالذكر أن هذا الخبير البارز في الحياة الشعبية العربية، إذا ما أراد وصف العادات والتقاليد في فلسطين، فإنه يرى أن من الضروري أن يجرى ذلك على شكل دراسات أحادية عن أماكن منفصلة. وفي أولى هذه الدراسات الأحادية الموسومة بالعنوان العادات الفلسطينية، المجلد الأول، نابلس وقضاؤها *Coutumes Palestiniennes,*)

---

(23) انظر: Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine*, p. 184.

(24) انظر: GustavRothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch*, VI. (Berlin: [n. pb.], 1910), pp. 102ff., and H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» in: *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, IV. 2 (Leipzig, 1926), pp.199ff.,

حيث تجد المصادر. وانظر كذلك الصفحة 95 وما يليها من الجزء الأول من المجلد الخامس في المرجع المشار إليه سابقًا (Leipzig, 1927)، وانظر: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, pp. 54ff.

(25) انظر: Adela Goodrich-Freer, *InnerJerusalem* (London: Constable, 1904), pp. 302ff., and E. Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» (el-Bīre) in: *Palästinajahrbuch*, IV (Berlin, 1908), pp. 67ff.

(1927) (*I. Naplouse et son District*) يقول المؤلف في المقدمة: «كما أنها تشكل نظيرًا لما أجريت بين البدو الرُّحَّل، ونشرته تحت عنوان عادات العرب في أرض مؤاب (*Coutumes des Arabes au pays de Moab*)، لكنه يواصل قائلًا: «لا يمكن القيام بعمل يحيط بفلسطين كلها؛ فهناك ملامح عديدة وجوانب مختلفة. ولذا اقتصرت ملاحظاتي على المنطقة، ولا سيما نابلس، وهي منطقة ممتنعة على المؤثرات الخارجية إلى حد بعيد. وسأرجئ أبحاثي الأخرى عن أماكن أخرى من الأرض المقدسة. هذا الكتاب هو المجلد الأول من سلسلة ستستكمل لاحقًا». لكن، وحتى في هذا الكتاب عن نابلس، استثنى المؤلف عنصرًا شعبيًا مهمًا، وهم السامريون، على الرغم من أن لهم حيًا خاصًا بهم في البلدة؛ لأن الحديث عنهم يقتضي دراسة بحثية منفصلة[26].

وعلى الرغم من أن دراسة مركز حضاري كنابلس بالغة الأهمية، فإن من المنطقي أن يتساءل الباحث، ما إذا كان ينبغي أن يقتصر البحث على مساحة أصغر. وعندما وضع كولر (Köhler) الخطوط العريضة لما يمكن توقعه من البحث في فلسطين، وأشار إلى الاستفسارات والأسئلة التي ينبغي أن ينظر فيها، كتب في الصفحة السادسة والثلاثين من مقالة له بعنوان: «أسئلة وأمانٍ متعلقة بدراسة فلسطين»، نشرت في العدد السادس والثلاثين من مجلة جمعية فلسطين الألمانية[27]: «إن الحاجة ملحة لوجود دراسات أحادية تتناول قرى بعينها وسكانها... كم عدد السكان؟ ما نسبة الرجال إلى النساء، والبالغين إلى الأطفال، والأصحاء إلى المقعدين، والأثرياء إلى الفقراء، والمتزوجين إلى العازبين؟ ما المرافق، والعادات، والحكايات، والأعراف، والأعياد الخاصة بالقرية (لن يتبين ما إذا كانت أي منها خاصة بالقرية، قبل دراسة عدد كبير من القرى)؟ ومن المهم تبيان العشائر التي تشكل أهل القرية، وكذلك كم مضى

(26) يقول جوسان في الصفحة 255 من المرجع المشار إليه سابقًا: «لم تذكر العادات السامرية عمدًا في هذا الكتاب؛ فدراستها تحتاج إلى عمل خاص، كما أن مونتغومري تناول جزئيًا ما تبقى منها في كتابه السامريون (*The Samaritains*) [ترجمة عن الفرنسية].

(27) «Fragen und Wünsche zur Palästinakunde», in: *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, XXXVI. (Leipzig, 1913)

على وجود كل منها في القرية، جيلان أم ثلاثة أجيال، ومن كان منها مستقرًا استقرارًا دائمًا؟ ومن المهم أيضًا ذكر عدد الغرباء الذين يعيشون في موقع من المواقع، ولا يُقصد بذلك الغرباء القادمون من خارج فلسطين، بل أولئك الذين جاءوا من الجليل إلى اليهودية،... وهكذا».

ولدى دراسة فلسطين، تظهر النزعة ذاتها كما في الأبحاث الإثنولوجية الأخرى؛ فهنا أيضًا تتكرر الحاجة إلى وقائع ملموسة، وسلاسل أنساب، وإحصاءات، ودراسات أحادية. وقد وجدت أن قرية صغيرة كأرطاس ملائمة جدًا لبحث كهذا، لسهولة مسحها، وكذلك لأسباب تاريخية. وعلى الرغم من ذلك، فحتى المعلومات المتوافرة في مكان صغير كهذا، هي أغنى وأغزر وأكثر تنوعًا من أن يُحاط بها في كتاب واحد.

وما أقدّمه هنا هو دراسة مقارنة لجميع وقائع الزواج في قرية أرطاس على مدى مئة عام خلت، وهي أقصى ما بلغته ذاكرة الناس، أي من أربعة إلى خمسة أجيال. ولذلك دلالته؛ فبداية تلك الفترة تتزامن مع نقطة تحول مهمة في تاريخ القرية، عندما بدأت الحياة فيها بداية جديدة، إذا جاز التعبير؛ فعلى الرغم من أن الزراعة في وادي أرطاس الغني بالينابيع قديمة بالتأكيد[28]، فإن الاستقرار فيها تأثر بأزمات عديدة على امتداد قرون من الزمان، تخللها فترات طويلة من الهجران[29]، عندما كان يقتل معظم سكانها في حرب أهلية، أو على يد أعداء

(28) بحسب التراث المستوحى من فكرة «الجنة المغلقة» (*Hortus conclusus*)، المذكورة في الآية الثانية عشرة وما يليها من الإصحاح الرابع من سفر نشيد الأنشاد، وفي الفقرة الثالثة من الفصل السابع من المجلد الثامن من كتاب عاديات اليهود (*Antiquities of the Jews*) لجوزيفوس، فإن أرطاس هي مكان حدائق الملك سليمان الساحرة المسماة «عيطام». انظر على سبيل المثال: Carsten Niebuhr, *Reisebeschreibungnach Arabien und den umliegenden Ländern*, III. (Hamburg, 1837), p. 67, and Carl Ritter, *Die Erdkunde*, XVI. (Berlin, 1852), p. 282

(29) يرى الآثاريون أن خربة الخوخ الواقعة على الجانب الآخر من الوادي، أي إلى الجنوب الغربي من المنحدر حيث تمتد بيوت أرطاس صعودًا، هي أقدم موضع سكنه الناس. وينبغي أن نبحث هنا عن «عيطام» الواردة في العهد القديم، والتي بناها الملك رحبعام في نهاية القرن العاشر قبل الميلاد، كقلعة في اليهودية، انظر الآية الثالثة من الإصحاح الرابع من سفر أخبار الأيام الأول والآية السادسة من الإصحاح الحادي عشر من سفر أخبار الأيام الثاني*، وفي الفقرة الثالثة من الفصل السابع من المجلد الثامن من كتاب عاديات اليهود لجوزيفوس**. وكان غوستاف دلمان قد قام بهذه المماثلة في:
= *Palästinajahrbuch* X (Berlin: [n. pb.] 1914), p. 14.

من الخارج، ويضطر الناجون إلى النزوح إلى أماكن أخرى. وتكررت مثل هذه الأحداث كثيرًا، حتى في الآونة الأخيرة، في أماكن أخرى في فلسطين؛ ما جعل مراكز تجمع السكان في حركة دائمة[30]. وكان النازحون أو ذرّياتهم يعودون إلى بيوتهم القديمة عند زوال الخطر بعد مدة من الزمن[31].

وما زالت في أرطاس ذكرى نازلتين دُمرت على إثرهما القرية، وهجرها سكانها. وبحسب الروايات في القرية؛ فقد كان السبب في كلتا الحالين نزاعات نجمت عن اعتداء رجال من أرطاس على نساء من أماكن أخرى، فانتقم لهن أقربائهن وأبناء عشائرهن في ما بعد[32]. ويقال إن «تسعين زوجًا من الأخوة»

= * في الأصل أيضًا في الآية التاسعة والخمسين من الإصحاح الخامس عشر، والآية الأولى من الإصحاح الستين من سفر يشوع، والصحيح ما أثبت هنا [المترجمتان].

** يذكر جوزيفوس الاسم على النحو *Etham*، ويرد الاسم «إيثام» اسمًا لموضع في الآية العشرين من الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج، وفي الآيات السادسة إلى الثامنة من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد في العهد القديم، وقد وجدنا أنه تبتغي الإشارة إلى المسألة منعًا للخلط؛ فنحن لا نعرف إن كانت «عيطام» و«إيثام» في المصادر التي يستشهد بها أعلاه موضعين مختلفين، أم أنهما اسمان أصاب أحدهما التصحيف، ولا سيما إن أخذنا بالاعتبار أن جوزيفوس دوّن كتاباته باللاتينية التي تخلو من صوت العين [المترجمتان].

وعلى الأرجح لم تحتل القرية موقعها الحالي حتى العصور الوسطى. وكانت أرطاس (*Artasium*) تابعة لأسقف بيت لحم زمن الحروب الصليبية، انظر: R. Röricht, *Regesta regni Hierosolymitani* (1893), p. 259.

وفي أواخر العصور الوسطى كانت أرطاس تابعة كوقف للحرم الإبراهيمي في الخليل، كما يستدل على ذلك بواسطة نقوش عثر عليها في الخليل، انظر: F. M. Abel, «Trois inscriptions arabes, inédites, du ḥaram d'Hébron,» *Revue Biblique*, vol. XXXII, no. 2 (1923), pp. 84ff.,

وعن النقوش المكتشفة في أرطاس نفسها، انظر: J.-Antonin Jaussen, «Inscription Arabe d'Ortas,» *Revue Biblique*, vol. XXXIII (1924), pp. 246ff.,

أما العامل الحاسم في اختيار مكان جديد فكان الرغبة في البقاء بالقرب من الينابيع وبساتين الفواكه والخضار التي تسقى منها (حصلت على معلومات هذا الهامش من الدكتور آ. آلت).

(30) زودني البروفيسور آلت بهذه المعلومات أيضًا.

(31) يقول فنسنت في كتابه: Vincent, *Canaan d'après l'exploration récente*, p. 21.

«... وعندما زال الخطر، استقر السكان الجدد مرة أخرى في المكان...».

(32) انظر: James Edward Hanauer, *Folklore of the Holy Land* (London: Duckworth & Co, 1907), pp. 117ff.

قتلوا في المرة الأولى[33]، أما في ما يخص الواقعة الثانية، فلا يزال الناس يذكرون إلى أين نزحت العشائر المختلفة؛ فعائلة (دار) عودة التي تنتمي إلى عشيرة سعد، ذهبت إلى الجنوب الغربي، إلى قرية واد فوكين المجاورة، وبعض أفراد عشيرة الربايعة عبروا نهر الأردن إلى قرية خَنْزيرة(*) بالقرب من الكرك، بينما ذهب آخرون منهم إلى الخليل، وبعض أفراد المِشاني ذهبوا إلى بيت أُمَّر التي تقع على طريق الخليل، وآخرون (أبو خلاوي) ذهبوا كذلك باتجاه الغرب إلى عَجُّور، حيث لا يزالون يعدون أنفسهم من أقرباء عائلة (دار) الخواجا، وذهبت عشيرتا شاهين وأبو شحادة، وهما أسلاف لمجموعة أصغر في أرطاس، إلى سِعْير بالقرب من الخليل. وقد حدثت حركة النزوح هذه قبل مئة عام ونيف في أقل تقدير.

ويبدو أن الناس بدأوا يعودون في حوالى عام 1830؛ إذ يذكر إدوارد روبنسون (Edward Robinson) الذي زار أرطاس عام 1838 في مدوناته مرارًا «قرية أرطاس الخَرِبة»، ولكنه يعود فيكتب، وبتفاصيل أكثر: «ما زال الموقع مسكونًا، مع أن البيوت خربة؛ فالناس يسكنون كهوفًا بين صخور المنحدر الوعر»[34]. ولا يزال يُروى في القرية أن القرويين العائدين إلى أرطاس لم يجرؤوا على الاستقرار في القرية نفسها بادئ الأمر خوفًا من جيرانهم في الشرق، وهم قبيلة التعامرة شبه البدوية، لكنهم عاشوا في القلعة الراجعة إلى العصور الوسطى التي أصبحت خَربة الآن، والواقعة قبالة أكثر برك سليمان

(33) ليس من المستبعد أن يكون س. نيبور زار المكان بعد وقت قصير من هذا الدمار في آب/ أغسطس من عام 1766، ويقول في كتابه: Niebuhr, *Reisebeschreibungnach Arabien und den umliegenden Ländern*, p. 67,

«بين ما يسمى «الينبوع المختوم»* وبيت لحم يقع واد ضيق عميق فيه عين ماء جميلة بالقرب منها بضعة بساتين بائسة الحال، ويرى المرء في الجوار أيضًا بقايا لقرية مدمرة بالكامل».

* يذكر «الينبوع المختوم» في الآية الثانية عشرة من الإصحاح الرابع من سفر نشيد الأنشاد في العهد القديم، ويبدو أن نيبور استوحى اسم الموضع من هذا [المترجمتان].

(*) غُير اسم قرية «خنزيرة» الواقعة في لواء المزار الجنوبي إلى الجنوب الغربي من الكرك ليصبح «الطيبة» [المترجمتان].

(34) انظر: Edward Robinson, *Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea: A Journal of Travels in the Year 1838*, II. (London: John Murray, 1841), pp. 164, 168.

ارتفاعًا، على الطريق من القدس إلى الخليل، والتي تقع مسيرة عشرين دقيقة إلى الغرب من أرطاس. ولا بد أنهم كانوا يأتون إلى القرية نهارًا لزراعة بساتينهم، ثم يرجعون مساء إلى القلعة(35)؛ حيث احتلت كل عشيرة من العشائر الأربع التي لا تزال تسكن في أرطاس(36) أحد الأبراج الأربعة القائمة على جدران القلعة. وقد عاشت تسع عائلات من العشائر الكبيرة هناك، كما عاشت ثلاث عائلات، تنتمي كل واحدة منها إلى الجماعات الأصغر في القرية، في ثلاث حجرات صغيرة في القلعة نفسها، وهكذا يكون مجموع العائلات التي عاشت هناك اثنتي عشرة عائلة(37).

---

(35) تنطبق هذه الحال على العام 1848 الذي يرد ذكره عند بالدنسبيرغر في: Philip J. Baldensperger, *The Immovable East* (London: Sir Issac Pitman, 1913), p. 111, 115f.

انظر كذلك: Hanauer, *Folklore of the Holy Land*, p. 118.

(36) انظر الصفحة 115 من كتاب بالدنسبيرغر المشار إليه سابقًا. وانظر كذلك أشجار النسب في نهاية الكتاب.

(37) نظرًا إلى قلة عددهم، فمن السهل أن نفهم أن هؤلاء الناس شق عليهم العيش بصورة عادية في ذلك الوقت، عندما كان جيرانهم في الشرق أعداء أقوياء، وهم بدو التعامرة. ولما كان قرويو أرطاس ينتمون إلى قيس، وبدو التعامرة إلى اليمن، فإن هذه العداوة تُفسر كحلقة في سلسلة العداء السياسي الذي ساد حتى عام 1860 بين هاتين المجموعتين في المنطقة الريفية من اليهودية. ويمكن أن نجد سردًا لهذه الاضطرابات في منتصف القرن الماضي في: James Finn, *Stirring Times or Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853-1856* (London: C. Kegan Paul, 1878); R. A. S. Macalister and E. W. G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statements* (London: The Society's Office, Palestine Exploration Fund, 1906), p. 33ff.; Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine* (Cambridge, 1864), p. 271, and Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel* (Leipzig: H. G. Wallmann, 1903), p. 84,

وتعزى محاولة أهل أرطاس العودة إلى القرية وإعادة بناء مساكنهم قبل أن يستتب النظام في البلاد بشكل كامل، إلى أن جهودهم لقيت تشجيعًا من محاولة استعمارية أوروبية بدأت حوالى عام 1850. وكان جون ميشولام (John Meshullam) بدأ هذه المحاولة الاستعمارية، وهو يهودي اعتنق المسيحية بعد حياة حافلة بالمغامرات، وتعمَّد في مالطا في تموز/ يوليو من عام 1840، انظر: Christian Ewald, *Journal of Missionary Labours in the City of Jerusalem* (London: B. Wertheim, 1846), p. 12, 90,

وذهب بعد ذلك إلى القدس، حيث أسس أول فندق أوروبي، لكنه في الوقت نفسه عمل في الزراعة في أرطاس. وانضم إليه في عام 1849 هنري بالدنسبيرغر، وهو إلزاسي ذهب إلى القدس كمبشر أرسلته إرسالية كريشونا (بالقرب من بازل)، والتي أسسها كريستوفور شبتلر (Chr. Spittler). وفي السنة نفسها زارت المكان السيدة كلوريندا س. ماينور (Clorinda S. Minor) «النبية العليا في ذلك الوهم الديني المسمى «الميلرية» الذي اكتسح الولايات المتحدة قبل نحو أربعين عامًا (1842-1845)». وفي عام 1851 رجعت إلى القرية برفقة مجموعة صغيرة من أبناء دينها الأميركيين ولزموا ميشولام. ولهذا بات =

وتشكل هذه العائلات إطارًا للعشائر الأربع الحالية وللجماعات الثلاث الأصغر غير المستقلة، والتي ترتبط بصورة أو بأخرى ببعض العشائر الأربع. وانضمت إلى هؤلاء بمرور السنين، ثلاث جماعات صغيرة أخرى، فنيت إحداها[38]، وقد تمكنت من تتبع أنساب جميع السكان في أرطاس[39] منذ بداية آخر فترة استقرار للسكان فيها وحتى عام 1927. وتوجد أشجار نسبهم في آخر الكتاب؛ حيث يتبين القارئ بفضل تنسيقها البسيط للغاية تطور العشائر والعائلات المختلفة، وعلاقة الأجيال بعضها بالبعض الآخر. ولما كان الرجال المتزوجون هم الأهم، لأن النسب يتبع سلالة الذكور، فكان من الضروري

= من الممكن للقنصل فين الذي زار القرية مع باشا القدس أن يكتب (في الصفحة 294 من المجلد الثاني في المرجع المشار إليه سابقًا): «من الممكن أن جنة من الحدائق والبساتين، كانت خرابًا قبل سنوات قليلة فقط، وقرية مزدهرة من السكان المحليين، حيث لم يكن سوى أطلال، ودفع منتظم لمبلغ كبير من الضريبة لخزينة السلطان من مكان لم يكن يدفع شيئًا قبل الآن (وهو معفى قانونيًا)، قد نبَّه إلى موضوع استصلاح الأراضي البور، مالئة خزينة السلطان، محوِّلة السكان المحليين من غزاة إلى مستصلحين للأرض، وكل هذا بالاتصال بالصناعة اليهودية».

لمعلومات إضافية عن الاستعمار الأميركي الأوروبي الذي بدا مبشّرًا بالخير، والذي سرعان ما انتهى إلى لاشيء، انظر الأعمال الآتية: Philip J. Baldensperger, *The Immovable East* (London: Sir Issac Pitman, 1913), p. 111ff.,

وكذلك المذكرات غير المنشورة لأبيه المبشر هنري بالدنسبيرغر (Henry Baldensperger)»، انظر: Fredrika Bremer, *Lifvet i Gamla verlden* (Stockholm: Bonnier, 1861), II, I, p.152ff., II. 2, pp. 83-103; Elizabeth Anne Finn, *Reminiscences* (London: Marshall, Morgan and Scott, 1929), p. 90, 104; Konrad Furrer, *Wanderungen durch Palästina* (Zürich: Orell Füssli,1865), p. 177; James Edward Hanauer, «Notes on the History of Modern Colonisation in Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statements* (London, 1900), p. 127ff.; J. M. Parker, «A Fanatic and her Mission: A Story Historical,» in: *The Churchman* (New York, October, 1896), p. 448f., 484ff., 424ff., 568; C. Ritter, *Die Erdkunde*, XVI. (Berlin: Reimer, 1852), p. 282ff; Edward Robinson, *Neuere biblische Forschung in Palästina*(Berlin: G. Reimer, 1857), p. 358, and Carel Willem Meredith van de Velde, *Reise durch Syrien und Palästina in den Jahren 1851 und 1852*, II (Gotha: Perthes, 1861), p. 61, 64ff.

(38) للمزيد من السرد المفصل للعشائر الأربع، والجماعات الست الأصغر في أرطاس انظر أدناه في الصفحة 125، وفي الصفحة 133 وما يليها من هذا الكتاب.

(39) يعنى البحث بالفلاحين، أما الدير، الذي يشكل عالمًا بحد ذاته، فيقع على الجانب الآخر من الوادي. وتنتمي الراهبات إلى رابطة «أخوات (راهبات) مريم ذات الحديقة»، والتي تأسست في عام 1829، ومقرها الرئيس في روما. وقد كان من الطبيعي أن تسعى هذه الرابطة إلى أن يكون لديها دير في المكان الذي يشير إليه التراث بأنه مكان حدائق الملك سليمان، وجمعت المال لهذه الغاية في الأرجنتين والأورغواي في أميركا الجنوبية. وقد بني الدير في عام 1894، ووصلت الراهبات في عام 1901، وفي العام نفسه شُقت طريق من القرية إلى برك سليمان بجانب الطريق من القدس إلى الخليل.

أن ينظر في الرجال في المقام الأول، لتتبع الأجيال، وتفحص وقائع الزواج. ولكي أحصل على القاعدة اللازمة لدراسة وقائع الزواج في أرطاس، جمعت معلومات مؤكدة عن زيجات جميع الفلاحين في القرية.

وبدأت بأكبر رجل يذكره الناس في كل عشيرة، ثم انتقلت إلى أولاده، وأحفاده، وأحفاد أولاده... وهكذا، حتى وصلت إلى الوقت الحاضر. وفي كل حالة طرحت الأسئلة الآتية: ما اسم الزوج؟ هل ما زال على قيد الحياة؟ هل هو متزوج من واحدة أو متعدد الزوجات؟ هل هناك صلة قربى بين الرجل وزوجته؟ وإذا كان كذلك فما هي (هل هم أبناء خالات؟ أم أبناء أعمام؟ هل هم أبناء عمات؟ أم أبناء أخوال؟... إلخ). وإذا لم تكن الزوجة من أقارب الزوج؛ فهل هي من القرية نفسها؟ وإذا كانت كذلك، فمن أي عشيرة في القرية هي؟ هل الزوجة من مكان آخر؟ وإذا كانت كذلك، فمن أي مكان هي؟ ومن أي عائلة؟ وكيف تعرفوا إليها؟[40] وماذا قُدِّم مقابل العروس؟ وإذا كان للعروس مهر فما هو؟ وإذا كانت بدلًا، فمن أي نوع؟ بمن استبدل الرجل عروسه (بأخته، بابنته، بابنة عمه،... إلخ)؟ هل كان هناك بدل متعدد؟ وهل كان هناك أولاد من هذا الزواج؟ كم من الأولاد؟ وكم من البنات؟ وما أسماؤهم؟ هل انتهى الزواج بالطلاق؟ وإذا كان كذلك، فما السبب؟ هل انتهى الزواج بموت الرجل أو المرأة؟ هل تزوج من بقي منهما على قيد الحياة مرة أخرى؟ وإذا كان كذلك، فما الدافع؟ وما نوع الزواج الجديد (هل هو زواج الأرملة من أخ المتوفى، أو زواج الأرمل من أخت المتوفاة،... إلخ)؟ هل ثمة ما يستحق الملاحظة أو التدوين عن أولئك الناس مدار البحث في ضوء هذه النقاط المختلفة، أو بأي صورة أخرى؟

وأدرجت الإجابات عن هذه الأسئلة جميعًا في أعمدة، لتشكل قوائم عائلية تحتوي جميع المعلومات المتعلقة بعقود الزواج في القرية خلال فترة مئة عام. ودخل مئة وتسعة وتسعون رجلًا في ما مجموعه مئتان وأربعة وستون عقد قران في هذه الفترة. وفي ما يتعلق بنساء أرطاس اللواتي زُوِّجن في أماكن

---

(40) انظر أيضًا أدناه في الصفحة 143 وما يليها من هذا الكتاب.

أخرى، فلم تعد حياتهن بعد ذلك جزءًا من تاريخ القرية، وإن كن ذكرن من حين إلى آخر في ما روى لي. ومع ذلك، فقد حصلت بانتظام على معلومات عن الظروف التي أحاطت بزواجهن، ودخلت خمس وستون امرأة من أرطاس في ما مجموعه سبعة وستون عقد قران مع رجال من أماكن أخرى. وبالاستناد إلى قوائمي العائلية، استنبطت بيانات إحصائية، ونظّمت جداول، رأيت أنها ضرورية لاستكمال أشجار الأنساب، ثم صنفت بقية مادتي بناء على هذا الأساس.

ولا بد من التسليم بأن مادة كهذه شاملة، تكفي لتكون أساسًا للدراسة المقارنة. وفي حقيقة الأمر، يجتمع في دراسة هذا الحيز المحدود، أرطاس، منهجا علم الأنساب والمنهج المقارن، وفي الوقت نفسه، سيستكمل النقاشُ المعلوماتِ الإحصائية المتعلقة بالمسائل الإثنولوجية بشكل عام. وقد أثبتت طريقة إنشاء قوائم للعائلات كذلك فعالية خاصة في تحري العادات والتقاليد المختلفة. ومن المدهش أن الناس يتذكرون كثيرًا من الأشياء عندما ترتبط بالأفراد؛ فمن خلال تسجيل أسماء الناس في القرية، والتحاور في أخبارهم جميعًا على مدى أربعة أو خمسة أجيال، اهتدينا إلى الكثير من الحقائق المهمة التي ربما لم تكن لترى النور بطريقة أخرى[41]، ولقد ظهرت هذه المعلومات بصورة طبيعية جدًا، من دون أن أضطر إلى الإيحاء بها بأي شكل من الأشكال.

وباستخدام هذه الوسيلة حصلت على مجموعة كاملة من الوقائع المتعلقة بالأفراد وبمصائرهم. وتبدو لي مثل هذه الصور من الواقع بالغة القيمة؛ فهي تمنحنا مشهدًا لحياة أناس كأفراد، لا نكاد نعرف عنهم شيئًا، ويصعب علينا تخيّل ما كانوا عليه[42]. وتوفر مثل هذه المعلومات دراسات أحادية مصغرة تُبنى عليها الدراسة الأحادية العامة[43]؛ فالمهم في الأمر أنها ليست أخبارًا عن

(41) انظر: W. H. R. Rivers, «A Genealogical Method of Collecting Social and Vital Statistics,» *The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*, vol. XXX (1900), p. 81.

(42) تستند معرفتنا عن الفلاحين كأفراد، في الواقع، على القصص البطولية وغيرها من القصص الأخرى، وهي بذلك تبنى بالاعتماد على ما نعرف عن أناس خياليين فقط.

(43) تقول تايلر في مقالتها: John Lionel Tayler, «The Study of Individuals [Individuology] and their Natural Groupings [Sociology],» in: *Sociological Papers*, vol. III (1907), p. 113,

«وكما أن الخلية وأنواعها المختلفة أساس علم الأحياء، فكذلك هي دراسة الأفراد (علم دراسة =

أفراد منعزلين، بل عن أفراد ينتمون إلى مجتمع ما. والمجموع الكلي لهذه الملاحظات التي جُمعت عن أناس حقيقيين وفقًا لإجراءات محددة، لا بد من أن يُنتج صورة متكاملة. وتعنى هذه الدراسة بكل الحالات المحددة ذات العلاقة في مجتمع معين خلال فترة حضارية معينة.

ويتاح للباحث من خلال الأخبار التي يجمعها عن الوقائع أن يلاحظ مقدار تباين الناس في النظر إلى الأشياء، وكيف أنهم يستبدلون قاعدة سلوكية بأخرى إذا ما طرأت تغييرات وتعقيدات، وكيف يقدمون تنازلات عندما تقتضي الحاجة ذلك. وهذا يختلف كثيرًا عن بناء عمل الباحث على روايات نمطية يرويها أشخاص لم يتعودوا التفكير التجريدي. وتبين لي كذلك أن الفلاحين عندما يعمّمون في معلوماتهم، فإنهم، في كثير من الأحيان، إنما يتخذون واقعة بعينها، حديثة نسبيًا، تكون نصب أعينهم[44]، ويبنون عليها تعميمهم. ولكن التعميم بناء على الأخبار عن الوقائع الحقيقية، كتلك التي بين أيدينا، صعب؛ لأن الحياة لا تسير في خط مستقيم معين، متبعة قوانين محددة؛ فعندما تتأمل جميع الوقائع المعروفة في القرية، فإن تحديد المبادئ والقوانين العامة التي تنظم وتحدد مسار الحياة في مجتمع كهذا، ليس بتلك السهولة. وصحيح أنني قد عززت مادتي من الوقائع الحقيقية بأقوال وقواعد عامة، كما أن الفلاحين أنفسهم كانوا يميلون ميلًا كبيرًا إلى تفسير آرائهم في الناس والظروف، مستخدمين أمثالًا شعبية ليدللوا على صدق أقوالهم، إلا أن هذه الأقوال، والأمثال، والقواعد الحياتية، والقوانين الاجتماعية، تمثل في ذاتها، في كثير من الأحيان، آراء متضاربة، أو أن هناك هوةً واسعة بين الأقوال النظرية والممارسات الفعلية في ما يبدو؛ إذ تُظهر أبحاثي الإحصائية أنه حتى وإن اتفق الرأي العام على إجلال عادة أو عرف، فإنه لا يمكن للمرء أن يستنتج أن هذه العادة ستظهر على أرض الواقع على نحو يتناسب وعلوّ شأنها. فمن المهم جدًا، في ما يبدو لي، أن أرى

= الأفراد) ضرورية في دراسة (علم الاجتماع) التجمعات الطبيعية للأفراد لتشكيل وحدات اجتماعية متنافسة ومؤثرة في المجموع الاجتماعي الكلي».

(44) انظر ريفرز في الصفحة 82 في المرجع المشار إليه سابقاً: «لا بد أن كل من لديه تجربة عن عقلية الرجل البدائي قد وجد صعوبة في تفسير المعلومات المتعلقة بالأسئلة التجريدية، لكنه، من ناحية أخرى، يبدو أن عدد الوقائع المادية التي يمكن تذكرها كبير، ويصعب حصره».

مدى تطبيق النظرية على أرض الواقع، بغية فهم العلاقة بين النظرية والممارسة، لأتبين الحالات التي تنسجمان فيها، وإيجاد تفسير للحالات الأخرى التي يختلفان فيها اختلافًا كبيرًا[45].

وأهم ما في الأمر، بطبيعة الحال، هو القدرة على جني معلومات موثوقة تمامًا؛ فالطريقة الشرقية في النظر إلى الأشياء والظروف تختلف كثيرًا عمّا اعتدناه. فعلى الرغم من كل الدراسات النظرية السابقة، فإن الأمر يستلزم فترة زمنية طويلة من التواصل الشخصي كي يتمكن الباحث الأوروبي من فهم مثل هذا المسلك غير المألوف في الحياة، وهذا النمط المختلف في التفكير. ومن جهة أخرى، يجب أن يعتاد سكان القرية أولًا وجود الباحث الغريب بينهم؛ إذ لا يمكنه أن يبدأ فعلًا بإنجاز شيء من بحثه، إلا عندما يكفّ الناس عن النظر إليه بوصفه عنصرًا دخيلًا. ولا يتعلق الأمر برغبة الناس في إشباع فضولهم في ما يخص الوافد الجديد فحسب؛ إذ لا ينتظر أن يبوحوا لغريب لا يعرفون شيئًا عن خططه ونواياه، إلا بأمور سطحية جدًا.

وفي كلا الأمرين، كانت إقامة زميلتي لويز بالدنسبيرغر (Louise Baldensperger) في أرطاس، ومعرفتها الواسعة بالناس لأكثر من ثلاثين عامًا، عونًا كبيرًا لي؛ فقد جمعت، لاهتمامها الكبير بالفلكلور الذي يبدو أنه سمة لأسرتها[46]، خبرة وفيرة بعادات الفلاحين وأعرافهم وحياتهم، ولا سيما في أرطاس. ومن خلالها تفتحت عيناي على الكثير مما يميز حياة القرية، ومن خلالها حظيت بثقة الناس وتعاطفهم على الفور تقريبًا، حتى باتوا يشركونني في كل شيء، وقدموا لي كل ما طلبت من المعلومات، ولم يكد يحدث أي شيء في القرية مما يمكن رؤيته إلا وشهدته بأم عيني، حتى قنعت بما رأيت منه، وتوافر لي من المعرفة ما مكنني من فهم الناس وحياتهم، وأتيح لي مرارًا

---

(45) انظر أدناه في الصفحات 127 و137 وما يليها من هذا الكتاب، على سبيل المثال، الاختلاف بين ما هو مثالي وواقعي عندما يتعلق الأمر بالزواج من ابن العم أو الزواج من الغرباء. والأمر نفسه ينطبق على ما يقال عن سهولة الطلاق، ومدى حدوثه على أرض الواقع.

(46) أخوها هو فيليب بالدنسبيرغر مؤلف كتاب الشرق الذي لا يتغير (*The Immovable East*).

وتكرارًا، في الأعياد ومن خلال الحياة اليومية، أن أتثبت من صحة ما قيل لي عن العادات والتقاليد، ومن أن أسجل ملاحظات جديدة. ويعلم كل من أجرى دراسات إثنولوجية ميدانية أن هناك سبلًا ووسائل يستخدمها الباحثون للتحقق من الأمور التي لا يمكن لهم مشاهدتها بأنفسهم(47). فعلى الرغم من أهمية ما نلاحظه بأنفسنا، فإنه يستحيل أن يتمكن الباحث من رؤية كل ما ينبغي عليه رؤيته في دراسة كهذه. ويمكن له أن يلاحظ العادات والطقوس، وأن يطمئن إلى أنها متّبعة حقًا؛ أي إنها تتكرر بانتظام(48)، ولكن هذا لا يكفي لمعرفة الفكرة الكامنة وراء هذه العادات؛ أي لماذا يفعل الناس هذا الشيء أو ذاك؟! فعندما يتعلق الأمر بتفسير أو بيان سبب العادة أو العرف، فيجب أن نحصل على المعلومات من الناس أنفسهم، وإلا فلا مفرّ من أن نقع في أخطاء. ولهذا السبب، كنت أعهد إلى مُحدثتيّ برواية عادة أو حفل ما، حتى وإن كنت شهدته بنفسي. فقد أردت أن أتعلم أنماط تفكيرهم كي لا أضفي على الأحداث تفسيرات أوروبية، أو وجهات نظر أو دوافع غريبة عن سكان القرية.

وبفضل لويزا بالدنسبيرغر، وُضعت أفضل مخبرة في القرية، عليا إبراهيم (ابنة إبراهيم عودة [1])، من عائلة عودة، تحت تصرفي(49)، وكان لوجود منافسة لها، وهي حمدية سند (ابنة سليمان سند [183])، مزاياه؛ فقد كانت تأتينا كل يوم لخدمة لويزا بالدنسبيرغر، وكانت قادرة على القيام بدور عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، وسيجد القارئ أنني حصلت على معظم أخباري

(47) أعانتني القوائم العائلية في هذا الشأن كثيرًا. ولما كان معظم المعلومات يرتبط بالأفراد؛ فإن الدقة الكبيرة مطلوبة من مخبرتي. وكانت المعلومات تتأكد من تلقاء نفسها: فأي مقولة ترد عن إحدى النساء عندما يكون الحديث عن عائلتها، ينبغي أن تتفق مع ما يقال عنها عندما يكون الحديث عن عائلة زوجها، وهكذا.

(48) في فترة تتسم بالتفكك الاجتماعي كالوقت الحالي (انظر أعلاه في الصفحة 50 من هذا الكتاب) والتي تختفي فيها الكثير من العادات والتقاليد، لا يستطيع الباحث أن يتتبعها بانتظام؛ ففي مناسبة ما تمارس عادة قديمة ما، وفي مناسبة أخرى نلاحظ عادة قديمة أخرى.

(49) قدمت أ. غودريش فرير (A. Godrich Freer) وصفًا رائعًا لحياة مخبرتي، تحدثت فيه عن «قصة عليا» في كتابها: A. Godrich Freer, *Arabs in Tent and Town* (London: Seeley, Service & Co., 1924), p. 72f.

ومعلوماتي من هاتين المرأتين. وخلال تجوالي في القرية كان بإمكاني التأكد تمامًا من المعلومات التي وصلتني حتى ذلك الحين عن أناس شتى، من أصحاب الشأن أنفسهم، ولكن، بدا ضروريًا وعمليًّا جدًّا، من معظم النواحي، أن يكون لدينا مخبران معينان يأتياننا إلى البيت حيث نعيش، وإلا لكان الأمر منوطًا بمشيئة الناس أكثر مما ينبغي؛ فبهذه الطريقة وحدها يمكن للمرء أن يحصل على فترة كافية من وقتهم. وكان برنامج عملي اليومي منتظمًا وثابتًا، باستثناء الأيام التي كانت فيها مناسبات لا بد من حضورها، كالأعياد، أو المناسبات الخاصة جدًّا[50]، أو الرحلات القصيرة؛ فقد كنا نبدأ في الساعة الثامنة صباحًا ونواصل العمل حتى وقت الظهيرة، وهي الفترة الأولى والأهم، ثم نقوم بجولة في القرية، لمتابعة الأحداث اليومية، وكذلك لزيارة الفلاحين في بيوتهم، وعند عودتنا نستأنف العمل حتى الساعة التاسعة مساء. وكانت المادة التي نحصل عليها في الصباح هي الأفضل؛ عندما تكون الفلاحات في قمة النشاط بعد قسط وافر من الراحة[51]. وفي فترة ما بعد الظهر، اعتدنا مراجعة أحاديث الصباح وترجمتها، وكنا نسأل النساء معلومات إضافية عن أمور أو جمل مبهمة، ومفردات صعبة وردت في أحاديثهن الصباحية، ومثل هذا العمل يحتاج إلى ممارسة؛ فقد تعلمت النساء أن يروين ببطء شديد حتى نتمكن من تدوين معلوماتهن كلمة كلمة، وأظهرن صبرًا عظيمًا حتى عندما كنا نطلب منهن تكرار الوقائع بغية التأكد منها. وعلاوة على ذلك، كنت أحصل على تعليقات وتوضيحات للمفردات والجمل من لويزا بالدنسبيرغر نظرًا إلى معرفتها الوثيقة بمصطلحات الفلاحين. واستخدمت من تلك التعليقات تفسيرًا هنا، أو مصطلحًا هناك، وبيَّنت ذلك، باستخدام اسم «الست لويزا»[52]، وهو الاسم الذي تشتهر به في القرية؛ فملاحظاتها وخبرتها المتراكمة على مدى

(50) على سبيل المثال: عند جني المحاصيل، والولادة، والخطوبة، والزواج، والوفاة، وما إلى ذلك.

(51) كانت الصلوات الخمس اليومية التي كانت النسوة العاملات معي يصلينها بانتظام مربكة للعمل، وكذلك فترات الصوم، عندما يصاب الناس بالوهن والإنهاك. في المقابل كانت فترة حفلات الزواج في الخريف، بعد موسم العنب مباشرة، فترة رائعة لعملي.

(52) يخاطب العرب السيدة باستخدام لفظة «ست» يتبعها اسمها الأول.

عمرٍ من الزمان جديرة بالتقدير والاهتمام. لكنني أهملت المادة التي جمعتها في الجزء الأول من فترة إقامتي في القرية بالكامل تقريبًا؛ أي عندما كانت لويزا بالدنسبيرغر ما زالت تؤدي دور الترجمان. وحيثما اقتبست شيئًا من تلك المادة في بعض المواضع، بيّنت ذلك بوضوح. وكان هذا مفيدًا للغاية عندما بدأت أنغمس في حياة القرية، لكنني كنت واضحة منذ البداية في عزمي على أن تكون هذه المرحلة التي أستعين فيها بترجمان مرحلة مؤقتة ليس إلا؛ فقد أردت الحصول على مادة أصيلة بالفعل من الميدان، لكي أكون قادرة في ما بعد على بناء بحثي بالاستناد إلى معلومات أصيلة من سكان القرية أنفسهم.

كما بدا لي أن عرض المادة كما وصلتني هو عين الصواب، حتى يكون الأساس الذي بنيت عليه أحكامي معلومًا؛ فمن الممكن أن يفهمها آخرون على نحو مختلف. ولا بد أن يكون لها قيمة عند أولئك الذين لا تتاح لهم فرصة العيش بين أهل أرطاس، ليشاهدوا ويصوغوا أحكامهم على ما يروي الفلاحون وعلى أسلوب روايتهم. وإذا كانت الأخبار، على الرغم من بساطتها في ظاهرها، تحتاج في كثير من الأحيان، إلى تحليل لفهمها فهمًا تامًا، فإن الملمين بالأسلوب العربي في الحديث، ورواية الوقائع والقصص، سيفهمون الأسلوب الموجز الذي يروي به الفلاحون قصصهم. وبالطبع، فقد فكرت في عرض جزء كبير من المادة باللغة العربية، لكن ذلك لا يلزم في عمل يعتمد كل شيء فيه على المحتوى. ولهذا، فمادتي هي ترجمة مباشرة للأخبار الحرفية التي قدمتها النساء. وقد تحقق إلياس حداد، في ما يتعلق باللغة، من المصطلحات، والعبارات، والصيغ، والأمثال، والقواعد اللغوية المهمة في حينه، كما دُققت الاقتباسات العربية في هذا البحث بالطريقة نفسها.

واتخذ بحثي طابعه هذا، في الغالب، لأنني حزت جل مادته من النساء[53].

---

(53) يقول سليغمان في: C. G. Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II. (Cambridge: Harvard University Press, 1918), p. 139,

«للحصول على معلومات مضبوطة متعلقة بالأنساب كان من الضروري سؤال النساء عنها، وكنت أكرر ذلك كلما سنحت لي الفرصة».

ومع ذلك، لا ينبغي أن ينتظر المرء أن يجد فيه ما يبين أحوالهن، من سعادة أو شقاء. ولا شك في أنهن يشعرن بوطأة أعبائهن أحيانًا، ويتفق معهن الفلاحون (الرجال) في ذلك، لكنهن، بوجه عام، أكثر واقعية من أن ينغمسن في تدبر خواطرهن وتحليلها. وأقل شكواهن كانت من الرجال، وكن يتندرن بكثير من جوانب حياتهن الأخرى التي نراها نحن مثيرة للأسى، كتعدد الزوجات مثلًا، وهذا يبعث على الراحة والسرور، إزاء ما اعتدناه من تذمر الغربيين من اضطهاد النساء في الشرق. وحتى هذه اللحظة، كلما دار نقاش حول حال المرأة الفلسطينية، أو كما يحلو لبعضهم أن يسميها، المرأة الشرقية، لا يتورع أحدنا عن إطلاق أحكام هي محض آراء شخصية، عوضًا من البحث في الوقائع، والظروف الخاصة، والقوانين الناظمة لحياة النساء في المجتمع الفلسطيني.

والباحثون الذين يستقون معلوماتهم من النساء أفضل حالًا من أولئك الذين يستقونها من الرجال؛ فالنساء يولين أحوالهن اهتمامًا بالغًا، ويروق لهن التأني في الحديث في أمور يمر الرجال عليها مرور الكرام. وتبين تلك الأناة أمورًا كثيرة على غير ظاهرها، ولا سيما في المسائل المتعلقة بالاستعلام عن الزواج، وهو أمر غاية في الأهمية، وله أثر كبير في أحوالهن.

ويجد القارئ في الحواشي أسفل المتن نظائر لما ورد في المتن أو أضدادًا له، وملاحظات وإشارات إلى معلومات في مصادر منشورة. وقد وجهت الاهتمام، في المقام الأول، نحو الأدبيات التي تعنى بالأحوال في فلسطين، وإن كنت قد استشهدت كذلك بأعمال تتناول بقية العالم العربي والإسلامي. فيمكن للمرء أن يتبين من خلال النظر في الحواشي، أيتبع الناس الطقوس، أو العادات، أو الأعراف المذكورة هنا على نطاق واسع أم لا، وفقًا لما يرد في الأدبيات المتاحة. ومن الأعمال الإثنولوجية ذات الصبغة العامة استشهدت بكتاب إدوارد ويسترمارك تاريخ الزواج الإنساني (*The History of Human Marriage*)، وكتاب ج. ج فريزر الفلكلور في العهد القديم (*Folk-Lore in the Old Testament*). وهذان الكتابان يحتويان على قائمة جامعة بالأدبيات ذات العلاقة، ولا حاجة لتكرارها هنا.

لكن هذه الاقتباسات لا ينبغي أن تعد أساسًا لما في المتن من بيانات؛ فأطروحتي تستند إلى المادة التي جمعتها في قرية أرطاس فحسب؛ إذ كنت على يقين من أن أي مسلك آخر كان من شأنه أن يجعل الصورة ضبابية، ويطمس الحدود، حتى ليتعذر القول أَبُنِيت الأحكام على عملي الميداني أم شابتها معلومات من مصادر أخرى؟! وهذا هو السبيل الوحيد الذي يتضح لنا من خلاله بالفعل إلى أي مدى يمكن لدراسة أحادية أن توضح المسائل والمشاكل التي تعنى بها الأدبيات الإثنولوجية العامة.

الفصل الثاني
سن الزواج

الخطبة عند الولادة: (عطية إلجورة)

«مُبَارِكٌ العريس (مْبَارك العريس)!»، هكذا يستقبل الناس ميلاد ولد صغير في أرطاس. «مُباركةٌ العروس (مْبَارك العروس)!» وهكذا يقال إذا كان المولود الجديد أنثى[1]. «ماذا أعطاك الله؟» يسأل رجل رجلاً أصبح للتو أبًا لبنت، فتكون الإجابة «رُزقنا للتو بعروس». - «مُباركة (مْبارَكة)!». وإذا ما ردَّ الأب: «هي لك (عَ حبل إيدك)»، وأجاب الآخر: «وأنا قبلتها (وأنا قبَّالها)»، تكون البنت قد خُطِبَتْ يوم مولدها، فيقرر الأب بتلفُّظه بهذه العبارة مصير ابنته أحيانًا، وتسمى هذه العروس (عطية إلجوْرة). وهي تعني حرفيًا «أعطية الحفرة»؛ أي حفرة الولادة[2]. وفي ما يأتي تفصيلٌ لهذا النوع الخاص من خِطْبة الأطفال، ومفاهيمه، ومراسيمه، وإلزاميته، وديمومته:

---

(1) في ما يتعلق بصيغ التهنئة بمناسبة الولادة انظر: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel* (Leipzig: H. G. Wallmann, 1903), p. 58;
H. H. Spoer and E. Nasrallah Haddad, *Manual of Spoken Palestinian Arabic* (Jerusalem, 1909), p. 163, and Edward Westermarck, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London: Macmillan & Co., Ltd, 1926), p. 375f.

(2) حدثني الطبيب ت. كنعان من القدس مفسرًا هذه العبارة: «تجلس النساء الشرقيات في أثناء الولادة على شيء مرتفع؛ ففي المدن، يستخدم كرسي يتوسطه ثقبٌ كبير، أما في القرى فتجلس المرأة في أثناء الولادة على حجر أو اثنين. ويسمى الفراغ ما بين الأرض والجسد «جورة»؛ أي حفرة».

وقد رأيت بأم عيني في أرطاس أمًا تجلس في البيت على حجر انتشر الطحلب أمامه. ومن الواضح أن ذلك يمثل الطبيعة. ويروى في القرية أن المرأة البدوية عندما تنجب طفلًا، تذهب إلى البرية وحدها، وتحفر حفرة في الأرض تدفن فيها المشيمة. وقد يكون هذا أصل عبارة (عطية الجورة).

أولًا: حادثة متخيلة تحدثنا فيها عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن (عطية إلجورة)، مبينة أهميتها:

«على سبيل المثال، تولد بنت لمحمد اسْمَعين [53]. فيأتي إليه أخوه أحمد [52] ويقول له: «مباركة ابنتك!» فيجيبه: «أتتك، هدية لا تكلفك شيئًا (ما وراها جزا). هي لابنك أعطية من الحفرة، وستحصل عليها دون مقابل»؛ فيقول أحمد [52]: «أشكرك كثيرًا! وأنا قبلتها، وسأقدم لك ما هو حق لها (جزا) بحسب العادة بين الناس»، ويقول الحاضرون: «مباركة! ونحن شهودك».

ويذهب بعد ذلك إلى السوق، ويشتري بقدر ما أعطاه الله [أي قدر استطاعته]، منديلًا أو ذراعًا من القماش على سبيل المثال، ويضيف إلى ذلك ربع مجيدي [حوالى شلن].

وإذا ما جاء أحدهم بعد ذلك [إلى أبي الفتاة] قائلًا «هلا أعطيتني ابنتك؟» يجيبه: «هي أعطية الحفرة، لا أستطيع أن أقع في الخطأ؛ فهنالك شهود».

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن أربع حالات لخِطْبة (عطية إلجورة) في أرطاس، وحمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن أخرى خامسة، كما أنني علمت بوجود عروسين أخريين من هذا النوع في القرية. وقد توفيت العروس في الحالة الأولى قبل أن يتم الزواج.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «أنجبت محمدية (زوجة محمد خلاوي [109]) بنتًا (خليلية ابنة محمد خلاوي [109])، ثم طلب زوجها (محمد خلاوي [109]) قهوة للأم في منتدى الرجال (ساحة). فهنأهُ أحمد اسْمَعين [52] قائلًا: ماذا بعث الله لك؟ - «جاءتنا عروس» - مُباركة، وقال [الأب]: هي لِيَدك - فأجاب أحمد اسْمَعين [52]: وأنا قبلتها، وأعطى محمد خلاوي [109] ثوبًا قائلًا: هذا صهرنا (هاذَ انسيبنا) سأكسوه [عباءة]، وفعل ذلك حقًا.

وكبرت البنت حتى صارت حاطبة (تجمع الحطب)(3)، ثم توفيت، وهكذا كان قدرها. وفي الحالة الثانية أعطيت العروس إلى آخر.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): أنجبت فاطمة خليل (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة اسْمَعين أحمد [55])، بنتًا سميت حمدة (ابنة اسْمَعين أحمد [55]، وزوجة محمد علي [75])، وكانت حمدة الزير (زوجة محمد اسْمَعين [53]) هي داية أمها، وحدث الأمر في حبيلة(4). وباركت حمدة (زوجة محمد اسْمَعين [53]) لأبي البنت (باركت لأبي البنت) قائلة: «مباركة العروس! فقال لها: هي ليدك (عَ حبل إيدك) - فأجابته: وأنا قبلتها (وأنا قبّالها)». وعندما عادت حمدة (زوجة محمد اسْمَعين [53]) إلى البيت، قالت لزوجها محمد اسْمَعين [53]: «ابن أخيك (اسْمَعين أحمد [55]) أعطانا ابنته التي ولدت (عطية إلجورة). فقال: ونحن قبلناها (واحنا قبّالينها)، وسنقدم ما هو حق لها بحسب العادة بين الناس».

(ولكن بعد عدة سنوات، عندما كبرت البنت) قال أبوها: لا أريد أن أعطيك إياها، أريد أن أزوجها (الآن) وآخذ مهرها لأني فقير - فأجابه: «إذا كنت لا تريد الانتظار، فاذهب وزوِّجها لآخر».

وهكذا، كان أن خطَّب اسْمَعين أحمد [55] ابنته حمدة (زوجة محمد علي [75]) في صيف عام 1926 إلى محمد [75] ابن علي سالم [70] من عشيرة الربايعة، على الرغم من أنها كانت (عطية إلجورة) لابن عمه(*).

وطُبخ الطعام (أي وليمة الخِطْبة)(5) في حي الربايعة، ولم يحضر أحد من عائلة اسْمَعين، ولا حتى جدها (أي أحمد اسْمَعين [52]). أما علي ابن محمد اسْمَعين [58] (أي العريس المهجور)، فعبر عن سخطه بأن ذهب إلى هناك وقلب القدور، فكان عليهم البدء بالتحضيرات من جديد.

(3) تستخدم هذه العبارة للإشارة إلى عمر الفتاة.

(4) هي الآن خربة، يملك فيها أهالي أرطاس أراضي.

(*) في الأصل ابن أخيه والصحيح ما أثبت هنا؛ فمحمد اسْمَعين [53] (من أُعطيت البنت لولده «كعطية الجورة») هو عم اسْمَعين أحمد [55] والد حمدة [المترجمتان].

(5) انظر أدناه في الصفحة 92 من هذا الكتاب.

ولم تتزوج الفتاة حتى الآن، وهي تعاني داء الصرع، ويرغب أهلها بتزويجها في أحد أيام الخميس التي تسبق موسم النبي موسى [عليه السلام] (في الخميس)(6)، أو في موسم المشمش».

ولم يتفق أبو العروس اسْمَعين أحمد [55] مع أم العريس الجديد فاطمة خضر (ابنة خضر إحْسين [40]، وزوجة علي سالم [70]) على المهر إلى الآن؛ فزوجها (أي فاطمة خضر) في أميركا، وقد بنت للتو بيتًا جديدًا.

حدثتني الست لويزا: «لا يزال اسْمَعين أحمد [55] يعيش في حبيلة، وقد ترك بيت أبيه المختار (أحمد اسْمَعين [52])، ولهذا فهو يطلب غرفة مهرًا لابنته حمدة (ابنة اسْمَعين أحمد [55]، وزوجة محمد علي [75]). وهذا يناسبهُ تمامًا؛ فقد بنت أم العريس فاطمة خضر (ابنة خضر إحْسين [40]، وزوجة علي سالم [70]) للتو بيتًا جديدًا».

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «اسْمَعين أحمد [55] أبو حمدة (ابنة اسْمَعين أحمد [55]، وزوجة محمد علي [75]) لا يملك بيتًا، ويرغب في أن يأخذ بيت فاطمة (ابنة خضر إحْسين [40]، وزوجة علي سالم [70])، مهرًا لابنته ليسكن فيه، إلا أن فاطمة (ابنة خضر إحْسين [40]، وزوجة علي سالم [70]) لا تريد أن تعطيه غرفة، وتفضل أن تعطيه مئة جنيه، وتنتهي من الأمر، [وتعبر عن شعورها إزاء المسألة بقولها]: بنات حواء وآدم كثر (بنات حوا وآدم كثار (تشثار). هناك ما ينذر بانفراط السّبحة «هلمسبحة بدها تنفْرِد».

وتبين الحالة الثالثة أنه إذا ما أصر العريس على حقه في عروسه (عطية الجورة)، وجب على أبيها أن يعطيها له.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «كانوا في منطقة خلاء (عِزِب) بالقرب من بيت سكاريا، وأنجبت صبحة سالم (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة

(6) في ما يتعلق بشهر الخميس، وهو شهر الاحتفال الكبير في السنة عندما يزور المسلمون مقام النبي موسى [النبي موسى عليه السلام]، انظر: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I, 1 (Gütersloh: Evangelischer, 1928), p. 424f.

عبد خلاوي [110]) بنتًا. وذهب اسْمَعين خليل [116] وقال لأبيها: مبارك لك! فقد كان الناس قالوا لاسْمَعين خليل [116]: بارك له بالبنت كي تحصل عليها (بارك يا ولد منشان يعطيها). وقال له أبوه (خليل محمد [112](*): اذهب وأعطها مِنديلًا (مَنْديل) وربع مجيدي».

وكان اسْمَعين [116] وقتها ما زال طفلًا صغيرًا، ولعل الرجال استمتعوا برؤيته يدرج ليحصل لنفسه على عروس.

«وهكذا كان. كتبها الله». بهذه الكلمات ختمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) سردها لما حدث ذلك اليوم، لكنها في يوم آخر روت لنا الآتي:

«مِريم عبد (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اسْمَعين خليل [116]) كانت (عطية إلجورة) لاسْمَعين خليل [116]. وفيما بعد دبَّ الخلاف بين (الأبوين) عبد خلاوي [110] وخليل محمد خلاوي [112]، وقال (أبو البنت) لأبي العريس: لن أعطيك ابنتي» - فأجابه أبو العريس: ألن تعطيني إياها؟ هكذا إذن! لن تعطيني إياها؟ لا بأس، تستطيع الهرب، لكنني قمرك (اسري وأنا قمرك) (أي سأتبع خطواتك. يجب عليك تحسب حسابي).

وخطَّبها أبوها لحُسين عبدالله [87] (رجل آخر)، فقال لهم أبو العريس المزدرى: سأقلب القدور، لكن اطبخوا (أي احتفلوا بوليمة الخِطْبة)، لا بأس! سنرى من ينتصر وتسود كلمته! إذا كانت هي لابني فأنا خليل [112]، لكن إن أردت إعطاءها لآخر، فقل ذلك، فأنتم أصحاب القرار (إنتو صاحبين القول)، إلا أنه أضاف: لا ترتكبوا خطأً، سأجعل قولك كبولك (بَخَلّي قولك زي بولك).

(وعندما استدعي الشيخ بعد ذلك لكي يعقد القران). قال: لن أتم العقد! لأنها (عطية إلجوْرة)(7)، وإلا فلن أنال سوى المتاعب».

(*) يشار في الأصل أن والد سْمَعين خليل [116] هو أحمد محمد [113] والصحيح ما أثبت هنا [المترجمتان].

(7) انظر أدناه في الصفحة 97 من هذا الكتاب.

وعادت إلى اشمَعين [116]، وكان مهرها صك ملكية أرض (كوشان)[8]، وأقيم حفل الزفاف في خريف عام 1925.

وفي الحالة الرابعة: ألغيت الخِطْبة بسبب موت أبي العروس.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «في إحدى الليالي أنجبت حِلوة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة جاد الله سليمان [26]) (بنتًا) هي فاطمة (ابنة جاد الله سليمان [26]، وزوجة أحمد خليل [9]) في بيت سكاريا[9]. وفي الليلة التالية أنجبت صبحة جاد الله (ابنة جاد الله عودة [2]، وزوجة سعد إبراهيم [5]) ولدًا (اشمَعين [14]). وعاد (جاد الله سليمان [26]) أبو فاطمة (زوجة أحمد خليل [9]) إلى البيت في إجازة من الجيش. وقال له خاله سعد (سعد إبراهيم5[5]): مباركة ابنتك! فقال [أبو فاطمة [26]]: هي لك! (أي للمولود الجديد لسعد إبراهيم [5] (اشمَعين [14]). وأجاب: أنا قبلتها، وسأقدم ما هو حق لها (جزا) بحسب العادة بين الناس.

وبعدها مات جاد الله (جاد الله سليمان [26])، وكذلك زوجته حِلوة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة جاد الله سليمان [26])، ومات ولداه الاثنان، ولم تبق إلا فاطمة (ابنة جاد الله سليمان [26]). وبما أنه لم يبق لها أب ولا أم ولا أخ، قال عمها علي سليمان [27]: سوف أزوِّج البنت، وبهذه الطريقة سأقضي ديون أبيها. وقالوا (أي عريس (عطية إلجورة)، اشمَعين سعد [14]، وأقاربه) له: هلا انتظرت يا خال إلى أن نحصل على المال، فأجاب (علي سليمان [27]): سيأتي الدائنون ليستولوا على الأملاك بدل الدَّين، أنا في ضائقة كبيرة، أنا غارق في الديون. فقالوا له: سهل الله طريقك، بنات حواء وآدم كثيرات (بنات حوا وآدم اشتار).

وأعطى (علي سليمان [27]) فاطمة (ابنة جاد الله سليمان [26]، وزوجة أحمد خليل [9]) لأحمد خليل [9]. وكان مهرها خمسين جنيهًا، أعطاها منهم عشرًا، وقضى الديون بالأربعين جنيهًا المتبقية».

---

(8) انظر أدناه في الصفحة 96 وما يليها من هذا الكتاب.

(9) يملك أهل أرطاس أرضًا هناك.

حدثتني الست لويزا: «فُسرت وفاة العائلة بأكملها، إلا فاطمة (ابنة جاد الله سليمان [26]، وزوجة أحمد خليل [9])، بلعنة حلت عليهم. فاطمة (ابنة جاد الله سليمان [26]، وزوجة أحمد خليل [9]) كانت «قطيعة»؛ أي بلا أب ولا أم ولا أخ. ولهذا السبب فسخت خِطْبة (عطية إلجورة). ولو كان أبو فاطمة (ابنة جاد الله سليمان [26]، وزوجة أحمد خليل [9]) في قيد الحياة ما فسخت. وعلى العم مسؤوليات؛ فقد تولى أمر فاطمة (ابنة جاد الله سليمان [26]، وزوجة أحمد خليل [9]) والديون، ولكن له سلطة عليها أيضًا، وزوجها الحالي (أحمد خليل [9]) هو أحد أقاربها كذلك».

أما اسْمَعين سعد [14]، العريس المهجور، فتزوج في ما بعد من زوجة أخيه زريفة أحمد (ابنة أحمد جاد الله [21]) عندما ترملت بعد وفاة أخيه (موسى سعد [13])، مع أنها كانت تكبره بكثير.

والحالة الخامسة من حالات (عطية إلجورة) هي حمدية سند (ابنة سليمان سند [183])، والتي تروي بنفسها كيف خُطبت عند الولادة.

وبعد الإلحاح على حمدية (ابنة سليمان سند [183]) لتروي قصة حياتها، بدأت، كما اعتادت، بقولها الآتي:

«كيف أحدثك عن همي وغمي؟! فمنذ ولدتني أمي، وضعتني (عند الولادة) على صينية، وكل الناس دعوا علي (كيف أخرفك عن همِّي وغمِّي من يوم جابتني إِمِّي حطَّتني على الصينية وكُل الناس دَعت عَليِّ)»[10].

وتابعت: عندما أنجبتني أُمي لفَّتني في خرق ووضعتني على صينية[11]،

---

(10) حدثتني الست لويزا: «يقول هذا من لا حظ له في الدنيا».

(11) رأيت بعيني ولدًا حديث الولادة يوضع فور ولادته، بعد أن قُمِّط، على صينية من القش المجدول (طبق)، كالذي يستخدمه الفلاحون كخِوان [ما يوضع عليه الطعام عند الأكل]، وقد بُسطت عليه بعض الخرق. وفي أيامنا هذه يستخدم الناس سلة تسوق أول الأمر. وبحسب ما قالته حمدية (ابنة سليمان سند [183]) فإن سبب غضب الناس على حمدية كان لون بشرتها الداكن، والذي دفع الداية، سلمى سند (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1])، أخت أبيها (عمتها) إلى الشك =

وغضب الجميع مني. بعدها جاء دَبَنج (من بيت لحم) وقال: مباركة ابنتك يا أبا إبراهيم! فقال له: هي لك (على حبل إيدك) - فأجابه: وأنا قبلتها (وأنا قبَّالها)، فلتشهدوا على هذا أيها الحاضرون (اشهدوا لي يا حاضرين)! فقالوا: ونحن نشهد بما سمعناه، وأحضر لها سلسلة وخرزًا».

أما العروس السادسة، فكانت بنتًا خطبها ثلاثة في يوم مولدها؛ فبينما كنت في أرطاس، ولدت لعبدالرحمن عبد [152] بنتًا، وأصبحت هي كذلك عروسًا (عطية إلجورة). وصادف مولدها حفل ختان أولاد شيخة شاهين (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) الثلاثة الصغار. وجاء اسْمَعين حسن [146] وطلبها لابنه شحادة[12]. وفي اليوم نفسه، وللغاية نفسها، جاء أحد أقارب أبيها وخطبها، لكنها كانت قد خطبت. وفي وقت ما لاحق من اليوم نفسه جاء شاهين موسى [139]، وهو كبير العائلة، والذي رقص لاحقًا بعد الظهر أمام موكب ختان أبناء ابنته (أحفاده)، وطلب يدها لابن ابنه الكبير (حفيده) توفيق (ابن خليل شاهين [150])، البالغ من العمر ثلاث سنوات. وبهذا جاء للطفلة الصغيرة ثلاثة خطَّاب في يوم مولدها. وكما يقال في أوروبا، قبلت واحدًا، ورفضت اثنين، وهي لا تزال نائمة في سلتها الصغيرة. وزرناهم في المساء نفسه لمشاهدة الظاهرة الصغيرة. وقالوا إن العريس (ابن اسْمَعين حسن [146]) سيرسل لها مِنديلًا (مَنديل) ومالًا ليؤكد حقه فيها. كما قالوا إنه في يوم ختانه - في ذلك اليوم كان الكل يتحدثون عن ختان أبنائهم ويخططون له - عليه أن يهديها ثوبًا، ويتعين عليه أن يرسل إليها هدايا في كل عيد. «ألن يقدم لها مهرًا فيما بعد؟»، بل سيفعل، خمسون جنيهًا؛ وبالنظر إلى كونه من الأقارب فقد يقدم لها ثلاثين جنيهًا فقط.

هكذا دارت الأحاديث عن الطفلة الصغيرة بين النساء اللواتي جئن للتهنئة

= بأنها حملت سفاحًا. وفي غمرة انفعالها تركت المولودة، وأغفلت إصلاح هيئة رأسها، وأشياء أخرى، فبحسب معايير الفلاحين لم يكن لرأسها الهيئة الصحيحة.

(12) انظر الآية العشرين من الإصحاح الأول من سفر صموئيل الأول، انظر كذلك: S. I. Curtiss, *Primitive Semitic Religion Today* (Chicago; New York; Toronto: [n. pb.], 1902), p. 157f.

بالولادة. أما هي، فنامت في سلتها غافلة تمامًا عن الحديث المتعلق بمصيرها. لكنها كانت فاتنة، ولأمها سحر خاص، حتى إنه ليمكن لك أن تفهم رغبة الأبوين بتأمين عروس مثلها لابنهم المحبوب.

وقبل أن أغادر أرطاس، ولأسفي الشديد، شهدت جنازة العروس الصغيرة؛ فقد توفيت فجأة في إحدى الليالي، باعثة الأسى في نفس أمها التي تاقت سنوات طويلة للحصول على طفل. أما العريس الصغير الذي كان لا يزال في حضن أمه، فلم يعِ الخسارة التي ألمت به على الإطلاق.

ويقال عن نعمة عبد السلام (ابنة عبد السلام إبراهيم [92]) إنها هي أيضًا عروس (عطية إلجورة).

وتروي النساء عن نعمة (ابنة عبد السلام إبراهيم [92]) أن سعدة أحمد (زوجة إخْسين إبراهيم [93]) رغبت فيها «كعطية إلجورة» لابنها محمد الذي يسمى عادة ثلجي (ابن إخْسين إبراهيم [93])، وأنه بالفعل كان يزورها في كل عيد كبير حاملًا الهدايا، كما ينبغي للعريس أن يفعل[13]. وعندما التقينا ذات يوم بشيخة شاهين (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) التي جاء ذكرها في المثال السابق، وهي أم نعمة (ابنة عبد السلام إبراهيم [92])، في أثناء جولة لنا في القرية، سألناها عن الأمر، فأجابت: «انتهى الأمر»؛ فقد قالت لسعدة (زوجة إخْسين إبراهيم [93]): «أريد مهرًا لابنتي كي أزوج ابني به. انتهى الأمر». وكانت سعدة (زوجة إخْسين إبراهيم [93]) ترى أنها ينبغي أن تكون هدية. وقالت شيخة (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) «لكن في هذه الحالة كيف سأزوج ابني؟»، ثم قالت سعدة (زوجة إخْسين إبراهيم [93]): «عندما يبلغ ابني سن الزواج، سأبحث له عن عروس»، فقالت شيخة (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) «سهّل الله طريقك!»؛ أي إن كل شيء على ما يرام.

(13) انظر: Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine, Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge: Deighton, Bell & Co., 1864), p. 183,

انظر كذلك الصفحة 438 من كتاب دلمان المشار إليه سابقًا.

حدثتني الست لويزا: «تبدأ النساء بالتفكير في زواج أبنائهن في وقت مبكر جدًا؛ فعندما أعطيت نعمة (ابنة عبد السلام إبراهيم [92]) لسعدة (زوجة إحْسين إبراهيم [93]) لم يكن لشيخة (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) في ذلك الحين أبناء ذكور! أما الآن فالأمر مختلف تمامًا؛ فلديها الآن ثلاثة أولاد، ولهذا فقد غيرت رأيها.

هذه هي الأمثلة السبعة المعروفة في القرية بشكل عام على عرائس (عطية إلجورة)، وقد يكون هناك غيرها، أو لربما كان هناك غيرها في ما مضى؛ فقد روت لنا عيشة أم محمد علي [179] (زوجة علي خليل [173]) عندما أحضرت لنا أرزًا ولحمًا من وليمة خِطْبة ابنها، أن عروسه كانت هي أيضًا (عطية إلجورة)، مع أن ما كنا سمعناه هو أنهما تزوجا لأنهما أبناء عم[14]، ثم علمنا بعد حين أن أبا العريس (علي خليل [173]) كان قد طلب يدها لابنه عند ولادتها، ليضمن حقه فيها، وإن توقف عن تقديم الهدايا بعد ذلك؛ فهما لا يعدان مخطوبين بصورة صحيحة إلا إذا قدم العريس لعروسه الهدايا في كل عيد كبير[15]. وقد يصبح هذا عبئًا على مدى السنوات الطويلة، ولهذ توقف أبو (علي خليل [173]) محمد (محمد علي [179]) عن تقديم الهدايا بعد حين. وليس غريبًا في مثل هذه الظروف أن تنسى هذه الواقعة، إلا إذا حدث أمر ما فأنعش ذاكرة ذوي العلاقة. ومثل هذا الشكل المشوه من (عطية إلجورة) لا يغير المسار الاعتيادي للخِطْبة، لكنه يشكل مرحلة إضافية في الطقوس المعتادة الأخرى.

ونتساءل هنا في ما إذا كانت خِطْبة (عطية إلجورة) في الأصل كافية بحد ذاتها كشكل من أشكال الخطبة؛ فلدينا منظومة من العادات متبعة في هذه الخطبة على الدوام[16]؛ إذ يُحتكم فيها إلى شهود[17]، وتحدث، في كثير من

(14) انظر أدناه في الصفحة 170 من هذا الكتاب.

(15) انظر أدناه في الصفحة 79 من هذا الكتاب.

(16) انظر أعلاه في الصفحات 68 و69 و70 و71 و73، وأيضًا أدناه في الصفحتين 77 و78 من هذا الكتاب.

(17) انظر اعلاه في الصفحتين 69 و73، وأيضًا أدناه في الصفحة 76 من هذا الكتاب.

الأحيان، في منتدى الرجال (ساحة)[18]، وتخلع عباءة على أبي العروس لأنه «صهرنا»[19]، وتحصل العروس على أولى هداياها[20]. ويظهر أن خِطْبة كهذه تكون ملزِمة تمامًا لأبي العروس، ولا سيما إذا ما التزم العريس بتقديم الهدايا لعروسه في العيد الكبير[21] بانتظام؛ إذ يقول: «هذه (عطية إلجورة)، لا أستطيع أن أقع في الخطأ؛ فهناك شهود»[22]، إنْ تقدم آخر طالبًا يدها، كما أن الشيخ يرفض عقد قران عروس (عطية إلجورة) لرجل آخر؛ لأن ذلك قد يجلب له المتاعب والمضايقات[23]. وعندما سمع أبو العريس (محمد اسْمعين [53]) لأبي العروس (اسْمعين أحمد [55]) أن يعطي ابنته لعريس آخر لأنه لا يستطيع الانتظار أكثر ليزوجها، عبر العريس الأول عن سخطه على إخلاف الوعد بأن قلب القدور في يوم حفلة الخِطْبة، كما امتنعت عائلته عن حضور الوليمة، كتعبير عن استيائهم، بمن فيهم (أحمد اسْمَعين [52]) أخو أبي العريس [عم العريس] (علي محمد اسْمَعين [58])، على الرغم من كونه جد العروس. وأراد أحمد اسْمَعين [52]، وهو كبير العائلة الذي يحظى باحترام كبير، وكان سابقًا مختار القرية، أن يؤكد استنكاره لهذا التصرف[24] بامتناعه عن الحضور.

ومن غير المؤكد إن كانت شيخة (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) تستطيع، كما تنوي الآن، أن تخلف وعدها بإعطاء ابنتها «كعطية إلجورة» إلى ابن سعدة (زوجة إحْسين إبراهيم [93]). وهي تفسر رغبتها هذه تفسيرًا مثيرًا للاهتمام؛ فهي تريد مهرًا لابنتها كي تزوج به ابنها، ولهذا فهي غير راغبة بتزويج ابنتها من دون مهر[25]. ويفترض أهل العروس

(18) انظر أعلاه في الصفحة 69، وأيضًا أدناه في الصفحة 76 من هذا الكتاب.

(19) انظر أعلاه في الصفحة 69، وانظر أيضًا أدناه في الصفحة 76 وفي الصفحة 170 وما يليها من هذا الكتاب.

(20) انظر أعلاه في الصفحات 69 و71 و73 من هذا الكتاب.

(21) انظر أعلاه في الصفحة 74، وانظر أيضًا أدناه في الصفحة 170 من هذا الكتاب.

(22) انظر أعلاه في الصفحة 69 من هذا الكتاب.

(23) انظر أعلاه في الصفحة 71 من هذا الكتاب.

(24) انظر أعلاه في الصفحة 70 من هذا الكتاب.

(25) انظر أعلاه في الصفحة 74 من هذا الكتاب.

أنهم يقدمون ابنتهم هدية، بينما يقول أهل العريس: «أعطية مكلفة» (عطية الجورة غالية)، في حين أنهم يمكن أن يقدموا مهرًا للعروس «فيد» وينتهي الأمر، لكن الهدية تبقى منةً عليهم على الدوام»؛ فالسؤال هو: هل (عطية الجورة) هدية فعلًا؟ تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إن الأمر كذلك في صوريف، حيث عاشت فترة من الزمن يوم كانت متزوجة هناك. ولعل دراسة لـ (عطية الجورة)، ولأشكال أخرى من العرائس اللاتي يقدمن هدايا في أماكن مختلفة قد تزيد هذه المسألة وضوحًا. وقد يفهم المرء أن طلب فتاة كـ (عطية الجورة) لشخص ما قد يكون ضروريًا أحيانًا ليكسبه أفضلية في مقابل خطّاب مكافئين له، أو أفضل منه. فعلى سبيل المثال، كان لعروس محمد علي [179]، عزيزة (ابنة موسى خليل [174]) تمامًا كما كان لعروس (عطية الجورة) (ابنة عبد الرحمن عبد [152]) التي ولدت بينما كنت في القرية، الكثير من الأقارب الذين كان من الممكن أن يطلبوها، وكما تبين لنا، فقد طلبوا يدها بالفعل[26]. ولعله من الضروري أحيانًا، في قرية ليس فيها ما يكفي من النساء، أن يتخذ الناس تدابير خاصة للحصول على عروس ذات بال. وعلى أي حال، فـ «عطية الجورة» ملزمة لأبي الفتاة، الذي ربما يتسرع أول الأمر، ثم يرى فرصًا أفضل لابنته فيما بعد، أو قد يتعكر صفو العلاقات الطيبة بين العائلتين[27]. وهي ملزمة كذلك للعريس الذي يتحمل أعباء إضافية لسنوات طويلة بتقديمه الهدايا للعروس، مجازفًا بخسارة كل شيء إذا ما ماتت العروس[28]، أو مات أبوها[29]، يضاف إلى ذلك، أن أمره يصبح في هذه الحال، وفي الحالات الأخرى التي تكون العروس فيها هدية، منوطًا بعائلة الفتاة[30].

ملحوظة إضافية

إذا كانت لدينا عادة ما آخذة في الزوال، وربما كان لها جذور أعمق مما

(26) انظر أعلاه في الصفحة 73 من هذا الكتاب.
(27) انظر أعلاه في الصفحة 69 وما يليها، وانظر أدناه في الصفحة 97 من هذا الكتاب.
(28) انظر أعلاه في الصفحة 69 من هذا الكتاب.
(29) انظر أعلاه في الصفحة 71 وما يليها من هذا الكتاب.
(30) انظر أدناه في الصفحتين 154 و155 من هذا الكتاب.

يبدو، فمن النافع جمع أدق ما يمكن من المعلومات عنها، من أكبر عدد من الأماكن المختلفة؛ فهناك دومًا تفاصيل مبعثرة هنا وهناك، وهي إذا ما أخذت في الاعتبار مجتمعة، يمكن لبعضها أن يلقي الضوء على بعضها بعضًا، وأن توضح مجتمعة الصورة الكاملة. وما سجله شباور وحداد عن الخِطْبة عند الولادة في قرية القبيبة قرب القدس[31] Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem، هو أشبه ما يكون بخِطْبة (عطية إلجورة) في أرطاس؛ فهنا نجد صيغة مناظرة لتلك الموجودة في أرطاس، وحتى الاسم «العطية» نجده هنا، بيد أن مثل هذه العروس تسمى هنا (عطية الأب). ومن اللافت للنظر أن تفسير هذا الاسم هو أنها (عطية الأب لابنه)، [يقول حداد]: «يقول أبو البنت: هي لك لتعطيها لابنك، عطية أب لابنه». ويقول شباور وحداد: إن مثل هذه الخِطْبة تحدث عندما تعلن ولادة طفلين في الوقت نفسه في منتدى الرجال، لكن عُمْر العريس في أرطاس لا يهم. وفي المقابل، يستدعى في القبيبة الشهود، وتعطى الثياب، أو سوى ذلك من الهدايا. [أو كما يقول حداد]: «أو يشتري له (أي لأبي البنت) على الفور من السوق كل ما تتيح له أحواله شراءه». وتُتلى كذلك سورة الفاتحة، وتغدو الخِطْبة ملزمة حتى إنه [الكلام لحداد]: «إذا ما أبى أبو البنت أن يزوج ابنته بعد ذلك للصبي الذي قد كبر، يصل الأمر أحيانًا إلى سفك الدماء، أو التقاضي إلى المحاكم». ويتفق هذا تمامًا مع ما يرويه الناس في قرية رام الله عن تاريخ تأسيسها على يد شيخ مسيحي من الشوبك الواقعة في منطقة وادي موسى، وذلك بحسب ما جاء عند إليهو غرانت في كتابه شعب فلسطين[32]: فعندما ولدت ابنته قال للشيخ المسلم الذي هنأه «هي لك»، وعندما طلبها هذا الأخير بعد ذلك ليأخذها لبيته، رفض أبو البنت، وكان عليه أن يجلو هو وإخوته الأربعة وعائلاتهم، كي لا يكونوا عرضةً لانتقام الشيخ المسلم! لأنهم أخلفوا العهد. ومن الممتع أن غرانت لا يعد هذه شكلًا من أشكال الخِطْبة، بل يحاول تفسيرها على أنها مجاملة من طرف الشيخ المسيحي للشيخ المسلم.

---

(31) المنشورة في: *Zeitschrift für Semitistk und verwandte GebieteV. (Leipzig, 1927)*, p. 131.

(32) Elihu Grant, *The People of Palestine* (Philadelphia and London, 1921), p. 206f.

وفي المقابل، يقول ليز (Lees)، في كتابه حياة القرية في فلسطين[33]: إن أبا البنت عندما يُبارَك له بالقول: «مباركة العروس»، فإنه غالبًا ما يقرن رده «بارك الله فيك» بعرض البنت للزواج، ولا يكون ذلك دومًا مجرد مجاملة. وإذا ما طاب للمهنئ ذلك فإنه يجيب: «وأنا قبلت». عندئذ تقدم ذبيحة لإقرار الخِطْبة، ويبدأ انتظار يوم العرس. أما إذا لم يكن له بذلك حاجة، فإنه يتجاهل العرض بأدب قائلًا: «بارك الله فيك يا أبا....». ولسوء الحظ لم يذكر ليز أين وجد هذه العادة، والتي تشبه (عطية إلجورة) في أرطاس تمامًا. وقد كتب باور عن هذا بشكل عام في كتابه الحياة الشعبية في أرض التوراة[34]: «أما في ما يتعلق بالبنت، فيمكن أن تستأثر بها إحداهن فور ولادتها، كعروس لابنها ذي بضع سنين». ويروي ساريسالو (Saarisalo) في كتابه موسى الطبيب[35]: أن الأمهات في فلسطين يُخطِّبن بناتهن عند قطع حبل السُرَّة، وأن خِطْبة كهذه تكون ملزمة، ولكنه أيضًا يغفل ذكر اسم المكان الذي سمع فيه ذلك. وخلال إقامتي الثانية في فلسطين، قال لي السيد وهبة من القدس إن هذه العادة سائدة في بلدته الأصلية الناصرة؛ يقال: «لمن سيُقطع حبل سُرَّة هذه البنت؟ فتأتي الإجابة: «يقطع حبل السُرَّة لفلان» ذاكرين اسم الولد. وتسمى هذه العروس عروس (عطية السُرَّة)؛ أي حرفيًا «أعطية حبل السُرَّة»، وهو اسم آخر للعروس التي تخطب عند الولادة. ولم أسمع بعادة كتلك في أرطاس في أثناء إقامتي فيها. وصحيح أن الألسن تلهج بأمانٍ كثيرة لدى قطع حبل السرة، والذي عادة ما يكون بعد قرابة اثنتي عشرة ساعة من الولادة، إلا أنه في طقوس مهيبة كتلك، حين تكون «أبواب السماء مفتوحة»، تتوجه النسوة بأعمق آمالهن إلى «قوة عليا» لا إلى أم الطفل. ولا ننسى أيضًا تلك الأم في أرطاس التي طلبت بنتًا حديثة الولادة عروسًا لولدها، ثم بادرت إلى إخبار زوجها لدى عودتها إلى البيت، فأيدها بترديد صيغة قبول العروس[36]. ولم يجب أي من باور وساريسالو عن أسئلة مهمة،

---

(33) *Village Life in Palestine*, (London, 1905), 107f.

(34) *Volksleben im Land der Bibel* (Leipzig, 1903), p. 83.

(35) *Mooses lääkärinä* (Borgå, 1928), p. 51.

(36) انظر أعلاه في الصفحة 69 من هذا الكتاب.

مثل: كيف يمكن للنساء التصرف بمصير أبنائهن، على الرغم من أن أمر ترتيب الزواج، في العرف على الأقل، منوطٌ بالرجال، وهل يمكن أن تكون موافقة الأب غير ضرورية، وكيف تتطور الأمور لاحقًا؟

ولما كان الكثير من الكُتَّاب قد سمعوا بأمر خِطْبة الأطفال عند الولادة في فلسطين، فإنه يمكننا أن نفترض أن هذه العادة معروفة في عموم البلاد إلى حد ما، على الرغم من أنه لم يرد إلا أسماء أربعة مواضع: القبيبة ورام الله والناصرة وأرطاس، كما أننا لا نعرف إلا القليل عن ممارستها، وعن طقوسها، وتباين صورها في الأماكن المختلفة.

خِطْبة الأطفال في العموم

حتى قبل أن يولد الطفل، قد يتشاور الأبوان وأصدقاؤهما في من يمكن أن يتزوج أو أن تتزوج[37]. وحالما يولد الطفل، يفكران، كما ذكرت سابقًا، في زواجه المستقبلي، ويهتمان «العريس» أو «العروس»[38]، وقد يبدأ بعد ذلك نقاش مفتوح عمن سيكون من نصيب المولود، حتى وإن لم يتخذا خطوة حاسمة، كخطبته لبنت حال ولادتها. وعلى الرغم من وجود عادة (عطية الجورة)، فإن الأحاديث المتعلقة بالزواج تتعلق بشكل رئيس بالأولاد[39]؛ فليس من المستحب تذكير الأم بالموعد الذي ستفارق فيه ابنتها، وترسلها إلى بيت غريب. وفي المقابل، فإن من بين المجاملات المطلوبة بين الناس أن يقال للأبوين عبارة تعبر عن أمنية قائلها بشرب القهوة قريبًا في عرس ابنهما،

(37) انظر: R. H. Lowie, *Primitive Society* (London: Routledge, 1921), p. 18; «Verlöbnis,» in: Max Ebert, *Reallexikon der Vorgeschichte*, III. Erste Lieferung (Berlin: De Gruyter, 1924), p. 13, and Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, I (London: Macmillan, 1925), p. 356 sq.

(38) انظر أعلاه في الصفحة 23 من هذا الكتاب. تذبح دجاجة للولد وديك للبنت حديثي الولادة استبشارًا بزواج المولود في المستقبل، وتمثل الدجاجة الزوجة، بينما يمثل الديك الزوج. وقد ذكرت هذه العادة عند ويسترمارك في: Westermarck, *Ritual and Belief in Morocco*, I, p. 379.

(39) Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 83,

«ويُقال للتهنئة بمولود ذكر: إن شاء الله تزوجيه في حياتك».

مهما كان حديث السن[40]. وبالطبع، تخلط الأمهات الجد بالهزل في الحديث والتخطيط لعرائس أبنائهن، تمامًا كما تفعل الأمهات الأوروبيات اللواتي يحكن خيالات عن مستقبل أبنائهن، وترسم إحداهن في ذهنها خططًا لما سيصير إليه ولدها. وقضية المهنة ليست بتلك الأهمية؛ فالولد يبقى في البيت، ويعمل مع أبيه، أما المستقبل فمرهون بالزواج، وهذا هو شغل الأبوين الشاغل.

وفي إحدى نزهاتنا الطويلة، صادفنا على طريق الخليل امرأة من أرطاس تركب حمارًا وفي حضنها طفل صغير، بينما يمشي زوجها بجانبهما. «انظروا! يوسف ومريم»، صرخت الست لويزا، والتقطتُ لهما صورة لتكون برهانًا على أن الرجل الشرقي يمكن أن يكون شهمًا تجاه زوجته. وقالت المرأة، وهي فاطمة عودة الله (ابنة عودة الله جاد الله [19]، وزوجة محمد سعد [15])، مازحةً: إنها في الحقيقة تحمل صهرها في حضنها. وقد يؤخذ ما قالت على محمل الجد بالفعل؛ فالطفل الصغير وابنتها أبناء عم، وفي كثير من الأحيان، ترتبط مصائر أبناء العم أحدهما بالآخر في سن مبكرة جدًا. ولدي الكثير من الأمثلة على ذلك ؛ فحال قدومي إلى أرطاس قيل لي: إن محمد علي [179] سوف يتزوج ابنة عمه عزيزة (ابنة موسى خليل [174])، وقبل أن أغادر القرية، تمت خطبتهما، وهما الآن متزوجان. وكما تزوج محمد علي [179] ابنة عمه، سيتزوج أخوه الأصغر محمود (ابن علي خليل [173])، وأخته فاطمة (ابنة علي خليل [173]) عندما يكبران؛ فسيتزوج محمود علي (ابن علي خليل [173]) بحِلوة (ابنة موسى خليل [174])، الأخت الصغرى لزوجة محمد علي [179] (ابن علي خليل [173])، وستتزوج فاطمة (ابنة علي خليل [173]) بمحمد (ابن موسى خليل [174])، الأخ الأصغر لزوجة محمد علي [179]. وهذه كلها حقائق باتت راسخة في اقتصاديات الزواج لدى هذه العائلات. وييسر زواج أبناء العم، في كثير من الحالات، أمر اختيار شريك، ويجعل حتمية زواج ولد ما من بنت ما منذ البداية أمرًا طبيعيًا. ولكن حتى في الحالات الأخرى،

(40) انظر باور في الصفحة 83 من المرجع المشار إليه أعلاه: «ويُعتقد أيضًا أن ليس ثمة مجاملة لصبي أبلغ من أن يقال له: إن شاء الله نفرح بعرسك أو فقط: بعرسك.

تعرف البنت الصغيرة حال إدراكها لهذه الأمور، من سيكون زوجها، وكذلك شأن الكثير من الصبيان؛ إذ يحوم فوق رأس أحدهم مصيره بحتمية الزواج من بنت بعينها، اختارها له أبواه مسبقًا.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الخطط لا ترقى إلى مستوى الخطبة الحقيقية التي تستوجب اتِّباع أعراف واضحة. وفي معظم الحالات لا يحدث ذلك إلا بعد وقت طويل[41]، كما يمكن أن يحدث شيء ما فيفسد الخطط الأولى، ويجعل المخالصات، في كثير من الأحيان، درامية ومثيرة. وحتى (عطية إلجورة)، كما سبق أن رأينا، لا تنتهي دائمًا بخطبة محققة بكل أشكالها الملزمة، ناهيك بخطبة الأطفال؛ فهي لا تعني الزواج أو لا تؤدي بالضرورة إلى الزواج.

وخلال إقامتي الأخيرة في أرطاس، وعندما كنت أسأل عن الأموات والأحياء من الأطفال. ذهبت من بيت إلى بيت في القرية، وبدا لي أن زواج الأطفال كان معتادًا، أو في الأقل كان كذلك في فترة سابقة. مع أنني لا أجرؤ، ولا أريد أن أقول إن زواج الأطفال كان قاعدة، ولكن يبدو أنه كان سائدًا جدًا. «طفل يلد طفلًا» (هَجَنَت هَجون، ولد من ولد) عبارة قيلت في النساء الآتية أسماؤهن في أرطاس: حمدية (ابنة محمد خلاوي [109]، وزوجة محمد خليل [6])، وحِلوة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة محمد عبد الله [25])، ومشايخ (ابنة عبد موسى [140]، وزوجة أحمد يوسف [147])، وإطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])، وخديجة (زوجة محمود محمد [177])، وحمدية (ابنة سليمان سند [183]) في إشارة إلى أن طفلًا ولد قبل ظهور أولى علامات الحيض؛ أي إنه حرفيًا الثمرة الأولى. «لم يكن باستطاعتي تمشيط شعري، ولم يكن على رأسي منديل»، هكذا قالت صبحة شختور (زوجة جبر أحمد [156]) تصف نفسها عندما كانت عروسًا. وهذا يشير إلى أهمية أن يكون رأس المرأة مغطى، والقليل من البنات فقط

---

(41) يقول ويلسون في كتابه: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London: John Murray, 1906), p. 109,

«ويمكن أن تكون الخِطْبة، في المقابل، غير رسمية في سن الطفولة، وقد عرفت أطفالًا تعهد آباؤهم بتزويجهم عندما كانوا في المهد، ثم أنفذوا الوعد عندما كبروا».

استثنين من هذه القاعدة. «ولـم تكن تحسن شدَّ نطاقها إذ ذاك»، هكذا قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) تصف خليلية (ابنة أحمد جاد الله [21]) عندما جاءت إلى بيت صفافا. وقد أبدى أبوها مخاوفه من أنها لن تعرف كيف تحافظ على شرفهم في بلدة غريبة، ولكنه اطمأن عندما ذُكر أن حماتها ستهتم بذلك. أما عيشة من سلواد (زوجة محمد خليل [99]) فقالت: «جئت إلى هنا طفلة، وربتني حماتي». وكثيرات قيل فيهن الشيء نفسه، وكثيرات قلنه عن أنفسهن؛ فقد قالت صفية من الوَلَجة (زوجة إبراهيم عايش [82]) عن نفسها: «كنت صغيرة جدًا، ولم أكن أحسن صنع الخبز إذ ذاك (تعني أنها كانت أصغر من أن تنحني فوق الفرن (الطابون)). ويُروى عن حمدة (زوجة محمد خليل [6]) أنها عندما تزوجت كانت لا تزال طفلة صغيرة، حتى إن حماها خليل عودة (خليل إبراهيم عودة [3]) اضطر إلى الركوب معها على ظهر حصان العرس ليمسك بها حتى لا تسقط. وقال لنا محمد خليل [171] وهو يضحك إن تلك كانت أيضًا حال عروس ابنه محمود محمد [177] خديجة من حلحول؛ إذ كانت أصغر من أن تجلس لوحدها على الحصان، ولذلك فقد ركب معها على الحصان في موكب العرس.

وقالت لي حِلوِة منصور (زوجة عبد الكريم إخْسين [107])، وهي كِنَّة سعدة أحمد من الوَلَجِة (زوجة إخْسين إبراهيم [93]): «كنت بالكاد قد اغتسلت ثلاث مرات فقط» (أي الغسل من الحيض)، وقد تزوجت في أرطاس قبل سنوات مضت. وقالت أم سعدة درويش (زوجة محمد يوسف [149]): «ولدتْ ابنتها عندما كان الجراد في البلاد»، وعندما أُحضرت من قرية الخَضْر المجاورة إلى أرطاس عروسًا في خريف عام 1926، أحسب أن عمرها كان أحد عشر عامًا. وثمة تعبير آخر يقال وهو «سأتزوجها حتى وإن كانت لا تحسن إلا طرد الجاج عن «المصطبة» (موضع الجلوس) (بوخذها لـنَّها زغيرة بتنش الجاج عن المصطبة).

حتى وإن أخذنا بالحسبان أن شيئًا من الخيال يشوب هذا الموضوع، إلا أن هذه التعابير واضحة، وتشير إلى الواقع. وعلى أي حال، هي أكثر مصداقية

في الإفصاح عن أعمار الناس من الأرقام التي لا يفهمها الفلاحون؛ فهم لا يحسبون بالسنين كما نفعل نحن[42]، ويستخدمون عوضًا منها عبارات يشير بعضها إلى العمل الذي يستطيع الولد أو البنت الاضطلاع به، ويشير بعضها الآخر إلى تطورهم الجسدي.

وفي ما يأتي قائمة بالعبارات المستخدمة للدلالة على أعمار الناس:

الرقم	للذكور	للإناث
1.	في رحم أمه (في بطن إمو)	في رحم أمها (في بطن إمها)
2.	طِفل (طَفْل) رَضيع (رْضِيع)	طِفلة (طَفِلة) رضيعة (رِضْعة)
3.	مفطوم	مفطومَة (مفطومِة)
4.	يطرد الحيوانات (بـِرُد الهامِلة)؛ أي إنه يستطيع منع الحيوانات من الهرب، ومن تخريب الحديقة	تناول الأشياء وتطرد الحيوانات بعيدًا عن مكان الجلوس (بتناول الغرض وبترد الهاملة، بتنش الجاج عن المصطبة)
5.	راعي ماعز (راعي سخول)	راعية ماعز وحارسة لشجر التين (راعية سخول وناطورة التين)
6.	راعي	جاهلة (أي بالأمور المتعلقة بالجنس) (مجهولِة أو جاهْلِة)
7.	يكبر مع غلظة الصوت (نشْلِة)	تكبر لكنها لم تبلغ (نشْلِة)
8.	حرَّاث	حاطبة ومالئة للماء (حطَّابة وملاَّية)

يتبع

(42) يقول باور في كتابه: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 57,
«قلة من الفلسطينيين يعرفون تاريخ ميلادهم؛ فالفلاحون لا يهتمون بتحديد أعمارهم..». ويكتب ويلسون في كتابه: Wilson, Ibid., p. 95,
«لا يعرف الناس إلا القليل عن أعمار أبنائهم، أو حتى عن أعمارهم هم؛ فإذا ما سألت رجلًا مسنًا في إحدى القرى عن عمره أجاب: في الواقع، لقد تزوجت في السنة التي فتح فيها إبراهيم باشا فلسطين، أو ولد ابني الثاني في السنة التي أتت فيها الكوليرا.. وإذا ما عرف الآباء والأمهات، ولو تقريبًا، أعمار أبنائهم، فإن ذلك يرد إلى كونهم ولدوا في سنة حدث فيها أمر بارز، كانتشار الكوليرا، أو اجتياح الجراد، وما إلى ذلك».

تابع

.9	بالغ أو مِبلِغ	بالغة (مِبلْغَة أو مِبِزْكَة هي غسالة (غسَّالِة)؛ أي أنها تغتسل كما يلزم بعد الحيض
.10	اخضرَّ شاربه (شاربو مِخْضَر)؛ أي إنه ينمو، ولحيته كطوق الحجل (ولحيتو زي طوق الشنار) الديك الصغير لا يمكن حبسه (فرخ الذتشر (الذكر) ما بنحشر)؛ أي لا يمكن الوثوق به	عروس
.11	في سن الزواج (مِجوز أو عِز جيزتِه)	في سن الزواج (مِجوزة أو عِز جيزتها) ابنها في حضنها (ابنها في حُضنْها)
.12	باستطاعته حمل السلاح (بَواردي)	بِكْر أو عذراء (صبية)
.13	شاب (شَب)	امرأة غير متزوجة (مِتْبنة أو عانس)
.14	رجل (زِلَمِة)	أم فتية - أم لأولاد تنادي عليهم (إم أولاد بتصير تدادي وتنادي)
.15	رجل في منتصف عمره وعنفوانه (زلمة في نص العمر أو زلمة كامل)	باتت حماة (بتشنِّن) ستحصل على زوجات لأبنائها (كنائن) (بصير الها تشناين)
.16	أصبح رأسه أشيب (راسو امْزَّع) أصبح شعره ولحيته أشيبان (امْنَقَّد الشيب في راسو وفي لحيتو)	بدأ شعرها يصبح أشيب (نَقَّد الشيب في راسها)
.17	رجل كبير في العمر (شايب)	انقطع عنها الحيض والبيض (ابتقطع الحيض والبيض)
.18	جاهز للحصاد (عِز حَصيدتا)	امرأة كبيرة في السن (عجوز) منحنية كثيرًا، تصل ذقنها إلى ركبتيها (بتصير اتدق في رتشْبتْها)
.19	كامل السنين[4] (شبعان من عمرِه)	عجوز متقدمه في السن (عجوز مستويِّة)
.20	رجل عاجز إلى حد بعيد (شايب كِركِفَّة)	امرأة عاجزة إلى حد بعيد (عجوز كِركِفَّة)

أو يجري الحساب بعشرات السنين فيقال عن تطور الرجل:

الولد في سن العاشرة كالخيارة المقشرة	(ابن العشرة زي الخيارة المقشّرة)
والرجل في العشرين يصاحب المجانين	(وابن العشرين بعاشر المجانين)
والرجل في الثلاثين كزهر البساتين	(ابن الثلاثين زهور من البساتين)
والرجل في سن الأربعين من الكاملين	(وابن الاربعين من التشاملين)

وتشير هذه القوائم المتضمنة للعبارات الدالة على العمر إلى مرحلة معينة من العمر باعتبارها «السن المناسب للزواج» للرجال والنساء، وتقع بعد فترة قصيرة من البلوغ؛ يصبحون عندئذ ناضجين، ويحاول الناس أن يقع زواج الأبناء في تلك المرحلة؛ لأن الزواج يصبح في ذلك الوقت أمرًا ملحًّا، لكنهم قد يزَّوجون قبلها أو بعدها، وإن كان من الأفضل أن يزوَّجوا قبلها(44).

---

(43) انظر الكتاب المقدس، الآية الثامنة، الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين.

(44) قد يكون من النافع أن نعرف ما ذكره مؤلفون آخرون عن سن الزواج: يذكر أورباخ (Auerbach) في: F. Auerbach, «Die syrische Frau,» in: *Archiv für Rassen und Gesellschafts-Biologie*, XII (München, 1916-1918), p. 153,

أنه يكون بالنسبة إلى الرجال بين سن 18-20 عامًا، وللفتاة بين 14-17 عامًا. ويعقب في (الصفحة 152) على سن الزواج للفتيات بأن الحيض يبدأ بعد سن الثانية عشرة، وفي بعض الأحيان قبل ذلك بقليل، وفي أحيان أخرى عندما تبلغ سن الثالثة عشرة، ومن النادر أن يتأخر أكثر من ذلك. وتتزوج الفتاة بعد هذا بقليل؛ فالعادات تقتضي أن لا يؤجل الزواج أكثر من ذلك. أما باور (Bauer) فيقول في كتابه: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 96,

«تعد البنت المسلمة بدءًا من سن التاسعة فتاة بالغة ولا يجوز لها أن تظهر أمام الغرباء من دون حجاب». ويقول في الصفحة 83 وما يليها: «إلا أن زواج الفتاة يؤجل عادةً إلى أن تبلغ سن 13-15 عامًا، والذي يعد سنًّا مناسبًا للزواج؛ وإذا بلغت العشرين عامًا، أصبحت عانسًا، وليس لها أن تتوقع زوجًا ذا صفات مميزة». ويقول ليز (Lees) في كتابه: George Robinson Lees, *Village life in Palestine* (London, 1905), p. 117,

«لا يوجد وقت محدد؛ فالزواج رهن بالقدرة المادية لا العمر». وفي المقابل يقول في الصفحة نفسها: «يتزوج الجميع في سن صغيرة»، ويضيف في الصفحة 113 أن الفتيات يصبحن مهيآت للزواج عندما يبلغن سن الثانية عشرة. ويقول المؤلف نفسه في كتابه: George Robinson Lees, *The Witness of the Wilderness* (London, 1909), p. 120,

«يتزوج الجميع في سن صغيرة جدًّا، وقبل أن يتجاوزوا مرحلة المراهقة.. وعندما يبلغ سن السادسة عشرة يحين الوقت للبحث عن زوجته الأولى، وتتجه أفكار الشباب نحو الزواج..». ويقول بيروتي (Pierotti) في كتابه: Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge: Deighton, Bell, and Co, 1864), p. 188, =

وتظهر قوائمي العائلية من قرية أرطاس عددًا قليلًا جدًا من الرجال غير المتزوجين ممن هم في سن الزواج. وقد يكون سبب الشذوذ عن القاعدة، كما هو في حالة جبرين عِثمان [79]، أنه سُرق مهر أخته الذي كان سيتزوج به، ووقع إثر ذلك في حرج ومشقة عظيمين، وكان لا بد من تأجيل زواجه لسنوات عدة. أما في حالة أحمد مصطفى [74]، فقد فسخ أهل العروس الخِطْبة التي دامت سنوات عديدة على نحو مفاجئ، على الرغم من أنه كان «طبخ»، أي

= أنه رأى فتاة في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة عروسًا، أما الزوج فما هو إلا غلام في بعض الأحيان. ويقول جوسان (Jaussan) في كتابه: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris: [s. n.], 1908), p. 42f.,

«في القرى ثمة أطفال لا تتجاوز أعمارهم الحادية أو الثانية عشرة، ويفكرون بالزواج بصورة جدية. وقد زوَّج شيخ قرية أبو غوش ابنه في سن صغيرة جدًا، وقبل سنتين، أحضر محمد ذياب لابنه ضاهر، البالغ من العمر تسع سنوات، زوجة. وعلى أي حال لا يتزوج الأطفال عمومًا في سن مبكرة جدًا، لكنهم يرونها مسألة كبيرة ويبدأون بادخار بعض المال من أجل الحصول على زوجة». وفي بعض الأحيان، لا يعلم الولد إذا ما كان صغيرًا جدًا شيئًا عن زوجته المقبلة. «لكن إذا ما بلغ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة يبدأ بالمطالبة بحقه..» [ترجمة عن الفرنسية]. ويذكر موسل (Musil) في كتابه: Alois Musil, *Arabia Petraea III* (Wien: A Hölder, 1908),p. 180,

«لا يجوز للفتى عند العرب أن يتزوج قبل أن ينمو شاربه، أما الفتاة فلا تتزوج إلا عندما ترى النساء نموًا كثيفًا للشعر على جسدها». ويقول لين (Lane) في: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 214f.,

«تصل المصريات إلى سن البلوغ أبكر بكثير من نساء شعوب المناخات الباردة. والكثير منهن يتزوجن في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وبعض الفتيات اللواتي يبلغن مبكرًا، على نحو استثنائي، يتزوجن في سن العاشرة». ويشير في الحاشية: «غالبًا ما تعلن خطبتهن قبل ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات»، ويضيف بعد ذلك: «لكن مثل هذه الحالات ليست شائعة. وقلة منهن يبقين من دون زواج إلى ما بعد سن السادسة عشرة. وقد تكون الفتاة المصرية أمًا في سن الثالثة عشرة، أو حتى قبل ذلك». ويذكر كل من س. ج. برندا (C. G. Brenda) و ز. سليغمان (Z. Seligman) في مقالتهما: Z. Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II. (Cambridge, 1918), p. 132,

«يخطب الأطفال في العادة عندما يبلغون سن التاسعة أو الحادية عشرة، ويتزوجون بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات». ويقولان: «إن الفتاة إذا لم تتزوج من ابن عمها فإنها تبقى عادة من دون زواج فترة أطول نسبيًا». ثم يضيف المؤلفان (في الصفحة 133 من المرجع المشار إليه سابقًا): «إلا أن بقاء الفتاة من دون زواج بعد سن البلوغ يعدُّ عارًا». وكقاعدة عامة، يمكن للمرء أن يقول، كما هو بادٍ في الأعمال الأدبية أيضًا، إن مسألة الزواج تثار حال الوصول إلى سن البلوغ.

بل ويذكر معظم المؤلفين حالات زواج يكون طرفاه أصغر من ذلك؛ أي أطفالًا صغارًا. ويقول غرانت (Grant) في كتابه: = Elihu Grant, *The People of Palestine* (London, 1921), p. 49 f.,

احتفل بوليمة الخِطْبة، وقدم مهر العروس، فوقع حينئذ في ضيق شديد، ولم يجد ما يلزمه لعروس جديدة(45).

= «يقع الزواج للفتيات عادة في سن مبكرة؛ فأحد ملاّك البيت الذي كان علينا استئجاره للعمل المتعلق بمدرسة تدريب الأولاد الجديدة كانت لدية زوجة لا تعدو أن تكون بضعة من فتاة، حتى أنه أصابنا الفضول لمعرفة عمرها، ولم تستطع أن تقول لنا كم كانت تبلغ من العمر، لكنها أخبرتنا أنها متزوجة منذ خمس سنين، وأخذ أحد رفقائها على عاتقه تقدير سنها بثلاثة عشر عامًا». ويضيف غرانت في الصفحة 53 من المرجع المشار إليه سابقًا: «تتزوج الفتيات في بعض الأحيان في عمر مبكر لا يتجاوز السبع سنوات، وتكون خطبتهن في سن أصغر من ذلك بكثير». ويذكر شباور وحداد في مقالتهما: H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete* V. 1 (Leipzig, 1927), p. 132,

«هناك أناس يزوجون أبناءهم وهم لا يزالون صغارًا؛ أي ربما يكون الصبي في سن الخامسة». ويروى في حاشية في الصفحة 132 من المرجع المشار إليه سابقًا عن أخوين متزوجين يبلغان من العمر ثماني واثنتي عشرة سنة، والأكبر منهما يذهب وزوجته إلى المدرسة، وفي الطريق من المدرسة وإليها كان الزوجان يتشاجران باستمرار. وقد تناهى إلى علم أورباخ (في الصفحة 153 من المرجع المشار إليه سابقًا) حالات زواج في سن الثانية عشرة، بل حتى في سن الحادية عشرة، وها هو يقول: «وفي هذه الحالات، وبالطبع لا يمارس الرجال الجماع إلا بعد النضوج الجنسي للنساء. أما وقد تؤدي الحيضة الأولى أو الثانية في كثير من الأحيان إلى الحمل، فنجد أمهات في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة». انظر أيضًا: Georg Jacob, *Altarabisches Beduinenleben* (Berlin: Mayer,1897), p. 53,

إذ يذكر فيه أن الناس يتزوجون في سن صغيرة، وهم لا يزالون أطفالًا.

ويعزى زواج الأطفال الحقيقي هذا إلى عدم وجود سن قانوني للزواج في الشريعة الإسلامية. ويقول يونبول (Juynboll) في كتابه: T. W. Juynboll, *Handbuch des Islamischen Gesetzes* (Leipzig, 1910), p. 222,

«ليس هناك ما يمنع الزواج في سن صغيرة؛ فلم يكن زواج الأطفال ممنوعًا في المحيط الذي عاش فيه محمد [عليه الصلاة والسلام]، ولم يغير الإسلام شيئًا في ما يتعلق بهذه المسألة. والنبي [عليه الصلاة والسلام] نفسه تزوج عائشة ابنة أبي بكر عندما كان عمرها ست سنوات. ولا تعترف الشريعة بحد أدنى لسن الزواج الشرعي. ولكن يبدأ الزوجان العيش سوية بعد وقت طويل من إتمام عقد الزواج؛ عندما يصبح ذلك مقبولًا، نظرًا إلى حداثة سنهما». ويضيف في الحاشية: «وانتقلت عائشة إلى بيت محمد [عليه الصلاة والسلام] للمرة الأولى عندما كانت في التاسعة من عمرها».

(45) ينسجم هذا والأخبار الواردة في الأدبيات عن الموضوع. فيقول باور في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 82,

«على الرغم من أن العروس في الشرق لا تقدم مهرًا في الزواج، إلا أنك لا تجد فلاحًا عازبًا باختياره». ويقول موسل في: Musil, *Arabia Petraea III*, p. 173,

«لا يبقى رجل معافى ولا امرأة معافاة من دون زواج، بل لا يسمح لهما بالبقاء كذلك، وإلا فإنهم يعيقون نمو القبيلة؛ فكل أفراد القبيلة مطالبون بالحفاظ عليها، وبالحرص على إنجاب الذرية، وهذا لا يتأتى إلا بالزواج». ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab*, p. 42, =

ويتزوج الأرامل من الرجال مرة ثانية بأسرع ما يمكن، أما الأرامل من النساء فلا يتقن للزواج كثيرًا[46]. ويتلهف الناس بشدة، ولأسباب كثيرة، إلى تزويج بناتهم وهن في سن مبكرة أكثر من الأولاد[47]. وخلال إقامتي في أرطاس وجدت عانسَين فقط في القرية، تزوجت إحداهما، وهي فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187])، بعد وقت قصير من مغادرتي فلسطين. أما العانس الثانية، وهي فضّة عبد (ابنة عبد سالم [68])، فلن تتزوج

= «الزواج هو القانون السائد الذي لا غنى عنه عند العرب [ترجمة عن الفرنسية]. أما غولدتسير (Goldziher) فيقول في: Ignaz Goldziher, *Muhammedanische Studien*, II. (Halle a. S.: Max Niemeyer, 1890), p. 395,

«لا عُزّب (جمع أعزب) (رهبانية) في الإسلام»، ويقول أيضًا «ركعتان يصليهما متزوج أفضل عند الله من سبعين ركعة يصليها أعزب، أو أفضل من رجل أعزب يقوم ليله ويصوم نهاره»، وحكم الشريعة الإسلامية في الزواج أنه واجب على كل ذي قدرة. انظر ماثيوز (Matthews) في الصفحة 76 من المجلد الثاني من ترجمته لكتاب المشكاة (*Mishkât*) (Calcutta, 1810). وفي ما يتعلق بكون الزواج واجبًا دينيًّا في الإسلام، انظر ويسترمارك في كتابيه: Westermarck: *The History of Human Marriage*, I., p. 378, and *Ritual and Belief in Morocco*, I, p. 46f., II. p. 538,

ويُنظر إلى غير المتزوجين كمخلوقات غير طبيعية، أو كموضوع للازدراء أو السخرية. انظر باور في الصفحة 82 من المرجع المشار إليه سابقًا، ويسترمارك في الصفحة 343 من المرجع المشار إليه سابقًا. ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, I, p. 213,

«يرى المصريون أن من غير اللائق، بل من الشائن، امتناع الرجل عن الزواج بعد بلوغه السن الملائمة، وانتفاء وجود أسباب مانعة».

(46) انظر كذلك غولدتسير: Goldziher, Ibid., p. 333.

(47) انظر ليز: Lees, *Village life in Palestine*, p. 117,

«كلهم يتزوجون صغارًا، ولم أسمع أبدًا بعانس بين الفلاحين المسلمين، وتعرف كل فتاة أنها ستصبح عروسًا يومًا ما». ويقول غرانت في: Grant, *The People of Palestine*, p. 49,

«من النادر أن تجد في مجتمع الفلاحين إمرأة غير متزوجة. ويأتي الزواج عادة في سن مبكرة للفتيات». ويقول في الصفحة 65 من المرجع المشار إليه سابقًا: «الفتيات متيقنات من زواجهن». أما ويسترمارك فيقول في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, p. 378,

«وكما أشار نيبور، فمن أندر الأشياء في الشرق أن تصادف امرأة غير متزوجة بعد سن معينة في الحياة. وقد تفضل المرأة الزواج من رجل فقير، أو أن تصبح زوجة ثانية لرجل متزوج سابقًا، على أن تبقى عزباء». ويذكر باور في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 84,

«لا تبقى صبية فلاحة (جالسة) [من دون زواج]؛ وإلا كان ذلك يعني أنها مصابة بعلة ما، ونادرًا ما تكون تلك هي الحال، حتى إن العوراء تجد رجلًا». انظر كذلك ويسترمارك في الصفحة 337 وما يليها، وفي الصفحة 350 من المرجع المشار إليه سابقًا.

أبدًا؛ فهي مصابة بمرض في حنجرتها، يجعلها معتلّة بصورة دائمة. أما زريفة محمد (ابنة محمد خليل [166]) فامرأة بالغة منذ سنوات عدة، ولكنها لم تتزوج لأنها تنتظر ابن عمها، إبراهيم (ابن خليل عواد [167]) البالغ من العمر اثني عشر عامًا إلى أن يكبر.

وتجد علامة أكيدة على تحرر الفتيات في رفض فتاة زنجية تدعى مِريم مسلَّم (ابنة مسلَّم عبدالله [197]) لأن تكون بديلة لعروس أخيها (سليم مسلَّم [199])، صبحة من دورا. ويقال إنها قابلت شابًا زنجيًا بينما كانت تعمل خادمة في مأوى إنكليزي بين أرطاس وبيت لحم ففضلته على ابن عمها من دورا، الذي عرضه أخوها عليها، إلا أن أحدًا لم يخبرني لماذا لم تتزوج رشيدة عبد (ابنة عبد أحمد [158])، على الرغم من أنها، وبحسب نظرة الفلاحين، كبيرة في السن؛ فيبعد أن تتزوج فتاة وهي في الخامسة والعشرين(48). ومن المحتمل أنها عُضلت عن الزواج لمنفعة أحد الأقارب، لكي يحصل على عروس مقابلها، كما حدث مع ابنة عمها فضّة سعيد (ابنة سعيد أحمد [157]، وزوجة أحمد جبر [160]) التي عضلت حتى أصبحت كبيرة في السن وغير قادرة على الإنجاب، ثم زُوِّجت لابن عمها أحمد جبر [160]، وهو أرمل كبير السن ونصف أعمى، لكي يتزوج أخوها جودة (جودة سعيد [161]) بديلة لها، وهي ابنة الأرمل من زواجه السابق (مِريم ابنة أحمد جبر [160]، وزوجة جودة سعيد [161]). وتحاول الحكومة البريطانية الآن أن تمنع الزيجات المبكرة جدًا؛ ولهذا، وخوفًا من عقاب الحكومة رفض الشيخ تزويج طفلين، وهما محمود محمد [29] البالغ من العمر عشر سنوات، والذي كان يركض هنا وهناك، ويلعب مع أطفال آخرين في القرية، وخطيبته سارة علي (ابنة علي سليمان [27])، والتي كانت أصغر منه، وقيل إن عمرها ست سنوات. وقد حدث هذا في خريف عام 1925، لكن في الخريف التالي نجحت إحدى العائلات، من دون علم الحكومة، في عقد زواج، كانت فيه العروس (زوجة

(48) انظر باور في الصفحة 84 من المصدر المشار إليه سابقًا.

محمود يوسف [149]) لا تبلغ من العمر سوى أحد عشر عامًا، وهي الفتاة نفسها التي ولدت عندما اجتاح الجراد البلاد(49).

أسباب زواج الأطفال والزواج المبكر

عندما يكون على الجميع أن يتزوجوا، فمن الحكمة أن يجري ذلك في ظل أفضل الظروف. وحتى إذا كان الولد أو البنت صغيرين جدًا، فقد يرى أولئك الذين يخططون لزواجهما الفرصة مناسبة، قد لا تتاح مرة أخرى(50). فقد يكونون جمعوا المال اللازم للزواج للتوّ، ويخشون تبذيره؛ فعندما غيَّر محمد يوسف [149] رأيه في اللحظة الأخيرة، وأراد أن يتزوج عروسًا أكبر من الفتاة ذات الأحد عشر عامًا المذكورة أعلاه، قال له أهله: «لن يكون هذا؛ فقد دفعنا جزءًا من المهر، ولدينا الآن، من زواج أختك، المال لنفقات العرس. وإذا كنت لا تريدها وتريد أن تتحدانا، فسوف نزوجها لأخيك الأصغر عيسى (ابن يوسف شاهين [138])»(51)، والذي كان صغيرًا جدًا. وفي مواجهة هذا الخيار فضَّل محمد يوسف [149]، ذو العشرين عامًا الزواج من الطفلة. وسنرى في ما بعد أن تبادل العرائس وتعدد الزوجات قد يفضي إلى زواج الأطفال، من دون أن يكون زواج الأطفال أو أعراس الأطفال هو المقصود بنفسه(52). وقد يكون لزواج أبناء العمومة نتائج مشابهة، كما يمكن لكل هذه الأسباب أن تفضي إلى نتائج معاكسة؛ كالزواج المتأخر كما رأينا سابقًا. ولكن إذا نجم زواج الأطفال عن الأسباب السالفة الذكر من دون نية مسبقة، فالناس لا يعارضونه من حيث المبدأ، بل على العكس؛ فهناك الكثير من الأسباب المهمة المشجعة عليه.

---

(49) انظر أعلاه في الصفحة 80، وأدناه في الصفحة 256 من هذا الكتاب.

(50) يقول غرانت في: Grant, *The People of Palestine*, p. 54,

«إن تسوية أمر الزواج في أبكر وقت ممكن، وبأكثر الوسائل الممكنة ملائمة هو هدف الأوصياء والوالدين».

(51) انظر أدناه في الصفحتين 256 و257 من هذا الكتاب.

(52) انظر أدناه في الصفحة 159 وما يليها من هذا الكتاب. ويقول غرانت، في الصفحة 54 من المرجع المشار إليه سابقًا: «وبالطبع، قد تؤدي مسألة التبادل هذه في بعض الأحيان إلى زواج أشخاص من أعمار مختلفة جدًا. ولكن الزمن كفيل بعلاج ذلك؛ وتقول النظرية إن العروس التي تصغر عريسها كثيرًا، يجد فيها زوجها مع تقدمه في السن سيدة بيت وراعية له قوية وقادرة».

في المقام الأول، الزواج هو الضمانة الوحيدة لتجنب المفاجآت غير المرغوبة من الأسرة الأخرى؛ فبالزواج يضمن الناس أن الطرف الآخر سيفي بوعده حقًا، ولن يخلفه في ما بعد لسبب أو لآخر. وقد اعتادت لويزا بالدنسبيرغر القول، بناء على خبرتها الطويلة بالفلاحين[53]: «يرغب الأبوان في أن يفرحا برؤية أبنائهم متزوجين». وهذا أمر طبيعي؛ حيث لا يوجد ما يكفي من النساء[54]، وحيث يكون للزواج، إلى حد بعيد، طابع المعاملات التجارية؛ فالأبوان أقدر من غيرهما على رعاية مصالح أبنائهم وعائلتهم. وعلى أي حال، هما أقدر على ذلك من الشاب عديم الخبرة، كما أنهما يرغبان في أن تلائم العروس ذوقهما. ويرى المرء، في كثير من الأحيان، أن الغاية من زواج الأبناء هي توثيق أواصر الصداقة بين الأبوين من العائلتين[55]. وتكبر الفتيات في الشرق سريعًا؛ فقد كانت لويزا بالدنسبيرغر تقول: «اليوم زهرة متفتحة وغدًا ذابلة». ولهذا، فإن التخطيط لزواج جيد لهن صعب، ثم إن هناك المثل القائل: الذكي هو من يتخذ عرائس صغيرة السن، فلقد غلب التجار (يا ماخذ إلزْغار يا غالب

---

(53) انظر باور في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 83,

«تكاد لا تستطيع الأم أيضًا أن تنتظر حتى ترى ابنها الصغير متزوجًا، فهي تريد أن تفرح بالأحفاد في حياتها..». ويذكر شباور وحداد في مقالته: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubêbe bei Jerusalem,» in: *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, p. 132,

«يزوج بعض الناس أبناءهم وهم لا يزالون صغارًا؛ أي ربما يكون الصبي في سن الخامسة، وذلك خوفًا من أن يموت الوالد قبل أن يشهدا عرسه..».

(54) انظر أعلاه في الصفحة 31، وأدناه في الصفحة 82 وما يليها من هذا الكتاب. وانظر كذلك ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 365, 370.

(55) انظر بيروتي في: Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews*, p. 180,

«تحدثت عن فترة زمنية تقدر بالسنوات قبل العرس الفعلي، لأن حالات خِطبة الأطفال في عمر صغير ليست بالأمر النادر الحدوث، بغية توطيد وتقوية التحالف بين عائلتين». ويقول لوي (Lowi) في: Lowie, *Primitive Society*, p. 16,

«.. وبهذا فإن عقد الزواج، في كثير من الأحيان، لا يربط أفرادًا بل عائلات». أما ويسترمارك فيقول في الصفحة 371 من المجلد الأول في المرجع المشار إليه سابقًا: «وأخيرًا، فإن من المسوغات المتكررة كثيرًا لخطبة الرضع أو الأطفال لدى الشعوب غير المتحضرة هي رغبة عائلتين في التقارب، أو توطيد وتخليد صداقتهما، أو الرغبة في مصاهرة عائلة ذات شأن».

إلتُّجار)[56]. والعروس الصغيرة أقل تكلفة، إذا استثنينا (عطية إلجورة)، التي ترافقها التزامات خاصة، فالفتاة الصغيرة تعين المرء لفترة أطول؛ لأن «الصغيرة ستنضج، عندما يصبح الكبير عاجزًا (إزْغير بِسْتْوي والكبير بِلْتْوي)». وفترة الخِطْبة الطويلة مكلفة؛ لأن الهدايا يجب أن تقدم للعروس في كل عيد كبير[57]، وقد تموت بعد ذلك، فلا يفيد المرء منها شيئًا. ولهذا، فمن الأفضل أن يتزوج المرء في أسرع وقت ممكن؛ فكما ذكرنا سابقًا، قد يقول الرجل «سأتزوجها حتى وإن كانت لا تحسن إلا طرد الدجاج عن «المصطبة» (بوخذها لـنَّها زغيرة بتنش الجاج عن المصطبة)». ولكن الأم هي التي تطالب بزواج ابنها في الغالب؛ فهي تحتاج إلى من يساعدها في العمل؛ إما لأنها لا بنات لها، أو لأنها قد زوجتهن. وعمل النساء مطلوب في البيت، وعادة الاستعانة بخادمات غير موجودة لدى الفلاحين؛ لذا فالسبيل الوحيد المتبقي للحصول على مساعدة في الأعمال المنزلية، هو زواج أحد أفراد العائلة الذكور. وإن لم ترغب المرأة بأن يكون لديها ضرة، فإنها تلح أن يتزوج ابنها لكي تحصل على عون في البيت[58]. وفي هذه الحالة لا تستطيع حتى الحكومة أن تمنع هذا تمامًا؛ فهي تستطيع أن تمنع الناس من إقامة الاحتفال بعرس لطفل، لكن في الحالة سالفة الذكر[59]، حققت الحماة رغبتها بأن أحضرت البنت الصغيرة إلى البيت لمساعدتها في العمل، وكان العريس لا يزال طفلًا؛ فهل كان لهذا أن يحدث لو كان رجلًا؟ في هذه الحالة ثمة بذرة لتغيير جديدة؛ فقد كانت العادة إلى الآن تقتضي أن لا يرى الخطيبان بعضهما بعضًا، وأن لا يكلم أحدهما الآخر. وثمة تعليل تربوي

(56) انظر ويسترمارك في الصفحة 370 من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه سابقًا: «الحصول على فتاة وهي طفلة قد يكون أيضًا مسألة اقتصادية».

(57) انظر بيروتي في الصفحة 180 وما يليها من المرجع المشار إليه سابقًا.

(58) انظر شباور وحداد في الصفحة 132 من المرجع المشار إليه سابقًا: يزوج الناس ابنهم صغيرًا «خوفًا... من أن تصبح أمه غير قادرة على العمل، وأن لا يكون لديها من يعتني بها». كما يقول باور في الصفحة 83 من المرجع المشار إليه سابقًا: «أو قد يحدث أن تفكر امرأة لا تستطيع تدبير شؤون بيتها كما ينبغي بسبب المرض، وليس لديها ابنة تساعدها، بتزويج ابنها مبكرًا بغية الحصول على مساعدة من كنتها». ويقول غرانت في: Grant, *The People of Palestine*, p. 63, «إنها تعين حماتها على أعمال البيت».

(59) انظر أعلاه في الصفحة 86 من هذا الكتاب.

أيضًا لمزايا زواج الأطفال، وهو أن الفتاة الصغيرة تنشأ تدريجيًا على عادات عائلة زوجها وآرائهم؛ فلا خوف من أن تأتي الفتاة بأفكارها ورغباتها الخاصة بها، إذا ما عاشت سنواتها المبكرة بإشراف حماتها، التي شكلتها كما تريد(60)، وبهذا يستمر تدبير شؤون المنزل بالطريقة القديمة نفسها. ويكون لذلك أهمية خاصة إذا أتت العروس من مكان آخر، حيث الحياة مختلفة، وحيث تسود عادات وسلوكيات أخرى. ومن جهة أخرى، فإنه من الخير للفتاة الصغيرة أن تجد من يعلمها ويثقفها ويطلعها على عادات المكان؛ فقد سمعت غير امرأة من أرطاس تقول: «ربتني حماتي». وأما في ما يتعلق بالرجل (أحمد جاد الله [21])(61) الذي تردد في إرسال ابنته لتعيش بين غرباء قائلًا: «ما زالت أصغر من أن تدرك كيف تحمي شرفنا بين الغرباء»؛ فلما لبثت هواجسه أن هدأت عندما قيل له: «هل تعتقد أنهم سيلجمونها (كما يُفعل بالدب) ويحملونها على الرقص (لتسلي الناس)(62)؟! أليس لديها حماة ستقوم على تربيتها؟!» ومع حزم الحماة الشديد مقارنة بالأم الرهيفة، فإنها قد تكون أيضًا أكثر مهارة من الأم في التدريب. وأما الحماة، فهي تفضل بالطبع أن تفرض نفوذها على كنتها وهي لا تزال مطواعة. وفي كل الأحوال، فالتعامل في ما بينهما أمر شائك عندما يكون لزامًا عليهما العيش في البيت نفسه، ما لم تبادر الحماة فتكون لها اليد العليا، ثم تتمسك بذلك(63). وإذا كان في البيت نساء صغيرات كثر فسيكون الأمر عسيرًا

(60) يقول شباور وحداد في الصفحة 132 من المرجع المشار إليه سابقًا إن الناس في بعض الأحيان يزوجون أبناءهم في سن مبكرة جدًا «كذلك حتى يعملوا على تنشئة الفتاة الصغيرة وفق رغباتهم». ويقول غرانت في الصفحة 63 من المرجع المشار إليه سابقًا: «أحد المسوغات التي تذكر لبعض حالات الزواج المبكر جدًا هو أن تتمكن الحماة من تدريب الفتاة الصغيرة لتغدو زوجة ملائمة لابنها». ويستشهد جوسان بمثل عربي مفاده أن المرأة تربى مرتين: الأولى عند أهلها، والثانية عند زوجها. انظر كتابه: A. Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict* (Paris: Librairie orientaliste 1927). ويقول ويسترمارك مرة أخرى في كتابه: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 355, «كلا، قد يحدث في بعض الأحيان أنه بينما تؤخذ الفتاة إلى عائلة الصبي، يؤخذ الصبي إلى عائلة الفتاة كي يربونه» (مقاطعة بابوا على خليج دوري في إندونيسيا).

(61) انظر أعلاه في الصفحة 79 وما يليها، وأدناه في الصفحتين 144 و145 من هذا الكتاب.

(62) يتحدث نيبور، على سبيل المثال، عن قرود راقصة يتكسب الناس بها، انظر: Carsten Niebuhr, *Reisebeschreibung nach Arabien und den umliegenden Ländern*, III. (Hamburg, 1837), p. 189.

(63) انظر: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 116.

أيضًا، إلا إذا بقيت الحماة ممسكة بزمام الأمور، فعكفت النساء الصغيرات على تنفيذ توجيهاتها ورغباتها وحسب. ولهذا الأمر أهمية تسمو فوق مصالح الأفراد ذوي العلاقة؛ فانتصار الحماة يعني الحفاظ على التقاليد وروح العائلة، وهذا أمر بالغ الأهمية، ولا سيما في الشرق الذي يبغض العادات والتقاليد الجديدة. وأخيرًا، هناك دوافع خُلقية أيضًا تحث على الزواج المبكر؛ فبحسب لويزا بالدنسبيرغر، تسعى الأمهات إلى تزويج أبنائهن باكرًا لوقايتهم من الانزلاق في سُبل الرذيلة[64]، والزواج المبكر للفتيات أمر مرغوب فيه للغاية؛ إذ إن مسلك المرأة غير المتزوجة أكثر عرضة للخطر[65].

وحيثما وجد زواج الأطفال، قلَّ ذلك أو كثر، تكون مسألة قبول الزوجين للزواج هامشية[66]. وكل مسوغات زواج الأطفال المذكورة آنفًا تنبع من أسباب

(64) انظر الصفحة 76 من المجلد الثاني من ترجمة ماثيوز الإنكليزية لكتاب المشكاة (*Mishkât*) (Calcutta, 1810).

«يا معشرَ الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» (حديث نبوي).

(65) انظر الصفحة 86 من المجلد الثاني من كتاب المشكاة: «الأب الذي لا يزوج ابنته إذا بلغت فإنما إثمها على أبيها... فإذا بلغت فليزوجها، فإن بلغت ولم يزوجها فأصابت إثمًا فإنما إثمها على أبيها»*. وانظر الصفحة 86 من المرجع المشار إليه سابقًا: «في التوراة مكتوب: من بلغت ابنته اثنتي عشرة سنة ولم يزوجها فأصابت إثمًا فإثم ذلك عليه». انظر كذلك ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 371.

«قد تكون خِطْبة الأطفال وسيلة للحفاظ على عذرية الفتاة، وهي سمة ذات قيمة كبيرة في العروس لدى شعوب كثيرة».

* لم نجد هذا الحديث في كتاب المشكاة المشار إليه، وإنما وجدنا حديثًا يشبهه في الموضع نفسه ورقمه ونصه كالآتي: 3138 «وعن أبي سعيد وابن عباس قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثمًا فإنما إثمه على أبيه» [المترجمتان].

(66) يقول لين في: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, I, p. 217.

«قد يزوج الوالدان ابنتهما لمن يحلو لهما، ويزوجانها من دون موافقتها، إن لم تكن وصلت سن البلوغ». ويقول في الصفحة 138 «وموافقة الفتاة القاصر غير مطلوبة؛ فأبوها أو جدها لأمها، أو أمها، أو عمها، أو أخوها، أو أي شخص آخر معين في الوصية، أو القاضي، يتصرف نيابة عنها كما يرى مناسبًا». ويضيف في حاشية أن «الولد قد يكون متزوجًا، لكنه قد يطلق زوجته». انظر كذلك يونبول في: Juynboll, = *Handbuch des Islamischen Gesetzes*, p. 222.

عملية، وتعتمد على فراسة لا علاقة لها برغبات الطرفين صاحبي الشأن. ولكن حتى بعد بلوغ الرجل والمرأة سن الرشد، فإن التقاليد تقتضي أن لا يكون لهما من أمر زواجهما إلا القليل، وأن يضطلع أناس آخرون بترتيب الزواج.

= «وبطبيعة الحال، فإنه مما لا جدال فيه أن الأطفال الذين يجري عقد قرانهم في مثل هذه السن الصغيرة لا يؤبه لرغباتهم، وإنما يزوجهم الولي الموكل بهم، إلا أن هذا لا يجوز، وفقًا للمذهب الشافعي، كما ذكر أعلاه في الصفحة 213 [الإشارة هنا إلى كتاب يونبول]، إلا للولي المُجبِر (الأب، أو في حال غيابه الجد من جهة الأب). وفي المقابل، وفقًا للمذهب الحنفي، يجوز ذلك لأي من الأقارب، إن كانت له الولاية، إلا أنه يحق للمرأة التي زوجّها ولي من غير الأصول من دون رضاها أن تطلب فسخ عقد الزواج إذا ما بلغت سن الرشد. في ما يتعلق بتطبيق المذهب الحنفي في تزويج الأطفال في آتشيه (عن طريق تقاليد)، انظر: Snouck Hurgronje, *Die Atjèhers*, I, pp. 375-381 (*The Achehnese*, I, pp. 343-348).

الفصل الثالث
اختيار العروس

من يختار العروس؟

الأب هو من يحوز عروسًا لابنه، والأب هو من يتكفل بزواج ابنته، وإذا ما أغفل هذا، أو مات قبل أن يبلغ أطفاله سن الزواج، نهضت الأم بذلك وحدها، أو بالتشاور مع الأقارب المقربين؛ كالأخ الأكبر أو العم، على سبيل المثال. ويجب على الإخوة أن يساعدوا أخاهم غير المتزوج في الحصول على زوجة[1]، ولكن مما يستحسنه الفلاحون أن يقال عن رجل إنه زوَّج جميع أبنائه

---

(1) يقول غرانت عن الخِطبة في كتابه: Elihu Grant, *The People of Palestine* (London, 1921), p. 53,

«يجري ترتيب هذا بين آباء الشباب؛ إذ يبادر أبو الشاب من خلال أصدقاء فيأتون أبا الفتاة ويعرضون عليه الخِطبة». ويقول في الصفحة نفسها: «الزواج هو الموضوع الأهم بين والدِي الأولاد والبنات». أما ويلسون فيقول في: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London: John Murray, 1906), p. 107,

«عندما يقترب الولد أو البنت من سن الزواج يشرع الوالدان بالعمل الأهم المتمثل بالعثور على عروس أو عريس ملائم لهما». انظر بيروتي في: Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine* (Cambridge: Deighton, Bell, and co., 1864), p. 180,

«يجري ترتيب الصفقة بين والدي الزوجين الشابين بمساعدة أصدقائهم وأقربائهم المقربين». وأورباخ في: F. Auerbach, «Die syrische Frau,» in: *Archiv für Rassen und Gesellschafts-Biologie*, XII (München, 1916-1918), p. 152,

«الزواج ليس من شأن الشباب هنا، بل من شأن الوالدين، ولا سيما الأم». وجوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris: [s. n.], 1908), p. 43,

«في الواقع فإن والد الشاب هو من يبحث الأمر مباشرة مع والد الفتاة، وتتحدث أم الشاب أو الفتاة في الأمر، لكن لا سلطة لها في هذا الجانب، ويشارك الأخوة والأعمام المعنيون بالمسألة في النقاش بصورة مباشرة» [ترجمة عن الفرنسية]. وباور في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel* (Leipzig: H. G. Wallmann, 1903), p. 83, =

وهو في قيد الحياة (الأب بجوِّز الولد؛ هو جوَّز كُل أولادِه وهو طيب)؛ فيكون قد أدى الواجب الأهم في حياته[2]. ويُفهم من قولهم «زوَّجه أبوه» أن أباه دفع تكاليف الزواج كلها؛ فلكلام الناس تأثير بالغ في الآباء، ولولاه لما زوَّج كثير من الآباء أبناءهم. وإذا ما أرجأ أهل شاب زواجه فإنه يغضب؛ فعندما لقينا فاطمة خضر (ابنة خضر إحْسين [40]، وزوجة علي سالم [70]) خلال موسم الزواج (تشرين الأول/ أكتوبر إلى تشرين الثاني/ نوفمبر)[3] من عام 1925، وكان زوجها في أميركا الجنوبية، قالت لنا عند النبع: «ابني مستاء وغاضب»، ويريد الزواج (ابني حردان بدّوْ بتجوَّز)[4]. والتعامل مع رجل كهذا ليس سهلاً، وتصف عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الرجل المتلهف على الزواج كالآتي:

«إذا جاء أحدهم يريد الزواج، وقيل له: اذهب واعمل! فإنه لن يفعل. وإذا قال له أحدهم: افعل هذا أو كذا أو كذا، لا يطيع، ويضرب أخته وأمه، ويفعل كل شيء على نحو خاطئ».

= «اختيار فتاة ملائمة لتكون عروسًا للفلاح الشاب هو شأن الوالدين، وإن كانا متوفيين، فيصبح هذا واجب الإخوة الكبار أو العم». ويقول ويلسون في الصفحة 107 من المرجع المشار إليه سابقًا: «إذا كان الأب متوفيًا، يؤول أمر خِطبة الفتاة للأخ الأكبر إن وجد، وإلا فللأقرب صلة من الذكور». وعن العرب القدماء يقول فيلهاوزن (Wellhausen) في: Julius Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 431,

يخطب المرأة وليّها أو الوصي عليها؛ أي أبوها أو أخوها أو ابن عمها.

(2) يقول ليز في كتابه: George Robinson Lees, *The Witness of the Wilderness* (London, 1909), p. 120,

«كل والد يتوق لرؤية ابنه مستقرًا في حياته». قارن أيضًا بما يرد في الآية الرابعة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين؛ فإبراهيم لم يرض حتى علم أن ابنه اسحق سيتخذ زوجة ملائمة، امرأةً من عائلته.

(3) يرى دلمان في كتابه: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I, 1 (Gütersloh: Evangelischer, 1928), p. 266, 338,

أن نيسان/ أبريل شهر ملائم للأعراس، بينما يقول فتزشتاين (Wetzstein) في مقالته: Johann Gottfried Wetzstein: «Die syrische Dreschtafel,» in: *Zeitschrift für Ethnologie*, V. (Berlin, 1873), p. 288,

إن الأعراس السورية تُقام في شهر آذار/ مارس.

(4) سرعان ما بدأت الأم ترتيبات زواج ابنها، واحتُفل بخِطبته في موسم المشمش التالي. انظر أعلاه في الصفحة 70 من هذا الكتاب.

وقد يغادر ابن متمرد كهذا البيت ليجبرهم على أن يزوِّجوه، وهو ما يراه حقًا له. ومن جهة أخرى، فإن هذا الحق ينطوي على التزامات؛ فإذا ما رتب الأب أمر زواج ابنه، فيترتب على الابن التزامات تجاه البيت؛ أي تجاه أبيه الذي دفع مصاريف العرس، وتجاه إخوانه غير المتزوجين الراغبين أيضًا في الحصول على عرائس. وإذا ما خيب الابن ظن أهله في هذا الجانب فإنه يلام، كما هو الحال في الحكاية الآتية التي ترويها عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن عبد الهادي [104] (ابن محمد إبراهيم [91]) من أرطاس:

«زوَّجه أبوه على أن يبقى في البيت، لكنه رحل تاركًا أباه وإخوانه الخمسة وهم في سن الزواج، فقال له أبوه الأرمل: انزع عنك ملابسك! فبماذا سنزوج هؤلاء العزَّاب؟»

واحتاج محمد إبراهيم [91] امرأة في البيت بعد وفاة زوجته، فحصل لابنه الأكبر على عروس. وكأرمل، ربما كان هو أيضًا يرغب في الزواج مرة أخرى، ولكن لأنه لم يجد ما يكفي (ما فيش قُدْرة) لزيجتين في العائلة، فقد فكر في ابنه أولًا مؤثرًا إياه على نفسه، وعندما تركه ابنه لم يدر ماذا يفعل في البداية. وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إنه على الرغم من ذلك، نجح الآن (في عام 1926) في الحصول على زوجة لابنه الثاني (موسى محمد [105])، وكذلك في بناء بيت جديد. ولما أصبح ميسور الحال، أراد ابنه (عبد الهادي محمد [104]) أن يعود إلى البيت، لكن أباه (محمد إبراهيم [91]) حرمه من ذلك؛ لأنه خان أهله، وأيد الناس الأب في سخطه على ابنه.

وفي المقابل، قد يتصرف الآباء بأنانية؛ فرُبَّ أبٍ يلتمس عروسًا لابنه، لكنه يفتن بالمرأة الشابة التي يختارها له، فتسول له نفسه أن يتخذها زوجة بدلًا من ذلك، وبهذا يتنافس الأب وابنه على المرأة نفسها، ثم يفسر الأب الأمر قائلًا:

«رأيتها في السوق تبيع الحليب، ورغبت فيها لشيخوختي، لا لابني!» (شُفتها في السُّوق بتبيع لَبْنِة اتمنيتها لشيبي ما هيش لَبْني).

وهذا المثل أوردته عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) لما له من صلة بالمثال

الآتي من واقع الحياة: «ذَبْلة خلاوي (ابنة خلاوي [108]) كانت متزوجة في بيت لحم؛ فقد أعطيت لمحمد إحْسين، أبي عيد، وكان ابنه راغبًا فيها، لكنه لم يعطه إياها».

وعلى هذا المنوال، اختار الرجل المسن إبراهيم عايش [82] بنتًا صغيرة، وهي صفية (زوجة إبراهيم عايش [82]) منالوَلَجِة[5]عروسًا لابنه (عبد السلام إبراهيم [92])، ولكنه في اللحظة الحاسمة أخذها لنفسه[6]، وكانت هي زوجته الرابعة. وصفية (زوجة إبراهيم عايش [82])، وهي الآن أرملة ذات نفوذ في القرية، حدثتني عن الأمر بنفسها. وعند الاحتفال بالعرس كانت أصغر بكثير من أن تدرك فحوى ذلك كله، لكنها كانت خائفة جدًا من الرجل العجوز. «كنت أخافه، وكنت أذهب بعيدًا في رعي الغنم كي لا أراه، وكنت أخاف من صوته، ونذرت (أنْذَرت) لبدرية (امرأة مسلمة عُرفت بالتقوى في شَرَفات، وهي قرية قريبة من القدس) أنه إذا مات فسأعطيها ثلاثة أذرع من القماش. ولم يرض أبوها قط عن اتخاذ الرجل المسن لها زوجة، وذهب بالأمر إلى القاضي في القدس، إلا أنه قال: «إذا كان يريد أن يعطيها لعبده، أو لابنه، فهو حر في فعل ذلك، أو إذا كان راغبًا فيها لنفسه فهو حر في ذلك أيضًا (إذا كان بدّوْ يعطي لعبد أو لابْنو حر أو لنفسو حر). وإجابة القاضي مثيرة للاهتمام لما تتضمنه من مبدأ يؤكد حق الرجل القانوني في التصرف بالمرأة التي طلب يدها من أبيها وأعطاه مهرها. وهذا هو المثال الوحيد في أرطاس الذي طُلبت فيه فتاة لرجل غير ذلك الذي انتهى بها الأمر زوجة له. وما أعان إبراهيم عايش [82] على فعلته أنه كان غنيًا وذا نفوذ؛ فبعد مقتل سالم عِثمان [67] الذي كان الزعيم الحقيقي في أرطاس[7]، أصبح هو كبير القرية.

---

(5) انظر أعلاه في الصفحة 80، وأدناه في الصفحة 103 من هذا الكتاب.

(6) يروي بالدنسبيرغر الأمر نفسه في مقالته: Philip J. Baldensperger, «Birth, Marriage and Death among the Fellaheen of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statements* (London, 1894), p. 127.

«عندما كان في الخامسة والستين تقريبًا اختار فتاة في السابعة لأحد أبنائه، ورتب الخِطبة لابنه، وعندما أوشك الخطيب أن يعقد القِران، جاء الأب وتزوج الفتاة».

(7) في ما يتعلق بهذا الحادث في أرطاس انظر كتاب بالدنسبيرغر: Philip J. Baldensperger, *The Immovable East* (London: Sir Issac Pitman, 1913), p. 118ff.

ولا يوجد سوى مثال واحد آخر على رجل طلب يد فتاة ودفع مهرها، ولكن بعد ذلك، وحتى لا يخسر أمواله التي أنفقها، اضطر إلى أن يرضى بفتاة من أقارب العروس الصغيرة التي أرادها، لكنها تكبرها بكثير. وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) القصة كالآتي:

«فكر علي سالم [70] أن يأخذ فاطمة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة اسْمَعين أحمد [55])، فاشتعلت الغيرة في بيت خالها، وقالوا: لن يحصل هذا! سنبعده عن فاطمة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة اسْمَعين أحمد [55])، وسنأخذها لابننا اسْمَعين أحمد [55]، وكان علي سالم [70] قد دفع خمسة عشر جنيهًا إسترلينيًا كجزء من المهر، ثم قالت عائلة اسْمَعين [55]: نحن أولى بابنة أختنا (نحنا أَبدا في بنت أُختنا)، ولما دخل علي سالم [70] دار خليل شحادة [170]، قالوا: سوف نقتله! وأرسلوا له رسالة: «إبق بعيدًا عن ابنة خليل شحادة [170]». وبعد ذلك طبخت عائلة اسْمَعين [55] (أي أنهم احتفلوا بخِطْبة اسْمَعين أحمد [55] وفاطمة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة اسْمَعين أحمد [55]). وكان علي سالم [70] بعيدًا في القدس يبيع الدراق لراهبات دير أخوات الميثاق، وقد رتبوا أمر الطبخ (أي احتفال الخِطْبة) دون علمه».

وتحيَّن أقارب العروس من طرف أمها يومًا كان فيه العريس الأول (علي سالم [70]) غائبًا عن القرية، ناوين سرقة عروسه بالحيلة(8)؛ إذ ما كان ليتخلى عنها طواعية. وعاد علي سالم [70] من القدس فاستقبله صوت الغناء والرقص في احتفال الخِطبة لدى هبوطه من التلة باتجاه القرية. وغنت خالة العروس

(8) انظر ويلسون في: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 115,

«أحيانًا قد يغير الوالد أو الأقارب رأيهم، فيزوجون الفتاة إلى رجل آخر غير الذي خطبت له. وهناك مثل يستخدم في مثل هذه الحالة يقول: «العروس في غرفتها ولا ندري لمن ستكون»، و«خطبت لأحدهم وتزوجها آخر». وعلم الكاتب عن عروس تزوجت في يوم عرسها من رجل آخر غير العريس الذي كان من المفروض أن تتزوجه، وذلك خلال الوقت القصير الذي ذهب العريس فيه ليستحم قبل الاحتفال، بحسب العادة الشائعة... إلا أن مثل هذه الأفعال تعد مخزاة إلى حد ما، وتؤدي في بعض الحالات إلى مشاحنات حادة، بل حتى إلى سفك الدماء».

حمدة (بنت اسْمَعين [51]، وزوجة علي سالم [70])، والتي أصبحت في ما بعد زوجة لعلي سالم [70]، أغنية استهزأت فيها بالعريس المزدرى الذي لم يعلم عن الأمر شيئًا، وسأل - وقد استبد به هاجس شؤم: «لم هذا الغناء؟ - هو لفاطمة خليل (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة اسْمَعين أحمد [55])، فقال: «لعن [اللهُ] أمك وأباك، وأنت يا علي! مالي!

(ومرة أخرى) أرسلوا له رسالة بواسطة الناس ليقولوا له: «تزوج حمدة (ابنة اسْمَعين [51]، وزوجة علي سالم [70]) وهي (خالة العروس)! فقال: لا!، فقالوا له: سوف تخسر مالك! ثم قال مذعنًا للمكيدة (عاوَد من الغُلُب): سآخذها».

لم يستطع علي سالم [70] أن يفعل شيئًا أمام أبي منافسه؛ إذ كان مختار القرية، ورجلًا ذا سلطة، ولا سيما بعد أن عُرضت عليه عوضًا من خطيبته أخت المختار التي كانت آنذاك امرأة كبيرة، وكان أخوها سيسر لزواجها. لكن علي سالم [70] كان يتيمًا؛ فقد كان أبوه الزعيم المقتول المذكور أعلاه، وبعده عاشت العائلة أيام بؤس؛ فقد اضطرت أمه للعيش مع أولادها في كهف بعد أن أخرجتها ضرتها من البيت والأملاك.

ولا مكان هنا لرواية عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) التي تحكي أن علي سالم [70] لم يستطع أن ينسى فاطمة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة اسْمَعين أحمد [55])، وأنه حاول حتى في يوم عرسها، أن ينظر إليها نظرة خاطفة، وأنه لم يقوَ على تحمل المرأة التي فرضت عليه(9).

وإذا كانت قصة علي سالم [70] تبين أن الرجل يعجز عن مواجهة عائلة عروسه وحيدًا؛ فهناك قصة أخرى من أرطاس تعطي دليلًا قاطعًا على أهمية أن يجد الشاب في مثل هذه الحال الدعم من أبيه، وهي حادثة وقعت في الفترة الصهيونية، والتي أثرت حتى في قريتنا. فيحكى أن أهالي بيت لحم، كما يعتقد، اشتروا أراضي لمصلحة اليهود حتى من الناس في أرطاس، وأن المال الذي

(9) انظر غرانت في الصفحة 64: «إن خيبة أمل العشاق ليست بالأمر الغريب لدى الفلاحين».

أتى إلى القرية بهذه الطريقة كان السبب في الأعراس الكثيرة، وفي بناء سبعة بيوت خلال السنتين اللتين أمضيتهما هناك. لكن عندما كان اليهود يشترون الأرض بواسطة عملائهم، كان على البائع أن يثبت ملكيته لها. وهكذا، وبين عشية وضحاها، بات أمر حيازة صكوك ملكية للأرض بالغ الأهمية. وتحت النظام الأبوي السائد في القرية؛ حيث يصبح الأخ الأكبر سيد العائلة بعد وفاة الأب، ويعمل على إدارة شؤونها، يصبح الأخ الأصغر تابعًا لأخيه الأكبر حتى في هذا الصدد. ولهذا لم يكن لعبد خلاوي [110] يومًا ما أن يثبت حصته في أملاك أبيه؛ إذ انتقلت الورقة من أبيه إلى الابن الأكبر محمد خلاوي [109]، ومن هذا الأخير إلى ابنه خليل [112] (ابن محمد خلاوي [109]). وبسبب هذه الوثيقة، اضطر عبد خلاوي [110]، وتحت التهديد بحرمانه حصته، إلى تزويج ابنته مِريم (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اسْمَعين خليل [116]) من اسْمَعين [116] ابن خليل محمد [112].

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أن «اسْمَعين خليل [116] (ابن خليل محمد خلاوي [112]) أراد أن يتزوج مِريم (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اسْمَعين خليل [116])، ورفض أبوها أن يعطيه إياها؛ فذهب إلى عمّان (شرق الأردن) غاضبًا. بعد ذلك أرسل له أبوه (محمد خلاوي [112]) رسالة، قال فيها: قل لي من تريد أن تتزوج، ولن أدعها تفلت منك، ولكن ارجع! بعدها عاد اسْمَعين خليل [116] إلى البيت.

وحدث بعد ذلك أن اليهود كانوا يشترون أراضي، وكان على كل شخص أن يحمل صك الملكية في يده ليثبت امتلاكه أرضه. ورفض أبو العريس (خليل محمد [112]) أن يعطي صك ملكية الأرض لعمه (عبد خلاوي [110]) أبي العروس. «إذا أعطيتني مِريم (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اسْمَعين خليل [116])، (أي لابني) فسأعطيك صك الملكية، ويمكن لك أن ترتاح. وإذا لم تعطني مِريم (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اسْمَعين خليل [116]) فلا أملاك لك عندي». وهكذا أذعن أبو العروس وأعطاها له، (وقال لأبي

العريس): مِريم (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اشْمَعين خليل [116]) لك من دون مال.

وهناك سبب آخر مكن خليل محمد خلاوي [112] من الفوز بمِريم عروسًا لابنه، وهو أنها كانت منذ ولدت (عطية إلجورة) لاشْمَعين [116] ابن خليل محمد خلاوي [112]، والذي كان صبيًا صغيرًا آنذاك؛ لذلك غضب هو وأبوه غضبًا شديدًا، كما روت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في جلسة أخرى، عندما وافق أبوها على خطبتها لرجل آخر (إحْسين عبد الله [87])، إلا أنه كان عليه فسخ هذه الخِطبة لمصلحة عريسها الأول اشْمَعين [116].

وقد روت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) القصة على النحو الآتي:

«خطب إحْسين عبدالله [87] (ابن عبد الله عايش [81]) مِريم ابنة عبد خلاوي [110]، وطبخوا لها (أي احتفلوا بوليمة الخِطبة)، ودفعوا جزءًا من المهر، وبعد ذلك قال أهل العريس الأول لعبد خلاوي [110]: إذا لم تعطنا مِريم لن تحصل على شيء من الأملاك. وعندئذ كان لا بد من إعادة مهر العروس، وكذلك تكاليف الطبيخ، ومقداره خمسة جنيهات إسترلينية، إلى إحْسين عبدالله [87] (إذ يجب على العريس أن يتكفل بوليمة الخِطبة ويدفع تكاليفها). وأخذ عبد خلاوي [110] صك ملكية الأرض (كوشان)، وكان هذا هو مهر العروس.

«لماذا تمشون في طريق الضلال. أعطيتم صك ملكية الأرض، وأخذتم البنات» (ليش تِتِمشوا في طريق الظَّلامات أعطيتوا الكوشان وأخذتوا البنات).

وهكذا كان على أبي العروس أن يدفع ثمنًا غاليًا لإخلافه وعده؛ إذ خسر مهر ابنته، واضطر أن يرضى بصك ملكية أرض، هي في الحقيقة أرضه. وختمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) هذه القصة باحتجاجها على ما قام به أبو العريس. ولكن يمكن للمرء أن يفهم البهجة التي يشعر بها شخص قوي الإرادة قادر على تحقيق رغباته ومطالبه.

وكثيرًا ما تنشب خلافات مشابهة؛ فنادرًا ما يتم عقد زواج من دون أن تنشأ

تعقيدات شتى، ويجب على الأب، في المقام الأول، أن يرعى مصالح أبنائه ويحفظها، الذكور منهم والبنات على حد سواء، فيقف مدافعًا عنهم، ويساوم نيابة عنهم. ولأنه أكثر علمًا بالطبيعة البشرية، فإنه يكون في الغالب أقدر على ذلك من الشباب أنفسهم الذين لا يمتلكون خبرته في فن المساومة الصعب. وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من أن الكبار هم الذين يرتبون الأمور، فإن اتفاق الكبار ليس أقل إثارة من اتفاق الشباب، لو أنه ترك لهم المجال أن يتوصلوا إلى اتفاق بأنفسهم، لكن اتفاق الكبار سيتصف في كل الأحوال بأنه أقل سذاجة من اتفاق الشباب. وتثار عن عقد الزواج الخلافات والضغائن القديمة، وتبرز حقائق مختلفة تمامًا وتتسيّد الموقف، ويصبح لقضايا أساسية أخرى مرتبطة بمصالح العائلة شأن أعظم من المودة التي يكنها الشباب بعضهم لبعضهم الآخر. وللأمر برمته، إلى ذلك، بعد آخر؛ فالزواج ليس شأن الفرد بقدر ما هو شأن العائلة بأسرها.

وعندما تغادر الفتاة الصغيرة بيت أبيها عروسًا، يقول لها إخوانها وأبوها: «لم نعطك لأي كان، بل أعطيناك لأناس يمكننا أن نركن إليهم (إحنا ما أعطيناش لناس حياالله إحنا أعطيناكِ لناس مَشوْرِين عليهم). وهم لا يقولون: «أعطيناك لرجل صالح ونبيل»؛ لأن العريس لا يزال في الغالب طفلًا لا يُعرف عن شخصيته الكثير، لكن أهل البنت يعرفون أن زواجها يعني تغيير بيئتها، وأنها لن تعتمد على زوجها وحده، بل وبالقدر نفسه، على الأقل، على أفراد العائلة الآخرين، ولا سيما أبويه. ويرفد أهل الفتاة بتزويجهم ابنتهم عائلة أخرى بفرد جديد، ولهذا فمن الطبيعي أن يتفاوضوا مع كبير العائلة الأخرى. وعندما يتزوج شاب، فإن أهم ما في الأمر هو أن أهله يستقبلون فردًا جديدًا في عائلتهم. ومن منظورهم، فإن من الطبيعي أن يتخذ كبير العائلة القرار الأخير بهذا الشأن، كما هي الحال في شؤون العائلة المهمة الأخرى؛ فهو اتفاق بين عائلتين، وليس بين أفراد، ويتم من خلال من يمثل كلًا منهما.

وتظهر كلمات عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في سردها للقصة الأخيرة إلى أي مدى يرى فيه الرجل أمر زواج ابنه قضيته هو؛ إذ يقول أبو العريس لعمه

العنيد الرافض إعطاء ابنته لابن محدثه: «إذا أعطيتني مِريم (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اسْمَعين خليل [116])، فسأعطيك صك الملكية، ويمكن لك أن ترتاح، وإذا لم تعطني مِريم (ابنة عبد خلاوي [110]، وزوجة اسْمَعين خليل [116]) فلا أملاك لك عندي»[10].

لا يختلف هذا إلا اختلافًا يسيرًا عن المفهوم القائل إن الرجل يملك حق التصرف في المرأة التي يحوز عروسًا لأحد أفراد العائلة، بوصفه ممثلًا للعائلة كلها. وقد فهمنا من كلمات القاضي في القدس التي سبق ذكرها، أن الرجل له الحق في أن يعطي العروس المكتسبة لعبده، أو لابنه، أو أن يأخذها لنفسه، تمامًا كما يريد. وهذا تعبير صريح عن فكرة العائلة المهيمنة؛ إذ يعد الرجل ممثلًا للعائلة أكثر من كونه فردًا، ويفسر هذا أنه يمكن للأب أن يعطي العروس التي حازها إلى أي فرد من أفراد العائلة يختاره هو.

ويوازن هذا ويتممه حق الرجل في تقرير مصير أبنائه في مجتمع ذي نمط أبوي. ومن الواضح تمامًا أن ليس للأبناء والبنات حرية تُذكر في أمور زواجهم[11]؛ فحتى وإن لم يرق لهم اختيار الأب للعريس أو العروس، فعليهم أن يذعنوا لسلطة الأب ونفوذه. ومثل هذه النزاعات تظهر من حين إلى آخر؛ فلدينا على سبيل المثال قصة صراع صبحة موسى (ابنة موسى شاهين [135]، وزوجة اسْمَعين حسن [146]) العقيم مع أبيها القوي الشكيمة (موسى شاهين [135]) الذي كان يدير في حياته الموارد المالية، ويرتب الزيجات، ليس

(10) انظر أدناه في الصفحة 119 وما يليها من هذا الكتاب. يطلب علي أسعد [42] المصاهرة مع عمه خضر إحْسين [40]، طالبًا يد ابنة عمه كما لو كان يطلبها لنفسه، لكنه في هذه الحالة أيضًا إنما يتحدث عن عروس لابنه.

(11) يقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab*, p. 43,

«في كثير من الأحيان يُتخذ قرار الزواج ويُبت به حتى قبل إخبار ذوي العلاقة، ويلعب الوالدان في الحقيقة الدور الأكبر، إن لم يكن الدور الكلي، في هذا النوع مع العقود» [ترجمة عن الفرنسية]. أما بيروتي، فيقول في: Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine*, p. 181,

«ثم يسرُّ الاحتفال قلوب الجميع، لكن أحدًا منهم لا يفكر في ما إذا كان الطرفان المعنيان مسرورين بالدرجة ذاتها. ولا يرى الآباء سوى مصالحهم، ويستلم الأبناء للزواج من دون أي شعور ديني أو عاطفة قلبية، بل يعدونه كصفقة عمل».

لعائلته فحسب، وإنما للعشيرة كلها أيضًا. وقد اتخذ قرارًا بتزويج ابنته صبحة (ابنة موسى شاهين [135]، وزوجة اسْمَعين حسن [146]) من ابن عمها اسْمَعين حسن [146] على الرغم من كراهيتها الشديدة له، وقبل العرس مرض موسى شاهين [135] مرضًا خطرًا، وكانت صبحة تأمل أن تتزوج رجلًا آخر، ولكن عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) تروي لنا أن الأب، حتى وهو على فراش الموت، ألزم ابنته، وضمن احترام إرادته في ما يتعلق بزواجها بعد موته.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «قال موسى شاهين [135]: «ابنتي صبحة (ابنة موسى شاهين [135]، وزوجة اسْمَعين حسن [146]) يجب أن تكون لابن أخي اسْمَعين حسن [146] ابن حسن الحج (حسن شاهين [137])». وكان كثيرون يريدون صبحة موسى (ابنة موسى شاهين [135]، وزوجة اسْمَعين حسن [146]) لسالم من عائلة عَبسية[12]، وابن إبراهيم عايش [82]، وعشيرة الفواغرة في بيت لحم.

وعندما كان على فراش الموت، اجتمعت العشيرة كلها حوله، وكان أحمد اسْمَعين [52] هناك أيضًا، قال وهو على فراش الموت: «أنا أترك الأمر لك يا أحمد اسْمَعين [52]، لا تدع أحدًا يأخذ صبحة (ابنة موسى شاهين [135]، وزوجة اسْمَعين حسن [146])، إلا ابن أخي».

أما هي فلم تكن تحبه كثيرًا: هل الحجل المُكحَّل كالدوري العادي؟ (إلشُّنار إلمكحَّل زي إلعصفور إلبْسيسي؟)؛ فعندما توفي موسى شاهين [135]، أرادوا إلغاء زواجها منه».

وبعد ذلك تدخلت أم العريس مِريم (ابنة إبراهيم إبراهيم [131]، وزوجة حسن شاهين [137])، وذهبت إلى الحي الشرقي من القرية - وكانت عشيرة شاهين تقطن في الحي الغربي - ولجأت إلى المختار أحمد اسْمَعين [52] الذي عهد إليه أبو العروس موسى شاهين [135] وهو على فراش الموت

(12) عبسية كان شيخًا كبيرًا في الولجة.

بتنفيذ وصيته المتعلقة بزواج ابنته من ابن أخيه. وبمساعدة أحمد اسْمَعين [52] أجبرت [أم العريس] العروس الرافضة على أخذ ابنها.

«ذهبت مِريم (ابنة إبراهيم إبراهيم [131]، وزوجة حسن شاهين [137]) إلى أحمد اسْمَعين [52] وقالت له: «كان الله في عونك! هذا (أي زواج صبحة (ابنة موسى شاهين [135])) ما عليك أن تتولاه (الله يعينك وهلّي في وِجّك) أنت وأقرباؤك!»، فقال لها: «اذهبي واشتري وجهزي ما يلزم وألقي برأسك [على الوسادة] ونامي!».

بعد ذلك بدأوا بالغناء لعرس محمد جبر [159] وسعيد موسى [141]، فذهبت مِريم (ابنة إبراهيم إبراهيم [131]، وزوجة حسن شاهين [137]) مرة أخرى إلى الحي الشرقي من القرية، وقالت لأحمد اسْمَعين [52]: «إنهم يغنون لسعيد موسى [141] ومحمد جبر [159]، وأريد أن أحتفل بعرس ابني معهم، وأريد أن تكون كنَّتي معهم!»، فقال لها أحمد اسْمَعين [52]: «اشتري قهوة وسكراً وجهزي كل شيء! سوف نأتي هذا المساء». فاشترت قهوة وسكراً وجهزت كل شيء.

وفي المساء جاء أحمد اسْمَعين [52] وأقاربه من الحي الشرقي، إلى عشيرة شاهين، وكان الرجال يرقصون والنساء يغنين، وأرسلوا في طلب مِريم (ابنة إبراهيم إبراهيم [131]، وزوجة حسن شاهين [137]) وقالوا لها:» أين القهوة والسكر التي أحضرتِ؟»، قالت:»جاهزة»، فقال شاهين موسى [139] وأخوه لأحمد اسْمَعين [52]:» لماذا ينبغي أن يكون لدى مِريم (ابنة إبراهيم إبراهيم [131]، وزوجة حسن شاهين [137]) قهوة وسكر يا أبا اسْمَعين (أحمد اسْمَعين [52])؟»، فقال لهم:»ستأخذ مِريم (ابنة إبراهيم إبراهيم [131]، وزوجة حسن شاهين [137]) كنتها. لدينا هنا عريسان، وابنها (اسْمَعين حسن [146]) هو الثالث»، وقال شاهين موسى [139] [أخو العروس صبحة]: «صبحة (ابنة موسى شاهين [135]، وزوجة اسْمَعين حسن [146]) لن تتزوج الآن. لنؤجل ذلك، ولنتركه إلى وقت آخر».

قال هذا آملًا أن يكون قادرًا على حماية أخته صبحة (ابنة موسى شاهين

[135]، وزوجة اسْمَعين حسن [146]) حتى لا تتزوج اسْمَعين [146] مرغمة، ولكن أحمد اسْمَعين [52] تمسك بقراره ووعده لِمريم (ابنة إبراهيم إبراهيم [131]، وزوجة حسن شاهين [137]).

وقال أحمد اسْمَعين [52]: «سأطلق زوجتي، وأتخلى عن حصاني (علي الطلاق من السرج والفرج) إذا لم أفلح [في مسعاي]، والله شاهد. يجب أن تُخضب العرائس الثلاث معًا بالحناء(13)، وأن يكون عرسهن في ليلة واحدة (ويُدْخلوا في ليلة وَحَدة)».

وهكذا أخذ مختار القرية أحمد اسْمَعين [52] على عاتقه إنفاذ وصية الأب؛ فسلطة الأب ونفوذه على أبنائه في مجتمع أبوي على درجة كبيرة من الأهمية، بحيث لا يجوز تجاهلها حينما تزعم أنها تعمل لخير الجماعة. وليس هناك مراعاة تذكر لحق الأفراد في الاستقلال والحرية الفردية. ويجب على الفرد أن يُنزل مصالح عائلته في المقام الأول. ولكي يكون الزواج صحيحًا، فلا بد للعروس أن توكل أباها أو أخاها، وبحضور الشهود، بالتصرف نيابة عنها عند عقد قرانها(14). ولكن، يبدو أن الموافقة المطلوبة من العروس، في أرطاس في الأقل، لا تتعلق بموافقة العروس على العريس، وليس لها أن تحتج إلا على تقصير العريس في ما ينتظر منه، كبذل المهر، وشراء ثياب العرس، وما إلى ذلك، فتلك هي واجباته. وعندما تسأل في ما إذا كانت توكل أخاها ليعقد زواجها، فإنها تجيب، أو غالبًا ما تجيب أمها نيابة عنها، أنه ما زال ينقصها هذا أو ذاك، وتصبح بعد ذلك مستعدة لمنح موافقتها المطلوبة(15). وتطالب الحكومة

---

(13) تُخضَّب العروس بالحناء الحمراء في الليلة التي تسبق عرسها.

(14) انظر أدناه في الصفحة 200 من هذا الكتاب. يقول لين في: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 138,

«يقع زواج المرأة والرجل، أو الرجل والفتاة البالغة، شرعًا من خلال تصريحهما (تقوم الفتاة بذلك عمومًا من خلال وكيل) بالموافقة على الزواج من بعضهما بعضًا بحضور شاهدين (إن كان بالإمكان الحصول على شهود)، ودفع المهر أو جزء منه». وفي ما يتعلق بموافقة المرأة تبعًا للشريعة الإسلامية انظر ويسترمارك في: Edward Westermarck: *The History of Human Marriage*, I. (London: Macmillan, 1924), p. 331, and *Marriage Ceremonies in Morocco* (London: Macmillan and Company, 1914), p. 15f.

(15) يُعدُّ صمت العروس أو ضحكها في بعض الأحيان علامة على الرضا. انظر: Westermarck, =

المركزية الآن أن تشمل الموافقة العروس، فيبدو أن هناك فرصة جديدة وآفاقًا مشرقة للمرأة التي لا تقبل عريسها. بيد أن أهل الفتاة يعرفون كيف يقون رغبتها في الحرية في هذا الصدد ضمن حدود ضيقة. وإن لم تتبدل أنماط المجتمع، سيبقى طلب موافقة المرأة على زواجها محض شكليات لا وزن لها. وعندما تسأل المرأة في اللحظة الأخيرة عن رغبتها بالزواج من العريس، يكون ذلك بعد أن هيأها أهلها الذين تحدثوا إليها في الأمر حتى باتت تشعر أنه لم يعد في وسعها أن تفعل شيئًا آخر إلا الاستسلام للمحتوم - وهو قدرها. وليس للمرأة سلطة خارجية تلجأ إليها، فماذا بإمكانها أن تفعل في مواجهة عائلتها؟ هي بين أيديهم بالكامل، وإذا لم تشأ أن ينبذها المجتمع، فلن تستطيع، بل لن ترغب في أن تنفصل عن أولئك الذين كانوا، وسيظلون، حماتها الطبيعيين طيلة حياتها؛ أي أبيها وأخيها[16].

وفي مثل هذه الحالة تستسلم المرأة في الغالب لرأي الناس، ولا تلبث أن تذعن لرغبات أهلها في ما يتعلق بزواجها. ولا طائل من سؤالها عن رأيها الخاص في هذا الأمر؛ فستجيب عن أي سؤال محتمل عن رأيها ورغبتها بما تمليه عليها العادات وبما ينبغي لها، فتقول: «أنا أوافق على ما يراه أبي صوابًا»، أو «كما يريد أبي»، أو «أريد ما يريده أخي»[17]. وربما لا تكون تلك الإجابة

Ibid., p. 331, and Hans Fehlinger, «Über das Ehe- und Familien-Recht der Mohammedaner,» (by = Kaurimsky), in: *Archiv für Rassen u Gesellschafts-Biologie*, XII. (München; Leipzig; Berlin, 1916-1918), p. 113.

(16) انظر: Adela Goodrich-Freer, *Arabs in Tent and Town* (London, 1924), p. 24,

«وعلى أية حال، عند المسلمين، يكون للزوجة دومًا نصير آخر يتمثل في شخص أبيها، بل وعلى نحو أشد، في شخص أخيها؛ فالمرأة لا تنسلخ عن عائلتها بالكامل قط كما هي الحال عندنا». وانظر أيضاً: J. A. Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict* (Paris: Librairie orientaliste, 1927), p. 123; W. B. Seabrook, *Adventures in Arabia* (London; Bombay; Sidney, 1928), p. 77; C. G. Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II (Cambridge: Harvard University Press, 1918), p. 121f.; John Lewis Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I (London, 1830), p. 110; Johann Gottfried Wetzstein, «Die syrische Dreschtafel,» in: *Zeitschrift für Ethnologie*, V. (Berlin, 1873), p. 291; James Edward Hanauer, *Folklore of the Holy Land* (London: Duckworth & Co, 1907), p. 314, and Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine*, p. 228f.

(17) انظر أيضاً: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 86f.

ويقول ويلسون في: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 107,

«في الواقع، لا يعد من اللائق أن يكون للفتاة رأي في الأمر، أو أن تعبر عن تفضيلها لخاطب أو لآخر».

تعبيرًا عن حسن تربيتها وحسب؛ أو مجرد مجاراة للعادات؛ إذ يمكن أن تكون إيمانًا وثقة منها بأن أباها وإخوتها يعملون غاية ما في وسعهم من أجلها. فهي تعلم أنهم لا يتخلون عن ابنتهم لغرباء دون تفكير؛ فهم سيظلون مسؤولين عنها على الدوام دومًا، متزوجة كانت أم لا، وسيعطونها لأناس يتوسمون فيهم حسن معاشرتها، لكي لا يكون في زواجها فضائح ومتاعب. ومما يسعدها، في الغالب، أنها تعرف أن زواجها يجلب عروسًا لأخيها الحبيب(18).

وكثيرًا ما كان افتقار المرأة الشرقية للحرية في اختيار الزوج موضع اهتمام [الباحثين الغربيين]. ويميل المرء إلى أن يرى في ذلك تعبيرًا عن افتقار المرأة للحرية في ما يتعلق باختيار الرجل وبالمقارنة معه فحسب. ولكن من المؤكد أن القضية هنا أكثر شمولًا من ذلك، وينبغي حلها على أساس شرقي، في الأقل؛ فيجب على الباحث أن يحيط بها من زاوية أوسع، وأن ينظر إليها في سياق أشمل، وهو افتقار الأفراد عمومًا للحرية الشخصية في مواجهة العائلة والمجتمع.

وفي ما يتعلق بافتقار المرأة للحرية في زواجها، فإن الشيء نفسه يسري على الرجل إلى حد بعيد(19)؛ فعلى سبيل المثال، بعد أن أخذ إبراهيم عايش

(18) انظر أدناه في الصفحتين 155 و156 وما يليها من هذا الكتاب.

(19) يقول غرانت في كتابه: Grant, *The People of Palestine* (London, 1921), p. 49,

«وعلى الأغلب، فإن الزواج لم يكن باختيارها، وعلى الأرجح لم يكن باختياره». أما باور فيقول في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 83,

«وتؤخذ رغبات الشاب في ما يتعلق بشريكة حياته في الاعتبار، إذا ما سمحت الظروف، ولكن لا يجوز له تحت أي ظرف من الظروف أن يتقدم لخطبتها بنفسه، فالقيام بذلك هو شأن وكيله». لكنه يقول أيضًا في الصفحة 96، من المرجع المشار إليه سابقًا: «حرية الاختيار غير واردة بتاتًا». ويقول جوسان في كتابه: Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab*, p. 43,

«عادات العرب في بلاد مؤاب» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول المؤلف نفسه في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, p. 55,

«عادات فلسطينية، نابلس ومنطقتها» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر كذلك ما يقوله ويسترمارك في كتابه: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 332,

«للابن، بحسب المذاهب الإسلامية كلها مطلق الحرية بعقد الزواج من دون موافقة أبيه، إذا ما وصل إلى سن البلوغ، والتي يفترض أن تكون في أغلب الأحيان مع تمامه لسنته الخامسة عشرة.. وفي =

[82] عروس ابنه الأولى لنفسه[20]، جلب له عروسًا بشروط مهينة جدًا؛ حتى إنه لم يملك إلا أن يشعر بأن في زواجها امتهانًا لكرامته، عندئذ أعلن أبوه: «إما أن تأخذها وإما تتركها، لكنك إن لم تأخذها فلن تتزوج أبدًا ما دمتُ حيًا»[21]. واضطر الابن إلى الإذعان لسلطته؛ لأن الأب هو من يملك المال؛ فالزواج مسألة اقتصادية إلى حد بعيد. وكذلك عندما كان علي خليل [173] مستاءً لاختيار أبويه عروسًا له من التعامرة لم يكن راغبًا فيها، ولكنهما أجبراه على الزواج منها؛ لأن الزواج من امرأة «أجنبية» يعفيه من الخدمة العسكرية التي تعد أكبر مصيبة يمكن أن تحل بالفلاحين[22]. وفي أحيان كثيرة يكون على الرجل أن يتخذ عروسًا طالما هناك مال لدى العائلة، أو حينما تسنح الفرصة لمبادلة عروس بإحدى القريبات. وعلى الرغم من المثل الذي يواسون به أنفسهم «بنات حواء وآدم كثيرات» (بنات حوا وآدم انتشار)، فإن هناك نقصًا في عدد النساء، في قريتنا أقلّه، وهذا يجعل الاختيار من بينهن أمرًا غير يسير. وإذا ما قيل بأنه يستطيع في ما بعد؛ أي عندما يتخلص من سلطة أبيه[23]، أن يتخذ زوجة أخرى بحسب رغبته، وهذا ما فعله علي خليل [173] على سبيل المثال، فليس في ذلك الكثير من العزاء؛ فالزوجة الأولى باقية في جميع الأحوال، ولا يستطيع أن

= واقع الأمر، فإن الوالدين في المغرب وفي غيرها يرتبان في كثير من الأحيان زواج ابنهما تيمًا لذوقهما، حتى وإن كان بالغًا، وقد تقتضي العادة انصياعه لرغباتهما».

(20) انظر أعلاه في الصفحة 93 وما يليها من هذا الكتاب.

(21) انظر أدناه في الصفحة 192 من هذا الكتاب.

(22) يقول كوندر في كتابه: Claude Reignier Conder, *Tent Work in Palestine* (London: Murray, 1885), p. 334,

«هناك شر ثالث يكاد يكون مهلكًا لنماء الأرض بالدرجة ذاتها، وهو التجنيد الإجباري الذي يخطف نخبة الشباب الكاسبين لقمة العيش، وتتفاوت الأعداد المأخوذة من قرية لأخرى. وكعقاب، يساق أحيانًا كل الذكور البالغين من السكان مكبلين بالحديد إلى مركز القيادة. وقلة من الشباب المساكين الذين ينتزعون من بين النساء الباكيات، يرون حبات الزيتون السوداء، والقبة [قبة الصخرة] اللامعة مرة أخرى.. وبعد نقلهم إلى أوروبا أو أرمينيا على عجل، يعيشون حياة بائسة بأجر ضئيل، ويستبد بهم ضباط جهلة. وليس ثمة ما يثير الحزن أكثر من مشهد المجندين وهم يغادرون قرية في فلسطين».

(23) يقول ويلسون في الصفحة 107 من المرجع المشار إليه سابقًا إن الوالدين يعملان على ترتيب الزواج، ويضيف: «والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو أن يكون الرجل فقيرًا، فلم يستطع الزواج حتى صار كهلًا، أو أن لا يكون له أقارب رجال يرتبون له أمور الزواج».

يطلقها بسهولة؛ لأن ذلك سيعني خسارة اقتصادية[24]. ولهذا، فإن افتقار الرجل والمرأة للحرية في ما يتعلق بالزواج هو، في أحسن الظروف، مسألة نسبية.

وفي ما يتعلق بالرجل، فالمسألة الاقتصادية بالغة الأهمية؛ إذ لا يمكنه الحصول على عروس من دون مقابل. أما أبو الفتاة الصغيرة في المقابل، فتقيده اعتبارات أخرى؛ فعندما يأتي وقت زواج البنت، عادة ما تكون هناك فرص كثيرة لتزويجها، فيختار الأبوان أفضلها. وإذا كان لديهما فتاة واحدة فحسب، فقد يحدث أن يصد الأبوان بكل فخر خاطبًا ملحًا لا يريدانه بقولهما إنه لن يحصل عليها حتى ولو أحضر ملء حجره ذهبًا. لكنهما يدركان في الوقت نفسه أن شباب الفتاة قصير، وأن عليهما أن يعجلا في اتخاذ القرار بزواجها، ما دام هناك وقت وفرصة للاختيار.

ولا يرجع افتقار الشاب أو الشابة إلى الحرية في اختيار الزوج أو الزوجة إلى تعسف الأب وحسب[25]؛ ففي الشرق أيضًا يستطيع الأولاد أن يعولوا على حب أبويهم لهم، لكن المشكلة التي تواجه الأب هو أن عليه أن يحسب حسابًا لحقائق كثيرة لا يمكنه التحكم بها دائمًا. والمسألة ليست اقتصادية وحسب؛ فبما أن الضرورة تقضي بزواج كل من يبلغ سن الزواج، وفي أسرع وقت ممكن، فلا يمكن دائمًا مراعاة ميول الشباب، وهذا أمر مسلَّم به بوجه عام. فالمهم أن يتولى الأب أمر زواج ابنه، وهو مطلب اجتماعي عام. ويكون للقضايا الأساسية التي تصب في مصالح العائلة والعشيرة شأن أعظم في الزواج من المودة المتبادلة بين الاثنين اللذين يوشكان على الارتباط.

ويخضع الشباب للنواميس والمتطلبات ذاتها؛ فيتأثر الشاب بالهوس العام بالزواج، ولا سيما في موسم الأعراس، ويفكر في السعادة التي سيحصل عليها

---

(24) يقول ويسترمارك مرة أخرى في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 332,: «حيثما كان الفصل بين الجنسين صارمًا، كما هو في العالم الإسلامي في الغالب، لا يرى الشاب في تدخل الوالدين بشؤون زواجه عبثًا، إذ يمكنه أن يطلق الزوجة التي لا تروق له من غير حرج».

(25) يتجلى هذا في الحالات التي يُترك فيها شاب ليتولى أمر نفسه، إذ يُضطر عندها في كثير من الأحيان لتحمل امرأة لا يرغب بها. انظر أعلاه في الصفحة 50 وما يليها من هذا الكتاب.

كرجل متزوج أكثر من تفكيره في حب ربما يستيقظ في داخله لفتاة بعينها. ولا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا القدرة العظيمة على التكيف التي يمتلكها الإنسان، حتى في ما يتعلق بالعاطفة: فعلى سبيل المثال، حيث يكون زواج أبناء العم محظورًا، أو خارجًا عن المألوف، لا يخطر لشاب أن يقع في حب ابنة عمه إلا ما ندر، فيما يرجح أن يكنَّ الشاب مودة لابنة عمه في البلاد حيث لزواج أبناء العم مكانة عظيمة[26]. بيد أن الفلاحين يتزوجون عمومًا في سن صغيرة، حتى إنه لا يوجد حب بين الشاب والفتاة بمعناه الحقيقي إلا في ما ندر، وإن كانت الغريزة الجنسية مستيقظة.

والمعلومات التي لدي عن الحب بين الرجل والمرأة ضئيلة جدًا؛ فأغاني الخطبة والعرس المدونة في القرية تثني على مناقب العروس والعريس وحسبَهما، وتضم، في كثير من الأحيان، تعبيرًا عن الحزن لفراق الفتاة الصغيرة لبيت أبيها، لكنها لا تذكر الحب. وقد وجدت قصيدة تعبر عن رغبة رجل بمحبوبته، يقول فيها الرجل المتيم:

«ليتني كنت راعيًا في بيت أبيها	(تمنيتني لدار أبوها راعي
عند العَشاء تنادي أيها الخادم![27]	عند العشا تنده يا جُباني
ليتني كنت كلبًا في بيت أبيها	تمنيتني لدار أبوها تشلب
عند العَشاء تنادي يا طوقاني[28]!	عند العشا تنده يا طوقاني
ليتني كنت مصطبة في بيت أبيها	تمنيتني لدار أبوها مصطبة
تدوس علي بخلخالها الرنّان».	تُخبُط علي بحِجِلها الرَّنَّاني)

لكن هذه الأبيات تشي بأصلها البدوي[29].

(26) انظر ما كتبه لين في الحاشية الحادية عشرة من الصفحة 62 في كتابه: Edward William Lane, *The Arabian Nights Entertainment*, I (London, 1839),

«كثيرًا ما يختار ابن العم ابنة عمه زوجة له.. لعاطفة نشأت بينهما في سنوات الطفولة».

(27) أوضع خدم البيت مرتبة – جبان.

(28) اسم كلب.

(29) يُعدُّ الحب مرحلة تسبق الزواج لدى البدو، ويقول ليز في: Lees, *The Witness of the Wilderness*, p. 120, =

ويروى عن خليل عودة (خليل إبراهيم عودة [3]) أنه هجر زوجته سارة مِصْلح (زوجة خليل عودة [3]) سنوات عدة، حبًا بأخت أحمد اسْمَعين [52] التي كان يحلم بالزواج منها. ولكن الأخير أقسم بأن لا يعطيه امرأة من بيته، وبمساعدة إخوة سارة (زوجة خليل إبراهيم [3])، أجبر خليل إبراهيم [3] على الرجوع إلى زوجته التي هجرها، والنهوض بواجبه تجاهها وتجاه الأولاد. وفي ما يتصل بهذه القصة، استخدمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) المثل الذي يقول: «ليس للحب دواء» (إلهوى ما إلو دوا). كما قالت في مرة أخرى: «حبيبي هو حبيبي حتى لو كان عبدًا». ويناظر هذا قولنا: «الحب أعمى». وإطلاق مثل هذه الأحكام لا يدل على إيمان الناس إيمانًا كبيرًا بسلطان الحب، وربما لا يُسمح بأن يكون للحب شأن يذكر قبل الزواج خوفًا من انتهاك القواعد التي وضعها المجتمع، وإن وجد شيء من الحب، فإنما يكون في الخفاء. ولا يعرف الناس فترة الخطوبة بالمفهوم الغربي البتة، وإذا تمت خطبة رجل لامرأة، فلا يجوز لأحدهما أن يرى الآخر، فضلًا عن أن يكلمه. وحتى إن كانا يعيشان في القرية نفسها، أو جيرانًا، أو حتى أبناء عم يعرف بعضهم بعضًا معرفة جيدة، فيجب أن يتجنب كل منهما الآخر بصورة قاطعة[30]. وإذا جاء الرجل إلى بيت خطيبته زائرًا، فعليها أن تتوارى أو تغادر البيت[31]. وفي حالات استثنائية، ولا سيما إذا كان العريس والعروس من مكانين مختلفين، فإنه لا يرى أي منهما الآخر قبل ليلة العرس[32]، أو أنه قد يُوصف أحدهما للآخر قبل ذلك

= أن بدو الصحراء «يختلفون تمامًا عن المسلمين من سكان فلسطين بالسماح لبناتهم بقبول أو رفض عروض الزواج». ويقول موسل في: Alois Musil, *Arabia Petraea III* (Wien: A Hölder, 1908), p. 174, «يلعب الحب عند الزواج بين البدو دورًا كبيرًا حقًا». انظر أيضًا: E. Littmann, *Beduinenerzählungen*, II. (Strassburg, 1908).

(30) انظر ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 55, «ويقال إنه لا ينبغي حتى لأبناء العم أن يرى أحدهما الآخر قبل الزواج» (منطقة أنجرة في المغرب). انظر أيضاً: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, I, p. 215, and Seligman, «The Kabâbish, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, p. 138.

(31) انظر أدناه في الصفحتين 146 و147 من هذا الكتاب. وانظر أيضاً: Haddad-Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch*, VI. (Berlin, 1910), p. 107, 126.

(32) بحسب ترجمة ماثيوز الإنكليزية لكتاب المشكاة، انظر: A. N. Matthews, *Mishkât*, English Translation (Calcutta, 1810). p. 81, =

وحسب[33]؛ فالعروس لا تحضر الخطبة، ويوم العرس تلبس الخمار؛ فتكون مغطاة بالكامل فلا يراها الناس، أو يلمحون وجهها. وعلى العريس أن يتحلى بالصبر حتى وقت متأخر من مساء يوم العرس؛ فعندئذ يستطيع أن يقترب منها، ويرى بأم عينه العروس التي عاد بها إلى بيته[34]. «هكذا أفضل»، هذا ما أكدته لي امرأة عربية مسيحية من القدس كانت في زيارة لأرطاس، وأخبرتني أن تلك كانت حال أبويها. وأضافت أن الزواج في الأيام الخوالي كان أكثر سعادة منه الآن[35]؛ عندما كان الناس أكثر تشددًا في هذه العادة مما هم في الوقت الحاضر الذي أصاب العادات الفتور، والحب يأتي بعد الزواج[36]. ولم تكن هي وحدها

= فإن النبي محمد [عليه الصلاة والسلام] أوصى بأن يرى الرجل المرأة قبل زواجه منها. أما باور فيقول في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 96,

«في بعض الأحيان لا يكون الرجل قد رأى زوجته قبل العرس بتاتًا، أو قد يكون رآها مرة واحدة فقط». انظر أيضًا جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, p. 43,

«في كثير من الأحيان قد لا يعرف الرجل زوجته المقبلة» [ترجمة عن الفرنسية]. وويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 332,

«ليس من اليسير على الفتاة أن تختار بين خُطّاب لا تعرفهم».

(33) في ما يتعلق بتفحص قريبات العريس للعروس انظر: Spoer-Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem» in: *Zeitschrift für Semitistik und verwandete Gebiete*, V. I (Leipzig, 1927), p. 95, note 5.

ويقول جوسان في: Jaussen, Ibid., p. 55,

«يرغب [أي العريس]، على أي حال، أن يعرف شيئًا عن جمالها، وإن كانت ملائمة له. ولهذا تكون الخطوة الأولى رؤيتها من خلال عيني أمه، أو أخته، أو إحدى قريباته، أو من خلال شيخة موثوق بها» [ترجمة عن الفرنسية]. وانظر كذلك لين في الصفحة 215 من المرجع المشار إليه سابقًا. ويقول غودريش فرير مرة أخرى في: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent and Town*, p. 18,

«لطالما كان هناك مبالغة عظيمة في مسألة عدم معرفة العريس المسلم لزوجته قبل الزواج، ولا يكاد يكون لها أساس في السنوات الأخيرة، ومن الممكن، مع ذلك، في الحالات التي يكون العروسان فيها من غير ذوي القربى الوثيقة، أن لا يكونان قد التقيا منذ أن كبرت الفتاة وارتدت الخمار؛ أي منذ ثلاث أو أربع سنوات».

(34) انظر: Auerbach, «Die syrische Frau,» in: *Archiv für Rassen und Gesellschafts-Biologie*, XII, p. 152,

«عند المسلمين يرى الزوج الشاب عروسه للمرة الأولى بعد إتمام حفل العرس».

(35) انظر أيضًا غودريش فرير في الصفحة 18 من المرجع المشار إليه سابقًا.

(36) انظر: George Robinson Lees, *Village Life in Palestine* (London, 1905), p. 120,

«لا يفترض أن يكون هناك حب إلا بعد الزواج».

من يعتقد بهذا؛ فالفكرة السائدة هي أن الزواج يتطلب أساسًا موضوعيًا ومحكمًا أكثر من العواطف الشخصية التي قد تكون مضللة في كثير من الأحيان.

من أي الأوساط تُنتقى العروس؟

في ما يأتي وصف للقواعد والضوابط التي وضعها المجتمع لاختيار الزوج. ولا بد من الإشارة ابتداء إلى أن المعلومات التي جمعتها في القرية ليس فيها الكثير عن محظورات الزواج، على الرغم من أهميتها للدراسات الإثنولوجية العامة. وبعد وصف موجز للحدود التي لا يجوز تخطيها، سيتبين من أي الأوساط تُنتقى العروس.

وفي ما يتعلق بالحدود الخارجية التي لا يجوز تخطيها، فيبدو أن الفروق الدينية والعرقية كانت - وما زالت - هي العقبات البالغة الأهمية.

في أرطاس، وهي قرية مسلمة بالكامل، لم يتزوج أي رجل بمسيحية، كما لم يُزوِّج أي رجل امرأة من عائلته لمسيحي، على الرغم من وجود سكان مسيحيين يعيشون بالقرب منها؛ فمعظم أهل بيت لحم هم من المسيحيين العرب. وعلى الرغم من أن أهالي أرطاس يعتمدون بشكل كبير في شؤونهم المالية على جيرانهم المسيحيين الذين يفضُلونهم كثيرًا في الحالة الاقتصادية، فإنهم لا يتزوجون من بعضهم بعضًا. وينطبق هذا أيضًا على علاقة أهالي أرطاس بسكان قرية بيت جالا الواقعة قبالة بيت لحم، على الجانب الآخر من طريق القدس - الخليل. وهؤلاء، خلافًا للتلحميين، ينتمون إلى الحزب السياسي نفسه - حزب قيس[37] - الذي ينتمي إليه رجال أرطاس، ويترتب على هذه الصلة واجبات، فعلى سبيل المثال عندما يمر بقريتهم موكب عرس قادمًا من أرطاس أو ذاهبًا إليها، فإن عليهم أن يدعوا جميع ضيوف العرس إلى وليمة، وعلى أهل أرطاس أن يبادلوهم هذه الكياسة، إلا أنهم لا يفكرون بالزواج من بعضهم بعضًا[38].

---

(37) انظر الحاشية الرابعة أعلاه في الصفحة 59 من هذا الكتاب.

(38) يقول باور في: = Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 85,

كما أنه لم يحدث قط أن تزوج رجل من العائلات الزنجية في القرية فتاة عربية، أو أن يتخذ رجل من غير الزنوج فتاة زنجية زوجة له. أما مِريم، وزوجة سليم العبد (سليم مسلَّم [199])، فهي بلا ريب هجينة؛ فلقد تزوجت أمها، وهي عربية، عبدًا لأبيها في الخليل. وكذلك يبدو أن حماتها تمام (زوجة سلامة عبدالله [196]) من القرية المجاورة (الخَضْر) ليست ذات دماء زنجية خالصة، لكن لم يحدث أي زواج مختلط بين العرب والزنوج في قريتنا[39].

وفي ما يتعلق بالحدود الداخلية للزواج، فإنها تلتزم بأحكام الزواج الواردة في القرآن [الكريم]، والمتعلقة بالعلاقات المحرمة بحرمة الدم (قرابة الرحم) والمصاهرة والرضاعة[40]. ونلفت النظر، على أي حال، إلى الحالات الآتية لمتاخمتها الحدود المسموح بها:

زوجة خليل خلاوي (خليل محمد [112]) الثالثة وزوجة ابنه اسْمَعين (اسْمَعين خليل [116]) أختان، وعلقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على هذا قائلة: «كانت لهما أمان مختلفتان، لو كانتا من الأم نفسها لما جاز ذلك».

كما يقال إن علي خليل [173] تزوج أخت أخته؛ إذ كان لأبيه (خليل شحادة [170]) زوجتان، حسنة (ابنة اسْمَعين [51]، وزوجة خليل شحادة [170]) وهي أم علي خليل [173]، وسلمى (زوجة خليل شحادة [170]، وزوجة علي أسعد [42])، والأخيرة لها ابن وابنة من أبي علي (خليل شحادة [170])، وقد تزوجت مرة ثانية بعد وفاته. ورغب علي [173] في الزواج من ابنتها من زواجها الجديد فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل

= «وغني عن القول إن الحدود الدينية المرسومة ينبغي أن يُلتزم بها بحزم عند الزواج أيضًا». ومع ذلك فهناك عرب مسلمون متزوجون من غربيات مسيحيات. ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I, p. 137,

يجوز للمسلم شرعًا أن يتزوج مسيحية أو يهودية، ويكون الأطفال عندها مسلمين. لكن لا يجوز للمسلمة الزواج من غير مسلم إلا إن أخذها بالقوة. انظر أيضًا ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 58f.

(39) انظر: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, p. 130, and Lane, *An Account of the Manners and Customs*, I, p. 137.

(40) القرآن الكريم، «سورة النساء»، الآية الثالثة والعشرون وما يليها.

[173])، ولامه الناس على رغبته في الزواج من أخت أخته، فذهب إلى شيخ طلبًا للمشورة. وتروي لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) القصة قائلة:

«قال الشيخ: اذهبوا واسألوا الأم! فقالوا لها: ألم تضعي ثديك في فم أولاد حسنة (زوجة خليل شحادة [170]) بتاتًا؟ فأقسمت سلمى (زوجة خليل شحادة [170]، وزوجة علي أسعد [42]): لا، لم أرضع أبناء حسنة (زوجة خليل شحادة [170]) إلبتة. وهكذا تزوج أخت أخته. وقال الشيخ: أرفع الإثم عن رقبتي ورقبة الشهود، ويعلق برقبة سلمى (زوجة خليل شحادة [170]، وزوجة علي أسعد [42])».

وقالت الست لويزا: قصد الشيخ بهذه الكلمات أنه إن كذبت سلمى (زوجة خليل شحادة [170]، وزوجة علي أسعد [42])، كان الإثم عليها، وتحملت هي المسؤولية. ولو قالت أنا أرضعت أولاد حسنة (زوجة خليل شحادة [170])، لكان الشيخ عندئذ حازمًا في منع هذا الزواج بين ابنة سلمى (زوجة خليل شحادة [170]، وزوجة علي أسعد [42]) فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، وعلي [173] (ابن خليل شحادة [170])[41].

ويسري هذا التحريم القطعي للزواج بين الإخوة بالرضاعة[42] على أشكال

---

(41) يقول أحمد شكري في كتابه: A. Shukri, *Muhammedan Law of Marriage and Divorce* (New York: Columbia University Press, 1917), p. 25,

«قد يتزوج الرجل أم زوجة أبيه، أو ابنتها، إلا إذا منعت الرضاعة ذلك» (من كتاب مختصر خليل من كتب الفقه المالكي).

(42) انظر الترجمة الإنكليزية لكتاب المشكاة لماثيوز: A. N. Matthews, *Mishkât*, English Translation (Calcutta, 1810), p. 91f.,

«يُعدُّ أخو المرضعة عمّا، والأخ من الرضاعة أخًا. «أما علمت أن حمزة أخي من الرضاعة؟ وإن الله حرم من الرضاعة ما حرم من النسب؟»* (حديث شريف). ولكن إذا رضع رجل وفتاة من المرأة نفسها في فترات مختلفة فليس ثمة ما يمنع زواجهما**».

* تستشهد المؤلفة بهذا الحديث بصورة مجتزأة تعيق فهمنا له؛ فلا إشارة فيه إلى حمزة عم النبي، ولهذا رأينا أن نورده كما ورد في نصه الأصلي من كتاب المشكاة [المترجمتان].

** [التحريم بالرضاعة في الإسلام ملزم وإن حدث في فترات متباعدة] [المترجمتان].

أخرى من العلاقات المصطنعة، ويستوي في ذلك إن وقع التبني[43] بالتلفظ بصيغة محددة، أو بالاحتفال بولادة جديدة[44]. ويحرَّم الزواج بين «الأقارب» من هذا النوع تحريمًا قاطعًا، حتى إنه لينظر إلى انتهاكه على أنه سفاح المحارم. وأحد أسباب التبني هو اضطرار المرأة أحيانًا للبقاء وحدها مع رجل غريب لبرهة، كما هي الحال في السفر، ولكي تصون سمعتها فإنها تتبناه؛ فهو وسيلة مهمة لحماية المرأة[45]، إلا أنه لا يمكن أن يسمح بالإكثار منه، وإلا لأحدث ذلك إرباكًا؛ إذ ستنجم عنه معوقات كثيرة للزواج.

وهناك أيضًا أشكال كثيرة للزواج المباح، وليس غريبًا أن نجد أمثالًا كثيرة تعبر عن الخبرات المتراكمة بهذا الصدد، بعضها له دلالات إيجابية وبعضها الآخر دلالات سلبية. وأقدم هنا تلك الأمثال التي دونتُ لما تحويه من ضوابط ونصائح عامة:

- «صحن المشمش - لا تأخذ من غير اختيار، ابحث عن الحبة التي فيها لوز»

(صحن المشمش لا تكمش دوِّر على اللوزية!).

- «كل الحليب أبيض، لكن المهم هو المصدر»

(كل الحليب أبيض، إلدّوْر على الأصل).

- «يبحثون عن الأصل والمهارة»

(بدورو على الأصل والشَّطارة)

---

(43) انظر: Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 441,

«يسري على قربى التبني والرضاعة ما يسري على قربى الدم (الرحم) في جميع الأحوال». ويقول في إحدى الحواشي: «إن زواج [النبي] محمد [عليه الصلاة والسلام] من زوجة ابنه بالتبني جلب عليه اللوم لانتهاكه شريعته هو، وليس لخرقه عادات عربية قديمة»*. انظر أيضًا ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 154f.

* لا ينظر إلى هذه المسألة تحديدًا على هذا النحو؛ فزواج النبي [عليه الصلاة والسلام] من زوج زيد بن حارثة، وهو مولى من الموالي، جاء ليؤكد إبطال عادة اجتماعية كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام، وهي عادة التبني، ولا ينظر إلى الأمر البتة كانتهاك للشريعة [المترجمتان].

(44) انظر الحاشية الأولى أعلاه في الصفحة 54 من هذا الكتاب.

(45) أرجو أن أتناول هذه المسألة بتفاصيل أكثر في سياق آخر.

- لا تأخذ البنات لجمالهن[46] - اسأل عن أصلهن

(زين البنات لا تُوخِذ دَور على الأصلية).

- «إن لم تعرف أصله، فاهتدِ بأفعاله»

(إن غاب عنك أصله دَليله فِعْلِه!).

- «يا هذا البرج العالي! الصقر صاد الغزال، لا يهم أن تكون سمراء؛ فالعاقل يبحث عن الكمال»

(يا هاذَ برج عالي، يا صقر صايد غزالي إلسَّمَر مَعَليش مِعْتَبَر بِدَوِّر على إلتَّشمالِ).

- «الجذور واحدة، والجد واحد»

«إلشُّرْش واحد والجيلِّية واحد!».

ونرى كيف تؤكد هذه الأمثال ضرورة أخذ الجذور والأصل في الحسبان[47]، بل ويشمل النظر، في كثير من الأحيان، أصول الفتاة المشتركة

---

(46) في ما يتعلق بالصفات التي تُطلب في المرأة عند الزواج انظر: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*,p. 85f., p. 95,

وجاء في ترجمة ماثيوز الإنكليزية لكتاب المشكاة: تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، ويرد أيضًا أن النبي [عليه الصلاة والسلام] حثَّ على الزواج من الأبكار مقارنة بالأرامل، وأنه يمكن الحكم على خصوبة وخُلق البكر من خلال نساء أخريات في عائلتها، انظر: Matthews, *Mishkât*, p. 76, 77, 78,

وفي ما يتعلق بالسمات التي تُعدُّ أساسية في الجمال الخَلقي انظر: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, p. 50ff., and Grant, *The People of Palestine*, p. 47,

ويُقال إنه «إذا ما وجدت العائلة أن العلاقة علاقة ملائمة، فإن الصفات الخَلقية للطرف الآخر للزواج تأتي في المرتبة الثانية»، انظر: Auerbach, «Die syrische Frau,» in: *Archiv für Rassen und Gesellschafts-Biologie*, XII, p. 152,

انظر أيضًا الأمثال التي اقتبسها كل من: L. Bauer: «Arabische Sprichwörter,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXI (Leipzig, 1918), p. 132, and J. L. Burckhardt, *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gerbräuche der neueren Aegyptier* (Weimar, 1834), p. 273f.,

«كل فولة مسوسة ولها كيَّال أعور».

(47) يشير باور في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 85,

إلى أن الرجل «يفخر بحسبه وبقوة أجداده أو بانتمائه إلى عائلة كريمة، ومن هنا جاءت النصيحة الواردة في المثل الشعبي: تزوج الأصيل ولو على الحصير». ويستشهد هانور في كتابه: Hanauer, *Folklore of the Holy Land*, p. 311,

بالمثل نفسه عند حديثه عن القيمة المرتبطة بمصاهرة عائلة كريمة. «يُبجِّل الشرقيون كثيرًا الأصل الشريف والنسب الجليل بشكل عام. وتجد بين فقراء فلسطين الكثير ممن يزعمون أنهم «أولاد أصل» على الرغم من اضطراراهم للعمل في مهن وضيعة لكسب العيش».

مع أصول الشاب[48]. وإذا استثنينا الأقارب الذين يقعون ضمن نطاق المحارم، فإن لزواج أقارب الدم مكانة عظيمة، وكلما كانت العلاقة أقرب، عظمت مكانة الزواج[49].

وتنتقى العروس من إحدى ثلاث مجموعات؛ إما من عشيرة (حمولة) العريس نفسها (زواج عشيرة أو زواج حمولة)، ويفضل أن تكون ابنة العم؛ إذ يشكل زواج «أبناء العم» فئة خاصة ضمن مجموعة زواج العشيرة. وقد يقع الاختيار على عروس من عشيرة ثانية، ولكن من القرية نفسها (زواج القرية)، أو ينتقي الشاب فتاة من مكان آخر (زواج من «غريبة» أو «أجنبية»).

وأهم هذه المجموعات عند الفلاحين هي المجموعة الأولى، ولا سيما زواج أبناء العم، بيد أن رسم الحدود بين زواج أبناء العم وزواج العشيرة ليس بتلك السهولة دائمًا، كما سيتبين لنا.

وقد قيل في ابن العم كزوج:

«ابن العم – يا حليلي!	(ابن العم يا حليلي
ما أحلى النوم في حضنه!	ما أحلى النومة في حضينه
الغريب يا أخرق!	إلغريب يا دُحرج
ليته بالكفن يُلف	ريتَه في الكَفَن يُدْرُج
يا ابن العم – يا شعري على ظهري	يا ابن العم يا شعري على ظهري

(48) انظر باور في الصفحة 84 من المرجع المشار إليه سابقًا: «عند اختيار العروس تسود في المرتبة الأولى اعتبارات القربى، وتصلح بعد ذلك من منظور عربي ابنة العائلة أو ابنة العشيرة، وتأتي أخيرًا المرأة الغريبة».

(49) انظر ويلسون في: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 107f.,

«درجات القربى التي تدخل في نطاق المحارم (لا يجوز الزواج في ما بينهم) هي أكثر اتساعًا في الكنيسة اليونانية منها في الكنائس المسيحية الغربية، وتشمل درجات عدة من أبناء العمومة، بل وتشمل حالة أو اثنتين لا قربى دم فيها البتة. ولكن الأقارب أو الأشخاص المنتمين للعائلة أو العشيرة نفسها، من غير درجات نطاق المحارم هذا، لهم الحق بالمطالبة أولًا بيد الفتاة، وقد ينجم عن هذا في كثير من الأحيان نزاعات شديدة، أو حتى سفك الدماء، إذا ما تجاهل بعضهم ذلك الحق». انظر أيضًا: Musil, *Arabia Petraea III*, p. 174.

إن جاءك الموت سوف أرده على عمري	إن اجاك الموت لَرُدَّه على عمري
يا ابن العم - يا ثوبي[50] عليَّ	يا ابن العم يا ثوبي عليٍّ
إن جاءك الموت سوف أرده بيديَّ	إن اجاك الموت لَرُدَّه بِدَيي
يا ابن العم يا ثوب الحرير	يا ابن العم يا ثوبْ الحريرِ
سأضعك بين أجنحتي وأطير	لَحُطّك بين جِنْحَاني واطيرِ
وأُنزلك على برج الخليل»	واهدِّيَك على بُرج الخليلِ)

وهكذا يُثنى في الأغنية على ابن العم باعتباره أفضل زوج للفتاة، لكنه في المقابل يُلام إن لم يتزوج ابنة عمه، وسمح للغريب بأخذها بعيدًا:

«يا ابن العم يا كومة كُناسَة	(يا ابن العم يا تشومة تشنايس
بنات العم أُخذن عرائس	بنات العم أخذوهن عرايس
يا ابن العم يا كومة تراب	يا ابن العم يا تشومة ترايب
بنات العم أخذهُنَّ الغرباء[51]	بنات العم أخذوهن الغرايب
يا ابن العم ليتك للضباع	يا ابن العم ريتك لَضْبوعه
بنات العم أخذهُنَّ السباع»	بنات العم أخذوهن السْبوعة)

ومع أن الرجل لا يجبر على الزواج من ابنة عمه[52]، فإن ابنة عمه هي في العادة خير زوجة يمكن أن يتمناها. وقد بدا هذا جليًا في القصيدة الأولى التي استشهدت بها، والتي تكون فيها ابنة العم العروس على استعداد لصد الموت بيديها إذا ما هدد ابن عمها، بل إنها إذا ما مات تستدعيه للحياة مرة أخرى. كما يتجلى أيضًا في عبارات كثيرة أخرى تؤيد زواج أبناء العم، ولهذا يقولون: «ابنة العم ستتحمل إن ساءت الأمور، لكن الزوجة الغريبة ستتدلل»

(50) انظر: القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية 187.

(51) انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 54,

«يضفي الزواج من بنت العم على الرجل ميزة دينية؛ فبفعله هذا لن يُعاقب يوم القيامة، وهو في الوقت نفسه واجب.. «من يحمل نفايات الناس يحمل الناس نفاياته»، فليس من الصواب أن يترك الرجل ابنة عمه من دون زواج بزواجه من امرأة أخرى».

(52) انظر أيضًا: Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I, p. 64f. and 154.

(بنت العم حمّالة الجفا، أما الغريبة بدها تدليل). ولا يميل الرجل للزواج من امرأة غريبة؛ لأنه «يخشى أن تلعنه في وسط الطريق» (الغريبة من خوف في وسط الطَّريق تدعي)[53].

وأضافت الست لويزا: «لكن ابنة العم لا تستطيع أن تلعن أهل زوجها؛ لأنهم أقاربها أيضًا[54]، وتستر الأمر إذا كان سيئًا، وتتغاضى عن العيوب، ولا ترفع صوتها إن نقص عليها هذا أو ذاك». وفي جلسة أخرى قالت: «إن أولاد العم كالعينين؛ فهي لا تلومه، ولا تقول فيه شيئًا، سواء أجَلب شيئًا للبيت أم لم يفعل، خلافًا للمرأة الغريبة التي قد تثير جلبة».

وحتى تشرح لي بوضوح ميزات الزواج بابنة العم، روت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قصة شيخ بدوي كانت له زوجتان: ابنة عمه، وغريبة[55]. وما إن ساءت أحوال الرجل، حتى بدأت المرأة الغريبة بتحقيره قائلة: «من لا يملك شيئًا ينبغي أن يموت!»، بينما سعت ابنة عمه لمواساته، وذكرته بفرص جديدة قد تسنح في المستقبل. وعندما تحسنت أحواله في آخر المطاف، سارعت المرأة الغريبة إلى البدء بحياة سعيدة إلى جانبه، ولكنه طلقها؛ لأنه كان «سمع ما قالته وسمع ما قالته ابنة عمه»؛ فقد تعلم بالخبرة أن معدن المرأة يظهر وقت الشدة. فابنة العم يجمعها بزوجها، بحكم قرابة الدم بينهما، الكثير من المصالح المشتركة، بينما تظل أي امرأة أخرى غريبة دومًا[56]، وإذا ما ضاقت الظروف، يتكشف ضعف العلاقة، وينهار الرابط بين الزوجين.

---

(53) انظر باور، والذي يذكر في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 84,
هناك خوف من الزواج بامرأة غريبة؛ أي من غير الأقارب أو من غير العشيرة. «يُعتقد أن المرأة الغريبة لن تدرك مصلحة العائلة، ولن تتقبل أخطاء الرجل بسعة صدر، وستعكر صفو العلاقات بين الأقارب، ولن تحافظ على أسرار عشيرة زوجها». وفي حاشية يشير إلى أن «عائلات القرية تعيش في بعض الأحيان في عداء».

(54) انظر أدناه الصفحتين 138 و139 من هذا الكتاب، وانظر كذلك كتابي ويسترمارك: Westermarck: *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 54, and *The History of Human Marriage*, II, p. 70.

(55) نُشرت القصة في: *Palästinajahrbuch des deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, XXIII (Berlin, 1927), p. 128f.

(56) انظر لين في: Lane, *The Arabian Nights Entertainment*, I, p. 62, note 11, =

وليست ابنة العم هي الزوجة الأفضل لحسن مسلكها وحسب، وإنما هي بوجه عام العروس الأجدى اقتصاديًا كذلك؛ لأن ابن العم ينبغي أن يحصل عليها بمهر أقل من أي رجل آخر[57]. ومن الطبيعي أن ينجم عن هذا تضارب في المصالح بين العريس وأبي العروس، إن لم تكن وشائج القربى متينة جدًا، وحية في قلوبهم. ورب أب أو أخ هنا أو هناك، في ما يروى، يريد لابنته أو لأخته أكثر مما ينبغي لابن العم، أو يمكنه أن يقدم، ولهذا لا يتوق لأن يتخذ ابن العم زوجًا لابنته أو لأخته[58]. وقد يزوجها لشخص آخر، وإن لم يرُق ذلك لابن العم. ويقول الناس في هذه الحالة: «ابنة عمه لم تحمل همَّه، وتزوجت غيره نكاية به» (بنت عمَّه ما حملت همَّه أخذت غيرَه جكارة في عينَه). وفي بعض الأحيان يضيف الناس إلى ذلك: «ونكاية في أمه» (جكارة في عين إمَّه).

= «يقع الاختيار على ابنة العم كزوجة في كثير من الأحيان بسبب رابطة الدم، والتي سترتبطها بزوجها، على الأرجح، بصورة أقوى».

ويتحدث ويسترمارك عن الزيجات بين أبناء العم في: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 54,

«يقال إنها تفضي إلى السعادة العائلية.. من يتزوج من ابنة عمه يحتفل بوليمته بشاة من قطيعه، فهو يعرف الشاة التي يذبحها. أو: فيما الزواج من امرأة غريبة كشرب الماء من قارورة فخارية، فإن الزواج من ابنة العم هو كشرب الماء من صحن؛ فأنت تعرف ما تشرب. كما أن زواجًا كهذا يمنح الزوج سلطة أكبر على زوجته؛ فهي إذا ما هربت، أعادها أبوها أو أخوها..».

(57) يتحدث بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I, p. 64f. and p. 154, عن الزواج بين أبناء العمومة من الدرجة الأولى بين البدو العرب، ويقول: «والمهر يكون دائمًا أقل مما قد يُطلب من شخص غريب». انظر أيضًا: Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II, p. 137,

ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 70,

«وكذلك في المغرب يكون مهر العروس (الصَداق) الذي يُدفع لابنة العم غالبًا أقل من المعتاد».

ويؤكد فريزر في: James George Frazer, *Folklore in the Old Testament*, II (London: Macmillan and co, 1919), p. 263f.,

أن الزواج من ابنة الخال أو ابنة العمة «لقي كل هذا الرواج عمومًا لرخص تكاليفه؛ فالرجل له الأولوية بطلب يد ابنة عمته أو خالته للزواج، إما من دون مقابل، وإما بمهر أقل مما كان سيدفع لزوجة من غير أقربائه».

(58) يقول ويسترمارك في: Westermarck, Ibid., p. 70,

«ويحدث أيضًا أن يحاول الرجل منع زواج ابن أخيه من ابنته بأن يبالغ في مطالبه».

وفي ما يأتي مثال عن زنجية من دورا فُسخت خطبتها من ابن عمها بعد فترة طويلة، لتتزوج من شرطي زنجي يدعى سليم مسلَّم [199] من أرطاس.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «صبحة (زوجة سليم مسلَّم [199]) امرأة ناضجة؛ فابنها في رحمها»[59]. وظل ابن عمها الإزرق يخطب ودها عشر سنين. وبحسب ما تبيحه ظروفه؛ فقد قدم لها عنزة، وجنيهًا، وذرة أو قمحًا كجزء من مهر العروس. فقالوا له: «إما أن تدفع المهر كله، أو أن تذهب». قال (أخو العروس): «أريد أن أزوج أختي كي أتزوج أنا (بمهرها) لأني فقير»، وبعدئذ جاء سليم مسلَّم [199] وعمه سلامة عبد الله [196] إلى دورا، واتفقوا على مهر العروس وتكاليف أخرى، ولم يعترض أحد على ذلك آنذاك. ثم دفع مئة جنيه إسترليني مهرًا للعروس، وعلى ذلك ذهب سليم مسلَّم [199] وأمه حليمة (زوجة مسلم عبد الله [197]) وأتموا الاتفاق. لماذا لم يقولوا شيئًا عندئذ؟ وإضافةً إلى مهر العروس البالغ مئة جنيه إسترليني، أنفق العريس عشرة جنيهات إسترلينية على ملابسها؛ فلماذا لم يستيقظوا إلا حينها؟ لم يبق الآن سوى أن يسوي أخوها الأمر مع ابن عمها؛ إذ أعاد كايد (أخو العروس) الجنيهات الثلاثين (من مهر العروس) التي كان ابن عم العروس قد دفعها له. وقالت حليمة أم العريس (زوجة مسلَّم عبد الله [197]) لشيخ دورا: «زوجة ابني في حمايتك». وغضب أهل إزرق غضبًا شديدًا، ثم ذهب أهل سليم مسلَّم [199] إلى دورا لإحضار العروس، فطبخوا للمغنين وقدموا لهم الطعام. وفي المساء أعدوا الطعام لأهل العروس ولديوان الرجال[60]، وقال بعض أهل إزرق: «أريد عشرة جنيهات إسترلينية»، وقال آخر: «سوف نقتلكم»، ففروا بالعروس. وكان على السيارة أن تعود إلى دورا مرة أخرى كي تحضر من بقي هناك من (أقارب العريس)، ووصلوا إلى أرطاس جياعًا؛ لأنهم اضطروا إلى الفرار[61].

---

(59) عبارة دالة على سن الفتاة، انظر أعلاه في الصفحة 82 من هذا الكتاب.

(60) على العريس أن يُعِدَّ وليمة لأهل العروس وأقربائها وأهل قريتها.

(61) وكانت تلك هي المرة الأولى التي تُجلب فيها عروس إلى أرطاس من مكان آخر بالسيارة، لكنها عندما وصلت إلى القرية أُخذت إلى بيت زوجها بالطريقة القديمة؛ أي على جمل. وكانت عروس أخرى أخذت قبل ذلك بأشهر، وللمرة الأولى، من أرطاس إلى مكان آخر (لفتا) بالسيارة، لكنها ركبت =

وإذا لم يتسن للرجل الزواج من ابنة عمه (بنت إلعم) لسبب أو لآخر، فعلى العريس الذي تزوج عروس ابن العم أن يقدم له تعويضًا ما، ولهذا قال أهل العروس في المثال الأخير: «نريد عشرة جنيهات إسترلينية». وسنأتي على تفصيل أكبر لهذه العادة في الفصل التالي. وأود هنا أن ألفت الانتباه وحسب إلى أن هذا الواجب المتضمن دفع تعويض مالي(62)، يشير بوضوح إلى أحقية الرجل القانونية بابنة عمه. وتستشهد عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كثيرًا بالمثل: «ابن العم أولًا» (ابن إلعم أبدا)، وتضيف في بعض الأحيان: «ابن العم يتقدم على من سواه عند الحكومة وعند الفلاحين» (ابن العم أبدا قُدَّام إلدَّوْلة وإلفلاحين). وعلقت الست لويزا بقولها إن القريب يأتي في الدرجة الأولى في أي حالة شراء. ويقول الأقارب في مثل هذه الحال: «نحن أولًا!»، وأكدت المرأة التي جاءت لزيارتنا في بيت الست لويزا في أرطاس هذا قائلة: «ابن العم قبل الآخرين بالطبع»، وله أن يأخذها، حتى وإن كانت على ظهر جمل العرس، فإن له أن ينزلها ويتزوجها (بِطَيِّح العروس عن الجمل)(63). وليس

= من بيت أبيها مرورًا بالقرية إلى السيارة على ظهر الحصان، انظر أدناه في الصفحة 196 من هذا الكتاب. وهكذا يُؤخذ بالقديم مع الجديد، حتى يحل الجديد مكان القديم.

ويمكن أن نضيف هنا أن كنة سعيد موسى [141] أحضرت كعروس من شرفات إلى أرطاس في عام 1929، ولم تركب حصانًا ولا جملًا، وأخذت مباشرة إلى بيت زوجها بالسيارة.

(62) انظر: Baldensperger, *The Immovable East*, p. 121,

«قاد يوسف ابن عم سارة جملها، وهو الذي لو شاء لحق له يطالب بها زوجة له؛ وكان جمل سعدة في عهدة ابن عمها موسى سالم، والذي كان يحق له أن يطلب يدها ويحصل عليها.. وعندما التقى الموكبان اشتبك الشباب في معركة صورية، وتلقى كل من يوسف وموسى مجيدية، كجزية مفترضة لإطلاق سراح العروسين والسماح «للغرباء» بأخذهما». وفي هاتين الحالتين كانت العروسان والعريسان من عشائر مختلفة من القرية.

(63) في ما يتعلق بالفكرة نفسها انظر: F. A. Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p. 84, and Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, p. 62,

حيث يقول جوسان إن للرجل الحق في ابنة عمه (بنت إلعم): «يبجل النابلسيون الأمر دينيًا، وله [ابن العم] في عيونهم قيمة ثابتة» [ترجمة عن الفرنسية]. وانظر للمؤلف نفسه في كتاب: Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab*, p. 45ff.,

«ويبدو هذا الحق مقدسًا عند البدو»، وانظر الصفحة 47 من المرجع نفسه، فيقول جوسان إنه من الأهمية بمكان «يوجد حق طلب يد ابنة العم أيضًا عند البدو [ترجمة عن الفرنسية]». انظر كذلك: Musil, =

هذا كلامًا نظريًا وحسب؛ فعندما يطالب الرجل بابنة عمه، على الآخرين أن ينسحبوا.

وفي أول خريف لي في أرطاس، في غمرة السرور العام بموسم الأعراس، حدث شيء من هذا القبيل؛ إذ فقد رجل من أرطاس عروسه التي أتت من بيت لحم، وسأروي الحكاية كما دونتها في مذكراتي:

جاءت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ومعها بعض الأخبار، فقالت: رتب مصطفى سالم [69] قبل عام ونصف لزواج ابنه، وقد كان «طبخ للعروس»؛ أي احتفل بالخِطبة. لكن الشيخ لم يكتب عقد القران «إلصْفَاح» حتى ذلك الحين. وقد دفع مئة جنيه إسترليني بما في ذلك الهدايا. والآن يقول ابن عم العروس «أنا أولى»، وهي نفسها تقول: «أريد ابن عمي، هو أولى». وعندما سمع أبو العريس بهذا، هدد قائلًا: «هناك قضاة!»؛ أي قضاة من الفلاحين. وتعتقد لويزا بالدنسبيرغر بأن على أهل العروس إذا ما فسخوا الخطبة أن يعوضوا أبا العريس بدل ما أنفق عليها(64)، فيجب أن يعوض عليه كل شيء أنفقه، حتى الملح والحطب، وحتى الكمثرى والمشمش الذي جلبه من بستانه إلى بيت لحم. وأضافت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): كل شيء سيحسب بدقة. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، رفعت لويزا بالدنسبيرغر صوتها فجأة قائلة: «مسكين مصطفى سالم [69]، كل ما أخذه من أجل العروس إلى بيت لحم، من مشمش وإجاص وتفاح، والآن يقولون فجأة إنها تريد أن تتزوج ابن عمها!

ويكون لفسخ الخِطْبة عواقب أيضًا؛ فقد خطب أحمد [74] ابن مصطفى سالم [69] فتاة من أرطاس، وهي زريفة (ابنة صالح سليمان [184]) وعُقد القران، ولكن لم يكن قادرًا على دفع مهر العروس الجديدة كاملًا! وكانت

= (أنجرة). Arabia Petraea, III, p. 174, and Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 53,

(64) انظر: Westermarck, Ibid., p. 53,

«وفي قبيلة أولاد بوعزيز، إذا ما عقد رجل قرانه على ابنة عم رجل آخر، فقد يضطره الأخير إلى النزول عنها له بشرط أن لا تكون استقرت معه حتى ذلك الحين».

النتيجة أن من قد دعاني إلى عرسه في ربيع عام 1926، لم يكن قادرًا على الاحتفال به حتى حين غادرت القرية في آذار/مارس عام 1927، وكذلك كان حال صهر المستقبل عبد صالح [187] الذي لم يستطع أن يتزوج عروسه التعمرية؛ لأن أحمد مصطفى [74] لم يستطع دفع مهر أخته. وقد تأثر أحمد مصطفى [74] كثيرًا حتى إنه قيل في أحد أيام خريف عام 1926 إنه يصارع الموت، وتجمع رجال القرية كلهم في بيته، كعادتهم عندما يشرف أحدهم على الموت. ومن المؤكد أن أحمد مصطفى [74] تعافى، لكنني لا أعلم هل استطاع جمع مهر عروسه أم لا(65).

والحالة الآتية، والتي حصلت في الوقت نفسه، تحمل في طياتها الكثير من المعلومات؛ ففي أحد الأيام بينما كنا عائدين إلى أرطاس، سمعنا صوت رقص وغناء آتيًا من الحي الشرقي في القرية، وعلمت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أنه حفل نذر، وسررت بأن الفرصة سنحت لي لمشاهدة احتفال كهذا. وتبين في ما بعد أن الأمر خدعة، لإجبار اسْمَعين أحمد [55] من أرطاس، والذي يسكن حبيلة، لتزويج ابنته إلى ابن عمه عبد الله حسن [61] ؛ فعندما جاءه غريب يعرض 150 جنيهًا إسترلينيًا مهرًا لابنته، رفض تمامًا تزويجها لابن عمه الذي ما كان ليدفع مبلغًا كهذا. ثم فكر محمد اسْمَعين [53]، وهو عم العريس وعم أبي العروس، في ترتيب حفل النذر هذا، والذي دُعي إليه أبو العروس حتى يستطيع الأقارب التأثير فيه، كما يقول المثل العربي: «أطعم الفم تستحي العين»، فقد كان من السهل عليه الرفض وهو جالس بعيدًا في خرائب حْبيلة، لكنه لن يستطيع الرفض أمام جميع الأقارب وأهل القرية. وساد القرية طيلة النهار التباس في ماهية الاحتفال؛ فحمدية (ابنة سليمان سند [183]) لم تزل تؤكد نظرية النذر، فقد قالت عندما عادت من جولة في القرية، حيث ذهبت تستطلع الأمر: «هو حقًا نذر، لحم هذا العجل». لكننا علمنا في اليوم التالي حقيقة الأمر؛ فعندما كان طعام العشاء جاهزًا للأكل، نهض جد العروس أحمد اسْمَعين [52]، وهو الرجل الأكبر سنًا، والأكثر نفوذًا بين أقاربه، وقال:

(65) سمعت لاحقًا (في عام 1930) بأنه تزوج بعروسه من خلال مبادلة أخته مع عبد صالح الذي اضطر للتخلي عن عروسه التعمرية.

«لن آكل حتى أعلم أوليمة خطبة هذه: خِطْبة أم وليمة نذر؟». وحاول أبو العروس أن يضع العراقيل قائلًا: «عندما يعرض غريب 150 جنيهًا إسترلينيًا مهرًا لابنتي...»، فقاطعه أحمد اسْمَعين [52]: «لا طائل من هذا، فنحن أقارب». وانضمت عمة العريس للنقاش، فالتفتت إلى الشاب عبد الله حسن [61]، وقالت: «لن آكل حتى أعرف أستعطيني ثوبًا للعرس أم لا؟». وظل الأرز واللحم على حاله لم يمسسه أحد، ثم لم يجد أبو العروس مناصًا من الموافقة، فقُرِئت الفاتحة، ثم بدأوا في تناول الطعام. وقيل في الصباح التالي: «استحدث أحمد اسْمَعين [52] في هذه الليلة عُرفًا جديدًا، وهو أن تعطى ابنة العشيرة [مهرًا] خمسة وعشرين جنيهًا إسترلينيًا فقط، فلن يكون [المهر] غاليًا كما هو الآن بعد اليوم». وكان أحمد اسْمَعين [52] مختارًا سابقًا، ولم يكن كبير العائلة وحسب، بل أكثر الأشخاص نفوذًا في الحي الشرقي من القرية.

والقصة التالية تحكي قصة أب عنيد لم يستطع أن يفعل شيئًا عندما أصر الرجل الذي طلب يد ابنته على حق ابن العم[66]، بيد أن عاملًا جديدًا ظهر هنا؛ فالمسألة في هذه القصة ليست مسألة تنافس على الفتاة بين ابن عم ورجل غريب، بل يتنافس هنا اثنان من أقربائها على الزواج منها [ابن عمها وابن خالها]. ومن الطريف أن نرى أن الأقارب ليس لهم الحق نفسه، الأمر الذي يدفعنا إلى تمييز مفهوم ابن العم وتحديده. ومن النافع، على نحو خاص، أن نتبين الحجة التي ساقها ابن العم الذي ظفر بالعروس لتأكيد حقه الكبير فيها، مقارنة بابن خالها الذي كان يفضله[67] أبوها. وأسرد هنا القصة كما روتها عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

---

(66) يقول فريزر في: Frazer, *Folklore in the Old Testament*, II, p. 255,
«بحسب العادات العربية الحديثة لا يستطيع الأب إعطاء ابنته لآخر إن طلبها ابن عمها». ويقول بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I, p. 154, p. 64f.,
«يعترف العرب البدو بحق ابن العم الأول في الفتاة؛ وليس للأب أن يرفض أن يزوجه ابنته إذا ما دفع مهرًا معقولًا». كما يصف كيف يرغم الرجل عمه على تزويجه ابنته. وانظر أيضًا جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab*, p. 45ff.,
ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 53,
«حدثت في الريف حوادث قتل فيها ابنُ الأخ العم الذي زوّج ابنته لرجل آخر».

(67) انظر أعلاه في الصفحة 104 من هذا الكتاب، عمّا قيل عن واجب الوالدين في اختيار العروس.

«أرسل علي أسعد [42] ناسًا إلى عمه خضر إحْسين [40]، وقالوا له: «نود مصاهرتك (إحنا طالبين النسب منك)». فأجاب: «أهلًا وسهلًا! سأعطيها إلى أي كان إلا علي أسعد [42]». عندئذ سأله الخاطبون: «لم لا؟» فأجاب: «لن أعطيها للزَّعِر المزعج من الناس». فأجابوه: «لن تستطيع أن تخلص نفسك!» فقال: «هل له حصة في ابنتي؟»، فقالوا: «هو ابن عمها (ابن العم)، وله أن ينزلها عن ظهر الفرس». فصرَّحت سارة (ابنة اسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحْسين [40]) أم البنت صبحية (ابنة خضر إحْسين [40]، وزوجة حسن علي أسعد [49]): «هي لابن أخي». فأجاب أحد الخاطبين: «الخال مستثنى، والعم مشمول (الخال مخلًّى والعم مولًّى)»[68]. إذا مات خضر إحْسين [40]، فلن يرثه أحمد إسمعين [52] (أخو زوجته)، لكن علي أسعد [42] ابن أخيه سوف يرثه». وقال خضر إحْسين [40]: «حتى وإن أتاني بوزنها ذهبًا لن أعطيها له».

عاد الخاطبون إلى علي أسعد [42]، وقالوا له: «لن يعطيك إياها». فأجاب علي أسعد [42]: «قد يبني قنطرة، ولكني سوف أهدمها. أسرِ ليلًا وسأكون قمرك (إسري وأنا قمرك)؛ أي وأنا سأراقبك. تجاسرْ وأعطها لرجل آخر!» ثم أضاف علي أسعد [42]: «سوف أرسل لك مرة واثنتين وثلاث مرات، هذا لن يعييني، إلى أن يصبح شعرها أبيض (لتلفهن جدايل بيض)، فلن أسمح لأحد أن يأخذها ما دمت حيًا» وانتصر علي أسعد [42]، واضطر الأب إلى إعطائه الفتاة في نهاية المطاف.

تبين هذه القصة التي تتضمن معلومات لافتة للنظر بوضوح شديد أن أولاد الأقارب [أولاد العم وأولاد الخال] ليسوا سواء في المنزلة، علمًا بأننا لم ننظر حتى الآن في سياق حديثنا عن زواج أبناء العم إلا في أمر أولاد الأخ (أولاد إلعم). وعندما ننظر في الأحوال السائدة عند العرب، نجدهم يضعون ابن الأخ (ابن العم) وابنة الأخ (بنت العم) في فئة استثنائية، ولا يوجد حد فاصل لزواج الأقارب بين أولاد الرجل وأولاد أخته، يجوز الزواج بينهم، وبين أولاد أختين أو أولاد أخوين يحرم الزواج بينهم [يسود هذا في عرف بعض

(68) انظر أيضًا: Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab*, p. 127.

الأعراق في جنوب الهند وغيرها][69]. فعوضًا من ذلك، لدينا الفئات الآتية: الزواج بين أولاد أخوين (أُولاد عم)، وهو مستحب على نحو خاص[70]، ثم هناك زواج أولاد أختين (اولاد إلخوات)، وابن الخال وابنة العمة، أو ابن العمة وابنة الخال، والذي لا يحظى بالاستحسان ذاته؛ أي إن العلاقة التي تشكل امرأة الرابط فيها، سواء أكانت عروس الرجل ابنة خالته، أم ابنة خاله، أم ابنة عمته، لا ينظر إليها باستحسان كبير.

فمن أين لابن العم هذه المكانة القوية مقارنة بالأقارب الآخرين[71]؟ في القصة الواقعية المذكورة أعلاه تُساق مسألة الإرث كتفسير لذلك؛ فالعم يرث ومن خلاله يرث ابنه، بينما ينأى الخال وابن الخال جانبًا إذا ما مات أبو العروس. ويظهر هذا جليًا عندما يموت رجل من دون أن يترك وراءه أي أبناء ذكور. فإن كانت لديه ابنة، فإن ابن العم يتزوجها من دون مهر؛ إذ لمن سيدفع المهر[72]؟ ويبدو أن زواجه منها يجعله صاحب حق مشروع في تركة عمه المتوفى؛ لذا يُقال لرجل كهذا: «ضاع الميراث» (راح وِرْثة).

وتجد من بين سبعة وثمانين رجلًا كان متزوجًا ثم مات في أرطاس،

---

(69) لفت فريزر الانتباه إلى هذا الفرق في: Frazer, *Folklore in the Old Testament*, II, p. 98.

(70) أسهب فريزر، في المرجع المشار إليه سابقًا، في الحديث عن زواج أبناء العم، ويقول في الصفحة 255: «وهناك استحسان مشابه لدى العرب لزواج ابنة العم، وهو يبدو قويًا وعامًا وقديمًا. ويقال إن أحقية الرجل بزواج ابنة عمه هي العادة الأكثر انتشارًا من بين العادات العربية». ويعرض المؤلف لأمثلة كثيرة، حديثة وقديمة من الجزيرة العربية، ومؤاب، ومصر، والمغرب، وشعب الهوسا المسلم، ويقول بعد ذلك، في الصفحة 260 من المرجع المشار إليه أعلاه: «إذا ما أُخذت جميعًا في الاعتبار، فإن الشواهد المذكورة أعلاه تبرهن أن لدى العرب، والشعوب التي استمدت عاداتها منهم، استحسانًا لا شك فيه لزواج الرجل من ابنة عمه. ويبدو أن القاعدة العامة تتمثل بأحقية الرجل في يد ابنة عمه وفي الحصول عليها مقابل مهر أقل مما قد يدفعه لأي زوجة أخرى».

(71) في ما يتعلق بالنظريات المختلفة عن أصل تفضيل الزواج من ابنة العم، انظر الصفحة 303 وما يليها من كتاب فريزر المشار إليه أعلاه.

(72) انظر: Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 433,

«إن لم يكن الولي من الأقارب المقربين، فله أن يتزوج الفتاة التي له الولاية عليها، من دون أن يدفع مهرًا!».

خمسة وعشرين ماتوا من دون أن يتركوا أبناء ذكورًا[73]، وثمانية من هؤلاء تركوا ابنة واحدة أو أكثر. وفي ثلاث حالات من هذه الثماني، تزوج ابن العم ابنة الرجل الميت، واستولى على الميراث (زواج رقم 93 [سالم عِثمان [67] بزْهور ابنة موسى ربيع [64]])، (وزواج 140 [عوض الله خليل [97] بمحمدية محمد عايش [84]])، (وزواج 238 [زواج محمد أحمد [178] بفاطمة إبراهيم خليل [175]]). وفي الحالة الرابعة أخذ ابن العم مهر ابنة الرجل الميت (ابنة علي ربيع [64]، وزوجة خليل إبراهيم [134])، وقد كان قبل ذلك قد تزوج من ابنة عم يتيمة أخرى (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) (أي الزواج رقم 93 [سالم عِثمان [67] بزْهور ابنة موسى ربيع [64]])، كما تقدم. ولكن عندما مات، بعد حين، رفضت أرملته أن تتزوج ابن عم آخر، واختارت شيخًا من بلدة الشيوخ، لم يقطن أرطاس البتة، ولكنه كان يأتي بين الفينة والفينة لزيارة زوجته (جوز متسرب). وهكذا احتفظت باستقلالها، وسيطرتها على الأملاك. وفي الحالة الخامسة لم يأخذ العم (علي سليمان [27]) ابنة أخيه المتوفى (ابنة جاد الله سليمان [26]، وزوجة أحمد خليل [9]) زوجة لابنه، ولكنه زوّجها لرجل آخر كي يقضي ديون أبيها بمهرها[74]. أما الحالة السادسة فكانت معقدة نوعًا ما؛ إذ تزوج رجل (حسن شاهين [137]) ابنة المتوفى (إبراهيم إبراهيم [131])، وتزوج أخوه أرملته، فيما تزوج قريب ثالث (سعيد أحمد [157]) الابنة الثانية، وهؤلاء الرجال الثلاثة هم أولاد أخوة الرجل المتوفى[75].

وتبدو الصورة في الوقت الحاضر تمامًا كما كانت في أيام [النبي] موسى [عليه السلام]؛ فعندما طالبت بنات صَلفُحاد بحقهن وحق أبيهن المتوفى في حصة من الأرض، أُقرت دعواهن، وصارت تشريعًا في إسرائيل، وذلك بحسب

---

(73) انظر أشجار النسب وقوائم الزواج في آخر الكتاب.

(74) انظر أعلاه في الصفحة 72 من هذا الكتاب.

(75) في الحالة السابعة زوَّج الرجل (أحمد جاد الله [21]) بناته الأربع قبل وفاته. وفي ما يتعلق بإحداهن انظر أدناه في الصفحة 173 من هذا الكتاب. أما الفتاة (ابنة موسى درويش [124]) في الحالة الثامنة صغيرة جدًا، وتعيش في بيت والدها بلا زوج.

ما يرد في الآيات الثامنة إلى الحادية عشرة من الإصحاح السابع والعشرين من سفر العدد: «أيمًّا رجل مات وليس له ابن، تنقلون ملكه إلى ابنته، وإن لم يكن له ابنة تعطوا ملكه لإخوته، وإن لم يكن له إخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه، وإن لم يكن لأبيه إخوة تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه». أما في ما يتصل بزواج البنات اللواتي يرثن، فينص العهد القديم على أنه ينبغي عليهن أن يتزوجن من عشيرتهن نفسها، وذلك بحسب ما جاء في الآية الثالثة من الإصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد: «فإن صرن نساءً لأحد من بني أسباط بني إسرائيل، يؤخذ نصيبهن من نصيب آبائنا، ويضاف إلى نصيب السبط الذي صرن له؛ فمن قرعة نصيبنا يؤخذ». ولهذا جاء في الآيتين الثامنة إلى التاسعة من الإصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد: «وكل بنت ورثت نصيبًا من أسباط بني إسرائيل، تكون امرأةً لواحد من عشيرة سبط أبيها، لكي يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه؛ فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر، بل يلازم أسباط بني إسرائيل كل واحد نصيبه». ويقال إن بنات صَلفُحاد، اللواتي كنّ السبب في سنٍّ هذا التشريع، تزوجن بأبناء أعمامهن امتثالًا لأمر الربّ (الآية العاشرة من الإصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد): «كما أمر الربُّ موسى، كذلك فعلت بنات صَلفُحاد»؛ فقد جاء في الآيتين الحادية عشرة إلى الثانية عشرة من الإصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد: «فصارت... نساءً لبني أعمامهن [...] فبقي نصيبهن في سبط عشيرة أبيهن»[76].

فإذا ما استبدلنا لفظة «عشيرة» (حمولة) المستخدمة اليوم في أرطاس بلفظة «سبط» المستخدمة في العهد القديم، تبين لنا أن التشريع المستخدم اليوم مشابه للتشريع المذكور أعلاه في العهد القديم[77]؛ فيبدو أن الزواج من ابن العم اليوم يفضل على الزواج من غيره، كما كان الحال في الماضي،

(76) من الغريب أن فريزر (Frazer, *Folklore in the Old Testament*, II, pp. 97-263) الذي يناقش مسألة زواج أبناء العم مستهلًا ذلك بوصف لممارسته في العهد القديم، لا يذكر هذه القصة، وهي برهان صارخ على الزواج بين أبناء العم لدى الإسرائيليين.

(77) في ما يتعلق بالتشريع الإسلامي الخاص بأحكام الميراث، انظر الآية الثانية عشرة وما يليها من سورة النساء، وانظر كذلك: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, I, p. 143.

منعًا لحيازة الغريب لأملاك العائلة وميراثها[78]. فمع أنه من النادر أن يموت رجل من دون أن يخلف أولادًا، فإن ذلك يبقى محتملًا؛ مما يجعل الناس يحبذون تمامًا زواج أولاد العم. فلا ينبغي لغريب أن يدخل في العشيرة، بما في ذلك ابن الخال إذا كان من عشيرة أخرى، إلا إن كان أبو الفتاة قد تزوج من عشيرته نفسها. ويدل الواقع أن ابن الخال يكون، في كثير من الأحيان، من عشيرة أخرى أو من مكان آخر. ويسري الأمر نفسه على ابن العمة بالنسبة إلى الفتاة. وفي الحالتين اللتين تزوج فيهما أبناء الأخوات في أرطاس، كان العريس والعروس في الحالة الأولى من عشيرتين مختلفتين، وفي الحالة الثانية كانت العروس من قرية أخرى. ويتضح من خلال ذلك أن موقف ابن العم القوي، مقابل الأقارب الآخرين، يستند إلى أنه هو وحده الذي يكون دائمًا ابنًا للعشيرة، وتكون مصلحته الخاصة جزءًا من مصلحة العائلة والعشيرة، فيما ينتمي الأقارب الآخرون (أبناء الأخوال والخالات والعمات) إلى مجموعة غريبة لها مصالح خارجية[79]. وتكون العائلة الكبيرة، المكونة من عدد من الأسر،

---

(78) انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 53,
«الزواج بين أبناء العم شائع لأنه يبقي على الأملاك في العائلة»، وانظر المؤلف نفسه في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, I, p. 69,
«آمن العرب القدماء بحق الرجل في الزواج من ابنة عمه، لأنه يقوّي أواصر القربى، ويبقي على الأملاك في العائلة». انظر كذلك الصفحة 113 من الجزء الثامن من كتاب الأغاني، طبعة بولاق، والتي يستشهد بها غولدتسير في: «Endogamy and Polygamy among the Arabs,» in: *Academy*, vol. XVIII, p. 26,
وفريزر في الصفحة 262 من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه سابقًا (حاشية هامشية): «من الواضح أن الزواج من ابنة العم متأخر المنشأ مقارنة بالزواج من ابنة الخال أو ابنة العمة، ولعله يشير إلى نظام عماده عشيرة الأب، بني على الرغبة في السماح للبنات بالمشاركة في إرث العائلة». وانظر كذلك: R. H. Lowie, *Primitive Society* (London: Routledge, 1921), p. 29, and F. Galton, «Restrictions in Marriage,» *Sociological Papers*, vol. II (London, 1906), p. 6,
«تظهر الشواهد على العادات المختلفة المتعلقة بالزواج بين الأقارب أن اختيار الزوج أو الزوجة يمكن أن تمليه العادات الدينية؛ المبنية بدورها على رؤية دينية لأملاك العائلة ونسبها».

(79) انظر: Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 436,
«لا يتعلق الأمر بابن العم مقابل ابن الخال، أو الأقارب من جهة الأب مقابل الأقارب من جهة الأم، وإنما هو مسألة القريب مقابل الغريب، وابنة العم، بطبيعة الحال، امرأة من العشيرة أو القبيلة نفسها. ويُعد جميع أفراد القبيلة «عيال عم» (Doughty I, 316). فليس ما يوصى به هو الزواج في ما بين أبناء إخوة =

على أهبة الاستعداد دائمًا للنهوض بواجبها عند حدوث الملمات، ومن خير الأمثلة على ما يحدث عندما يموت الأب في الأسرة الصغيرة، فيبادر العم إلى أخذ مكانه؛ ويكون مسؤولًا عن ديونه، ويدير أملاكه، ويصبح الحامي والوصي الطبيعي لأسرة المتوفى، كما أنه يتولى تزويج أبناء أخيه وبناته. وإذا كان لأخيه المتوفى ابنة ترثه، فمن المؤكد تمامًا، أن العم سيهم لتزويج ابنه منها، إذا كان يملك الحق لفعل ذلك، وبهذا تؤول الأملاك التي بات يعدها عمليًا ملكًا له، إلى عائلته. وفي المقابل، إذا كان العم وصيًا على ابن الأخ اليتيم، ويدير أملاكه، فإنه، وللسبب نفسه، سيتخذه زوجًا لابنته. ولدينا في أرطاس في الوقت الحالي حالتان مشابهتان: الأولى لإبراهيم خليل (ابن خليل عواد [167])، والذي تنتظره ابنة عمه زريفة (ابنة محمد خليل [166][80])، ويقال أيضًا عن خضر إحسين [40] الوصي على ابن أخيه المتوفى شحادة (ابن حسن إحسين [41]) إنه يبيع جزءًا من أملاك الأخير، على اعتبار أنه، كما يقول لابن أخيه «سأزوجك في ما بعد ابنتي نزهة (ابنة خضر إحسين [40])، على أي حال».

وما يدل على أهمية ابن العم، الذي يكون أيضًا ابنًا للعشيرة، هو أن الناس لا تفرق بين ابن العم وابن العشيرة تفريقًا واضحًا. ويسمى الأقارب المقربون أيضًا «أولاد الحمولة»، ثم إن الناس قد تصف الرجل أو المرأة بأنه «ابن العم» وبأنها «بنت العم، وهم يعنون أنهم أبناء العم من الدرجة الثانية[81]. ويصف الناس الزواج بأنه زواج أبناء العم، حتى عندما ينتمي العريس والعروس إلى أجيال مختلفة من العائلة؛ فقد يطلب أب ابنة عمه زوجة لابنه، وفي هذه

= الأب من دون الأقارب من جهة الأم، بل الزواج بين أفراد العشيرة الواحدة». ويقول غرانت في: Grant, *The People of Palestine*, p. 52,

«عادة ما تكون الصداقة محصورة في هذه العلاقة القبلية، وغالبًا ما يقتصر الزواج على أفراد القبيلة ذاتها، فها هو المثل العربي يعبر عن ذلك: «أنا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على العالم»؛ فالناس خارج العشيرة غرباء وأعداء محتملون».

(80) انظر أعلاه في الصفحة 86 من هذا الكتاب. عندما عدت إلى القرية في عام 1930 كانا متزوجين.

(81) انظر: Seligman, «The Kabâbish, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II, p. 139,

«عندما يكون الأجداد من جهة الأب أخوة، يُعامل خلفهم كما لو كان آباؤهم أخوة».

الحالة تكون العروس من جيل أكبر من جيل العريس، أو قد يطلب رجل ابنة ابن عمه، وفي هذه الحال تكون العروس من جيل أصغر من جيل العريس، وفي الحالين كلتيهما يعد هذا الزواج مع ذلك زواج أبناء العم. ويستخدمون وصفَي «ابن العم» و«ابنة العم»[82] حتى في وصف ذوي القربى البعيدة، على الرغم من أنهم قد يستخدمون وصفَي «ابن الحمولة» أو «ابنة الحمولة» لوصف القرابة نفسها بدلًا من ذلك. ونتيجة لاستخدام هذه المصطلحات الفضفاضة، فقد اعتدتُ استنباط العلاقة الدقيقة بين الأفراد بالاعتماد على أشجار العائلات التي وضعتُها، وإذا ما سألتُ عن حال ما، كان فيها الزوج والزوجة أبناءً لأخوة (أبناء عم)، كنت أسأل لأتحقق من درجة القرابة: أهو ابن عمها حقًا؟ فتكون الإجابة: «اللَّزم»؛ أي ابن العم الذي ينبغي عليها أن تتزوجه. وإذا قلت، في حال ما، إن العلاقة بين شخصين ليست علاقة أبناء العم بالمعنى الحقيقي للكلمة، يقال لي: «لهما الأجداد أنفسهم؛ جذورهم واحدة. فمن المهم معرفة أن الأصل الواحد[83]، هو ما يربط أفراد العشيرة بعضهم ببعض في مواجهة العشائر

---

(82) انظر الصفحة 183 من المرجع المشار إليه أعلاه «وحتى عندما يتطلب تحري علاقة القربى الرجوع عدة أجيال إلى الوراء، فإن الذرية ينادي بعضهم بعضًا بقولهم «ابن العم» أو «ابنة العم»، وإن كانت العائلات قد انقسمت إلى «خَشم بيوت»، كما في الحالات الموثقة. وفي هذه الحالات لا يُؤبه لكون أحد الأطراف المتعاقدة ينتمي إلى جيل أقدم من جيل الطرف الآخر. ففي حال بلال وخديجة، ولأن أبا بلال وجدَّ خديجة إخوة، كان بلال يتحدث عن والد خديجة وكأنه أخوه (هو ابن عمه في الواقع)، وعن خديجة بقوله «ابنة أخي»، أما خديجة فكانت تخاطبه بقولها «يا عمي» قبل الخِطْبة».

(83) من اللافت للنظر أنه لا يكفي أن يكون للناس أصل مشترك، وإنما يجب أن يدرك وجود هذا الأصل المشترك أيضًا. وحالما تصبح ذكرى الأسلاف المشتركين باهتة، يبدأ الرابط الذي يحدد علاقة الدم بالانحلال. وتميل حمولة شاهين إلى الانقسام إلى دار شاهين (شاهين إبراهيم شاهين [130]) ودار أحمد (أحمد إبراهيم شاهين [133])، وعندما يتشاجرون يقولون: «نحن بحالنا وأنتم بحالكم!». ويتحدث الناس بالطريقة ذاتها عن حمولة عودة، على الرغم من أنها كانت في الأصل فرعًا من الجماعة الأكبر؛ أي عشيرة سعد، والتي ينتمي إليها أيضًا أحفاد أحمد ريا وأسعد ريا. ويُفسر هذا جزئيًا بأن دار عودة كانت في السابق الأقوى بين الثلاثة؛ إذ كان جاد الله عودة [2] شيخ القرية في حوالى عام 1850.

يضاف إلى ذلك أنهم لم يستطيعوا تحديد العلاقة بين هؤلاء الآباء الثلاثة بالضبط؛ أي عودة من جهة، وأحمد وسعد ريا من جهة أخرى، ووجدوا حلًا للمشكلة بالقول إنهم أخوة، لكن من أمهات مختلفات، وهي حقيقة لها أهميتها في علم الأنساب، لكنها مبهمة جدًا، حتى إنه لا يمكن قبولها؛ ولا سيما إن عرفنا أن لكلمة «أخ» دلالة واسعة، فهي تستخدم في بعض الأحيان للإشارة إلى جميع الرجال =

الأخرى في القرية، وبدرجة أكبر، في مواجهة العالم الخارجي. ويعزز الزواج من ابن العم أو بنت العم، أوالزواج من العشيرة نفسها، الشعور بانتماء أفراد العشيرة بعضهم إلى بعض، ويقربهم من بعضهم بعضًا(84).

ومن الأشياء المميزة لهذا المفهوم أنه من المعتاد أن يستخدم الزوجان عندما يتخاطبان في ما بينهما عبارتي «ابن العم/ ابنة العم». وقد علقت الست لويزا على ذلك بقولها: «المرأة الصالحة تقول دومًا «يا ابن عمي» وليس «زوجي» (جوزي)، وكذلك يفعل الزوج؛ فيقول «يا ابنة عمي» (يا بنت عمي) وليس «زوجتي» (مَرَتي)، حتى وإن لم يكونا من ذوي القربى؛ فهذا هو الخطاب المتعوَّد»(85). وعندما غاب عبد الله سليمان [28]، وهو رجل من أرطاس،

= في القرية. ولهذا فقد قيل إن «تسعين زوجًا من الأخوة» قتلوا في الكارثة العظمى التي أدت إلى اضمحلال القرية، (انظر أعلاه في الصفحة 58 من هذا الكتاب). وعلى هذا المنوال، قال لي الفلاح عطية (عطية عبد [155]) إن أصل أهل أرطاس هو من «الأخوة» الأربعة الذين عاشوا في القلعة الواقعة بالقرب من برك سليمان. وتقسم عشيرة مِشاني أيضًا إلى ثلاثة أقسام، يمكن تتبُّع علاقة القربى في كل منها بيقين لا لبس فيه، لكن عندما يسأل المرء عن درجة القربى بين الأسلاف، يخبرونه عن أكبر الرجال في العشيرة، وأن اثنين منهم كانا إخوة، أما الثالث فكان ابن عمهما. وليتيقن الباحث من دقة تتبع الناس للأنساب، عليه أن يقتصر على سلاسل النسب التي تعود إلى مئة عام، في الأكثر.

(84) انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 56; Lane, *The Arabian Nights Entertainment*, I, p. 62 note 11, and Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 437.

(85) في ما يتعلق بعبارة «بنت عمي» التي يخاطب الزوج بها زوجته، وعبارة «ابن عمي» التي تخاطب بها الزوجة زوجها، انظر: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, p. 130, and Burckhardt, *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gerbräuche der neueren Aegyptier*, p. 274f.

«عندما يتزوج مثل هؤلاء الأقارب، فإنهما يخاطبان بعضهما بعضًا بعد الزفاف كما في السابق «ابن عمي»، و«ابنة عمي»، وليس «زوجي» و«زوجتي»، ذلك أن رابط علاقة القربى الحميمة يُعد عمومًا أكثر قدسية من الزواج الذي يمكن حل عراه في لحظة عناد على جزئية ما، كما هي الحال في كثير من الأحيان. ولهذا ينادي الزوج زوجته قائلًا.. «يا ابنة عمي»، وتنادي الزوجة زوجها قائلة «يا ابن عمي»!»، انظر: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, I, p. 215,

«يستمر الزوجان بمناداة بعضهما بعضًا بقولهما «ابن عمي، وابنة عمي»؛ فرابط الدم لا ينحل، بينما رابط الزواج هش».

Lane, *The Arabian Nights Entertainment*, I, p. 65 note 14; Littmann, *Beduinenerzählungen*, II, p. 41 note 2, and Richard Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Meccah*, III (London: Longman, Brown, Green and Longmans, 1855-1856), p. 41,

«تشير عبارة «ابنة العم»، في الحديث المهذب، إلى الزوجة». =

متزوج من امرأة في صهيون، لفترة طويلة في زيارته للقرية، أرسلت له - بعد ما استطالت إقامته في أرطاس - رسالة خاطبته فيها بقولها «ابن عمي». وهذا أمر معتاد في أرطاس، في الأقل، في المناسبات ذات الشأن. وهكذا خاطب سليم مسلّم [199] زوجته الأولى بقوله «ابنة عمي» (بنت عمي)، خلال احتفاله بزواجه من الزوجة الثانية، على الرغم من أنه لا تربط بينهما قرابة دم على الإطلاق.

ويبدو في قوائم الزواج التي وضعتها، على أي حال، أن من بين 264 واقعة زواج، هناك فقط 35 أو 13.3 في المئة منها هي زواج أبناء عم بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ أي إن الرجل تزوج ابنة أخي أبيه (بنت العم). و69 أو 26.1 في المئة إذا شملنا زواج أبناء العم من الدرجة الثانية، وتلك الحالات التي تكون الزوجة فيها ابنة عم حميها، أو ابنة ابن عم زوجها. و89 أو 33.7 في المئة من مجموع واقعات الزواج إذا أخذنا في الحسبان جميع حالات الزواج من الحمولة في أرطاس[86]، ويبدو أن هذا يتعارض مع الثناء الكبير الذي يصب على زواج أبناء العم، وقد يكون من المثير مقارنة العائلات المختلفة في القرية من هذا الجانب.

أما العائلات الصغيرة، فليس فيها سوى حالة واحدة تزوج فيها ابن العم من ابنة عمه، وهي أكبر هذه العائلات، ولم يقع هذا الزواج إلا بعد الجيل الرابع من العائلة. ولا بد من أن السبب في ذلك أنه في المرحلة الأولى من نمو العائلة، لا يمكن أن يكون هناك زواج بين أبناء العم، إما لأن الأجدى في تلك المرحلة هو أن تسعى العائلة إلى التحالف مع عائلات أخرى، أو أنه لا يوجد ما يكفي من أبناء العم ممن يلائم أحدهم الآخر. وهكذا، فزواج أبناء العم يشير

= ويقول ويلكن في: G. A. Wilken: «Het matriarchaat bij de oude Arabieren,» in: *De verspreide Geschriften*, II (The Hague, 1912), p. 45,

عند العرب يستخدم الرجل لفظة «عم» في مخاطبة حميه، حتى وإن لم يكن حموه قريبًا له، ويستخدم مصطلح «بنت عم» في الإشارة إلى زوجته، حتى وإن لم تكن ابنة عمه على الإطلاق. انظر أيضًا: Seligman, «The Kabâbish, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II, p. 126f.

(86) انظر الجدول في نهاية الكتاب، في الصفحة 237 من هذا الكتاب.

إلى أن للعائلة نفوذًا وحجمًا لا يستهان بهما، حتى إنه ليمكن للرجل أن يتزوج إحدى قريباته في القرية، وهذا يُعلي من شأن زواج أبناء العم. ويضاف إلى ذلك، كما يظهر من قوائمي، أن العشائر الكبيرة أيضًا، وليست الصغيرة وحدها، اتخذت كلٌ منها عددًا من الزوجات من خارج الوسط العشائري يفوق عدد نساء العشيرة اللاتي زُوِّجن لـ «غرباء». ولكن إذا لم يكن هناك عدد كاف من النساء، حتى في العشائر الكبيرة، فإن الحصول على ابنة العم يصبح مزية، وهذا يحد على نحو إلزامي من زواج أبناء العم، بحيث يصبح غاية يسعى الشباب إليها، تضفي عليه جاذبية وألقًا خاصًا، تمامًا مثل ما أنني لم أسمع الناس يتغنون بالماء كما يفعلون في فلسطين، وهذا لشحه في أماكن كثيرة في البلاد.

ويقول البروفيسور ويسترمارك إنه وجد أن زواج أبناء العم، والزواج ضمن وسط محدود، يرتبط غالبًا بقلة عدد النساء، ويذكر المثال المعروف عن السامريين في نابلس، وهم مجموعة صغيرة يتزوج بعضهم من بعض، ويقال إن عدد الرجال عندهم يفوق عدد النساء. ويقول إن مما أثار انتباهه أن هذه النظرية تجد لها تأكيدًا في أرطاس؛ حيث هناك نسبة كبيرة من زواج أبناء العم وقلة في عدد النساء. وينبغي ألّا يغيب عن أذهاننا أن الأرقام المذكورة أعلاه تشير إلى واقعات الزواج بين الذكور وحسب، ولا تشمل أبناء الأخوات ولا أبناء الخال والعمة وذرياتهم.

والناس في أرطاس مدركون تمامًا هذا الفرق في نسبة الرجال إلى النساء، ويفخرون بأن أرطاس مكان يزخر بالرجال الوسيمين الأقوياء، ويردون ذلك إلى مياه النبع في القرية، والتي يقال إنها سبب كثرة الرجال وحسنهم وقوتهم. وتشتهر عائلة مِشاني على نحو خاص بكثرة رجالها. وتقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إن: «تلك الشجرة مُرَّة»، وتضيف معللةً أن الشجرة الحلوة لا تنسل الكثير من الذكور. ويغنون عن الشجرة الحلوة: «يا عيني، لا يليق أن يكون ثلاثة أو أربعة أولاد في البيت: واحد أو اثنان، أو لا رفيق». وتضيف عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «شجرة المِشاني حنظلتان(87)، مرارتهما وغلالهما قويتان»،

(87) في ما يتعلق بالحنظل/ حمظل [بميم مبدلة من نون] انظر: Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, p. 343f.

وينسب الفضل في هذه الحال الميمونة لعائلة المِشاني إلى إحدى نسائهم، وهي نفيسة (زوجة إبراهيم عايش مِشاني [82]) التي اغتنمت ساعة الاستجابة في ليلة القدر[88]، حين تسنح للمرء الفرصة لتحقيق ما يتمنى، ودعت أن تكون عائلة مِشاني: «بيتًا غنيًا، وبيت رجال، وبيت بركة، وبيتًا لا يمحوه الزمن».

وواجهت عشيرة شاهين خطر الفناء لكثرة رجالها. ويعزى ذلك في ما يقال، إلى دعوة دعاها الرجل المسن إبراهيم شاهين [130] بأن لا يدع الله أيًا من بنات عشيرته تحيا، ولاستدراك هذه الأمنية الرعناء، كان عليهم أن يقدموا نذرًا معاكسًا لإبراهيم في الخليل، ليستقيم التوازن بعض الشيء[89]؛ لذا يقول الناس إن التفاوت بين أعداد النساء والرجال في عشيرتهم أكبر منه في أي من العشائر الأخرى، وتؤكد قوائمي العائلية ذلك؛ فقد تزوجت تسع من بناتهم من خارج العشيرة، بينما تزوج بعض رجالهم ثلاثًا وعشرين امرأة من خارجها، وإذا ما حسبنا أعداد الزيجات، تكون النسبة11 إلى 27. وقد يتبين المرء دلالة ذلك عندما يتذكر أن الرجل من عشيرة شاهين يتخذ زوجة واحدة وحسب. فلو اقتصر اختيارهم على نسائهم لا غير، لبقي أربعة عشر رجلًا منهم عزّابًا. ومن ناحية أخرى، فإن عائلة شاهين هي العائلة الكبيرة الوحيدة التي يكتفي رجالها بزوجة واحدة، وهي بذلك استثناء مشرق لما هو شائع في القرية، ولكن، قد يعزى ذلك إلى قلة النساء، وبذلك يكون اضطرارًا وليس تعفّفًا. وثمة دلائل أخرى تشير إلى ندرة النساء هناك؛ إذ يوجد الكثير من حالات زواج الأخ أرملةَ أخيه، وكذلك زواج الأرامل والمطلقات.

ويمكن أن يتوقع الباحث من خلال هذا التوافق بين الرواية الشعبية والأرقام الدقيقة في أرطاس توافقًا بين البيانات الإحصائية والروايات والأساطير عن نسبة الرجال إلى النساء في قرى أخرى. ويردُّ هذا في بعض الحالات، كما في قريتنا، إلى تأثير الماء. أما في ما يخص الكوافنة، وهم السكان الأوائل لكوفين، فقد قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

---

(88) في ما يتعلق بليلة القدر في رمضان انظر: Edward Westermarck, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London: Macmillan & Co., Ltd, 1926), p. 96f.

(89) انظر أدناه في الصفحة 183 من هذا الكتاب.

«الكوافنة العُلْويون، ويعيشون الآن في بيت أُمَّر، يشربون جميعًا من الماء نفسه، ولديهم العدد نفسه من الأولاد والبنات. أما الكوافنة السفليون في صوريف، في المقابل، فالذين يشربون من عين عجُّور منهم لديهم بنات أكثر، بينما أولئك الذين يشربون من بئر المزيرعة لديهم أولاد أكثر».

وكما أن هناك ماءً ذكوريًّا (مويت ذتشر) له أثر إيجابي في الرجال، هناك أيضًا أماكن أخرى فيها ماء أنثوي (مويت إنثى) له أثر حسن وإيجابي في النساء، وفي مثل هذه القرى يكون الرجال هم الأقل.

وهناك أيضًا تفسيرات أخرى؛ إذ يقال إن مريم العذراء باركت بيت لحم، متمنية أن يكون عدد الرجال فيها كالجراد، بينما لعنت بيت ساحور، وهي القرية المجاورة، وتمنت لهم قلة الرجال على الدوام. ويُقال أيضًا إن النساء هن الأغلبية في شَرَفات؛ لأن امرأة تقية (البدرية)، يبجلها المسلمون، ولها مقامٌ هناك، تدعو الله أن يكثر البنات في القرية، فهي تفضل البنات لأنها امرأة، ثم إن هناك عين كارم التي يقال إن أغلبية أهلها من البنات، بينما في القرى المجاورة، كالخَضْر وبيت جالا وبتِّير وحوسان(*) والوَلَجة، فإن عدد الرجال، كما يقولون في أرطاس، يفوق عدد النساء. وأخبرتني ابنة شيخ من حلحول، خلال زيارتها أرطاس، أن شجرة عائلتهم حلوة، وبالتالي فهناك قلة من الرجال، والكثير من النساء.

ولكن ليس لدينا إحصاءات أو أبحاث في علم الأنساب من هذه الأماكن، أو من أي مكان آخر في فلسطين، يمكن أن تدرس إن كانت هناك زيادة في حالات زواج أبناء العم أو قلتها في القرى المختلفة، ثم تبين لنا إن كان هذا هو السبب في الفارق في نسبة أعداد الرجال إلى النساء في تلك القرى، ولو أن معلومات من هذا القبيل توافرت من أماكن مختلفة لكان ذلك مفيدًا جدًا. وإذا كان زواج أبناء العم في أرطاس؛ حيث تُعد البداية لآخر فترة استقرار للسكان حديثة نسبيًا، في ازدياد مطرد، فلربما كانت هناك أماكن أخرى في فلسطين دام

(*) في الأصل حورصان والصحيح ما أثبت هنا [المترجمتان].

الاستقرار فيها فترة أطول، بلغ فيها زواج أبناء العم أقصى مدى له، أو أنه في الواقع آخذ في الانحسار. وقد يكون من النافع رسم منحنى متكامل لتتبع هذه الظاهرة، ويمكن دراسة الأماكن التي لا يحدث فيها زواج أبناء العم لأسباب دينية، وإضافة نتائجها كملحق[٩٠].

وقد يكون مهمًا، كما يؤكد البروفيسور ويسترمارك، البتّ في ما إذا كان الفرق في العدد بين الرجال والنساء، يسري على المواليد كافة أولادًا وبناتٍ، أو على أولئك الذين بقوا في قيد الحياة فحسب. وحاولت الحصول على هذه المعلومات، لكنني سأتناول هذه المسألة لاحقًا عند مناقشة الولادة في فلسطين. ويصعب جدًا، ولأسباب كثيرة، الحصول على معلومات دقيقة وموثوقة من الأمهات في هذا الشأن.

وبعيدًا من تأثير الجدل النظري، والنتائج التي قد يقود إليها، فإن مشكلة الرجال العملية في أرطاس قائمة لم تزل؛ أي قلة عدد النساء ضمن الأوساط الصغيرة التي تشكلها العشائر المختلفة، وكذلك الحال ضمن الوسط الأكبر الذي تشكله القرية بكاملها. ولما كان الرجال لا يرغبون في البقاء بلا زواج، أو بالاقتصار على زوجة واحدة، فلا بد لهم من الزواج من الخارج، وكذلك يفعلون؛ فهم يتخذون زوجات من العشائر الأخرى في القرية، ومن أماكن أخرى. ومع ذلك فليس الواقع السلبي - قلة النساء - وحده ما يحملهم على ذلك، وإنما الضرورة الخالصة هي العامل الحاسم في الأم؛ فالزواج من القرية، إن كان من خارج العشيرة، له كما للزواج من غرباء، جانب إيجابي؛ فمن ناحية، يتسع الخيار أمام الرجال في اختيار النساء، ولكن، هناك ما هو أهم من ذلك، ألا وهو المصاهرة (نسب)، والشعور بالتكافل الذي ينشأ عنها من خلال عقد عرى الزواج بين فئتين من الناس تكادان تكونان غريبتين تمامًا[٩١]. وقد تكون هذه المصاهرات ضرورية، ولا سيما حيث تكون الأحوال مضطربة ومتقلبة،

---

(٩٠) انظر الحاشية الثالثة أعلاه في الصفحة ١١١ من هذا الكتاب.

(٩١) كان الزواج على الدوام متممًا لعلاقات الصداقة والتحالفات، في جميع أنحاء العالم وفي الأزمنة كلها.

ويكون الناس حديثي الاستقرار في قراهم، ولا يزال في وسع المرء رؤية أثر هذه المصاهرات في التوليف بين الناس. فقد قيل في القرية عن عشيرة الربايعة وعائلة سند عندما خطب أحمد مصطفى [74] من عشيرة الربايعة زريفة سند (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) «باتوا الآن أصهارًا» (صار إنسيبهم)، وبات واضحًا بعد ذلك أنه كان يرافق أقاربها، ويسعى إلى لقائهم، في أثناء العمل في النهار، وكذلك في الجلسات الاجتماعية في الليل. ويتبين أن شعور التكافل قد يؤلف بين الناس، لفترة طويلة مقبلة، ويتمثل ذلك في تعاون عائلتي عودة وخلاوي في العمل في حقولهما في بيت سكاريا خلال موسم الحصاد، وإلى اليوم؛ فهم، كما يقال، أصهار، مع أن الزواج الذي جمعهما كان قبل زمن طويل(92). وهناك ضوابط معينة للزيارات بين الأصهار؛ فالمقيمون منهم في أماكن أخرى يأتون في الأعراس والأعياد، والجنائز، ويحملون معهم خرافًا أو معزًا إلى قريتنا، ويذبحونها لأقربائهم في أرطاس.

وهناك من يرى في زواج أبناء الأخوات، أو الزواج من ابنة العمة، أو ابنة الخال، إدامة علاقة المصاهرة (النسب)، ما يحفظ العلاقة بين العائلات ويوسعها من جهة النساء؛ فكما يبحث الرجل عن عروس من عائلة أبيه، يمكنه أيضًا أن يبحث عن عروس من عائلة أمه؛ إذ يُقال: «الولد بوخُذ من شُرش إمّْو». وعندما استفسرت عن سبب الزواج من الأقارب، عندما لا يكون العريس والعروس أبناء عم (أولاد عم)، كانت الإجابة تأتيني مقتضبة بالقول: «نسب»؛ أي إنه كان هناك في ما مضى صلة من خلال زواج سابق بين العائلتين(93). وكما قيل في زواج أبناء العم بالمعنى الحقيقي للكلمة، عند العرب؛ من أن أولاد العم ليسوا دائمًا أبناء أخوة، فقد يستخدم هذا هنا أيضًا بمفهوم أوسع، ولا يكون المعنيون بالضرورة دائمًا أولاد الأخوات أو أولاد الخال أو أولاد العمة الفعليين(94).

---

(92) انظر أدناه في الصفحتين 159 و160 من هذا الكتاب.

(93) انظر: Westermarck, *The History of Human Marriage*, II. p. 76,

«قد يحافظ الزواج من أبناء العمة والخال على أواصر القربى بين العائلات، وقد يكون هذا هو الهدف الأهم، ولا سيما أن العائلات في هذه الحال قد تنتمي إلى عشائر مختلفة».

(94) يتساءل لوي عن الكيفية التي سيتصرف بها الناس الذين يرون أن الزواج من أبناء العمات =

وفي هذا السياق، سنرى لدى مناقشة الزواج من الغرباء أن النساء المتزوجات من أماكن أخرى هن الأكثر سعيًا في تبادل البنات بين عائلاتهن وعائلات أزواجهن[95]. ومن خلال هذه الزيجات كلها، والتي تعزى إلى مصاهرة سابقة (نسب)، تُصان وتدوم تلك العلاقات الودية التي نشأت بتلك الطريقة نفسها. وتتجلى هذه الرغبة من خلال عادة ذات شأن، تتمثل بطلب الأرمل في يوم دفن زوجته من أقاربها أن يعطوه زوجة جديدة من بينهم، مستخدمًا عبارة تشير إلى أن الموت لا يقطع المصاهرة (إلموت ما بقطع نسب). ومثل هذا الطلب لا يرد، ولا يمكن رفضه إلا في ما ندر. وإذا ما أعطوه، وهو الأمر الطبيعي، فإن أخت الزوجة المتوفاة تكون هي الزوجة الجديدة. وهذا النوع من الزواج يسمى في الأدبيات (Sororate) [الزواج من أختين بعد وفاة إحداهن]، وهناك شكل آخر لهذا الزواج لا تعطى فيه الأخت، وإنما امرأة أخرى من العائلة، ولهذا الشكل أيضًا شواهده في أرطاس. والشكل المقابل لزواج الرجل من أخت زوجته المتوفاة هو زواج الرجل من أرملة أخيه (Levirate)، وعلى الرغم من أن له موجبات أخرى، فإن هذا النوع من الزيجات يمكن أن يُعزى أيضًا إلى الرغبة في استمرار علاقة المصاهرة؛ إذ لا ترغب أسرة الرجل الميت بقطع صلتها بعائلة زوجته، تلك الصلة التي نشأت أو استمرت من خلال زواجه منها. وفي هذه الحال أيضًا «لا يقطع الموت علاقة المصاهرة»، وهكذا يُستبدل بالرجل أحد إخوته، وتبقى الصلة بين العائلتين[96].

ويتجلى حرص الناس على توثيق صلة العائلات بعضها ببعضها الآخر من طريق الزواج، من خلال أنهم لا يجدون غضاضة في زواج أكثر من فرد من عائلة واحدة من أفراد من عائلة أخرى في الوقت نفسه. وهكذا تزوج خليل إبراهيم عودة [3] نفسه، وابنه، وابنتاه من أفراد من عائلة خلاوي من عشيرة

= والأخوال هو الأفضل، إن لم يكن هناك أبناء خال أو عمة، ويجيب في: Lowie, *Primitive Society*, p. 26,

«تدل الوقائع الموثوقة لدينا أنه في مثل هذه الحالات يستعاض عن هؤلاء ببعض الأقارب الأبعد، الذين يُعدون في المنزلة ذاتها».

(95) انظر أدناه في الصفحتين 139 و140 وما يليها من هذا الكتاب.

(96) انظر الصفحة 264 من المجلد الثالث من كتاب ويسترمارك المشار إليه سابقًا.

مِشاني، واحتُفل بزفاف الأربعة في الوقت نفسه[97]. وليس من الضروري أن يكون التبادل لأسباب اقتصادية وحسب؛ فقد يكون السبب في أن الزواج المزدوج يوثق الصلة بين العائلات بدرجة أكبر من الزواج المنفرد. وهذا هو الجانب الذي يبرز في العهد القديم، عندما تكون المسألة متعلقة بتبادل البنات[98].

وفيما كنت أدون ملاحظاتي وأعد قوائم الأنساب، تجلت لدي أهمية المصاهرة بمفهومها الأوسع، باعتبارها تربط العائلات من خلال الزواج بين أفرادها. وفي حين أن الزيجات بين الأقارب بالدم من طرف الذكور متعوَّدة تمامًا، كما هو الحال في أرطاس، يعد الزواج بين عريس وعروس من العشيرة نفسها مصاهرة، وإن كانت هناك علاقة قربى تجمع آباءهم. ولكن كونهما من العشيرة نفسها تبقى له الدلالة الطاغية في أذهان الناس؛ حتى إنهم يصفونهما بأنهما «ابن عم» و«ابنة عم»، حتى وإن كان الزواج الذي يجمعهما من طرف أنثوي، والذي يكون أكثر حميمية. ولا تشكل المصاهرة إلا عنصر توطيد للعلاقات، إلا إن كانت المسألة هي زواج أرمل أو أرملة؛ إذ عندها يكون الزواج السابق هو العامل الحاسم وله الاعتبار الأول، وذلك حينما تطالب عائلة الشخص المتوفى بزواج جديد. ولا تتخذ المصاهرة أهميتها الحقيقية، كمفهوم موازٍ أو مقابل لزواج أبناء العم بالمعنى الحقيقي له في اللغة العربية (أي الزواج بين أبناء الأخوة)، إلا عندما يجري الزواج من خارج العشيرة. وتتجلى القيمة المتدنية للزواج من خارج العشيرة مقارنة بالزواج من أبناء العم في قولهم: «ليسوا أقارب دم، بل هم أصهار وحسب» (مُش قرايب بس نسب). وكما أن لابن العم أولوية في الزواج من ابنة عمه مقارنة بابن الخالة، أو ابن العمة، أو ابن الخال، فإن لهؤلاء الآخرين جميعًا حق الأولوية مقارنة برجل من خارج

(97) انظر أدناه في الصفحتين 158 و159 من هذا الكتاب.

(98) قارن ذلك بما يذكر في الآية التاسعة وما يليها من الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين؛ والتي تبين أهمية علاقة المصاهرة، وذلك عندما يتقدم أبناء شكيم من أبناء يعقوب بالعرض الآتي: «وصاهرونا، تعطوننا بناتكم، وتأخذون لكم بناتنا. وتسكنون معنا، وتكون الأرض أمامكم، اسكنوا واتجروا وتملكوا فيها».

العشيرة، لا تربطه بالعروس علاقة قربى: «نحن أولى بابنة أختنا» (نحنا أبدا في بنت أُختنا)، هذا ما قاله أحمد اسْمَعين [52]، عندما أخذ فتاة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة اسْمَعين أحمد [55]) عروسًا لابنه (اسْمعين أحمد [55]) كانت مخطوبة من قبل لرجل (علي سالم [70]) من عشيرة الربايعة، وكان عليه أن يرضى بالزواج من خالة العروس السابقة الأكبر سنًا (ابنة اسْمَعين سعد [51]، وزوجة علي سالم [70])، والتي أعطاه إياها أحمد اسْمَعين [52][99]. وكذلك تعطي الزيجات السابقة أفضلية للرجل. ولا يستوي رجلان، أحدهما من عشيرة أخرى لكن من القرية نفسها، والثاني من مكان آخر؛ إذ يُقال «أنا الأولى فأنا من القرية» (أنا أبدا أنا ابن البلد[100]).

ومن الواضح تمامًا أن الذين يشكلون مجتمع القرية معًا، سيتزاوجون في ما بينهم لنسج علاقات وثيقة تربطهم[101]. ولمثل هذه الزيجات[102] أهمية؛ لأنها تميل إلى تسوية الخلافات بين العائلات، والتي يعمل الزواج من العشيرة على استفحالها، بينما تخلق زيجات القرية شعورًا بالتكافل بين سكانها. وليس للعائلات والعشائر كلها الحصة نفسها من عملية تسوية الخلافات. ففي ما يتعلق بالزواج بين عشيرتي شاهين والربايعة، يمكن للمرء أن يتتبع على مدى جميع الأجيال التي عرفها التاريخ الحديث للقرية أن المرأة عندما تنتقل من عشيرة إلى أخرى بالزواج، ترسل ابنتها إلى عشيرتها كزوجة، ثم تعيد هذه

---

(99) انظر أعلاه في الصفحة 95 من هذا الكتاب.

(100) انظر أدناه في الصفحة 195 من هذا الكتاب.

(101) انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 56.
Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 437f.

يفترض كوندر أن الزواج ضمن القرية نفسها شائع إلى حد كبير في فلسطين في: Conder, *Tent Work in Palestine*, p. 323,

وهو يقول في ذلك: «الاختلاف في السمات الخَلقية بين سكان قرية وأخرى مدهش للغاية؛ ففي قرية ما قد يمتاز الناس بالوسامة، وفي أخرى بالقبح، وتجد شبهًا عائليًا قويًا في الحالتين كلتيهما بين السكان المقيمين في مكان واحد، ويعود ذلك في ما يبدو، إلى التزاوج المستمر بين الفلاحين في القرية نفسها».

(102) انظر الجدول في الصفحة 238 في نهاية هذا الكتاب.

الأخيرة الكرَّة، فترسل ابنتها ثانية إلى أحد أقربائها من عشيرتها[103]. ولم يتوقف هذا، حتى عندما تباعدت العائلتان على إثر جريمة قتل حدثت قبل خمسين عامًا، أدت إلى إنهاء زواجين كانا قائمين آنذاك بين أفراد عشيرتي شاهين والربايعة، ولا تزال هناك نساء من الربايعة عند عشيرة شاهين، ثم هناك عشيرتا شاهين ومِشاني، وهما تتزاوجان بيسر في ما بينهما، ويشار إليهما بالقول «في الرخاء معًا، وفي الموت معًا، وفي الفرح معًا». وهناك عشائر أخرى لا تتزاوج في ما بينها مطلقًا، أو تفعل ذلك كارهة؛ فعندما تزوجت امرأة من عائلة عودة، وهي إحدى عائلات عشيرة سعد، من رجل (حسن محمد [168]) من عشيرة شاهين، قبل بضع سنين، قيل إنها كانت المرة الأولى التي تأتي فيها ابنة من عائلة عودة إلى عائلة شاهين، ولم يحدث نقيض ذلك البتة؛ أي لم تتزوج بنت من عشيرة شاهين من العشيرة التي تشكل عائلة عودة فرعًا منها. ويعزى هذا، من دون ريب، لما رُوي لي من مصادر مستقلة، من أنه كانت هناك خصومة شديدة بين عائلتي شاهين وعودة اللتين كانتا تنتميان إلى طرفين مختلفين، ذلك في أثناء الاضطرابات السياسية التي حدثت في منتصف القرن الماضي[104].

أما في ما يخص المجموعات الأصغر في القرية، فيبدو أن أكبرها، وهي عائلة شحادة، هي وحدها التي فيها زواج أبناء عم، كما أنها العائلة الوحيدة أيضًا التي فيها تزاوج حقيقي مع العشائر الكبيرة في القرية؛ فقد زوجوا ثمانٍ من بناتهم لعشائر وعائلات أخرى في القرية، وأخذوا منهم ست زوجات. ولما كان عدد رجالهم المتزوجين هو أحد عشر رجلًا وحسب - لديهم مجتمعين ست عشرة زوجة - فإن نصفهم متزوج من بنات عائلات أخرى من القرية، أي إن ما نسبته 5.37 في المئة من مجموع زيجاتهم هي من نساء من حمائل وعائلات أخرى من أرطاس. ويقال إن جدهم الأكبر جاء من سلوان بالقرب من القدس،

---

(103) وعمليًا، تنسجم هذه الممارسات مع المثل القائل «خذ البنات من صدور العمّات» والذي اقتبسه باور في: Bauer: «Arabische Sprichwörter,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXI, p. 139.

(104) انظر الحاشية الرابعة أعلاه في الصفحة 59 من هذا الكتاب.

إلا أنه كان مع القرويين الذين فروا من أرطاس عندما دمرت القرية[105]، والتحق بعشيرة شاهين التي ذهبت إلى سِغْير. وبعد موته، ذهب ابنه الوحيد، شحادة [169]، مع أمه إلى زوجها الجديد في خاراس، ولكن زوج أمه عامله معاملة سيئة، فأعيد إلى أرطاس، وسرعان ما تبعته أمه، ودخلا معًا في حماية اسْمَعين (اسْمَعين سعد [51])، وكان رجلًا ذا سلطة في أرطاس. وعندما كبر شحاده [169] زوّجه اسْمَعين سعد [51] ابنته، وعلقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على هذا الارتباط بالقول: «وهكذا صار الناس من أهل القرية (من هَذا إتبلّدو إنّاس)». وهناك عامل مهم جدًا في هذا، إضافة إلى زواج أفراد عائلة شحادة من نساء من القرية، وهو أنهم كان لديهم، ولا يزال، أملاك في أرطاس.

وكان يمكن لعائلة صغيرة أخرى أن تنمو بالطريقة نفسها، لو أن الظروف واتتها؛ فكنعان [180] جاء من حلحول مع أخته محبوبة (زوجة عِثمان أحمد [31]) التي استبدل بها فتاة من أرطاس زوجة له، وبقي في القرية بسبب زواجه. وعندما حاز ابنه (أحمد كنعان [181]) كرم عنب مقابل تزويجه أخته حليمة (ابنة كنعان [180]، وزوجة سعد إبراهيم [5]) ووضع بذلك أسسًا لأملاك له في القرية، بدا وكأن عشيرة جديدة ستنشأ هناك. ولكن أحمد كنعان [181] مات بعد ذلك من دون أن يخلف أولادًا أو بناتٍ، وماتت أخته حليمة (ابنة كنعان [180]، وزوجة سعد إبراهيم [5])، أما أخته الثانية خضرة (ابنة كنعان [180]، وزوجة إبراهيم خليل [175])، والتي استبدل بها أخت زوجها، فقد عادت إلى قريتها الأصلية حلحول عندما مات عنها زوجها، وتزوجت هناك، لتنتهي بذلك هذه العائلة في أرطاس. وتزوجت حِلوة (ابنة خليل شحادة [170]) أرملة أحمد كنعان [181] مرة أخرى، وهذه المرة كان زوجها من حلحول، وهو يعيش الآن في بيت زوجته حِلوة (ابنة خليل شحادة [170]) في أرطاس. وتعتني حِلوة بكرم العنب، لكن عائلة عودة التي قدمت الكرم مهرًا للعروس، يعتقدون، على أي حال، أن لهم حقًا فيه، وهم يطالبون به إرثًا بعد وفاتها.

(105) انظر أعلاه في الصفحة 58 من هذا الكتاب.

أما الجد الأكبر للمجموعة الثالثة فهو سليمان عودة [188]، وجاء إلى القرية مع أمه، عندما تزوجت، وهي أرملة، أبا خلاوي (أبو خلاوي [108]) من عائلة مِشاني، وكان ذلك في أثناء لجوئهم إلى عجُّور[106]، ومارست هذه العائلة الكثير من المهن المتنوعة والمتغيرة مقارنة بسائر عائلات القرية، وربما كان ذلك لأن أملاكهم لا تتعدى بيتًا اشتروه بمهر صبحة ابنة سليمان عودة [188]، وهذا البيت هو الشيء الوحيد الذي يُبقي بعض أفراد العائلة في القرية. وفي عام 1927 تزوج أحد شبابهم (عبدالحميد عبد [192])، وكان يتيمًا، إحدى بنات عائلة شحادة، وكان أبوها (أحمد خليل [172]) ميتًا أيضًا. وهي لا تتحدث بشكل سليم ولا تسمع جيدًا، ولكن، على أي حال، لعل هذا الزواج يزيد من صلة عائلة سليمان عودة [188] بالقرية. وما يثير الدهشة، الشرط الذي وضعه عم الفتاة علي خليل [173]، بأن لها الحق في أن تأخذ ما تريده من بستان أبيها ما دام عبد الحميد [192] زوجًا لها، والذي لا يملك أرضًا، وكان أبوه (عبد سليمان [190]) أخذ إحدى زوجتيه من أرطاس.

وخلافًا لذلك، فإن المجموعة الرابعة، وهي عائلة سند، كانت لديهم زوجة واحدة فقط من القرية، وكان هذا منذ زمن بعيد، وهي من عائلة شحادة التي لا يعرف على وجه التحديد أكانت لهم حقوق القرويين آنذاك أم لا. وفي ما عدا ذلك، فإن المصاهرة (النسب) لديهم دائمًا في اتجاه واحد؛ فعلى الرغم من أنهم أعطوا من نسائهم - لا يزدن عن ثلاث - إلا أنهم لم يأخذوا أي نساء من غير عائلتهم[107]. وكان هناك دومًا توتر بين المرأتين عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) وحمدية (ابنة سليمان سند [183])؛ ذلك أن الأخيرة تدَّعي صلة دم (قرابة قديمة) لها بعودة، وهو جد عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، وأكدت أنه السبب وراء مجيئهم إلى أرطاس، بينما شككت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بهذا القول، وقالت بكل ثقة: «لا، ليس هناك صلة دم، فقط نسب (مُش قرايب بس نسب)». وربما كانت عائلة سند هي آخر من ترك القلعة الواقعة قبالة أعلى

(106) انظر أعلاه في الصفحة 58 من هذا الكتاب.

(107) حدث بعد مغادرتي فلسطين أن أخذوا زوجة أخرى (زوجة عبد صالح [187]) من القرية، انظر الحاشية الأولى أعلاه في الصفحة 118 من هذا الكتاب.

بركة من برك سليمان[108]، وتعيش الآن في مغارة في القرية اتخذوها منزلًا. واحتفظت هذه العائلة ببعض السمات البدوية، ويرجع بعض ذلك إلى زواجهم من عرب التعامرة، وبعضه الآخر إلى أنهم عاشوا بين البدو فترات طويلة.

أما المجموعة الخامسة، فلم يتزوج أي فرد منها من القرية مطلقًا، وهي تتكون من عائلة تعمرية جاؤوا إلى ابنة مِشُلَّم، أو ست ميليا - كما تسمى في القرية - رعاة للأغنام، وبعد وفاتها مكثوا في البيت. وهم ينتمون إلى اليمن؛ أي الحزب السياسي لقبيلتهم، بينما ينتمي بقية أهالي أرطاس إلى قيس[109]. وعندما لا يعود بإمكانهم العيش في البيت، فإنهم على الأرجح سيعودون إلى عرب التعامرة، حيث أقاربهم وأملاكهم. أما زوجاتهم اللاتي دفعت الست ميليا مهورهن، فكن من أقاربهم، الأمر ساهم إلى حد ما في عدهم غرباء في القرية.

وفي ما يتعلق بالمجموعة السادسة، فهم أربعة أجيال من الزنوج، فني أكبرها منذ حين، وسلفهم كان رقيقًا (عبد الله العبد [195]) اشتراه شاهين (شاهين إبراهيم [130]) وزوجته التي جاءت إلى يافا مع بعض المستوطنين الأميركيين[110]. وعلى الرغم من أنهم تمثلوا عادات أهل القرية وتقاليدهم، وكان الرجال في أرطاس يقبّلون رجالهم في الأعياد كإخوة لهم، فإنهم لم يتزاوجوا مع أهل القرية، وإنما تزوجوا زنجيات من أماكن أخرى تجمعهم بهم علاقات مصاهرة[111]. وهكذا تزوج في كانون ثاني/ يناير من عام 1927 واحد منهم (سليم مسلَّم [199]) ابنة خالته من دورا[112]. وهم يعدون أنفسهم جزءًا من عشيرة شاهين، ويحصلون، كأفراد العشيرة الآخرين، على ثياب في العيد الكبير في عائلة شاهين. ومن اللافت أن أكبر الزنجيات (زوجة سلامة عبدالله

---

(108) انظر أعلاه في الصفحة 59 من هذ الكتاب.

(109) انظر الحاشية الرابعة أعلاه في الصفحة 59 من هذا الكتاب.

(110) انظر: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*, p. 129, «كانت العائلات قديمًا تستكمل بالعبيد» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر كذلك: Musil, *Arabia Petraea III*, p. 224f.

(111) انظر أعلاه في الصفحة 108 من هذا الكتاب.

(112)انظر أعلاه في الصفحة 115 من هذا الكتاب.

[196]) لا تزال تقول «سيِّدي» (سِيْدي) «وزوجة سيِّدي» (مَرْت سيدي) لدى الحديث عن أفراد عائلة شاهين؛ فهم ما زالوا يشعرون بتدني منزلتهم. وتقول الست لويزا: «يقال عن الزنوج (في فلسطين) إنهم لا يتناسلون كثيرًا».

وعندما ننتقل لمناقشة مسألة الزواج بالغرباء، فقد يكون مفيدًا للمقارنة، أن نستعرض الأرقام الخاصة بأشكال الزواج الأخرى: هناك تسعة وثمانون زواجًا، كانت الزوجة فيها من العشيرة نفسها، أو ما نسبته 33.7 في المئة من مجموع مئتين وأربعة وستين زواجًا تشتمل عليها جداولي الإحصائية، وهناك اثنان وستون زواجًا كانت الزوجة فيها من عشيرة أخرى، ولكن من القرية نفسها؛ أي إن ما نسبته 5.23 في المئة، وهناك أخيرًا مئة وثلاثة عشر زواجًا بين رجال من أرطاس ونساء غريبات، وهذا يعني ما نسبته 8.42 في المئة؛ أي أن نصف الزيجات تقريبًا كانت من زوجات من أماكن أخرى. وتُظهر الأرقام رجاحة تامة للنوع الأخير من الزواج. وقد أكدنا في ما سبق عدم التوافق بين ما هو مثالي وبين الواقع الذي نجده هنا. وكان من المحال أن نصف زواج أبناء العم من دون أن نستعرض الزواج من الغرباء بعض الاستعراض؛ فالفلاحون حساسون جدًا في ما يتعلق بالأزواج والزوجات من أبناء العمومة من جهة، والأزواج والزوجات الغرباء من جهة أخرى، ويبدو أنهم يجدون صعوبة في توصيف أحدهما من دون توصيف الآخر، تمامًا كالضوء والظلال، يكمل أحدهما الآخر. ولهذا تُرسم الأشياء باللونين الأبيض والأسود، ويُشدد على أهمية زواج أبناء العم على حساب الزواج من الغرباء، كالنقيضين المتقابلين. ومع ذلك، فمن المحال أن يعيش الناس في تناقض تام مع ما يقولونه نظريًا، ولا يمكن أن تكون هناك هوة بين ما يفعلونه وما يقولونه فحسب؛ فلا بد من وجود عوامل تسوية، تقلص هذه التناقضات أو تزيلها.

ومن عوامل التسوية بين النظرية والواقع في قريتنا وجود النساء الغريبات؛ فوجودهن لذلك ضروري. فبينما تزوجت خمس وستون امرأة من أرطاس خارج القرية، تزوج رجال أرطاس مئة وسبع نساء غريبات، وهذا يعني زيادة بمقدار اثنين وأربعين امرأة غريبة عن نساء أرطاس اللواتي تزوجن خارجها،

ويبدو أن هذا كان ضروريًا. ويظهر أن النقص في عدد النساء كان مطلقًا في بداية الفترة الحضارية الأخيرة. والذي يؤكد ما قالته لي مُخبرتايَ من أنه لم يكن هناك نساء آنذاك (مَفيش بنات) أن الأجداد الأوائل جميعًا تزوجوا من أماكن أخرى(113)، كما أنه من المؤكد أيضًا أنه لم يكن لديهم نساء للاستبدال. والأمر ذاته يتكرر الآن في المجموعات الأصغر؛ ما يحاكي مراحل التطور الأولى في القرية.

وهؤلاء الرجال الذين تزوجوا من أماكن أخرى حصلوا على ميزة مباشرة؛ فبهذه الطريقة أمكنهم التنصل من الخدمة العسكرية(114). أما رجال أرطاس الذين كانوا يعملون سابقًا حراسًا للقنوات التي تجرّ الماء من برك سليمان إلى القدس، والذين أعفوا من الضريبة والخدمة العسكرية، فقد خسروا هذا الامتياز في ما بعد؛ ولهذا فقد فرحوا بالقانون الذي استحدث، والذي ينص على أن الزواج من امرأة غريبة (الغريبة) أو المقطوعة (القطيعة)؛ أي المرأة التي ليس لها أقارب دم من الذكور، فلا أب أو أخ في قيد الحياة، يعفى الرجل من الخدمة العسكرية، ولم يكن عليه المشاركة في القرعة التي كانت تجرى لتحديد أي الرجال سيغادر القرية كجندي، إلا أن هذه التعليمات تصح فقط للنساء ضمن فئة خاصة؛ فقد قيلت لي عند الحديث عن زواج امرأة تعمرية، أهلها من أشباه البدو، وكذلك عند الحديث عن زواج امرأتين (زوجة عبد السلام إبراهيم [92]، وزوجة محمد خليل [99]) من بِلاد الشمال (بْلاد الشَمال).

ويبدو أن الناس في أرطاس راضون عن النساء الغريبات على الرغم من هذه النظريات كلها؛ ولهذا يُقال أيضًا: «لا تشتري الحمارة التي تعيش أمها في الحارة نفسها» (لا تشْتري حمارة وإِمها في الحارة).

أم العروس - أو إذا كانت ميتة فإحدى أقرب قريباتها - تذهب دائمًا مع

(113) يقول باور أيضًا في: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p.84,

«كان من النادر في السابق أن يبحث الرجل عن عروس في قرى أخرى، ولكن منذ عشر إلى عشرين سنة، بدأ ذلك بالتغير».

(114) انظر أعلاه في الصفحة 103، وأيضًا أدناه في الصفحة 192 من هذا الكتاب.

موكب العرس لترى كيف ستكون حال ابنتها في بيت زوجها. وتقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «تبقى أم العروس عشرة أيام، أو خمسة عشر يومًا، أو عشرين، أو حتى شهرًا إلى أن تطمئن على استقرار ابنتها (إم إلعروس بتظل في البيت تَتْجَسَّر هَالبنت)»؛ أما إن كانت غريبة فتعود، ولا يكون عند الزوج حماة تزعجه. وفي المقابل، إذا كانت الأم تعيش في القرية غير بعيد، فإنها تكون في متناول اليد، وعندئذ يمكن للابنة متى شاءت، وعند كل مشكلة صغيرة، أن تشكو زوجها في بيت أمها وعند عائلتها؛ فهم يعتقدون أن تدخلهم في شؤون الزوج، ولا سيما إذا كانوا من أقربائه، مبرَّر[115]. وللناس في أرطاس التجربة ذاتها المألوفة في كل أنحاء العالم، وهي أن الأقارب قد يصبحون عبئًا ثقيلًا، ومصدر إزعاج كبير مهما كانوا صالحين[116]. ولهذا السبب قيل: «بارك الله في المرأة الغريبة وبالحقل القريب» (بارتش الله فل المرا إلغريبة وِل فلحة إلقريبة!)[117].

من جهة ثانية لا يحتاج الرجل إلى أن يراعي زوجته كثيرًا إذا كانت غريبة، ويستطيع أن يطلق العنان لغضبه وللعناته؛ لأنه عندما يتلفظ الرجل باللعنة على أحد ما، فإنه، ولزيادة تأثيرها، يلعن الآباء والأجداد، وبهذا فهو يلعن الذرية، فلا

---

(115) انظر فيلهاوزن في الصفحة 437 من المرجع المشار إليه أعلاه: «يفضل والدا الزوجة، بطبيعة الحال، أن تبقى ابنتهما وأطفالها بينهم بدلًا من التخلي عنها «للأعداء»، فبهذا يسهل عليهم ممارسة الضغط على الزوج. أما بالنسبة إلى الرجل، فينظر للمسألة نظرة معكوسة، بحيث يفضل ألا تخرج زوجته من كنفه. وفي الواقع، فإن ذلك مما يُحَذِّرُ منه (كتاب الأغاني، المجلد الرابع عشر، 143، 21)، ليس لأنه يقود إلى شقاق بشع ربما يطال عائلتي الزوج والزوجة، نتيجة لتدخل الوالدين فحسب، بل كذلك لأسباب أخرى (كتاب الأغاني، المجلد الحادي عشر، 185، 6)».

(116) انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 54,

«ومع هذا، فلزواج أبناء العم كذلك سيئاته؛ فقد قيل لي في فاس إنه قد يؤدي بسهولة إلى مشاجرات بين عائلتي الزوج والزوجة، فالعائلتان كلتاهما تريد التدخل في حياتهما الزوجية. ولهذا السبب تخاطب الفتيات الراغبات في الزواج الولي سيدي مبارك بن عبابو، خارج بوابة باب الجيزة عن زيارته قائلات: «يا سيدي مبارك بن عبابو أعطني زوجًا لا أصحاب له». ويستشهد ويسترمارك (في الحاشية الأولى من الصفحة 54) بأحد شعراء المعلقات [عمرو بن كلثوم] والذي ينصح أبناءه في وصيته بقوله: «ولا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض».

(117) لمقارنة «حرث الزوجة» انظر: القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية 223.

يستطيع الرجل إذًا أن يلعن زوجته ابنة عمه من دون أن يلعن نفسه في الوقت نفسه، وإذا ما لعنها فاللعنة تعود على الجيل السابق، ثم على الأجيال الأصغر، وأخيرًا عليه هو نفسه. وبالطبع، فلا حاجة للرجل إلى ضبط نفسه على هذا النحو إن كانت الزوجة التي يلعنها غريبة؛ لأن أصلها وجذورها مختلفة تمامًا عن أصله. وفي إحدى القصص(118) التي روتها حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن امرأة غريبة (غريبِه) ومقطوعة (قطيعه)؛ أي كان لها من سوء الطالع ضعفان؛ إذ كانت تُلعن في بيت زوجها: «قومي يا ملعونة الوالدين (ملعونة الوالدين)... لعن اللهُ جنسك (جنسِك) الذي أنتِ منه، والبلد التي منها أتيتِ!... لعن اللهُ أبا جنسك، أو أبا الطين (طينِه) الذي منه جُبلتِ!»... وما إلى ذلك.

أما بالنسبة إلى المرأة وأهلها، فتعد المكانة غير المصانة للمرأة الغريبة، في المقابل، ابتلاءً عظيمًا؛ فقد رفضت امراة تعمرية (زوجة يوسف محمد [153]، وزوجة عبد الرحمن عبد [152]) في أرطاس أن تبقى في البيت الذي لُعن فيه أهلها. ويندب الأبوان حظهما التعس لأن عليهما تربية ابنة، ليلعنهما في ما بعد رجل غريب. ولم أسمع قط أحدًا يثني على زواج المرأة في مكان آخر، بل على النقيض من ذلك، يقال: «ليعاقبه الله! كيف سيرميك بين الغرباء؟»، كما قال الشيخ لحمدة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]) عندما زوَّجها أخوها لرجل من قرية لفتا(119). وتذكر هذه المأساة في أغاني الزفاف؛ إذ تلوم النساءُ أقارب العروس كالآتي: «الغريبة! تركوها تذهب بين الغرباء، رجالها! المال وحده هو من أرسلها بين الغرباء»، أو: «حرِّك نفسك يا جمل الغريبة، يا للتعاسة! بعد هذا ستصبح غريبة! ذهبت من مكان ما، ذهبت من هنا إلى بلاد الغرباء». ويعد من الضروري تقديم النصح للعروس الذاهبة إلى مكان غريب، وتنبيهها إلى السلوك الذي ينبغي أن تكون عليه عند الغرباء. وهكذا يقولون لها وفقًا

(118) انظر: H. Granqvist, «Bruderschaft und Frauenehre,» in: *Palästina Jahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, XXIII. (Berlin: E. S. Mittler & Sohn, 1927), p. 125ff.

(119) انظر أدناه في الصفحة 194 من هذا الكتاب.

لحمدية (ابنة سليمان سند [183]): «اذهبي مع السلامة، والله معك! كوني حذرة في حياتك كغريبة! لا تسمحي لأحد بأن يتكلم عنك، ولا للزوجات بأن يسخرن منك! النساء يتملقنك إذا حضرت، لكنهن عقارب سامة. وفي ما يتعلق بالرجل، كوني فطنة وعفيفة، فعلى الغريبة أن تكون مثالية. دعي الناس يقولون: فلتحيا هي والبيت الذي منه أتت! ولا تحمليهم على قول: لعنة الله عليها».

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«المرأة الغريبة تشبه الميزان، إذا ما هفت ريح خفيفة بثوبها، تلام. قولوا للزوجة الغريبة: يجب أن لا تكسر اللوز مع الجيران... أستطيع تمييز المرأة الغريبة من بين مئة؛ فهي امرأة مضطهدة!».

هي كذلك لأنها ليست في حماية أقاربها، ولا تلقى من الزوج من الدعم والحماية ما تناله المرأة في الغرب.

ومن الغريب أن هذه الحقيقة نفسها تؤدي إلى زيادة أعداد الزيجات بالغريبات؛ لأن المرأة التي تأتي من مكان آخر تتوق إلى أن تتخذ من إحدى قريباتها كنة لها كي تساعدها. وقد قيل عن نساء كثيرات كهؤلاء: «أخذت ابنة أخيها كنة لها». ولنسمع ما تقول بعض هؤلاء النساء أنفسهن عن الأمر. صرَّحت فاطمة شختور (زوجة محمد إبراهيم [132]، وزوجة أحمد إبراهيم [133]) وهي امرأة تلحمية: «لن آخذ كنة لي تساعدني في كبري سوى ابنة أخي». ويردُّ زواج إبراهيم عايش [82] من زوجته الأولى وهي من نوبا إلى تأثير أمه فضة (زوجة عايش مِشاني [80]) التي قالت: «لن آخذ امرأة من أرطاس كنة لي، بل صبية من عائلتي تساعدني عندما أكبر، سآخذ صبية من نوبا». وأثنت سعدة أحمد (زوجة إحسين إبراهيم [93]) وهي من الوَلَجِة، على حُسن حظها قائلة: «أحمدك يا رب أن ابنة أخي جاءت إلى البيت كنة لي (زوجة عبد الكريم إحسين [107])، ولهذا السبب سأقبِّل الأرض دومًا، وليت ابني الثاني ينال زوجة مثلها!». وعند اختيار عروس لحفيدها (ابن ابنتها) (محمد خلاوي [109])، قالت صالحة (زوجة عِثمان الربايعة [66])، وهي من الوَلَجِة: «أود أن آتي بابنة أخي كنة لابنتي (زوجة خلاوي مِشاني [108])، واحدة من اللحم

والدم نفسه». إلا أن عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) علقت على هذا الأمر قائلة: «مع ذلك، فقد أذاقت هذه الكنة (زوجة محمد خلاوي [109]) حماتها (زوجة خلاوي مِشاني [108]) كأس المر، كما لو لم تكن من اللحم والدم نفسه».

وجميع هذه الزيجات من غريبات، والتي استشهدت بها آنفًا، هي في الوقت نفسه زيجات بين أقارب؛ فجلها زيجات من بنات الأخوال أو العمات - أو بنات الأخوات - لكنها تختلف عن زيجات أبناء العم الحقيقية - بين ابن العم وبنت العم - بكونها أقل منزلة؛ لأنها تعد زواج مصاهرة (نسب) لا زواج أقارب (قرايب)؛ أي علاقات قربى من جهة الذكور. واللافت للنظر هنا هو سياسة النساء في الزواج؛ فإن لم تحصل إحداهن على قريبة لها، ففي الأقل على واحدة من قريتها. وعلى هذا المنوال، تفضل الأم أن تزوج ابنتها لابن أخيها، أو في الأقل، أن ترسلها إلى قريتها.

وقد كان هذا الأمر برمته جذب انتباهي منذ حين، في أثناء دراستي للنساء في العهد القديم، واللاتي كن يسعين السعي نفسه(120)، فمن ناحية، كان ثمة خوف من التأثير الثقافي للنساء الغريبات المنتميات إلى ثقافة مختلفة عن ثقافة إسرائيل، وكذلك إلى دين آخر بقين على ولائهن له، كما بقين على ولائهن لأوطانهن، ولهذا عددن خطرًا دائمًا، وعنصرًا يتهدد الثقافة الإسرائيلية(121). ولهذا السبب كنت مهتمة أيما اهتمام بوجهات النظر المشابهة في فلسطين

(120) انظر، على سبيل المثال، الآية السادسة والأربعين من الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين: «وقالت رفقة لإسحق مللت حياتي من أجل بنات حِث. إن كان يعقوب سيأخذ زوجة من بنات حِث مثل هؤلاء من بنات الأرض، فما نفع حياتي». وبهذا أثرت في إسحاق الذي (في الآيتين الأولى إلى الثانية من الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين) «دعا يعقوب وباركه وأوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان. قم واذهب إلى فَدَّان آرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك».

(121) لدينا قصة مميزة على غرار قصة بنات صُلفحاد اللاتي تزوجن من أبناء أعمامهن (أولاد إخوان الأب) في ما ذكر في الإصحاح الثاني عشر من سفر العدد، وهي قصة مِريم وهارون اللذين وقفا في وجه موسى وعارضاه بسبب زواجه من المرأة الغريبة (الأثيوبية). وقد نزل العقاب بمِريم بسبب هذا الظلم، على الرغم من أنها بينت لموسى المفهوم الصحيح للقومية، والذي يظهر بوضوح في الآية الثانية وما يليها من الإصحاح العاشر من سفر عزرا.

الحديثة؛ فالنساء الغريبات في أرطاس وفي القرى المجاورة يبقين على ولائهن لأوطانهن، ونزعاتهن وعاداتهن، وإلى هناك تنصرف أفكارهن، وإلى هناك ينتمين. ومن المحال، على أي حال، ألا تتأثر العائلة نتيجة لوجود عناصر فيها تنتمي لأماكن أخرى.

خريطة الزواج من غريبات

وتُظهر خريطة الزواج في أرطاس تنوعًا كبيرًا في ما يتعلق بزواج الغرباء؛ فهناك ما مجموعه 35 مكانًا أُخذت منه، أو أُعطيت له الزوجات، بيد أن نحو نصف هذه الزيجات في ما يبدو يرتبط بأناس في أماكن مجاورة؛ فقد سُجِّل 30 زواجًا من نساء من التعامرة، و20 زواجًا من نساء من بيت لحم، وتسع زيجات من نساء الخَضْر، و10 زيجات من نساء من الوَلَجة؛ أي إن ما نسبته 95.61 في المئة من مجموع الزيجات من غريبات في أرطاس كانت من نساء من هذه الأماكن. والأرقام التالية هي للزيجات التي سجلت بين نساء من أرطاس ورجال من الأماكن نفسها: 6 زيجات من بدو التعامرة، و13 زواجًا من رجال من بيت لحم، وسبع زيجات من رجال من الخَضْر، وست زيجات من رجال من الوَلَجة؛ أي إن ما نسبته 47.8 في المئة من مجموع الزيجات بين نساء من أرطاس ورجال غرباء كانت من الأماكن المجاورة.

ومع أن قلة من النساء يتركن أرطاس، عمومًا، فإنه يمكن القول إن هناك نسبة عالية من التزاوج ما بين أرطاس وبيت لحم التي ترتبط بأرطاس ارتباطًا وثيقًا من نواحٍ أخرى كذلك[122]. وتأتي الخَضْر في المرتبة الثانية في عدد الزيجات بعد بيت لحم، وهي أقرب جارة لأرطاس من الجهة الغربية، تليها الوَلَجة، ويمكن تفسير ذلك بأن الخَضْر قرية جديدة بناها أهل الوَلَجة، إلا أن أكبر عدد من الزوجات الغريبات في أرطاس هو من بدو التعامرة، جيرانهم في

(122) يأخذ الناس منتوجاتهم إلى السوق هناك، ومن هناك أيضًا يشترون معظم حاجياتهم. انظر أيضًا أعلاه في الصفحة 108، وأدناه في الصفحتين 148 و149 وما يليها من هذا الكتاب.

الشرق[123]. والزيادة المفاجئة في عدد الزيجات من نساء التعامرة لافتة للنظر، ويرجع ذلك جزئيًا، كما أشرنا سابقًا، إلى أن زواج رجال من التعمريات يعفيهم من الخدمة العسكرية، كما يعزى بعضه الآخر إلى أن الزواج من المرأة التعمرية أقل كلفة نسبيًا من الزواج من سواها. ومما يستحق البحث أن نرى إن كانت هناك في أماكن أخرى من فلسطين زيجات بهذه الكثرة من نساء لأعداء سابقين فقدوا مكانتهم القديمة. ولا بد أن نلاحظ أن هناك فرقًا كبيرًا بين عدد نساء أرطاس اللاتي تزوجن تعمريين، وعدد النساء التعمريات اللاتي تزوجن رجالًا من أرطاس. وفيما احتفظت بعض التعمريات بمكانتهن المميزة؛ لأنهن من عائلات قديمة ومعروفة، منها، على سبيل المثال، عائلة الزير[124] التي يوجد نساء منها في أرطاس، فإن نساء أرطاس يجدن في الزواج من رجال التعامرة هوانًا؛ لأن الأحوال هناك ليست على ما يرام. ولا بد من أن نتذكر أن جيران أرطاس إلى الشرق هم أشباه بدو[125]. وليس ثمة علاقات زواج بين الفلاحين في أرطاس والبدو الحقيقيين، باستثناء فتاة واحدة تدعى خضرة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]) تزوجت من شيخ بدوي، لم يلبث أن طلقها. كما ليس هناك علاقات زواج مع أهل المدن الحقيقيين؛ فالفواغرة - مسلمون من بيت لحم - الذين يتزاوجون مع أهل أرطاس، هم أشباه فلاحين.

وقد كنت أملت أن تتسنى لي متابعة علاقات تاريخية وسياسية وحضارية

(123) عندما عرضت على البروفيسور آلت خريطتي للزيجات من الغرباء، أدلى بالملاحظة القيمة الآتية: «الحقيقة اللافتة أن الغالبية العظمى من الزيجات من الغرباء في أرطاس - بدلًا كانت أم غير ذلك - كانت من القرى الواقعة إلى الغرب، أو الشمال، أو الشرق منها، وليس مع القرى الواقعة إلى الجنوب، وربما يتصل ذلك بكون أرطاس لا تزال واقعة في جبل القدس (منطقة القدس)، لكن بالقرب من حدها الجنوبي باتجاه جبل الخليل (منطقة الخليل). ويمكن، من ناحية أخرى، ربط ميل أهل أرطاس إلى قيس، بالصبغة القديمة لأرطاس كوقف للحرم الإبراهيمي في الخليل». انظر الحاشية الثانية أعلاه، في الصفحة 57 وما يليها من هذا الكتاب.

(124) في ما يتعلق بقصة ساف الزير، الشيخ ذي النفوذ، انظر: James Finn, *Stirring Times or Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853-1856* (London: C. Kegan Paul, 1878), p. 36, حتى إننا قابلنا في عام 1926 صبيًا راعيًا مع خرافه في الصحراء، فقال لنا باقتناع: «كل العالم يطيع الزير (كل الدنيا تحت الزير)».

(125) انظر كذلك الحاشية الرابعة أعلاه في الصفحة 59 من هذا الكتاب.

أخرى كثيرة بين أهل أرطاس والمناطق المختلفة مسترشدة بزيجات أهل أرطاس من الغرباء، وما زلت أرى أنها تمثل مفاتيح لفهم قضايا أخرى، ومنطلقًا لآفاق جديدة. وكنتُ اقتفيت آثارًا كثيرة ومهمة لقضايا اجتماعية أخرى، إلا أنني لم أتمكن من متابعتها تمامًا. ولا يمكن للباحث أن يحصل على نتائج حقيقية في هذا الجانب إلا إذا درس مجموعة من القرى؛ فهذه الدراسة قد وصلت هنا إلى نقطة تستدعي توسيعها لتشمل أكثر من قرية واحدة.

كيف يجدون العروس الغريبة؟

مع أنني أدركت أنه لن يكون بإمكاني المضي قدمًا في تحري الأسباب والتأثيرات التاريخية والثقافية الأكثر عمقًا لزواج الغرباء في القرية، فإنني لم أتخلَّ عن فكرة الحصول على شيء من المعلومات عن تلك المسألة، وقررت أن أتناول الأمر من جانب آخر، فسألت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «كيف يجد الرجل عروسًا غريبة؟»، فأجابت بإيجاز بليغ مستعينة بالمثل: «لا يلتقي الجبل بجبل آخر، ولكن الناس يلتقون بالناس (جبل عَ جبل ما بيلتقي أمَّا ناس عَناس بيلتقوا)». وكان هذا هو تمامًا ما أردت استقصاءه: ما ظروف الحياة اليومية التي تؤدي إلى الزواج بين أشخاص من أماكن مختلفة؟ وأحد أيسر هذه التفسيرات، هو أن الزيجات الجديدة تبنى على وجود زيجات سابقة بين عائلات أرطاس وعائلات من خارجها، لكن كيف حدث أن فتش الغرباء عن عرائس في أرطاس، وكيف حصل رجال أرطاس على عرائسهم من أماكن أخرى؟ إن مثل هذه الصور والمشاهد الحقيقية من الحياة اليومية بحد ذاتها، لا تقل قيمة عن المبادئ والتوصيفات ذات الطبيعة العامة التي يستخدمها الباحثون، والسؤال هو هل نستطيع أن نفهم هذه المبادئ والتوصيفات حقًا، بمعلوماتنا المنقوصة عن الحياة اليومية في الشرق، من غير هذه الإضافة القيمة؟

أما أولئك الذين جالوا في الشرق، فإن صورة الرجال الشرقيين وهم يشربون القهوة، ويدخنون، ويلعبون، راسخة في أذهانهم، كإحدى السمات المميزة للشارع الشرقي. وتطيب هذه الملذات كثيرًا لأهل أرطاس عندما

يذهبون إلى بيت لحم؛ فهناك يحصلون على أخبار عن العالم الخارجي، وفي بيت لحم ناس يقرأون الصحف، وهناك في المقاهي تناقش السياسة والأحداث في القرى المجاورة، ثم أن السياسات العائلية تُبحث هناك أيضًا؛ فكم من امرأة حسم مصيرها من خلال أحاديث كتلك التي تدور بين الرجال. وفي ما يأتي ثلاثة أمثلة منها عن عرائس المقاهي.

لأهل أرطاس، ومنذ زمن بعيد، علاقات زواج وطيدة مع الفواغرة، وهم مسلمون من بيت لحم. ولكن في عام 1926، وللمرة الأولى، تزوج رجل من عائلة عودة في أرطاس فتاة تلحمية من عائلة شختور. ويقال إن فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) التي كانت كبيرة السن آنذاك في نظر الفلاحين - نحو 25 عامًا - اختارت زوجها بنفسها، فقد لاحظته مرارًا لدى زيارته بيت لحم؛ حيث يأتي رجال من أرطاس كل يوم تقريبًا. وعندما يتعرف المرء إلى شخصيتها المفعمة بالحيوية، يمكنه بسهولة أن يصدق أنها كانت وراء الأمر كله، وإن كان لا يمكنها بالطبع أن تبوح بذلك علنًا. ومن هنا، تصف لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) مقدمات هذا الزواج.

«جلس عيسى خليل [11] ومحمد خليل [6] في المقهى، ثم جاء موسى شختور، وهو ابن عم فاطمة (زوجة موسى خليل [11]) فجلس إليهما. وتبادل الرجال الكلام، ثم بدأوا يتحدثون عن البحث عن عروس. وأرسلوا في طلب أخي فاطمة (زوجة عيسى خليل [11])، فجاء إلى المقهى وأخذهم إلى بيته، واستدعوا الشيخ شحادة، واتفقوا على مهر مقداره مئة جنيه إسترليني للعروس، من غير النفقات الأخرى»، وتشمل هذه النفقات حفلتي الخِطْبة والعرس، وثياب العروس.

وهناك امرأة أخرى جاءت من بتير لتتزوج رجلًا من أرطاس على نحو مشابه. قالت الست لويزا: «يأتي رجال بتير أيضًا إلى سوق بيت لحم؛ لأنه يمكنهم التسوق هناك بأسعار أرخص، كما أن بيت لحم تروق للفلاحين أكثر من القدس، لطابعها الريفي».

وروت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«حدث الأمر في بيت لحم. جلسوا (أي الرجال) في أحد المقاهي، وتحدثوا عن كل شيء. قال (رجل من بتّير) لسالم إبراهيم [90]: «لقد فوضني أبو فتاة أن أرتب زواجًا لها». فأجابه: «يا أخي! إن كنت مفوضًا، فتحدث بشأننا!» - «حسنًا! انظر إن كان [جواب أهلها] نعم أم لا!» - وكتب الله لذلك المسعى النجاح، عاملها الناس معاملة سيئة، فخلصها الله من ذلك، والآن بسببها باتت هنية (ابنة حسن إبراهيم [94]) في محنة»[126].

وعن العروس الثالثة روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «كان لجاد الله سليمان [26] زميل في الجيش من بيت صفافا، وبينما كانا يشربان القهوة، تحول الحديث إلى الزواج. وقال (الرجل من بيت صفافا): «أليس لديك فتاة صالحة تستطيع الترتيب لزواجها؟» فقال له: «بلى». فقال: «يا أخي فتش عن فتاة لي!» فقال جاد الله سليمان [26]: «أحمد جاد الله [21] عنده ابنتان»، فقال له: «تحدث إلى أبيهما في أمري»، فجاء جاد الله عودة [2] وتكلم مع أحمد جاد الله [21]، وأجابه الأخير: «ما زالت أصغر من أن تدرك كيف تحمي شرفنا بين الغرباء». قال جاد الله سليمان [26] لأحمد جاد الله [21]: «هل تعتقد أنهم سيلجمونها (كما يُفعل بالدب) ويحملونها على الرقص (لتسلي الناس)؟ أليس لديها حماة ستقوم على تربيتها؟»، وبهذا تقرر مصيرها (خليلية ابنة أحمد جاد الله [21])، وأخذها إلى (بيت صفافا). وبعد ذلك، تزوجت فضة عِثمان (ابنة عِثمان جبرين [77]) ومِريم درويش (ابنة درويش محمد [119]) وبنورة (ابنة خليل محمد [112]) في القرية ذاتها».

وأحيانًا تؤدي زيارات الحرفيين إلى أرطاس إلى زيجات. والبناء يتيح فرصة من هذا النوع؛ فالنساء، ولا سيما الفتيات الصغيرات، يساعدن الرجال؛

(126) عاشت فاطمة (زوجة سالم إبراهيم [90])، والتي تسمى في أرطاس فاطمة البتيرية، أرملة يتيمة في بيت عمها، وأساءت زوجته معاملتها. وهي الآن تعامل هنية (ابنة حسن إبراهيم [94]) بالطريقة نفسها. وهنية هي ابنة حسن إبراهيم [94]، أخي زوج فاطمة (زوجة سالم إبراهيم [90])، المقيم في أميركا. وقد غادرت زوجته مِريم (زوجة حسن إبراهيم [94]) أرطاس.

فهن على سبيل المثال يأتين لهم بالماء لصنع الجِص، وما إلى ذلك. وقد يلفتن انتباه معلم البناء، فيُسرُّ خياره في نفسه، إذا كان يريد زوجة له أو لابنه أو لأحد من أقاربه. وإذا وجد من يظن أنها تلائمه فإنه يتحرى عنها ليعرف طبيعتها وطبيعة أهلها. وهذا ما حدث عندما تزوجت فَضة عِثمان (ابنة عِثمان جبرين [77]) في بيت صفافا. وعن هذا تروي لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«جاء عيسى حمدان إلى أرطاس ليبني بيتًا لمحمد خليل [6]. وكان الناس يساعدونه، فرأى هذه الفتاة (فَضة ابنة عِثمان جبرين [77])، وقال: «لمن هذه الفتاة؟»، فقالوا له: «هي ابنة عِثمان جبرين [77]»[127]. وقال: «من أمها؟»، فأخبروه: «مدللة ابنة سليمان جاد الله [22]»، ورأى أيضًا أختها مِريم (ابنة عِثمان جبرين [77])، وهي من أم ثانية، صبحة (ابنة خليل شحادة [170]) وقال: «لمن هذه الفتاة؟»، فقالوا له: «لعِثمان جبرين [77]»، فذهب وسأل أخت خليلية (ابنة أحمد جاد الله [21]) (والتي كانت في ذلك الحين متزوجة في قريته بيت صفافا)[128]، وقال: «الكبيرة كبيرة جدًا على ابني»، وقالوا له: «إذا استطعت الحصول على الصغيرة، خذها».

كنا في ذلك اليوم قد هيأنا الشعير على سطح الإسطبل، وجاء عيسى حمدان، وقال: «السلام عليكم. بِكم العسل يا بائعة العسل؟» وقلت أنا (عليا ابنة إبراهيم عودة [1]) لمدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]): «مَن الرجل؟» قالت: «هو الذي يبني بيت محمد خليل [6]. [وأردفت قائلة] ليس هناك شيء آخر أفعله هنا، يجب أن أنزل». وأدخلته مدللة (زوجة عِثمان جبرين [77]) إلى بيتها، فوضع يده تحت رأسه كما لو كان نائمًا، ولكنه كان يراقب طوال الوقت. وقلت أنا (عليا ابنة إبراهيم عودة [1]) للفتاة: «انتبهي لما تفعلين، ذاك الرجل يراقب بعناية»، وليس نائمًا». وجهزت مدللة

---

(127) انظر أعلاه في الصفحة 84 من هذا الكتاب.

(128) يُقال عن رجل كهذا إنه يذهب في جولات خطبة، أو إنه يبحث. والرجل الذي «يسعى» هنا استعان بعلاقة القُربى بينه وبين خليلية (ابنة أحمد جاد الله [21])، وهي فتاة من أرطاس وصفنا في القصة السابقة كيف ذهبت إلى بيت صفافا، وتبعتها نساء أخريات.

(ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) وجبة له، فأكل وذهب إلى البيت. وذهب عيسى حمدان إلى أحد أصدقاء جاد الله سليمان [26] في بيت صفافا (وهو من سبق أن سأل صديقه جاد الله سليمان [26] عن عروس من أقاربه من أرطاس اسمها خليلية (ابنة أحمد جاد الله [21]))، وقال: «أود أن آخذ ابنة أخت جاد الله سليمان [26]». قال له: «خذها حتى لو كانت يداها تسوِّد الجدار».

ولكن بعد أن غادر، خطبوا فَضة عِثمان (ابنة عِثمان جبريل [77]) إلى مصطفى موسى [127]، ثم حدث ذلك الأمر مع مِريم (ابنة عِثمان جبرين [77]) (اشتبه بأنها حملت سفاحًا)، ففسخ مصطفى موسى [127] خطوبته من أختها.

وبعد ذلك أحضر مصطفى موسى [127] ذات يوم حملًا من الفاصوليا الخضراء إلى القدس، والتقى عيسى حمدان (الخاطب من بيت صفافا) ومصطفى [127] على الطريق عند طنطور؛ فقال له عيسى: «هل تزوجت يا مصطفى [127]؟» فقال مصطفى [127]: «لا لم نتزوج»، إذا كنت تريد خطبتها اذهب واخطبها» [فسأله]: «ماذا حدث؟» قال: «أختها كذا وكذا»، فقال عيسى: «هذا لا يهم، أختان من حبل سرة واحد: إحداهما عاهرة، والأخرى عفيفة (خوات تنتين من سُرَّة، وحده قحبِة ووَحدة حرة)»، ثم قال عيسى: «لا يهمني، سأترك العاهرة وآخذ العفيفة (بهمنيش بدشِّر إلقحبِة وبوخذ الحرة)».

والتقى (أقارب الطرفين) في مقهى بالقرب من بوابة يافا، وتكلموا، وبحثوا في الأمر، واتفقوا. وقُدِّر ذلك، وهذه هي النهاية، وأخذوا الفتاة، وعُقد القران في القدس، وعادت الفتاة إلى أرطاس، وذهب خالها علي سليمان [27] وأمها (مدللة ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) إلى بيت صفافا، وأخذوا مهر العروس.

وما إن دخل العريس بيت العروس قبل الزواج حتى ذهبت واختبأت، على الرغم من أنه مكث هناك يومين. وقالت أم العريس: «هي درهم حر» (درهِم منقود)، وفي يوم العرس ما إن دخلت العروس البيت، حتى زغردت الأم وغنت:

آ - ي(*)/ أنا لم أخطب لك يا شاطر (ما خطبتْلَك يا شاطر)

آ - ي/ لا صفراء ولا منتفخة (لا صفرة ولا متحولة)

آ - ي/ ولكن قمحًا مغربلًا (إلا قمح مغربل)

آ - ي/ من يدك إلى حلق الطاحونة (من إيدك لحلق الطاحونة)».

وقد قالت أم العريس هذا بالطبع؛ لأن الأمور لم تكن على ما يرام في عائلة العروس. فإذا كانت هناك فضيحة في العائلة، فإنهم قد ينتقلون إلى مكان آخر ليتجنبوا القيل والقال والقذف قدر الإمكان، أو في الأقل، حتى لا يذكِّرهم الناس بها طوال الوقت. قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) يومًا: «هل نعرف نحن في أرطاس ما يحدث على الضفة الأخرى لنهر الأردن؟»، وكذلك يصعب على الناس في الأماكن البعيدة أن يعرفوا ما يحدث في قريتنا؛ فقد أُسري بمِريم (ابنة عِثمان جبرين [77]) ذاتها المبغوضة في أرطاس سرًا كعروس إلى قرية الخَضْر المجاورة. أما في الأيام الخالية، فربما كان الناس قد قتلوها جراء ما فعلت(129)، ولكنهم الآن لا يجرؤون على إيقاع عقوبة كتلك بحق امرأة أساءت التصرف، خوفًا من الحكومة.

وجاءت فتاة من دورا بطريقة مشابهة لتلك التي ذهبت بها فَضَّة (ابنة عِثمان جبرين [77]) من أرطاس إلى بيت صفافا؛ فعندما كان سالم العبد (سليم مسلَّم [199]) في عام 1926 يبنى بيتًا له، جاء أقاربه لأمه من دورا، وهي قرية إلى الجنوب من الخليل، ليساعدوه في البناء من جهة، وليشاركوا بحفل إتمام العمل من جهة أخرى، ثم تعلَّق سليم مسلَّم [99] ببنت خالته الزنجية حتى إنه أخذها من الرجل الذي كانت مخطوبة له سنوات عديدة، كما روينا آنفًا(130).

«جاء محمد ابن رعدي (مرة ثانية) من الوَلَجةِ، ليعرض خدماته كبستاني، وهكذا عرف الناس ابنته صفية (زوجة إبراهيم عايش [82])».

(*) آ - ي هي اللازمة الصوتية المرافقة للزغاريد، ويُبتدأ بها عند كل شطر من الأشطر الأربعة للزغرودة، وهي تختلف من منطقة إلى أخرى [المترجمتان].

(129) انظر أيضًا أدناه في الصفحة 183 من هذا الكتاب.

(130) انظر أعلاه في الصفحة 115 من هذا الكتاب.

وتسنح المزيد من الفرص عندما يأتي ضيوف إلى القرية؛ فهم يجلسون في منتدى الرجال (الساحة)، حيث تسود أجواء المرح عندما يدعى الضيوف لتناول الطعام من خراف ومعز، ثم يتحدثون بكل سرور عن ترتيب الزيجات. وهكذا أصبحت خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]) زوجة الشيخ بدوي، أما عليا نفسها (ابنة إبراهيم عودة [1])، فتزوجت للمرة الثانية من ابن شيخ من صوريف بهذه الطريقة، وهذه روايتها:

«عُدت من بيروت (حيث كانت تعمل كمرضعة)، وبقيت في أرطاس أربعين يومًا. وكان الكوافنة[131] في السجن، ومروا بأرطاس عند خروجهم منه، وذُبحت لهم البهائم، خروف في الصباح وخروف في المساء. وفي الصباح أخذت سلة طماطم وذهبت إلى بيت لحم، واتفقوا دون علمي، ودفعوا لسعد إبراهيم [5] (وهو أخو عليا) 25 مجيديًا، باعتبارها الجزء الأول من المهر. وعندما عدت من بيت لحم، كانوا قد طبخوا لحمًا وأرزًا. وأحضرت لي صبحة (ابنة جاد الله عودة [2]) ابنة عمي، وزوجة أخي (سعد إبراهيم [5])، لحمًا تحت شجرة التين، وقالت: «أنت لا تدري يا أبا لا أدري (أي الشخص الذي يقول دائمًا لا أدري) وضعوا رأسك في القدر» (لا تِدْري يا أبو مَدْري حطُّوا راسك في القدرِه).

وبعد الخِطْبة لبثت في أرطاس أربعين يومًا، ثم جاء الكوافنة إلى أرطاس، ليأخذوا العروس».

قالت الست لويزا: «أُكرم الكوافنة بذبح الخراف؛ لأنهم كانوا ضيوفًا من ناحية، ولأنهم قدِموا من السجن من ناحية أخرى، فليس من العار أن يسجن المرء، والناس يقولون: «السجن للرجال»[132]، وسيقولون أيضًا: «لي قريب في السجن، أحبه، وهو قريب مني، يجب أن أزوره، لأسري عنه قليلًا»، وهو واجب جليل. وهكذا يجب أن تُفهم كلمات العهد: «كنت في السجن ولم تزرني»».

---

(131) أي أهل صوريف وبيت أُمَّر، انظر أعلاه في الصفحتين 127 و128 من هذا الكتاب.

(132) انظر المثل «الرجل لا يصبح رجلًا حتى يُسجن»، وهو مثل استشهد به ليز في: Lees, *Village life in Palestine*, p. 193.

وعرفت أنا بنفسي عندما كنت في أرطاس رجلًا (جودة إبراهيم [95]) سُجن لأنه تسلق حائط الدير، ليمنع القائمين عليه من أخذ المزيد من الماء من القناة؛ فقد كان لكل دوره في ماء القناة ولوقت معين ليسقي بستانه؛ لأنهم، كما زعم، أخذوا ماء لفترة تفوق تلك المسموح لهم بها. وخلال تجوالي كنت أصادف سعيد إبراهيم [96] كثيرًا؛ إذ كان يذهب إلى القدس كل يوم لزيارة أخيه في السجن. ولما أخلي سبيل جودة إبراهيم [95]، احتفلوا بذلك كل ليلة على مدى أسبوع كامل؛ فقد أولمت له كل عائلة بدورها، ونالت الست لويزا حصة من إحدى هذه الولائم، واعتاد الناس أن يفعلوا ذلك أيضًا عند عودة أحدهم من الخدمة العسكرية، أو من رحلة طويلة، كالحج إلى مكة، أو من رحلة إلى أميركا، على سبيل المثال، وتترقب تمام (زوجة سلامة عبد الله [196]) في أرطاس عودة ابنها من أميركا لتولم له.

قالت الست لويزا: «في الماضي، كانوا يفعلون هذا أكثر من الآن، كثيرًا ما كان يُنذر للسجناء (نذر للمحابيس). كانوا يحملون إلى السجن طبقًا كبيرًا من العدس (سماط أبونا ابراهيم)، حتى وإن لم يكن لهم أقارب هناك. وينذر المرء على النحو الآتي: إن تعافى ولدي، أو إذا عاد ولدي من أميركا، فسوف أطعم أولئك القابعين في السجن. وكان يعد أيضًا عملًا خيريًا؛ لأن الأتراك لم يطعموا السجناء ما يكفيهم. وإذا لم يعتن الناس بأقاربهم من السجناء، كان الأتراك يطلقون سراحهم أحيانًا؛ لأنهم وجدوا أن إطعامهم في السجن مكلف ومجهد».

وإذ يعد السجن شرفًا لا عارًا «السجن للرجال»؛ فذلك لأن الذي حكم على الفلاحين بالسجن هي سلطة أجنبية، لا قضاتهم هم؛ فالفلاحون لم يشاطروا الحكومة التركية نظرتها إلى العدالة. وكان لدينا في فنلندا شيء شبيه بهذا في ظل الاضطهاد الروسي.

وكما ذهبت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إلى صوريف، أتت فتاة من عجور إلى أرطاس، وعليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) هي من روت لنا هذا أيضًا:

«نفيسة (زوجة إبراهيم عايش [82]) تشبه الرجل، وليست امراة إلا بغطاء

الرأس (نفيسة زلمة ما هي مَرَة غير بالخِرقَة)، ولا أحد يعلم ماذا فعل عمها سعادة في قريته عجور؟ أقتل أحدهم أم اعتدى على امرأة؟ لكنهم أتوا به ليُشنق على شجرة زيتون عند جورة العناب[133]، والتي باتت تدعى بعد ذلك «زيتونة سعادة». وكان سعادة من الأعيان (من المحاسيب)، ورافقه أقاربه (إلى حيث شُنق)، وعند مرورهم بأرطاس، أتوا إلى الجامع حيث منتدى الرجال (الساحة). وكانت نفيسة (زوجة إبراهيم عايش [82]) مع النساء في بيت إبراهيم عايش [82] الذي وقعت عينه عليها، وقُدِّر ذلك (قِسِم النصيب) فتزوجها. كانت ضيفة، وباتت حصاة في فرن الطابون (بقت ضيفة صارت ارضيفة).

ويمكن لزيارات النساء إلى السوق أن تكون سببًا للزواج؛ فعندما يذهبن إلى السوق في بيت لحم بالحليب والخضروات وغيرها من غلال الأرض، يلاحظهن الرجال، وإذا ما وجد رجل هناك فتاة تعجبه يحاول أن يحصل عليها. ويبدأ بالتحري بالسؤال: ابنة مَن هي، أمتزوجة أم عزباء، وهل يمكنه أن يحظى بها؟ ويكون ردهم عندئذ: «نعم إذا كانت النجوم مواتية (إذا كان النجم إل-موافق)» أو شيئًا من هذا القبيل. وأحيانًا، يؤخذ رجل بجمال امرأة كبيرة، فيحاول أن يحصل على ابنتها لابنه، ظنًّا منه أن الفتاة ستكون شبيهة بأمها، وبهذه الطريقة ذهبت ابنة إبراهيم عايش [82] إلى لفتا. وأخبرتنا بذلك أمها صفية (زوجة إبراهيم عايش [82]) بنفسها، وهي لا تستطيع أن تنسى الخوف الذي ألَمَّ بها وهي تنحدر من التل إلى أرطاس برفقة رجل من لفتا، كانت التقت به في بيت لحم، عندما رأت أن زوجها كان يراقبها، ولكن تبين له في ما بعد، كما قالت، أنه جاء قاصدًا خطبة الابنة. وكما «جرَّت» خليلية (ابنة أحمد جاد الله [21]) وراءها فتيات أخريات إلى بيت صفافا، كذلك فعلت صبحة ابنة صفية (زوجة إبراهيم عايش [82]) التي «جرَّت» وراءها عددًا من نساء أرطاس إلى لفتا. وفيما بعد تزوجت فاطمة درويش (ابنة درويش محمد [119]) في تلك القرية. أما كيف ذهبت حمدة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]) إلى هناك بعد ذلك في خريف 1926، فسنأتي على ذكره لاحقًا.

---

(133) موضع في الوادي إلى الغرب من جبل صهيون بالقرب من القدس.

وفي سوق بيت لحم، بدأ نقاش تمخض عن ذهاب رحمة درويش (ابنة درويش محمد [119]) إلى صور باهر، ومجيء فتاة من صور باهر إلى أرطاس(134)، وتروي ذلك عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«كانت رحمة (ابنة درويش محمد [119]) تبيع في بيت لحم، وكانت أمها حِلوِة خلاوي (ابنة خلاوي [108]، وزوجة درويش محمد [119]) تبيع الخضروات هناك، فسأل الناس الأم: «أليس لديك ابنة للزواج؟» فقالت: «نعم»، (فأتبعوا ذلك بسؤالهم): «بالمال أم بالاستبدال؟» قالت: «نريد فتاة مقابل الأخرى» [فقال أحدهم]: «يدي في حزامك [إيدي بزنّارك]، ائتني بأخيها سريعًا» وعُين المقهى مكانًا للقاء. وذهبت إلى البيت وأخبرت ابنها محمد درويش [123]: «حدث كيت وكيت. التقِ به غدًا في المقهى»، [ثم قالت] (قال لي الرجل القادم من صور باهر): «لا تعرضي علي حصانًا ثم تعطينني حمارًا»، «وهذا هو الحال الآن. المقهى هو مكان اللقاء إن كنت ترى في ذلك خيرًا». كان هذا كلام حِلوِة خلاوي (ابنة خلاوي [108]، وزوجة درويش محمد [119]) لابنها محمد درويش [123]. وتقابل الرجلان في المقهى، وقُدِّر ذلك (قِسم النصيب). وقالوا: «إما أن تأتوا بالفتيات إلى السوق وإما نذهب إلى القرية»، فأجابوا: «سوف نأتي بهن إلى السوق، سنأتي غدًا إلى السوق». وجاء أهل صور باهر إلى بيت لحم، وذهب أهل أرطاس إلى السوق (هناك)، وتفحصت نساء أرطاس فتاة صور باهر، كما تفحصت نساء صور باهر فتاة أرطاس، وهكذا قُدِّر ذلك، وقالوا: «أحضروا البهائم يوم الأحد واذبحوها!». وفي الأحد الأول أعدوا وليمة الخِطْبة في أرطاس (طبخوا عليها)، وفي الأحد التالي في صور باهر، وفي الأحد الثالث اشتروا ثياب العروس. وفي تلك الأيام (أي قبل الحرب) كانت السوق في بيت لحم (لا تزال) تُعقد يوم الأحد.

وشعرت إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])

(134) وفي ما بعد تزوجت رحمة موسى (ابنة موسى درويش [124]، وهي ابنة أخي حمدة درويش (ابنة درويش محمد [119]) رجلًا من صور باهر.

بالغيرة، وقالت: «ابنتي كسلة طماطم، أثمن منها»، وقدموا لهم معمولًا وقطايف وكنافة».

وصرحت [عليا] بأن إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) كانت تريد أن تستبدل رحمة درويش (ابنة درويش محمد [119]) بابنتها. وبعد ذلك أحضر أهل صور باهر الكعك المحلى، وأخذوا الفتاة.

«وحُملت رحمة (ابنة درويش محمد [119]) على الجمل حتى باب الزقاق (حيث تتقاطع طريق القدس - الخليل وطريق بيت لحم - بيت جالا)، وجيء بفتاة صور باهر فاطمة (زوجة محمد درويش [123])، والتي كانت بديلة لها، إلى هناك، وأنزلنا العروسين وعدنا».

وكذلك يلاحظ الرجال النساء عندما يجلبن الماء من الآبار أو الينابيع. وهكذا تزوجت نساء كثيرات من الخَضْر في ما مضى رجالًا من أرطاس، عندما رأوهن وهن يجلبن الماء من عين صالح قرب برك سليمان إلى القرية، ولا يزال يحدث، عندما تشح المياه قبل أمطار الشتاء، أن تقطع النساء من الخَضْر المسافة كلها إلى أرطاس لجلب الماء من النبع في قريتنا. فهكذا، مثلًا، عثر محمد يوسف [149] على عروسه في عام 1925. وأخبرتنا شيخة (ابنة شاهين موسى [139]) زوجة عبد السلام إبراهيم [92] عن هذا: رأى العريس العروس عندما جاءت لنشل الماء من البئر، وقال: «أعجبتني». عندئذ ذهبت أمه ومحدثتنا [شيخة زوجة عبد السلام إبراهيم [92]] إلى الخَضْر لرؤية العروس. وأقرتا هما كذلك: «إنها أعجبتنا»، وقُدِّر ذلك. ودُفعت عشرة جنيهات إسترلينية، وهي الجزء الأول من المهر، وفي العام التالي دُفعت بقية المهر.

وليس شح الماء وحده، بل كذلك الجوع والعسرة يمكن أن يكونا سببًا في الزواج من أناس من أماكن أخرى. قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «كانوا يجوبون البلاد بسبب الجوع وعسر الحال قاصدة بذلك فَضَّة بنت الطورمان (زوجة عايش مِشاني [80])، والتي جاءت من نوبا إلى أرطاس[135].

(135) انظر أعلاه في الصفحتين 139 و140 من هذا الكتاب، في ما يتعلق بالطريقة التي «جرَّت» فيها قريبة لها من قريتها البعيدة إلى أرطاس.

وروت عن سارة مصلح (زوجة خليل إبراهيم [3]):

«لقد كانت سنة مجاعة، مجاعة عظيمة أهلكت الحرث والنسل. وجاءت عائلة من صوريف إلى طابون بيت أبي. وذهبت أمي، يرحمها الله، لتخبز، وكان فرن الطابون مليئًا بالناس. صباح الخير - صباح الخير - من أين جئتم - من صوريف. تفضلوا! وأعطت، بل الله أعطى، كل واحد منهم رغيفًا، وكانوا تسعة. وقالت أمي بعد ذلك: «يا عم، ألا تعطينا إحدى ابنتيك كزوجة هنا؟» فقال: «يدي في حزامك (إيدي بزنّارك) أنت ذئبهن (أي تستطيعين أخذهن)». قالت: «نريد الفتاة الكبيرة كي تساعدنا». عندئذ قال أبي: «هل هو عام مجاعة أم عام زواج؟» وأجابت زوجته: «نريد أحدًا ليساعدنا، العمل يقتلني! فالبيت كبير». وقالوا للرجل من صوريف: «أليس لكم كبير؟ (أي رجل يمكننا أن نتفاوض معه)»، فترك عائلته هناك، وأسرع فأحضر نوفل عدوان. وقُدِّر ذلك، وذهبوا لإحضار ثياب العرس لها ولإخوتها. حدث ذلك كله في أسبوع».

وترد في العهد القديم قصص تشبه هذه القصص حدثت في أيام القلة والجوع. وتشبه قصةُ فتاة من بيت فِجَّار تزوجت رجلًا من أرطاس قصة روث في العهد القديم.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

جاءت رَضَا (زوجة خليل محمد [59]) وعمها إلى حبيلة (خربة يملك أهل أرطاس أراضي فيها)، يتلقطون [بقايا غلال] الأرض؛ لأنهم كانوا فقراء، ثم راحت النساء تتحدث عن تزويج رَضَا (زوجة خليل محمد [59]). وهكذا نشأ التعارف من خلال اللِّقاطة «إلمعرفة من ورا إلصِّيافة»، ودُفع لهم للمساعدة في الحصاد، وكانت هناك مجاعة في البلاد آنذاك. وكان زواج خليل محمد في حبيلة في وقت الحرب، وكان ذلك في العام الذي غزا فيه الجراد البلاد (1915). وجاء علي محمد [58]، أخو العريس، لدعوتنا (فقد كنا في بيت سكاريا في أثناء موسم الحصاد) إلى حبيلة للعرس ولجمع الصواني والقدور والمغارف، وذهبنا إلى حبيلة ونحن نغني، وكان هناك رقص وأغاني أعراس، وأكلنا ثم أخذنا رَضَا (زوجة خليل محمد [59]) من سقيفتها إلى سقيفة

العريس. وكان وقت الحصاد، ولا يتزوج كثيرون في ذلك الوقت، وكان مهرها قمحًا وشعيرًا وملابس وصابونًا، وما إلى ذلك.

وجاء محمد سعد [15]، وهو من عشيرة العريس، في إجازة من الجيش، وقال: «أنا سأتكفل بعشاء العروس (عشا العروس علي)!» فقالوا له: «يا رجل أنت جندي! (ينبغي أن نسري عنك)»، فقال محمد سعد [15]: «ورأس أبي لن يتكفل بعشاء العروس أحد غيري». عندئذ أعدنا كل أدوات الطبخ إلى بيت سكاريا، ثم عدنا إلى أرطاس لنجد الجراد هناك، وقد أكل التفاح، والمشمش، والإجاص».

ولا تضطر النساء وحدهن إلى ترك بيوتهن في المجاعات وأوقات الشدة الأخرى؛ فقد يضطر الشباب أيضًا في ظروف كهذه للسعي طلبًا للرزق بين الغرباء، وهم يفعلون ذلك غالبًا بالعمل كرعاة، وهكذا كان لدينا في أرطاس صنوان ليعقوب [النبي] الذي عمل لقاء عروسه، وكان أحدهما رجلًا من بدو التعامرة.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«كان التعامرة يأتون بسبب الفاقة، جوعى وعراة، فيعملون لدى أهل أرطاس رعاةً، على سبيل المثال، بأجر أربعة أو خمسة جنيهات إسترلينية في العام، وطعامهم وكسوتهم. وهكذا جاء حسن أبو شَوريَّة إلى أرطاس، وقال لعمي جاد الله عودة [2]: «هلا عملت عندك مقابل إحدى بناتك؟» فقال له: «قبلت تشغيلك»، فقُدِّر له ذلك، وعمل عنده. وقال: «سوف آخذ خضرة (ابنة جاد الله عودة [2])»، وعمل ثماني سنوات من أجلها، ثم تزوجها. وأنجبت له خضرة (ابنة جاد الله عودة [2]) ولدًا أعمى! وكان كلاهما في المستشفى - بعيدًا عن السامعين! خرجا من المستشفى وماتا».

وعلى إثر موت زوجته، طلب الرجل عروسًا جديدة، وهي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، والتي أصبحت عروس (عطية القبر).

وبعدها: «عمل خمس سنوات أخرى مع أخي عليا خليل إبراهيم عودة [3]، وبعدها عمل ثلاث سنوات مع خليل شحادة [170] الذي خدعه. قال له خليل شحادة [170]: اعمل عندي ثلاث سنوات وسوف أزوجك، سأعد

الوليمة وأشتري ثياب العروس، ولكن عوضًا من المال أعطونا إيصالًا بثياب العرس. واختفى الإيصال والطفلة وأبوها».

هكذا أنهت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) روايتها عن نصيبها في شبابها؛ إذ هجرها زوجها ليعود إلى أهله، وطفلتها التي أنجبتها منه، والتي كانت تُدعى إطعيمة، ماتت بعد أسابيع من ولادتها.

وفي الحالة الثانية جاء شاب من حلحول، وعمل لقاء فتاة من أرطاس. وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«كان عبد النبي راعيًا لغنم وخراف أحمد جاد الله [21]، وبعدها قال له: «يا عم (يا عمي) أحمد (أحمد جاد الله [21])، ألا تعطيني إحدى بناتك على أن أعمل لقاء مهرها؟»، فأجاب أحمد جاد الله [21]: «هناك ثلاث فتيات، أنت ذئبهن، أي واحدة منهن تريد، سمِّها لي فقط»، قال: «أريد نجمة (ابنة أحمد جاد الله [21])، وسوف أكون راعيًا وأعمل لقاء مهرها». فأجابه أحمد جاد الله [21]: «اذهب وائتني بعمك حتى نوقع الاتفاق أمام رجال ذوي مكانة، رجال صالحين (أجاويد الله)». فذهب وجاء بعمه من حلحول، وهكذا حرروا الاتفاق (السند)، والذي قضى بأن من يفسخ الاتفاق، يدفع تعويضًا إلى شريكه. وعمل (سنواته)، وعندما أتمها تزوجها.

لقد كان يتيمًا، وسعى للعمل عند الناس لأن أمه تزوجت ثانية، فتركها وترك القرية.

وهكذا جاء إلى أحمد جاد الله [21]، وهو رجل من أرطاس كان يسكن في أرضه في بيت سكاريا، وكان آنذاك أبًا لثلاث بنات، ولم يكن له ولد، ومكث مدة طويلة مع حماه، ويقال إنه الآن في بيت جالا».

وتحملنا هذه الصور المباشرة من الحياة في الوقت الحاضر إلى أمر وثيق الصلة بمهر العروس، فبعض الروايات التي ذكرت آنفًا يمكن استخدامها أيضًا لإيضاح طبيعة الزواج بالعياض وبيانه. وسنتناول هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل القادم.

الفصل الرابع
الزواج بالعياض

تبادل عروس بعروس

في فلسطين، الزواج كثير التكاليف والنفقات؛ فلا تعدم أن تجد شابًّا يحلم بأن يجد عروسًا من غير عناء يتكلفه أو مَغرَم يدفعه.

وتبين الروايات التي دونتُها من أفواه الفلاحات في أرطاس أن للرجل أن يطالب أناسًا أوقعوا به ضررًا جسديًا أن يحصّلوا له عروسًا، وأن يتحملوا جميع النفقات المتعلقة بذلك، تعويضًا له عما لحق به من أذى؛ فلا يكون عليه، كما يقول المثل: إلا أن يرفع الخمار (بس يرفع جلالها)[1]. والحصول على عروس من دون مقابل، فكرة تروق جدًا للباحث عن عروس. وفي الحقيقة، فإن هذا الاحتمال يلوح أحيانًا، ولو للحظات قليلة، في أثناء المساومات التي تجرى لتحديد طلبات أهل العروس. والمثال الآتي الذي روته لي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) يمثل هذه الحالات خير تمثيل: التمس رجل (خليل محمد [112]) من أرطاس من عمه علي خلاوي [111] ابنته زريفة (ابنة علي خلاوي [111]) عروسًا لأخيه الأصغر (سالم محمد [115]).

«قال خليل محمد [112]: «ألا تعطيني زريفة (ابنة علي خلاوي [111])

(1) يشير هذا إلى ما يحدث في نهاية سلسلة احتفالات الخِطْبة والزفاف، عندما يأتي العريس إلى عروسه، في وقت متأخر من المساء، مشهرًا سيفه ليرفع به خمارها الذي غلّفها طوال النهار، حتى إن أحدًا لم يرها، ولا حتى العريس.

لِسالم محمد [115]؟» أجابه: «هي له (ترنّها أجتوْ)». فقال: «اتغليها علينا؟» فأجابه: «أقدمها لك من غير نفقة تنفقها!» لا ثوبًا يُجرُّ، ولا قرشًا يُصرُّ (لا هِدِم ينْجَر ولا قرش ينْصَر)».

وما قال الأب هذه الكلمات إلا من باب الكياسة، وما كان ليحملها أحد على محمل الجد[2]. وقد كنا صادفنا عبارات مشابهة في ما تقدم، عندما تحدثنا عن عادة خِطْبة البنت حال ولادتها؛ إذ تسمى تلك العروس تسمية لا تحمل اللبس: «أعطية». ولكننا وجدنا، وعلى الرغم من هذا الوصف للعروس بأنها «أعطية الحفرة» (عطية إلجورة)، بأنه لا ينبغي أن يُفهم من ذلك أن البنت تعطى حقًا زوجة للرجل على سبيل الهدية. ويسري القول نفسه أيضًا على نظير «أعطية الحفرة» المسمى بـ «أعطية القبر» (عطية إلقبر)[3]، وهو اسم يطلق على المرأة التي يعد أهلها بإعطائها للأرمل في يوم دفن زوجته الأولى، عندما ينزل إلى قبر زوجته في غمرة يأسه لفراقها «كما لو كان يريد أن يُدفن معها». وهذه أيضًا حالة خاصة، يَعد فيها الرجل أن يعطي إحدى قريباته – ابنته أو أخته في الغالب؛ الأمر الذي يضفي على فعله هذا سمة الهدية في ما يرى الفلاحون. وبهذا العزاء الذي يقدمه الحمو الجديد [أبو الزوجة أو أخوها] للأرمل يأسره أبد الدهر، كما لو كان محسنًا ذا منة عظيمة لا فكاك منها. ومع أن هذه العروس تعد هدية، فإن عليه أن يدفع مهرها. ولهذا، فإن للفلاحات الرأي ذاته في (عطية إلقبر) و(عطية إلجورة): «الهدية غالية.... الهدية تعد منةً إلى الأبد». وخِطْبة كهذه نادرة جدًا في الواقع؛ فثمة رجلان فحسب من أرطاس حصل كل منهما على زوجة كـ (عطية إلقبر)، وهما عبدالله عايش [81]، ومحمد اسْمَعين

---

(2) انظر الآية الحادية عشرة وما يليها من الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين. ونقيض هذا أن يعرض المتقدم لطلب العروس، لكي يظهر عظيم قدرها عنده، مبلغًا كبيرًا يُنقص منه شيئًا فشيئًا في ما بعد.

(3) هناك نظير ثالث لهذه «العطايا» نجده في القصة الآتية التي ترويها حمدية (ابنة سليمان سند [183]) لما يحدث عند الختان بين بدو التعامرة الذين تعرف محدثتنا الكثير عن حياتهم. «عندما يُقدَّم الولد للمطهِّر يقول: 'هوبر يا صنوبر، يا عمي أحمد'. فيقول له: 'قل يا بني! ولك ابنتي (أو ماشية، أو مال..)! اشهدوا أيها الحاضرون، أن ابنتي له!' فيقول أبو الولد: 'قبلتها!' ولا يُدفع مهر للعروس».

[53]. وأُعطيت اثنتان فقط من نساء أرطاس، وهما عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) وصبحة خلاوي (ابنة خلاوي مِشاني [108]) عروسين (عطية إلقبر) لرجلين من أماكن أخرى.

ويميز الفلاحون بين فئتين من عِياض العروس عند الزواج؛ فإما أن تكون العروس بديلة لعروس أخرى، وعندئذ يتكلمون عن عروس البدل، وإما أن يُقدَّم مهر (فيد) مقابل العروس(4). ولما كان أي من (عطية إلجورة) و(عطية إلقبر) لا يعفي من تبعات عياض العروس، يمكن أن تشكل هذه الحالات مجموعة خاصة ضمن الفئة الثانية. وهناك سبعون حالة من زواج البدل في أرطاس، أي ما نسبته 26.5 في المئة من مجموع حالات الزواج. في حين دُفع مهر لمئة وثماني وثمانين زوجة، كانت اثنتان منهما وحسب (عطية إلجورة)، واثنتان (عطية إلقبر). ولم يعطَ مهر في أربع حالات؛ لأن أبا العروس توفي من دون أن يخلف وريثًا ذكرًا (راح ورثه). وهناك حالة واحدة من زواج الخطيفة، وفي حالة أخرى ابتيعت الزوجة كأَمَة وزُوِّجت لعبد (عبد الله العبد [195]).

وأبسط شكل من أشكال زواج البدل هو تبادل رجلين لأختيهما: «خذ أختي وأعطني أختك» (خذ أختي واعطيني أختك!) هكذا يقول الرجلان أحدهما للآخر(5)، وفقًا لحمدية (ابنة سليمان سند [183]). ولا يهم من يقوم

---

(4) تلطفت الآنسة داوسن فلفتت انتباهي إلى النقاش الدائر في الوقت الحالي (1931) في: *Man: A Monthly Record of Anthropological Science,*

المتعلق بمصطلح «سعر العروس»، والذي يُعد عمومًا «غير لائق ومُضلِّل جدًا للقارئ»، انظر: *Man*, vol. XXXI, no. 234 (October 1931),

ولكن، لأننا لما نصل إلى اتفاق واضح على مصطلح ملائم، فقد استخدمت المصطلح القديم مع الإشارة إلى قناعتي بأنه غير ملائم. ويقترح البروفيسور والسيدة سليغمان في: *Man*, vol. XXXI, no. 85 (April 1931),

أن يستخدم [الباحثون الغربيون] عند كتابتهم عن الثقافة الإسلامية الكلمة العربية «مهر»، «لأنها معروفة، وتحمل دلالة شرعية دقيقة جدًا، حتى أن من الخطأ محاولة ترجمتها، ولا ينبغي، بكل تأكيد، أن تستبدل بكلمة أخرى». لكن محدثتيَّ لم تستخدما هذه الكلمة البتة، وإنما كلمة «فيد» فقط.

(5) يستشهد جوسان بصيغة مشابهة في: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris: [s. n.], 1908), p. 50.

بالتبادل؛ أهو العريس نفسه، أم أبوه أم أخوه، أم كبير العائلة نيابة عنه[6]؟! فذلك رهن بمن يقوم بترتيب الزواج الذي هو في واقع الأمر شأن عائلي، كما هو شأن فردي. وسواء تولى العريس أمر زواجه بنفسه، أم تولاه وكيل له، فإنه يقال في العريس بوجه عام: «كلٌّ يتزوج بأخته (أي بواسطتها)، تخرج واحدة، وتدخل أخرى (كُل مَنهُوْ بتجوز بُخْتِه، وَحَدِة بتطلع وْوَحَدة بِتخُش)»، أو يقال بصورة أكثر عمومًا: «كلٌّ لديه واحدة، تخرج واحدة، وتدخل أخرى (كُل مَنهُوْ إلو وَحَدِة، وَحَدِة بتطلع وْوَحَدِة بِتخُش)»؛ إذ لا تكون أخت الرجل هي دائمًا البديلة لعروسه.

على سبيل المثال، يقال عن الرجل العجوز الذي يزوِّج ابنته بنية الحصول على زوجة لنفسه: «الرجل العجوز أعطى ابنته، وأخذ عروسًا لنفسه». وفي أرطاس هناك ثماني حالات لآباء أعطوا بناتهم بالبدل، ولكن لم يحدث قط أن تبادل أبوان ابنتيهما، وإنما قد يعطي الأب ابنته لرجل ويأخذ أخت الرجل عروسًا له. وإذا كانت زوجته الأولى لا تزال في قيد الحياة، يُقال: «جاءتها ضرة من حبل سُرَّتها (ضُرِّتها من صُرِّتها)». ويعد هذا قدرًا مأساويًا للمرأة: أن تضطر إلى شراء امرأة تنافسها في زوجها بمهر ابنتها؛ «ذلك أمرٌ من المرارة» قالت ذلك عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ونحن نتحدث في هذا الموضوع ذات

---

(6) في ما يتعلق بمبادلة عروس بعروس في فلسطين انظر: Philip J. Baldensperger, *The Immovable East* (London: Sir Issac Pitman, 1913), p. 120; Elihu Grant, *The People of Palestine* (London, 1921), p. 54; F. A. Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p. 92; George Robinson Lees, *Village Life in Palestine* (London: [n. pb.], 1905), p. 117; H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» in: *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, IV. 2 (Leipzig, 1926),p. 225, and V. I p. 132; Charles ThomasWilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London: John Murray, 1906), p. 110,

وفي ما يتعلق بتبادل عروس بعروس في جزيرة العرب قديماً انظر: Julius Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 433,

«يجوز للوصيين أن يزوجا الموصى عليهما زواجًا بالبدل، عوضًا من أن يدفع كل منهما المهر للآخر». وفي ما يتعلق بتبادل النساء بين الناس في بلاد أخرى انظر: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, I. (London: Macmillan, 1925), p. 354ff.; James George Frazer, *Folklore in the Old Testament*, II (London: Macmillan and co, 1919), p. 104, 195, 205ff., 245, 254, 317, and R. H. Lowie,*Primitive Society* (London: Routledge, 1921), p. 16f.

مرة. ووفق ما ذكرت، فقد كان هذا حال أمها: «لو كنا نعلم عندما ولدت لنا هذه البنت بأنها ستجلب لنا ضرة، لما ربطنا حبلها السُّري عند ولادتها (يا ريت يوم أَجت هَل بنت لَ ذْرينا بِذْها تجيب إلنا ضرَّة كان أفلتنا صُرَّتها علْ جورة)»؛ أي إنها فضلت لو أنها رأت ابنتها تموت من فورها، بدلًا من أن تأتيها الضرة من خلالها. وجيء لثماني نساء من أرطاس بضرائر بهذه الطريقة، وامرأتان من أرطاس صارتا «ضرتها من ستها» لامرأتين من أماكن أخرى. وفي ثلاث حالات بادل الرجل ابنة أخيه بعروس له، في حالة واحدة أُبدلت الضرة بابنة العم، وفي حالة ثانية بأخت الأب (العمة).

وربما كان هناك للصيغة التي استشهدتُ بها للتو والقائلة: «كلٌّ لديه واحدة، تخرج واحدة، وتدخل أخرى» مغزى آخر، غير أن المرأة المستبدلة قد تكون امرأة أخرى سوى أخت العريس؛ فلا يقتصر تبادل العرائس دائمًا على رجلين وحسب؛ إذ قد يتبادل عدة رجال عروسًا بعروس. وحدثت في أرطاس تبادلات معقدة للنساء بقصد الزواج، بل هناك حالتان كان التبادل فيهما ثلاثي الأطراف(7).

الحالة الأولى: ثلاثة أزواج من إخوة وأخوات [يتكون كل زوج من رجل وأخته]، وهم أيضًا أولاد عم (أولاد إلعم) تبادلوا العرائس في ما بينهم. «لا نريد أن يذهب خيرنا إلى غيرنا» (بدناش نطلع خيرنا لغيرنا)، على هذا النحو فُسرت هذه الزيجات عندما اتفق الإخوان الثلاثة: سالم إبراهيم [90]، ومحمد إبراهيم [91]، وعبد السلام إبراهيم [92] على تبادل أبنائهم: علي سالم [102] وأخته عليا سالم (ابنة سالم إبراهيم [90])، وعبد الهادي محمد [104] وأخته حمدة محمد (ابنة محمد إبراهيم [91])، وعبد الرحمن عبد السلام [106] وأخته صفية عبد السلام (ابنة عبد السلام إبراهيم [92]). ونرى في الرسم التوضيحي الأول أدناه كيف تم ذلك، وتُظهر الأسهم أن كل عروس تدفع الأخرى إذا جاز التعبير، وهذا بالطبع نظريًا فحسب؛ فكل عروس تذهب مباشرة إلى بيتها الجديد.

(7) في ما يتعلق بالتبادل الثلاثي انظر الحاشية الأولى في الصفحتين 159 و160 من هذا الكتاب.

الحالة الثانية: ومن الواضح أنه يمكن فهم هذا التبادل بصورة مشابهة للتبادل السابق. والتفسيرات المختلفة التي قدمتها النساء لهاتين الحالتين مثيرة للانتباه؛ فقد قلن إن عِثمان جبرين [77] طالب بابنة عمه إطعيمة سالم (ابنة سالم عِثمان [67])، وبادل أخته سعدة جبرين (ابنة جبرين عِثمان [76]) بها، وأصبحت سعدة (ابنة جبرين عِثمان [76]) زوجة لمصطفى سالم [69] أخي إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]). غير أن إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]) لم تلائمه؛ لذا لم يحتفظ بها كزوجة له، بل تركها لمحمد خليل [171] بديلة لأخته صبحة خليل (ابنة خليل شحادة [170]) الذي تزوجها، بينما تزوج محمد خليل [171] إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]). وختمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ذلك بقولها: «وهكذا، جلبت إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]) عروسين لرجلين (عِثمان جبرين [77] ومحمد خليل [171])». وتختلف هذه الحالة عن سابقتها كذلك في أن فيها زوجين اثنين وحسب هما أولاد عم، أما الزوج الثالث، محمد خليل [171] وأخته صبحة (ابنة خليل شحادة [170])، فلا ينتميان إلى العشيرة نفسها.

الحالتان الثالثة والرابعة: وهناك أشكال أخرى ممكنة للتبادل؛ ففي الحالة الثالثة، ذهبت فاطمة مِحمد (ابنة مِحمد مِشاني [117]) من أرطاس من خلال تبادل ثلاثي إلى بيت لحم. وفي هذا التبادل ثمة زوجان فحسب من الإخوة والأخوات، بينما قدم الرجل الثالث إحدى قريباته البعيدات بدلًا لعروسه. أما في الحالة الرابعة، عندما بادل رشيد عبدالله [86] أخته يامنة (ابنة عبدالله عايش [81]) بزوجته نَزهة (زوجة رشيد عبد الله [86]) من بلدة الشيوخ، لم يأخذ أحد الرجال الثلاثة، وهو أخو نَزهة (زوجة رشيد عبدالله [86])، ابنة عمه بدلًا من أخته، بل أخذ قطعة أرض عِوضًا من ذلك. وهكذا، فإن الحالة الأخيرة ليست تبادلًا كاملًا بين ثلاثة أزواج.

وحصل بدل رباعي في الحالة الآتية: تزوج رجل وأبناؤه الثلاثة بزوجين من أخوين وأختين، وكان الزوج الأول أخ وأخت لأبي الزوج الثاني [عم وعمة للزوج الثاني]، ويبين الشكل أدناه ذلك:

أخ وأخت	عبد خلاوي	خليل عودة	أب
	ذبلة خلاوي	محمد خليل عودة	ابن
أخ وأخت	خليل محمد خلاوي	صبحة خليل عودة	بنات
	حمدة محمد خلاوي	فرحة خليل عودة	

وعن هذا تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«زوَّج محمد خلاوي [109] ابنه خليل [112] بمبادلة ابنته حمدة (ابنة محمد خلاوي [109]، وزوجة محمد خليل [6])، وزوَّج خليل إبراهيم عودة [3] ابنه محمد [6] بمبادلة ابنته صبحة (ابنة خليل إبراهيم عودة [3]، وزوجة عبد خلاوي [110])، وأخذ ذَبلة (ابنة خلاوي مِشاني [108]، وزوجة خليل إبراهيم عودة [3]) عروسًا لنفسه، وهكذا كان هذا زواجًا رباعيًا. [وكان هناك] ثلاثة جمال، وحصان لحمدة (ابنة محمد خلاوي [109]، وزوجة محمد خليل [6]) وحميُّها؛ إذ كانت العروس الرابعة، حمدة (ابنة محمد خلاوي [109]، وزوجة محمد خليل [6])، لا تزال صغيرة، فركب هو وجلست هي أمامه. في تلك الليلة تركنا خليل إبراهيم [3] وذَبلة (ابنة خلاوي [108]، وزوجة خليل إبراهيم [3]) وحدهما. ونامت زوجته الأولى سارة (زوجة خليل إبراهيم [3]) وأولادها في الخارج؛ فقد كان ذلك في فصل الصيف، موسم التين والعنب، «بِساط الصيف واسع (بْسَاط إلصّيف واسع)»».

وفي ما يأتي مثال آخر لتبادل رباعي بين ستة أفراد (خمسة أولاد عم وعمتهم) من عائلة شحادة من أرطاس، وفردين (أب وابنته) من عائلة من حلحول.

		محمد أحمد خليل شحادة	أخت وأخ	أولاد إخوة
		فَضَّة أحمد خليل شحادة		
		فاطمة إبراهيم خليل شحادة		
ابنة وأبوها	محمد	خليل محمد خليل شحادة	أخوة	
		محمود محمد خليل شحادة		
	خديجة محمد	جِلوة خليل شحادة		عمة

وكان الرجال الذين تبادلوا العرائس إما أقارب من العشيرة نفسها، وإما من عشائر مختلفة، وإما من أماكن مختلفة، وفي حالة واحدة كانوا أبناء لأمهات بدائل.

ولتبادل العرائس مزايا ومساوئ[8]. يقول المثل: «رأسٌ برأس لا يسبب ألمًا» (راس براس ما بوجِع ولا راس)، ويكون هذا القول أصدق ما يكون، إذا كانت العرائس المتبادلة متساوية في القيمة «في العمر والقدر». ويختلف الأمر تمامًا إذا ما قيل: «استبدل السَّخْلَة بنخلة (بدَّل السخلِة بنخلِة)». وفي هذا القول ما فيه من النقد؛ فهو يشير إلى أن إحداهما أكبر قدرًا من الأخرى؛ إذ لا يمكن أن نقارن طفلة بصبية ناضجة. ويواسون أنفسهم بالقول: «الصغير ينضج والكبير يلتوي» (الزّغير بِسْتْوي والكْبير بِلْتْوي)؛ أي إن لكلٍّ وقته للنضج والتطور، ويكون الأمر أكثر حرجًا إذا استبدلت عروس كبيرة جدًا في عرف الفلاحين بفتاة صغيرة.

(8) يقول السيد تابلين (Taplin) إن في عرف قبائل نارينياري في جنوب أستراليا «يعد زواج المرأة من رجل لم يقدم مقابلها امرأة أخرى عارًا». (استشهد به ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, p. 355).

ويشير السيد إيبتسون (Ibbetson) إلى أن أهل شرق البنجاب يرون في «تبادل العرائس عيبًا، وإذا رغب أحدهم به، فينبغي تنفيذه من خلال تبادل ثلاثي: خطبة مع ب، وب مع ج، وج مع أ» (استشهد به ويسترمارك أيضًا في الصفحة 357 من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه سابقًا).

تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «عندما يجري البدل بين امرأة كبيرة وأخرى صغيرة، لا يدفع مال أكثر للمرأة الصغيرة إن كان أهلها طيبين: «اللحم لا يوزن (إللحم ما بِترَطَّلِش)». أما الفتاة الكبيرة؛ فابنها في رحمها [أي أنها قادرة على الإنجاب]، كما أنها تعمل. مِريم (ابنة إبراهيم عودة [1]، وزوجة سليمان جاد الله [22])، وصبحة (ابنة جاد الله عودة [2]، وزوجة عبد الله إبراهيم [4]) كانتا بنتي عم وبديلتين، مِريم (ابنة إبراهيم عودة [1]، وزوجة سليمان جاد الله [22]) أنجبت طفلًا بعد تسعة أشهر، وصبحة (ابنة جاد الله عودة [2]، وزوجة عبدالله إبراهيم [4]) التي كانت لا تزال صغيرة، بقيت نحو ست أو سبع سنين قبل أن تنجب، «اللحم لا يوزن».

- قام الجمل الصغير بالناقة الأم «(قام إلقعود بالنَّاقة)».

ويزداد الأمر سوءًا إذا لم تكن المرأة البديلة كبيرة جدًا وحسب، بل أرملة أيضًا، ويتجنب الناس إجراء تبادل من هذا النوع ما أمكن ذلك. وفي هذا الصدد، سخرت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) مرددة:

«أبو صايمة مشيه عجبا	(أبو صايمة مَشْيَه عجب
بدَّل البنت بالعزبا[9]	بدَّل إلبنت بالعزب
أحمد جبر يا معقوف الأنف	أحمد جبر يا بعبوز
بدَّل الفتاة بالعجوز!»[10]	بدَّل البنت بالعجوز)

ووفقًا لما قالت الست لويزا، لا تنظر النساء البديلات إحداهن إلى الأخرى بمودة؛ فكل منهما تعتقد أنها أكبر قدرًا من الأخرى، كما تقارن إحداهن الأخرى وتراقبها مراقبة حثيثة في ما يتعلق بعدد الأطفال الذين تنجبهم الأخرى. ومع أن فاطمة علي (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) جميلة جدًا،

(9) أبدل محمد إلحاج من حلحول ابنته صغيرة السن خديجة (زوجة محمود محمد [177]) مقابل أرملة أحمد كنعان [181] حِلوِة خليل (ابنة خليل شحادة [170]). انظر أعلاه في الصفحتين 159 و160 من هذا الكتاب.

(10) أبدلت مِريم (ابنة أحمد جبر [160]، وزوجة جودة سعيد [161]) بفَضَّة سعيد (ابنة سعيد أحمد [157]، وزوجة أحمد جبر [160])، انظر أعلاه في الصفحة 86 من هذا الكتاب.

حتى إن زوجها ليصرح، في الغالب أقلّه، بأنه لا يبالي بأن ليس لها أولاد، إلا أن أهل القرية يعلقون بأن ابنة علي خليل [173]، وهي بديلة فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) (إبدِلِتها) لديها الآن أطفال عدة، ومن المؤكد أن هذا يؤلم فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])؛ لأنها أقل شأنًا في هذا الجانب من ضرتها؛ أي أم المرأة التي أبدلت بها. وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن حالة أخرى: أنجبت خديجة (زوجة محمود محمد [177]) بنينًا وبناتٍ، بينما ليس لبديلتها حِلوِة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170]، وأرملة أحمد كنعان [181] سابقًا، وزوجة محمد إلحاج حاليًا) بنين ولا بنات «قطعت الحيض والبيض»[11]، ولكن لحِلوِة (ابنة خليل شحادة [170]، وأرملة أحمد كنعان [181]، وزوجة محمد الحاج حاليًا) بيت، وحبًا في البيت والأملاك تزوجها محمد الحاج بديلة لابنته الصغيرة خديجة (زوجة محمود محمد [177])، هذا كان تفسير عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) للأمر.

ويمكن لتبادل العرائس أن يجلب المتاعب للرجل أيضًا؛ حيث يقول الناس: «البدائل ضرائر (إلبدايل ضراير)»، أي إنه ينبغي معاملتهن بالمثل؛ فإذا امتنع رجل أبدل أخته بزوجته عن تقديم الهدايا المعتادة في العيد الكبير لأخته، فسيكون على يقين من أن أخا زوجته سيتوقف هو أيضًا عن تقديم الهدايا المعتادة لها. وإذا ما استاءت يومًا وتركت زوجها مغضبة (حردانة)، فإن للأخير أن يطالب بعودة أخته في المقابل. وقال علي خليل [173]، وهو مدير أعمال لويزا بالدنسبيرغر، عندما سُئل عن هذا الأمر: «إن كانت على وفاق مع زوجها فإنها لا تغادر البيت»، لكن النساء أخبرنني عنه نفسه أن زوجته فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) اغتاظت ذات مرة وتركته مغضبة، فأجبر ابنته التي كانت بديلة لها أن تترك بيت زوجها مهددًا بأن لا يدخل بيتها أبدًا إن لم تفعل (قطيعة)، وهذا من أسباب تجنب التبادل المباشر للعرائس؛ لأنه يحد من حرية الرجل.

(11) أحد التعابير الدالة على العمر، انظر أعلاه في الصفحة 82 من هذا الكتاب.

وتذكر الأدبيات ذات العلاقة أن الحافز إلى زواج البدل هو مزاياه الاقتصادية(12) التي يفترض أن صفقة كهذه تتيحها؛ إذ يقال إن الرجل يتفادى بهذه الطريقة دفع مهر العروس، وهذا هو واقع الحال بكل تأكيد، بيد أنه ينبغي عليه مع ذلك أن يشتري جهازها(13).

وتقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «ليس عليه من النفقات سوى جهاز العروس. أما الجانب الاقتصادي، فلا يتمثل إلا بأنَّ عليَّ أن أكسو عروسي، وكسوتها ستعود في كل حال إلى بيتي؛ فلماذا أعطي مالي للآخرين؟»

وتفسر الست لويزا هذا الأمر على النحو الآتي:

«حتى في البدل، يفضل الرجل أن يكسو عروسه بنفسه، خشية أن يعطي أخته شيئًا أثمن مما قد تحصل عليه عروسه من أهلها. وإذا ما أعطى عروسه شيئًا أفضل، فإنه يعود إلى بيته، أما إذا أعطى أخته شيئًا أفضل مما تحصل عليه عروسه، فإن ذلك يذهب إلى بيت غريب».

ويتحرى الناس في هذه المسألة الدقة الشديدة، آخذين بالقاعدة الأساس القائلة: المثل بالمثل، ويحرصون حرصًا شديدًا على أن لا تصيبهم في هذه المسألة أي خسارة.

---

(12) يمارس الفقراء في فلسطين التبادل، كما جاء لدى: Lees, *Village Life in Palestine*, p. 117, and Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 110,

في ما يتعلق بتبادل عروس بعروس كتدبير اقتصادي يهدف إلى توفير مهر العروس انظر: Westermarck, *The History of Human Marriage*, II, p. 358,

ويشير فريزر إلى الميزة الاقتصادية لتبادل النساء في الزواج في: Frazer, *Folklore in the Old Testament*, II, p. 210ff.,

ويعرض أمثلة كثيرة من شعوب وبلاد مختلفة، ويحاول تفسير أصل العادة، في الصفحة 220 من المرجع المشار إليه سابقًا، كالآتي: «يبدو إذًا، وبوجه عام، أن تبادل البنات أو الأخوات للزواج كان أول الأمر واقعة مقايضة بسيطة، وأن منشأها كان في الطور الأسفل من الفترة البدائية [Lower Savegery Period]، إذ كان للمرأة قيمة اقتصادية عالية كيد عاملة، بينما كانت الملكية الفردية لا تزال في مهدها، حتى إن الرجل لا يكاد يجد ما يقدمه مقابل الزوجة سوى امرأة أخرى».

(13) انظر أيضًا: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» in: *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, V. I, p. 92, and Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» in: *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, IV. 2, p. 255; V. 1, p. 132.

ولا تتميز عروس البدل من سواها من العرائس في ما يتعلق بنفقات بثياب العرس، وإن كان يمكن القول إن كلفة الزواج يمكن أن تكون أقل إذا كانت العروسان البديلتان من القرية نفسها؛ إذ يمكن الاحتفال بالعرس بولائم مشتركة. ومع أن زواج البدل يجنب الرجل دفع المهر، وقد يكون باستطاعته التقليل من تكاليف ولائم الخِطْبة والعرس، فإنه من غير الأكيد أن زواج البدل هو الأفضل للرجل من الناحية الاقتصادية.

المردود الاقتصادي يكون هو نفسه على الرجل إذا ما أعطى الرجل عروسَه المهرَ الذي قبضه مهرًا لأخته، أو ابنته، أو أي امرأة أخرى من أقاربه الأقربين، فالكثير من زيجات المهر تكون في الواقع زيجات بدل مستتر كالتي وصفناها[14]. والقاعدة التي يأخذ بها الناس في الزواج هي: «مهر هذه (العروس) بمهر تلك (العروس) (فيد هادي في فيد هادي)»، ويقولون أيضًا: «كلٌّ لديه واحدة يتزوج بها (أي بواسطتها) (كل مَنْهُو إلوْ وَحَدة بتجوَّز فيها)». ويمكن، وإن لم يكن لزامًا، أن يشير هذا إلى أن بعض الرجال يرغبون في تبادل العرائس. وقد تشير مقولة «زوَّج ابنه بابنته (أي بواسطة ابنته)» إلى البدل، أو قد تعني أنه قدم مهر ابنته لعروس ابنه. ويقول الأخ عن أخته «سأزوِّج نفسي بها»، أي بمهرها. وقيل في جاد الله عودة [2] «تزوج الأخ بأخته»؛ إذ بادل أخته نجمة بعروس من الخَضْر، ثم قيلت مرة أخرى: «تزوج الأخ بأخته» في جاد الله عودة [2] نفسه عندما تزوج ثانيةً وقدم مهر (فيد) أخته تمام مهرًا لزوجته الثانية. ويقولون: «زوَّجت الأخت أخاها»، ويقصدون الشيء نفسه، وهو أنه حصل على زوجة لنفسه بمهرها. وفي كثير من الأحيان يمكننا أن نجد سلسلة كاملة من تبادل مهر عروس بمهر عروس. ومن أمثلة ذلك: أعطى مصطفى جاد الله [18] مهر عروس ليامنة (زوجة محمد عبدالله [25]) ليحصل على ابنتها فاطمة (ابنة محمد عبدالله [25]، وزوجة محمد مصطفى [23]) عروسًا لابنه محمد [23]. وفي الحال أعطت يامنة (زوجة محمد عبدالله [25]) المال

(14) انظر كلاين في الصفحة 92 من المرجع المشار إليه أعلاه: «وليس من النادر أن يتزوج أخ 'بثمن أخته' (بحق اختوْ). ولا تجد الأخت غضاضة في ذلك؛ فهي بهذا تقدم خدمة عظيمة لأخيها...».

نفسه (فيد) إلى علي سليمان [27] لتحصل على ابنته سارة (ابنة علي سليمان [27]، وزوجة محمود محمد [29]) عروسًا لابنها محمود [29]. وعلى الفور سلَّم علي سليمان [27] المال نفسه (فيد) لابنه (محمود علي [30]) ليتزوج به. وتصح مقولة «زوَّجت الأخت أخاها» على جميع النساء المعنيات بهذه الحالات، وهذا يشبه التبادل المتعدد من وجوه عديدة.

وينزع المرء إلى عد كثير من حالات مهر العروس حالات لزواج بدل مستتر، لكن النسوة عارضن بشدة أن يسمى زواج المهر بدلًا، وقلن: «رأس برأس، شعر بشعر، لازم لزواج البدل» (راس براس شوشة بشوشة[15] هذا بدايل).

مهر العروس

قد يُدفع مهر العروس إما عينًا، أو خدمةً، أو نقدًا.

ويقول أحد الأمثال:

«لا يحمي شرف المرأة مثل الأرض» (ما بسد في العرض إلا الأرض).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «كان مهر لطيفة عايش (ابنة إبراهيم عايش [82]) بستانًا. وقد ماتت، ولكن الأرض ما زالت تنتج المحاصيل». وكان مهر سارة (ابنة اسْمَعين سعد [51]، وزوجة خضر إحْسين [40]) أرضًا، وقد تمتعوا بغلالها لسنوات عدة، وهي تساوي الآن 150 جنيهًا. وأصرَّت الأرملة زريفة أحمد (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة موسى سعد [13] سابقًا، وإسْمَعين سعد [14] حاليًا) أن تسجل قطعة الأرض التي كانت مهرًا لها باسمها. وتلقى أحمد كنعان [181] كرم عنب مهرًا لأخته حليمة (ابنة كنعان [180]، وزوجة سعد إبراهيم [5])، وهي الآن ملك لأرملته حِلوة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة أحمد كنعان [181] سابقًا). أما حمدة درويش (ابنة درويش محمد [119]، وزوجة رشيد موسى [142] سابقًا، وسليم موسى

(15) خصلة طويلة من الشعر تُترك في مؤخرة الرأس المحلوق.

[143] لاحقًا)، فكان مهرها جملًا، وهذا كثير؛ لأن الجمل يكفي لتعتاش منه عائلة بأكملها، وفي موسمي المشمش والتين يُدفع المال الناتج عن بيع الفاكهة مهرًا للعروس.

ومن المعروف في أرطاس أن الرجل يمكن أن يرعى الأغنام، إذا لم يتوافر معه ما يكفي من المال(16)، كالحالتين اللتين تقدم ذكرهما(17)، وهناك حالة ثالثة؛ إذ عمل موسى سالم [71] راعيًا مقابل صبحة عِثمان (ابنة عِثمان جبران [77]، وزوجة موسى سالم [71])؛ فبعد وفاة أبيه لم يجد مالًا، ولهذا عمل راعيًا لقاء صبحة، بينما تكفل إخوته بتكاليف الولائم والنفقات الأخرى المرتبطة بالعرس.

ويمكن في هذا السياق أن نذكر مثلًا بدويًا استشهدت به عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، يقول فيه الراعي: «خدمت سبع سنين ولم أفطم سخلة حتى الآن». وعلقت الست لويزا وعليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على ذلك بالقول: «نسي لفرط حبه أن يقوم بواجبه كراعٍ». ورفض إلياس حداد هذه النظرية، وفسرها بقوله إن الراعي لم يحصل على أي أجر على تعبه؛ لأنه كان يعمل من أجل الحصول على زوجته.

ويدفع المهر عادة بالمال، وهذه بالتأكيد أيسر السبل لقياس قيمته، والمهر المدفوع بالمال يثير الانتباه؛ لأنه يمكن للباحث أن يتبين من خلاله التفاوت في المهور بسهولة كبيرة. ولا بد من التنبيه إلى أن الاختلافات في المهور تتبع قواعد مضبوطة، وستكون مهمتنا الآتية أن نستعرض المبادئ والأحكام التي تستند إليها هذه الاختلافات.

هناك فرق واضح بين مهر الفتاة ومهر الأرملة، وتعجبت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) من ذلك ذات مرة قائلة: «ما أزهد «فيد» الأرملة وما أغلى «فيد»

---

(16) يشير البروفيسور ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, II, p. 373, إلى أن مثل هذا العمل يُفهم في كثير من الحالات على أنه من باب إظهار العريس لقدرته ولياقته. في ما يتعلق بحصول الرجل على زوجة من خلال العمل انظر: Frazer, *Folklore in the Old Testament*, II, p. 342ff.

(17) انظر أعلاه في الصفحتين 152 و153 من هذا الكتاب.

الفتاة!»[18]، والسبب في ذلك أنهم يرون أن «للأرملة نصف قيمة الفتاة (الأرملة نُصْية)». وفي عرس إحدى الأرامل احتُفل بالخِطْبة والعرس بوليمة واحدة. والأرملة أقل شأنًا عمومًا: فلها نصف المهر، ونصف الثياب، ونصف الاحتفال.

وهذه الكلمات الأخيرة قالتها عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في معرض الحديث عن زواج رجل من أرملة أخيه، وذلك لأن العائلة نفسها تتجشم النفقات مرتين من أجل المرأة ذاتها، وليس كما لو أن الأرملة تزوجت في عائلة جديدة. ولدى توثيق الحالات المختلفة، لم أقع على تطبيق صارم للقاعدة المذكورة أعلاه المتعلقة بالحط من شأن الأرملة مقارنة بالبكر. وبات من العسير جدًا أن نحكم على هذا الأمر الآن؛ فظروف الحياة والمِلكية تغيرت كثيرًا، حتى إنه قد يُدفع لأجل المرأة ذاتها، كأرملة أو مطلقة، مهر أغلى من مهرها عندما كانت عروسًا بكرًا. وإذا نظرت في قوائم العائلات التي أعددتها، فإنك لا تجد فارقًا يلفت النظر بين مهور الأبكار والأرامل. ومع ذلك، فمن الطبيعي أن يكون مهر الأرملة أقل بعض الشيء، إذا ما تذكرنا المكانة الكبيرة للعروس البكر عند الناس، كما أن الاحتفالات في عرس الأرملة أكثر بساطة[19].

وقد يكون هناك فروق فردية أيضًا تؤدي إلى التفاوت في المهور؛ فجمال الفتاة، وحسن خلقها، ومنبتها المميز، مدعاة للتنافس فيها، الأمر الذي يغلي مهرها[20]، بيد أنه لا ينبغي للمرء أن ينظر إلى (الفيد) على أنه ثمن لجمال المرأة.

---

(18) انظر: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 110,

«في الحالات التي لا يملك فيها الرجل مالًا، أو لا يكاد، أو أنه لا يستطيع اقتراض ما يكفي ليدفع مهر فتاة بكر، فإنه يتزوج أرملة؛ لأن ذلك يتطلب مبلغًا أقل بكثير، ولا سيما إن كان لها أطفال». ويقول لين في: E. W. Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 218, 239,

إن مهر الأرملة أو المطلقة أقل بكثير، وهو بوجه عام، ربع، أو ثلث، أو نصف ما للبكر. انظر كذلك ويسترمارك في الصفحة 384 من المرجع المشار إليه سابقًا: «تحظى البكر أو الفتاة بوجه عام، ولكن ليس دائمًا، بمهر أفضل من الأرملة أو المطلقة».

(19) انظر لين الذي يقول في الصفحتين 215 و239 من المرجع المشار إليه سابقًا، إن الأعراس في القاهرة تقام في احتفال صغير، إذا كانت العروس أرملة أو مطلقة.

(20) يقول كلاين إن المهر يتفاوت تبعًا للطبقة الاجتماعية للعائلات وثرائها، وتبعًا للصفات =

ويقل احترام الرجل لزوجته إذا ما دفع لها مهرًا قليلًا. ويقول زوج زريفة (ابنة سعد إبراهيم [5]، وزوجة علي خليل [10]) لها: «سعرك سعر حمارة، ولا يهم إذا مِتِ (حقّتش حق إحمارة إن مُتّ ما فِش مِخْسَر)!». والزوجة التي دُفع لأجلها مهر كبير، لها بطبيعة الحال مكانة أكبر؛ فإذا ما تجشم الرجل الكثير للحصول عليها، يكون أشد حرصًا عليها فيما بعد. وتعلق الست لويزا قائلة: «يقولون يوم العرس في حالة كهذه: بارك الله في جَمَلك! خوفًا من أن يسقط الجمل الذي يحمل العروس، أو أن يفقد توازنه فتتأذى هي».

ومع ذلك، فليس في مصلحة الرجل أن تكون له زوجة قليلة القدر؛ لأن ذلك سينعكس عليه في هذه الحالة؛ فهو يود أن يكون لزوجته أكبر قدر ممكن من الاحترام، ولو من باب التفاخر وحسب، ويسري هذا بدرجة أكبر على أقرباء المرأة الأقربين؛ فباعتزازهم بقدرها، يكونون أشد حرصًا على شؤونها، وشؤون عائلتها معها. ولهذا، فمن سوء طالع المرأة أن تكون «مقطوعة» (قطيعة)؛ أي أن لا يكون لها قريب من الرجال يرعى قدرها؛ فإذا كان لها أب أو أخ، فإنه سيعمل بكل تأكيد على أن يكون لها مهر يليق بها؛ فعلى الرغم من أن مهور العروس تتباين كثيرًا، فإن ذلك يكون تبعًا لمعيار ثابت.

وتتغير المهور بتغير ظروف الحياة؛ فمن الطبيعي أن تتباين من وقت إلى آخر. ولما كان للمال قيمة مختلفة كثيرًا في ما مضى، فقد كان المهر أقل بكثير منه الآن. وعلى نحو ذلك، تقل قيمة المهور أوقات الحرب والمجاعة. ومن العبارات التي رددتها عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كثيرًا في أثناء سردها للقصص: «كان ذلك وقت مجاعة وشدة، وكانت العرائس أقل تكلفة»؛ فقد كان من العسير أن يتزوج الرجال في أوقات المجاعة، وكان هناك فائض من العرائس، وكن أقل تكلفة.

= الشخصية للفتاة كالجمال، والقوة، والقدرة، والعمر، انظر: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, p. 90; Lees, *Village Life in Palestine*, p. 118; Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine* (Cambridge: Deighton, Bell, and co., 1864), p. 109f.; Alois Musil, *Arabia Petraea III* (Wien: A Hölder, 1908),p. 185; Edward Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 71, and Westermarck, *The History of Human Marriage*, II, p. 383ff.

وحتى في الفترة نفسها، يختلف المهر من مكان إلى آخر، تبعًا لظروف المعيشة؛ فالضرائب تختلف من قرية إلى أخرى، ولكن حيثما تكون الأحوال الاقتصادية متشابهة، يمكننا الافتراض بأن المهور ستكون متشابهه أيضًا، على الرغم من وجود أمور أخرى قد يكون لها أثرها، كنسبة عدد الرجال إلى عدد النساء، كما يكون المهر أغلى في القرية الغنية منه في القرية الفقيرة.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «كان مهر (فيد) الأرملة من العشيرة نفسها فيما مضى 25 جنيهًا إسترلينيًا، وللفتاة 30 جنيهًا إسترلينيًا. أما الآن فيبلغ مهر الأرملة من عشيرة أخرى 70 جنيهًا إسترلينيًا، بينما تُعطى الفتاة من العشيرة نفسها 50 جنيهًا إسترلينيًا، ومن عشيرة أخرى 100 جنيه إسترليني، و150 جنيهًا إسترلينيًا للفتاة الذاهبة إلى قرية أخرى».

والفروق التي تسترعي انتباه الباحث أكثر من سواها هي الفروق بين مهور العرائس في المكان نفسه؛ فإضافةً إلى فيد الفتاة وفيد الأرملة اللذين تقدم ذكرهما، يميز الناس - اعتمادًا على المجتمع الذي انتقيت منه العروس - بين مهر العروس من العشيرة نفسها (فيد الحمولة)، ومهر العروس من القرية نفسها (فيد القرية)، ومهر العروس التي تذهب خارج القرية (فيد الغريبة).

فيد العشيرة

«كم كان مهرها؟» كان هذا سؤالي المتكرر وأنا أنشئ قوائم العائلات. وكانت إجابة عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) المتكررة أيضًا، عن زواج ابن العم، أو الزواج من العشيرة نفسها في الماضي: «مهر العشيرة القديمة (فيد الحمولة العتيقة)». ولكن إذا كان زواجًا في الوقت الحاضر، كانت تقول ببساطة: «مهر العشيرة (فيد الحمولة)»، وتضيف في بعض الأحيان: «فيد العشيرة قليل، من 40 إلى 50 جنيهًا إسترلينيًا».

وثمة فرق ملحوظ في قيمة الفيد في حالة الزواج من العشيرة نفسها؛ فإذا كان الرجل من أقرباء العروس الأبعد، وتخطى أبناء عمها، فيجب عليه أن يدفع لواحد أو أكثر منهم مبلغًا إضافيًا، يتراوح من 5 إلى 10 جنيهات إسترلينية.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «لا بد من تعويض ابن عمها إذا تزوجت رجلًا غيره؛ فعلى سبيل المثال، رغب أقارب لسارة محمد (ابنة محمد أسعد [43]، وزوجة محمود علي سليمان [48] سابقًا، ومحمود علي أسعد [30] لاحقًا) بها، لكن علي سليمان [27] أرادها لابنه، وما كان ليتم الأمر لو لم يحصل (ابن عمها) على 10 جنيهات إسترلينية. وفي عرس سارة محمد (ابنة محمد أسعد [43]، وزوجة محمود علي سليمان [30]) أخذ عمها علي أسعد 10 جنيهات خلافًا لرغبة ابنه الذي أراد أن يتزوج ابنة عمه».

«كان مهر مِريم أحمد (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة محمد خليل [171]) 70 جنيهًا إسترلينيًا، إضافةً إلى نفقات العرس و6 جنيهات لابن عمها علي سليمان [27] (ابن العم)، الذي كان له أن ينزلها عن ظهر الجمل وهي عروس».

فيد القرية

إذا تزوجت العروس في القرية نفسها، ولكن ذهبت من عشيرتها إلى عشيرة أخرى؛ فعلى العريس أو أهله أن يقدموا لها مهرًا أكبر، ومبلغًا آخر لابن عمها ليسمح لها بالذهاب. وهكذا روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن إحدى قريباتها، وهي المرأة الوحيدة من عائلة عودة التي تزوجت من عائلة شاهين:

«لأن يامنة عودة الله (ابنة عودة الله جاد الله [19]، وزوجة حسن محمد [168]) كانت من عشيرة أخرى، كان عليه (أي العريس) أن يدفع أكثر: 110 جنيهات إسترلينية إضافةً إلى النفقات الأخرى. وتلقى كل من علي سليمان [27] (ابن العم)، ومحمد خليل [6] (ابن عمها الثاني) 5 جنيهات إسترلينية. وكانت هذه رشوة «برطيل»؛ فقد رفضوا الختم على عقد يامنة (ابنة عودة الله جاد الله [19]، وزوجة حسن محمد [168]) حتى قبضوا جنيهاتهم العشرة.

فيد الغريبة

إذا تزوجت المرأة رجلًا من غير قريتها، يكون مهرها (فيد إلغريبه) أغلى

بطبيعة الحال، وهناك مبلغ يدفع لابن العم، ثم تضاف زيادة على ذلك دفعتان؛ الأولى شاة الشباب (شاة إلشباب).

تقول حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «يجب أن يحصل شباب القرية على شاة الشباب. فإما أن يأخذوا مالًا أو شاة، ولا يكون هذا إلا للعروس التي تذهب إلى مكان آخر، وليس للعروس التي تبقى في قريتها». وهذا تعويض للشباب؛ لأن الغريب حرمهم من العروس.

والدفعة الثانية كانت تذهب، في الأصل، للعبد الذي في البيت، وفي هذه الأيام لأحد الزنوج في القرية، وتدعى «إهدية»، وتقول حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«عندما تُوضع العروس على الجمل ليُقاد بعيدًا عن بيتها وعن قريتها، يمسك الزنجي (إلعبد) بخطام الجمل، ولا يدع الجمل يذهب قائلًا: يجب أن لا يضيع حقي، ويُعطى مجيديًا أو مجيديًا ونصف (أي من 4 إلى 6، أو حتى 10 شلنات) إذا كان الناس أغنياء».

وقد حصل هذا مع حفيدتَي عِثمان [31]، صبحة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]) وحمدة أحمد (ابنة أحمد عِثمان [34]) عندما أخذتا عروسين إلى بيت اكسا، ولا يسري هذا إلا على العروس التي تذهب إلى مكان آخر غير قريتها التي ولدت فيها.

وعلى الرغم من أن مهر المرأة التي تتزوج خارج قريتها أكبر، فإنها قد تكون بالنسبة إلى القرية التي ذهبت إليها أغلى أو أقل قيمة من عروس ابنة القرية نفسها. وهذا يعتمد على القرية التي جاءت منها، أكانت أغنى أم أفقر من القرية التي ذهبت إليها. وعلى هذا، فعروس أرطاس أقل تكلفة بكثير من عروس لفتا، على سبيل المثال؛ حيث توجد إمكانات أكبر لكسب المال لقربها من القدس. وقد قيل إن أحدًا لم يدفع في أرطاس مهرًا غاليًا (100 جنيه إسترليني) كالذي دُفع لحمدة محمد (ابنة محمد عِثمان [33])، والتي تزوجت في لفتا. لكن هذا لا يُقارن بالمبلغ المطلوب لعروس من لِفتا نفسها (من 700

إلى 1000 جنيه إسترليني)؛ فقد كان هذا الزواج مجديًا لأقاربها، وكذلك لأهل لِفتا من وجهة نظر اقتصادية. ولربما كان هذا هو السبب في وجود ثلاث نساء من أرطاس في لفتا، بينما ليس ثمة امرأة واحدة من لِفتا في أرطاس؛ ففارق المهر بين القريتين كبير، بحيث لا يتمكن رجل من أرطاس من أن يتزوج امرأة من لفتا. وكذلك، فإن عروس أرطاس أغلى نسبيًا من عروس عرب التعامرة؛ لأن الظروف المعيشية في الوقت الحاضر بين بدو التعامرة أسوأ بكثير منها في قريتنا. وقد أبدلت امرأة واحدة فحسب من أرطاس، وهي نفيسة عبد الله (ابنة عبد الله جاد الله [20]) بامرأة من عرب التعامرة. وقد رُويَ أنها بكت بحرقة واحتجت على العار الذي لحق بها؛ فمرارة الذهاب إلى مكان غريب قسرًا تكون أشد وطأة إذا ما انتقل المرء إلى حال أسوأ من حاله الأولى. وقيمة المرأة شيء حقيقي بالفعل، فتجدهم يقولون بفخر عندما يتكلمون على قرى كهذه: «عرائس أرطاس ثمينات!»(21).

---

(21) يتحدث بالدنسبيرغر في: Philip J. Baldensperger, *The Immovable East* (London: Sir Issac Pitman, 1913), p. 120,

عن مهر عروس يبلغ أربعين ليرة عثمانية، وهو ما يساوي ثلاثة وعشرين فرنكًا. ويقول مولينن في: E. von Mülinen: «Beiträge zur Kenntnis des Karmels,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXX (Leipzig, 1907), p. 170,

«يبلغ مهرها عند الفلاحين البسطاء نحو 300 إلى 400 فرنك، وأحيانًا يكون أقل من ذلك. ويتدنى المبلغ عند شديدي الفقر ليصل إلى قطعتين أو ثلاث من سكة نابليون». وبحسب كلاين في: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, p. 90,

فإن مهر العروس يتفاوت ما بين 5.000 إلى 10.000 قرش؛ أي من 50 إلى 100 جنيه إسترليني. ويقول بيروتي في: Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine*, p. 179f.,

«في المدن، يدفع لابنة أحدهم من 2.000 إلى 4.000 قرش، بل حتى أكثر إذا كان والد العريس ثريًا جدًا، أما في الريف فيكون المهر ما بين 2.000 إلى 3.000 قرش». ثم إن غرانت يقول في: Elihu Grant, *The People of Palestine* (London, 1921), p. 54,

إن مال الزواج الذي يدفع لأبي العروس يبلغ 225 دولارًا تقريبًا. ويقول فان لينب (Van-Lennep) في: Henry J. Van-Lennep, *Bible lands* (London, 1875), p. 540,

يتفاوت مهر الزوجة بين أهل الريف وفقراء البدو في اليهودية بين 150 و250 دولارًا (استشهد به يستشهد ويسترمارك في كتابه): Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 75,

وفي ما يتعلق بمصر يقول بيركهارت في: J. L. Burckhardt, *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gebräuche der neueren Aegyptier* (Weimar, 1834), p. 173, =

وهكذا وجدنا أن مهر العروس تحدده أحكام وضوابط معينة. وعندما قيل عن صبحة إسْمَعين (ابنة إسْمَعين سعد [51]، وزوجة جاد الله مصطفى [18]) إنه لم توجد قبلها عروس بقيمتها - كان مهرها خمسين جنيهًا إسترلينيًا - فلربما لم يكن التنافس فيها وحسب هو الذي أغلى مهرها، بل كذلك أن صادف زواجها عهدًا جديدًا من ارتفاع عام في الأسعار؛ فلا ينبغي لأحد أن يتصرف في قيمة المهر رفعًا وخفضًا على نحو اعتباطي. «ولا يمكن أبدًا تطبيق قاعدة أحمد إسْمَعين [52] القاضية بأن لا تحصل ابنة العشيرة على أكثر من 25 جنيهًا إسترلينيًا؛ لأنها لن تجدي في أيام الغلاء هذه». ولا يمكن حتى لنفوذ أحمد إسْمَعين أن يحول دون التطور الحاصل في الحياة، مهما حنَّ هو وغيره إلى «الأيام الخوالي الخيِّرة» بعاداتها الأبسط و«الأنبل».

وحتى عندما يبدو المهر أعلى من المعتاد، فإن ذلك يكون ظاهريًا وحسب في كثير من الأحيان؛ فعندما عبرت عن دهشتي ذات مرة لارتفاع مقدار مهر عروس في الأيام الخوالي؛ إذ بلغ 100 جنيه إسترليني، قيل لي إن العروس أخذت 100 جنيه ولا شيء غيرها.

= يتفاوت مهر العروس في القاهرة كالآتي: بين تجار الطبقة الأولى يكون المهر من 200 إلى 300 دولار، وبين أفراد الطبقة الوسطى من 60 إلى 80 دولارًا، بينما لا تدفع الطبقات الدنيا أكثر من 3 إلى 5 دولارات في الغالب. ويضيف أن العادة تقتضي أن يُدفع نصف المال في الحال ومقدمًا. ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, I, p. 138,

«ودفع المهر لازم، وأقل مبلغ يسمح به القانون هو عشر دراهم (أو دراهم فضية)، والتي تساوي بمالنا نحن نحو خمسة شلنات». ويقول في الصفحة 218 من المرجع المشار إليه سابقًا عن المهر: «يحسب المهر عادة بالريالات، والريال يساوي تسعين فضة* (يساوي الآن ما مقداره خمسة بنسات وخُمسين). والريال مال خيالي وليس سكة. وتبلغ قيمة المهر المعتادة، إن كان الطرفان من ذوي الدخول المتوسطة، نحو ألف ريال (أو اثنين وعشرين جنيهًا وعشرة شلنات)، أو قد لا يزيد، في بعض الأحيان، عن نصف ذلك المبلغ. ويعُدُّ الأثرياء المهر في أكياس، يوضع في كل منها خمسمائة قرش (تساوي الآن خمسة جنيهات إسترلينية)، مرتبين قيمة المهر في عشرة أكياس أو أكثر. ولا بد أن نتذكر أننا نتحدث عن مهر عروس بكر؛ فمهر الأرملة أو المطلقة أقل بكثير.. ويشترط عادة وجوب دفع ثلثي المهر مباشرة قبل عقد القران، ويحتفظ بالثلث المتبقي ليُدفع للزوجة في حال طلاقها خلافًا لرغبتها، أو في حال وفاة الزوج)».

في ما يتعلق بقيمة مهر العروس انظر أيضًا: Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco*, p. 74f., note 2.

* فضة هي أصغر عملة مصرية آنذاك سكت من النحاس والفضة، ويساوي الريال تسعين فضة [المترجمتان].

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «100 جنيه «ناشفة» (ناشفات)، أي ليس على العريس أن يشتري جهاز العروس، وإنما تشتري جهازها من مهرها، ولكن عليه نفقات عمها وخالها والولائم فحسب».

وفي مرة أخرى، عندما علمت أنه طلب من أحد الرجال مهر مرتفع على نحو مميز، قيل إن العريس لن يتمكن من أدائه دفعة واحدة، وقيل: «مع الفائدة، يمكن أن يرتفع المهر كثيرًا». ومنذ وقت قريب، عندما أُعطي مهر لأختين، وهما حِلوة (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة علي درويش [125])، وشلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126])، يبلغ 100 جنيه إسترليني لكل منهما، على الرغم من أنهما تزوجتا من القرية. ويوم عرسهما أعطاهما أبوهما هدية مالية كبيرة، حتى إن ما أخذتاه إلى بيتي زوجيهما، يفوق بكثير الفرق بين مهريهما والمهر المعتاد في القرية.

ويسود في القرية نظام معقد للهدايا المتبادلة يؤدي إلى اختلافات كبيرة في مقدار ما يقدمه العريس للعروس، حتى إنه يصعب جدًا على الغريب أن يعرف مقدار ما ينفقه عريسٌ ما لأجل عروسه، إذا ما أُخذ كل ما قدمه له في الحسبان. ويكون بعض الهدايا المتبادلة مالًا، وبعضها كسوة، وبعضها ولائم، ويتحمل العريس جل هذه النفقات، فعليه أولًا أن يقدم الهدايا إلى عروسه في كل عيد كبير طيلة فترة الخطبة، إضافة إلى الجهاز(22). وينبغي ثانيًا أن يقدم الهدايا إلى أقارب العروس(23): عباءة لأبيها عند عقد القران(24)، وإن كان يستعيدها بحسب ما جرت به العادة؛ إذ تتلفع العروس بها عندما تركب الجمل في يوم العرس لتُساق إلى بيت العريس، إلا إذا كان أبو العروس بخيلًا جدًا، فلا يعيد العباءة.

---

(22) يذكر بيروتي الأمر نفسه في الصفحة 183 من المرجع المشار إليه سابقًا.

(23) انظر الصفحة 180 من المرجع المشار إليه سابقًا: يُتفق على مهر العروس بداية «يرتب بعد ذلك أمر الاحتفالات والهدايا التي ينبغي أن يقدمها العريس لعروسه وأقاربها، ويُنجز هذا بيسر؛ إذ يتبع ذلك عاداتٍ معينة، وضوابط تقليدية متعلقة بالأمر». انظر أيضًا غرانت في الصفحة 56 من المرجع المشار إليه سابقًا.

(24) انظر: Spoer-Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» in: *Zeitschrift für Semitistik und verwandete Gebiete,* IV. 2, p. 255; V. 1, p. 132.

وفي عم العروس تقول حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «إذا كان لأبيها أخوَان، يأخذ أحدهما الابنة زوجة لابنه، ويأخذ الآخر هدية (بلصة)».

وجرت العادة أن يعطي العريس هدية (بلصة) لعمها ولخالها؛ فعلى سبيل المثال، عندما خُطبت زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) ابنة أخي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) لأحمد مصطفى [73]، روت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي: «ينبغي أن يأخذ عمها خليل سليمان [185] وخالها برَك 5 جنيهات إسترلينية لكل منهما، أو 4 جنيهات إسترلينية وعباءة، ذلك بحسب ما يكون وقع عليه الاتفاق بينهما. وعندما طلبها العريس، قال: سأدفع 5 جنيهات، ولم يكن الخال موجودًا، ولهذا فبإمكانه أن يطلب شيئًا آخر».

وفي يوم العرس «أمسك عمها بذراعها، وخالها بذراعها الأخرى، وهكذا خرجت من بيت أبيها».

وتسمي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) هذه الهدايا التي تقدم للعم والخال «رشاوى»؛ لأن متلقيها وافقوا على السماح بأخذ العروس من بيتها، ولكنها أضافت:

«يترتب على العم والخال (بلصات إلعم وإلخال) مقابل ما يأخذانه من هدايا واجبات؛ إذ ينبغي عليهما أن يقدما لها هدايا نقدية في العرس، وعليهما أن يقدما لها الهدايا في الأعياد».

ويتلقى أخو العروس وجدها، في بعض الأحيان، عباءة أيضًا (هِدِم، عباية، شالة) من العريس، ولكن يجب عليه أيضًا أن يقدم ثوبًا لأم العروس (ثوب إلإم)؛ «لأنها هي التي ربت العروس»، وعليه أيضًا أن يقدم ثوبًا للأخت (ثوب الأخت)، أو عدل ذلك من المال[25]، «هذا إضافةً إلى مهر العروس».

(25) يكتب شاوور وحداد في الصفحة 108 من الجزء الأول من المجلد الخامس من المرجع المشار إليه سابقًا عن أثواب يقدمها العريس لأخوات وعمات العروس. انظر أيضًا بيروتي في الصفحة 184 من المرجع المشار إليه سابقًا.

ومن جهة أخرى، ينبغي أن يقدم أقارب العروس لها ثياب الخدمة (ثياب إلخدمة). وتقول حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

««ثوب الخدمة» و«منديل الخدمة للرأس» يُقدم للعروس من عائلتها؛ لأنها خدمتهم؛ فلزريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74])، على سبيل المثال، أربعة أثواب، ومنديلان، وهذه هي ثيابها قبل الزواج، ولكن عندما تتزوج «يوم إبتدخُل»، فلا بد من أن تحصل أيضًا على ملابس خدمة، من أخيها وأمها»؛ فأبوها متوفٍ.

وعلى العريس في يوم العرس أيضًا أن يقدم الهدايا لعروسه مرة أخرى؛ فعندما يأتي في المساء وسيفه بيده ليرفع الخمار، عليه أن يضيف مالًا إلى جمع لعروسه من المال (نقوط إلعروس). وعليه، قبل نومه معها، أن يعطيها مال فك الحذاء (فكّ إلوطا)[26].

وينبغي أن يقدم أبوها وأقاربها لها الهدايا في يوم العرس مرة أخرى (نقوط إلعروس)، ويمكن أن تُعطى جزءًا من المهر[27]، وقد تحصل في بعض الأحيان على المهر كله، كما حدث عندما تزوجت زريفة أحمد (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة موسى سعد [13] وإسْمَعين سعد [14]) أخا زوجها المتوفى؛ إذ نحلها الأخير بستانًا مهرًا لها يسمى الجسر. وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كيف استطاعت زريفة (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة موسى سعد [13] وإسْمَعين سعد [14]) أن تجعل قطعة الأرض ملكها الخاص:

«كانت زريفة أحمد (ابنة أحمد جاد الله [21]) أرملة عندما تزوجها إسْمَعين سعد [14] بعد وفاة موسى سعد [13] (زوجها الأول)، وكانت غاضبة من صبحة (ابنة سعد إبراهيم [5]، وزوجة جاد الله عودة [2]) (حماتها)، وعادت إلى بيت أبيها. وبعد ذلك خطبها إسْمَعين سعد [14] (أخو

---

(26) انظر شباور وحداد في الصفحة 130 من الجزء الأول من المجلد الخامس من المرجع المشار إليه سابقًا.

(27) انظر أعلاه صفحة 72، وأدناه أيضًا في الصفحة 186 من هذا الكتاب.

زوجها المتوفى)، ولكنه قال: «لا أملك المال». فقالوا له عندئذ: «إقبل بأن يكون البستان لنا!»، وكتبوا سند تسجيل الأرض باسم أحمد جاد الله [21] أبي العروس. ولما حان وقت مغادرتها بيت أبيها في يوم العرس، رفضت الخروج قائلة: «لن أذهب حتى تحضر سند تسجيل الأرض وتنقل ملكيتها لي، لقد أكل أبي مهري الأول[28]، أما الآن فهذا لي. أحضروا سند الأرض واكتبوه باسمي! فأحضَروا السند لها وذهبت. السند في حوزتها، وهي تزرع وتستعمل الأرض (هي بتزرع وتقلع)».

وشرحت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) فعلة زريفة (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة موسى سعد [13] وإسْمَعين سعد [14]) على النحو الآتي:

«لو لم تسجل قطعة الأرض باسمها، لقاسمنها أخواتها إياها بعد موت أبيها (إذ ليس له أولاد).

وعندما تذهب العروس لزيارة بيت أبيها بعد مضي أسبوع على العرس تحمل معها طبقًا من الأرز واللحم، وينبغي أن يكون أهلها جهزوا ما يكافئ ذلك من الهدايا من ثياب أو مال[29].

وإضافة إلى التهادي بين العريس وأقارب عروسه؛ فهناك أيضًا التهادي بينه وبين أقاربه[30]. وفي عرس محمد يوسف [149] في عام 1926، حصلت جميع نساء العشيرة على «ثياب العرس» باستثناء صبحة شختور (زوحة جبر أحمد [156])؛ لأنها، كما قالت لي أم العريس، لم تقدم شيئًا.

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «ملابس العرس هي ديْن (قُرضة)؛ فإذا حصلت نساء وبنات العشيرة على ملابس، يحصل العريس في

(28) انظر الكتاب المقدس، الآية الخامسة عشرة من الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين.

(29) انظر بيروتي في الصفحة 189 وما يليها من المرجع المشار إليه سابقًا.

(30) يقول بيروتي في الصفحة 183 من المرجع المشار إليه أعلاه أن على العريس أن يُقدِّم الهدايا لأولئك المشاركين في الاحتفال.

المقابل على هدايا نقدية، ومن لا يعطي لا يأخذ[31]. وإذا ما كانت هناك امرأة من الأصدقاء، فإنها تتلقى هدية أيضًا، حتى وإن لم تكن من العشيرة. إذا أخذتُ ثوبًا ثمنه مجيدي واحد، فإنني أعطي مجيدياً ونصف المجيدي في المقابل يوم العرس. وهكذا فقط أستطيع أن أقول: «هذا مال فلان بن فلان؛ فكل شيء يعود إليه (أي للعريس) وزيادة».

وفي مقابل ثياب العرس التي يوزعها العريس على نساء العشيرة، ينبغي أن يقدم أقاربه وأصدقاؤه له هدايا عينية كالقهوة، وقوالب السكر، وما إلى ذلك، أو مالًا في يوم العرس عندما يُجمع المال للعريس (نقوط العريس) وللعروس (نقوط العروس).

وعندما احتفل عِثمان محمد [37] بعرسه، روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن جمع المال للعريس (نقوط العريس):

«يبسط العريس منديلًا، ويجلس أحدهم ليكتب (من أعطى، وكم أعطى)، وهذا ضروري لأجل السداد. وتلقى عِثمان من أهل بيت اكسا أربعة جنيهات إسترلينية، ومن زوج أخته ستة جنيهات إسترلينية، وعليه أن يرد كل هذا؛ فهو مكتوب على الورق، ويمكن أن يبدأ بالسداد عند أي احتفال».

ومن الواضح أن هذه كلها ليست هدايا بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما هي قروض، وهي نوع من المساعدة المتبادلة، وتفسر إلى حد ما، كيف يستطيع الرجل أن يجمع كل هذا المال الذي يلزم للزواج والعرس، لكنه في الوقت نفسه يجلب على نفسه بهذا ديونًا قد لا يستطيع قضاءها أبدًا[32]. وعليه أن يبدأ

---

(31) قد يكون في عبارة «من لا يُعطي لا يأخذ» تفسير للقصة الرمزية عن لباس العرس الواردة في الآيتين الحادية عشرة إلى الثانية عشرة من الإصحاح الثاني والعشرين من إنجيل متَّى. انظر كذلك الآيات الثانية عشرة وما يليها من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل لوقا؛ حيث يُعدُّ ممارسة هذا النوع من المكافأة في الحياة اليومية مستنكرًا. وجرت العادة بين الفلاحين والبدو أن يمنحوا الضيوف المميزين عباءات تكريمًا لهم، وليس في العرس فحسب.

(32) انظر: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 110,

«جرت العادة أن يقترض العريس من أجل المهر ومصاريف العرس، والكثيرون منهم يرهقون أنفسهم بديون تكون عبئًا عليهم بقية حياتهم».

بالسداد في أول فرصة ملائمة؛ فحالما يحتفل أحد ضيوف العرس ممن قدم له هدية بمناسبة ما، عليه بدوره أن يُقدم له هدية. وهذه المناسبات هي إما عرس، وإما ختان، وإما بناء بيت، وإما خروج من السجن، وإما العودة من الخدمة العسكرية، وإما من أميركا.

وفي شهر كانون الثاني/يناير عام 1926 عندما أنجبت إحدى جاراتنا، وهي زهية (زوجة خليل شاهين [150])، أحد أولادها، جاء أقاربها وأصدقاؤها من بيت لحم لزيارتها ومعهم الهدايا. وفي الوقت نفسه، أنجبت أخت زوجها شيخة (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) ولدًا، وكانت متزوجة من عشيرة أخرى في أرطاس، إلا أن أحدًا لم يأتِ لزيارتها وتهنئتها. وعندما قمنا بزيارة جارتنا زهية (زوجة خليل شاهين [150])، أعربنا لحميها (شاهين موسى [139]) عن سرورنا للشرف التي حظيت به، وعن استغرابنا لأن أحدًا لم يأبه لشيخة (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92])، فتنهد الرجل العجوز شاهين موسى [139] وقال: «كلها ديون (قُرضة)»[33].

وكل احتفال يعني زيادة في الديون والواجبات، ولهذا، فالفلاحون مثقلون بالديون على الدوام. ومما يعبر عن قاعدة الكفاء الصارمة والسائدة في حياتهم[34] المثل القائل: «كل شيء دين حتى دمعة العين» (كُلشي في الدّيْن

(33) في ما يتعلق بجمع المال (نقوط) للعروسين في يوم العرس يقول بارور في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel* (Leipzig: H. G. Wallmann, 1903), p. 94,

«تُعدُّ هذه الهدايا دينًا يقضيه العريس في مناسبات مشابهة. لذلك يتوثق تمامًا من مقدار ما دفعت كل عائلة ليتمكن من سدادها». انظر كذلك شباور وحداد في الحاشية الأولى من الصفحة 122 وما يليها منالجزء الأول من المجلد الخامس من المرجع المشار إليه سابقًا في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» in: *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, IV. 2,

«يُتداول المال المجموع بحسب قاعدة: أعطيك لتعطيني، ولهذا، فمن المهم أن يعرف المنادي كل من قدَّم مالًا، لكي يكون بالإمكان قضاء شبه الدين هذا، عند زواج أحد أفراد عائلة من قدم المال».

(34) يتحول هذا الشعور بالمنَّة بسهولة إلى شعور ديني، وقد يكون من باب النافع في مجال الدراسات الدينية النفسية أن نعرف إن كانت هذه العادات والأعراف تستمد جذورها من مفهوم العهد القديم للإله بكونه الإله المُجازي، ومن الشعور الديني بالمنَّة.

حِتَّى دمعة العين). وهذا يعني أن حتى إبداء التعاطف مع الآخرين في حزنهم، والذي تقضي به العادة، يعد دَيْنًا؛ فإذا ما بكت امرأة عند موت أي كان، فعلى قريباته أن يذهبن ويبكين معها إذا ما مات أحد أقربائها؛ فلا يمكن الحصول على شيء من دون مقابل؛ فالحزن والفرح كلاهما دَين.

يقدم ضيوف العرس الهدايا، ويبدي أحد أصدقاء العريس استعداده لتقديم «عشاء العرس» الذي يأكله العريس والعروس معًا في وقت متأخر من مساء يوم العرس عندما يختليان. ويأتي الناس خلال الأسبوع من القرى المجاورة لتهنئة العريس يسوقون الخراف والماعز لذبحها إكرامًا له. ولكنهم جميعًا إما أنهم يقضون بذلك دَينًا قديمًا، أو أنهم ينشئون دَينًا جديدًا ينبغي أن يحاول العريس قضاءه»، وتُوثَّق كل هدية كتابة، لكن من المحال أن يفهم الغريب حساب دَين ما، ربما يرجع إلى زمن بعيد.

كل هذا يمثل فرصًا لتفاقم الأمور يستغلها فلاحون بحسهم الدرامي بكل سرور؛ فحتى في اللحظة الأخيرة، عندما يأتي العريس مع أقاربه وأصدقائه ليأخذ عروسه، يحول أقاربها بينه وبينها، ثم يعبر أحدهم، وفي بعض الأحيان العروس نفسها، عن عدم الرضى بما قدمه العريس للعروس ويطلب المزيد. ويحتج أقارب العريس نيابة عنه بأنه قد وفَّى بكل ما وعد به من الشروط، ولكن بلا طائل؛ فقد يقول أحد أقارب العروس الساخطين إن ذلك لا يعنيه؛ إذ إنه لم يشهد اتفاقهم، وهكذا تستمر المشاجرة وبعنف شديد من الجانبين. وفي بعض الأحيان يضطر موكب العرس إلى الانتظار ساعات قبل الوصول إلى تسوية في نهاية المطاف[35].

وليست هذه العراقيل علامة على جشع أقارب العروس فحسب، وإنما هي جزء من طقوس التلكؤ في السماح للعروس بمغادرة بيت أبيها، وإذا ما تصرفوا على غير هذا النحو، كان ذلك مدعاة للانتقاد والشك، وسيقول الناس إن وراء

---

(35) انظر الصفحات 109 و123 وما يليها من الجزء الأول من المجلد الخامس من المرجع المشار إليه سابقًا. وانظر كذلك كلاين في: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, p. 90.

ذلك ما وراءه، وسيتساءلون عن أمر العروس، إذا لم تكن هناك عراقيل تعوق خروجها، ويعلن عم العروس عادة أنه غير راض عما ناله من تعويض، ويفتعل مشاجرة كبيرة حول العباءة أو المال ليؤكد مكانة ابنة أخيه؛ فالغاية من وراء ذلك، هي أن يظهروا للعالم أنهم كارهون لترك فرد من العائلة يذهب عنهم. وتتحدث حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن هذا قائلة:

«لن تتغير هذه العادة؛ فالمرأة ليست حمارة فتباع وينتهي الأمر، وإنما هي كالفرس الأصيلة؛ فكما للأصيلة مُهْران، للمرأة مَهْران (فيد وبلصة)».

وينبغي أن لا نغفل عن الكبرياء الذي تعبر عنه هذه الكلمات، وهناك في حقيقة الأمر علاقة وثيقة بين مهر العروس الذي يقدم ومكانتها. وبينما تعد الفلاحات قلة مهر العروس أو عدمه منقصة وامتهانًا لها[36]، ويزدريها الزوج نفسه، ويستخف الناس بها، يُنظر إلى ارتفاع المهر على أنه حماية وضمان لكرامة المرأة وحسن معاملتها. وقد نظر الأوروبيون إلى هذه المسألة على نحو مختلف، وقالوا: إن مكانة المرأة منحطة، حتى إنها لتُشترى. وفي المقابل، فإن الناس الذين لديهم عادة مهر العروس لا يفهمون النموذج الأوروبي [حيث لا مهر للعروس]؛ فاستنتاجهم الطبيعي أنهم [أي الأوروبيون] لا يعتقدون أن العروس تستحق مهرًا. وهنا يعتمل رأيان متباينان تمامًا، في كل منهما يُنظر إلى الجانب البغيض من الرأي المضاد فحسب. ويبين هذا كم يعتمد حكم الناس على العادة، وهي ليست مقياسًا ثابتًا أو مطلقًا للقيمة.

الجدل حول شراء العروس

وهنا يبرز السؤال الآتي: ما معنى مهر العروس، ولماذا يُعطى؟

قال لي أحد علماء الإثنولوجيا الألمان ذات مرة: «ما إن يدفع العريس

---

(36) انظر أيضًا ما يقوله ويسترمارك في كتابه: Westermarck, *The History of Human Marriage*, II, p. 392 f.,
عن العار الذي يلحق بالفتاة وعائلتها إذا زُوِّجت من دون مهر، حيث يكون مهر العروس عادة مألوفة.

مالًا مقابل عروسه لأقاربها، حتى يصبح ذلك شراءً بطبيعة الحال». ولعل خير تفنيد لسمة الشراء عن المهر، هو تلك العادة القاضية بأن يقابل أقارب العروس الهدايا بالهدايا[37]. وقد وجدنا أن تبادل هدايا العرس أمر سائد في فلسطين، وأن العرف هو الذي يحدد قيمتها، كما أن المرأة ذاتها تنال جزءًا من المهر في كثير من الأحيان، وفي أحيان أخرى تأخذ المهر كله. ويقال في فلسطين إن الأب الجشع وحده هو الذي لا يعطي المهر لابنته، أو يعطيها جهازًا، أو هدايا أخرى اشتراها بقيمته[38]. ولكن حتى عندما يستولي الأب على المهر كله، فلا يبرر هذا عد المهر ثمنًا للعروس؛ فالرجل والمرأة كلاهما ينتميان إلى أسرة الأب، ولا يعني هذا أن يتمتعا بحماية البيت وحسب، بل يجب أن يجني البيت بعض المنفعة منهما كذلك. وإذا ما عمل الرجل خارج البيت، فليس له أن يستأثر بالأجر لنفسه وينفقه على حاجاته، بل يذهب الأجر إلى كبير العائلة الذي يدبر الشؤون المالية؛ لأن عمل الرجل ينبغي أن يكون لمصلحة العائلة. وعندما تغادر العروس بيت أبيها، فإن أسرتها تفقد قوة عاملة ذات قيمة كبيرة هي حق لها. ولهذا يمكن أن يعد المهر تعويضًا عن هذه القوة العاملة[39]. وقد

(37) انظر الصفحة 396 وما يليها من كتاب ويسترمارك المشار إليه سابقًا، وانظر كذلك: Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I, p. 221.

(38) انظر ما يقوله غرانت في: Grant, *The People of Palestine*, p. 54,
عن «المبلغ الذي يُدفع عادة لأبي العروس في العرس»: «من هذا المبلغ يقدم الأب لابنته هدايا حسب رغبته من مجوهرات ومسكوكات». وعن الأرملة يقول إنها: «تميل إلى الحصول على حصة كبيرة منه على شكل هدايا من والدها، لأنها، في هذه الحالة، لا يمكن أن تتزوج إلا برضاها». ويقول ليز عن المهر في: Lees, *Village Life in Palestine*, p. 117,
«ينفقه الأغنياء على ملابس وزينة العروس، وهي التي تجني الفائدة». أما ويلسون فيقول أيضًا في: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 109,
إن المهر لا يؤول إلى الوالدين عند أهل المدن.

(39) هناك حوار بالغ الأهمية، يستشهد به شباور وحداد من القبيبة في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» in: *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, IV, 2, p. 211 and V. I, p. 108f,
يدور بين أبي فتاة وخطيبها الذي يطالب بعروسه. يقول العريس لوالد الفتاة: «يا نسيبي (يَنسيبي) نريد أن نشتري الجهاز للعروس»، فيقول الأب له: «لا، بعد الحصاد! دعها أولًا تساعدنا في الحصاد!»، فيقول له: «لا أستطيع، دفعت مالي، والآن ينبغي أن أتركها لتخدمك؟»، فيقول له: «مع ذلك أرجو أن تتركها معنا حتى نهاية الحصاد». فيقول له: «أنا لدي حصاد أيضًا، وينبغي أن تخدمني أنا لا أن تخدمك أنت». فيقول: «حسنًا! هيئ ما يلزم وخذها!».

سمعت هذه النظرية تُطرح في تفسير المهر في فلسطين، لكني كنت قد وصلت إلى استنتاج مشابه قبل ذلك. وعلى الرغم من أنني كنت ميالة إلى عد مهر العروس تعويضًا عن قوة العمل التي فقدتها العائلة، فإنه كان عليَّ أن أُقر بأن هذا الفهم منقوص. فصحيح أن عمل النساء يلقى تقديرًا شديدًا؛ العروس تتلقى من أهلها عندما تغادر بيت أبيها «ثياب خدمة» كما ذكرنا سابقًا؛ لأنها خدمتهم، وكما ذكرنا أن أحد أسباب زواج الأطفال هو أن الزوجة الطفلة يمكن أن تعمل في بيت زوجها، وقد يكون لعملها قيمته قبل أن يكون هناك زواج حقيقي بكثير، كما أن العمل في بيت الزوج بعد ذلك هو الشغل الشاغل للمرأة. لكن، ومع ذلك كله، فلا يسعني إلا أن أرى أن مهر العروس يتضمن، في المقام الأول، إقرارًا من دافعيه بأنهم أخذوا الابنة بعيدًا عن بيتها، أو تعويضًا من طرفهم لأهل البنت عن ذلك؛ فهي بخروجها من بيت أبيها، كما يقال: «تهدم بيت أبيها وتبني بيت الغريب». ويعني هذا التعبير التوراتي[40] أنها «تبني» بإنجابها الأولاد للغريب، وليس لعائلتها هي. ويؤكد هذه النظرية ما يعطيه العريس من «رُشى» لأقاربها للسماح لها بالذهاب، وكذلك أنه كلما كانت العائلة التي تتزوج منها العروس أبعد نسبًا، كلما ارتفع المهر، وزاد عدد الناس الذين لا بد للعريس من رشوتهم وتعويضهم لكي يسمحوا لها بمغادرة العائلة والأقارب والقرية. ومع ذلك، فقد ذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك، كما أشرنا سابقًا، فعدوا دفع المهر شراء للعروس في فلسطين[41].

وبحثت هذا الأمر ذات مرة في القدس مع عربي متعلم؛ فقال: يقول العرب في المقابل إن الأوروبيات يشترين لأنفسهن أزواجًا، وإذا وافق الغربيون على

(40) انظر الآية الحادية عشرة من الإصحاح الرابع من سفر راعوث.

(41) انظر: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 82, 87, 100; Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, p. 90, and Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine*, p. 179,

«ينظر إلى الزواج عند العرب كصفقة تجارية وحسب..» وينظر الرجل إلى بناته «كما ينظر إلى خراف أو أبقار، ويبيعهن كما لو كن كذلك.. والصفقة.. هي ذاتها كما تباع فرس أو جمل..». ويقول ويلسون في الصفحة 109 من المرجع المشار إليه سابقًا: «في معظم الحالات، فإنما يبيع الوالدان عمليًا بناتهم».

تسمية الدوطة(*) (Dowry) شراء للعريس[42]، عندئذ يمكن للعرب أن يروا في إعطاء المهر شراءً للعروس. وعلى الرغم من أن الدوطة إجبارية في بعض الدول الغربية، وشائعة إلى حد ما في دول أخرى، فإن الناس هناك لن يروق لهم أن تُعد شراءً للعريس. ومع ذلك لا بد من الإقرار بأن مقولته لها ما يبررها، وينبغي أن تجعلنا أكثر مراعاة وحذرًا في أحكامنا. ومن الممكن أن الكتّاب الغربيين الذين تناولوا «شراء العروس» في فلسطين، كانت لديهم فكرة تقريبية وسطحية عن دلالة مهر العروس، تشبه مفهوم الدوطة التي يشترى بها العريس. ولا تجد في الأدبيات الغربية المتوافرة حججًا تنفي أن المهر عند الفلاحين في فلسطين هو «شراء للعروس». وسأستخدم المعلومات التي جمعتها في أرطاس لأتفحص هذه المسألة وأسبر غورها، ولست أهدف إلى محاولة الحصول على إجابة تامة ونهائية، لكن هذه المعلومات ستلقي الضوء على بعض جوانب هذه المشكلة.

ولا بد أن نقر بوجود حجج كثيرة تؤيد القول إن دفع المهر هو شراء للعروس. وكيفما نظرت إلى الأمر، فيكفي أن تتذكر أن المرأة التي تعطى لغريب - أي تتزوج من خارج العشيرة أو القرية - تحوز مهرًا عاليًا بالقياس إلى سواها من الفتيات، وهذا بحد ذاته أمر يخالف الغاية النبيلة من رفع المهور المذكورة أعلاه، والتي تقول إن الأهل يرفعون مهور الفتيات تمسكًا بهن، بل ويوحي هو نفسه بأن مهر العروس هو ثمن لها[43]. وإذا ما أخذنا في الاعتبار،

(*) مهر تدفعه الزوجة لزوجها في بعض المجتمعات [المترجمتان].

(42) قارن هذ بما يقوله ويسترمارك في الصفحة 430 وما يليها من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه سابقًا: «في أيامنا هذه، هناك عامل واحد يميل إلى الحفاظ على مال الزواج [المهر أو الدوطة] كمؤسسة اجتماعية لها بعض الأهمية. ففي مجتمع يفوق فيه عدد النساء البالغات عدد الرجال البالغين، ويمنع فيه القانون تعدد الزوجات، ويبقى فيه رجال كثر دونما زواج، وتعيش فيه النساء المتزوجات في الغالب حياة خاملة، يصبح مال الزواج في كثير من الحالات ثمنًا يشتري به الأب زوجًا لابنته، كما كان يشتري الرجل في السابق زوجة من أبيها. ولصعوبة العثور على زوج للابنة في الهند فقد بات شراء العرسان علنيًا».

(43) انظر الصفحة 395 من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه سابقًا: «قد يستولي الجشع على أهل الفتاة، وقد يعطون البنت لمن يدفع أكثر، ويمكن أن يدربوا الفتيات على السعي إلى الحصول على مهور عالية». وقد رأينا (أعلاه في الصفحة 118 وما يليها من هذا الكتاب) أن للأقارب بعض النفوذ على والد الفتاة، وبهذا يمنعون الغلو في المهور.

من الناحية النظرية البحتة، أنه من الممكن للرجل أن يحصل على عروس أو على مبلغ من المال مقابل أخته أو ابنته، فإن المهر في مثل هذه الحالة قد يغدو مطمعًا للرجل، وهناك شواهد على ذلك؛ فقد أخبرتني لويزا بالدنسبيرغر أنها سمعت قبل سنوات عديدة - ولم يكن ذلك في أرطاس - رجلًا يتباهى قائلًا: «هل ينبغي أن أعمل بعدُ ومهر ابنتي 40 جنيهًا إسترلينيًا». وروت لي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) القصة الآتية من سالف الزمان في أرطاس:

«عندما تزوج جاد الله عودة [2] ابنة صوْح، لم تنقطع طلبات أبيها المتصلة بمهر ابنته حتى انقطعت أنفاسها؛ فعندما ركبت جمل العرس قالوا (أي أهل العريس) له (أي لأبيها): «اطلب الآن!»، فقال: «أريد الحصان الرمادي» فقالوا: «أرضيت؟» فقال: «أريد ذلك السيف» فقالوا: «هاك السيف». وأضافوا قائلين: «أرضيت؟» فقال: «أريد المسدس الذي يحمله إبراهيم عودة [1] (أخو العريس)» فقالوا: «هاكه».

(ثم) ذهب إلى العروس وقال لها: «يا ابنتي، اخرجي (من بيت أبيك)! كنت اليوم أمشي والآن راكب، ولم يكن لدي سيف، واليوم صار عندي سيف، ولم يكن لدي مسدس، واليوم صار عندي مسدس، ارفعي رأسك إلى السماء يا ابنتي».

ويتجلى نفع مهر العروس أيضًا في أن كرم العنب الذي حصل عليه أحمد كنعان [181] مقابل أخته لا يزال في حوزة أرملته حلوة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170])، وهي لا تزال تجني ثماره. وأوضح الأمثلة على هذه الفائدة من المهر هو البيت الذي تملكه عائلة سليمان عودة [188]، والذي ابتيع بمهر صبحة، ابنة سليمان عودة [188]، عندما تزوجت من أحمد محمد [118]. وبلغ المهر عشرين جنيهًا إسترلينيًا، وبه ابتيع البيت من عِثمان جبرين [77]، ويحفظ هذا البيت تماسك العائلة ويبقيهم في القرية. وأحيانًا تقضى ديون العائلة بمهر إحدى بناتها. وإذا كان للعائلة أولاد عدة، ثم وُلدت بنت، استُقبلت بترحاب عظيم. وتسمى مثل هذه الفتاة، في بعض الأحيان «سِت الإخوِة»، والذي قد يعني «ستة أخوة» - وذلك مصدر فخر لها - كما قد يعني أيضًا «سيدة إخوتها». ويسر الأخوة بالحصول على أخت كي يبادلوها.

ومن المفيد أن ننظر في تصرفات العائلات المختلفة بهذا الصدد، كما يظهر في الأمثلة الآتية:

المثال الأول: كانت لخليل شحادة [170] زوجتان، وكان عنده أربعة أولاد من زوجته الأولى حسنة (ابنة إسْمَعين سعد [51])، وابنة واحدة وولد واحد من زوجته الثانية سلمى، ومات قبل أن يزوج أبناءه. وتزوجت زوجته الصغرى سلمى رجلًا آخر (علي أسعد [42])، ولكن حسنة (ابنة إسْمَعين سعد [51])، وهي الزوجة الأكبر، بقيت أرملة في بيت زوجها.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عنها:

«زوَّجت حسنة (ابنة إسْمَعين سعد [51]، وزوجة خليل شحادة [170]) أبناءها الأربعة، وأخذت لابن زوجها[44] عروسًا بديلة بأخته»[45].

ويُفضَّل أن تكون المرأة التي تعطى بديلة لعروس الرجل هي أخته لأمه وأبيه. وزوَّجت حسنة (ابنة إسْمَعين سعد [51]، وزوجة خليل شحادة [170]) أولادها وبناتها من خليل شحادة [170] بالطريقة الآتية:

تزوج الابن الأكبر محمد خليل [171] عروسه بدلًا من أخته الكبرى صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77]). أما الابن الثاني أحمد خليل [172]، فأعطته أمه مهر أخته الثانية فاطمة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة إسْمَعين أحمد [55]) مهرًا لعروسه التعمرية. وعندما توفيت زوجته، تزوج عروسًا من أرطاس، وهي مريم (ابنة مصطفى سالم [69])، بمهر أخته الثالثة حمدة (ابنة خليل شحادة [170]). وعندما أصبحت حمدة (ابنة خليل شحادة [170]) أرملة، تزوج أخوها الثالث علي خليل [173] زوجة تعمرية بمهر زواجها الجديد من عبد سالم [68]. أما الأخ الرابع موسى خليل [174]، فتزوج بمهر أخذه من أملاك العائلة؛ أي من خلال بيع العنب والمشمش، وبستان، وما إلى ذلك، بيعت للحصول على المال لمهر العروس.

(44) ابن سلمى (زوجة خليل شحادة [170]) هو إبراهيم خليل [175].

(45) هي حِلوة خليل (ابنة خليل شحادة [170])، والتي أصبحت زوجة لأحمد كنعان [181].

«كل أخ يساعد أخاه كي يتزوج»، هكذا ختمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قصتها.

المثال الثاني: يقال إن إحسين عبد الله [87] تزوج مرتين بوساطة أخته رشيدة (ابنة عبد الله عايش [81]) (جوَّزَته رشيدة خطرتين)، وكانت المرة الأولى عندما استبدل عروسًا بأخته رشيدة، إلا أنها سرعان ما توفيت، وتوفي زوج رشيدة (ابنة عبد الله عايش [81]) أيضًا، ولما باتت أخته أرملة، وزوجها مرةً أخرى، وحصل لنفسه على زوجة جديدة بمهرها. وعقبت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على ذلك قائلة: بطبيعة الحال، فإن عليه واجبًا تجاه أخته بأن يحميها ويقدم لها الهدايا.

المثال الثالث: «تزوج محمد جبر [159] بوساطة أختيه»، أولًا: أعطى أخته حِلوِة (ابنة جبر أحمد [156]) بديلة لعروس، وبعد أن أصبح أرمل، بادل بأخته فاطمة (ابنة جبر أحمد [156]، وزوجة سعيد موسى [141]) عروسًا أخرى، وهي زريفة (ابنة موسى شاهين [135]). ولم تبقَ فتيات في العائلة. ولأن محمد جبر [159] انتفع بأختيه الاثنتين، كان عليه أن ينزل لأخيه أحمد جبر [160] عن قطعة أرض عوضًا عن أخته الصغرى. وعندما كبرت ابنته رحمة (ابنة محمد جبر [159]، وزوجة عبد الله عبد [163]) وتزوجت، ذهب مهرها لأحمد جبر [160] الذي أعاد في المقابل قطعة الأرض التي كان قد حصل عليها كتعويض؛ لأنه لم يكن قادرًا أن يبادل بأخته الصغرى. وكان هناك أخ ثالث، وهو إبراهيم (ابن جبر أحمد [156]) الذي ذهب إلى أميركا أعزب. وقد قيل إنه إذا ما عاد، فعلى إخوته أن يعطوه مالًا ليحصل على عروس إذا رغب في ذلك، «على الأخوين أن يساعدا إبراهيم (ابن أحمد جبر [156]) لكي يتزوج؛ لأنه يجب على الأخ أن يساعد أخاه».

المثال الرابع: كان للعبد عبد الله [195]، وهو جد عائلات الزنوج الموجودة الآن، ابنان وابنة واحدة. وحصل الابن الأكبر (سلامة عبد الله [196]) على عروس مقابل أخته. وعندئذ قال الابن الأصغر (مسلَّم عبد الله [197]): «هذا ليس عدلًا، أنا لي نصيب في أختي أيضًا»، وأقرَّ الأخ الأكبر

بذلك قائلًا: «انتظر حتى تصبح ابنتي في سن الزواج! فسأعطيها بديلة لعروس لك». وكان ذلك؛ إذ بادل بابنته حليمة (ابنة سلامة عبد الله [196]) ليحصل على عروس لعمها (مسلَّم عبد الله [197]).

المثال الخامس: عندما فُوض إلى محمد أحمد [122] أمر ابنة أخيه صبحة (ابنة موسى أحمد [120]) حتى يبادل بها عروسًا، أعطى أباها [120] بالمقابل حصته من أملاك تركها أخوهما المتوفى محِمد (ابن أحمد محمد [118]).

ويظهر من هذا أن البنت تمثل رأس مال حقيقيًا، كان سيؤخذ من أملاك العائلة لو لم تكن موجودة. ومرة بعد أخرى، نرى كيف يعتمد الرجل على أخته في ما يتعلق بالترتيبات المالية لزواجه. وكم من رجل اضطر إلى تأجيل زواجه؛ لأن مهر أخته الذي كان في حسبانه، لم ييسر له في الواقع. وعندما لم يتمكن أحمد مصطفى [74] بعد فسخ خِطْبته، كما رُوي سابقًا[46]، من الحصول على المال اللازم في الوقت الملائم لعروسه زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74])، لم يجلب المتاعب لنفسه وحسب، بل كذلك لأخي عروسه عبد صالح [187]، الذي لم يستطع أن يتزوج عروسه التعمرية؛ إذ كان مهرها سيكون هو المهر الذي يتلقاه مقابل أخته. ويحاول الناس أن يزوجوا ابنهم ما إن يحصلوا على مهر ابنتهم، قبل أن يُنفق. وسيكون من المهم للغاية أن نقارن ما بين القرى التي يزيد فيها عدد النساء عن الرجال الأغلبية بتلك التي يقل فيها عدد النساء عن الرجال، في ما يتعلق بإمكانات دفع مهر العروس أو الحصول عليه. ولربما يكون للعدد الكبير من النساء المتاحات للبدل المباشر أو غير المباشر تأثيراته في هذه الإمكانات. أليس من الممكن أن تكون قلة عدد النساء اللافتة للنظر في أرطاس، ولا سيما في عائلة شاهين، هي السبب وراء عدم تعدد الزوجات في هذه العشيرة وحدها، وأن هذا الأمر لا يعزى إلى ميل رجالها للاكتفاء بزوجة واحدة، أو إلى نزعة خُلقية عالية لرجالهم

(46) انظر أعلاه في الصفحات 84 وما يليها، و116 و117 وما يليها من هذا الكتاب.

وحسب؟ ويدعم هذا القول حادثة تُروى عنهم في القرية؛ إذ يُقال إن إبراهيم شاهين شهد في كنيسة المهد، منذ زمن بعيد، إيقاع عقوبة الإعدام بفتاة اتُّهمت بفقدان عذريتها(47)، وفي غمرة الرعب الذي حل به من العار الذي قد يلحق بعائلة من خلال بناتها، أرسل حفنة من الملح إلى ضريح إبراهيم [عليه السلام] في الحرم الإبراهيمي في الخليل، ودعا: «يا سيدي إبراهيم، يا خليل الله، لا تدع لي ابنة تحيا من بعدي!» لكن عندما استجيب دعاؤه بالفعل، وباتت كل فتاة تولد في العائلة تموت من فورها، شعروا بالتعاسة الشديدة؛ إذ حُرم رجالهم من فرص الحصول على عرائس بواسطة بناتهم أو أخواتهم، وحتى أبناء إبراهيم شاهين دعوا الله أن يرزقهم البنات.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «تمنى خليل إبراهيم [134] أن تكون له ابنة بين هؤلاء الأولاد الستة، وولدت لهم ابنة وأسموها سارة (ابنة خليل إبراهيم [134]) على اسم السيدة سارة [زوجة النبي إبراهيم عليه السلام]. وتمنى أحمد إبراهيم [133] ابنة، وأعطاه الله مشايخ (ابنة أحمد إبراهيم [133])، وعندما ولدت الطفلتان قال (الأبوان): لإبراهيم الخليل ربع مهرهما إذا عاشتا».

وفسرت امرأة من عائلة شاهين الأمر لي: «نحن بحاجة إلى البنات، ولهذا نذرنا الرُبع (أي ربع المهر)».

ولكن عندما سألتُ أكبر رجال عائلة شاهين سنًا ذات مرة، أليس في البنات منفعة عظيمة للعائلة؛ لأن المرء يحصل على مهورهن؟! لامني قائلًا: «هذا محظور! هذا حرام (هاذ حرام)! وبعدها سألت: «أليس في وجود بنات للبدل ميزة وفائدة؟» فكانت الإجابة كسابقتها: «هذا ممنوع! هذا حرام!».

وتُعَدُّ كلمات الرجل المسن موسى شاهين [139] شاهدًا على الشعور

(47) تُروى هذه القصة المأساوية في: J. Murray, *A Handbook for Travellers in Syria and Palestine*, New and Revised Edition, I. (London: John Murray, 1868), p. 200f.
وأخبرني الكاهن هاناوَر من القدس أن القصة تتعلق بحلوةِ بنت شاهين من بيت لحم.

بالذنب الذي يسود دائمًا، قلَّ أو كثُر، عند أهل المرأة عندما يزوِّجونها، وهم يشعرون أن من الظلم والعار أن يتركوا فردًا من العائلة يذهب بعيدًا عنهم[48]، وتشعر العروس أيضًا بالحزن لفراق بيت أبيها كرهًا[49]. وقد يُعزى بعض الشعور بالذنب إلى الإحساس بأن المرأة هي التي ينبغي أن تأخذ على المهر[50]، في حين أن أحد أقربائها الذكور، وهو أخوها في الغالب، هو الذي ينتفع بما هو حق لها. وقد يرتبط بهذا بصورة وثيقة بالشعور الذنب الذي يسيطر دائمًا على الأخ تجاه أخته، ولا سيما الأخ الذي يحصل على عروسه من خلال زواجها، والذي يُعبِّر عنه من خلال واجب حمايتها، وتقديم الهدايا لها ما دامت في قيد الحياة.

واستشهدت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بالمثل: «لا بركة في الدية ومهر المرأة» (إلدِّيه وفيد إلوليّة مافيش بركِة).

وهذا القرن بين الدية والمهر لافت للانتباه، وأود أن أشير إلى وجوه التقاء متعددة بين الاثنين، من دون أن أقصد إلى المقارنة المباشرة بينهما؛ فالدية ومهر العروس، كلاهما، يرتبط بالشعور بالذنب[51]، وما الدية إلا عوض، وإنما الحق

---

(48) انظر: Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 433.

«وفي المقابل، فإن بعض الأغنياء لا يسمحون لأي خاطب بطلب يد بناتهم؛ فهم يرون في زواج بناتهم هوانًا، بل إنهم ليفضلون قتلهن على تزويجهن. وعادة وأد البنات ليست حكرًا على الفقراء الذين يمارسونها بسبب الفاقة، فالأغنياء يفعلون ذلك خوفًا من العار... وهناك إحساس عميق بأن من الخزي رؤية لحمهم ودمهم يتحكم به رجل غريب».

(49) يقول غرانت عن إحدى العرائس في: Grant, *The People of Palestine*, p. 59.

«كانت تبدو حزينة جدًا، كما هو متوقع من فتاة صغيرة تترك أمها».

(50) انظر الصفحة 434 وما يليها من كتاب فيلهاوزن المشار إليه سابقًا: «وما كان يجري حتى قبل الإسلام، هو أن المهر لا يذهب إلى الولي بل إلى المرأة. ولم يأت القرآن بذلك، وإنما بنى عليها كعرف قائم. انظر أيضًا الآية الرابعة من سورة النساء.

(51) يقول ياكوب في: Georg Jacob, *Altarabisches beduinenleben: nach den quellen geschildert* (Berlin: Mayer, 1897), p. 57,

«من الشائن لدى قبيلة العُنِزة أن يأخذوا ثمنًا [مهرًا] كهذا» وبحسب ماير في: J. J. Meyer, *Das Weib im altindischen Epos* (Leipzig: Heims, 1915), p. 76f.

يُعدُّ شراء العروس شيئًا وضيعًا جدًا، وخطيئة رهيبة، ومع هذا فالأمر شائع جدًا.

في القصاص وحده؛ أي أخذ نفس بنفس[52]، وأهم ما في ذلك هو أن تكون نفسًا مساوية في القيمة. وقد قيل عندما ثأرت عائلة سالم عِثمان [67] لمقتله بقتل فتى من عائلة القاتل، ذلك «قبر بقبر» (قبر إب قبر)، لكنه ليس «رأسًا برأس» (راس إب راس). ويشبه ذلك ما وجدناه من أن عرائس البدل ينبغي أن يكن متساويات في القيمة، فلا بد أن تتساوى المهور للنساء المتساويات في القيمة، إذا تشابهت ظروف زواجهما.

وفي بعض الأحيان، يحكم على عائلة القاتل بتقديم عروس لعائلة المقتول، وهذا ما حكم به أحمد إسْمَعين [52] بعد الجريمة التي حصلت في «أبو غوش»، الواقعة شمال غرب القدس، عندما طُلب إليه الإصلاح بين العائلتين[53]. وقالت لويزا بالدنسبيرغر: «الفكرة في هذا هي أنها يمكن أن تنجب أولادًا عوضًا عن الرجل المقتول، وإذا لم تنجب أولادًا، يجب أن تستبدل بها امرأة أخرى فيما بعد»[54].

وتستحق المساومة المتعلقة بدفع الدية، والنقاشات المتعلقة بدفع المهر، المقارنة بالمهر كذلك. وقد وضع النبي [عليه الصلاة والسلام] قاعدة للدية. وكما قيل لي في أرطاس، إنه جعلها 33.000 قرش. ولكن في محافل

---

(52) يقول مالتسان في: H. von Maltzan, *Reise nach Südarabien* (Braunschweig: F. Vieweg und sohn, 1873), p. 295.

«لا تؤخذ الدية بتاتًا، باستثناء ممن يسميهم المرء «الضعفاء»؛ أي أولئك الذين لا ينتمون إلى قبيلة قوية. ويُعدُّ أخذها عارًا».

(53) انظر: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 6.

«وتشترط عشيرة الضحية إلى ذلك، في بعض الأحيان، زواجًا دون مقابل لأحد شبابها من إحدى فتيات [عشيرة القاتل]». وذكر ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human Marriage*, II., p. 359f.

«وعادة تزويج المرأة، لا من باب البدل بعروس، ولكن في جرائم القتل، هي من باب التعويض من الدم المسفوح أو كوسيلة للصلح بين أهل القاتل وأهل الضحية».

(54) انظر ما يقوله موسيل عن مثل هذه المرأة في: Musil, *Arabia Petraea*,

«ولا بد أن تتزوج الفتاة الغُرَّة من أحد أقارب الميت، وأن تبقى عنده إلى أن تنجب له صبيًا وتربيَه».

المفاوضات الفعلية، تخفض قيمة المبلغ عدة مرات إكرامًا لله، وكرامة للنبي، وللرجال الحاضرين، وفي بعض الأحيان، للنساء(55).

وعندما دُفعت دية خليل عودة الله (ابن عودة الله جاد الله [19]) الذي قتله خطأً رفيقه في الرعي، وهو ولد من التعامرة، عندما كان يرعى قطيع أبيه، انخفض المبلغ من خلال المفاوضات المبدئية إلى 100 جنيه إسترليني. وقد أدار هذه المباحثات نيابة عن عرب التعامرة أحد أهم رجالهم، وهو محمد الزير، وفي الاتفاق الرسمي النهائي حصلت تخفيضات أخرى.

وقد أخبرتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن هذا، وسأقارن قصتها بوصف ذكرته لي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) لاتفاق مألوف على المهر بين أبي العروس (ابنة موسى خليل [174]) وعلي خليل [173] أبي العريس (محمد علي [179])، وعمه (محمد خليل [171]) بحضور عدد من الأقارب، ولتيسير المقارنة وضعت القصتين جنبًا إلى جنب.

واتُّخذت هذه المفاوضات الرسمية المتعلقة بمهر العروس دليلًا على أن العروس تشرى شراء، ومن الواضح أنها ينبغي أن تقارن بمفاوضات الدية؛ إذ تحصل الاقتطاعات نفسها، ولا أظن أن مفاوضات الدية يمكن أن تعد شراء في أي حال من الأحوال.

ومع ذلك، فمن المهم أن نعرف أن الفلاحين يستخدمون كلمة «يشتري» عند الحديث على الدية. ولا يعد الفلاحون سجن القاتل تكفيرًا عن جريمته؛ فالسجن هو عقوبة الحكومة، ولا يمكن أن يعتد به الفلاحون الذين يسعون إلى العقاب تبعًا لقوانينهم ومفاهيمهم الخلقية. لذلك، فحياة القاتل الذي يخرج من السجن تبقى في خطر، خشية من انتقام أقارب الضحية.

---

(55) انظر جوسان في: J. A. Jaussen, *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict* (Paris: Librairie orientaliste, 1927), p. 143f.

وانظر كذلك: E. N. Haddad: «Die Blutrache in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. LX (Leipzig, 1917), p. 225ff.

المساومة على الدية	المساومة على مهر العروس
«كان عليهم أن يدفعوا 100 جنيه إسترليني، خُسم منها خمسون، وبقي خمسون. وما حسموه كان عشرة جنيهات إسترلينية لله والنبي، وعشرة لمحمد الزير، وعشرة للحاضرين. ورفضت نساء التعامرة أن يتناولن الطعام، فاقتُطعت خمسة جنيهات أخرى، وخمسة عشر جنيهًا للصالحين والأنبياء والحاضرين جميعًا... وتناولوا الطعام، واسترخوا، وطابت نفوسهم. وأعطوا لأهل الميت خمسين جنيهًا إسترلينيًا، وربطوا الرايات؛ رُفعت خمس رايات، يساوي كل منها ألف قرش؛ أي ما مجموعه خمسون جنيهًا».	«نعطيها 100 جنيه إسترليني». قال محمد خليل [171]: «وإكرامًا لله وللنبي؟!» قالوا: «20 جنيهًا إسترلينيًا». «وإكرامًا لخليل الله أبونا إبراهيم؟» أجاب موسى خليل [174]: «خمسة عشر جنيهًا»؛ فقال محمد خليل [171]: «حسنًا! ولمسجد عمر في القدس ولبيت الله؟» قال: عشرة جنيهات إسترلينية. «وللحاضرين؟» قال لهم موسى خليل [174]: «خمسة جنيهات إسترلينية». وهكذا بقي خمسون جنيهًا إسترلينيًا للأب (موسى خليل [174])، وأعطى الأب للعروس عشرة جنيهات إسترلينية».

تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«إذا قَتل أحدهم نفسًا وكان مطلوبًا للقصاص، فإنه يغتسل ويحلق ذقنه عندما يخرج من السجن ثم يطوفون به في الأسواق وهو يهتف: «من يشتري هذه الروح التي خلقها الله!» فيقول الناس الذين يرجون ثواب الجنة: «نحن نشتريها!» عندئذ يمسح الشاري على ظهر القاتل ثلاثًا، ويقول: «أنا أعتقك أمام الله!» فيقبل القاتل يده ويقول: «أنا عبدك! أنا أشكرك!»، ويستطيع عندئذ أن يذهب أينما شاء[56].

وقد فعل عودة الله جاد الله [19] هذا مع الولد التعمري، ولهذا قيمة أكبر من الحج».

(56) قارن هذا بما يرويه موسِل عن الشراء القاتل، وإطلاق سراحه في: Musil, *Arabia Petraea III*, p. 367,

«عندما لا يكون المذنب وعائلته قادرين على دفع الدية، عندها يبيع نفسه «خَشّة»، هو وأولاده لطالب الثأر. ويحدث هذا أمام جمع من القبائل، ويتحدث طالب الثأر قائلًا: اشتريتك شراء صحيحًا جائزًا..».

ويمكن الاستشهاد بحادثة مشابهه؛ إذ اتهمت امرأة بالزنا، وكانت ستعاقب بالموت، لكن «ابن حلال» برأها؛ فعلى سبيل المثال، أنقذ شيخ ذو نفوذ في بيت لحم، وهو سالم شختور، فتاة كهذه؛ إذ ذهبت أمها لترى الشيخ وترجوه أن يساعدها بقولها: «من يشتري هذه الروح التي خلقها الله؟» فأجاب الشيخ: «أنا أشتري هذه الروح». وأعلن في اليوم التالي براءتها أمام الناس الذين اجتمعوا ليشاهدوا ويشاركوا في عقابها، فأُخلي سبيلها.

وتستعمل لفظة «يشتري» علاوة على ذلك بطريقة ثالثة؛ أي عندما يُفتدى الرجل من الخدمة العسكرية(57). وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن أحد أقاربها: دفعنا لأجله 50 عصملية (الليرة التركية) إضافة إلى رشى ونفقات أخرى». وروت عن موسى شاهين [135]، أنه اشترى بهذه الطريقة ابن أخيه وأربعة من أولاده، مقابل 50 جنيهًا إسترلينيًا لكل منهم، وكان على واحد منهم على الأقل، أن يزوج ابنته كبديلة لعروس أخيه بغية تسديد الدَين الذي ترتب عليه للعائلة من جراء ذلك.

وينبغي أن يتذكر الباحث وسائل شراء الرجل أو المرأة هذه عند الحديث عن شراء العروس. وعلى أي حال، فليس في وسعي أن أقدم أمثلة كثيرة على هذا. وسمعت مثلًا، يختلف الناس في روايته؛ تقول فيه الزوجة لزوجها أو لحماتها: «أنتِ اردتني وبمالك اشتريتني» (إنتِ إشتَهيتيني وُبمالِك شريْتِيني).

وقالت لنا زوجة شابة: «من المؤكد أنه اشتراها بدم قلبه، ألا ينبغي عليها أن تنجب له أولادًا إذًا؟» والكلمات التي قالتها حمدية (ابنة سليمان سند [183]) مناسبة لهذا السياق: «المرأة ليست حمارة فتباع وينتهي الأمر». وعلى هذا المنوال، قد يكون قول الناس ملائمًا أيضًا: «لن نترك ثروتنا تذهب إلى الآخرين»؛ إذ قد تشير كلمة ثروة (خير) إلى الابنة، أو الزوجة، أو مهر العروس، أو قد تشير إلى الأملاك الخاصة بالمرأة، والتي تبقى ملكًا لها بعد الزواج.

(57) انظر: Lees, *Village Life in Palestine*, p. 198,
«لا يأخذ من كنزه المكدس، إلا عندما يوشك ابنه أن يؤخذ كمجند ليخدم في الجيش، عندها يحسب كارهًا وعلى مضض المبلغ المطلوب ليفتديه».

وإن سأل أحدهم الفلاحات مباشرة عن هذا قائلًا: «أليست العادة عندكم أن يشتري الزوج زوجته؟» أو ألمح إلى أن الأب يبيع ابنته كعروس لرجل؟ - وهو الشيء ذاته - ينكرن هذا بسخط شديد كما يفعل العرب المتعلمون في المدينة؛ فمهر العروس لا يبدو لهم دفعة للشراء؛ فالغربيون وحدهم هم الذين لا يترددون في تسمية مهر العروس في فلسطين شراء، ذلك أنهم يفتقرون إلى الحس المرهف فلا يميزون الفروق الدقيقة. ويصف مؤلف كتاب نشر مؤخرًا الرجل في فلسطين بأنه كسول وبليد؛ فهو يترك المرأة تعمل له، وتحمل الأثقال، بينما هو يمشي مرتاحًا، أو يركب حمارًا، ويضيف مفسرًا «الحمار هنا أثمن من زوجة[58]». وسألت ذات مرة شابين من الفلاحين عن سعر الحمار، بينما كنت أتحدث عن مهر «سعر» العروس، وفي ذهني هذا التعبير الأوروبي، وفي الحال فطنا إلى ما كنت أرمي إليه! وراق لهما ذلك، وضربا ركبتيهما ضاحكين، ولم أحصل حينها على إجابه. ولم يكن مفاجئًا أن يضحكا من سؤال سخيف وغبي كهذا! وصادف أن كان أحدهما أحمد مصطفى [74] الذي كان يعاني الأمرين آنذاك لتجميع مهر العروس الذي يحتاج إليه، ولا بد أنه فكر كم كان أيسر له لو أنه أراد أن يحصل على حمار. وسعر الحمار في الحقيقة ستة جنيهات إسترلينية، أو أقل بعشر مرات من مهر أقل عروس تكلفة في أرطاس، وأقل مئة مرة من تكلفة عروس في قرية غنية مثل لفتا. وعندما يقول رجل لم يدفع مهرًا وافيًا لزوجته مستهزئًا: «سعرك سعر حمارة [أتان]، ولا يهم إذا مِتِ»، فإن هذا يعد دليلًا معكوسًا على أن للمرأة مَنزلة مختلفة تمامًا. وحقيقة أن مهر العروس مرتفع جدًا، وكفيل في الغالب بأن يمنع أي فلاح من مقارنة المرأة بالحمارة [الأتان].

وعلى الباحث أن يحذر من إعطاء الربط بين المرأة والحمارة [الأتان] قدرًا أكبر مما ينبغي من الأهمية[59]؛ فالمرأة في أرطاس تعرف، بكل تأكيد،

(58) انظر: F. Böök, *Resa Till Jerusalem* (Stockholm: Norstedt & Söner, 1925), p. 230.

(59) انظر أيضًا: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, p. 92,

«عندما تُذكر الحياة العسيرة وعمل الزوجة الشاق، يقول الفلاح من باب الدعابة، في بعض =

المثل القائل: «في الليل امرأتي، وفي النهار حمارتي» (في إلليل مَرَتي وُفي إلنهار إحمارتي). ولكنهم أكدوا لي أن هذا لا ينطبق على قريتنا، ولكنه كذلك بين القرويين في حوسان؛ حيث لا يعاملون زوجاتهم معاملة حسنة، وليس لدي أدنى شك في أن أهل حوسان، لو سُئلوا، لأنكروا ما ينسب إليهم. وفي المقابل، كثيرًا ما أسمع أهل أرطاس يستخدمون تعبير «هي أصيلة»؛ أي إنهم، إذا ما أرادوا أن يثنوا على امرأة، فإنهم يقارنونها بفرس أصيلة، وهو أفضل شيء يعرفه العربي. وأكرر هنا كلمات حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «فالمرأة ليست حمارة [أتان] فتباع وينتهي الأمر. وإنما هي كفرس أصيلة؛ فكما للأصيلة مُهْران، للمرأة مَهْران (فيد وبلصة)». وثمة ضوابط ينبغي اتباعها عند الحصول على الفرس الأصيلة؛ فالرجل لا يتخلى عن فرسه الأصيلة إلا بشرط الحصول على أول مهرين تلدهما بعد تركه لها، وكذلك، يرتبط الحصول على العروس بأعراف تجعل مقارنته بالشراء في غير مكانها.

وفي سياق آخر، لفت إميل بالدنسبيرغر، وهو أخو زميلتي في العمل، وهو على معرفة تامة بعادات الفلاحين؛ لأنه يعمل نحَّالًا متنقلًا، انتباهي إلى أن الناس في أرطاس لا يستعملون كلمة «حَقّ»[60] لدى الحديث عن مهر العروس، كما يستخدمونها، على سبيل المثال، عندما يتكلمون عن سعر حمار أو قيمة البضائع، وإنما يستخدمون كلمة «فيد»[61]، أو الكلمة نفسها التي تشير إلى المُهرين اللذين ينبغي أن يردًا إلى المالك السابق للفرس الأصيلة. وكلمة «مَهر»[62]، وهي الكلمة العربية المتعوَّدة في هذا السياق، تشترك في الجذر مع

= الأحيان: دعها تعمل، فلهذا الغرض بالذات اشتريت حمارة. وتضحك معه زوجته من قلبها؛ فالأمر في الواقع ليس بذاك السوء كما يبدو. وإلى ذلك، فهناك فرق كبير بين الزوجة المشتراة بهذه الطريقة، والأمَة المشتراة بالفعل».

(60) يتحدث كلاين عن «حق البنت» في: المصدر نفسه، ص 90، انظر أيضًا: Burckhardt, *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gebräuche der neueren Aegyptier*, p. 173.

(61) ذكر مولينن أن الفلاحين يستخدمون لفظة «فيد» في: Mülinen: «Beiträge zur Kenntnis des Karmels,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 170.

(62) يقول فيلهاوزن في: Wellhausen: «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 433, =

كلمة «مُهرة»، وهي أنثى الفرس الصغيرة. ويؤكد هذا أيضًا أن الرجل إذا جاء يطلب عروسًا، استخدم الصيغة التمهيدية الآتية: «أرغب في مُهرة»، فيُسأل: «أمُهرة تأكل بيدها أم بفمها؟» فيجيب: «مُهرة تأكل بيدها». وقد يكون ثمة تلاعب بالألفاظ هنا، للشبه بين لفظتي «مَهر» و«مُهرة». ولكن حمدية (ابنة سليمان سند [183]) حدثتني أيضًا عن مفاوضات على عروس من عرب التعامرة (زوجة محمد إسْمَعين [53]) جرت على النحو الآتي: «لم يعلم أحد طبيعة الاتفاق النهائي، لكنه قدم لأجلها مُهْرَة ومالًا صُرَّ بمنديل (صُرة عرب)». ولفظة «مُهْرَة» تُستخدم أيضًا اسمًا لامرأة؛ فهناك امرأة من التعامرة متزوجة في قريتنا تدعى «مُهرة» (زوجة أحمد إسْمَعين [52]).

وأقوى الأدلة التي تدحض القول بأن الرجل يشتري الزوجة، هو أن سلطة الزوج على زوجته ليست مطلقة البتة، على الرغم من أنه يدفع لها المهر. فعلى الرغم من أن من واجبه أن ينفق عليها[63]، فإن لها أن تمتلك ما ليس له حق التصرف فيه، وكذلك تفعل. ويسري هذا على ما تملكه عند الزواج، وكذلك على ما تكتسبه وهي زوجة له[64]، كالمال الذي قد تحصل عليه في يوم

= «هناك مترادفات عديدة للفظة «مهر». وكان لها في الأصل معان مختلفة، تطابقت مع مرور الوقت». ويشير في حاشية إلى الكلمة العبرية «مُهَر»: «لكن أيضًا في العبرية لم تُستخدم هذه اللفظة في الأدب القديم للحديث عن شراء الأشياء، بل استخدمت فقط عند التنازل عن الأشخاص، من دون أن يُدفع ثمن لذلك، ومنها التعبير المألوف والمتكرر: وباع الرب شعبه بيد أعدائه».

(63) بحسب باور فإن، على الزوج «أن يعيل زوجته، وإن امتنع عن ذلك، فللزوجة أن تحسب ديونًا على الزوج، بل وتستطيع أن تقاضيه ليفيَ بالتزاماته». انظر: Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, p. 97.

(64) يذكر بيروتي في: Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine*, p. 190, أن الزوج يدعو أقارب العروس إلى وليمة بعد سبعة أيام من العرس «الذين يُتوقع منهم أن يقدموا هدية لها بعد العشاء». ويضيف بيروتي: «وهذا المال دون سواه من الأموال الأخرى التي حصلت عليها، يتركه زوجها تحت تصرفها، لتنفقه في شراء الملابس، أو في زيادة قطع المسكوكات التي تضعها زينة حول وجهها ورأسها». ويقول باور أيضًا في الصفحة 97 من المرجع المشار إليه سابقًا: «ويمكن للمرأة أن تتصرف بمقتنياتها كما تريد، كما يمكنها أن تنفق ريع تربية الدجاج على العائلة تبعًا لتقديرها». انظر أيضًا: C. G. Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II. (Cambridge: Harvard University Press, 1918), p. 131,

«يبدو أن للنساء مطلق الحرية في التصرف بأموالهن».

عرسها من الأقارب والأصدقاء. وكانت المرأة قديمًا تحمل مالها مخيطًا في غطاء رأسها[65]. واشترت شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]) في عام 1926 حصة في شجرة مشمش بالمال الذي حصلت عليه كعروس، وبإمكانها الآن أن تحتفظ بالمال الذي تحصل عليه من حصتها في ثمار الشجرة. أما الأرملة زريفة (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة إسْمَعين سعد [14]) فلها قطعة الأرض التي قدمها زوجها مهرًا لها، وسُجِّلت باسمها، وهي الآن تزرعها ولها دخل منها. وعندما تزوجت فاطمة شختور من عيسى خليل [11] عام 1925 فضلت أن تأخذ منه مالًا على أن تأخذ أساور، وخواتم، وقطع حلي أخرى، هي جزء من جهاز العروس. وبهذا المال، وبالمال الذي حصلت عليه يوم العرس، اشترت دكانًا في بيت لحم، بلدتها الأصلية، أدارها عيسى خليل [11] بعد ذلك. وهي تخطط للذهاب وزوجها إلى أميركا لاحقًا، ولن يكون ذلك غريبًا إذا ما حققت هدفها هذا، لما تتسم به من حماس شديد. ويُقال إن بيت جارنا شاهين موسى [139] بُني بالمال الذي أخذه من زوجته صفية (زوجة شاهين موسى [139]) المولودة في شَرَفات.

وللمرأة أن تمنح مالها لزوجها بإرادتها، لكن ليس له حق فيه.

ولا تنتمي المرأة كليًا إلى بيت زوجها أبدًا؛ فخلافًا لما هو عليه الأمر في الغرب، تبقى المرأة بصورة أو بأخرى، فردًا في عائلة أبيها، حتى بعد الزواج.

(65) انظر: Lees, *Village Life in Palestine*, p. 197,

«لها أجرها؛ إذ يُسمح لها، في الأقل، أن تحتفظ بكل ما تكسبه من عملها، فقد تمتلك بقرة وتبيع الحليب، وتربي الطيور وتبيع البيض، والمال لها. وتدخر كل مسكوكة بحرص. وبنك مدخراتها في عقدها أو عصابة رأسها، حيث تضع ثروتها كلها، تضيف مسكوكة تلو الأخرى، حتى يصبح لديها مجموعة من المسكوكات الفضية». انظر أيضًا: Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, p. 130,

«فإضافةً إلى هذه الأساور والحلي الأخرى، يلبسن صفوفًا من المسكوكات على عصابات رؤوسهن. والهدف الأصلي من هذه العادة، وكذلك بعض أهداف لبس الحلي من دون ريب، هو الحفاظ على أموالهن... واستمرت النساء لذلك أموالهن في المجوهرات لسنوات طويلة، أو وضعنها على عصابات رؤوسهن، حيث لا يستطيع الدائن أو الحكومة لمسها، إلا أن بإمكان المرأة نفسها استخدامها. وإحدى الوسائل الأكثر شيوعًا للحصول على المال هي أن ترهن المرأة حليها، ولا يلحق ذلك بها أي عار».

ولا تحمل اسم زوجها[66]، بل تنادى باسمها الأول متبوعًا باسم أبيها أو باسم عائلتها إن وجد[67]. وإذا عملت الزوجة سوءًا، فإن أباها أو أخاها هو المسؤول عنها، وليس زوجها، وهو الذي يعاقبها، كما أن أقاربها بالدم هم من يحمونها وليس زوجها[68]. وإذا ما مات عنها زوجها، يؤول أمرها إلى عائلة أبيها مرة أخرى، وإذا رغبت عائلة زوجها ببقائها، فعليهم أن يسألوا أباها، أو أخاها، وأن يقدموا لهم الهدايا. ويجب أن يُدفع مهر جديد، حتى وإن كان الزواج من أخي الزوج الميت، ويجب أن تساق من بيت أبيها كعروس. فيحق لنا أن نتساءل هنا إن كان الزواج على هذا النحو شراءً، فها هي الزوجة تعود بعد موت زوجها إلى بيت أبيها، على الرغم من أن عائلة الزوج، وليس الزوج، هم الذين يدفعون مهرها.

وأخيرًا، هناك حالتان في أرطاس يرى فيهما حتى الفلاحون شراء للزوجة؛ ففي أوقات العوز الشديد قد يُجبر الناس على بيع بناتهم «كما تُباع الماشية أو الإماء». وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن امرأتين تزوجتا على هذا النحو برجال من قريتنا قبل حوالى أربعين عامًا؛ إذ كانت الأماكن حيث عاشتا ترزح تحت مجاعة شديدة، إضافة إلى اضطهاد الحكومة للناس في تلك الأماكن، حتى لم يبق أمام الناس إلا بيع بناتهم، ويعد هذا بلاءً مبينًا.

«جيء بفاطمة (زوجة عبد السلام إبراهيم [92]) وبعيشة (زوجة محمد خليل [99]) إلى السوق لِيُبعن كالماشية أو الإماء (أجوُ جَلَب). وأُبرمت صفقة عيشة (زوجة محمد خليل [99]) في القدس. وقد كن كثيرات (للبيع) كالخراف والماعز. وأخذ الكوافنة بعضهن، وكذلك أهل بيت صفافا، وقيل إن أهل الوَلَجِة أخذوا مائة، ثم جاء الأمر بإعفاء المتزوج من امرأة غريبة من الخدمة العسكرية».

---

(66) انظر: F. Auerbach, «Die syrische Frau,» in: *Archiv für Rassen und Gesellschafts-Biologie*, XII (München, 1916-1918), p. 114.

(67) للزير، على سبيل المثال، أهمية تماثل أهمية اسم العائلة في الغرب تقريبًا. وفي ما يتعلق بالأسماء انظر: Grant, *The People of Palestine*, p. 72f.

(68) انظر أعلاه في الصفحة 102 من هذا الكتاب.

وأرادت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بهذا أن تبين السبب الذي حمل رجال أرطاس على التفكير في الزواج من نساء من أماكن بعيدة، مثل سنجل وسلواد، الواقعتين في منتصف الطريق بين القدس ونابلس[69].

«وكان السبب الثاني ظلم الحكومة والفقر والمجاعة، وقد كان الأمر في الشمال أشد سوءًا منه هنا، وجاءت فاطمة (زوجة عبد السلام إبراهيم [92]) وعيشة (زوجة محمد خليل [99]) في السنة نفسها، وكان الوسيط عبد الجابر؛ إذ ذهب إلى الشمال وأحضرهن من سنجل ليعرضهن في القدس، وترتدي النساء في الشمال ثيابًا بيضاء.

والتقى إبراهيم عايش [82] بعبد الجابر في القدس، وكانت البنتان بصحبة عبد الجابر، وأمهاتهما كذلك، وكان الوسيط هو عبد الجابر، واتفقوا على السعر وأحضروهما. أخذ إبراهيم عايش [82] إحداهما (فاطمة إلشَّمالية) من سنجل لابنه عبد السلام [92].

وغضب عبد السلام [92] وشعر بالإهانة؛ فقال له الرجل العجوز (إبراهيم عايش [82]): أحضرت لك هذه، إما أن تأخذها أو تتركها، ولكنك إن لم تأخذها، فلن تتزوج ما دمتُ حيًا. وألبسوها ثياب إحدى أخوات زوجها، وثياب سارة (إحدى زوجات حميِّها إبراهيم عايش [82])، وحُملت على جمل العرس، وقدموا الأرز واللحم في القرية، ولكن أباها تذمر قائلًا:

«أجبرنا على عرض نسائنا للبيع - يا أجواد» (علينا دلَّل إلدَّلاَّل يا جْواد)
«وكرهنا أرضنا من الظلم - يا أجواد» (وعُفْنا بلدنا من الظُّلُم يا جواد!)

وقال هذه الكلمات وبدأ ينحب. وفي ذلك الوقت كانت المرأة الغريبة تعفي الرجل من الخدمة العسكرية، وكان جابر هذا هو الوسيط، وكان يتكسب من ذلك.

وكانت النساء إذا ما تشاجرن معها (زوجة عبدالسلام إبراهيم [92])،

---

(69) انظر أعلاه في الصفحات 104 و137 وما يليها من هذا الكتاب.

قلن لها: أنت يا من بيعت كالأمَة! يا هدية منتصف الليل (يا جَلَب، يا هدية نص الليل!)

وأحضر الشيخ محمد خليل عايش [99]، الدرويش، في السنة نفسها عروسًا (عيشة) بالطريقة نفسها؛ فلم يكن هناك احتفال كبير كالمعتاد، ولم يذهب موكب العرس إلى أرضهم، ولم يعرف أحد أين أبواب بيوت أهاليهن. وقد حدث كل شيء جملة واحدة: الطبخ، وعقد القران، والعرس». وهكذا ختمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قصتها.

وتصنَّف هذه الطريقة في الحصول على العروس عند الفلاحات ضمن فئة خاصة، وهي وحدها التي تسمى «بيع البنات». لكن حتى في هذه الحالة الاستثنائية، لا توجد امرأة واحدة ترهن نفسها تمامًا بحسب مزاج زوجها، بحيث لا يعود من حقها أن تطالبه بمعاملتها معاملة عادلة؛ فلإخوتها، كما حدث في أرطاس، الحق بالمجيء إلى الرجل ومساءلته عن طريقة معاملته لأختهم، ويتضح من هذا أن سلطة الرجل على زوجته لا تكون مطلقة إلبتة، وأنه لا يمكن شراء الزوجة بالفعل أبدًا.

وعندما كنت في أرطاس خلال موسم الأعراس في عام 1926، كان هناك حالة، لولا أني قارنت فهمي لها بأقوال الفلاحات وآرائهن، لكنت افترضت أنها شراء عروس. وهذا يذكرنا مرة أخرى بأن علينا أن نحرص على أن لا نستخدم المعايير الغربية في فهم العادات الشرقية.

وتتعلق المسألة بفتاة من أرطاس، عانى أهلها في هذه الحالة أيضًا ظروفًا مالية صعبة، واحتاجوا إلى المال؛ فذهب عم البنت إلى السوق في القدس وعرض البنت هناك، وتحدث إلى صاحب دكان، فرتب الأمر، وأجبرت الفتاة على الزواج من رجل أرعبها؛ فلم تكن رأته من قبل، وكان من لِفتا شمال القدس. وقيل إنه ذو عاهة، ولم تكن الفتاة تريد أن تتزوج رجلًا كهذا تحت أي ظرف.

وأخبرتنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن هذا قائلة:

«رغب أحمد عِثمان [34] عم حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) بتزويجها،

فتحدث في القدس مع التاجر أبو كامل قائلًا: ألا يمكنك أن ترتب مكانًا لهذه الفتاة؟ ما صلتك بها؟ - هي ابنة أخي، وأخوها عِثمان محمد [37] في ضيق ويريد أن يتزوج. تعال، لنسأل هؤلاء الناس!

وذهبوا إلى عائلة حمودِة من لِفتا وتحدثوا إليهم. أين سنلتقي؟ - في بيت خليل عيسى (مسيحي في بيت لحم). وجاءت أم العريس في اليوم المحدد ومعها أربعة رجال (جاءوا معها من لفتا) إلى بيت خليل عيسى، وقالوا لحمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) التي أرادوا أن يزوجوها، إن إم عيسى تريدك للعمل. وكان الغرض من هذا أن يراها أقارب العريس. وذهبت الفتاة إلى هناك، وألبستها المرأة المسيحية ملابس حسنة، وعملت هناك، وقدمت القهوة والشاي، وأحضرت الماء، وقامت على خدمة أهل لِفتا، وكانوا مسرورين بها».

وقد حدث هذا في نهاية شهر أكتوبر/تشرين أول عام 1926، ولم يأتِ العريس إلى بيت لحم، ولكننا علمنا أنه ذو عاهة، وقال بعضهم إنه فقد إصبعًا، وآخرون قالوا يده كلها، وآخرون أيضًا ذراعه كلها. وفي الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر روت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي:

«قالت حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) بالأمس عند قطاف الزيتون: 'لن أقبل به، حتى وإن قطعتموني قطعًا، ورميتم قطعة على كل تلة، لن آخذه؛ فبدلًا من أن يساعدني، علي أن أبادر بأن أحزمه'».

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «إلا أن أحمد إسْمَعين [52] قال: العائلة ذات حسب».

واستطاعت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أن تخبرنا بأن عقد القران قد كان أُبرم في اليوم السابق.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «عقدوا القران لكنهم يرغبون في الطلاق».

وعلم الشيخ، بطريقة ما، أن حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) لم تكن

راضية بعريسها، ولما كانت الحكومة تصر الآن على أن لا تتزوج امرأة قسرًا، فلم يجرؤ على عقد القران في الحال، لكنه تصرف بطريقة تحميه إذا ما كانت العواقب وخيمة؛ فقد ترك أهل العروس والعريس في بيت لحم، وذهب إلى أرطاس ليتحدث إلى الفتاة بنفسه. وسأترك حمدية (ابنة سليمان سند [183]) تروي هذا:

«قبل مجيء الشيخ، أخذ منها أخوها تفويضًا للتصرف باسمها، ثم جاء الشيخ وقال: «أروني الفتاة! نريد أن نعقد القران». وجاء إلى الفتاة، وقال: «هل حصل أخوك على تفويض منك؟» فقالت: «نعم». فقالوا: «اعقد القران يا سيدنا!».

وسأل الفتاة: «أين العريس؟» قالوا: «في قريته (أي في قرية لفتا).» فقال: «إذن لن أعقد القران.» فقالوا: «لماذا؟» قال: «ربما يكون بعين واحدة، أو أقرع، أو فقير، وقد لا تقبله الفتاة، وأنا مسؤول. وستعاقبني الحكومة».

فاتصلوا بلِفتا هاتفيًا وجاء العريس (إلى بيت لحم)، ووجدوا أن له يدًا واحدة فقط. قال الرجال الحاضرون من أرطاس: «هذا لن ينفع. كم مهرها؟ قالوا: '80 جنيهًا'».

فغضب القرويون الحاضرون من أرطاس غضبًا شديدًا؛ لأن مهر العروس التي تخرج من القرية يجب أن يكون 100 جنيه، وبدأوا بالصراخ أحدهم على الآخر:

«'هل هي حمارة فتباع في السوق؟' - 'ألم يبق عرسان في العالم؟' - 'هل هي من بقايا الطعام؟ (هي كُسبِة بايتِة؟)' - ثم قال عبد السلام إبراهيم [92]: 'إذا كانت رخيصة إلى هذا الحد فإني أريدها (لابني)، وأنا أحق بها؛ لأنني من القرية (أنا أبدى، أنا إبن البلد)'. ثم علموا أن عمها (أحمد عِثمان [34]) أخذ عشرين جنيهًا».

كان قرويو لِفتا قدموا 100 جنيه كما ينبغي أن يكون مهر عروس من أرطاس تخرج من القرية، لكن عمها أحمد عِثمان [34] احتفظ بعشرين جنيهًا

لنفسه. وصبَّ الناس من أرطاس، ولا سيما الأقربين من الأقارب، جام غضبهم على أحمد عِثمان [34].

«ونال نصيبه، وكانت هناك كلمات تقطع الأحشاء، وضربات على رأسه».

وقد أحيت أخبار هذا الهرج عند حمدة (ابنة محمد عثمان [33]) الأمل مرة أخرى بأن لا تضطر إلى أن تتزوج هذا الرجل، وهذا يفسر قولها المذكور أعلاه، عند قطاف الزيتون.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أيضًا: «انقطع الخيط، وتبعثرت خرزات السبحة».

ولكن رجال أرطاس فهموا أيضًا أن أهل حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) يمرون بضائقة مالية، وأن عمها أحمد عِثمان [34] كان في قبضة الرجل المسيحي الذي رُتبت الأمور في منزله؛ فقد أقرض العائلة مالًا كثيرًا.

«وخليل عيسى هو الناصح لأحمد عِثمان [34] والأولاد، ولا يُقطع خيط من الصوف دون مشورته».

ووجدوا عزاءً في أن تذهب حمدة (ابنة محمد عِثمان [33])، وهي ابنة أرطاس، إلى «عائلة غنية وذات حسب». واتضح، على الرغم من كل هذا الهرج والشحناء، أن عقد القران قد أبرم، وأن مختار القرية ختم الورقة ليتم الزواج.

وفي الرابع عشر من تشرين ثاني/ نوفمبر جاءت بعض قريبات العريس في سيارات من لِفتا إلى أرطاس لتخضيب العروس بالحناء، وغنت النسوة ورقصن لابن عمهن العريس - كما سمَّينه - قبل الحفل وخلاله، بينما جلست العروس في الزاوية تندب حظها، فهي ستؤخذ بعيدًا إلى مكان غريب، وإلى رجل لا تريده. وفي اليوم التالي جاء مزيد من الأقارب والأصدقاء من لِفتا ومن بينهم أبو العريس، إلا أن العريس نفسه لم يأتِ معهم. وأُخذت حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) في خمارها بعيدًا من بيت أبيها على ظهر حصان خلال القرية، وتبعتها نساء أرطاس وهن يصفقن بأيديهن ويغنين أغاني الوداع، وأغاني أخرى

للعروس. ونزل المطر، فقال الناس إنها عروس مباركة. وعندما وصل الموكب إلى الطريق المتجهة من دير القرية إلى برك سليمان، أنزلت العروس عن الحصان ووضعت في السيارة التي حملتها إلى بيت زوجها في لفتا.

ووقفنا بباب بيت لويزا بالدنسبيرغر وشاهدنا رحيل العروس، ومن حزني لمصير حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) سألت النساء: «أليس هذا بيع للابنة؟» وذكرتهن بفاطمة من سنجل (زوجة عبد السلام إبراهيم [92]) وعيشة من سلواد (زوجة محمد خليل [99]) المرأتين الشماليتين اللتين، بحسب ما قلن، بيعتا كالماشية أو الإماء (أجوُ جَلَب)[70]. فذكرتني النساء أنه في تلك الحالين كان هناك وسيط عرضهن للبيع في سوق القدس، وأن احتفال الخِطْبة والعرس في تلك الحالين، كان وليمة واحدة، وأن الأعراف المعتادة لم تُتبع، وأنه لم يكن هناك موكب للعروس من القرية، ولم يرَ أحد من أرطاس باب بيت العروس، بينما كان لحمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) وليمتان في يومين مختلفين، وحفظت لها كرامتها بما تقتضي العادة، ولم يكن باستطاعة النساء رؤية أي وجه للشبه بين هذا والمثالين السابقين. وكان عليَّ تصويب رأيي؛ فقد أدركت الدلالة العظيمة لطقوس العرس، والتي تفسر نظرة الناس إلى ما جرى على أنه زواج لا بيع؛ فالالتزام الصارم بالعادات أهم من رضا العروس والعريس، ويضاف إلى ذلك الرأي العام؛ أي إقرار المجتمع.

ولا يجد الناس حرجًا في التهاون في بعض الطقوس أحيانًا، ما دام الرأي العام إلى جانب الرجل، ووجهاء القرية يؤيدونه، ولا يتصرف على هواه. وهكذا تمكن عِثمان محمد [37] أخو حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) المذكورة أعلاه من أن يحصل على عروس لنفسه من دون أن يتكبد النفقات كلها. مع أن العرف كان يؤكد، حتى تلك اللحظة، أهمية أن يدفع الرجل نفقات الزواج كافة، وبصورة تامة. ولهذا، فقد يلزم أن نصف حال كهذه تجوز الناس فيها في طلباتهم، وعقَّب أهل القرية على هذه الحال قائلين: لولا حمدة محمد (ابنة محمد عِثمان [33])، لما استطاع عِثمان محمد أن يتزوج، إلا أنه وعلى الرغم

(70) انظر أعلاه في الصفحة 192 من هذا الكتاب.

من هذا لم يكن يملك ما يكفي من المال للمهر والعرس؛ ذلك أن عم الفتاة الذي رتب أمر زواجها أخذ شطرًا كبيرًا من المهر لنفسه، كما وجب قضاء جزء من ديون العائلة، عندما عرف الناس أن زواج الأخت جلب مالًا لإخوتها. وبقي لحمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) أخوان أعزبان في البيت؛ فقد توفيت الأم منذ زمن بعيد، وكانت أختها الكبرى متزوجة، وكان أحد إخوتها ضريرًا، وقد لا يتزوج، أما عِثمان محمد ([37]) فكان مصممًا على الزواج على الرغم من ضيق الحال. وتروي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) كيف شرع في الأمر.

«ذهب عِثمان محمد [37] إلى الأقارب (قرايب) في منتدى الرجال. وقال لهم: «خرب بيتي فأشيروا علي؟» فأجابوه: «تعال، دعنا نر الفتاة، أتمهلنا في ما سيلزم للزواج أم لا».

وذهب محمد اسْمَعين [53] ومحمد محمود، وهو الرجل من حلحول وزوج حِلوِة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170]) إلى بيت مصطفى جاد الله [18] (أبي الفتاة). وقالوا لها: «ماذا تقولين يا بنت»؟ وقالوا: «أتصبرين عليه، وتنتظرين حتى يستطيع أن يقدم ما يلزم أم تريدين البقاء في بيت أبيك؟ أما إذا صبرت عليه، فباستطاعتك الزواج هذا الأسبوع. وإذا صبرت عليه فإنك بذلك تصبرين على نفسك، فليس هناك إلا أنت وهو. وإذا أبيت إلا أن تأخذي منه، فستجعلين نفسك فقيرة». فأجابت العروس: «سوف أصبر وأنتظر المال»، وأعطوها وثيقة تثبت أن عِثمان محمد [37] مدين لها بعشرين جنيهًا إسترلينيًا، ويجب أن تحصل على 10 جنيهات من أبيها و20 جنيهًا من العريس.

وكان هذا الحديث في المساء، وذهبوا في الصباح التالي إلى السوق لشراء الجهاز، وأحضروا لها ثوبًا أخضر (ثوب إخضاري)، وأحضروا معطفًا ومنديلًا من الحرير.

وتحدث الرجال إلى الفتاة والأُمَّين الاثنتين؛ أمها (زوجة مصطفى جاد الله [18]، وصبحة زوجة مصطفى جاد الله [18] [زوجة أبيها])، وكان الأب حاضرًا أيضًا، وحدث هذا بمباركة الأبوين، وقد رتبت هذا صبحة ابنة إسْمَعين سعد [51] (زوجة مصطفى جاد الله [18]).

وسيغني الناس هذا المساء، يوم الأربعاء السابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، لعرس حمدة (ابنة محمد عثمان [33])».

هذه النهاية السعيدة لعِثمان محمد [37] تردُّ، في المحل الأول، إلى حكمته في عرض قضيته في المنتدى؛ فنهض أعضاؤها للأمر، وأرسلوا ممثلين لهم لبحث الأمر مع الفتاة في بيت أبيها وبحضور أهلها، وهكذا اتسع نطاق المسألة، وغدت مشهودة ومؤيدة في المجتمع. كما لقي عِثمان محمد [37] تأييدًا من زوجة أبيها الأولى صبحة إسْمَعين (ابنة اسْمَعين سعد [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18])، وهي امرأة ذات عزيمة وقوة، وبحسب ما قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183])، كانت هي وراء الأمر كله - من الجدير بالملاحظة أن أحد الذين حضروا إلى بيت أبي العروس كان أخوها - وقيل إن تعاطفها مع حاجة الشاب كان أكثر من تعاطفها مع ابنة ضرتها الشابة التي ستسر لرؤيتها تغادر البيت. ولم يكن لأم الفتاة نفسها، فاطمة (زوجة مصطفى جاد الله [18]) رأي في الأمر، فقد جلست ساكنة صامتة. ولهذا أيضًا، تهاونوا في مصالح العروس. وما زال عِثمان محمد [37] مدينًا لعروسه (ابنة مصطفى جاد الله [18]) بالجهاز، والحلي، والمال، ولكنها أخذت وعدًا بأن تحصل على ما نقص من ذلك من زوجها في ما بعد.

حدثتني حمدية (ابنة سليمان سند [183]) قائلة: «أعطى الحاضرون ضمانًا إن أخلف عِثمان محمد [37] وعده؛ إذ كفله كل من مختار القرية محمد إسْمَعين [52] ومحمد محمود من حلحول، وهو زوج حِلوِة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170])، وكتبا لها ورقة وأعطياها لأمها».

ولكن حمدية (ابنة سليمان سند [183]) وَعليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كلتيهما اتفقت على أن هذا الأمر شكلي بحت، وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«إذا أرادت خضرة (ابنة مصطفى جاد الله [18]، وزوجة عِثمان محمد [37]) مالًا، فسيقولون لها: الرجل كله لك! وسوف يكون المال بعيدًا منها، أبعد من نجوم السماء».

وعندما تقارن كلام حمدية هذا بالحجة التي ساقها الرجال في حوارهم مع الفتاة، عندما بينوا لها أنها إن طالبت زوجها بالمال والجهاز كله، فإنها ستلحق الأذى بنفسها، تجد أنه من الأرجح أن خضرة (ابنة مصطفى جاد الله [18]، وزوجة عِثمان محمد [37]) لن تنال ما هو حق لها أبدًا، ولا سيما أنه لا يمكنها أن تركن إلى دعم عائلتها نظرًا إلى نفوذ صبحة (ابنة إسْمَعين سعد [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]) العجيب على الأب وبقية أفراد العائلة. وما يلفت الانتباه أن الرجال يحرصون على الرجوع إلى العروس طالبين موافقتها، فقط عندما يقصدون إلى عدم إعطائها ما هو حق لها، وهم في ذلك في مأمن من معارضتها، نظرًا إلى قلة خبرتها، واعتمادها على أهلها. وأكدت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أن أبويها باركوا ما جرى.

وموافقة العروس والعريس ليست ذات شأن كبير. وإذا لم يستطع رجل، أو لم يشأ، أن يدفع مهر العروس لأهل المرأة أو أن يتحمل نفقات الخِطْبة والعرس، فليس أمامه إلا الهرب معها إذا وافقته الفتاة على ذلك، ولكنهما إن فعلا ذلك يصبحان منبوذين من مجتمعهما أبد الدهر، ولا تجد في أرطاس إلا مثالًا واحدًا على مثل هذه الحالة.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في ما يأتي كيف هرب رجل، وهو عطا الله عطية [191]، مع صبحة من بيت ساحور (زوجة عطا الله عطية [191]) التي التقى بها في بيت لحم، وكيف كان مصيرهما.

«كانت تخدم حوذيًا يدعى محصي، وقد التقيا في السوق (في بيت لحم) وتحدثا. وقال لها: تعالي، ضعي يدك في يدي ولنذهب شرقًا (عبر نهر الأردن)، ونترك هذا البلد ونذهب! وتركوا هذا البلد، وقد عشت معهم في أثناء الحرب، وأنجبت طفلها الأول ومات. لقد فر من الحكومة، ومن المهر. وحدث هذا في أثناء الحرب.

وتعيَّش من السرقة، ولأنه سرق من الشراكسة الذين أرادوا الإمساك به وتسليمه إلى الحكومة، فر ليلًا، وعاد ليعيش هنا، وكان أهل بيت ساحور الذين خطف زوجته منهم، في طلبه. وأعاد بناء بيت حِلوِة إلحجّة خليل (خليل شحادة [170])، وسكن فيه خلال فترة غيابها في مكة.

وبعد ذلك علم (نَشَقوُ) أهل بيت ساحور أنه في أرطاس. والتقوا بعبد السلام إبراهيم [92]، وقالوا له: إذا لم ترغمه على ترك القرية فسنأتي ونقتله، ونهدم البيت!

واستدعاه عبد السلام إبراهيم [92] وأخبره بذلك؛ «فجاء ليلًا بعربة (لنقل متاعه)، وباع البيت بسبعة جنيهات إسترلينية لابن عمه».

وفي هذا، قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «إنها سرقة (خطِف)، هو سرقها (خطفْها)». هكذا يُنظر إلى الأمر، ليس في هذه الحالة بعينها وحسب، بل دائمًا عندما يتفق رجل وامرأة على ترك البلد ليعيشا معًا. ولا يقدم الرجل على فعلة كهذه دومًا رغبة منه في التهرب من دفع المهر، والالتزامات الأخرى؛ إذ يمكن، بل يغلب أن يكون السبب أن للفتاة حبًا حقيقيًا، يلقى معارضة من الأقرباء. وقد يدفعهما علمهما بأن عائلتيهما لن تستحسنا أو تؤيدا ارتباطهما إلى الإقدام على مثل هذه الخطوة. وعلى أي حال، فهما بفعلتهما تلك، يستعديان عائلتيهما، ويدخلان في صراع مع المجتمع الذي انتهكا ضوابط الزواج فيه؛ فهما لم يهملا المهر وحسب، بل تجاهلا التقاليد المتعارف عليها للخطبة والزواج.

وعلى الرغم من الغاية من بعض العادات والطقوس المرتبطة بالخِطْبة (خُطبِة) والزواج هي إبعاد ما يحدق بالعريس والعروس، في ما يعتقد الناس، من الهمزات الشريرة والأخطار، فإن هذه العادات والطقوس ضرورية، في المقام الأول، ليصبح الزواج ملزمًا بحسب الأعراف، وحتى لو اتفق بعضهم منذ زمن بعيد على أن فلانًا سيتزوج فلانة، إلا أنه لا بد من طلب رسمي للعروس، ومفاوضات رسمية على المهر، وكلا الأمرين يمكن أن يجري ضمن دائرة ضيقة من الأقارب، ثم تتبع ذلك وليمة الخِطْبة.

تقول حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«يُوضع الطعام أمام الرجال، ويقال لهم: 'تفضلوا واقبلوا ما قُدِّم لكم!' فيقولون: 'ما سبب الدعوة للطعام؟' فيقال، على سبيل المثال: '50 جنيهًا

(أي مبلغ مهر العروس)'، فيسألون: 'أكل شيء متفق عليه؟' فيقال: 'نعم'، ويقولون: 'هل في الأمر ما هو مبهم أو غير مُرضٍ؟' فيقال لهم ليطمئنوا: 'كل شيء واضح'، ثم يقال لهم: 'هل أنتم شهود على هذا؟ هل تشهدون على ما سمعتم؟'، 'سنشهد على ما سمعنا، سلتزم الصواب'. وبعدها يأكلون، وآنية الطعام أمامهم. ويقال لهم: 'اقرأوا سورة الفاتحة باسم محمد، على سبيل المثال (أي العريس)'».

وتُدعى طقوس الوليمة هذه «الطبخ» (الطبخة)، ويُقال بعدها إن العريس «طبخ لها» (طبخ عليها).

والحدث الأهم هو عقد القران (الصفاح أو عقد النِكاح)؛ إذ يسأل الأبُ أو الأخ العروس ثلاث مرات بحضور شاهدين: «هل أنا وكيلك في زواجك؟»، وتجيب في كل مرة: «نعم أنت وكيلي». بعدها يزوج الرجل ابنته أو أخته أمام الشيخ والشهود أنفسهم، إما للعريس نفسه أو لوكيله. ويسأله العريس أو وكيله: «هل تعطيني ابنتك زوجة؟» ثلاث مرات، فيرد الآخر بالإيجاب ثلاث مرات، وعندئذ تُتلى سورة الفاتحة.

ويُهيأ لإبرام عقد القران بسرية تامة، وبعد إبرامه يرتبط الطرفان أحدهما بالآخر بميثاق غليظ، لا فكاك منه إلا بالطلاق. وإذا قبض المهر، يمكن أن يُقام العرس في أي وقت، وقد يؤجل إبرام عقد القران إلى يوم العرس، وفي كل الأحوال لا ينبغي للعريس أن يلتقي بعروسه قبل إبرامه.

لقد قدمت هذه الخلاصة موجزًا عن المراسم المختلفة المذكورة هنا، والتي لا يكون الزواج ملزمًا ولا يقرُّه المجتمع إلا بها. ولا يتسع نطاق هذه الأطروحة لوصف تفصيلي لهذه الاحتفالات؛ فغاية هذه الأطروحة هي معالجة المسائل الأساسية وحسب، أما الوصف التفصيلي، فمكانه الصحيح هو دراسات مستفيضة لطقوس الخطبة والزواج.

أشجار الأنساب
قوائم الزواج
جداول الزواج

1 – عشيرة سعد

الرجال المتزوجون							رقم الزواج	الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى		في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات		الاسم
		بدون أولاد	مع أولاد					
1	إبراهيم عودة		•			•	1	صبحة
							2	فضَّة
							3	عيشة أبو هلال
							4	سلمى سند
2	جاد الله عودة		•			•	5	فاطمة
							6	عايشة
							7	فاطمة أبو هلال

يتبع

تابع

3	خليل إبراهيم		•			•	8	سارة
							9	ذَبْلة خلاوي
4	عبدالله إبراهيم	•			•		10	صبحة جاد الله
5	سعد إبراهيم		•			•	11	صبحة جاد الله
							12	حليمة كنعان
6	محمد خليل			•	•		13	حمدة خلاوي
7	إبراهيم خليل	•			•		14	جميلة
8	محمد خليل		•		•		15	جميلة
9	أحمد خليل			•	•		16	فاطمة جاد الله
10	علي خليل			•	•		17	زريفة سعد
11	عيسى خليل			•	•		18	فاطمة شختور
12	موسى خليل			•	•		19	حِلوة عِثمان
							20	خليلية محمد
13	موسى سعد	•			•		21	زريفة أحمد
14	اسْمَعين سعد			•	•		22	زريفة أحمد
15	محمد سعد			•	•		23	فاطمة عودة الله
16	خليل سعد			•	•		24	جازية محمد
17	محمد جاد الله	•			•		25	
17	يُنقل إلى الصفحة التالية	*4*	*5*	*8*	*13*	*4*	25 واقعة زواج لسبعة عشر رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطبة فقط	مطلقة	
		صوريف	•			•					
		الخَضْر	•			•					
		أبو ديس	•			•					
	ابنة 182		•			•					
		الخَضْر	•			•					تزوجت الزوجة الثالثة سابقًا من 169
		الخَضْر	•			•					
		أبو ديس	•			•					
		صوريف		•		•					
	ابنة 108		•		•						
ابنة 2				•	•						تزوجت الزوجة فيما بعد من 5
ابنة 2				○		•		•			
	ابنة 180		•			•					

يتبع

تابع

	ابنة 109			•	•						
		بيت لحم	•			•					
		بيت لحم	•			•		•			
ابنة 26				•		•					
ابنة 5				•		•					
		بيت لحم		•		•					
ابنة 25	ابنة 77		•	•		• •					كانت الزوجة الأولى متزوجة من 26
ابنة 21				•		•					
ابنة 21				•		•		•			
ابنة 19				•		•					
ابنة 25				•		•					
		أبو ديس	•		•						زوجها مجذوم
9	5	11	12	10	4	21		3			

الرجال المتزوجون								الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى		في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الاسم
		بدون أولاد	مع أولاد					
17	منقول من الصفحة السابقة	4	5	8	13	4		
18	مصطفى جاد الله			•		•	26	صبحة اسْمَعين
							27	فاطمة محمد
19	عودة الله جاد الله			•	•		28	شكرة أسعد
							29	فاطمة إلشيخ
20	عبدالله جاد الله		•		•		30	سعدة أسعد
21	أحمد جاد الله	•			•		31	سعدة أسعد
22	سليمان جاد الله		•		•		32	مِريم إبراهيم
23	محمد مصطفى			•	•		33	فاطمة محمد
24	إبراهيم عودة الله	•			•		34	مِريم أحمد
25	محمد عبدالله		•		•		35	يامنة
26	جاد الله سليمان	•			•		36	حِلوة عِثمان

يتبع

تابع

27	علي سليمان			•	•		37	فضية
28	عبدالله سليمان			•	•		38	حصيدة
29	محمود محمد			•	•		39	سارة علي
30	محمود علي			•	•		40	سارة محمد
31	عِثمان أحمد		•			•	41 42 43 44	صفية سند صفية دعدو محبوبة مسعودة جاد الله
32	محمود عِثمان		•		•		45	نفيسة اسْمَعين
33	محمد عِثمان		•		•		46	مِريم إحسين
34	أحمد عِثمان			•	•		47	عليا علي الكور
34	يُنقل إلى الصفحة التالية	*7*	*11*	*16*	*28*	*6*	47 واقعة زواج لأربعة وثلاثين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطبة فقط	مطلقة	
9	5	11	12	10	4	21		3			
ابنة 51		بيت تعمِر		•		•					
				•		•					
ابنة 39		نَحّالين	•		•						
				•		•					
ابنة 39				•		•					
ابنة 39				•		•		•			تزوجت الزوجة في ما بعد من 21
ابنة 1			•		•						
ابنة 25				•		•					
ابنة 21				•		•					تزوجت الزوجة في ما بعد من 171
		بيت تعمِر		•	•						

يتبع

تابع

	ابنة 77		•		•						تزوجت الزوجة في ما بعد من 12
		بيت تعمِر		•		•					
		صهيون		•		•					
ابنة 27				•		•			•		
ابنة 43				•		•					كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 48
	ابنة 82		•			•					كانت الزوجة الأولى متزوجة في ما مضى من 63
		الخَضْر	•		•						
		حلحول	•		•						
ابنة 2			•			•					
ابنة 51				•	•						
ابنة 38			•		•						
		بيت تعمِر		•		•					
21	7	19	19	23	12	35		4	1		

الرقم	الرجال المتزوجون: الاسم	متوفى: بدون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الزوجات: الاسم
34	منقول من الصفحة السابقة	7	11	16	28	6		
35	محمد محمود			•		•	48	نفيسة محمد
							49	فاطمة العرّكات
36	علي محمود			•	•		50	مريم حسن
37	عِثمان محمد			•	•		51	خضرة مصطفى
38	إحسين		•		•		52	عليا
							53	حِلوِة
39	أسعد إحسين		•			•	54	سلمى
							55	محبوبة جبرين

يتبع

تابع

40	خضر إحسين			•		•	56	سارة اسْمَعين
							57	فَضَة
							58	عيدة
							59	صفية
41	حسن إحسين		•		•		60	جازية عِثمان
42	علي أسعد			•		•	61	صبيحة جاد الله
							62	سلمى علي
43	محمد أسعد		•		•		63	حِلوة
44	داهود خضر	•			•		64	جازية أسعد
45	امْحِمَّد خضر	•			•		65	حِلوة أسعد
46	أسعد علي			•	•		66	عليا خضر
47	أحمد علي			•	•		67	حِلوة علي
48	محمود علي	•			•		68	سارة محمد
49	حسن علي			•	•		69	صبحية خضر
50	موسى محمد			•	•		70	عليا العلي
50	يُنقل إلى الصفحة التالية	10	15	25	40	10	70 واقعة زواج لخمسين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطبة فقط	مطلقة	
21	7	19	19	23	12	35		4	1		
	ابنة 171					•					
		أبو ديس				•					
ابنة 54				•		•					كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 57
ابنة 18				•		•					
		بيت لحم	•	•		•					
		أبو ديس	•	•		•					
		بيت لحم	•			•					تزوجت الزوجة الثانية في ما بعد 52
	ابنة 76		•		•						

يتبع

تابع

32	10	28	25	39	17	53		4	1		
ابنة 51				•		•					
		بيت لحم	•		•						
		أبو ديس		•		•					
		بيت تعمر		•		•					
ابنة 31			•		•						
ابنة 2				•	•						كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 170
		بيت تعمر		•		•					
		بيت تعمر		•		•					
ابنة 39				•		•					
ابنة 39				•		•					
ابنة 40				•		•					
	ابنة 173			•	•						
ابنة 43				•		•					تزوجت الزوجة في ما بعد من 30
ابنة 40				•		•					
ابنة 42				•		•					

الرجال المتزوجون								الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى: بدون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الاسم
50	منقول من الصفحة السابقة	10	15	25	40	10		
51	إسْمَعين		•		•		71 72	يامنة حِلوِة إلحجّازي
52	أحمد إسْمَعين			•		•	73 74 75	ريا عِثمان محبوبة جبرين مُهرة
53	محمد إسْمَعين			•	•		76 77	سعدة الزير حمدة الزير
54	حسن إسْمَعين		•		•		78	فاطمة (اصْبيحة) الزير
55	إسْمَعين أحمد			•	•		79	فاطمة خليل

يتبع

تابع

56	يوسف أحمد			•	•		80	رحيمة خليل
57	عبد الحميد أحمد			•	•		81 82	مريم حسن خضرة محمد
58	علي محمد			•		•	83 84	بهية أحمد فاطمة محمود
59	خليل محمد			•	•		85	رضا
60	عبد الرحمن محمد			•	•		86	فَضية
61	عبدالله حسن			•	•		87	حَسْنة اسْمَعين
62	عيسى إسْمَعين			•	•		88	حمدة محمد
63	حسن أسعد	•			•		89	صفية سند
63	المجموع الكلي للمتزوجين من العشيرة	11	17	35	51	12	89 واقعة زواج لثلاثة وستين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة لمقط	مطلقة	
32	10	28	25	39	17	53		4	1		
		بيت لحم	•		•						
		بيت لحم	•			•					
ابنة 31			•		•					•	كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 39
	ابنة 76		•			•					
		بيت تعمير		•		•					
		بيت تعمير	•			•					
		بيت تعمير		•		•					
		بيت تعمير		•		•					
	ابنة 170			•		•					

يتبع

تابع

ابنة 3				•		•					
ابنة 54				•		•				•	تزوجت الزوجة الثانية في ما بعد من 36
ابنة 33				•		•					
ابنة 52				•		•					
ابنة 32				•		•					
		بيت فِجّار		•		•					
		بيت تعمِر		•		•			•		
ابنة 55				•		•					
ابنة 43				•		•					
	ابنة 182		•			•					تزوجت الزوجة في ما بعد من 31
40	13	36	29	51	19	70		4	2	2	

2– عشيرة الربابعة

الرجال المتزوجون								الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى: بدون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الاسم
64	موسى ربيع	•			•		90	نزرية
65	علي الربيع	•			•		91	حِلوِة
66	عِثمان		•		•		92	صالحة
67	سالم عِثمان		•			•	93 94	زهور عليا
68	عبد سالم		•		•		95 96	فاطمة عِثمان حمدة خليل
69	مصطفى سالم			•	•		97	سعدة جبرين
70	علي سالم			•	•		98 99	حمدة إسْمَعين فاطمة خضر

يتبع

تابع

71	موسى سالم			•	•		100	صبحة عِثمان
72	محمود عبد			•	•		101	نفيسة إِسْمَعين
73	خليل مصطفى			•	•		102	فاطمة علي
74	أحمد مصطفى			•	•		103	زريفة سند
75	محمد علي			•	•		104	حمدة إِسْمَعين
76	جيبرين عِثمان		•		•		105	عَمْرية
77	عِثمان جبرين		•			•	106 107 108 109	خضرة أسعد سارة خليل صبحة خليل مدلِّلة سليمان
78	عبد عِثمان			•	•		110	حِلوِة محمد
79	جبرين عِثمان			•	•		111	غير معروفة الاسم
16	المجموع الكلي للمتزوجين من العشيرة	2	5	9	14	2	22 واقعة زواج لستة عشر رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطبة فقط	مطلقة	
		شَرَفات	•			•					
	ابنة 129		•			•					
		الوَلَجِة	•			•					
ابنة 64			•				•				بدون مهر
		بيت تعمِر	•			•					
ابنة 77				•		•				•	تزوجت الزوجة الأولى في ما بعد من 140
	ابنة 170		•			•					
ابنة 76				•	•						كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 165
	ابنة 51		•			•					الزوج في أميركا
	ابنة 40			•		•					

يتبع

تابع

ابنة 77				•		•					
	ابنة 55			•		•					
ابنة 70				•		•					
	ابنة 184			•		•			•		
	ابنة 55			•		•					
		خاراس	•		•						
	ابنة 39		•		•						
	ابنة 134			•	•					•	تزوجت الزوجة الثانية في ما بعد من 82
	ابنة 170			•	•						
	ابنة 22			•	•						
	ابنة 53			•		•			•		
		بيت صفافا		•		•			•		
5	12	5	9	13	6	15	1		3	2	

3 – عشيرة مِشاني

الرقم	الاسم	متوفى: بدون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الزوجات: الاسم
80	عايش		•		•		112	حمدة أحمد
							113	فَضَّة
81	عبدالله عايش		•		•		114	مذَلَّلة
							115	فاطمة خلاوي
82	إبراهيم عايش		•			•	116	شيخة
							117	نفيسة
							118	سارة خليل
							119	صفية مصطفى
83	خليل عايش		•		•		120	حسنة
							121	صبحة
84	محمد عايش	•			•		122	صفية الأطرش

يتبع

تابع

85	حسن عبدالله			•		•	123 124	نجمة سلمى سالم
86	رشيد عبدالله			•	•		125	نَزْهَة
87	إحسين عبدالله			•	•		126 127	مِريم عِثمان سارة محمد
88	زلمِة إبراهيم		•		•		128	عبدة عبدالله
89	مسلَّم إبراهيم			•	•		129	مِريم عبدالله
90	سالم إبراهيم			•	•		130 131	فاطمة أحمد فاطمة بتيريَّة
91	محمد إبراهيم			•	•		132	سارة خلاوي
92	عبد السلام إبراهيم			•	•		133 134	فاطمة شمالية شيخة شاهين
93	إحسين إبراهيم		•		•		135	سعدة أحمد
94	حسن إبراهيم			•	•		136	مِريم
95	جودِة إبراهيم			•	•		137 138	حليمة خميس حِلوة مصطفى
16	يُنقل إلى الصفحة التالية	*1*	*6*	*9*	*14*	*2*		27 واقعة زواج لستة عشر رجلًا

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفي	خِطْبة فقط	مطلقة	
	أخت 31		•			•					
		نوبا	•			•					
		بيت تعمِر	•			•					
ابنة 108			•			•					
		نوبا	•			•					
		عجور	•			•					
	ابنة 134			•		•					كانت الزوجة الثالثة في ما مضى متزوجة من 77
		الوَلَجة		•		•					
		بيت تعمِر	•			•					
		القبو	•			•					
		الوَلَجة	•			•					

يتبع

تابع

		بيت تعمِر		•		•				•	تزوجت الزوجة الأولى في ما بعد من 100
ابنة 90				•		•					
		الشيوخ		•	•						
		بيت لحم	•		•						
		بيت لحم		•		•					
ابنة 81			•			•					
ابنة 81				•		•					
ابنة 118			•			•					
		بتّير		•		•					
ابنة 108			•			•					
		سنجل	•			•					كانت الزوجة الثانية متزوجة في ما مضى من 124
	ابنة 139			•		•					
		الوَلَجة		•	•						
		بيت لحم		•		•					زوجها في أميركا
		حلحول		•		•				•	
	ابنة 69			•		•					
6	4	17	14	13	3	24				2	

الرقم	الاسم	متوفى: من دون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الزوجات: الاسم
	منقول من الصفحة السابقة	1	6	9	14	2		
96	سعيد إبراهيم			•	•		139	خديجة
97	عوض الله خليل		•				140	محمدية محمد
						•	141	حليمة علي
							142	دلال
98	أحمد خليل			•		•	143	هدبة
							144	هدبة عبد
99	محمد خليل			•	•		145	عيشة
100	علي زلمِة			•	•		146	نجمة

يتبع

تابع

101	أحمد سالم			•	•		147	مِريم إلنَّعيْمة
102	علي سالم			•	•		148	حمدة محمد
103	محمد سالم			•	•		149	جميلة محمد
104	عبد الهادي محمد			•	•		150	صفية عبد السلام
105	موسى محمد			•	•		151	حِلوِة سالم
106	عبد الرحمن عبد السلام			•	•		152	عليا سالم
107	عبد الكريم إحسين			•	•		153	حِلوِة منصور
28	يُنقل إلى الصفحة التالية	1	7	20	24	4	42 واقعة زواج لثمانية وعشرين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة فقط	مطلقة	
6	4	17	14	13	3	24				2	
		الوَلَجة		•		•					
ابنة 84				•			•				تزوج زوجته الأولى من دون مهر؛ وهو الوحيد
	ابنة 136			•	•						من سكان أرطاس الذي تحول إلى الديانة المسيحية، وهو يعيش الآن في القدس
		بيت أمّر	•		•						
		بيت تعمِير		•		•					
ابنة 110				•		•					
		سِلواد		•		•					
		بيت تعمِير		•		•					كانت زوجته في ما مضى متزوجة من 85

يتبع

تابع

		بيت لحم		•	•						
ابنة 91				•	•						
ابنة 91				•	•						
ابنة 92				•	•						
ابنة 90				•	•						
ابنة 90				•	•						
		الوَلَجِة		•		•					
13	5	24	15	26	11	30	1			2	

الرجال المتزوجون								الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى		في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الاسم
		من دون أولاد	مع أولاد					
	منقول من الصفحة السابقة	1	7	20	24	4	42	
108	خلاوي		•		•		154	شيخة عِثمان
109	محمد خلاوي		•			•	155	بنُورة امْحِمَّد
							156	محمَّدية
110	عبد خلاوي			•	•		157	حِلوِة سليمان
							158	صبحة خليل
							159	صبحة سالم
111	علي خلاوي		•		•		160	مدلَّلة
112	خليل محمد			•		•	161	فرحة خليل
							162	ليكة
							163	حِسن عبد

يتبع

تابع

113	أحمد محمد			•	•		164	صبحة عبدالله
114	إبراهيم محمد			•	•		165	صبحة موسى
115	سالم محمد	•			•		166	زريفة علي
116	اسْمَعين خليل			•	•		167	مريم عبد
37	يُنقل على الصفحة التالية	*2*	*10*	*25*	*31*	*6*	56 واقعة زواج لسبعة وثلاثين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة فقط	مطلقة	
13	5	24	15	26	11	30	1			2	
	ابنة 66		•			•					
ابنة 117			•		•						
		الوَلَجة		•		•					
	ابنة 188			•		•				•	
	ابنة 3		•		•						
ابنة 90				•		•					
		صوريف	•			•					
	ابنة 3		•		•						
		الخليل	•			•					
ابنة 110				•		•					

يتبع

تابع

ابنة 81				•		•					
ابنة 120				•		•					
ابنة 111				•		•					اختفى الزوج خلال الحرب الأخيرة، وتعيش الزوجة مع أخيها
ابنة 110				•		•					
20	9	27	21	34	14	41	1			3	

الرجال المتزوجون							رقم الزواج	الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى		في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات		الاسم
		من دون أولاد	مع أولاد					
37	منقول من الصفحة السابقة	*2*	*10*	*25*	*31*	*6*	*56*	
117	امْحِمَّد		•		•		168	جبرية
118	أحمد امْحِمَّد		•		•		169 170	فرحة امْحمَّد صبحة سليمان
119	درويش امْحمَّد		•		•		171	حِلوة خلاوي
120	موسى أحمد		•		•		172	شيخة سليمان
121	عيسى أحمد			•	•		173	فاطمة إبراهيم
122	محمد أحمد	•			•		174	حِلوِة
123	محمد درويش			•	•		175	فاطمة محمد
124	موسى درويش	•			•		176	شيخة شاهين
125	علي درويش			•	•		177	حِلوِة أحمد
126	عبد درويش			•	•		178	شلبية أحمد
127	مصطفى موسى			•	•		179	فاطمة محمد
128	محمود موسى			•	•		180	نعمة يوسِف
49	المجموع الكلي للمتزوجين من العشيرة	*4*	*14*	*31*	*43*	*6*	69 واقعة زواج لتسعة وأربعين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة فقط	مطلقة	
20	9	27	21	34	14	41	1			3	
		الوَلَجة	•			•					
		بيت لحم	•		•						
	ابنة 188			•		•					
ابنة 108				•	•						
	ابنة 188			•		•					
ابنة 82				•		•					
		شَرَفات		•	•						

يتبع

تابع

25	13	31	23	44	19	49	1			3	
		صور باهر		•	•						
	ابنة 139			•	•						تزوجت الزوجة في ما بعد من 92
ابنة 98				•		•					
ابنة 98				•		•					
ابنة 123				•		•					
	ابنة 138			•		•					
25	13	31	23	44	19	49	1			3	

4- عشيرة شاهين

الرجال المتزوجون							رقم الزواج	الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى: بدون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات		الاسم
129	إبراهيم شاهين		•		•		181	مِشايخ
130	شاهين إبراهيم		•		•		182	حِلوِة صالح
131	إبراهيم إبراهيم	•			•		183	عِثمانِة عِثمان
132	محمد إبراهيم	•			•		184	فاطمة شختور
133	أحمد إبراهيم		•		•		185	فاطمة شختور
134	خليل إبراهيم		•		•		186	عليا العلي
135	موسى شاهين		•		•		187	حِلوِة صالح
136	علي شاهين		•		•		188	عِثمانِة عِثمان
137	حسن شاهين		•		•		189	مِريم إبراهيم

يتبع

تابع

138	يوسِف شاهين		•		•		190	رحمة إلنُعمة
139	شاهين موسى			•	•		191	صفية حسن
140	عبد موسى			•	•		192	فاطمة عِثمان
141	سعيد موسى			•	•		193	فاطمة جبر
142	رشيد موسى	•			•		194	حمدة درويش
143	سليم موسى	•			•		195	حمدة درويش
144	محمد علي			•	•		196	حمدة خليل
145	عبد علي		•		•		197	فاطمة موسى
146	اسْمَعين حسن			•	•		198	صبحة موسى
147	أحمد يوسِف			•	•		199	مِشايخ عبد
148	محمود يوسِف			•	•		200	رحمة شاهين
149	محمد يوسِف			•	•		201	سعدة درويش
150	خليل شاهين			•	•		202	زهية هلال
22	يُنقل إلى الصفحة التالية	4	9	9	22		22 واقعة زواج لاثنين وعشرين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة فقط	مطلقة	
		الوَلَجِة	•			•					
		شَرَفات	•			•					
	ابنة 66		•			•					تزوجت الزوجة في ما بعد من 136
		بيت لحم	•			•					تزوجت الزوجة في ما بعد من 133
		بيت لحم	•			•		•			
	ابنة 65		•			•					
		الوَلَجِة	•			•					
	ابنة 66		•			•					كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 131
ابنة 131			•				•				
		بيت لحم		•		•					

يتبع

تابع

		شَرَفات		•	•						
	ابنة 77			•		•					كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 68
ابنة 156				•	•						
	ابنة 119			•	•						تزوجت الزوجة في ما بعد من 143
	ابنة 119			°		•		•			
	ابنة 83			•	•						
ابنة 135			•			•					
ابنة 135				•		•					
ابنة 140				•	•						الزوج في أميركا
ابنة 139				•		•					
		الخَضْر		•		•					
		بيت لحم		•		•					
6	7	9	8	11	5	16	1	2			

الرجال المتزوجون								الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى		في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الاسم
		من دون أولاد	مع أولاد					
22	منقول من الصفحة السابقة	4	9	9	22		22	
151	مصطفى عبد			•	•		203	مريم يوسف
152	عبد الرحمن عبد			•	•		204	جيين
153	يوسف محمد			•	•		205	جيين
							206	جيين حَسَن
154	إحسين محمد			•	•		207	خديجة
155	عطية عبد			•	•		208	لطيفة موسى
156	جابر أحمد		•		•		209	صبحة شختور
157	سعيد أحمد		•		•		210	فاطمة إبراهيم

يتبع

تابع

158	عبد أحمد		•		•		211	فضَّة عواد
159	محمد جبر			•	•		212 213	حسنة شختور زريفة موسي
160	أحمد جبر			•	•		214 215	فاطمة عواد فَضَّة سعيد
161	جودة سعيد			•	•		216	مِريم أحمد
162	عيسى عبد	•			•		217	لطيفة إبراهيم
163	عبدالله عبد			•	•		218	رحمِة محمد
164	عواد خليل		•		•		219	مِشايخ
165	سليمان خليل	•			•		220	سعدة جبرين
166	محمد خليل			•	•		221	سعدة علي
167	خليل عواد		•		•		222	يامنة موسى
168	حسن محمد			•	•		223	يامنة عودة الله
40	المجموع الكلي للمتزوجين من العشيرة	6	14	20	40		43 واقعة زواج لأربعين رجلًا	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة فقط	مطلقة	
6	7	9	8	11	5	16	1	2			
ابنة 138				•	•						
		بيت تعمر		•		•					كانت الزوجة في ما مضى متزوجة من 153
		بيت تعمر		•		•				•	
	ابنة 54			•		•					
		بيت لحم		•		•					
	ابنة 120			•		•					
		بيت لحم		•	•						

يتبع

تابع

ابنة 131			•				•				
ابنة 164		بيت لحم		•		•					
			•		•						الزوج في أميركا
ابنة 135				•	•						
ابنة 164			•			•					
ابنة 157				•	•						
ابنة 160				•	•				•		
	ابنة 82		•			•					
ابنة 159				•		•					
		القبو	•			•					
	ابنة 76			•	•					•	الزوج مجذوم. وتزوجت الزوجة في ما بعد من 69
ابنة 136				•		•					
ابنة 135			•			•					
	ابنة 19			•		•					
16	12	15	14	25	12	29	2	2	1	2	

5- عائلة شحادة

الرجال المتزوجون								الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى: بدون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الاسم
169	شحادة		•			•	224	فاطمة أبو هلال
							225	عيشة
170	خليل شحادة		•			•	226	حسنة اشمَعين
							227	سلمى علي
171	محمد خليل			•		•	228	إطعيمة سالم
							229	مِريم أحمد
172	أحمد خليل		•		•		230	عاقلة
							231	مِريم مصطفى
173	علي خليل			•		•	232	عيشة
							233	فاطمة علي
174	موسى خليل			•	•		234	فاطمة درويش
175	إبراهيم خليل	•			•		235	خضرة كنعان
176	خليل محمد			•	•		236	فَضّة أحمد
177	محمود محمد			•	•		237	خديجة
178	محمد أحمد			•	•		238	فاطمة إبراهيم
179	محمد علي			•	•		239	عزيزة موسى
11	المجموع الكلي للمتزوجين من العائلة	*1*	*3*	*7*	*7*	*4*	16 واقعة زواج لأحد عشر رجلًا	

6– عائلة كنعان

180	كنعان		•		•		240	صبيحة عِثمان
181	أحمد كنعان	•			•		241	حِلوة خليل
2	المجموع الكلي للمتزوجين من العائلة	1	1		2		واقعتا زواج لرجلين	

الزوجات						نوع الزواج					ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفي	خِطْبة فقط	مطلقة	
		أبو ديس	•			•					تزوجت الزوجة الأولى في ما بعد من 2
		خاراس	•		•						
	ابنة 51		•			•					تزوجت الزوجة الثانية في ما بعد من 42
		بيت تعمير		•		•					
	ابنة 67			•	•						كانت الزوجة الثانية في ما مضى متزوجة من 24
	ابنة 21			•		•					

يتبع

تابع

		بيت تعمر	•			•					الزوج في أميركا
	ابنة 69			•		•					
		بيت تعمر		•		•					
	ابنة 42			•	•						
		بيت تعمر		•		•					
	ابنة 180		•		•						
ابنة 172				•		•					
		حلحول		•	•						
ابنة 175				•	•						
ابنة 174				•		•					
3	6	7	5	11	6	10					

	ابنة 31		•		•						
	ابنة 31			•	•						
	2		1	1	2						

7- عائلة سند

الرجال المتزوجون								الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى: من دون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	رقم الزواج	الاسم
182	سالم محمود سند		•		•		242	حِلوة بنت أبو شحادة
183	سليمان سند		•		•		243 244	نجمة حميدة فاطمة محمد
184	صالح سند		•		•		245	حمدة
185	خليل سليمان			•	•		246	عيدة
186	عيسى سليمان			•	•		247 248	غير معروفة الاسم حِلوة إلحسن
187	عبد صالح			•	•		249	فاطمة مصطفى
6	المجموع الكلي للمتزوجين من العائلة		3	3	6			8 وقائع زواج لستة رجال

8- عائلة سليمان عودة

188	سليمان عودة		•		•		250	حمدة
189	عطية سليمان		•		•		251	فاطمة إحسين
190	عبد سليمان		•			•	252 253	جازية عبد الحميد خضرة سليمان
191	عطا الله عطية			•	•		254	صبحة
192	عبد الحميد عبد			•	•		255	حمدة أحمد
5	المجموع الكلي للمتزوجين من العائلة		3	2	4	1		6 وقائع زواج لخمسة رجال

9- عائلة التعامرة

193	أحمد المدني			•	•		256 257	عليا حمدة
194	عطا الله أحمد			•	•		258	خضرة
2	المجموع الكلي للمتزوجين في العائلة			2	2			3 وقائع زواج لرجلين

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة فقط	مطلقة	
	أخت 169		•			•					
		بيت لحم	•			•					
		الخَضْر	•			•					
		بيت تعمِر		•	•						
		بيت تعمِر		•		•					
		طرابلس		•		•					
		بيت تعمِر		•		•					
	ابنة 69			•		•			•		
	2	6	3	5	1	7			1		

		عجُور	•			•					
		الخَضْر	•		•						
		دورا	•		•					•	
	ابنة 22			•		•				•	
		بيت ساحور		•			•				زواج خطيفة
	ابنة 172			•		•					
	2	4	3	3	2	3	1			2	

		بيت تعمر	•			•					
		بيت تعمر		•		•					
		بيت تعمر		•		•					
		3	1	2		3					

10- الزنوج

الرجال المتزوجون							رقم الزواج	الزوجات
الرقم	الاسم	متوفى: من دون أولاد	متوفى: مع أولاد	في قيد الحياة	زوجة واحدة	متعدد الزوجات		الاسم
195	عبدالله إلعيد		•		•		259	مِريم
196	سلامة عبدالله			•	•		260	تمام
197	مسلَّم عبدالله		•		•		261	حليمة
198	محمد سلامة			•	•		262	عزيزة
199	سليم مسلَّم			•		•	263 264	مِريم مِرجان صبحة
5	المجموع الكلي للمتزوجين في العائلة		2	3	4	1	6 وقائع زواج لخمسة رجال	

الزوجات					نوع الزواج						ملاحظات
من العشيرة	من القرية	غريبة من	متوفاة	في قيد الحياة	بالبدل	بمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خِطْبة فقط	مطلقة	
		يافا	•				•				
		الخَضْر		•	•						
		سِغير		•	•						
		الخَضْر		•	•						
		الخليل		•		•					
		دورا		•		•					
		6	1	5	3	2	1				

الخلاصة

الحمائل والعائلات	الرجال المتزوجون							وقائع الزواج
	الأرقام	المجموع	المتوفون		الأحياء	زوجة واحدة	متعدد الزوجات	الأرقام
			من دون أولاد	مع أولاد				
عشيرة سعد	63-1	63	11	17	35	51	12	89-1
عشيرة الربايعة	79-64	16	2	5	9	14	2	111-90
عشيرة مِشاني	128-80	49	4	14	31	43	6	180-112
عشيرة شاهين	168-129	40	6	14	20	40		223-181
عائلة شحادة	179-169	11	1	3	7	7	4	239-224

يتبع

تابع

عائلة كنعان	181–180	2	1	1		2		241–240
عائلة سند	187–182	6		3	3	6		249–242
عائلة سليمان عودة	192–188	5		3	2	4	1	255–250
عائلة التعامرة	194–193	2			2	2		258–256
عائلة الزنوج	199–195	5		2	3	4	1	264–259
المجموع الكلي للقرية		199	25	62	112	173	26	264 واقعة زواج لمئة وتسعة وتسعين رجلًا

وقائع الزواج				أنواع الزواج						الزوجات		ملاحظات
المجموع	في العشيرة	في القرية	من غريبات	بالبدل	بالمهر	استثنائي	أخ لزوج متوفى	خطبة فقط	مطلقة	متوفاة	في قيد الحياة	
89	40	13	36	19	70		4	2	2	29	51	
22	5	12	5	6	15	1		3	2	9	13	
69	25	13	31	19	49	1			3	23	43 (44)	زوجة 82 = زوجة 77
43	16	12	15	12	29	2	2	1	2	14	23 (25)	زوجة 140= زوجة 68 زوجة 165= زوجة 69
16	3	6	7	6	10					(5) 4	9 (11)	زوجة 169= زوجة 2 زوجة 170= زوجة 42 زوجة 171= زوجة 24

يتبع

تابع

2		2		2						1	1	
8		2	6	1	7			1		3	5	
6		2	4	2	3	1			2	3	3	
3			3		3					1	2	
6			6	3	2	1				1	5	
264	89	62	113	70	188	6	6	7	11	88	155	136 زوجة من أرطاس و107 زوجات غريبات
	151									243		

وقائع الزواج عند العشائر

العشيرة (تحسب صلات القربى من جهة الذكور فقط)	الزوج والزوجة أبناء عم		الزوج والزوجة أبناء عم من الدرجة الثانية		الزوجة هي ابنة عم حميها		الزوجة هي ابنة ابن عم زوجها		الزوجة هي ابنة عم حميها من الدرجة الثانية		الزوجة هي ابنة ابن عم زوجها من الدرجة الثانية		الزوجة هي ابنة ابن ابن عم زوجها		الزوج والزوجة أقرباء من الجيل الرابع		الزوج والزوجة أقرباء من الجيل الخامس		الزوجة هي ابنة أحد أقرباء الزوج من الجيل الرابع			المجموع الكلي لوقائع الزواج
	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد	مؤكد	غير مؤكد		
1- عشيرة سعد		12	2	7		2	1	2	1		3	3			2	4	1					40
2- عشيرة الربايعة	1	2						2														5
3- عشيرة مِشاني	1	11	4	1	1	1								1	2				3			25
4- عشيرة شاهين	2	3	4			1	2	4														16
5- عائلة شحادة		3																				3
6- عائلة كنعان	لا تظهر لدى هذه الجماعات الصغيرة وقائع زواج داخل العشيرة																					
7- عائلة سند																						
8- عائلة سليمان عودة																						
9- عائلة التعامرة																						
10- عائلة الزنوج																						
العدد الكلي لوقائع الزواج	31	4	8	10	4	1	8	3	0	1	3	3	1	0	4	4	0	1	0	3		89
	35		18		5		11		1		6		1		8		1		3			

وقائع الزواج في القرية

عشيرة الزوج	عشيرة الزوجة: 1. سعد	2. الربايعة	3. مِشاني	4. شاهين	5. شحادة	6. كنعان	7. سند	8. سليمان عودة	9. التعامرة	10. الزنوج	العدد الكلي لوقائع الزواج
1. سعد		4	2		3	1	3				13
2. الربايعة	7			2	2		1				12
3. مِشاني	3	2		5				3			13
4. شاهين	2	5	5								12
5. شحادة	3	2				1					6
6. كنعان	1				1						2
7. سند		1			1						2
8. سليمان عودة	1				1						2
9. التعامرة											
10. الزنوج											
العدد الكلي لوقائع الزواج	17	14	7	7	8	2	4	3			62

المراجع

Books

Auerbach, F. Archiv für Rassen und Gesellschafts-Biologie, XII. München, 1916-1918.

Baldensperger, Philip J. «Birth, Marriage and Death among the Fellaheen of Palestine.» in: *Palestine Exploration Fund. QuarterlyStatements*. London,1894.

———. *The Immovable East.* London: Sir Issac Pitman, 1913.

———. *Volksleben im Lande der Bibel.* Leipzig: H. G. Wallmann, 1903.

Baumann, E. «Zur Hochzeit geladen.» (el-Bīre) in: *Palästinajahrbuch*, IV. Berlin,1908.

Böök, F. *Resa till Jerusalem.* Stockholm: Norstedt & Söner, 1925.

Bremer, Fredrika.*Lifvet i Gamla verlden.* Stockholm: Bonnier, 1861.

Burckhardt, John Lewis. *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gerbräuche der neueren Aegyptier.* Weimar,1834.

———. *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I. London,1830.

Burton, Richard. *Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Meccah*, III. London: Longman, Brown, Green and Longmans, 1855-1856.

Conder, Claude Reignier. *Tent Work in Palestine.* London: Murray, 1885.

Curtiss, S. I. *Primitive Semitic Religion Today.* Chicago; New York; Toronto,1902.

Dalman, Gustaf. *Arbeit und Sitte in Palästina*, I, 1. Gütersloh: Evangelischer, 1928.

———. *Palästinischer Divan.* Leipzig: J.C. Hinrichs, 1901.

Ewald, Christian. *Journal of Missionary Labours in the City of Jerusalem*. London: B. Wertheim, 1846.

Fehlinger, Hans. «Über das Ehe- und Familien-Recht der Mohammedaner.» (by Kaurimsky), in: *Archiv für Rassen u Gesellschafts-Biologie*, XII. München; Leipzig; Berlin,1916-1918.

Finn, Elizabeth Anne. *Reminiscences*. London: Marshall, Morgan and Scott, 1929.

Finn, James. *Stirring Times or Records from Jerusalem Consular Chronicles of 1853-1856*. London: C. Kegan Paul, 1878.

Frazer, James George. *Folklore in the Old Testament*, I. London: Macmillan and co, 1919.

Furrer, Konrad. *Wanderungen durch Palästina*. Zürich: Orell Füssli,1865.

Galton, F. «Restrictions in Marriage.» *Sociological Papers*:voll. II,London,1906.

Goldziher, Ignaz. *Muhammedanische Studien*, II. Halle a. S.: Max Niemeyer, 1890.

Goodrich-Freer, Adela. *Arabs in Tent and Town*. London: Seeley, Service & Co., 1924.

———. *InnerJerusalem*. London: Constable, 1904.

Granqvist, H.«Bruderschaft und Frauenehre.» in: *Palästina Jahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, XXIII. Berlin: E. S. Mittler & Sohn, 1927.

Grant, Elihu. *The People of Palestine*. London,1921.

Hanauer, James Edward.*Folklore of the Holy Land*. London: Duckworth & Co, 1907.

———. «Notes on the History of Modern Colonisation in Palestine.» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statements*. London,1900.

Jacob, Georg. *Altarabisches beduinenleben: nach den quellen geschildert*. Berlin: Mayer,1897.

Jaussen, Antonin. *Coutumes des Arabes au pays de Moab*. Paris: [s. n.], 1908.

———. *Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et sondistrict*. Paris: Librairie orientaliste, 1927.

Juynboll, T. W. *Handbuch des Islamischen Gesetzes Nach der Lehre der Schafiitischen Schule nebst einer allgemeinen Einleitung*. Leipzig,1910.

Lane, Edward William. *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I. London,1849.

———. *The Arabian Nights Entertainment*, I. London,1839.

Lees, George Robinson. *Village life in Palestine.* London,1905.

———. *The Witness of the Wilderness.* London,1909.

Littmann, E. *Beduinenerzählungen*, II. Strassburg, 1908.

Lowie,R. H. *Primitive Society.* London: Routledge, 1921.

Macalister, R. A. S. and E. W. G. Masterman. «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine.» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statements.* London: The Society's Office, Palestine Exploration Fund, 1906.

Malinowski, Bronislaw. *Argonauts of the Western Pacific.* London: E. P. Dutton and Co, 1922.

Maltzan, H. Von. *Reise nach Südarabien.* Braunschweig: F. Vieweg und sohn, 1873.

Matthews, A. N. *Mishkât.* English Translation. Calcutta,1810.

Meyer, J. J. *Das Weib im altindischen Epos.* Leipzig: Heims, 1915.

Murray, J. *A Handbook for Travellers in Syria and Palestine.* New and Revised Edition, I. London: John Murray, 1868.

Musil, Alois. *Arabia Petraea III.* Wien: A Hölder, 1908.

Niebuhr,Carsten. *Reisebeschreibungnach Arabien und den umliegenden Ländern*, III. Hamburg,1837.

Parker, J. M. «A Fanatic and her Mission: A Story Historical.» in: *The Churchman* (New York, October, 1896).

Pierotti, Ermete. *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews.* Cambridge: Deighton, Bell, and Co, 1864.

Ritter, Carl.*Die Erdkunde*, XVI. Berlin,1852.

Rivers, W. H. R. *Essays on the Depopulation of Melanesia.* Cambridge: The University press, 1922.

———. «The Genealogical Method of Anthropological Inquiry.» in: *The Sociological Review*, III. London: John Murray, 1910.

———. *The Todas*. London:Macmillan & Co, 1906.

Robinson, Edward. *Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea: A Journal of Travels in the Year 1838*, II. London: John Murray, 1841.

———. *Neuere biblische Forschung in Palästina*. Berlin: G. Reimer, 1857.

Röricht, R.*Regesta regni Hierosolymitani*. 1893.

Rothstein, Gustav.«Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem.» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch*, VI. Berlin: [n. pb.], 1910.

Saarisalo, A. *Mooses lääkärinä*. Borgå,1928.

Seabrook, W. B. *Adventures in Arabia*. London; Bombay; Sidney,1928.

Seligman, C. G. «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe.» in: *Harvard African Studies*, II. Cambridge: Harvard University Press, 1918.

Shukri, A. *Muhammedan Law of Marriage and Divorce*. New York:Columbia University Press, 1917.

Spoer, H. H. and E. N. Haddad. *Manual of Palestinian Arabic*. Jerusalem,1909.

———. «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem.» in: *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, IV. 2. Leipzig,1926.

Tayler, J. Lionel. «The Study of Individuals [Individuology] and their Natural Grouping [Sociology].» in: *Sociological Papers*, III. London,1907.

Van de Velde, Carel Willem Meredith. *Reise durch Syrien und Palästina in den Jahren 1851 und 1852*, II. Gotha: Perthes, 1861.

Vincent, Hughes. *Canaan d'après l'exploration récente*. Paris: J. Gabalda & cie, 1907.

Webb, Sidney. «Methods of Investigation.» in: *Sociological Papers*, III. London: Macmillans, 1907.

Wellhausen, Julius. «Die Ehe bei den Arabern.» in: *Nachrichten von der königl: Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*. Göttingen,1893.

Westermarck, Edward. *The History of Human Marriage*, I. London: Macmillan, 1925.

———. *Marriage Ceremonies in Morocco.* London,1914.

———. *Ritual and Belief in Morocco*, I. London: Macmillan & Co., Ltd, 1926.

Wilken, G. A. «Het matriarchaat bij de oude Arabieren.» in: *De verspreideGeschriften*, II. The Hague,1912.

Wilson, Charles Thomas.*Peasant Life in the Holy Land.* London: John Murray, 1906.

Periodicals

Abel, F. M. «Trois inscriptions arabes, inédites, du ḥaram d'Hébron.» *Revue Biblique*: vol. XXXII, no. 2, 1923.

Albright, W. F. «Importance of Studying Palestinian Folklore at once.» *Bulletin of the American Schools of Oriental Research*: no. 4, 1921.

Bauer, Leonhard. «Arabische Sprichwörter.» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*: vol. XXI, Leipzig, 1918.

Haddad, E. N. «Die Blutrache in Palästina.» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*: vol. LX, Leipzig, 1917.

Jaussen, Antonin. «Inscriptions Arabe d'Ortas.» *Revue Biblique*: vol. XXXIII, 1924.

Klein, F. A. «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*:vol. VI,Leipzig,1883.

Köhler, L. «Fragen und Wünsche zur Palästinakunde.» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*: vol. XXXVI, Leipzig, 1913.

Mülinen, E. von. «Beiträge zur Kenntnis des Karmels.» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*: vol. XXX, Leipzig, 1907.

Rivers, W. H. R. «A Genealogical Method of Collecting Social and Vital Statistics,» *The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*: vol. XXX, 1900.

Wetzstein, Johann Gottfried. «Die syrische Dreschtafel.» *Zeitschrift für Ethnologie*: vol. v, Berlin,1873.

الجزء الثاني

توطئة وشكر

أود أن أعبر عن امتناني لكل من:

المجمع العلمي الفنلندي (Societas Scientiarum Fennica) لنشره عملي هذا ضمن سلسلته، وللبروفيسور ويسترمارك والبروفيسور رافائيل كارستن اللذين أوصيا بنشره.

وأشكر البروفيسور و. و. إ. أوسترلي من لندن، والذي كان اهتمامه عونًا كبيرًا لي في عملي، كما أشكر السيدة ماريا هيمبل والبروفيسور يوهانس هيمبل من غوتنغن لتشجيعهما لي.

وأشكر الآنسة أغنس داوسون (بكالوريوس في الاقتصاد) لمساعدتها لي في الترجمة، وفي مراجعة المسودات، والسيد س. ح. ستيفان من القدس لقراءته ترجمة النص العربي، ولما قدمه من اقتراحات (في ربيع عام 1934)، ولمراجعته إحدى المسودات.

وقد دقق السيد إ. ن. حداد من القدس النص العربي في حينه.

هيلما غرانكفست

هلسنكي، ربيع عام 1935

الشكل الأول: البيت الذي عاشت فيه المؤلفة في أرطاس

الشكل الثاني:
الست لويزا (الآنسة بالدنسبيرغر) وعليا وحمدية

الشكل الثالث:
الحي الشرقي من القرية ببساتينه

المقدمة

أما وقد مضت سنوات عديدة على نشر الجزء الأول من هذا العمل؛ فلربما كان من الضروري أن أسوق بضع كلمات للتوطئة؛ فقد كانت الصعوبات، جلها مالية، سببًا للتأخير في نشر هذا الجزء الثاني، إلا أنني شعرت طوال الوقت بلزوم إنجاز هذا العمل ونشره مهما كلف الأمر. والآن، وقد تم هذا، أشعر بأنني تحررت من عبءٍ كبير، وآمل أن تسمح لي الظروف بمواصلة بحثي.

والعمل الإثنولوجي الميداني في الأراضي المقدسة ليس ممتعًا وحسب، بل هو واجب أيضًا. وللعمل الذي أنجزه الباحثون حتى الآن قيمة كبيرة، ولكن لا بد من أن نعترف بأنه لا يزال هنالك الكثير مما ينبغي عمله، ولكن ذلك لن يعود ممكنًا في وقت غير بعيد. ولهذا سررت كثيرًا؛ إذ رأيت المختصين مهتمين بإنجاز هذا العمل، وكذلك لإقرارهم الطريقة التي اتبعتها في عملي. وآمل أن يحظى هذا الجزء الثاني بالاستحسان الذي استُقبل به الجزء الأول.

وسأناقش في القسم الأول، من هذا الجزء، المراسم والشكليات التقليدية للزواج، والتي لا غُنْيَة عن الكثير منها حتى يكون الزواج شرعيًا. وعلى الرغم من أن هذه المراسم تهدف جزئيًا إلى إبعاد الشر عن العروسين، فإنها ضرورية، في المقام الأول، ليصبح الزواج ملزمًا بحسب الأعراف[1]. وهناك مجموعتان

---

(1) قد يكون هناك آراء أخرى تتعلق بهدف ومعنى طقوس الزواج؛ فيعتقد فيلهاوزن في: Julius Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der KöniglichenGesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 442

أنها تشير إلى قيمة المرأة والزواج. انظر أيضًا: Hilma Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, III. 8 = (Helsingfors,1931), p. 147 f.

من هذه المراسم، تلك المتعلقة بالخِطبة (إلخُطبِة)، وتلك المتعلقة بالعرس (إلعُرس).

وفي ما يتعلق بمراسم الزواج، لدينا، لحسن الحظ، تقارير من أماكن مختلفة من فلسطين. وقد اطلعت على الأدبيات المتيسرة لي عن مبحثي، واستشهدت منها بما يتفق وما رأيت بعيني.

وفي ما يتعلق بالحياة الزوجية التي ناقشتها في القسم الثاني؛ فلا أعرف عملًا يعالج هذه القضية في فلسطين بصورة أشمل مما فعلت هنا، وأرجو أن تفضي المسائل التي عرضت لها فيه إلى مزيد من البحث؛ فمن الواضح أن ثمة الكثير من المسائل المهمة التي ينبغي طرحها وإيجاد الحلول لها.

والإحصاءات التي كانت لها أهمية كبيرة في الجزء الأول، تسري على هذا الجزء أيضًا؛ فقد أسندت لكل رجل من رجال أرطاس رقمًا بالطريقة نفسها.

فعلى سبيل المثال: خضر [40] هو رجل متزوج يدعى خضر، ويحمل الرقم [40] في أشجار الأنساب.

وأشجار الأنساب موجودة في نهاية الجزء الأول من هذا الكتاب، المنشور ضمن سلسلة: *Societas ScientiarumFennia. Commentationes Humanarum Litterarum*, III. 8 (1931).

وأسلوب الترجمة هو نفسه كما في الجزء الأول.

= ويظهر من خلال تصنيف فان غنب لطقوس الزواج إلى طقوس انفصال وطقوس اتحاد، إلى أنه يأخذ في الاعتبار أهميتها الاجتماعية، انظر: Van Gennep, *Les Rites de passage* (Paris, 1909), p. 189.

ويشير ويسترمارك في كتابه: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, II (London, 1925), p. 438,

إلى أن القائمة التي عرضها فان غنب لهذه الطقوس مكتظة بصورة واضحة، ويضيف: «بعضها وقائي، وبعضها الآخر لا يشير بكل بساطة إلى الانفصال، بل إلى الانتقال من مرحلة في الحياة إلى مرحلة أخرى». ويقول في كتابه: *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 364 f.,

إن بعض الطقوس المغربية ذو طابع اجتماعي، وبعضها الآخر ذو طابع فردي.

مراسم الزواج

الفصل الأول
مراسم الخِطبة

هذه المراسم هي: الطلب الرسمي للعروس (إلطلب)، والمفاوضات الرسمية على المهر (إلمهر)، ووليمة الخِطبة، وتدعى «الطبخ» (إلطبخة)، وعقد القران (إلصّفاح، أو عقد إلنكاح). ويمكن أن يقام الأول والثاني من هذه المراسم في جمع محدود من الأقارب والأصدقاء، أما الثالث - وليمة الخِطبة - فيكون لأهل القرية كلهم. والرابع لا بد يُعقد بالقدر الممكن من السرية، بحضور عدد قليل من الناس فقط.

الطلب الرسمي للعروس

لا يُعرِّض الرجل نفسه لاحتمال أن يرفض طلبه للزواج؛ فإذا لم يكن متأكدًا من أن طلبه سيجد قبولًا حسنًا، يرسل رسولًا إلى بيت الفتاة ليستطلع الأمر بداية.

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) ذات مرة: «الذي يحضر لطلب العروس يقول: «أريد منكم مهرة تأكل بيدها». واللبيب يفهم ويجيب: «أهلًا وسهلًا»!»[1].

وبإمكان الرسول أن يسأل أقارب الفتاة مباشرة إن كانوا يرغبون في إعطائها

(1) انظر أيضًا: Hilma Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica. Commentationes Humanarum Litterarum*, III. 8 (Helsingfors,1931), p. 144f.

إلى هذا الرجل أو ذاك، وهو بهذا يهيئهم لعرض الزواج؛ فإذا أجابوا «بأهلًا وسهلًا به»، كان على يقين بأنهم راغبون في إتمام الزواج[2]. أما الاعتراضات التي يمكن أن يبدوها لاحقًا؛ فهي شكلية تمامًا.

وفي العادة، لا يقدم الشاب على الطلب الرسمي للعروس بنفسه، وإنما يفعل ذلك من خلال واحد من أصدقائه أو أكثر، أو من أقاربه الذين[3] يكونون له وسطاء لهذه الغاية.

وروت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي عن خطبة محمد علي [179] وعزيزة موسى (ابنة موسى خليل [174]، وزوجة محمد علي [179]) في منتصف تشرين الثاني من عام 1926:

«ارسل علي خليل [173] أخته حِلوة إلحجّة[4] (ابنة خليل شحادة [170]) إلى أخيهما قائلًا: «اسألي موسى خليل [174]، وانظري ما يقول في أمر الفتاة! أريد أن آخذ الفتاة (لابني) محمد علي [179]!» فذهبت إلحجّة [إلى بيت أخيها موسى]، وجلست، فأحضروا الطعام، وعندما وضعوا الطعام أمامها

(2) في قرية لفتا بالقرب من القدس لاحظت الآتي في خريف عام 1925؛ عندما يذهب الرجل للتفاوض مع والدي العروس، لا بد من أن يكونا على اطلاع مسبق بالأمر، ليتهيآ لذلك. وتكون الشائعات تكفلت بذلك. وإن لم يكن المرء على يقين من علمهما بالأمر، فعلى الوسيط أن يُخبر والدي الفتاة سلفًا، ولكن بصورة غير رسمية، وسرية تامة. فيقول، على سبيل المثال: «اسمعوا، أيها الناس! ربما فوّضت لآتيكم اليوم للتفاوض معكم، أتميلون إلى إعطاء إبنتكم عروسًا لفلان». فيجيبونه «أهلًا وسهلًا».

يشير السيد إلياس حداد من القدس إلى هذا قائلًا: «لا يتقدم الخاطب لعروس بالطلب الرسمي لها إن لم يكن متأكدًا من القبول. ولا يقول والدا العروس في أول الأمر 'نعم' لكنهما يقولان 'أهلًا وسهلًا!'».

ثم إن ويلسون يعتقد في: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London, 1906), p. 108f.,

أنه من النادر أن يُقابل عرض مهما كان برفض بين، لكن قد يوضع شرط مستحيل تكون فيه نهاية الأمر.

(3) من الشائع حتى عند العرب القدماء أن يستعين الخاطب بوسيط في كثير من الأحيان. انظر: Julius Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p.433 n. 1.

وفي ما يتعلق بهذا كعادة واسعة الانتشار انظر: Edward Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 19, n. 1.

(4) إلحجّة؛ أي من حجّت إلى مكة، ويُقال لمن حجَّ من الرجال الحج.

قالت: «لن أذوق شيئًا، حتى أعلم أني سأحصل على ما أريد!»[5] فقال موسى خليل [174] لها: «سيكون لك ما تريدين، يا أختاه! حتى وإن كنت جئت من أجل عزيزة (ابنة موسى خليل [174]، وزوجة محمد علي [179])» فقالت: «فلتحيا عزيزة وليحيا إخوتها! وقد جئت من أجل عزيزة (ابنة موسى خليل [174]، وزوجة محمد علي [179])، فإني أريدها لابن علي [173]». [فقال موسى]: «سيكون لك ما تريدين أنت وابن علي [173]!». وقالت له (الحجَّة): «إن ما لأخيك لك؛ فابنها لك (أي ابن عزيزة، ابنة موسى خليل [174]، وزوجة محمد علي [179]، مستقبلًا)، وابنتها لك، وهما أيدٍ لساعديك!» - [فقال]: «سيكون لك ما تريدين، قولي وكفى!» فعادت إلى علي خليل [173]، وقالت له: «قد بلغنا مرادنا، والدها أعطاها وأمها أعطتها»».

وكان زواج العروس بابن عمها محمد علي [179] قد رُتِّب منذ مولدها[6]، ومع ذلك، أرسلوا إحدى قريباتهم لتتقدم بطلب رسمي للعروس[7]؛ فحتى وإن

---

(5) يحدث هذا على الرغم من المثل القائل «بعد الطعام يأتي الكلام» (بعد الطَّعام بِصير التشلام). وقد بلغني الآتي عن الوسيط الذي يتقدم لعروس ما في قرية لفتا: يذهب الرجل، ويكون هذا في المساء غالبًا. وإذا كان أهل البيت تناولوا عشاءهم، عليهم أن يقدموا له عشاءً على حدة، وإلا دعوه إلى تناول العشاء معهم. وما إن يحضر الطعام، يقولون له: «تفضل!» فيجيب: «لن أستمتع بملحكم، أو أتذوق طعامكم حتى تعطوني ما أتيت من أجله». فيجيبونه: «أهلًا بك وبما أتيت من أجله (أي إننا نوافق على ما تريد عن طيب خاطر). فأنت عزيز عندنا، وزيارتك موضع تقديرنا. وتستطيع أن تبدأ بالحديث عما تريد مهما كان». وعندها يأكل. وبعد ذلك يتحدثون في أمور تتعلق بالحياة الاجتماعية، والعمل، والسياسة، وما إلى ذلك، إلى أن تُقدَّم القهوة. وبعد تقديم القهوة تبدأ المفاوضات. انظر: Wilson, *Peasant Life*, p. 108,

يقول الوسطاء عندما تُقدَّم القهوة لهم: «لن نشرب القهوة حتى نبلغ رسالتنا». وهذا يشبه ما قاله خادم إبراهيم عندما طلب رِفقة للزواج [لابن سيده] في الآية الثالثة والثلاثين من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين: «لن آكل حتى أبلغ رسالتي».

(6) انظر: Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, p. 29.

(7) في ما يتعلق بطلب العروس انظر الصفحة 94 وما يليها عن عادات الخِطبة بين سكان القدس، والصفحة 119 عن عادات الخطبة بين الفلاحين في القرى القريبة من القدس، في: Enno Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge (Berlin, 1902), v. 3, p. 94 ff, and p. 119; Gustav Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1910), p. 104, 124; Frederick Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und =

حسموا أمرهم منذ زمن بعيد بأن رجلًا ما سيتزوج امرأةً ما، فلا بد أن يكون هناك طلب رسمي للعروس.

المفاوضات الرسمية على مهر العروس

وبعد أن أكدت الوسيطة [حِلوة إلحجّة] لعلي خليل [173]، والد العريس قبول طلبه(8)، دعا خمسة من أقرب أقاربه، وهم: أخوه محمد خليل [171]، وزوجته إطعيمه سالم (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])، وابنهما خليل محمد [176]، إضافة إلى أخته حِلوِه خليل (ابنة خليل شحادة [170])، الوسيطة الآنفة الذكر، وزوجها محمد محمود وهو من خَلْحول، وذهبوا معه إلى بيت العروس ليكونوا شهودًا، وليبحثوا أمر مهر العروس.

«فلنذهب لنتفق على مهر العروس». وذهبوا إلى محمد خليل [171]، وابنه خليل محمد [176]، ثم ذهب الجميع إلى موسى خليل [174]، وهم: إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])، وابنها خليل محمد [176]، وزوجها محمد خليل [171]، وعلي خليل [173]، وابنه العريس محمد علي [179]، وحِلوِة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170]) وزوجها محمد محمود، ثم جلسوا، ووُضع الطعام أمامهم ليأكلوا، ولكنهم قالوا: «لنا حاجة!» فقال: «لكم ما تريدون!»».

واتفق الإخوة الثلاثة: والد العريس (علي خليل [173])، ووالد العروس (موسى خليل [174])، ومحمد خليل [171]، على مهر العروس.

Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, VI (Leipzig, = 1883), p. 86ff.; Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 56; Wilson, *Peasant Life*, p. 108f.; John Lewis Burckhardt: *Arabic Proverbs* (London, 1830), p. 113, and John LewisBurckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I (London, 1830), p. 61, 149, and Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 19f.

(8) يقول بيرتون في: Richard Francis Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Meccah*, II (London, 1855), p. 287.

عندما يُعطى القبول «يَنذر الطرفان التزامهما بالعهد بتلاوة الفاتحة». انظر: Snouck Hurgronje, *Mekka*, II (Haag, 1889), p. 159.

«وقال والد العريس [173]: «سنقدم لها 100 جنيه إسترليني.» وقال محمد خليل [171]: «وما لله[9] وللرسول؟» قالوا: «20 جنيهًا»، [فقال محمد خليل [171]]: «ولخليل الله أبينا إبراهيم؟» فأجاب موسى خليل [174]: «15 جنيهًا»، فقال محمد خليل [171]: «حسنًا، ولجامع عمر (في القدس) ولبيت الله؟» - [فأجاب موسى خليل]: «10 جنيهات» - [فقال محمد خليل [171]]: «وللحاضرين؟» فقال موسى خليل [174]: «5 جنيهات».

وهكذا بقي لوالدها موسى خليل [174] 50 جنيهًا، وأعطاها أبوها 10 جنيهات».

وتجري المفاوضات على مهر العروس بالأسلوب نفسه دائمًا، وفي الجزء الأول من هذا العمل؛ حيث تناولت مسائل أساسية تتعلق بالعوض المقدم مقابل العروس، بينت أن مهر العروس يختلف من فئة إلى أخرى من فئات العرائس[10]: العروس ابنة العم، والعروس ابنة القرية، والعروس الغريبة[11]، وهكذا يعرف المرء سلفًا المهر الذي ينبغي أن يقدمه. ولكن مع ذلك، لا بد من الاتفاق على المهر في كل حالة، وعلى وكيل العريس أن يعرض مهرًا غاليًا لكي يظهر عظيم قدر الفتاة عنده، وعلى الأصدقاء الحاضرين أن يسألوا والد الفتاة أن يرأف به، وأن يخفض المهر مرة بعد مرة؛ لله وللرسول وللأصدقاء الحاضرين، وحتى لأجل النساء في بعض الأحيان، إلى أن يصل المرء إلى مهر العروس الذي يحدده العرف في ذلك المكان[12]،

(9) لقد استخدمت لفظة God وليس Allah في ترجمة النصوص العربية، كما في الجزء الأول من هذا العمل، إذ إن عدم ترجمة اللفظة العربية «الله»، بوجه عام، بكلمة God، أوجد فكرة أن المسلمين يعبدون إلهًا خاصًا بهم.

(10) ثمة ملاحظة جديرة بالذكر في ما يتعلق بتقاريري عن قرية لفتا المذكورة آنفًا؛ فهناك مهران مختلفان للعروس: 1. مهر العروس الحقيقي، أو (الحق) الحقيقي 2. الحق المتأخر (حق مُتأخر). ولا يُعطى الأخير إلا عند طلاق الزوج لزوجته، أو عند موته، وغنيًّا كان أم فقيرًا؛ تُعطى مؤخرها أولًا، وبعد ذلك يُقسَّم الميراث.

(11) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village*, p. 122ff.

(12) في ما يتعلق بتخفيض تدريجي مشابه لمهر العروس، قارن تخفيض المهر من ألف ليرة إلى خمسين ليرة لدى: Gustav Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. =

ولا يستغنى عن هذه الشكليات إلا في حال تبادل عروس بعروس(13).

وليمة الخِطبة أو الطبخ للعروس

سأصف وليمة الخِطبة، بأن أعرض أولًا رواية حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن عزيزة موسى (ابنة موسى خليل [174]، وزوجة محمد علي [179]) ومحمد علي [179] كمثال للحالة التي تكون فيها العروس والعريس من القرية نفسها، ثم رواية حمدية لحالة العروس فيها من قرية أخرى، ويعجل الناس في إقامة هذه الوليمة قدر المستطاع، بعد الموافقة على طلب العروس والاتفاق على المهر.

Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1910),p. 105f., p. 125. =

وتخفيض المهر من ستين قطعة ذهبية إلى ثلاثين قطعة ذهبية لدى: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 119.

انظر أيضًا: H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, v. 1 (Leipzig, 1927), p. 99; Stewart Macalister and E.W.G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII (London, 1905), p. 347f.; Alois Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 183, and Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage*, p. 287.

وفي ما يتعلق بتخفيضات مشابهة في أثناء التفاوض مع عم العروس وأبناء عمها حول الهدايا التي على العريس أن يقدمها إلى أقرباء العروس، انظر الصفحة 120 وما يليها من مقالة ليتمان المشار إليه سابقًا، وانظر أدناه في الصفحتين 374 و375 وما يليها من هذا الكتاب. وفي ما يتعلق بهذه الهدايا انظر: Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, p. 126f.

ويحسب لين في: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 218f.

يؤكد الحاضرون الاتفاق ويتلون سورة الفاتحة عندما يستقر الرأي حول مهر العروس رسميًا.

(13) ينطبق هذا أيضًا على حالة البدل الاستثنائية، عندما تقدم فتاة تسمى بـ «الغُرّة» كزوجة لعائلة رجل مقتول كوسيلة للمصالحة أو التعويض. انظر: Granqvist, Ibid., p. 140, and Omar Effendi El-Barghuthi, «Judicial Courts among the Bedouin of Palestine,» in: *Studies in Palestinian Customs and Folklore*, I (Jerusalem, 1922), p. 6 n. 1.

وقد أعيدت طباعته من: *Journal of the Palestine Oriental Society*, II.

انظر أيضًا: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p.158f.

ختمت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) حديثها عن الاتفاق على مهر عزيزة (ابنة موسى خليل [174]، وزوجة محمد علي [179]) بقولها: «حدث هذا بالأمس»، ثم لم تلبث أن استأنفت قائلة:

«سيذبحون اليوم (اليوم يذبحوا). يوضع الطعام أمام الرجال، ويقال لهم: «تفضلوا واقبلوا ما قدمنا لكم!»، فيقولون: «ما سبب الدعوة للطعام؟» فيقال: «50 جنيهًا (أي مبلغ مهر العروس)»، فيسألون: «أكل شيء واضح؟» فيقال: «نعم»، ويقولون: «هل في الأمر ما هو مبهم أو غير مرضٍ؟» فيقال لهم ليطمئنوا: «كل شيء واضح»، ثم يقال لهم: «هل أنتم شهود على هذا؟ هل تشهدون على ما سمعتم؟»، فيجيبون: «سنشهد على ما سمعنا، سلنتزم بما هو حق»، وبعدها يأكلون، وآنية الطعام أمامهم. ويقال لهم: «اقرأوا سورة الفاتحة باسم محمد علي» [179] (أي العريس)».

وتبين حمدية (ابنة سليمان سند [183]) بهذه الرواية على نحو جلي السمة العامة لوليمة الخطبة في الحالات الاعتيادية، وهي أن الوليمة الرسمية هي أيضًا شهادةً على واقعة الخِطبة، وأنهم إنما يذبحون أو يطبخون لحاجتهم إلى وجود الشهود؛ فلكلام الناس أهميته، على الرغم من أن الخطبة موثقة بعقود مكتوبة، وتكتسب الوليمة صفة رسمية ملزمة بقراءة سورة الفاتحة. وبالطبع؛ فالوليمة، في الوقت نفسه، إعلان عام عن نية الزواج، واحتفال أيضًا.

وقد لقيت العريس في اليوم نفسه في أثناء جولتي في القرية، وقال لي وهو يتألق بهجة كم كان ذلك اليوم مهمًا له!. ولدى عودتي إلى البيت، طلبت إلى حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أن تحدثني عن هذا؛ فهي تسكن في الحي الشرقي من القرية، حيث يسكن العريس. ولذا؛ فهي تعرف التفاصيل كلها، ثم لم نلبث أن ذهبنا إلى بيت العروس، وكان والد العريس (علي خليل [173]) وابنه (محمد علي [179]) موجودين خارج البيت، وقد بدآ للتو بالذبح للوليمة، فدعيانا للمشاركة، ثم دخلنا البيت وأكرمونا بمقاعد في النافذة، قبالة نساء القرية اللاتي رقصن وغنين للخِطبة. وتحدثنا إلى حلوة إلحجّة التي حدثتنا

عما كان لها من يدٍ في هذه الخطبة. وبعد حين، عندما مضينا في سبيلنا، مررنا بعلي خليل [173] أمام البيت، فهتف داعيًا إيانا لحضور الوليمة، واكتفيت بمشاهدة احتفال الخِطبة من نافذة غرفتي المشرفة على المكان. ورأيت الرجال يسيرون بوقار نحو الساحة، حيث يجتمعون عادة، في الشطر الشرقي من القرية، ويجلسون في حلقة كبيرة، ثم أحضر لهم العريس محمد علي [179]، وأصدقاؤه اللحم على أطباق خشبية كبيرة. وجاءتنا أمه عيشة (زوجة علي خليل [173]) باللحم والأرز لكي تقدم الست لويزا طعامًا لعليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) وحمدية (ابنه سليمان سند [183]).

وفي اليوم التالي جاء العريس لرؤيتنا، وقدم لنا المزيد من المعلومات عن الخِطبة. وقال إن الوليمة ابتدأت بقراءة سورة الفاتحة، وإنهم دعوا أهل القرية كلهم إلى الوليمة، وليس فقط أهل الحي الذي يسكن فيه العريس، كما هي الحال الآن[14]، وليس للعريس أن يتحدث إلى عروسه بعد الآن؛ لأن على الخطيبين أن يجتنب كل منهما الآخر حتى يوم العرس. وإذا ما ذهب لزيارة أهلها، فيجب أن تبتعد أو تتوارى[15]، ولا ينتهي هذا الحكم الصارم حتى مساء

---

(14) والآن بعد أن كبرت القرية، بات هناك فرق بين الحيين الشرقي والغربي من القرية. وإذا ما سألت امرأة من الحي الشرقي عما حدث في الحي الغربي، فقد تقول: 'لا أعرف فلم يحدث الأمر في حينا (حارة)'».

(15) ويشبه هذا ما يرد عند: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 92 ;Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 107, 126, and Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 96, 99.

وفي أثناء مقامي في نابلس ذات مرة، قيل لي إن العادة نفسها سائدة هناك؛ أي إن على الخطيبة أن تغادر البيت أو تختبئ خلف خزانة، عند قدوم خطيبها إلى بيتها. انظر: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 63,

«ومهما طالت فترة الانتظار، لا يحق للخطيبين أن يريا بعضهما بعضًا، أو أن يتحدثا إلى بعضهما بعضًا» [ترجمة عن الفرنسية]. ويشير المؤلف في إحدى الحواشي إلى أن هذه العادة غير متبعة بصورة صارمة في القرى المجاورة. ويتحدث بيروتي مرة أخرى عن العرب من أتباع الكنيسة الكاثوليكية اليونانية في: Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge, 1864), p. 182, =

يوم العرس، حين يتركهما الضيوف لخلوتهما. وسألناه متى سيتزوج؟ فأجاب بأن والده ينوي الاحتفال بعرسه في عيد الأضحى المقبل، إلا أنه أُجِّل في الواقع إلى الخريف التالي من عام 1927. كان العريس سعيدًا جدًا، لا يستنكف عن الحديث في الموضوع، أما العروس فكانت تلتزم الصمت حياءً كلما لقيناها وذكرنا الخِطبة، كما تقتضي العادة.

يجب على الخطيبين أن يتجنب أحدهما الآخر

وحتى في مثل هذه الحال، عندما يكون العريس والعروس أبناء عم نشآ معًا في القرية نفسها، لا بد لهما من أن يتقيدا بعادة حظر الكلام في ما بينهما. وإذا كانا يعيشان في قريتين مختلفتين، فمن الممكن أن لا يرى الرجل المرأة التي خُطبت له قط؛ فأمر الزواج لا يرتبه الطرفان ذوا الشأن. وقد أشرنا سابقًا إلى أن هذا لا يعد أمرًا سيئًا، وأن بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الزواج كان في الأيام الخالية أكثر سعادة منه الآن؛ عندما كان الناس أكثر صرامة في اتباع هذا العرف. وهتفت الست لويزا ذات مرة، وهي التي تعرف معتقدات الناس جيدًا: «كم يكون العريس سعيدًا عندما يرى عروسه التي اختارها له أبواه بأم عينه!».

إلا أن العريس قد لا يرضى أحيانًا بالانتظار حتى مساء يوم العرس، ليسمح له بكشف نقاب العروس ليراها للمرة الأولى وجهًا لوجه.

وقد كانت تلك هي حال رجل يدعى يوسف من بيت صَفافا عام 1930؛ إذ قيل إنه عندما أراد أن يتزوج امرأة ثانية، فكر أول الأمر في الزواج من فتاة من قريته، لكن زوجته الأولى خليلية (ابنة احمد جاد الله [21])، وهي من أرطاس، أرادت أن تكون ضرتها من قريتها. وهذا ما حدث؛ فقد اختار له أخوه محمد وأخته نعيمة، بهية (ابنة أحمد إسْمَعين [52]، وزوجة علي محمد [58])

= إلى أن «أن للعاشق الحرية في زيارة زوجته المخطوبة متى شاء؛ إذ ينظر إليهما على أنهما مرتبطان رباطًا لا فكاك منه». ويبدو لي هذا الرأي غريبًا جدًا. وللعادة المتعلقة بوجوب تجنب الخطيبين لبعضهما بعضًا، انظر: Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, p. 61, 102.

من أرطاس، والتي كان زوجها الأول قد طلقها قبيل ذلك. وغضبت نساء بيت صَفافا، كما قالت نساء قريتنا، لإغفال الرجل لهن من أجل امرأة غريبة. ولقين بهية (ابنة أحمد إسْمَعين [52]، وزوجة علي محمد [58]) ذات يوم في السوق في بيت لحم، فما أطقن إلا أن يغظن يوسف.

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«عادت نساء بيت صَفافا من بيت لحم، وقلن: «إِفي! عروسة يوسف مسنة وعمياء وذات عيون دامعة، ولا أسنان لها»؛ فقالت له أخته نعيمة (زوجة جبرين عِثمان [79]): «لقد جلست أنا وعروسك معًا؛ فهل الصدق ما أقول أنا، أم ما تقول نساء بيت صَفافا؟» قال لها: «أنت وأخوك محمد تخدعانني»».

وعندما لم يصدق يوسف أخته وأخاه، اقترح الأخير أن يذهبوا إلى بيت لحم ليحاولوا رؤية بهية، ورافقهم عدد من رجال بيت صَفافا من أقارب يوسف. وعندما وصلوا إلى بيت لحم، علموا من بعض بائعي الخضروات أن بهية (ابنة أحمد إسْمَعين [52]، وزوجة علي محمد [58]) كانت في البلدة يومئذ، وأنها ذهبت إلى الطاحونة لطحن الدقيق، وقال يوسف: «فلنذهب لوزن الخراف والمعز!». قال هذا متذرعًا للذهاب إلى الطاحونة.

وفي طريقهم صادفوا امرأة جذبت انتباه يوسف، وحياها زوج أخته جبرين عِثمان [79]، وهو من أرطاس.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن يوسف:

«سأل [يوسف]: «يا جبرين [79]، من المرأة التي حييت؟» [فأجاب]: «هذه عروس يوسف»، فعلق أحد الرجال الذين ذهبوا معه قائلًا: «غنيمتك لا هي عمياء ولا عجوز». وقال آخر: «يا عمي! كم هي جميلة خطيبتك (ما شاء الله خطيبتكو)! هذه لا ينبغي أن تكون في بيت من حجر (وإنما في خيمة). هذه سيدة!»، فقال يوسف: صدقوا هذا يا رجال بيت صَفافا! (إن استطعتم)!»».

وكان كلام نساء بيت صَفافا أربك يوسف إرباكًا شديدًا، فلم يصدق أن

هذه المرأة الجذابة التي صادفها للتو هي عروسه، وليتأكد، أصر على الذهاب إلى بيتها في أرطاس، لعله يصدق ذلك، ورآهم أهل القرية ينزلون التلة، فحذروا بهية (ابنة أحمد إسْمَعين [52]، وزوجة علي محمد [58]).

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«حاول يوسف أن يلقاها، ولكنه كلما جاء من طريق، سلكت هي طريقًا آخر.
وقال له أبوها: «طائر الحجل أبرع من الصياد (الشنار أشطر من الصياد)»».

وشعر أبوها بالفخر؛ لأن ابنته كانت عفيفة جدًا حتى إنها تجنبت خطيبها. وعلى أي حال، يبدو أن يوسف الذي اختبأ مترقبًا بجوار بيت من البيوت، بحسب رواية عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، تمكن من رؤية ما يكفي منها، ليتأكد أنها هي المرأة ذاتها التي لقيها في بيت لحم.

وقال راضيًا: «أنا صليت صلاة الجمعة» (صليت الجمعة)؛ أي إن هذه المرأة كانت جزاءً له لالتزامه بصلاة الجمعة؛ فالمسلمون يذهبون إلى القدس كل جمعة لأداء الصلاة هناك في المسجد (الحرم). وقال أحد الرجال الحاضرين: «هناك حُسن، وهناك عين، ويده ملأى (زين في، عين في، إيدو ملانِة)».

وختمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بقولها: «إذا أحيانا الله فسيسر كل منهما بالآخر».

وليمة الخِطبة للمرأة الغريبة

إذا كانت العروس من قرية أخرى، يكون احتفال الخِطبة أكثر تفصيلًا؛ لأن العريس وأصدقاءه وأقاربه يذهبون في هذه الحال في موكب رسمي من قريته إلى قرية العروس.

وكانت أول حفلة خِطبة حضرتها بين الفلاحين في فلسطين من هذا النوع؛ ففي نهاية عام 1925 احتفل عيسى خليل [11] بخطوبته فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) من بيت لحم.

وقبل ذلك بيوم، وصلت إلى أرطاس للانضمام إلى الموكب، ولمحت في الحال اثنين من المَعِز مربوطين أمام بيتنا، وقيل لي إنهما ماعزا الخِطبة، وأنهما سيؤخذان إلى بيت لحم في اليوم التالي؛ لأن العريس هو من يُجهز للوليمة في بيت العروس ويدفع تكاليفها؛ لذلك فإن عليه أن يحضر اللحم والأشياء الضرورية الأخرى كلها. وفي المساء، أحضر أخوه الأكبر حطبًا على حمار، وأنزله بالقرب من الماعزين، وقيل لي إنه حطب وليمة الخِطبة؛ فحتى الحطب يجب أن يحضره العريس.

وفي صباح اليوم التالي، نهضنا مبكرين، ولم نسمع شيئًا حتى الساعة السادسة، ولكن بعد نصف ساعة، عندما صعدنا الجبل، كان أول من رأينا المرأة التي حملت على رأسها الحطب لوليمة الخِطبة (انظر الشكل رقم 5). وبعد هنيهة، جاء العريس راكبًا حصانًا وخلفه المختار عبد السلام إبراهيم [92]، وهو أحد زعيمي القرية، على حصان أيضًا، وبيده مِظلة، وهو الفلاح الوحيد في أرطاس الذي يملك مظلة. ودبت الحياة في القرية، وبدأوا بصعود التل الواحد تلو الآخر، وفجأة سمعنا صوت رقص وغناء نساءٍ تجمعن خارج حجرة العريس؛ حيث كان بعض الناس قد سبقوهن إلى الرقص، ثم أخذن يصعدن التل وهن يغنين ويزغردن (زغاريت)[16]

---

(16) «زغاريت» (مفردها زغروتة) هي صيحات الفرح الصاخبة تطلقها النساء العربيات منذ القدم في محافل مختلفة، وتذكر في كثير من الأحيان في الأعمال التي تتناول فلسطين والمشرق. وفي ما يتعلق بالأغاني التي تحتوي على زغاريد، انظر على سبيل المثال: Claude Reignier Conder, *Tent Work in Palestine* (London, 1885), p. 323; PhilipBaldensperger, «Women in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXII (London, 1900), p. 183; Macalister and Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 347f., and Taufik Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 17f., and Taufik Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, vol. XXI (Leipzig, 1929), p. 24,

وانظر على وجه الخصوص: Gustaf Dalman, *Palästinischer Diwan: als Beitrag zur Volkskunde Palästinas* (Leipzig, 1901), p. XIX, and Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen derköniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 87,

ويقدم المرجع الأخير وصفًا دقيقًا مع الإشارة إلى الأدبيات مثل: Hurgronje, *Mekka*, p. 62, 138,

= 159, and Wetzstein, in: *Zeitschrift der Deutschen Morgenlädischen Gesellschaft*, XXII. p. 97 n. 24,

ويصفقن بأيديهن[17]، حاملات الأطفال الصغار على أذرعهن أو أكتافهن، بينما كان الأطفال الأكبر سنًا يمشون على أقدامهم. واضطرت الست لويزا إلى البقاء في البيت في ذلك اليوم، ولهذا كنت وحدي مع صديقاتي. وكنت آنذاك حديثة عهد بهن، إلا أنهن كن لطيفات، وعاونّني في مهمتي. وتبين ثلاث صور (الأشكال من رقم 6 إلى رقم 8) كيف بدا الموكب؛ إذ تقدم الرجال مشاة وركبانًا، وبينهم عبد السلام إبراهيم [92] بمظلته، وتبعهم العريس. وتظهر الصورة (الشكل رقم 4) ولدًا صغيرًا يركب أمامه على الحصان، بينما يركب ولد صغير خلفه في الشكل رقم 7. ولم يقل أحد منهم شيئًا عن ذلك، ولكن

= ويقول ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen derköniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 87,

«أغاني الأعراس.. تتألف في شطرها الأكبر من الزغاريد (الزغاريت، ومفردها زغروتة، هكذا يقال لها في جنوب فلسطين..)، وهي صيحة فرح تطلقها النساء في الشرق، في المحافل العائلية، وعند خروج المحاربين، وفي الحروب، منذ قديم الزمان».

في ما يتعلق بالزغاريد عند الاحتفال بالانتهاء من بناء بيت انظر: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 110.

وفي ما يتعلق بالزغاريد في الحصاد، انظرالمرجع المذكور ص 76، وفي ما يتعلق بالزغاريد عند عودة المنتصرين بعد قتال، انظر: A. Socin and H. Stumme, *Diwan aus Centralarabien*(Leipzig, 1901), No. 110, prose text 13,

(اقتبسه ليتمان في الصفحة 88 من المرجع المشار إليه سابقًا).

وفي الزغاريد التي تستقبل بها المرأة العربية زوجها عند عودته من رحلة انظر: Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage*, p. 197.

وفي ما يتعلق بالزغاريد في الأعراس ومناسبات أخرى كميلاد طفل على سبيل المثال، وذلك بهدف إبعاد الأرواح الشريرة، في الأقل، انظر: Edward Westermarck, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London, 1926), p. 314, II. p. 374, 453.

(17) إن الفلاحات اللاتي لا يملكن آلات موسيقية، يصحبن أغانيهن بالتصفيق بالأيدي. وهذا مهم، ولا سيما عندما يصاحب الرقص التصفيق بالأيدي فحسب، إذا ما تعبن من الغناء. ولقد رأيتهن مرة واحدة فقط يضربن بدف الدراويش، وهن يغنين في حفل بناء. وليس في وسع المرء أن يقول إن النساء يعزفن حقًا بآلة عندما يضربن، للحصول على الإيقاع في رقصهن أحيانًا، بصفيحة بنزين، والتي حلت الآن مكان جرار الماء الجميلة المصنوعة يدويًا. ولعل من الجدير بالذكر في هذا السياق، أنني سمعت في أحد أعراس خريف عام 1930 صوت أكورديون في القرية. فقد جاءت زهية هلال (زوجة خليل شاهين [150])، التي ولدت في بيت لحم، وتزوجت رجلًا من أرطاس، وتعيش الآن مع زوجها في مسقط رأسها، إلى القرية من أجل العرس، وعزفت الأكورديون للنساء هناك. ويذكر أيضًا أن أحد رجال أرطاس كان لديه غراموفون [حاكي] لبعض الوقت، ولا أعلم أكان يملكه أم لا؛ لكنه اختفى سريعًا.

قد يكون للأمر علاقة بالأمل بأن يُبارك الزواج بالأطفال[18]. وسارت النساء في ذيل الموكب، وكانت فيهن أيضًا المرأة التي حملت الحطب على رأسها. وقد غنين وصفقن بأيديهن في آن معًا طوال الوقت، حتى عندما وصلنا إلى بيت لحم. وتجشم فارسان من بيت لحم مشقة كبيرة لإقناعهن بالكف عن ذلك؛ إذ كان أحد التلحميين توفي للتو، وما كان لأهل أرطاس أن يدخلوا المدينة وهم يغنون ويرقصون فرحًا.

ومضى الموكب في صمت في شوارع بيت لحم حتى وصل إلى بيت العروس، ودخلت النساء إلى البيت، بينما شرع الرجال في الإعداد للوليمة. ويظهر الشكل رقم 9 نشر الحطب في المكان، وذبح الماعز أمام البيت. ولأن لكل ذبيحة سمة الأضحية تقريبًا، فإن لسيلان دم الذبيحة على الأرض أهمية كبيرة؛ ليعرف الناس في ما بعد،[19] أن ذبيحة قد ذبحت في ذلك المكان.

وأعد الرجال القهوة، ونصبوا قدورهم العظيمة للحم والأرز. وأخذ الشباب يقدمون القهوة للناس، واللحم والأرز في ما بعد. لم يغب أحد عن الحفل سوى العروس؛ فقد ذهبت إلى بيت أحد الأقرباء لقضاء ذلك اليوم هناك؛ إذ إن العروس لا تحضر حفل خطبتها.

وعند الانتهاء من هذه الوليمة، يُقال: «قد ذبحوا» (ذبحوا)، أو يقال: «طبخوا من أجلها» (طبخوا عليها)؛ أي للعروس[20].

(18) انظر أدناه في الصفحتين 360 و364 من هذا الكتاب.

(19) وعلى سبيل المثال، نرى كم يكون دم الذبيحة واضحًا في ما يرويه باومان في مقالة له في: Eberhard Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1908), p. 68,

وقد جاء إلى القرية بعد ذبح (ذبيحة الحنّة)، إذ يقول عن بيت العروس: «كان الجدار الخارجي المجاور لعضادة الباب اليمنى ملطخًا بالدم الذي كان سال من السطح وتخثر».

(20) في ما يتعلق بهذه العبارة قارن: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, iv. 2, p. 201 n. 1.

في ما يتعلق بوليمة الخِطبة انظر: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 104, 124.

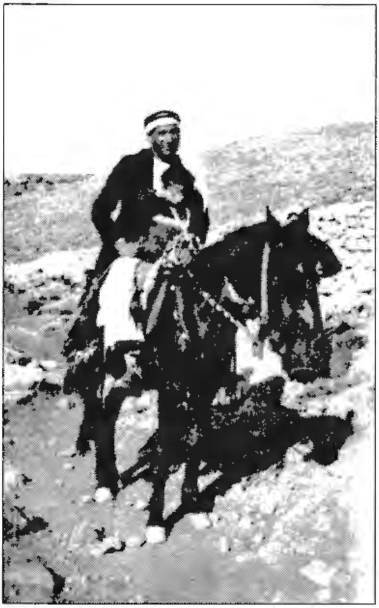

الشكل رقم 4: العريس

الشكل رقم 5: الحطب لوليمة الخِطبة

الشكل رقم 6: النساء في موكب الخِطبة

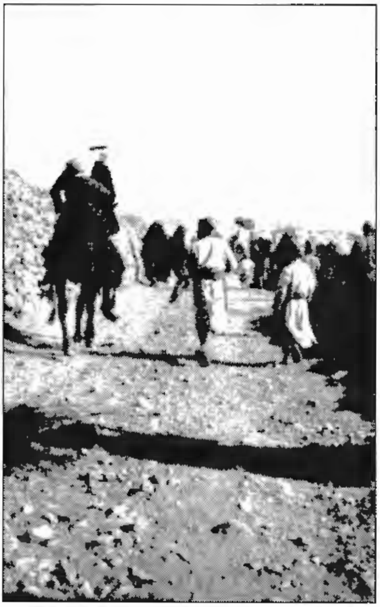

الشكل رقم 7: العريس والرجال في موكب الخِطبة

الشكل رقم 8: النساء في الموكب

الشكل رقم 9: ذبح الماعز، والحطب

وكيل العروس

حفل الخِطبة هو شأن عام يشترك فيه أكبر عدد ممكن من الناس ويبتهجون به. وبعكس ذلك، فيجب أن يُبرم عقد القران (إلصّفاح أو عقد إلنكاح)[21] أمام شيخ - إذا عُقد في قرية، فأمام الخطيب، وإذا عُقد في مدينة، فأمام القاضي - بالقدر الممكن من السرية، بحضور عدد قليل من الشهود فقط، إلى جانب العريس أو وكيله ووكيل العروس. ولما كان الرجال وحدهم هم الذين يقومون بهذه المراسم دائمًا، فلا يسمح للعروس بحضوره البتة، ولكن يكون لها وكيل من أقاربها المقربين - والدها، أو أخوها، أو عمها - ويجب أن يكون مفوضًا منها لهذه الغاية. ولذلك، عليه أن يذهب إلى العروس أولًا، ومعه اثنان من الشهود، ويسألها بحضورهما ثلاث مرات: «هل أنا وكيلك في زواجك؟»، وتجيب في كل مرة: «نعم أنت وكيلي». وبعد هذا يكون له الحق أمام الشيخ، وبحضور الشهود أنفسهم بأن يزوجها للعريس.

وبحسب محدثتَي، فإن للعروس - إن لم تكن قابلة بالزواج - أن ترفض منح التفويض، إلى أن يوفوا بكل واجباتهم تجاهها.

---

(21) لم يرق لمحدثتيَّ استخدام عبارة عقد النكاح، وشعرتا بالحرج من نطقها ولا سيما في حضور رجل، لأنهن رأين في العبارة منح الرجل الحق في المعاشرة الزوجية. واللفظة العربية «نكاح» تعني أيضًا «جماع». ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, p. 219, أن الاسم الصحيح لعقد الزواج هو «عقد النكاح، وعادة ما يُسمى كتب الكتاب». ويضيف «ومن النادر كتابة أية وثيقة لإثبات الزواج، إلا إذا أراد العريس السفر إلى مكان آخر، وخشي حدوث ما يوجب إثبات زواجه، حيث لا يمكن إحضار شهود عقد الزواج». ويقول كما يقول ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 17f.,

«ليس من الضروري كتابة هذا العقد؛ فعقد الزواج الشفوي، والتعهد الشفوي بالمهر صحيحان في القانون كالعقد المكتوب. لكن ينبغي في شريعة أهل السنة وجود شاهدين في الأقل ليشهدا إبرام العقد.. ويُصر المالكيون على أن يكون الشهود عدولًا». ويشير ويسترمارك إلى تصريح أمير علي في: Ameer Ali, *Mahommedan Law* II (Calcutta, 1908), p. 503, 325,

وتصريح سيدي خليل في: *Muḫtaṣar* § 5 (Russel and Abdullah Al-Ma'mun Suhrawardy, *A Manual of the Law of Marriage from Mukhtaṣar of Sīdī Khalīl* (London), p. 2).

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«يأتي الأب أو الأخ، ويقول لها: «من هو وكيلك في زواجك؟» وإن كان كل شيء على ما يرام، فتقول له: «أنت وكيلي». أما إذا كان ما زال ثمة نقص في ما طلبته من العريس، فلا توافق، وإذا كانت مغتاظة منه فإنها لا تجيب كذلك. فتقول الأم، على سبيل المثال، إنه لا تزال هناك أساور، أو قلائد، أو ملابس ناقصة، أو حصتها من المهر (صداق رقبتها). أما إن كانت راضية، فتقول ثلاث مرات: «أنت وكيلي!» وبحضور الشهود».

وفي 21 تشرين الثاني/أكتوبر من عام 1926 قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن إحدى العرائس:

«سألوا نعيمة (ابنة يوسف شاهين [138]، وزوجة محمود الموسى [128]): «هل وفيناك حقك؟» فقالت: «نعم»، فقال (أخوها): «هل بقي لك شيء عندنا؟» فقالت: «لا»».

وتارة أخرى، قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«إذا بقي هناك شيء ناقص، تقول: «أنت وكيلي والإثم في رقبتك!» وإن لم يبق لها شيء مستحق تقول: «لا إثم عليك»».

في التاسع عشر من شهر كانون الثاني/يناير روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي في ما يتعلق بعرس سليم مسلَّم [199]، وصبحة (زوجة سليم مسلَّم [199]) من دورا:

«أُبرم عقد القران في يوم العرس قبل تزيين وجه العروس وتجميله. وجاء الأخ وقال: «هل أنا وكيلك في زواجك؟» فقالت: «أنت وكيلي، ولا إثم في رقبتك»، ووقف بجانبهما شاهدان، وقال لهما أخوها: «اسمعا!» فقالا: «سوف نشهد بما سمعنا»، وذهبوا إلى الشيخ (الخطيب) الحاج عبد الرحمن من بيت لحم»[22].

(22) قارن تفويض العروس أمرها إلى أبيها، أو أخيها، أو عمها، ليكون وكيلها في عقد الزواج، بما =

مراسم العقد

تروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن مراسم العقد (إلصّفاح أو عقد إلنكاح):

«يمد العريس يده إلى أبي العروس أو أخيها، ويقول: «هل تعطيني ابنتك أو أختك للزواج؟» فيقول الأب أو الأخ: «أعطيك إياها»، ويكون هناك ثلاثة شهود حاضرين، ويُسألون: «هل تشهدون بما سمعتم؟» فيجيبون: «سنشهد بما سمعنا». ويُقال كل شيء ثلاث مرات.

وتُتلى سورة الفاتحة(23). وتعد قراءة سورة الفاتحة نصف عقد الزواج (قراية إلفاتحة نُص إلصفاح).

ويعطى الذي يبرم عقد الزواج جنيهًا إذا كان المهر مئة جنيه، ونصف جنيه إذا كان المهر خمسين جنيها»(24).

= يرد على سبيل المثال لدى: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 106, 125,

حيث نجد شواهد مثيرة على أن العروس يجب عليها في هذه المناسبة أن تكون حزينة باكية، وأن تشعر بالخجل.

(23) وهذا أيضًا بحسب روتشتاين في الصفحات 106 وما يليها، و125 وما يليها، وويلسون في: Wilson, *Peasant Life*, p. 112.

ويتحدث جوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 344f.,

عن «ذبيحة الصفاح أو العقد» التي تُذبح للعروس، كما تذبح للعريس في غزة.

(24) لوصف تفصيلي لطقوس عقد الزواج أمام خطيب القرية أو القاضي انظر: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 96, andE. Graf von Mülinen, «Beiträge zur Kenntnis des Karmels,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXX (Leipzig, 1907), p. 171,

حيث يصاغ سند المتأخر.

Adela Goodrich-Freer, *Arabs in Tent and Town* (London, 1924), p. 29; Wilson, *Peasant Life*, p. 111f.; Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 125f., and Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 58f.

ومن المهم مقارنة وصف الطريقة التي يُعقد بها الزواج في فلسطين، بما يرد عند لين حول الأمر نفسه في مصر في: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, p. 219ff.

وتقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن العباءة (هِدم إلصّفاح) التي على العريس أن يعطيها لوالد العروس في هذه المناسبة:

«عند عقد القران (عند إلصّفاح) يُعطى الأب عباءة. وتذهب هذه العباءة مع العروس عندما تركب على الجمل (في يوم العرس)».

وإبرام العقد أمر خطير حتى إنه يستلزم حرصًا شديدًا.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«عند إبرام العقد (يوم إلصّفاح) يرمون سجائرهم، ويجب أن تتوقف بقبقة الشيشة؛ فالنار ضارة، والماء ضار، أما الدقيق (الطحين)، فلا طبيب ولا دواء له».

وتعد الأشياء الآتية ضارة أيضًا عند إبرام العقد: السجائر، وتبغ الشيشة (التنباك)، وصب الماء والقهوة، وتحريك أصابع اليدين والرجلين. «والسرية مطلوبة عند إبرام العقد (وقت إلصّفاح)، وكذلك السكون؛ فليس لأحد أن يتكلم».

واستاءت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كثيرًا، عندما لم يؤخذ بالحرص اللازم في إبرام عقد قران جودة سعيد [161]، ومريم أحمد (ابنة أحمد جبر [160]، وزوجة جودة سعيد [161]) في بداية عام 1927. وتذمرت قائلة:

«عوضًا من أن يجلس ثلاثة متجاورين، جلس ثلة من الناس. وكان الأمر يتطلب صمتًا، لكن بعضهم حرك أقدامه، وآخرون حركوا رؤوسهم، وكانت الشيشة تبقبق، وكان هذا في بيت إسْمَعين حسن [146]. وكانت العادة القديمة تقضي بالهدوء والسرية. ومنذ قديم الزمان، العادة أن يقلب العريس حذاءه، ويجلس فوقه خوفًا من «الربط» (من زمان كان إلعريس يقلب الوطا ويقعد عليه خوف الرباط)».

وعندما أخبرتنا مدللة سليمان (ابنه سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) عن عقد قران عبد عِثمان [78]، وحلوة محمد (ابنة محمد

اسْمَعين [53]، وزوجة عبد عِثمان [78]) ذكرت أن العريس:

«قلب حذاءه[25]، وجلس فوقه، خوفًا من أن يربطه أحدهم».

وربط العريس يعني ممارسة السحر لسلب العريس القدرة على معاشرة زوجته، إما بربط عقد في خيط، أو بنثر الطحين.

ومهما حرص الناس، يبقى الخطر قائمًا في أن ينتهز عدو واحدة من تلك الفرص الكثيرة للإضرار بالعريس في أثناء إبرام عقد القران. لذا يحاول الناس إقامة هذه المراسم في سرية، من غير أن يُعرف أين أو متى يكون ذلك[26].

---

(25) في ما يتعلق بعادة قلب الحذاء انظر أيضًا: James Edward Hanauer, *Folk-Lore of the Holy Land* (London, 1907), p. 310.

(26) لقد سمع غير باحث بأن عقد الزواج يبرم بهدوء شديد، وبحضور أقل عدد ممكن من الناس. ويتحدث بالدنسبيرغر في: Philip Baldensperger, *The Immovable East* (London, 1913), p. 122, كيف يُعقد رباط الزوجية بسرية. أما غودريش فرير فتقول في: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent*, p. 29, «والسبب وراء السرية في هذه الحالة هو نفسه سبب السرية في الساعة التي يصبحان فيها حقًا زوجًا وزوجة، وهو الخوف من أن يُلحق أحد الأعداء بهما أذى من خلال السحر، أو التلفظ باللعنات. وأخطرها ما يرافقه نثر الطحين على الأرض، أو رمي خيط ذي عُقد في بئر ما؛ إذ لا يمكن جمع الأول، ولا استعادة الثاني». ويقول ويلسون على نحو مماثل في: Wilson, *Peasant Life*, p. 115,

«إذا حضر أحد من الكارهين لهذا الاقتران، فهم يعتقدون أن بإمكانه أن يضع العراقيل في سبيل سعادة الزوجين بفعله أشياء متعددة؛ فالتدخين في أثناء عقد القران يعد مدمرًا لأسباب السعادة كلها، كما أن نثر الطحين أو التراب على الأرض يدفنها تمامًا». ويقول: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 125 n. 2,

أن العدو يستطيع «من خلال وسائل مختلفة أن يفسد سعادة الشابين [العريس والعروس] في مستقبل الأيام. ولا يسمح للمشاركين بالتدخين في هذا الوقت، وإلا ذهبت السعادة كما يذهب التبغ إذ يستحيل دخانًا». ويقولان في ما يتعلق بطقوس العرس المسيحي في الكنيسة (في الصفحة 131 من المرجع المذكور): «وتقف امرأة مسنّة خلال طقوس العرس خلف الزوجين وتخز بإبرة من دون خيط ثوب العريس مرة، ثم تخز بها ثوب العروس مرة. أما أهل المدن فيضعون، لمنع العقد، حيث يقف العريس خلال الزفاف خنجرًا مسلولًا». ويقول باور في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, 2nd edition (Leipzig, 1903), p. 228f.,

«ويعقد أحد ما في العرس، في أثناء إلقاء القس لمباركاته، عُقدًا في خيط بغية ربط الزوجين الشابين؛ أي ليبقى الزواج من دون أولاد». انظر: Taufik Canaan, *Aberglaube und Volksmedizin im Lande der Bibel* (Hamburg, 1914), p. 175.

في ما يتعلق بتجنب العُقد في العرس انظر أيضًا: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 264.

وفي ما يتعلق بالعُقد التي يُفترض أنها تمنع المعاشرة الزوجية انظر أيضًا: James George Frazer, *Taboo* (*The Golden Bough*, pt. II.; London, 1911), p. 299f.

لكن الست لويزا علقت على ذلك قائلة:

«يمكن للرجل الغيور، على أي حال، أن يراقب العريس ويلاحقه ويوقع به الضرر من دون أن يعلم الناس بذلك؛ إذ يستطيع الاختباء خلف باب أو جدار، ويوقع الأذى به دون أن يعلم أحد بذلك».

حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«إذا أراد رجل العروس لنفسه ولم يفلح في الحصول عليها، يتربص مستترًا، وكلما نطقت كلمة (مهمة، أو تتعلق بشروط العقد) يعقد عقدة في خيط، ويرميه في بئر (في ما بعد)، أو يمكن أن يسترق عدو السمع، وينثر الدقيق كلما نطق بشرط من شروط العقد، وما لنثر الدقيق من دواء».

أما إذا وقع المحذور، فيمكن للمرء أن يلجأ إلى شيخ، ويستعين به على إصلاح ذلك الأمر.

ويقال أيضًا:

«عندما يموت ذاك الذي حرك أصابع يديه أو رجليه، تنفك العقدة».

وبهذا يزول أثر السحر عن العريس.

وسنبين لاحقًا كيف يمكن أن يكون من مصلحة الأب والأم إبعاد العريس عن عروسه إلى أن تنضج الأخيرة.

ومن ذلك كله، يتبين أن إبرام عقد الزواج هو الأهم من بين مراسم الخِطبة كلها.

تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«متى أُبرم عقد القران، تصبح زوجته، وإذا رغب في فصم عرى الزواج، فعليه أن يطلقها أمام الحكومة (الدولة)، أو أمام المفتي»[27].

وبعد الانتهاء من هذه المراسم يمكن للعريس أن يأمن فقد عروسه بسبب

(27) انظر أدناه في الصفحة 653 من هذا الكتاب.

المكائد التي تستشري بين الفلاحين العرب. وكما رأينا، يمكن تأجيل عقد القران إلى يوم العرس، بل يمكن نقل العروس إلى بيت العريس قبل استكمال هذا الإجراء، إلا أنه لا ينبغي للعروس أن تتزين للقاء العريس، ولا تجوز المعاشرة الزوجية بينهما قبل إبرام عقد القران. ويعقد القران، والذي يندرج بالتأكيد ضمن مراسم الخِطبة، بوجه عام، قبل يوم العرس.

وإذا أُبرم عقد القران، وأُولم للخِطبة، ودُفع المهر، فليس ثمة ما يمنع من الاحتفال بالعرس متى شاء العريس، إذا توافر معه المال اللازم لذلك(28). وقد تفصل بضعة أيام فقط بين طلب العروس الرسمي والعرس، وقد تمضي سنوات، تبعًا للظروف(29).

(28) كثيرًا ما يقال: «الأعراس مكلفة! والمال ضروري للأعراس!». ويُقال أيضًا: «من يملك المال، يمكن أن تكون ابنة السلطان عروسًا له» (إللي عندو فلوسو بنت السلطان عروسو). في ما يتعلق بهذا المثل انظر: Stephan Hanna Stephan, «Palestinian Animal Stories and Fables,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. III (Jerusalem, 1923), p. 181 n.7, andEnno Littmann, *Arabic Proverbs*, Collected by Mrs. A. P. Singer (Cairo, 1913), p. 27.

انظر: Kunt Tallqvist, *Arabische Sprichwörter und Spiele* (Helsingfors, 1897), p. 39.

(29) يشير بيروتي في: Pierotti, *Customs and Traditions*, p. 180,

«نادرًا ما يُقام العرس بعد الخطبة مباشرة، أو بعد دفع المهر، لأن والد العروس يتلقى الهدايا في أوقات معينة في السنة خلال فترة الخطبة، ولهذا فمن مصلحته أن يبقي عليها ما أمكنه ذلك». ولا يبدو أن الكاتب يرى في هذا سببًا يحمل العريس على عدم تأجيل العرس، إذا كانت لديه الموارد المالية اللازمة للاحتفال بالعرس. في ما يتعلق بالهدايا التي ينبغي أن يقدمها الرجل لزوجته خلال فترة الخِطبة، وفي أوقات محددة في السنة انظر: Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, p. 29, and Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*,p. 107 n. 1.

وبحسب بيروتي في الصفحة 180 من المرجع المذكور، فقد تمضي أيام أو شهور، أو سنوات في حالة خِطبة الأطفال، قبل العرس الفعلي. وبحسب جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 63,

فإن الوقت بين الخِطبة والاحتفال بالعرس قد يتفاوت ما بين أسابيع إلى سنة. ويقول شباور وحداد في الصفحة 107 من المرجع المذكور، أن هذا الوقت قد يتفاوت ما بين شهرين إلى سنة أو سنتين، وفي إحدى الحالات، بحسب إحدى الأغاني، إلى سبع سنين. ويضيف المؤلفان: «وبسبب ظروف محيطة كضعف ناتج الحصاد، والفقر، وما إلى ذلك، قد يؤجل الزواج لفترة أطول تمتد إلى عشر سنوات أو أكثر». والملاحظة الآتية مهمة: «إذا كان لا بد من تأجيل الزواج بسبب حالة وفاة في العائلة، فيجب انقضاء شهرين قبل إتمام العرس». ويقول روتشتاين أيضًا في: «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für* = *Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 126,

= يقتضي الموت أو الخدمة العسكرية لأحد أقارب العروس أو العريس تأجيل العرس من شهر إلى شهرين. ويقول كلاين في: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 93,

«إن وقت إقامة العرس رهن، بشكل رئيس، بدفع المهر أو تسديده. فتجهيز البيت، وهو شأن العريس أيضًا، لا يكلف الفلاح العادي الكثير؛ فهو يسكن مع والديه في البيت نفسه، وفي كثير من الأحيان، في الحجرة نفسها. ولا يزيد ما يشتريه من أثاث وأدوات في البداية عن حصيرة من القش، ولحاف، ووسائد محشوة بالقش، وبعض أواني الطبخ، والملاعق الخشبية». وفي المدينة أيضًا، وفي الفترة ما بين الخِطبة والعرس، يجهز أهل العروس ويشترون، من مال قدم العريس بعضه، إحدى قطع الأثاث (أسرَّة، حُصر، وبُسط، ومُلاء [جمع ملاءة]، وأدوات مطبخ، وما إلى ذلك)، وفستان، وتكون هذه الأشياء ملكًا لها، فإذا ما طُلقت تأخذها معها. انظر جوسان في الصفحة 63 من المرجع المشار إليه سابقًا. انظر أيضًا لين في: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, p. 221.

ويقول لين هنا: «ينتظر العريس عروسه، بوجه عام ما بين ثمانية إلى عشرة أيام بعد إتمام عقد الزواج». وملاحظة فيلهاوزن عند حديثه عن العرب القدماء في غاية الأهمية؛ إذ يقول في: Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 442,

يعد أمرًا حسنًا إذا «فُصل الزواج عن الخطوبة بصورة واضحة من خلال الوقت والشكل، وإلا ستبدو العروس كالخادمة أو كأسيرة الحرب التي لا يُحفل بها». انظر: Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, p. 148.

الفصل الثاني
مواسم الأعراس

أوقات العرس في القرية

هناك أوقات لا يتزوج فيها الناس البتة، أو أنهم يفعلون ذلك كارهين. وهناك أوقات تعد أكثر ملاءمة من سواها للزواج، ويقال: «قليل من الناس يتزوجون في موسم الحصاد»[1]، ولا يتزوج الناس في رمضان - شهر الصيام. وفي المقابل يستحسن الفلاحون المسلمون أن يزوج الرجل ابنه في العيد الكبير؛ فتلك فترة بهجة واحتفال تأتي بعد أسابيع طويلة من تهذيب النفس. ولما كان التقويم السنوي للمسلمين تقويمًا قمريًا، فقد يأتي العيد الكبير في أوقات مختلفة من السنة، ولا يتزوج الناس في الشتاء.

ويقول المثل: «عرس المجانين في كوانين [كانون الأول/ ديسمبر، وكانون الثاني/ يناير]» (عُرس المجانين في تشوانين).

وفي أول شتاء لي في أرطاس، سخروا كثيرًا من جيراننا - أهل الخَضْر؛ لأنهم احتفلوا بأحد أعراسهم في أجواء ماطرة. وأخبرنا أحد رجال أرطاس، ممن حضروا العرس، كيف وصل الطين إلى ركبهم وهم يرقصون، كما سخرت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) من العريس الذي لم يستطع الانتظار إلى أن يتحسن الطقس، وأصر على الزواج في كانون الثاني/ يناير، وقد بدأ الطعام يشح عند الناس، بما في ذلك الطعام اليومي. وقالت متهكمة: «لا

(1) Hilma Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, III. 8 (Helsingfors, 1931), p. 107.

بد أنه ماهرٌ في لعق القدور[2]». وفي هذا، كما في مواضع أخرى، تعبيرٌ عن ازدراء الجيران؛ إذ يشعر أحدهم بتفوقه على الآخرين، كما يشعر أن قريته أعظم شأنًا من غيرها من القرى. وقد أضحك هذا الست لويزا التي عرفت جيدًا ما كانت ترمي إليه حمدية، ولتوضيح الأمر أجابت على الفور: «ما كان ليحدث شيء كهذا في قريتنا؛ فأهل أرطاس يعرفون جيدًا كيف يتصرفون، ويعرفون اللياقة»؛ فقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) «بالطبع!». ولكن، على أي حال، كان هناك عرس شتوي في أرطاس في السنة التالية، في كانون الثاني/ يناير من عام 1927، عندما تزوج الشرطي الزنجي سليم مسلَّم [199] للمرة الثانية من قرية دورا. وبطبيعة الحال، كان ينوي أن يتزوج في وقت ملائم، إلا أن الأحوال كانت بالغة التعقيد في قرية العروس، وفي بيت العريس؛ حيث اعترضت زوجته الأولى على فعلة زوجها، وحاولت بكل وسيلة ممكنة أن تثنيه عن جلب ضرة لها؛ فاستطال أمد الأمر أسبوعًا تلو الآخر، وكان تأجيل العرس، من ناحية أخرى، يعرضه لخطر خسارة عروسه لابن عمها الذي يسكن في قريتها، وهو صاحب سبق في طلبها، كما أنه أحق بها. وكان يمكن للخصم أن يستغل الوقت ليحل محل سليم مسلَّم [199] الذي اتفق أن كان له اليد الطولى آنذاك من الناحية المالية. وفي نهاية المطاف، وجد نفسه مضطرًا أن يأخذها من قريتها على نحو يشبه الخطف؛ إذ أثار خصمه المتاعب بدعم من أصدقائه، حين كانت عروسه المنشودة توشك أن تؤخذ منه، واتفق أن كان الطقس جميلًا حين أقام سليم مسلَّم [199] حفل زفافه، على الرغم من أن ذلك كان في موسم الأمطار. وعلى العموم، فإنك دائمًا ما تجد الناس يسمون أولئك الذين لا يعرفون أن الصيف هو وقت الزواج بالحمق.

---

(2) انظر: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I (Gütersloh, 1928), p. 266, «(في كانون يِكنِّن الجاج) 'في كانون يجلس الدجاج هادئًا'. ولهذا فالعرس في مثل هذا الوقت غير مُواتٍ للتذواق. ويقال في ذلك: 'إللي بتجوَّز في كانون، بِلحس إلقدور' (من يتزوج في كانون، يلعق القدور، أي لقلة الطعام حينئذ)، بينما يوفر الزواج في نيسان/ أبريل أطايب أخرى مختلفة (إللي بتجوز في نيسان، بوكل لحم وبيض وحليب وخُضران) 'من يتزوج في نيسان/ أبريل يأكل لحمًا، وبيضًا، وحليبًا، وخضرًا'». انظر أيضًا: Grace Mary Crowfoot and Louise Baldensperger, *From Cedar to Hyssop: A Study in the Folklore of Plants in Palestine* (London, 1932), p. 9.

ويقول المثل: «بِساطُ الصيف واسع» (بْسَاط إلصيف واسع)، ويفهم من هذا أن في الصيف فسحة واسعة للاحتفالات والولائم، ولا حاجة للتزاحم في البيوت المعتمة.

وإذا لم يُقم المرء العرس بعد حصاد القمح في نهاية شهر أيار/ مايو وبداية شهر حزيران/ يونيو، فإنه يهرع إلى فعل ذلك قبل حلول فصل الشتاء. ومن العجيب أن العرس كثيرًا ما يؤجل إلى الخريف، على الرغم من أن الصيف طويل جدًا؛ فالعمل في الخريف أقل، والخوابي ملأى بالقمح والذرة والزبيب والتين المجفف. ويغلب أن هذه الأسباب الاقتصادية، إلى جانب الخوف من أن يدركهم الشتاء ببرده وشتائه وظلامه، تحرك فيهم فجأة عزيمة خاصة على إقامة الأعراس. ويُفَسَّر هذا نفسيًا بأن الناس لا يفعلون الأشياء لأنها جيدة ومستحسنة وحسب، وإنما لأنهم يعلمون أنه لا بد من فعلها الآن، وإلا فات أوانها. ولا تتأتى العزيمة للناس إلا مع شيء من الاضطرار، فتمكنهم من إنجاز الأشياء؛ فيستشري بين أهل القرية في الخريف هوس بالأعراس وبأجواء الاحتفالات؛ فعندما يتمنى أحدهم لرجل عزب في حفل عرس سرعة الزواج، وعندما يتمنى المرء لأبوين البهجة برؤية أولادهم متزوجين، لا تكون تلك محض كلمات جوفاء؛ فلتكرار الأماني في الأعراس، والمرء يرى الوقائع أمام عينيه، سحر يجعل الشاب يتمنى الزواج، ويلهم الأب ابتداع أساليب شتى في البحث عن عروس وعن مال للعرس. وفي خريف عام 1925 وعام 1926 عندما سكنتُ في القرية للمرة الأولى، توالت الأعراس وتقاربت؛ حتى إن أعراسًا عدة أقيمت في اليوم نفسه، أو حدثت خِطبة رجل وعرس آخر في اليوم نفسه. وبهذا، يعيش المرء أوقاتًا تغمرها البهجة على نحو مذهل، ويعزز ذلك الشعور أن الناس لا تقيم الاحتفالات إلا في الليالي المقمرة؛ لأن ضوء القمر يغنيهم عن الإنارة. ولذا، فالليالي المقمرة في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وشهر تشرين الثاني/ نوفمبر، هي الأوقات الملائمة لإقامة حفلات الزفاف. ومن النادر جدًا أن لا نسمع صيحات الفرح، وصوت الرقص والغناء لدى وصولنا إلى القرية في هذه الفترة، حتى إن أصوات الرقص والغناء لبعض الأعراس وصلتنا في الجبال.

ملاحظات إضافية

في ما يتعلق بأوقات مختارة بعينها لإقامة الأعراس يقول بالدنسبيرغر في:
Philip Baldensperger, *The Immovable East* (London, 1913), p. 272,

«يُحتفل بالزواج في فلسطين، في كثير من الأحيان،لاختتام حملة، أو للتعبير عن الفرح بالعودة إلى الوطن».

وقد وجد دالمان في: Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 226, 338,

أنه ينصح بإقامة الأعراس في نيسان/إبريل، بينما يرى فيتزشتاين في:
Johann Gottfried Wetzstein, «Die syrische Dreschtafel,» *Zeitschrift für Ethnologie*, vol. v (Berlin, 1873), p. 288,

أن آذار/مارس هو وقت الأعراس في سورية. ويقول ويسترمارك مرة أخرى في: Edward Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 86,

«من الشائع الاحتفال بالأعراس في الخريف؛ أي عند الانتهاء من موسم الحصاد، وامتلاء الصوامع بالقمح».

وفي ما يتعلق بتجنب أوقات بعينها، قارن: Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 17 n.
Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 219 n.,

«يعتقد كثير من الناس في مصر أنه إذا أُبرم عقد القران في شهر محرَّم، فإن الزواج لن يكون موفقًا، وأنه سينتهي سريعًا؛ لذا يحجم أكثر الناس عن ذلك». ويقول ويسترمارك كذلك (في الصفحة 86 من المرجع المشار إليه): «يتجنب الناس، الأشراف منهم على الأقل، الزواج في شهر محرَّم، وهو الشهر الأول في السنة الهجرية لدى المسلمين». ويضيف: «وبحسب المذهب المالكي لا يصح عقد زواج المرء وهو في الحج». ويستشهد بالفقرة التاسعة والأربعين من كتاب المختصر لسيدي خليل: Russell and Abdullah Al-Ma'mun Suhrawardy, «*A Manual of the Law of Marriage" from the Mukhtaṣar of Sīdī Khalīl* (London), p. 16

«لا يصح الزواج إن كان أي من هؤلاء الثلاثة [أي العريس، أو العروس، أو الولي] مُحْرِمًا»

Ameer Ali, *Mahommedan Law*, II (Calcutta, 1908), p. 324, andEl-Buḫārī, *Ṣaḥīḥ*, LXVII. 31, vol. III,p. 561.

في ما يتعلق بالمواسم أو الأشهر الميمونة أو المنحوسة انظر أيضًا:
Edward Westermarck, *Ritual and Belief in Morocco*, II (London, 1926), p. 566f.

وفي ما يتعلق بأيام الأسبوع، فإن الناس باتت، في كثير من الأحوال، تقيم الأعراس الآن في أيام الآحاد لتفرغ الرجال العاملين في بيت لحم في ذلك اليوم، كما أنهم يميلون إلى التأنق فيه بملابس حسنة، كما يفعل المسيحيون.
ويقول دالمان في: Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 17,

«بينما يتجنب المسيحيون العمل يوم الأحد، يجد المسلمين يوم الأحد أفضل الأيام للعمل وإقامة الأعراس». ويقول بيروتي في: Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge, 1864), p. 185f.,

إن العروس تستحم مساء السبت، ويكون العرس يوم الأحد.

وبحسب ليتمان في: Littman, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen derköniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,*Neue Folge (Berlin, 1902), v. 3, p. 100,

فإن الأحد هو يوم العرس.

ويقول كلاين في: Frederick Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p. 96,

«.... عند الفلاحين المسيحيين، فإنه يكون في يوم الأحد عادة». وفي ما يتعلق بالأيام الميمونة أو المنحوسة تبعًا للاعتقاد الشعبي في فلسطين، انظر:
Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 17f., and TaufikCanaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, vol. XXI (Leipzig, 1929), p. 7f.,

وللمؤلف نفسه: «Der Kalender des palästinensischen Fellachen,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXXVI (Leipzig, 1913), p. 277,*and Aberglaube und Volksmedizin im Lande der Bibel* (Hamburg, 1914), p. 13.

ويكتب أيوب أبيلا في: Eijūb Abēla, «Beiträge zur Kenntniss abergläubischer Gebräuch in Syrien,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. VII (Leipzig, 1884), p. 80,

الآتي عن الأيام «الميمونة» و«المنحوسة»: «فضلًا عن أيام السنة الميمونة والمنحوسة، بحسب الخرافات الشائعة... فإن لكل أسبوع أيام يمن وأيام نحس؛ فالأحد والخميس أيام يمن، ولهذا يعمد المرء فيها بكل سرور إلى تجهيز المهر، والسفر، والرحيل من مكان إلى آخر، وما إلى ذلك. ولا ضير في يومي الإثنين والجمعة، بينما تعد أيام الثلاثاء والأربعاء والسبت أيام نحس.....». ويتحدث موزِل عن وقت العرس عند العرب في: Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 196,

«يمكن أن يُحتفل بالعرس (الخِطبة) في أي يوم، وأفضل الأيام ليلة الخميس إلى الجمعة (ليلة الجمعة)؛ إذ يقال: الجمعة جامعة (الجمعة جمَّاعة). وتعد ليلتا الأحد إلى الإثنين (ليلة الإثنين)، والأربعاء إلى الخميس (ليلة الخميس) ملائمتين أيضًا». قارن ما يرد عند لين في الصفحة 222 وما يليها من المجلد الأول من المرجع المشار إليه؛ إذ يقول: «يستقبل العريس عروسه ليلة الجمعة أو الإثنين، لكن الأولى تعد، بوجه عام، الأكثر يمنًا». ويذكر في حاشية له في الصفحة 222 أن «بيركهارت أخطأ؛ إذ قال إن الاحتفالات التي تسبق ليلة العرس تكون يومي الإثنين والخميس؛ فقد كان ينبغي أن يقول يومي الأحد والخميس»، انظر: John Lewis Burckhardt, *Arabic Proverbs* (London, 1830), p. 114.

ويفضل الناس إقامة الأعراس في طرابلس والمغرب ليلة الخميس، كما هي الحال في مصر، انظر: David Todd, *Tripoli the Mysterious* (London, 1912), p. 94.

ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 86f.,

«يعد يوم الخميس في طنجة اليوم الأفضل لجلب العروس، أما في أنجرة،

وعند قبيلة آيت تمالدو فإما الأحد أو الخميس، وعند قبيلتي آيت ورياغل، وآيت سعد الدين فالخميس والإثنين. وتعد ليلة الجمعة، وهو يوم الراحة لدى المسلمين، ليلة مباركة، ويعد يوم الأحد ملائمًا لبداية الحياة الزوجية؛ إذ إنه أول يوم في الأسبوع، كما أنه اليوم الأفضل لبداية الحراثة في فصل الخريف، مع أن يومي الخميس والإثنين يعدان ملائمين أيضًا لهذا الغرض، لدى بعض القبائل. أما عند قبيلة التْسُول فيمكن جلب العروس في أي يوم عدا الثلاثاء، وعند قبيلة آيت وارين ففي أي يوم عدا الجمعة». انظر ترُمبول في: Henry Clay Trumbull, *Studies in Oriental Social Life* (London, 1895), p. 49,

«يعد الأحد يومًا مفضلًا لدى المسلمين للشروع في أي عمل». ويقول لوبل في: Theophil Löbel, *Hochzeitsbräuche in der Türkei* (Amsterdam, 1897), p. 25 n. 1,

«يوم الخميس هو يوم الزواج بوجه عام، واتباعًا لتعاليم النبي محمد [عليه الصلاة والسلام]، تعد ليلة الخميس إلى الجمعة أفضل الليالي، ولهذا ينبغي أن تكون الليلة الأولى للزواج. وتتزوج الأرامل والمطلقات يوم الإثنين». وفي ما يتعلق بأيام الأسبوع التي «يقع عليها الاختيار للزواج فيها لأنها أيام يمن، بينما يتجنب الناس أيامًا أخرى لأنها أيام نحس» انظر: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, II (London, 1925), p. 569ff.

وفي ما يتعلق بعدٍّ مواقيت معينة منحوسة أو ميمونة، انظر أيضًا الصفحة 572 من المجلد الثاني من المرجع المشار إليه أعلاه. وفي ما يتعلق «بأثر السحر بأنواعه المختلفة في أيام الأسبوع»، انظر: Edward Westermark, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London, 1926), p. 403, II. P. 40ff.

وفي المغرب، قيل لويسترمارك إن الأعراس تقام عند اكتمال البدر ليأمن الناس اللصوص، انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 88.

وفي ما يتعلق بالصلة الخرافية بين الاحتفال بالزواج والقمر، انظر: Westermarck, *The History*, p. 568.

الفصل الثالث

الاستعداد والاحتفالات التمهيدية للأعراس

يسبق كل عرس شيء من الاستعداد والاحتفالات التمهيدية؛ إذ تعد أمسيات الفرح، والرقص، وشراء جهاز العروس، وليلة الحناء، مقدمات للعرس.

أمسيات الفرح

رقص النساء وشرب القهوة

يهيمن الرقص في هذه الأمسيات؛ فما إن يطلع القمر، حتى يُسمع صوت الزغاريد وغناء النساء في القرية، وهذه هي الإشارة على بدء الاحتفال، وإذا ذهب المرء إلى بيت العريس يرى مجموعة صغيرة من النساء واقفات في حلقة، يغنين ورؤوسهن متقاربة. وفي الظلام، تبدو النساء وكأنهن طيور كبيرة بثيابهن السوداء، وأغطية الرأس البيضاء التي تنسدل في الخلف، والأكمام العريضة التي تشبه الأجنحة المطوية.

بعد هذه التجمعات الأولى، يجتمع سكان القرية؛ فتدخل النساء إلى البيت حيث يرقصن طوال المساء[1]، ويبقى الرجال في الخارج، ويوقدون

---

(1) في ما يتعلق برقصة خاصة تؤديها النساء والمسماة دَرَج أو سَحسل والتي شاهدها دلمان في جوار القدس، انظر: *Gustaf Dalman, Palästinischer Diwan: als Beitrag zur Volkskunde Palästinas* (Leipzig, 1901), p. 270.

وفي ما يتعلق برقص النساء انظر أيضًا: E. Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, IV (Berlin, 1908), p. 68f.

نيرانًا كبيرة لغلي القهوة وللإنارة. والرجال هم الذين يصنعون القهوة للحفل هنا، كما يفعلون دائمًا، والرجال هم أيضًا الذين يطوفون بالقهوة على الحضور ويقدمونها لهم، وكثيرًا ما يخدم العريس ضيوفه بنفسه؛ فيحمل إبريق القهوة في يد، وفي اليد الأخرى ركمًا من فناجين القهوة العربية التي لا مقابض لها، وتوضع الفناجين أحدها في الآخر، فيأخذ دومًا الفنجان العلوي، ويصب فيه القهوة، ويقدمه إلى أقرب ضيف، ثم يمضي فيصنع الشيء نفسه للضيف الذي يليه. وبعد أن يشرب هؤلاء الضيوف القهوة، يجمع الفناجين بيده بعضها فوق بعض مرة أخرى، فتكون جاهزة لمن بقي من الضيوف، ولا تغسل الفناجين. وتقدم القهوة للضيوف بحسب رتبهم ومراكزهم؛ فيبدأ بالأهم ثم الذي يليه أهمية، وبالكبار ثم الصغار، وبالرجال ثم النساء، وبعد أن يشرب الرجال، يأخذ شاب يافع القهوة للنساء، وتقدم القهوة للنساء الكبيرات.

رقص الرجال

وفي هذه الأثناء، تبدأ رقصات الرجال؛ إذ يقف الشباب في صفين ويشرعون في الرقص، ويغنون وهم يرقصون:

«يا كل الجالسين، حياكم الله	(يا قاعدين كلكو الله يحييكو
بجانب الحديقة طير أخضر يغني لكم»	في جنب بستان طير أخضر يناغيكو)[2].

وهي أغنية رتيبة ترافق الرقصة، ولكنها رقصة جميلة بحركات ميَّاسة، تذكر المرء بالقصب حين يهفهف ويتمايل في الريح. ويستمر الرقص حتى وقت متأخر من الليل؛ فترقص النساء وحدهن، ويرقص الرجال وحدهم.

وأصابت الست لويزا بالتأكيد، عندما قالت إن الفصل بينهما ليس كاملًا؛ فهم يسمعون أصوات بعضهم بعضًا، وبين الفينة والفينة، يتسلل أحد الشباب

(2) في ما يتعلق بصيغ أخرى لهذه الأغنية انظر: H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, v. 1 (Leipzig, 1927), p. 114, and EnnoLittmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*,Neue Folge (Berlin, 1902), v. 3, p. 110, Nos. 110-112.

خفية لينظر إلى النساء والفتيات وهن يرقصن في بيت العريس. وتمر طريق النساء بالقرب من الرجال، وهن يرين أكثر مما يحسب المرء من خلف غطاء الرأس، وإن كن يجذبنه حشمة ليغطي جانب الوجه الذي يقابل الرجال كما تقتضي العادة. ومع ذلك، فهذا الرقص من أجل الرقص وحسب؛ إذ يرقص كل جنس على حدة.

وقد كنت محظوظة في إحدى أمسيات الفرح التي سبقت عرس عيسى خليل [11]، وهو أول عرس أقيم بعد وصولي إلى أرطاس عام 1925؛ إذ رقص الرجال تحت نافذتي، وعُلق مصباح على شجرة زيتون ليضفي مزيدًا من الضوء إلى ضوء القمر، ورقصوا ودبكوا وصفقوا في حلقة أو كل على حدة على ألحان ناي عزف به أحد الشباب(3)، وجلس الكبار أو اتكأوا في وقار

(3) ذكر كنعان رقصات مختلفة يؤديها الرجال في الأعراس والاحتفالات الأخرى مثل الدبكة (دبتشة) والسحجة في: Taufik Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, vol. XXI (Leipzig, 1929), p. 24,

ويقول ستيفان في: Stephan Hanna Stephan, «Modern Palestinian Parallels to the Song of the Song,» *Journal of Palestine Oriental Society*, vol. II. (Jerusalem, 1922), p. 260,

والدبكة (دبتشة) هي «رقصة شعبية تتضمن قرع الأرض بالأرجل» ترافقها أغنية. ويتحدث في موضع آخر: Stephan Hanna Stephan, «Palestinian Animal Stories and Fables,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. III (Jerusalem, 1923), p. 185 n. 2,

عن السحجة وأحد المقاطع المغناة معًا. ويذكر ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen derköniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 139,

«الدبكة ورقصات أخرى» في سوريا.

في ما يتعلق بوصف الدبكة انظر: Dalman, *Palästinischer Diwan*, p. 267, 273, and E. Graf von Mülinen, «Beiträge zur Kenntnis des Karmels,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXX (Leipzig, 1907), p. 194.

لوصف السحجة انظر الصفحة 295 من كتاب دلمان، والصفحة 197 من مقالة مولينن المشار إليهما سابقًا. انظر كذلك حديث باومان عن قرية البيرة في: Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, p. 69f.

وللحديث عن ليلة السحجة انظر: Gustav Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1910), p. 110ff., 128ff.

ويجد المرء في الصفحات 478 وما يليها، وفي الصفحة 562 ذكرًا لأغاني الرجال في السحجة، بينما يجد في الصفحات 417 وما يليها، و432 و433 وما يليها حديثًا عن أغاني النساء في السحجة. انظر =

في مجلس على هيئة قوس، يشاهدون الرقص، ويتحدثون، ويشربون القهوة، ويدخنون الشيشة، والشباب يقومون على خدمتهم.

وأحيانًا، يستأجر العريس شاعرًا، فيحبس الرجال الكبار أنفاسهم شوقًا لسماعه، وهو يعزف الربابة ذات الوتر الواحد، ويروي حكايات ألفها هو أو غيره، وقصصًا رومانسية عن معارك وأبطال. وكلما زار القرية رجل كهذا تقول الست لويزا: «الآن سيتغنون كثيرًا بأبي زيد وفعاله»؛ فقصص أبي زيد الرومانسية محبوبة في ريف فلسطين، والأشعار نفسها تخلب ألباب الناس هنا، كما في أسواق القاهرة. ورواة القصص الرومانسية هؤلاء يذكرونني بشعراء التروبادور الجوالين بأوروبا في العصور الوسطى. وقد لقيت أحد هؤلاء الرواة، وكان رجلًا مسنًا جاء من بيت جالا إلى أرطاس بدعوة من عبد السلام إبراهيم [92] للاحتفال بختان أولاده. وروى محمد محمود [35] أنه جاء بشاعر في أمسية الفرح التي سبقت حفل عرسه هو وزوجته الثانية من أبو ديس، وقال مفاخرًا إن الرجال الذين جاءوا إلى حفله جلسوا واستمعوا إلى الشاعر في وقار، في حين وثب ورقص الرجال الذين حضروا العرس الآخر الذي أقيم في الوقت نفسه في القرية، حتى أعياهم التعب. وتعد دعوة الشاعر للغناء في الأفراح أقصى ما يمكن أن يقدمه المضيف لتسلية ضيوفه، إلا أن الشباب يفضلون في الغالب الرقص على الاستماع لأدائه(4).

= كذلك: Frederick Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p. 94.

ويصف بالدنسبيرغر رقص الرجال في: Philip Baldensperger, «Woman in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXII (London, 1900), p. 183f.

بينما نجد وصفًا لسلسلة من الرقصات لدى: Robert Alexander Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement*, XLVII (London, 1915), p. 32.

في ما يتعلق بأمسيات الفرح التي تسبق العرس بما فيها من رقصات، وأغانٍ، ومسرات أخرى، انظر الصفحة 93 وما يليها من المرجع المذكور، انظر كذلك: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubêbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 113f.; Elihu Grant, *The People of Palestine* (London and Philadelphia, 1921), p. 56f., and Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge, 1864), p. 185.

(4) قارن ما يقوله حداد في: Elias Hadad, «The Guest-House in Palestine,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. II (Jerusalem, 1922), p. 283. =

وفي عرس محمد سعيد (ابن سعيد موسى [141]) في عام 1930، استمتع شباب القرية الصغار بألوان العبث كلها؛ فقد لبسوا ملابس متنوعة، ومثلوا مشاهد هزلية قصيرة.

وتبدأ أمسيات الرقص قبل يوم العرس بثلاثة إلى سبعة أيام، وكل مساء، بعد طلوع القمر، يسمع الناس الزغاريد والغناء والرقص في القرية إلى وقت متأخر من الليل(5).

= «يغنون أغاني متنوعة ولا سيما تلك التي يغنيها الشاعر (شاعر القرية)، وهو في الوقت نفسه مغنٍ وعازف. وبينما يعزف على الربابة، وهي آلة موسيقية شعبية ذات وتر واحد، يتده الكلمات، في كثير من الأحيان، وهو يُغني». ويقول لين في: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 117f.,

«يتردد رواة الحكايات على المقاهي الرئيسية في القاهرة والمدن الأخرى، وعلى وجه الخصوص في ليالي الاحتفالات الدينية، ليقدموا تسليات محببة وفكرية... وأكبر فئات الرواة عددًا هي فئة «الشُعرا» (ومفردها شاعر). ويسمون أيضًا «أبو زيدية» أو «أبو الزيديين»، نسبة إلى موضوع رواياتهم، وهي حكاية تسمى (سيرة أبو زيد)». في ما يتعلق بهذه الحكاية انظر الصفحة 150 من المرجع المذكور. وثمة وصف لمحتويات هذه الحكاية في الصفحة 118 وما يليها من المرجع المذكور. وفي ما يتعلق بحكاية أخرى ترويها فئة ثانية من هؤلاء الشعراء «الذين يميزهم لقب «المحدِّثين»، أو المحدثين (ومفردها محدِّث [محدِّث])»، وموضوعهم هو (سيرة الزير)، انظر الصفحة 130 وما يليها من المرجع المذكور.

أما الفئة الثالثة من رواة الحكايات فيسمون بحسب لين «عناترة» أو «عنترية»، وفي المفرد «عنتري»، والاسم مأخوذ من الموضوع الرئيسي لسردهم. وقد لاحظت أن سيرة عنترة معروفة أيضًا في أرطاس. وفي ما يتعلق بهذا، وبقصص أخرى ترويها هذه الفئة الثالثة من الرواة انظر الصفحة 149 وما يليها من المرجع المذكور. أما في ما يتعلق بالشاعر، فانظر: Alois Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908). P. 233ff.

(5) تستمر أمسيات الرقص التي تسبق العرس، أو أمسيات الفرح ما بين ثلاث إلى سبع ليالٍ قبل يوم العرس الفعلي بحسب باور في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel* (Leipzig, 1903), p. 103.

«وكل ليلة لست ليالٍ» بحسب فتش في: Florence Mary Fitch, *The Daughter of Abd Salam* (Boston, 1930), p. 23

ولثمانية أيام بحسب بالدنسبيرغر في: Baldensperger, «Women in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 182.

ولأسبوع بحسب مكاليستر وماسترمان في: Stewart Macalister and E.W.G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII (London, 1905), p. 348,

ولعشرة أيام بحسب شباور وحداد: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*,p. 119.

ويرى بيروتي في: Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge, 1864),p. 185. =

حال العروس خلال أمسيات الفرح

وليس للعروس حظ في هذا الفرح والسرور؛ فقد حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة:

«تختبئ العروس خلف الخابية، والنساء يرقصن ويغنين، فظهورها عار «عيب، حيا»، ولكن لعروس البدل أن تحضر من أجل أخيها. (ولكن بوجه عام) يسود الصمت في بيت والد العروس».

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «إذا كان هناك خبايا في بيت أهل العروس، تختبئ خلفها، أو تتوارى من الناس في إحدى الزوايا؛ فمن العار أن تظهر على الناس. وإذا كانت عروس بدل، فالفرحة الكبرى لأخيها، ولها أن تشارك في الرقص مع النساء، أما إن لم تكن تلك هي الحال، فليس لها أن تظهر البتة، فذلك عار».

وقالت الست لويزا: «على العروس أن تبدي الحزن».

إذا كانت العروس من مكان آخر، فلا تجد أثرًا لبهجة أمسيات الرقص في بيتها، أما إن كانت هي والعريس من القرية نفسها، فأصوات طرب الضيوف الصاخبة ستصل إلى مسامعها، وستعلم أنهم يرقصون ويغنون لعرسها. ولكن، فكما أنها لم تشارك في حفل الخِطبة، فتمتنع عن المشاركة هنا أيضًا، لأن مشاركتها عار؛ فهي كأنما تعرض نفسها، إلا إذا كانت بديلة لعروس أخيها، أي إن أخاها سيحصل على عروس من خلال زواجها؛ فعندئذ لها أن تشارك. وفرحتها بأخيها تنسيها مصيرها، واضطرارها إلى ترك بيت أبيها إلى بيت غريب، ولها أن ترقص من أجل أخيها. وعدا ذلك يسود الهدوء والصمت في بيت العروس؛ فليس لدى أهلها ما يبعث على السرور؛ إذ سيفقدون أحد أفراد العائلة، وإنما تبتهج عائلة العريس، ويسود الفرح في بيته حيث سيقام العرس.

= أن الاحتفالات التمهيدية تبدأ في يوم الأحد السابق ليوم الأحد الذي يكون فيه حفل العرس، ويبدأ الرقص مساء الإثنين، ثم في كل ليلة من ليالي الأسبوع. أما ليز فلا يقول سوى أن الرقص يكون في ليال كثيرة قبل يوم العرس، انظر: George Robinson Lees, *Village Life in Palestine* (London, 1905), p. 122.
وتستمر أمسيات الفرح في لفتا من يوم إلى سبعة أيام.

شراء ملابس العرس

شراء ملابس العرس وحملها إلى بيت العريس هو أيضًا من الخطوات الممهدة للعرس، وليس للعروس نصيب في هذا كذلك؛ فهذا كله من شأن العريس[6]. وتشارك بعض قريباتها المقربات في هذه الأعمال حرصًا منهم على مصالحها. وعادة ما يذهبون إلى بيت لحم للشراء.

حدثتني حمدية (ابنة سليمان سند [183]) قائلة: «عندما يشترون الجهاز للعروس «تشسوت العروس» تكون أمها وأختها حاضرتين، وهو (أي العريس) ينفق المال».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «على العريس أن يقدم طعام الغداء في السوق لأهل العريس ولأم العروس وأختها، ولكل من ذهب لشراء الجهاز؛ فقد كانوا في السابق يتغدون حيث يتسوقون. وتحت الأقواس (أي في البيوت) كانوا يأكلون البطيخ في وقت البطيخ، والعنب في وقت العنب، وهكذا، إلا أن العمل بهذه العادة انقطع الآن[7].

---

(6) انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 110 n. 1,

«إن شراء جهاز العروس هو شأن العريس وأبيه». ويضيف المؤلفان أن الملابس التي ينبغي أن يشتريها العريس للأقارب، يؤتى بها في هذه المناسبة. كما يشير بيروتي إلى الأمر نفسه في: Pierotti, *Customs and Traditions*, p. 184.

وبحسب ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen derköniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 96,

فإن والدي العريس هما اللذان يشتريان جهاز العروس والعريس. وبحسب موسيل في: Musil, *Arabia*, p. 186,

فإن العريس يذهب لشراء الجهاز. ويُقال إن أهل العروس، في أماكن أخرى، هم الذين يشترون ويجهّزون الجهاز بمال يقدمه العريس. وقيل لي إن جهاز العروس في لفتا يُشترى من مهر العروس، وإن الأب الصالح يضيف إليه من جيبه الخاص، بينما يحتفظ الأب الجشع بالمبلغ لنفسه. انظر: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 63f., 72.

انظر أيضًا: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, p. 221.

(7) وبحسب شباور وحداد في الصفحة 108 وما يليها من المرجع المشار إليه سابقًا فإن العريس يُكرم أولئك الذين يشاركون في شراء جهاز العروس في السوق؛ إذ يُدعى الرجال والنساء للمشاركة في الشراء، ويكرمهم العريس جميعًا.

وإذا وجدوا في السوق ثيابًا مخيطة (ثيابًا جاهزة)، اشتروها، وإن لم يجدوا، أرسلوا ما اشتروه من أقمشة للخياطة».

وفي الحالة الأولى يرسل الجهاز إلى البيت سريعًا، وفي الحالة الثانية يتم الاتفاق على يوم الاستلام.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «عندما يأخذون الجهاز ويغادرون بيت لحم يغنون»(8).

وهم يغنون طوال الطريق من بيت لحم إلى أرطاس.

وفي ما يأتي بعض الأغاني التي تسمع في مثل هذه المناسبة:

النساء اللاتي يحملن الجهاز يغنين:

«يعلم الله أن كسوتنا ستكون اليوم	(يعلم الله اليوم تشسوتنا
مئة ثوب ملكي قطعناها	ميت مَلَكِة إللي قطعناها
للعروس التي خطبناها».	للعروس إللي خطبناها)

أو

«يعلم الله أن كسوتنا ستكون اليوم	(يعلم الله اليوم تشسوتنا
ثوبًا أخضرَ وملكيًا اشتريناها	إخضاري أُو مَلَكِة إللي شريناها
عشر سترات اشتريناها	عشر تقاصير إللي شريناها
للحبايب حتى أرضيناها».	للحبايب تَرضيناها)

وعندما يقتربون من القرية تغني والدة العريس:

«بالله افتحوا باب الدار	(بالله افتحوا باب إد دار

(8) يصف غرانت وكلاين موكبًا لشراء جهاز العروس – يذهبون وهم يرقصون ويغنون ويطلقون النار في الهواء، انظر: Elihu Grant, *The People of Palestine* (London and Philadelphia, 1921), p. 55f., and Frederick Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p.94.

ليهنئنا من جاء مهنئًا	خلُّوا لِمهنِّي إهانِّي
أنا سألت الله	أنا طلبت من الله
ما خيب الله ظني».	ما غيَّر الله ظني)[9]

وتغني أخت العريس:

«يا باب الدار يا عالي	(يا باب إلدَّار عالي
سأشرعه بيَدَيَّ	واشرعه بِديي[10]
دعوا قلبي يفرح	خلوا قلبي يفرح
لطالما بكت عيني».	يا ما بكت عينَي)

عندئذ تغني نساء القرية:

«أيا ذيب الخلاء يا ذا القميص	(هيه يا ذيب إلخلا يا أبو إلقميص[11]
في بلدتنا حفل وزواج عريس	في بلدنا تعليلِه أُو زفّةْ عريس
أيا ذيب الخلاء يا ذا القمصان	هيه يا ذيب إلخلا يا أبو القمصان
في بلدتنا حفل وزواج عروسين	في بلدنا تعليلِه أُو زفّةْ عرسان
أيا ذيب الخلاء، قف لكي أنظر (إليك)	هيه يا ذيب إلخلا وَقّف تَشوف
قل لي ماذا فعلْتُ بعد المعروف»	قلي ويش بدا مني[12] بعد المعروف)

---

(9) حرفيًا «رأي».

(10) أي لاستقبال الضيوف ولأظهر فرحي للناس كافة. وعلى النقيض من ذلك، في ما يتعلق بحزن الأخت لزواج أخيها انظر إحدى الأغاني التي يستشهد بها ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen derköniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 108.

(11) يقول السيد ستيفان في رسالة، في ما يتعلق بالذئب «ذي القميص» أو «ذي القمصان»: «في هذا إشارة إلى قصة الذئب الذي أحضره إخوة يوسف إلى أبيهم مع قميص يوسف. وأخبروا أباهم أنهم أمسكوا بالذئب وهو يفعل فعلته. وسأل يعقوب الله أن يُنطق الذئب، وعندئذ فتح الذئب فمه وأنكر التهمة».

(12) أي «ما الخطأ الذي ارتكبته»، أو ما الذي «آذى مشاعرك».

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «يمشون وهم يغنون، وعندما يشرفون على القرية، يأتي أهل العريس للقائهم بالأهازيج والزغاريد.

وفي أحد الأيام في أسبوع العرس، سمعنا النساء يغنين ويزغردن في وضح النهار. «إيه! هذا جهاز العروس جاءوا به من بيت لحم»، ثم قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إنها تعرف كل شيء عن ذلك. وخرجت فرأيت صفًا من النساء يهبطن من التل، تتقدمهن امرأة تحمل حزمة على رأسها، فقد غلفوا الجهاز في قطعة وردية اللون من قماش صوفي، ستكون خمار العروس الذي سيغطي وجهها يوم العرس، وبعد ذلك، ستكون حزامًا لها. وهذا الخمار بالطبع جديد أيضًا. وبعد أن زغردن في أعلى الجبل، بدأن بالنزول وهن يغنين ويصفقن بأيديهن، ولم تلبث أن استقبلتهن الزغاريد والأهازيج من القرية؛ فقد صعدت بعض قريبات العريس اللاتي كن في بيته إلى السطح ليرحبن بهن من هناك. وفي الوقت نفسه، كانت تلك إشارة إلى نساء القرية ليجتمعن في بيت العريس لرؤية جهاز العروس. وعندما تجتمع نساء القرية لرؤية الجهاز، يقدمون لهن بعض الأطعمة الخفيفة، وتسمى هذه «أساس الجهاز» (فرشة التشسوِة).

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «يقدمون المكسرات، وحمصًا مقليًا (قضامِة)، وبذور القرع، ليجدن شيئًا يمضغنه، وترقص النساء ويغنين، حاملات جهاز العروس ومتاع العريس على أطباق من القش على رؤوسهن[13].

جهاز العروس «تشسوت العروس»

الملابس:

1- ثوب يدعى الملكة (مَلَكِة).

2- ثوب من الحرير (ثوب حريري).

3- ثوب أخضر (ثوب إخضاري).

(13) انظر أيضًا: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubêbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 111, and Musil, *Arabia*, p. 186, 188.

4- حزام (إحزام).

5- سترة مطرزة من المخمل أو القماش (تقصيرة).

6- غطاء أسود للرأس من قماش الكريب [قماش رقيق جعد] ذو أهداب زاهية الألوان (شنبر).

الحلي:

7- الزناق [ضرب من الحلي يحيط بالذقن] (إزناق).

8- أساور (أساور).

9- خواتم (خواتم).

وحتى يزينوا العروس للعرس يحتاجون أيضًا إلى الآتي:

10- حناء.

11- كحل (كحل).

12- رقاقات الذهب.

ويندرج ما يأتي ضمن فئة خاصة من الملابس:

13- الأحذية (وطا، كندرة، صرماية).

14- قميص تحتي (قميص).

15- سراويل تحتية (إلباس).

ومن بين الأشياء، يشتري العريس الأحذية، أما القمصان والسراويل التحتية، فيجب أن يشتريها والد العروس[14]. وتلبس النساء هذه الأيام قميصًا

---

(14) إضافة إلى الجهاز الذي يشتريه العريس، تحصل العروس على ثياب بسيطة من أهلها. وتسمى هذه الثياب «ثياب الخدمة»؛ فعلى أهلها أن يقدموا لها «ثوب الخدمة»، و«غطاء رأس الخدمة»، لأنها خدمتهم، انظر: Hilma Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, III. 8 (Helsingfors, 1931), p. 128.

وتتكون «ملابس الخدمة» الكاملة من: سترة نسائية محشوة، وسترة طويلة مخططة بخطوط حمراء وسوداء، ولا أكمام لها، وهي للاستخدام اليومي، وأربعة أغطية قطنية للرأس، وأربعة أثواب من قماش الساتين [القطني] الأسود، وأربع قطع لأثواب [غير مخيطة] من القماش نفسه. وقد بدأت الفلاحات =

تحت الثوب، وهو رداء للنوم طويل الأكمام، ولم تكن تُستخدم القمصان والسراويل التحتية في السابق، ولكن من أجل النظافة، كانت تشبك قطعة من القماش الأبيض في ظهر الثوب من الداخل.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «ويشترون الحناء ورقاقات الذهب وحذاءً - قديمًا، كان الحذاء أصفرَ مزخرفًا (وطا)، ويشترون هذه الأشياء كلها بمعزل عن جهاز العروس، وأم العروس هي التي تنتقيها».

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «لا تغني النساء عند شراء الحناء ورقاقات الذهب والحذاء».

ليلة الحناء

لا أحد يعير العروس أي انتباه حتى الليلة التي تسبق العرس، عندها تذهب امرأتان أو ثلاث من أقارب العريس: أخته وعمته، أو خالته، أو ابنة عمه، بالحناء إلى بيت العروس ليخضبنها به كما تقتضي العادة.

وفي يوم من أيام الأحد من عام 1926، جيء بسعدة درويش (زوجة محمد

= بارتداء أثواب من الساتين الأسود للاستخدام اليومي، عوضًا من الثوب القطني ذي اللون الأزرق الذي كن يرتدينه في السابق. وتجلب العروس معها، إضافة إلى الملابس الجديدة المذكورة آنفًا، ملابسها التي كانت تملكها قبل زواجها. ولعل من الجدير بالذكر في السياق، أنه لم يكن للنساء في ما مضى سوى ثلاث قطع من الثياب للاستخدام اليومي، وهي: ثوب قطني أزرق، وحزام، وغطاء رأس. وكان في أرطاس امرأة فقيرة لا تزال ترتدي ملابس كهذه عندما كنت هناك.

في ما يتعلق بجهاز العروس انظر ما يرد عند: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1910), p. 109f, 127f.; Jaussen: *Coutumes Palestiniennes*, p. 64f., and *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 52, and Musil, *Arabia*, p. 186.

وفي ما يتعلق بأثواب النساء وحليهن انظر: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 60ff.; Johann Georg Leonhard Bauer, «Kleidung und Schmuck der Araber Palästinas,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. XXIV (Leipzig, 1901), p. 32ff.; Friedrich Ulmer, «Südpalästinensische Kopfbedeckungen,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. XLI (Leipzig, 1918), p. 101ff., and Taufik Canaan, *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine* (London, 1927), p. 149f.

يوسف [149]) من الخَضْر إلى أرطاس عروسًا؛ فبعد ظهر يوم السبت، ذهبت ثلاث نساء من عشيرة العريس إلى الخَضْر ليخضبن العروس بالحناء. وفي مساء ذلك اليوم، وُزع الحناء في أرطاس على كل من أراد أن يختضب للعرس.

ولو جاء أحدهم من بيت لحم في صباح يوم العرس، للقي أهل أرطاس وقد خضبت أيديهم بلون أحمر بهيج، ولعرف أنه سيكون عندهم عرس.

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «يُختضب بالحناء بأن يؤتى به جافًا، ثم يمزجونه بالليمون، ويخلطونه بعجين خمير ليتفخ. ويوزعون الحناء على الحضور، ثم تخضب العروس بالحناء، وهي خجلة».

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «تعجن أخت العريس وعمته الحناء مع بعض العجين الخمير. وفي مساء الليلة التي تسبق العرس، تخضَب العروس، ويحصل الحاضرون للغناء على الحناء أيضًا، ويستمر الغناء طيلة الوقت، وهي تخضب بالحناء.

وفي اليوم الذي سبق رحيل حمدة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]) إلى لِفتا عروسًا، سمعنا بوق سيارة، ورأينا ثلاث نساء من لِفتا يَنْزلن من السيارة، ودهشنا كثيرًا عندما رأينا إحداهن تلبس ملابس الرجال، ولكن المرأتين الأخريين كانتا تلبسان ثوبين فاخرين من الحرير الدمشقي مطرزين ببذخ، وسترات مخملية مطرزة بخيوط الذهب، ورفعتا ثوبيهما فبدت أحذيتهما الصفراء، ودخلن إلى بيت العروس بالأهازيج والزغاريد؛ فقد كن قريبات للعريس أتين لخضاب العروس بالحناء.

ولم تلبث أن جاءت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) لتعلن لنا: «لقد جئن، وهن يعجنَّ الحناء الآن ليختمر. وفي المساء، عند أذان المغرب، سوف تُخضب بالحناء».

وسألت الست لويزا: «ماذا يطعمون الضيوف؟» أجابت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «اليوم دبس العنب، وبيضًا مقليًا بالسمن، وخبزًا، وغدًا صباحًا عسلًا وزبدًا».

في المساء ذهبنا أنا والست لويزا إلى بيت العروس، كان البيت كهفًا ذا حجرة واحدة، وكانت الجدران قاتمة جدًا حتى إن ضوء المصباح الصغير لم يكد ينير شيئًا من الحجرة، وأرشدتنا امرأتان خلال الكهف الذي كان يعج بالنساء. وأول ما أبصرت، بعد أن اعتادت عيناي الضوء الخافت، كانت نساء لِفتا الغريبات يرقصن ويغنين: «سنرقص ونغني لابن عمنا الذي سيأخذ عروسه إلى بيته».

وأنعمت النظر، فأبصرت العروس تبكي في زاوية قريبة. وكان رأسها مغطى بقطعة قماش، لكن دموعها كانت تتساقط على أصابعها. وكانت أحيانًا تنشج بصوت عال - وكل ذلك والنساء يرقصن ويغنين. وعندما رفعت إحدى صديقاتها الخمار عن وجهها لتهمس لها شيئًا، استطعت أن أرى وجهها الذي كان منتفخًا ومحمرًّا من البكاء. وتوقف الرقص بعد هنيهة، وجيء بوعاء فيه مزيج الحناء، وبدأت إحدى نساء لِفتا بتخضيب العروس التي ما برحت تبكي.

والمرأة الغريبة من لِفتا - والتي قالت إنها ابنة عم العريس - شمرت أكمام حمدة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]) وبللت ذراعيها ويديها، ووضعت قطعًا صغيرة من مزيج الحناء على مفاصل يديها وأصابعها، ووضعت كذلك قطعة كبيرة في كفها، وضمت يدها عليها بإحكام، وعندما عادت ففتحت يدها بعد ذلك، كانت عليها بقع حمراء، وكانت العروس مستسلمة لكل ذلك.

ودعت النساء اللاتي خضبن العروس بمسند للقدمين، وضعن عليه قدمي العروس، وصببن الماء على القدمين كما فعلن باليدين والذراعين، ربما ليزيد التصاق الحناء، ثم زخرف الساقان والقدمان بالمزيج أيضًا.

وفي أثناء ذلك، أخذت امرأة من أرطاس مكان تلك المرأة من لِفتا التي كانت بدأت بخضاب العروس لتريحها. وطوال ذلك الوقت، ظلت نساء لِفتا يرقصن ويغنين، وبكاء العروس في ازدياد.

في مثل هذه الحالات، عندما تأتي نساء من قرية أخرى لزيارة أرطاس، يسمع المرء أغاني لم تكن معروفة من قبل. والنساء في قريتنا ضحكن كثيرًا

من أغنية غنتها المرأة التي كانت لابسة لباس الرجال، وقلن إنها لبست هذا الباس الغريب؛ لأنها كانت خنثى (خنثى ذكر)[15]. وفي ما يأتي كلمات الأغنية الجديدة[16]:

«إن كان عزبًا فهو أعز أصحابي	(إن تشان عزابي يا عز إصحابي
أما إن كان متزوجًا فليذهب بعيدًا	أو إن تشان متجوز سكتر من هونا
يا لهفي على العزب يا لهفي عليه	يا ناري[17]عالعزابي يا ناري عليه
خبزه تحت إبطه والقمل عليه	خبزاتو تحت إباطو[18] إلقمل عليه
يا لهفي على المتزوج يا لهفي عليه	يا ناري عالمتجوز يا ناري عليه
يمشي بلا حذاء والدِّين عليه»	بمشي بلا صرمايه وإلدِّين عليه)[19]

وعند الانتهاء من تحنية العروس، يُوزع الحناء على الحضور لتتمكن النساء والأطفال وكذلك الشباب من تخضيب أنفسهم في بيوتهم استعدادًا للعرس. وأحيانًا تخضب النساء ما شاب من شعرهن ليبدو ناضرًا.

وتُخضب العروس بحناء عالي الجودة ليس فيه إلا القليل من الطحين لتحصل على لون أحمر جميل. أما الحضور الذين جاءوا للغناء والرقص، فيكون نصيبهم مزيجًا من الحناء مع الكثير من الطحين[20].

---

(15) هذا ما يقال للخنثى بلغة الفلاحين.

(16) وعلى هذا النحو، تعلمت نساء أرطاس اللاتي عشن، لسبب أو لآخر، في أماكن أخرى أغاني غدت، في حالات كثيرة، جزءًا من رصيد القرية من الأغاني. وقد غنت إحدى النساء اللاتي غادرن أرطاس بسبب الفقر والمشقة إبان الحرب العالمية [الأولى] أغنية في عرس بعد عودتها، كانت تعلمتها في شرق الأردن.

(17) «يا ناري» هي صرخة تفيد اللهفة. وقالت الست لويزا: «تُقال عبارة 'يا ناري' شفقة عند سقوط طفل، أو لمن بعينه أذى».

(18) بحسب تفسير الست لويزا: «لأنه لا يعرف أين يضعه؛ ولا خزانة لديه؛ فالمرأة هي التي تصنع الخزائن».

(19) لصيغة مختلفة من هذه الأغنية انظر: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 96.

(20) يقول شباور وحداد في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 120,

إن الناس يخلطون الحناء بطحين الشعير، إن لم يكن لديهم ما يكفي منها، أما للعروس، فتستخدم =

قالت الست لويزا: «في ليلة الحناء يودعون العروس أيضًا».

فتغني صديقاتها:

«يا لسعدك، فطيرك من ذهب	(سعدان[21] طيرك ذهب
لم يطرق مثلها صائغ قط	ما دقها صايغ
وقد ربح من اشتراها	يا تِشسب إللي اشترى
ويخلف الله البائع خيرًا»	يِعوض على إلبايع)

وإذا ذهبت العروس إلى قرية أخرى، فهم ينوحون:

«غريبة، غريبة، غربوها رجالها	(غريبة، غريبة، غربوها رجالها
ما غربها إلاَّ كثرة الدراهم»	ما غربوها إلاَّ كثر إلدَّراهم)

= الحناء غير المخلوطة. ويقدم المؤلفان وصفًا مفصلًا لتخضيب العروس بالحناء. انظر أيضًا: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 71; Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 95, and Pierotti, *Customs and Traditions*, p. 185f.

في ما يتعلق بالحناء وليلة الحنا انظر أيضًا: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heilgen Landes zu Jerusalem*, p. 114f.

وكذلك الصفحة 130 من المرجع المذكور حيث ترد أغنية عن الحناء. Adela Goodrich-Freer, *Inner Jerusalem* (London, 1914), p. 307; Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 62, 104; Claude Reignier Conder, *Tent Work in Palestine* (London, 1885), p. 323; HenryVan-Lennep, *Bible Lands: Their Modern Customs and Manners Illustrative of the Scripture* (London, 1875), p. 547, and Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I (Gütersloh, 1928), p. 383, 430, 549.

ويروي باومان من البيرة عن «ذبيحة الحنا»، وهي خروف يُذبح وتأكله النساء في بيت العروس في: Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, p. 68,

انظر كذلك: *Revue Biblique* (Paris, 1906), p. 100.

وللحديث عن ذبيحة الحناء انظر أيضًا: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 346f., and Musil, *Arabia*, p. 188.

في ما يتعلق بطقس الحناء انظر أيضًا: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, p. 231, and Snouck Hurgronje, *Mekka*, II (Haag, 1889), p. 165.

ويقول ويسترمارك في: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, II (London, 1925), p. 502,

«ومن أهم الطقوس الوقائية والمطهرة في الأعراس المغربية عادة تخضيب العروس والعريس بالحناء، وهي مادة ملوَّنة تؤخذ من أوراق نبات الحناء، أو من بعض شجيرات السياج المصرية، ويعتقد أنها تحتوي على الكثير من «البركة» أو القوى الحميدة، ولهذا تستخدم في الحالات التي يعتقد الناس فيها أنهم عرضة لأخطار غير طبيعية، كوسيلة للتطهير والحماية...».

(21) هذه الكلمة غير مؤكدة. وقد تكون «يا سعدة».

وتعبر النساء عن أفكار العروس بالأغنية:

«أهلي تخلوا عني، ولا عيش لي بينهم بعد اليوم (أهلي جافوني ولا لي عندهم عيشة

ما دللوني دلال العبد أبي ريشة لا دللوني دلال العبد أبو ريشه

أهلي تخلوا عني، ولا عيش لي بينهم بعد اليوم» أو أهلي جافوني ولا لي عندهم عيشة)

ولكن الأصدقاء وأهل القرية يحاولون أيضًا مواساة العروس التي ترى أن انفصالها عن بيت أبيها بات قريبًا؛ فكما قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183])، غنت النساء لحمدة (ابنة محمود عِثمان [33]) في ليلة الحناء:

«لا تبكي فتحمليني على البكاء يا أخية يا حمدة (لا تبتشي وتبتشيني يا خيتي يا حمدة

كويتني إذ سال دمعك على خدك على خدك حرقتيني إن طاح دمعك

فليس لك دمعة أو اثنتان وحسب يا أخية يا حمدة لا إلتش دمعة ولّا ثنتين ياخيتي يا حمدة

سيزورك أخوك الحنون ليلة الإثنين يزورك ليلة اثنين خيّك حِنيِّن

فليس لك دمعة أو أربع وحسب يا أخية يا حمدة لا إلتش دمعة ولّا أربع يا خيتي يا حمدة

سيزورك أخوك الحنون ليلة الأربعاء بزورك ليلة الأربع خيّك حِنيِّن

فليس لك دمعة أو تسع وحسب يا أخية يا حمدة لا إلتش دمعة ولّا تسعة يا خيتي

حمدة يا حمدة

سيزورك أخوك الحنون ليلة الجمعة» يزورك ليلة إلجمعة خيّك حِنيِّن)

ويُغنى للعريس في وقت متأخر من المساء:

«أبشر يا أحمد فما بقي ولا تبقّى (من الزمن شيء» (تْبَشَّر يا أحمد لا ظل ولا بقا

فقد مضت ليلة الحناء كما مضت ليلة اللقاء مضت ليلة إلحنا كما ليلة إللّقا

ولم يبق للعزوبة إلا ليالٍ قليلة» ما ظل للعزوبية إلا ليالي قليلة)

وليلة الحناء هي آخر ليالي الفرح. ويكون حفل العرس في اليوم الذي يليها[22].

---

(22) حدث ذات مرة في أرطاس أن خُضِّبت عروس بالحناء، ثم وقعت مشاجرة عنيفة وطويلة بين أبيها وعريسها؛ فجلست «الثلاثة أيام بالحناء» قبل الاحتفال بالعرس.

الفصل الرابع
إحضار العروس

الاستعدادات في الصباح

في يوم العرس تجري مراسم إحضار العروس من بيت أبيها إلى بيت العريس.

في الصباح تحمم العروسَ أمُّها وأخواتُها(1)، وقبل أن يحمموها، فإنهم

---

(1) لحمام العروس في المدن طابع احتفالي واسع؛ ففي اليوم الذي يسبق يوم العرس، يؤتى بالعروس في موكب تقوده القريبات والصديقات (من عائلتي العريس والعروس) إلى أحد الحمامات العامة، وهن يغنين ويصفقن بأيديهن، ويطلقن صيحات الفرح الصاخبة المسماة «زغاريت» كل حين. وتعتني نساء ذوات خبرة بأمر العروس في الحمام. وتقدَّم وجبات خفيفة للنساء المجتمعات اللواتي يبلغ عددهن من خمسين إلى مئة امرأة، ثم يرجعن بها مرة أخرى في موكب إلى بيتها. ويروي جوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 67f.,

حديثًا ممتعًا عن حمامات النساء العامة، واغتسال العروس في نابلس، حيث «إن هذا الاستخدام يخفي طابع طقس يُحرص على الالتزام به» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر: Frederick Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p. 95, and Einsler Lydia, «Der Name Gottes und die bösen Geister im Aberglauben der Araber Palästinas,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. X (Leipzig, 1887), p. 172ff.,

انظر على وجه الخصوص الصفحة 173، وكذلك: Einsler Lydia, *Mosaik aus dem heiligen Lande* (Jerusalem, 1898), p. 13,

وعلى وجه الخصوص الصفحة 15. وانظر: Adela Goodrich-Freer, *Inner Jerusalem* (London, 1914), p. 305f.; Gustav Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1910), p. 115, 131; Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge, 1864), p. 185; HenryVan- =

يزيلون الشعر عن جسدها؛ فالفلاحون يكرهون تركه كرهًا شديدًا[2]. ويفعلون بالعريس ما يشبه ذلك، ويحلقون لحيته[3]، ثم يرتدي ثيابًا جديدة، إن كان قد

Lennep, *Bible Lands: Their Modern Customs and Manners Illustrative of the Scripture* (London, 1875), p. 547, and Alois Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 188, 205. =

ويقدم لين وصفًا مفصلًا لموكب الحمام المسمى «زفة الحمَّام» في: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 224f.

في ما يتعلق بحمام الخطيبة انظر: Edward Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 17,

وعن استحمام أو اغتسال العروس انظر الصفحتين 136 و363 من المرجع المذكور. وفي ما يتعلق بالاستحمام كأحد طقوس الزواج انظر أيضًا: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, II (London, 1925), p. 503.

(2) انظر كلاين في الصفحة 95 من المرجع المشار إليه سابقًا: «يُزال جميع الشعر الداكن من جسم العروس باستخدام مادة مصنوعة من العسل ومواد أخرى». وقال باور الشيء نفسه في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel* (Leipzig, 1903), p. 104 n. 1,

مع إشارته إلى المصطلح العربي «تحَفُّف» المتعلق بهذا الإجراء، كما يقول في الصفحة 104 من المرجع المذكور إن هذا عادة مدينية. أما غودريش فرير فتقول في الصفحة 306 من المرجع المشار إليه سابقًا إن شعر جسم العروس، وزغب وجهها يزال بالكامل بواسطة «النورة»، وهي مادة قوية لإزالة الشعر تتكون في ما يبدو من الكلس». ويتحدث شباور وحداد في: H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, v. 1 (Leipzig, 1927), p. 119,

عن إزالة شعر جسم العروس إضافةً إلى العريس بالكامل. ويتحدث جوسان مرة أخرى عن تجهيز العروس قائلًا في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 69,

«تخضع الحواجب عندما تكون سميكة لعملية تُسمى «تحفيف». وللحصول على ذلك تجهز عجينة من الطحين المذاب بكمية كثيفة من السكر. وتمد العجينة على الحاجب، أو على المنطقة المراد إزالة الشعر منها، وعندما تجف العجينة الملتصقة بالبشرة، يُصار إلى نزعها مزيلة الشعر معها! وهذا هو تحفيف العروس» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر أيضًا الحاشية حول هذا في الصفحة 69 وما يليها حيث يقتبس جوسان من صحيح البخاري. «يتعلق الأمر في الأحاديث 76 و121 و122 من المجلد الثالث من صحيح البخاري بالحلاقة، بينما في الحديثين 64 و77 من المجلد الرابع من صحيح البخاري فالحديث عن خمس عادات، آخرها عن حلاقة شعر الجسم. وفي ما يتعلق بالمصطلح الأخير انظر لسان العرب تحت اللفظتين «نتف» و«عان [عون]». «وتبعًا لتقليد آخر، كما يرد في الحديثين 77 و82 من المجلد الرابع من صحيح البخاري، فإن الله لعن المستوشمة والمتنمصة والمتفلجة للحسن [ترجمة عن الفرنسية]. انظر لين في: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, p. 419,

«تزيل بعض النساء الشعر بمجرد فرك الجزء برماد الفحم».

(3) يقول شباور وحداد في الصفحة 120 من المرجع المشار إليه سابقًا إن أبا العريس أو عمه، أو سواهما يحممانه ثم يلبسانه ملابس جديدة. ويسوق ليتمان في: Enno Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge (Berlin, 1902), v. 3, p. 100ff., =

اشترى شيئًا منها لعرسه(4)، ويستعد الضيوف في الوقت نفسه لهذا اليوم العظيم. وتبتهج النساء، وقد خضبن أيديهن بالحناء، وصبغن رموشهن وحواجبهن بالكحل(5). ومن كان لديهم ثياب جديدة؛ هدية من العريس أو غير ذلك، فإنهم يلبسونها. والآخرون يلبسون أحسن ما لديهم. وبدلًا من الثياب اليومية الزرقاء أو السوداء، تحب النساء ارتداء ثياب بيت لحم الأكثر بهجة، والسترات القصيرة المطرزة بخيوط الذهب على مخمل أحمر، أو أخضر، أو أزرق، حتى إن لدى بعضهن جوارب وأحذية، يفتخرن بها كثيرًا. ولكن النساء في الحي الشرقي من القرية أسررن لنا أنهن لا يجرؤن على ارتداء ملابس أوروبية كهذه، وقلن: «كلنا يملك أحذية وجوارب»، ولكنهن قلن أيضًا إن الرجال الكبار «سيقتلوهن» إن أقدمن على ارتدائها؛ فهي تعد بدعة منكرة، وخطيئة لا تجلب إلا المتاعب

= قصة ممتعة عن حلاقة العريس بينما يغني الرجال والنساء. ويُعبَّر في إحدى الأغاني (في الصفحة 101) عن تمني: «إصابة عين العدو بالعمى لعدم ذكره اسم الله عليك». للحديث عن حلاقة العريس في الريف انظر الصفحة 95 من مقالة كلاين، والصفحتين 115 و131 من مقالة روتشتاين المشار إليهما سابقًا. أما في ما يتعلق بحمام وحلاقة العريس في إحدى المدن فانظر الصفحة 68 وما يليها من كتاب جوسان المشار إليه سابقًا. وللحديث عن حمام واغتسال العريس انظر كذلك: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 321.

وعن حلاقته انظر الصفحة 321 من المرجع المذكور، أما عن حظر حلاقة العريس فانظر الصفحتين 290 و324 من المرجع نفسه.

(4) انظر الصفحة 120 من مقالة شباور وحداد المشار إليها سابقًا. ويقول موسِل في: Musil, *Arabia*, p. 194,

«وقد ذهب العريس عند الظهيرة مع ملابس عرسه إلى بيت أحد أصدقائه أو أقاربه، حيث سيغتسل ويرتدي ملابس العرس». أما أبيلا فيقول في: Eijüb Abēla, «Beiträge zur Kenntniss abergläubischer Gebräuch in Syrien,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. VII (Leipzig, 1884), p. 91f.,

«عندما يساعد الناس أحد العرسان في ارتداء ثوب عرسه فعليهم أن يأخذوا في الاعتبار أن لا يسمحوا له بتثبيت أحد أزرار الثوب، أو أن يعقد عقدة على الثوب نفسه؛ إذ ثمة اعتقاد أن أعداءه أو أعداء زوجته الشابة، في هاتين الحالتين، سيمنعونه من البناء بها بواسطة السحر. كما يُطلب من أم العريس بالمعمودية، خلال طقوس تجهيز العريس، الحضور وأن تحرك أصابعها تمامًا كما لو كانت تخيط شيئًا ما».

وفي ما يتعلق بلباس أو تجهيز العريس انظر: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 116, 131, and Musil, *Arabia*, p. 186.

(5) في ما يتعلق بالكحل انظر، على سبيل المثال، الصفحة 70 من كتاب جوسان، والصفحة 51 وما يليها من كتاب لين، المشار إليهما سابقًا. انظر كذلك: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, 1 (Gütersloh, 1928), p. 431.

والحسرة. وحتى الآن، فإن عائلتي مِشاني وشاهين فقط هما اللتان تسمحان للنساء بمثل هذا الترف[6].

ويحب الرجال كذلك أن يتأنقوا في لباسهم في مناسبات كهذه؛ فقد يرتدون عباءات صوفية بيضاء، أو قفاطين سودًا فوق أثواب سابغة تشبه القمصان، كانت تصنع عادة من القطن الأبيض أو الصوف، أما الآن فكثيرًا ما تكون ذات خطوط صفر وسود، أو حمر وبيض، أو زرق وبيض، وتصنع من الحرير والقطن معًا.

أما الرجال الأصغر سنًا، فيحبون ارتداء السترة الأوروبية. وقد بدأ الطربوش بالانتشار بين الصبيان بتأثير المدن. والرجال الكبار فقط هم الذين يعتمرون الطربوش مع عمامة زاهية اللون. وغطاء الرأس لمعظم الرجال هو قطعة قماش بيضاء من القطن (كفية) يثبتونها على الجبهة بحبل صوفي أسود غليظ (عقال)، ويكون غطاء الرأس في أيام الاحتفالات من الحرير إن أمكن ذلك، ويكون لبعضها ألوان زاهية جدًا[7].

---

(6) يبدو أن عادة ارتداء ضيوف العرس الأحذية هي عادة حديثة. ويجب على العروس أيضًا ارتداء الحذاء. ويسمى يوم العرس «يوم ارتداء الأحذية» في عبارة دوَّنها ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 89, A IV. 102.

ويعتقد المؤلف أن المصطلح غريب لأنه ينبغي على العريس والعروس، كما يقول، ارتداء زي العرس بالكامل، وليس الحذاء فقط «وقد تعني هذه العبارة كذلك أن هذا ما هو إلا جزء من الطقوس». وفي هذا نظير للطقوس المسماة «فكُّ الحذاء» الذي يحدث في وقت متأخر من مساء يوم العرس. انظر أدناه في الصفحة 122 من هذا الكتاب. فهل يستنتج المرء من هذا أن عادة ارتداء المرأة الحذاء في يوم عرسها عادة قديمة جدًا؟ يعتقد ليتمان في الصفحة 89 من المرجع المذكور أن عادة تسمية العرس بـ «يوم ارتداء الحذاء» قد تكون تذكيرًا بالعادة المعروفة والمذكورة في الآية الثامنة من الإصحاح الرابع من سفر راعوث.

(7) قديمًا كان الرجل من العامة يرتدي ثوبًا أبيض وطويلاً، وحزامًا جلديًا حول الخصر يضاف إلى ذلك عباءة مخططة باللونين البني والأبيض (عباه)، وفي الشتاء معطفًا من جلود الخراف. أما الشيخ وعلية القوم، فكانوا يرتدون حزامًا فارسيًا (إحزام عجمي) وقفطانًا (كفتان) (هِدم، هِدِم حرير)، أو عباءة سوداء من القطن أو الصوف (شالة). أما غطاء الرأس للفلاح فكان على الدوام عمامة ملفوفة حول طربوش لبدن. ولم يبدأ الفلاحون بارتداء غطاء الرأس البدوي إلا في فترة لاحقة، وهو قطعة من القماش يعلوها حبل أسود مزدوج [عقال]. وقالت الست لويزا في هذا الحبل الأسود: «هذا يظهر الفرق بين الرجل والمرأة؛ =

وفي صباح يوم العرس، يُهيأ جمل العروس؛ فالعادة تقتضي، إذا كانت العروس بكرًا، أن تذهب من بيت أبيها إلى بيت زوجها على جمل أو حصان. وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «يقود الجمل أحد أصدقاء العريس». وعندما احتُفل بعرس شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126])، قاد والدها جمل العروس. وعندما جيء بعروس عيسى خليل [11] من بيت لحم إلى أرطاس، ركبت جمل عمها، وهو الذي قاده، وبهذه الخدمة، نال 5 جنيهات في ما بعد(8).

وفي صباح اليوم الذي كان فيه محمد يوسف سيأتي بعروسه سعدة درويش (زوجة محمد يوسف [149]) من الخَضْر، بجانب برك سليمان، وفور وصولي إلى قريتي الصغيرة، لاحظت العريس جالسًا خارج بيت مرتفع في الجبل، وخليل شاهين [150] يحلق له لحيته. وأحضرت النساء مساند وأغطية، ووضعنها على الجمل لتكون وِثرًا للعروس في جلستها، وجعلن بينها عيدان أشجار الليمون؛ فالخضرة ترمز إلى الفأل الحسن والبركة (انظر الشكل رقم 10). وتقدم رجل يحمل في يده بيضة وكسرها على رأس الجمل، وقد رأيت هذا مرارًا فيما بعد، وأردت بالطبع أن أعرف المغزى من هذه العادة، فسألت النساء من حولي: «لماذا تكسر بيضة على رأس الجمل؟» فحصلت على الإجابات الآتية:

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «تُكسر بيضة على جبهة الجمل خوفًا من أن يكبو، وتُذبح دجاجة لدرء الشر، ولا يفعل هذا مع الحصان».

= إذ يرتدي الرجل قطعة من القماش ورباط، بينما ترتدي المرأة قطعة قماش فقط». وفي السنوات الأخيرة فقط، بدأ الشباب يرتدون الطربوش الذي يرتديه سكان المدن. في ما يتعلق بزي الرجل انظر: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 57ff.

ويقول المؤلف في الصفحة 59 من المرجع المذكور: «يشير المشي (الترفل) بثوب خالٍ من الحزام، والمجرور على الأرض على الفخامة أو على الغرور والتصنع». انظر كذلك: Johann Georg Leonhard Bauer, «Kleidung und Schmuck der Araber Palästinas,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. XXIV (Leipzig, 1901), p. 32ff., andFriedrichUlmer, «Südpalästinensische Kopfbedeckungen,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. XLI (Leipzig, 1918), p. 38ff.

(8) في ما يتعلق بالجمل الذي يقوده ابن عم العروس انظر: Philip Baldensperger, *The Immovable East* (London, 1913), p. 121, and Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 187.

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «يُفعل هذا مع الجمل، والجمل الذي يُفعل معه هذا هو الذي يحمل عروسًا للمرة الأولى. وخوفًا من أن يلحق الأذى بالجمل، يكسر المرء بيضة. وإذا لم توجد بيضة، تذبح دجاجة».

وقالت مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]): «تذبح دجاجة على رأس الجمل (أو تُكسر بيضة)، أيهما كانت في متناول اليد، حتى لا يتعثر الجمل؛ فالجمل الذي يحمل عروسًا أو ميتًا، والجمل الذي لم يحمل عروسًا من قبل، ينبغي أن يُذبح له».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «ويُفعل هذا مع الجمل الذي لم يحمل عروسًا من قبل. وتُذبح دجاجة إذا كان الجمل سيحمل رجلًا ميتًا أو رجلًا قتيلًا، وهذا - كما هو كسر البيضة - للحماية[9]، حتى لا يسقط الجمل. ولا يحب الناس أن يُعيروا جملهم لحمل رجل ميت أو مقتول، ويحصل صاحب الجمل على ثمن عباءة لقاء إعارته جمله، أو يكسوه المستعير بعباءة».

الموكب من بيت العريس إلى بيت العروس

عندما أصبح جمل سعدة درويش (زوجة محمد يوسف [149]) جاهزًا، أُجلست طفلتين بين المساند.

(9) لتطهير دابة ما بطريقة أو بأخرى بعد امتطاء العروس لها انظر: Westermarck, Ibid., p. 1914, p. 218ff.,

وانظر كذلك الصفحتين 205 و214 من المرجع نفسه، حيث يتحدث المؤلف عن طقوس ترمي إلى «إزالة همزات الشر عن الفرس والتي يسببها امتطاء العروس لها، فإذا لم تُزل، تؤدي إلى موتها أو عقمها؛ إذ ثمة بركة في العروس والفرس كلتيهما، وإذا ما التقت بركة ببركة أخرى فقد يؤدي ذلك إلى نتائج وخيمة». أما عن سبب كسر بيضة بإلقائها على جبهة البغل الحامل للعروس «فلكي تكون العروس بيضاء وحمراء كالبيضة، ولكي لا تجلب بأسًا (باس) معها، بل لتكون جالبة للحظ والبركة لزوجها».

في ما يتعلق بالطقس الذي يمارس عند دخول العروس لبيت العريس انظر الصفحة 195 من المرجع المذكور. انظر أيضًا: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 232,

«إكسر بيضة مع تعويذات سحرية على جبهة المصاب بالعين» وهي وسيلة ينصح بها لعلاج شخص مصاب بالعين.

الشكل العاشر: تجهيز جمل العروس

الشكل الحادي عشر: انطلاق موكب إحضار العروس

الشكل الثاني عشر: في الطريق لإحضار العروس

الشكل الثالث عشر: النساء في الموكب

الشكل الرابع عشر: الرجال في الموكب

الشكل الخامس عشر: في انتظار العروس

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ذات مرة: «قبل أن تركب العروس على الجمل، يُجلسون عليه صبيًا أو بنتًا تبعًا لرغبتهم؛ أصبيًّا يريدون المولود الأول أن يكون أم بنتًا؟! وفي الحالة الثانية، تهتف النساء من أقارب العريس: «أنتم، لِمَ وضعتم بنتًا على الجمل؟» وتأتي الإجابة: «فلتكن بنتًا!»»[10].

والفلاحون مولعون كثيرًا بأطفالهم، الأولاد منهم والبنات. والطفلتان الصغيرتان، وهما من أقرب أقارب العريس في هذه الحالة، كانتا مسرورتين بركوب الجمل. واستنهضت الدابة، وجعلت النساء يزغردن ويصفقن ويغنين، وانطلق الموكب (الفاردة) (الشكل رقم 11)، وصعد الرجال من القرية، وعندما خرجنا بصحبة الجمل إلى الطريق كان الرجال قد سبقونا إلى هناك. وتفضي هذه الطريق إلى الخَضْر مرورًا ببرك سليمان. وركب الرجال الكبار ذوو المكانة الخيول والبغال، ولكن العريس جاء بكل بساطة ماشيًا، متذيلًا صف الشباب، واقترب مني، وقال: «اليوم عرسي يا ست حليمة» فهنأته. وقاد إخْسين محمد (ابن محمد خليل [166]) جمل العروس، وهو شاب من أصدقاء العريس، وحمل في يده سيفًا للعروس. وتبع الأطفالُ النساء، كما هي الحال دائمًا، وحملوا الصغار على أذرعهم أو على ظهورهم في لفاع يُعلّق بعد ذلك في زاوية الغرفة بين جدارين. وحملت بعض الأمهات أو الأخوات الأطفال على أكتافهن، أو قدنهم بأيديهن، وحملت إحدى النساء الحزمة الحمراء التي تضم جهاز العروس على رأسها. وعندما يمشي أهل أرطاس في هذا النوع من المواكب (من الشكل رقم 11 إلى رقم 14)، يبدو المنظر بديعًا جدًا في أعين الأوروبي، ويعجبون هم أنفسهم لصورة الموكب الجليلة المهيبة، ولا يشكون في أنها تبعث على العجب والإعجاب والحسد. ويعد موكب كهذا، يتناقلون الروايات عن الدهشة التي وقعت في الأنفس، والأثر العظيم

(10) في المغرب، عندما تؤخذ الدابة التي ستحمل العروس إلى بيتها الجديد، إلى مسكن أبويها، فإن أهم ما في الأمر بحسب ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 320, هو أن يركبها أحدهم إلى هناك؛ إذ إن «ذهابها هناك بسرج فارغ نذير شؤم». ويُقال في الصفحة 191 من المرجع المذكور إن الفكرة وراء عادة امتطاء صبي صغير الدابة المأخوذة إلى بيت العروس هي في ما يبدو، الرغبة في إنجاب العروس ذرية من الذكور. وكذلك ركوب صبي خلفها عندما تؤخذ العروس إلى بيتها الجديد، فقد يجعلها ذلك أحيانًا، في اعتقادهم في الأقل، أمًا لأولاد».

الذي تركه الموكب لدى الجيران. وقالت لنا شيخة شاهين (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]): «ونساء أرطاس كلهن مرتديات جوارب وأحذية! وحدق أهل الخَضْر بذهول»، وتباهت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة: «وتساءل أهل الخَضْر قائلين: «ماذا! أليست أرطاس قرية صغيرة فيها بضعة بيوت فقط؟ ومن أين أتى كل هؤلاء الرجال الوسيمين؟»»، وضحكت مسرورة؛ فهي فخورة على الدوام بأن أرطاس تزخر بالرجال الأقوياء الوسيمين(11).

وعندما انطلقنا لإحضار العروس من الخَضْر، لاحظت أن العديد من النساء يحملن شموعًا كبيرة، ولأنني لم أكن رأيت هذا من قبل في موكب عرس لمسلمين، سألت عن السبب، وعلمت أن هؤلاء النسوة، إما أن يكن نذرن من قبل نذورًا للقديس جورج، أو أنهن بصدد فعل ذلك، لأجل مريض من أقاربهن؛ ففي الخَضْر توجد كنيسة كرست لهذا القديس المسيحي الذي يسميه المسلمون الخَضْر، أي الأخضر، ويلجأ إليه المسيحيون والمسلمون للعون، وينذرون له النذور.

وعندما وصلنا إلى برك سليمان، نزل جميع الخيالة من الرجال إلى السهل على الجانب الأيسر من الطريق للمسافر من الخليل إلى القدس، وهناك جعلوا يستبقون؛ فاصطف كل اثنين أو ثلاثة منهم في صف عند أول السهل، ومن هناك انطلقوا. ولدى وصولهم إلى علامة النهاية في آخره، اصطفوا مرة أخرى واستبقوا عائدين إلى حيث بدأوا، وكانوا مسرورين بإظهار مهاراتهم في ركوب الخيل(12)، ووقف سائر الرجال ينظرون، فيما غنت النساء:

---

(11) في ما يتعلق بالاعتقاد أن لقرية أرطاس ماء ذكر (مويت ذتشر)، ذات التأثير الإيجابي على الرجال، قارن: Hilma Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, III. 8 (Helsingfors, 1931), p. 82ff.

(12) في ما يتعلق بالسباق على الخيل انظر أدناه في الصفحة 383 من هذا الكتاب. انظر كذلك: Robert Alexander Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement* (London, 1915), p. 31,

(بلدة زكريا)

ولركوب الخيل والعدو بها في الأعراس انظر: Eberhard Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: =

«يا لصلاتك يا محمد | (يا صلاتك يا محمد
يا لخزيك يا شيطان | يا خزاتك يا شيطان
نزلت الخيل تستبق في ميدان العرسان | طاحت الخيل تلعب في ميدان العرسان
يا لصلاتك يا محمد | يا صلاتك يا محمد
يا لخزيك يا إبليس | يا خزاتك يا إبليس
نزلت الخيل تستبق في ميدان العرسان» | طاحت الخيل تلعب في ميدان العريس)

أو

«خزاك الله يا إبليس | (يا الله يخزيك يا إبليس
يا لصلاتك يا محمد | يا صلاتك يا محمد
يا لخزيك يا إبليس | يا خزاتك يا إبليس
يا لصلاتك يا محمد | يا صلاتك يا محمد
رد العين عن العريس | رد العين عن العريس
يا لصلاتك يا محمد | يا صلاتك يا محمد
خزاك [الله] يا شيطان | خزيك يا شيطان
يا لصلاتك يا محمد | يا صلاتك يا محمد
رد العين عن العريس» | رد العين عن العرسان)[13]

Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem, VI (Berlin, 1908), p. 73; Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London, 1906), p. 110, and Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» p. 139,

(عن سورية).

Musil, *Arabia*, p. 190.

(13) دوّنت من لفتا الصيغة الآتية من هذه الأغنية، وقد غنتها نساء في إحدى حفلات الخِطبة:

يا ناس صلوا على محمد/ صلاته صلاتين

صلاته تخزي الشيطان/ وترد عنه العين

ويتحدث ماكليستر في: Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun: Quarterly Statement*, p. 31,

عن نساء في أحد أعراس بلدة زكريا «يسألون الله ونبيه أن يردا عنهم العين».

وتقال هذه الكلمات لتلم قوى الشر. ومن حين إلى آخر، تردد النساء القول «إخزي إبليس»[14]؛ فهم يعلمون أنه في يوم كهذا، أي كما قالت الست لويزا: «عندما يكون كل شيء على ما يرام، وحيث كل شيء في انسجام»، على المرء أن يكون أشد حذرًا من قوة العين الحاسدة؛ فنظرات الإعجاب والحسد كلها يمكن أن توقع ضررًا، وأعظم الخطر، هو عندما يكون موكب العرس ساكنًا.

وعندما استأنف الموكب مسيره مرة أخرى، أخذ الرجال يرقصون، وعزف أحدهم بالناي، ورقصوا في حلقة أو فرادى، بسيف أو من دون سيف. وأظهر كثير من رجال أرطاس مهاراتهم في الرقص. وكان هناك شاب أسود ذكي من سِعْير، بارع ونشيط، من نسل الزنجي الذي اشتراه كبير عائلة شاهين (أبو إبراهيم شاهين [129]) عبدًا له في ما مضى، ورقص الشاب حينئذ أمام الجمل الذي كان يحمل العروس إلى حفيد سيد جده.

وكانوا في صخب وسرور، وكلما اقتربنا من نهاية الرحلة، ازداد حماس المدعوين. وكانوا ليفضلون الرقص والغناء على هذا النحو طوال الطريق إلى بيت العروس، إلا أن أهل أرطاس اضطروا إلى الانتظار خارج قرية العروس حوالى نصف ساعة قبل وصولهم إلى الخَضْر (انظر الشكل رقم 15).

وعندما زارنا العريس وسألناه في وقت لاحق، لماذا توقف الموكب؟ أجاب: «لأنها (أي العروس) صغيرة، ولا بد من ختم المختار (لازم يحط ختمه)؛ فأعطيناه مالًا وسكرًا وقهوةً (رشوة)». هكذا قُدمت له الرشوة ليمنح إجازته؛ لأن عُمْر العروس كان أحد عشر عامًا فقط، والحكومة تمنع زواج الأطفال منعًا باتًا.

وكانت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قد أخبرتنا من قبل ونحن لا نزال في البيت أن على الموكب أن يتوقف، وفسرت ذلك كالآتي: «توفي يوسف، وهو أحد أقارب العروس؛ فهم يتقدمون موكب العرس لمواساة إخوته، ويحملون

(14) في ما يتعلق بهذه العبارة انظر: Enno Littmann, *Beduinenerzählungen*, II (Strassburg, 1908), p. 23, 49, and Taufik Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, vol. XXI (Leipzig, 1929), p. 41.

معهم سكرًا وقهوة. ويقولون: «هناك فرح وهناك ترح، وهناك موت وهناك زواج، ولا تؤاخذوننا؛ فالموت لا ينقطع والفرح لا ينقطع». فيجيبون: «أتم الله أفراحكم! وبورك فيها! وسترون الخير بمقدمها إن شاء الله! وعسى أن تكون لكم زيتًا وزيتونًا وشمعًا وبخورًا. (بيقولوا في فرح أو في تشَره، أو في موت أو في عرس، أولا تواخذونا إلموت ما بينقطعش والفرح ما بنقطعش. بيقولوا الله يتمم افراحتشو يا ريتها إمبارتشه، وإن شا الله بتشوفو عَقدمها إلخير، يا ريتها عليكو زيت أو زيتون أو شمع أو بخور)»».

وعلقت الست لويزا قائلة: «يحرصون حرصًا شديدًا على أن لا يؤذوا الآخرين بفرحهم! فعلى أهل العريس أن لا يؤذوا أهل العروس بفرحهم، وعليهم أن لا يؤذوهم بسرورهم؛ فإذا ما دخلوا وهم يغنون، فسيقولون حانقين: «آوٍ! نحن في حزن وهم مبتهجون!»؛ لهذا يقول أهل العريس: «نرجو المعذرة! فقد أعددنا كل شيء!»»[15].

وإنها لحقيقة نفسية بالغة الأهمية؛ فالفلاحون في حدادهم، أو في حالات الحزن الأخرى، يحسون بأن فرح الآخرين هو تعبير عن انتصار أعدائهم عليهم.

وعندما عاد رجال أرطاس الذين ذهبوا إلى الخَضْر للاستئذان بأخذ العروس، واستأنف الموكب المسير مرة أخرى، أراد الشباب استئناف الرقص والمرح، فتصدى لهم خضر إحْسين [40]، وهو أحد الرجال الكبار الذين كانوا للتو في الخَضْر، ورفع يده معترضًا، وقال: «يكفي هذا (بَس)!» فلوجود حالة وفاة، كان على الموكب آنذاك أن يدخل قرية العروس في صمت وهدوء. ودخلت النساء اللاتي أحضرن الشموع إلى الدير للوفاء بنذورهن للقديس جورج في الكنيسة، ودخلت سائر النساء إلى بيت العروس، لكن الرجال ظلوا واقفين في الخارج.

---

(15) لحوار ممتع في طقوس استئذان الناس الراغبين بالاحتفال بأحد الأعراس من أقرب أقرباء أحد المتوفين حديثًا انظر: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 108f.

وانظر كذلك أعلاه في الصفحة 327 من هذا الكتاب.

انتظار العروس

على المرء أن يتحلى بكثير من الصبر إن أراد أن يرافق أولئك الذين يجلبون العروس في فلسطين؛ فقد تمر ساعات قبل استكمال زينة العروس، ثم إن تأخيرًا آخر قد يطرأ بسبب عراقيل يصطنعها بعض أقاربها، أو هي ذاتها.

وأتحول الآن عن الحديث عن هذا العرس الذي جيء فيه بعروس من الخَضْر - سعدة درويش (زوجة محمد يوسف [149]) - إلى أرطاس، لأروي من ملاحظات كنت دونتها في مفكرتي عن كيفية تجهيز عروس في قريتنا في يوم الأحد 15 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1925. كنا نراقب طوال فترة ما بعد الظهر حتى لا يفوتنا مشهد العروس تؤخذ من بيتها إلى بيت العريس. وفي المساء ذهبنا إلى الحي الشرقي من القرية، حيث كانا يسكنان كلاهما. وكان هناك رجال ونساء يجولون في المكان في أحسن ثيابهم، واللحم يطبخ في الخارج للوليمة. وأطفال يركضون هنا وهناك أو يتجمعون في مجموعات، ولكن لم يكن ثمة ما يدل على أن الإعدادات وصلت إلى حد نأمل معه أن نرى الموكب، وسُمع من أحد البيوت صوت نساء يغنين، وقيل إنهن كن يهيئن العروس تبعًا للعادة في أرطاس.

وقررنا أنا والست لويزا الذهاب إلى هناك، ولم يكن لرجل أن يفعل هذا؛ إذ يجب أن لا تقع عينا رجل على العروس في ذلك اليوم. وكانت العروس تجلس هادئة وسط حلقة من النساء، صغيرات وكبيرات «سيدات القرية». وطالما تساءلت: ألا يفضي تجمع النساء دومًا بمعزل عن الرجال خلال هذه الأحداث المهمة كلها إلى خلق شعور قوي بالتضامن في ما بينهن؟!

وكانت الدرجات التي تقود إلى بيت العروس مربكة وشديدة الانحدار. ولدى دخولنا من الباب وجدنا أنفسنا في حظيرة؛ فالطابق السفلي - إذا جاز التعبير - مخصص للحيوانات، وفيها بركت بقرة، ووقف بجوارها عجل مربوط، وبعض المعز تأكل الأوراق الجافة التي تجمعها النساء في الخريف في أكياس كبيرة. وصعدنا بحذر درجات حجرية رديئة جدًا، ووجدنا العروس حسنة (ابنة إسْمَعين أحمد [55]، وزوجة عبد الله حسن [61]) في زاوية الحجرة

التي كانت جدرانها سوداء من الدخان. وتألقت أظافر العروس بلون أحمر زاهٍ من الحناء، واكتحلت عيناها، وكانت امرأة كبيرة تغسل يدي العروس. أما هي فجلست ساكنة، والحزن باد عليها، وغضت بصرها، واستسلمت لهم ليهيئوها.

ومن حولها جلست نساء القرية في شبه حلقة يغنين ويصفقن بأيديهن أمامها. وبالطبع، كما هي الحال دائمًا، كان الأطفال يرضعون، فمن حين إلى آخر، تشعر إحداهن أن عليها أن تضع طفلها إلى صدرها فترضعه. وغنت النساء تارةً ورقصن أخرى. وانفردت فتاة بالرقص على بساط أمام العروس، ولكن العروس بدت وكأنها لم تر أو تسمع شيئًا من مرح النساء؛ فقد جلست في حزن شديد، ساكنة هادئة، غاضة طرفها، كما بدت وكأنها لم تعِ أن بعض النساء في الحجرة كن مشغولات بثوب عرسها، مع أنه كان يعد ويخَاط على فتاة صغيرة بجوارها. وجهها الحزين على الدوام، واستسلامها الكامل، كان لهما أثر كبير في نفسي، ولربما كنت أشفقت عليها لو لم تؤكد لي الست لويزا أن ذلك كان ما تقضيه العادة؛ فالعروس تبكي عندما تغادر بيت أبيها[16]، وكان هذا العرس في أول إقامتي في القرية.

---

(16) لعل الأمر في هذه الحالة كان أكثر من اتباع العادة؛ فكما سمعت لاحقًا، تبين أن هذا الزواج كان تعيسًا. وكان البكاء في حالة حمدة عِثمان (ابنة محمد عِثمان) صادقًا بلا ريب، فقد رأت في زواجها إجبارًا لها على ترك قريتها، فضلًا عن أن العريس كان مقعدًا كما أُشيع. أما إذا ما كان العريس والعروس متحابان حقًا، فعلى الرغم من العادة، لا ينجحان دائمًا في إخفاء سعادتهما بزواجهما. وفي مثل هذه الحالة يكون الخمار نافعًا للعروس. في ما يتعلق بالعادة التي تقتضي من العروس الشعور بالحزن والخجل انظر أعلاه في الصفحة 345 وما يليها، وفي الصفحة 349 من هذا الكتاب. انظر كذلك: Elihu Grant, *The People of Palestine* (London and Philadelphia, 1921), p 59,

«بدت حزينة جدًا كما هو متوقع من فتاة شابة تترك أمها..». انظر: Musil, *Arabia*, p. 205,

انظر اقتباس موسِل أدناه في الصفحتين 379 و380 وما يليها من هذا الكتاب. انظر: John Lewis Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I (London, 1830), p. 150,

في ما يتعلق بالعادة التي تقتضي إجبار العروس على ارتداء ملابس العرس، وهي تقاوم الإمساك بها؛ إذ كلما زادت مقاومتها زاد قدْرها. وعن بكاء العروس انظر: Westermarck: *Marriage Ceremonies*, p. 143ff., 149, 157, 163, 169, 172, 174, and *The History of Human*, p. 269.

وتعد ممانعة العروس الطقسية والبكاء المتفق عليه أمثلة اعتيادية لما يسمى «طقوس الانفصال» التي تحدث عنها فان غنب، انظر: Van Gennep, *Les Rites de passage* (Paris, 1909), p. 189,

يُستشهد بتصنيف فان غنب في الصفحة الخامسة وما يليها أدناه من هذا الكتاب. انظر كذلك:

= Westermarck, Ibid., p. 438.

وكما قلت، كان ثوب العروس يُجرب على فتاة صغيرة؛ إذ بدأوا فغطوا وجهها بالقماش الصوفي الأحمر الذي سيكون خمارًا للعروس في يوم العرس، فتدلى من جبهتها، وانسدل على وجهها حتى وصل إلى أسفل ركبتيها، ثم اشتُملت بثوب من ثياب الرجال المخططة السابغة، فغطى ظهرها وكتفيها، ولم يغلق من الأمام؛ فظل الخمار باديًا من بين جانبيه، وخيطت أكمامه أحدها إلى الآخر في الخلف[17]، ووضعت قبعة طويلة (شَطوة) على الرأس، كتلك التي اعتادت نساء بيت لحم المتزوجات لبسها[18]، وخيطت عليها ثلاث ريشات من ريش النعام في حلقة، حتى بدت وكأنها تاج على رأسها، ووضعت سكّتان من الفضة عند نهاية كل ريشة، وزينت سلسلة من السُّكك الفضية رأسها وعنقها وكذلك صدرها وظهرها، وزُينت أيضًا بأعواد شجر الليمون الخضراء (انظر الشكلين رقم 16 ورقم 17).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «الأخضر حتى يكون دخولها مباركًا، ويكون عقبها أخضر»[19].

وعند حديثنا عن تجهيز العروس، علقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة:

«تكون العروس دائمًا بلا حزام، من ساعة تجهيزها إلى اليوم التالي[20]؛ فالحزام يكون دائمًا هو خمارها».

= للقول إن المقاومة والحزن اللذين تظهرهما العروس، هي آثار باقية للزواج من خلال السبي انظر: Westermarck, 1925, p. 264ff., p. 271f.

ولمقاومتها حزنًا على تركها بيتها وأهلها انظر الصفحة 271 من المرجع المذكور.

(17) انظر أدناه الحاشية الثالثة في الصفحة 385 من هذا الكتاب.

(18) يقول شباور وحداد عن الشطوة في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 246,

«غطاء للرأس لا يلبس إلا في الأعراس». ويصف كنعان الشطوة في: Taufik Canaan, *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine* (London, 1927), p. 150.

(19) ويضيف جوسان كذلك في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 79,

«ما زال اللون الأخضر في الشرق رمزًا للازدهار» [ترجمة عن الفرنسية].

(20) في ما يتعلق بعدم تحزيم العروس، وامتناعها عن تحزيم نفسها لأيام بعد زواجها انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 263, 293ff., 324, 331.

الحزام هو قطعة قماش صوفية حمراء، وجزء من كسوة العروس يهديها إياه العريس، ويستعمل خمارًا.

وتلبس الفلاحة الخمار عندما تكون عروسًا فقط[21]، ولهذا يقال عندما تكون السماء ملبدة بالغيوم: «اليوم الشمس عروس».

واستأنفت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) وصف تجهيز العروس؛ فقالت: «قريباتها من النساء يُلبسنها، وتأتي الملابس كلها من بيت العريس، ويوهَب أبوها عباءة عند إبرام عقد الزواج، فتكسى هذه العباءة عندما تركب جمل العرس[22]، وتلبس قبعة النساء التلحمية (الشَطوة)، ويثبت عليها الريش وسكك الفضة، وتعطيها قريباتها (قراباتها) هذا المال (للزينة فحسب)، وهم يعطونها الكثير من أنواع السكك: «أبو ريشة و أبو عامود وحميدي ومجيدي»».

وعندما احتفل عيسى خليل [11] بزواجه من فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) من بيت لحم، اضطر أهل أرطاس إلى الانتظار طويلًا في بيت العروس؛ لأن عمها اعترض سبيلها، ولم يسمح لها بالمغادرة إلا بعد مساومات طويلة.

وفي مفكرتي تفصيل لهذا، فقد كان أول عرس شهدتُه في فلسطين، ومنه دونت هذه الملاحظات: في يوم الأحد، 25 تشرين أول/ أكتوبر، كان عيسى خليل [11] سيأخذ عروسه فاطمة شختور (زوجةِ عيسى خليل [11]) من بيت لحم إلى أرطاس. وقد جئت أنا والست لويزا من القدس في صباح ذلك اليوم لنرافق الموكب، ووصلنا إلى هناك قبل وصول أهل أرطاس، وانتهزنا الفرصة لنشهد عرسًا مسيحيًا أقيم في بيت لحم يومئذ، وبينما كنا هنالك لم نزل، سمعنا غناء النساء آتيًا من طريق غير بعيد. وقد كانت نساء أرطاس، يرقصن، ويغنين، ويصفقن بأيديهن فيما قرعت أجراس الكنيسة لقداس الصباح.

(21) يذكر جميع المؤلفين تقريبًا، ممن كتبوا عن الأعراس في فلسطين العروس السادلة الخمار. وهي عادة لا تقتصر على فلسطين وحسب، بل في المغرب كله. وهي عادة شائعة على نحو لا تحتاج معه إلى مزيد من الإيضاح.

(22) انظر أعلاه في الصفحة 26، وأدناه في الصفحة 385 من هذا الكتاب.

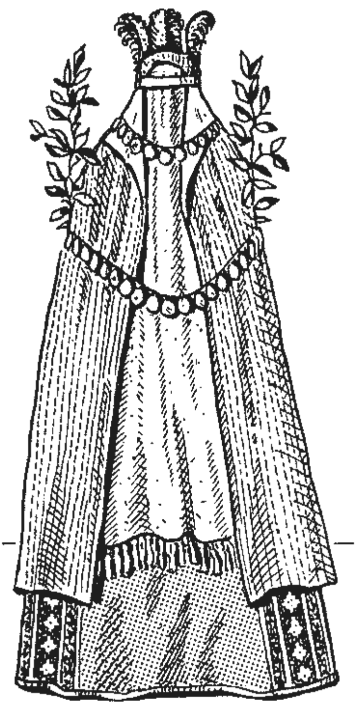

الشكل السادس عشر:
ثوب العروس من الأمام

الشكل السابع عشر:
ثوب العروس من الخلف (رسمتهما المؤلفة)

ثم عرفت العريس؛ إذ ارتدى الثوب نفسه الذي لبسه يوم الخِطبة، وفي كمه ثقب، فربما لم يتمكن من شراء ثوب جديد لكثرة ما كان عليه من النفقات، وجاء معه رجال أرطاس.

وبعد قليل، تبعنا الموكب إلى بيت العروس، وهناك وجدنا نساء أرطاس اللاتي وصلن قبلنا.

«أيا جرار الزيت يا فاطمة!
تخرجين من البيت، يا للخسارة!
أيا جرة السمن يا أخية!
تتزوجين النذل، يا للخسارة»

(يا جرار إلزِّيت يا فاطمة!
تطلعي من إلبيت خِسارة
يا جرار إلسَّمِن يا خيتي
تتجوز إلنَّذل خِسارة)!

هكذا كانت الأغنية التي وصلت إلى أسماعنا ونحن نعبر عتبة الحجرة حيث جلست العروس بثيابها البيضاء في الزاوية، وقد وضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى على وسادة، وكانت تلبس لون حزب اليمن الأبيض؛ لأن بيت لحم تتبع حزب اليمن. وجلست النساء قبالتها على الأرض يصفقن بأيديهن ويغنين أغاني العرس، وكلما رددن أغنية ما مرات عديدة، تبدأ إحداهن أغنية جديدة، فتستمع الأخريات بانتباه حينًا، ثم يغنين معها اللحن نفسه مرة بعد أخرى حتى تبدأ إحداهن أغنية جديدة، وتزغرد إحداهن بين الفينة والفينة.

وقالت الست لويزا: «إن نساء أرطاس هن اللاتي غنين مبتهجات، لكن أقارب العروس كانوا ساكنين صامتين؛ لأن أحد أفراد العائلة كان سيغادر البيت».

وجلست العروس كالمومياء، وما كان لأحد أن يخمن كيف بدت خلف خمارها، فضلًا عن الأفكار التي جالت في خاطرها.

وازدادت وتيرة الغناء سرعة وقوة؛ فقد كان ذلك أول عرس في ذلك الخريف، والجميع يعبرون عن سعادتهم بالحياة بالرقص والغناء؛ إذ لا يسمح بذلك إلا في الاحتفالات الكبيرة. وقد يلحق بالنساء إعياء شديد في نهاية احتفال العرس لكثرة ما رقصن وغنين. ولدى عودتي إلى أرطاس من زيارة إلى القدس في أحد أيام الخريف عام 1930، وجدت جميع النساء من عائلة شاهين يشكين من بحة شديدة في الصوت، فسألتهن عن خطبهن، ففسرن لي ذلك ضاحكات، بأنهن غنين كل مساء طوال أسبوع كامل لعرس في عشيرتهن، وبيَّن لي أنهن لم يملكن إلا أن يفعلن؛ فلو لم يفعلن، لأثرن بذلك استياءً شديدًا، ولسمعن ما يكرهن. ولم يملكن التفكير بعافية حناجرهن، وكان عليهن أن يغنين ويغنين مهما بلغ بهن من التعب؛ فالغناء في الأفراح هو أحد واجبات المرأة الاجتماعية، وهو ما تقتضيه العادة. وكذلك الرقص؛ فهو يمكن أن يكون واجبًا في الأعراس والاحتفالات الأخرى.

وقد لاحظت كم رقصت شيخة إبراهيم (ابنة شاهين موسى [139]، وزوجة عبد السلام إبراهيم [92]) في أمسيات الفرح التي سبقت الاحتفال

بختان أولادها، وكان ذلك في نهاية موسم الزواج السنوي، في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1926. وقد عبرت عن دهشتي من نشاطها، ولا سيما أنها بينت بوضوح كم تعبت في الإعداد للاحتفال. وفُسر لي ذلك على النحو الآتي: سيكون عليها لاحقًا أن ترقص في كل احتفال تقيمه أي من النسوة اللاتي رقصن في احتفالها بأولادها؛ فكلما أكثرت من الرقص، قلت الحاجة إلى نساء القرية أن يرقصن في هذا الاحتفال؛ فهي تكثر من الرقص الآن في حفل ختان أولادها، حتى لا تكون مدينة بالكثير من الرقص للأخريات. فمبدأ المكافأة يهيمن على حياة الفلاحين، ويقتضي المشاركة في الحزن والفرح كليهما[23]، إلا أنه لا ينظر للرقص والغناء في بداية فترة الفرح كواجب اجتماعي، بل إن النساء يرقصن ويغنين لا لشيء إلا ليمتعن أنفسهن، كما كانت عليه الحال في العرس الذي تقدم وصفه؛ إذ كانت الأغنية تتبع الأخرى دونما توقف.

ثم كان هناك جلبة وتصفيق عاتٍ، ثم تدافع وزحام، وبدأ الأطفال الصغار بالبكاء؛ فقد جاء المزيد من النساء، وفيهن أخت العروس، مرتدية حذاء جميلًا، ولكن من دون جوارب؛ فعلقت الست لويزا قائلة: «نصف أوروبية وحسب!». وفي ما عدا ذلك، لبست النساء أجمل ملابس الاحتفال؛ فقد كانت إلى جواري امرأة تلبس سترة مخملية خضراء مطرزة بالأحمر والأصفر، وجلست إلى جوارها امرأة لابسة سترة حمراء مطرزة بلون ذهبي، وثالثة لبست سترة زرقاء مطرزة بلون ذهبي؛ فجميعهن لبسن ثيابًا مطرزة بسخاء، ولم تكن كلها زرقًا وسودًا، فقد كان هناك ثياب بيت لحم ذات الألوان الأكثر إشراقًا؛ فها هي أغطية الرأس البيض تنافسها أوشحة سود ذات أهداب ملونة، وكلها أخرجت من الصناديق من أجل هذا العرس.

وعلى الرغم من الزحام في الحجرة، رقصت النساء هناك أيضًا[24]، ثم تبع

---

(23) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 130f.

(24) يروي بيروتي في: Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating*, p. 187, عن النساء، والزحام، والضجيج، والحر في بيت العروس، والعروس كالآلة «في وسط الحشد الذي يرقصون ويصرخون في كل أرجاء المكان كالمجانين».

ذلك أغان في مدح العروس، بذكر همتها وكريم أصلها وعائلتها، ومن حين إلى آخر، أقحم اسم العريس بين الكلمات.

«أيا من سيأخذ حبيبتي	(يا ميخذ إرويدتي
بارك الله لك (فيها)	الله يبارتشلَك
وأطال عمرك	إيطولعمرَك[25]
كي تبقى حبيبتي عندك	تَضل ارويدتي عندَك
أيا من سيأخذ حبيبتي	يا ميخذ إرويدتي
ذكرت الله والرسول	الله ونِبي سميت
لقد أخذت من أحسن الناس نسبًا	أخذت زين السَّلايل
يا باني البيت».	يا عمَّار البيت).

وكان هذا آخر ما سمعت عندما تركتُ النساء وذهبت إلى الساحة لأنظر ماذا كان الرجال يفعلون. وفي الفسحة أمام البيت، كان الرجال هنالك في شجار عنيف؛ إذ لم يكن عم العروس راضيًا بما ناله من تعويض (بلصا)، فعلاوة على المال، راح يطلب الآن عباءة (هِدم)، ولأنهم لم يعطوه عباءة؛ فقد رفض رفضًا قاطعًا أن يدع العروس تذهب معهم. ووقف غاضبًا ساخطًا بين رجال أرطاس الذين هددوه بإيماءات غاضبة، وكانت الرؤوس والأيدي تتحرك دون انقطاع، ولم يكن الكلام دونها أثرًا، إلا أن عم العروس بقي على عناده، ووقف العريس جانبًا، ولم يشارك في الشجار، وكان هادئًا ومبتسمًا في الظاهر في الأقل، وترك الآخرين يختصمون نيابة عنه، موقنًا بأن ما من شيء سيمنعه من اصطحاب

(25) في ما يتعلق بهذه العبارة المعتادة انظر: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 109 n. 5.

وكانت أمنية الإسرائيليين القدماء حياة طويلة على الأرض كما يرد في الآية الثانية عشرة من الإصحاح العشرين من سفر الخروج، وفي هذا انظر كذلك: HermannGunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament,* Edited by Wilhelm Nowack (Göttingen, 1922), p. 156, 419.

ويقول العرب في فلسطين في الوقت الحاضر: «يوم فوق الأرض خير من ألف يوم تحتها (يوم فوق الأرض ولا ألف تحتها)».

عروسه إلى بيته في نهاية المطاف. ولم يسمح العم بخروج العروس من بيتها حتى حصل على العباءة بالفعل.

ومشهد كهذا الذي وصفناه للتو شائع جدًا؛ فعندما كانت حمدة (ابنة محمد عِثمان [33]) ستذهب عروسًا إلى لِفتا، لم تسمح لها أختها خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]) بالخروج من بيت أبيها حتى يدفع حموها جنيهًا إسترلينيًا زيادة على ما كان دفعه من قبل. وانتظر أهل لِفتا بصبر فارغ ليتمكنوا من المغادرة؛ فقد كانت السماء تمطر، والفلاحون يخشون كثيرًا المكوث تحت المطر، ورأى الناس في أرطاس الجانب المضحك من الموقف، وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ضاحكة: «طلبت خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]) مالًا، وكان حمو العروس واقفًا خارج العتبة، والمطر يتساقط على رأسه، وقال: «كل شيء كان من ضمن المهر»؛ فقالت خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]): «لم نكن حاضرين عندما اتفق على المهر»، والتفتت إلى أختها (العروس)، وقالت: «لن تخرجي حتى يدفع المال!»، وظل المطر يتساقط على رأسه حتى اضطر أن يدفع جنيهًا علاوة على ما كان دفعه إلى خضر إحْسين [40] عم العروس».

وعندما اتفق على مهر زريفة (ابنة صالح سليمان سند [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74])، لم يكن عمها خليل سليمان [185] حاضرًا. وقالت أخته حمدية (ابنة سليمان سند [183]) ذلك بنبرة غامضة جدًا، حتى إننا استطعنا أن نستشف من خلالها أن عم العروس تعمَّد أن لا يحضر المفاوضات، ليتمكن من إثارة جلبة واختلاق العراقيل يوم عرسها، برفضه السماح بأخذها من بيت أبيها، ومهما قال أهل العريس دفاعًا عن أنفسهم، فما عليه إلا أن يتعلل بأن تلك المفاوضات لا تلزمه بشيء؛ لأنه لم يكن حاضرًا[26]. ورأينا سابقًا أن

(26) انظر شباور وحداد في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 109 n.,

«إن الخلاف بين الناس حول المال والهدايا يعرفه كل من عاش في الشرق ولو لفترة قصيرة، ويظهر ذلك جليًا في الأعراس». وفي الصفحة 123 وما يليها: «قد يتأجل إحضار العروس في اللحظة الأخيرة بسبب أمر تافه، كزوج من الأحذية يعتقد أحد الأنسباء الجدد بأنه حق له.. وقد تستمر المفاوضات ساعات طويلة في كثير من الأحيان». وفي هذا السياق، يروي المؤلفان أن أقرباء العريس وأصدقاؤه في =

للعروس ذاتها أن ترفض المغادرة ما لم تلب طلباتها[27]. وقالت الست لويزا: «قبل أن تحمل العروس على الجمل، لها أن تطلب ما تشاء». وهناك قصة تروى في أرطاس، يفهم منها أن والد العروس لا يسمح بمغادرتها البيت حتى يحصل على كل ما يريده من أهل العريس[28].

وفي أثناء إقامة قصيرة لي في نابلس ذات مرة، بحثت هذه العادة مع السيدة ليديا سليم. وهي تعرف جيدًا حياة العرب ونظرتهم إلى هذا الأمر[29]، فقالت لي إن هذا ما ينبغي أن يكون، وإن أي سلوك غيره سيكون مدعاة للشك والانتقاد، فسيبدأ الناس بالتساؤل: «ما خطب العروس؟ لا بد أن وراء ذلك ما وراءه؛ فأهلها تواقون للتخلص منها».

واختلاق عراقيل كتلك الموصوفة آنفًا، يجب أن لا ينظر إليه على أنه دليل على جشع أقارب العروس وحسب، بل قد يدل على حمايتهم للعروس أيضًا؛

= البنجاب يتناولون السكر. ويفسران هذه العادة كالآتي: «يحدث هذا للتفاؤل، لعل المفاوضات تجري من دون مرارة، كما صار الفم حلوًا». انظر أيضًا: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 127, 131.

(27) انظر غرانكفست في الصفحتين 128 و131 من المرجع السابق. وقد أخبرتني فاطمة وهي فلاحة مسيحية من رام الله، عن رفض العروس مغادرة بيت أبيها إلى أن تقتنع أن عمها وخالها حصلا على حقهما. ويروي روتشتاين كذلك في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 120f.

أن عروسًا رفضت أن ترتدي ملابس عرسها إلى أن أرضى العريس أقاربها؛ أي عمها وخالها: «لن أرتدي ملابسي قبل أن يأتي عمي وخالي ويقولان لي: 'ارتدي ملابسك، نحن راضون، ونرحب بك'، وبعد ذلك ترتدي ملابسها وتخرج من البيت». ويفسران في إحدى الحواشي عبارة: «نرحب بك»؛ أي «لن نبخل عليكم بالهدايا في مستقبل الأيام». ويتحدث ليتمان عن سوريا في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 138,

«لا تغادر العروس بيتها إلى أن تكسر قوارير من العطور الفواحة عليها، وتُغنى لها أغانٍ متنوعة خلال الطريق...».

(28) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 135.

(29) كان أبوها مبشرًا يدعى فالشير، وكان من الأوروبيين القلائل الذين نجحوا في البقاء في نابلس، المدينة التي اشتهر سكانها سابقًا بأنهم مسلمون متشددون، ولهذا فالسيدة ليديا سليم التي ولدت ونشأت هناك حيث كانت قريبة جدًا من العرب، وعرفت عاداتهم وتقاليدهم، وتزوجت في ما بعد مسيحيًا عربيًا، وهو الدكتور حبيب سليم الذي كان ذا سمعة حسنة بوصفه طبيبًا، وذا مكانة عالية ضمن إطار واسع.

فهم بذلك يظهرون عظيم قدرها عندهم؛ فهم لم يحزموا أمرهم بالسماح لها بمغادرتهم حتى اللحظات الأخيرةقبل العرس[30]. وينطوي هذا كله على إطراء للعريس؛ فهو الذي استطاع أن يفوز بفتاة محبوبة كهذه، غير أن فيه أيضًا تأكيد أن أقارب العروس لا يستهان بهم، وأن أعينهم ستظل تحرس ابنتهم، وسيراقبون ما تؤول إليه حالها، وإذا لزم الأمر، فإنهم سيتدخلون لنصرتها، وينبغي أن لا ننسى ولع الفلاحين بالمشاهد الدرامية.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «أهل العروس يأخذونها من بيت أبيها، وتبقى واحدة منهم حتى يودعوها».

كلمات الوداع

كلمات الوداع التي تقال للعروس، تلقي الضوء على تنشئة المرأة الفلاحة في فلسطين.

ويحسب عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، فإن والد العروس يقول لها: «كوني حريصة! ولا تأخذي شيئًا من متاع الجيران، ولا تضعي يدك على أموال الغرباء. كوني كاملة! ولا تسخرنَّ منك النساء».

أما أم العروس، فتنصحها كالآتي:

- «انتبهي يا ابنتي!
- إذا نقلتِ ما يقوله الآخرون، فهذا عيب.
- إذا تضاحكتِ مع الشباب، فهذا عيب.

(30) تعد معارضة أقارب العروس الطقسية جزءًا مما يسمى «طقوس الانفصال» التي تحدث عنها فان غنب؛ فالزواج، كما يقول هذا المؤلف في: Gennep, *Les Rites*, p. 198, «قلق اجتماعي»؛ إذ إنه يحرم عائلة العروس من أحد أفرادها. انظر أيضًا: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 345.

في ما يتعلق بالشجار المزيف بين العريس أو أهله من جهة، وأهل العروس من جهة أخرى، وألوان المعارضة التي يقوم بها أهل العروس كجزء من طقوس العرس، وكآثار باقية قد تكون ذات علاقة بزواج السبي قديمًا انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 438.

- إذا كذبتِ، فهذا عيب.

- إذا سرقتِ، فهذا عيب.

- إذا ضحكتِ كثيرًا، فهذا عيب.

شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]) كانت متزوجة من عبد درويش [126]، وهو أخو زوج أختها حلوة (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة علي درويش [125])، وكان على الأختين أن تعيشا في المنزل نفسه. وقبل أن تغادر شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]) بيت أبيها، قال لها أبواها، بحسب حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«اعتني بنفسك وبزوجك! ولا تدعي النساء يدنسن غطاء رأسك (إتخليش إنِّسوان يزبلن في خرقتش)[31]. كوني فطنة، لا تكوني حمارة (أي لا تكوني غبية)! وستكونين مع أختك؛ فلتحرص إحداكما على الأخرى!»

والنصائح التي تقدمها نساء القرية للعروس قبل رحيلها إلى مكان غريب، لها أهمية خاصة.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «إذا كنتِ غريبة، فيجب أن لا تكلمي الرجال، ولا ترفعي ثوبك! ولا تجلسي مع الجيران، ولا تتبسمي للرجال! فسينال منك الرجال، سيحاولون. انتبهي! لا تتساهلي معهم! وإذا شتموك، أظهري لهم الغضب، واشتميهم واضربيهم - وأطيعي حماتك[32]! وصوني

---

(31) حرفيًا: يضع الزبل في غطاء رأسك. قد يكمن تفسير هذه العبارة في العادة التي بموجبها تملأ المرأة التي دنسها رجل ما غطاء رأسها بالزبل، لتعلن بذلك لأهلها الخزي والعار اللذين لحقا بها؛ فيفهم أهلها من ذلك ما حل بها ويعدون العدة للانتقام لها.

(32) انظر: Julius Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königilchen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 443, «تحصل العروس على نصائح جيدة، وقواعد للسلوك من أمها وأبيها وهم في الطريق، ثم يسلمونها [إلى بيتها الجديد] مع أطيب الأمنيات». ويُستشهد في إحدى الحواشي لاحقًا بالصفحة 70 وما يليها من المجلد الخامس عشر من كتاب الأغاني، وبالصفحة 128 من المجلد الثامن عشر، وبالصفحة 131 وما يليها من المجلد التاسع عشر من الكتاب نفسه. وفي إحدى الحواشي يستشهد المؤلف بكتابه: *Skizzen und Vorarbeiten* ويضيف المؤلف: «ومن الصيغ الدينية التي تستخدم ها هنا ما يتحدث عنه القرآن من أن =

نفسك في غربتك بين أقارب زوجك (أُستري حالتش في غربتش مع عيلتش)، لا تتخاصمي مع الناس! لا ترددي الكلام (أي لا تنقلي الأحاديث)! حبل أهلك شعرة، وحبل زوجك من حديد (كيد الأهل غُمَّة أُو كيد إلجوز حديد)!».

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «اذهبي في أمان الله (مع السلامة في جيرة الله)! كوني حريصة في حياتك كغريبة (ديري بالتش لغربتش)! لا تسمحي لأحد بأن يتكلم عنكِ، ولا تدعي النساء يسخرن منكِ! النساء يتملقنك إذا كنت حاضرة، غير أنهن عقارب تلدغ. وفي ما يتعلق بالرجال، كوني فطنة وعفيفة! وعلى الغريبة أن تكون مثالية. دعي الناس يقولون: فلتحيا هي والبيت الذي أتت منه! نعمت المرأة! ولا تحمليهم على قول: عليها اللعنة».

ثم يحين دور الرجال لإبداء النصيحة، وتكون قد حانت حينئذ اللحظة الحاسمة لمغادرة العروس بيت أبيها.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «يدخل أبوها، ويسأل: «هل انتهيتن من كل شيء؟»، فتجيب النساء: «انتظر قليلًا! اخرج!» وعندما يسمعون غناء النساء، يذهب لها أبوها وعمها وخالها أو أخوها».

وعندما يقتربون من العروس، يلتفتون للحضور، ويقولون، كما تروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «لها بيت أبيها، ولا يستطيع أحد أن يدوس على حاشية ثوبها (أي يهينها)؛ (إلها دار أبوها ماحدا بيقدر يخبط عَطرفها)».

= الزواج ميثاق الله». ويستشهد بالآيتين الخامسة والثلاثين من سورة البقرة، والخامسة والعشرين من سورة النساء، وبسيرة ابن هشام (969، 6)، وبالصفحتين 14 و145 من المجلد الأربعين من كتاب الأغاني. انظر كذلك الآية الثالثة عشرة من الإصحاح العاشر من سفر طوبيا [أحد الأسفار الأبوكريفية أو الأسفار القانونية الثانية التي تأخذ بها الكنيستان الأرثودكسية والكاثوليكية]، والآية الستين من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين. انظر كذلك إحدى أغاني العرس التي استشهد بها ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 141,

«أيتها العروس، لا حاجة لك بوصيتي: لا تدعي أحدًا يشكو منك في البيت. هذه حماتك، أحبيها وأجلّيها. هي في مقام أمك التي ربتك».

ويقولون للعروس: «لعله يكون كما تتمنين! نحن جِمالك (أي ستتحمل أعباءك وأحزانك)! لحانا على كيسك، أي لك ما لنا. نحن لم نعطك لأي كان، لقد أعطيناك لأناس معروفين يمكننا أن نركن إليهم (مرحبا بتش، لحانا على تشيستش، إحنا جمالتش، إحنا ما أعطيناتشيش لناس حيا الله إحنا أعطيناتش لناس مشهورين، ناس مرتشنين عليهم))!»[33].

ثم أضافت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في ما يتعلق بالفتيات اللاتي يغادرن بيوت آبائهن عرائس:

«إنهن يأخذن حقوقهن معهن».

وتعني بهذا أنهن يأخذن ملابسهن وأشياء أخرى من بيوت آبائهن، توضع هذه الأشياء عادة في صندوق يخص العروس وحدها، وهي وحدها تملك مفتاحه.

العروس تترك بيتها

روت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي عن كيفية اصطحاب العروس من بيت أبيها:

«يمسك عمها بذراعها، و يمسك خالها بذراعها الآخر، وهكذا تخرج من بيت أبيها».

وتتبع النساء العروس التي تقاد إلى الجمل الذي ينتظر خارج بيتها، مغنيات عن حب العروس لأعمامها وأخوالها.

«أيا سعدة، خرجت تغني (يا سعدة طلعت تغني

---

(33) قارن مع موسِل في: Musil, *Arabia*, p.188.
عندما يصف كيف تؤخذ الفلاحة من بيتها كعروس، فيقول لها أبوها: «قفي يا ابنتي! حقًا هذا هو العبء الذي يجب على الناس أن يحملوه؛ أعطيك عشرين مجيدي..»، ويقول المؤلف عن عروس بدوية في الصفحة 205 من المرجع المذكور: «عندما يأخذها موكب العروس تصرخ قائلة: 'يا أخي، يا أبي..' تفعل ذلك أدبًا، لكي لا يُقال إنها تغادر خيمة أبيها مسرورة».

من قصرها إلى بيت تعيس
وقالت: أيا عماه! يا علي
إن صوتك ليزيل همي»

من قصرها للغباني[34]
قالت يا علي يا عمي
عَجِسَّك بزول همي)

وبحسب الأغنية، يجيب العم قائلًا:

«اركبي ولا تخافي
ما دامت عمامتي على رأسي
وما دام سيفي طويلًا»

(إرتشبي لا تخافي
ديميتو شاشي عَراسي[35]
أو ما دامو سيفي طويل)!

وعم العروس هو من يقود الجمل في الغالب.

وتعتقد النساء أن أفكار العروس تحوم عندئذ حول ذكرياتها في بيت أبيها، وهي توشك أن تغادره؛ فهي تتذكر كيف كان حالهم إذا ما أتاهم الضيوف، فعندما كان يأتي خالها، كانت تصعد إلى السطح، كما كانت تفعل كلما أتاهم ضيف عزيز، وتستقبله بأغنية.

«أيا سعدة، صعدت لتزغرد
من قصرها إلى الحجرات العُلى
قالت: يا محمد، يا خالي
لقد زادوني دلالًا إذ سمعوا صوتك

(يا سعدة طلعت تلالي
من قصرها للعلالي
قالت يا محمد يا خالي
عَجِسَّك زادوا دلالي).

هكذا تغني النساء إلى أن يصل الموكب إلى الجمل الذي ينتظر خارج بيت العروس.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «ويرفعها والدها، ويركبها الجمل»[36].

(34) «المكان المهمل» أو «المكان المهجور في الجبال».

(35) انظر: Ulmer, «Südpalästinensische Kopfbedeckungen,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 47.

(36) بحسب ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 186f., =

ويعض المشاهد التي تتعلق بجمل العروس تستحق الملاحظة؛ فإذا كانت العروس ستذهب إلى مكان غريب، يأتي أحد زنوج القرية مسرعًا ليطلب تعويضًا من العريس وأهله. وربما كان هذا التعويض أصلًا حقًا لعبد البيت، ثم نشأت من ذلك عادة دفعه لأحد زنوج القرية، وهذا المال يدعى (إحدادة)، وكنت استشهدت برواية حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن هذا في سياق آخر(37).

وحدثتني حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أيضًا أن الرجال يتنافسون عادة حول جمل العروس في شرف إعداد عشاء العروس (عشا إلعروس)، أو الوجبة التي سوف يتناولها العريس والعروس معًا في وقت متأخر من مساء يوم عرسهما.

فقالت: «بينما هم يسرجون الجمل، قبل أن تركب العروس، يربط الرجال مناديلهم على رقبة الجمل، ويكون هناك في الغالب أربعة أو خمسة مناديل. وعندما تمتطي الجمل، ويبدأون بالمسير، يهدد الرجال بطلاق زوجاتهم إذا لم يسمح لهم بإعداد «عشاء العروس». ويقول كل منهم: «عشاء العروس علي (عشا إلعروس علي)!» وينتظرون من أحدهم أن يحسم الأمر، فيقول رجل لأحدهم: «أخلف الله لك!» - ويطلب من النساء أن يغنين للخلف!»

«أخلف الله لك ضعفًا من الخير يا علي (خلف الله عليك بثّاني يا علي

= تُرفع العروس في الريف المغربي إلى ظهر الدابة عند بعض القبائل بمساعدة «أخيها، أو ابن عمها، أو عمها، او امرأة قوية من عشيرتها، ولكن، عند قبائل أخرى، يساعدها رجل من أهل العريس، أو أحد أصدقائه العزب». ويقول في الصفحة 172 من المرجع المذكور: «يحمل أخو العريس العروس المتنحية من باب البيت إلى السرج». ويحسب موسِل في: Musil, *Arabia*, p. 205,
عند البدو، يجب على خال العروس أن يجلس خلفها ممسكًا بها على الجمل «كي لا تهرب».
وعن ضرورة بكاء العروس ونحيبها بمرارة شديدة حفاظًا على كرامتها عندما تركب على ظهر الجمل لتقتاد إلى مضارب زوجها، انظر: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 150f.

(37) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 124.
وفي المغرب، بحسب ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 345,
«إذا كان على العروس أن تقطع نهرًا في طريقها إلى بيتها الجديد، يطلب أهلها من أقارب العريس مالًا، لأنهم سيأخذونها بعيدًا جدًا».

أخلف لك مرتين لا مرة واحدة	بدل إلخلف خلفين
يا ذا الوعاء الطافح	يا أبو المنسف إلرَّيَّاني
الممتلئ بأرز البحر	أو من رز البحر ملياني
تعلوه كومة من لحم الخراف»	أو مرَدَّدْ لحم خرفاني)

وعليٌّ هذا، هو الرجل الذي يرسل العشاء - طبق واحد للعريس وللعروس(38).

موكب العودة بالعروس

وموكب العودة بالعروس من بيتها شبيه بموكب الذهاب بالعروس إلى بيت زوجها؛ إذ يتقدم بعض المدعوين إلى العرس الجمل الذي يقوده أحد أصدقاء العريس، أو أحد أقرباء العروس، بينما يتأخر بعضهم الآخر عنه.

وفي معرض حديثها عن عرس شلبيه (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126])، قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «قاد أبوها الجمل من خطامه، (انظر الشكل رقم 18) من بيته إلى بيت زوجها، (من داره لَدار عيلتها)». وعندما جيء بفاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) عروسًا

---

(38) انظر: Adela Goodrich-Freer, *Arabs in Tent and Town* (London, 1924), p. 76.

وهناك بحسب حداد في: Elias Hadad, «The Guest-House in Palestine,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. II (Jerusalem, 1922), p. 282,

عادة مشابهة لدى الفلاحين عندما يصل ضيوف إلى القرية، ويدعون لتناول الطعام «يزاحم الناس بعضهم بعضًا في دعوة الضيوف، وغالبًا ما يكون هناك منافسة شديدة. ويسمى هذا النوع من الدعوات «مغالطة». وفي حال الاختلاف يجب على المختار، أو من يقع عليه الاختيار لهذه الغاية أن يُقرر... ومن يحكم له القاضي، يُخاطب بالكلمات التالية 'أخلف الله لك'. وتعد هذه الكلمات حكمًا نهائيًا. ثم يذهب الفائز بالمنافسة على الفور ليهيئ الطعام اللازم للوليمة كالأرز والخراف». ويشير عمر أفندي البرغوثي للأمر نفسه في: Effendi El-Barghuthi, «Judicial Courts among the Bedouin of Palestine,» in: *Studies in Palestinian Customs and Folklore*, I (Jerusalem, 1922), p. 9,

إذا كان هناك رجلان يرغبان بدعوة الضيوف أنفسهم، يقرر «القاضي الذي اختير ليحكم»، من مِن الرجلين سيولم إكرامًا للضيوف. أما في ما يتعلق بالمال الذي يطلبه خال العروس لها من أهل العريس بالقرب من جمل العروس انظر: Musil, *Arabia*, p. 189.

من بيت لحم إلى أرطاس، قاد عمها الجمل. وفي هذا العرس رأيت معارف العروس ينثرون عليها ملحًا وأرزًا من شرفة كانوا يقفون فيها[39]، وكان ذلك

---

(39) لا توجد هذه العادة في أرطاس، بل في بيت لحم، حيث رأيت الناس في أحد الأعراس ينثرون الملح على العروسين، حماية لهما من العين على حد قولهم، وينثر الأرز، وترمى الأوراق الخضراء، والحلوى كذلك. ويقول روتشتاين في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 121,

«ينثر بعض الناس الملح على رؤوس السائرين خوفًا من العين، ويمسك آخرون بآنية تحميص القهوة وفيها جمر وبخور ويرافقون العروس أو العريس، خوفًا من الحسد في كلتا الحالتين». ويروي باومان عن بلدة البيرة في: Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, p. 73,

«قبل أن يتحرك الموكب تحرق أمرأة مسنة دقيق الشعير، والملح، وحجر الشبِّ، في مقلاة أمام الموكب، وهي تردد الرقى». ويعلق بأن هذا لرد العين. انظر أيضًا: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 131f.,

«عندما يمر العريس في الزفة، تنثر النساء الطيبات ملحًا وشعيرًا على الطريق خوفًا من 'العين'». ويضيف في حاشية في الصفحة 131: «وكما يحرقون البخور أمام العريس...، كذلك ينثرون زبيبًا، وتينًا، وحلوى السكر، وما إلى ذلك، على الطريق، كما يفعلون في بيت جالا على سبيل المثال، عسى أن يكون الزواج حلوًا. وخلافًا لذلك، ينثر العدو طحينًا على الطريق...، لكي يربط العريس (يُرْبُط أو يُعقَد)؛ أي يسلبه القدرة على الانجاب. ويحصن العريس نفسه بإلصاق مزمور [من سفر المزامير في العهد القديم] على جسده...». ويحسب أينسلر في: Lydia Einsler, «Das böse Auge,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XII (Leipzig, 1889), p. 208,

فإن رمي الحبوب والملح في العرس هو تعويذة ضد العين. وكذلك في سورية، بحسب فان كاستيرن في: J. P. Van Kasteren, «Aus dem «Buch der Weibers»,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XVIII (Leipzig, 1895), p. 49.

ويروي كوندِر في: Claude Reignie Conder, *Heth and Moab Explorations in Syria* (London, 1885), p. 293,

كيف أن المارونيين «يرشون العروس بالذرة والزبيب عندما يأخذونها إلى بيتها الجديد».

ويقول ويسترمارك في عمله الموسوم بالعنوان: Westermarck, *The History of Human*, p. 470,

إنه أمكن تتبع جذور طقوس نثر شيء من الحبوب أو الفواكه على العروس إلى الهندو-أوروبيين البدائيين. ويضيف في الصفحة 470 وما يليها: «لقد وجد أن هذه العادة، أي عادة رمي الحبوب أو الفواكه على العروسين، أو على العريس وحده، أو حتى على موكب العرس، كانت سائدة من الهند، والهند الصينية، وجزر الأرخبيل الهندي في الشرق، إلى المحيط الأطلسي في الغرب». وبعد أن يستعرض هذه العادة في بلدان وفترات مختلفة (مع الشواهد)، ويستعرض أهدافها، يخرج بالنتيجة الآتية في الصفحة 484: «إن الافتراض بأن عادة رمي الحبوب، والبذور والفواكه المجففة في الأعراس، أينما وجدت، نشأت ضمن طقوس هدفها الوحيد هو تعزيز الخصوبة، هو افتراض غير مبرر؛ فقد يكون ضمان الازدهار والوفرة، وتفادي الحسد، دوافع أساسية أخرى لهذه العادة بالسوية». في ما يتعلق باستخدام الملح كتعويذة =

عندما مررنا بأحد آخر البيوت في بيت لحم حيث انعطف الجمل إلى الطريق المؤدية إلى أرطاس. وسار الموكب فوق الجبال مرورًا بكروم بيت لحم نحو قريتنا. وفي الطريق، كان هناك سهل واسع، وفيه ركب الرجال خيولهم، ومن بينهم العريس، وبدأوا يتسابقون (انظر الشكل رقم 21). وفي طريق العودة، يرقص الرجال أيضًا في موكب العرس. ويرقص شاب بمفرده أمام الجمل، ويتجمع شباب آخرون في مجموعات ليرقصوا معًا، وحتى الرجال الكبار يمكن أن يرقصوا، بالسيوف أو بدونها، وأحيانًا يستعاض عن السيوف بالعصي؛ لأن الحكومة لا تميل إلى السماح باستعمال السلاح[40]. ويحب الرجال الرقص على نغمات الناي (انظر الشكل رقم 22). وطوال الوقت، تغني النساء الأهازيج، ويصفقن بأيديهن، ويطلقن الزغاريد «زغاريت» غير مرة. ويكون الحماس عظيمًا؛ فالناس في موكب العرس يعودون منتصرين[41]؛ إذ تمكنوا من قهر الصعاب كلها، وهاهم يعودون بالعروس التي ظفروا بها بشق الأنفس، وجعلوها تتوسطهم معتلية الجمل!

وباشتمالها بالكامل بخمارها السميك وبعباءة لا تسمح لأحد بأن يخمن هيئتها، تبدو العروس كحزمة كبيرة (انظر الشكل رقم 18-20)، ولكنها بهذا تُصان من العين؛ إذ لا يمكن لنظرة أحدهم، مهما بلغت حدتها، أن تنفذ من هذا الغطاء[42]. وطلبًا للسلامة، جرت العادة أن تُحمل مذراة أمام العروس،

= ضد السحر والأرواح الشريرة، أو العين، انظر الصفحة 502 من الجزء الثاني من المرجع المذكور.

(40) في ما يتعلق بالرقص باستخدام السيف في مواكب الأعراس انظر على سبيل المثال: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 53, and Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 139,

(عن سوريا).

(41) في ما يتعلق بأغاني الأعراس التي تحوي نبرة النصر انظر: Baldensperger, *The Immovable East*, p. 272.

(42) في ما يتعلق بعادة تغطية العروس بثياب رجل، عندما تؤخذ على ظهر الجمل إلى بيت العريس، تكون في كثير من الأحيان عباءة يقدمها العريس إلى أبي العروس عند عقد القران انظر: Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village*, p. 126f.,

وانظر أعلاه في الصفحتين 26 و68، وأدناه في الحاشية الأولى في الصفحة 390 من هذا الكتاب.

انظر أيضًا: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» = *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 98.

تُعلق عليها ثياب نسوية حسنة، ويُفعل الشيء نفسه في موكب الختان، أو عندما يرقصون على سطح بيت قد أتموا بناءه لتوِّهم.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن موكب ختان:

«تُعلق ثياب عروس على مذراة، وتُحمل معهم في الموكب، وتكون غاية في الجَمال، ومن لا يعرف أنها مذراة في ثياب، يظن أن التي تتراقص عروسًا. وينظر المرء إليها، وينصرف نظره عن الأطفال (في موكب الختان)».

ويبدو من تفسير عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أن المذراة التي تُلبس في موكب العرس، هي عروس زائفة، لغرض درء الأخطار الغامضة التي قد تتهدد العروس(43).

= وتنتشر عادة إلباس العروس ملابس رجل في عرسها خارج فلسطين، وهناك في المقابل حالات يرتدي فيها العريس ملابس المرأة. وقد قيل أن الغاية من هذه العادة هي حماية العروس والعريس من العين، وخداع الأرواح الشريرة. انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 519ff.

وتستحق نظرية كراولي (Crowley) المسماة «التلقيح»المذكورة في كتابه الوردة المبهمة: *The Mystic Rose* (London, 1902), p. 371f.، التفاتًا خاصًا؛ فبحسبها يرتدي العريس أو العروس ملابس بعضهما بعضًا بغية تقليل الخطر الجنسي من خلال ارتداء نوع الملابس نفسها التي يرتديها «الإنسان المحبوب والمهاب»، وكلما عظُم التشابه بينهما، كلما كان أدعى لاضمحلال الخطر. أما أنا فأعتقد أن عادة اشتمال العروس بعباءة أو ثوب قدمه العريس، هو في المقام الأول دلالة على الزواج. ويقول بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 150,

بعد أخذ أهل العريس للفتاة بالقوة إلى الجزء المخصص للنساء من خيمة أبيها «يلقي أحد أقارب العريس عباءة، أو كساء رجل، عليها في الحال، ليشتملها تمامًا، ويقول 'لن يغطيك أحد سوى فلان' ويذكر اسم العريس». ويقول المؤلف إن هذه العادة تشيع بين بدو سيناء، إذا كانت العروس من قبيلة أخرى، غير قبيلة العريس، ولا يفعل ذلك، كما يشير في الصفحة 152، إذا كانت العروس أرملة أو مطلقة. إلا أنه من الواضح، أن هذا هذه الطقوس تشبه الطقوس الموصوفة في الآية التاسعة من الإصحاح الثالث من سفر راعوث «... فابسط ذيل ثوبك على أمتك لأنك ولي». انظر أيضًا الآية الثامنة من الإصحاح السادس عشر من سفر حزقيال، حيث يرى يهوه صهيونَ كعذراء عارية فيلقي ثوبه عليها ويدخل في ميثاق معها؛ أي ليتزوجها. انظر مقالة فيلهاوزن المثيرة للانتباه والموسومة بالعنوان: Julius Wellhausen, «Zwei Rechtsriten bei den Hebräern,» in: *Archiv für Religionswissenschaft* (Leipzig, 1904), vol. VII, pp. 33-41.

في ما يتعلق بفكرة أن الزوجة هي ثوب زوجها، وأن الزوج هو ثوب زوجته انظر أدناه في الصفحة 557 من هذا الكتاب.

(43) هذا التمثيل لهيئة للعروس، والذي يسمى أيضًا «ظرافة»، يذكر في كثير من الكتابات عن الأعراس في فلسطين، انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» =

ولكن شكل هذه المذراة، وقد علقت عليها الثياب، وهي تتأرجح عاليًا فوق رؤوس الناس في الأعراس، أو في احتفالات الختان، أو عند الرقص على سطح بيت حديث البناء، تذكرني كثيرًا بشكل الراية؛ حتى إنني تساءلت: أكان شكل الراية في أصله هكذا؟ أي عصًا علقت عليها ثياب، وهل كان الغرض من الرايات في الأصل كالغرض من المذراة التي أُلبست ثيابًا؛ أي جذب الانتباه، وإضعاف قوة العين قبل أن تقع على أهمِّ من في الموكب، وعلى الذين يسيرون في كنفها[44]؟ فنظرة العين الأولى هي الأشد فتكًا، وهكذا تكون قوة الشر اضمحلت، حتى وإن وقعت بعد ذلك على العروس. وهذه أيضًا هي الغاية من وضع ريش النعام على رأس العروس؛ فهم يعتقدون أن في تموجها مع حركات الجمل حماية للعروس من العين أيضًا؛ لأنها ستلفت حتمًا النظر إليها أولًا، قبل أن تقع على العروس ذاتها[45].

= *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 120ff.; Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuchein Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 116, 131; Stewart Macalister and E.W.G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII (London, 1905), p. 348; Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating*, p. 186; Wilson, *Peasant Life*, p. 113f., and Grant, *The People*, p. 55.

ويروي فان لينب في كتابه: Van-Lennep, *Bible Lands*, p. 551f.,
أن العريس في فلسطين يقود في يده صبيًا صغيرًا يرتدي ما يرتديه هو تمامًا، ويسمى 'العريس الزائف'. ويتقليد هذا 'العريس الزائف' لحركات العريس بدقة يصرف انتباه الناس عن العريس الحقيقي، وبهذا يجنبه بهذا نظرة العين الحاسدة. وفي ما يتعلق ببديل للعريس يظهر بوضوح أن الغاية منه حماية العريس من همزات الشر انظر أدناه الصفحة 99 وما يليها من هذا الكتاب. ويعد العريس الزائف والعروس الزائفة وسائل لتجنب الأخطار المبهمة التي يعتقد أنها قد تتهددهما. وهناك سبب مشابه لعادة مرافقة شخص أو أكثر، للعروس والعريس، وهم يرتدون ثيابًا تشبه ثيابهم، وهي عادة وجود إشبينة العروس وإشبين العريس. ولا تنحصر مهمة الإشبينة والإشبين بالاعتناء بالعروس والعريس، بل لحمايتهما من همزات الشر. انظر: Crwoley, *The Mystic*, p. 301ff., and Westermarck, *The History of Human*, p. 521ff.

(44) لحديث عن الرايات المستخدمة لتبجيل شخص ما، أو حتى لتبجيل الله انظر أدناه في الصفحة 297 من هذا الكتاب. وفي ما يتعلق برايات الفرح في الأعراس عند البدو انظر: Musil, *Arabia*, p. 197.

(45) وللسبب نفسه، يوضع ريش النعام وخرزات زرقاوات على الأولاد الذين يمتطون ظهر الحصان في موكب الختان. كما يثبت ريش النعام للسبب نفسه على مقدمة السيارة، وتقلد الجمال والأحصنة خرزات زرق. والسيدة ليديا أينسلر خبيرة في وسائل الحماية من العين في فلسطين. ولديها مجموعة رائعة - حوالى 600 تميمة - ووصف لدلالاتها واستخدامها. انظر أيضًا: Einsler, «Das böse Auge,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 200ff.

كما يملك السيد ت. كنعان مجموعة من التمائم الفلسطينية.

الشكل الثامن عشر: العروس تركب ظهر الجمل الذي يقود أبوها خطامه

الشكل التاسع عشر:
العروس راكبة على ظهر الجمل

الشكل العشرون:
الجهاز يتبع العروس على جملها

الشكل الحادي والعشرون: سباق الرجال

الشكل الثاني والعشرون: عازف الناي والراقصون (مؤدو الدبكة)

ويمكن رؤية ريش النعام في الأشكال ذات الأرقام 16 و17 و18. ويمكن للمرء أن يرى في الشكل رقم 18 كذلك أن العروس تحمل سيفًا أمامها.

ومنذ زمن بعيد، كانت العادة في أرطاس، أن تحمل العروس سيفًا أمامها عندما تركب الجمل، ولا يجوز بالطبع أن تظهر يداها؛ فهي تسترهما جيدًا بالخمار أو بالعباءة.

وقد يتبادر إلى الذهن أن السيف هو أيضًا للحماية من العين، إلا أنني لم أسمع النساء يقلن هذا[46].

وكلام حمدية (ابنة سليمان سند [183]) يشير إلى أن هذه العادة قد يكون لها مغزى ديني؛ فعندما سألتها لمَ تحمل المرأة سيفًا، قالت: «دين محمد [عليه الصلاة والسلام] قام بالسيف!» لكنها لم تستطع أن تفسر تلك العادة تفسيرًا أوضح. وبوجه عام، يميل الناس إلى ربط هذه العادة بالصراع السياسي بين حزبي قيس ويمن[47]؛ فقد وصل تأثير الاختلافات بين هذين الحزبين حتى إلى

(46) على سبيل المثال، يروي روتشتاين في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuchein Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 121, 135,

أن العروس تحمل سيفًا بين عينيها وأمام أنفها عندما تؤخذ من بيتها إلى بيت العريس، لكنه لا يفسر سبب هذه العادة. وكذلك يفعل كل من ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 121,

وباور في: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 108.

ويقول جوسان عن العروس عندما تؤخذ إلى بيتها الجديد على الجمل في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 53,

«وتحمل في يدها خنجرًا وتضعه أمام جبهتها لإبعاد العين» [ترجمة عن الفرنسية]. في ما يتعلق بالأسلحة المختلفة المستخدمة كتعويذة في الأعراس انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 499f.

(47) في ما يتعلق بقيس واليمن انظر: Granqvist, «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*,» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, p. 14f. n. 4, and Elias Haddad, «Political Parties in Syria and Palestine (Qaisî and Yemenî),» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. I (Jerusalem, 1921), p. 209ff.

ويقول باور في: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 98 n. 2,

«منذ قرون، انقسم سكان فلسطين إلى حزبين؛ قيسي ويمني، يناصب كل منهما الآخر العداء بوجه عام، وكانت شجارات دامية في ما بينهما سببًا للثأر مرارًا وتكرارًا. ويسري هذا الانقسام بين السكان على =

احتفالات الأعراس. ولكل حزب لونه: اللون الأبيض لحزب اليمن، واللون الأحمر لحزب قيس. وتلبس العروس دومًا لون قومها؛ فعروس أرطاس أو بيت جالا تلبس الأحمر دائمًا؛ لأن قومها ينتمون إلى حزب قيس، بينما تلبس عروس بيت لحم أو الخَضْر أو التعامرة الأبيض(48)، لكن أهل العريس يحملونها على خلع لون قومها ولبس لون قوم العريس في منتصف الطريق.

وفي السابق، كانوا يتدبرون الأمر على هذا النحو؛ تلبس العروس عباءة حمراء ذات بطانة بيضاء، ويكون اللون الأحمر للخارج إذا كانت من قيس، وتظهر اللون الأبيض إذا كانت من يمن. وإذا كانت العروس تنتمي إلى حزب غير حزب العريس، فلا بد أن يُناخ الجمل في الطريق إلى بيت العريس، وأن تقلب العروس العباءة لتغيير اللون؛ فبين الخَضْر وأرطاس مثلًا، كانوا يفعلون ذلك عند برك سليمان.

وفي الرواية الآتية، ذاع صيت تمام جاد الله (ابنة جاد الله عودة [2])(49)

= المسلمين والمسيحيين. ويسكن أكثر القيسيين في الجنوب، بينما يسكن أكثر اليمنيين في الشمال، وثمة قرى يسكنها أعضاء من كلا الحزبين. وتوجد زعامة المسلمين اليمنيين في أبي غوش، بينما توجد زعامة القيسيين في الراس بجوار الخليل».

(48) في ما يتعلق بألوان قيس ويمن انظر على سبيل المثال: Macalister and Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 345.

ويقول بالدنسبيرغر عن عروسين في الصفحة 121 من كتابه الشرق الذي لا يتغير (*The Immovable East*): «ولما كانت القرية تنتمي إلى قيس، فقد اسدلت المرأتان على وجهيهما خمارين أحمرين سميكين لا يُستشف من ورائهما شيء..»، وفي مقالته الموسومة بالعنوان: PhilipBaldensperger, «Women in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, vol. XXXII (London, 1900), p. 186,

يقول بالدنسبيرغر إن لون خمار العروس من قيس هو الأحمر، ولون خمار العروس من يمن هو الأحمر والأبيض. وعندما يقول ماكليستر في: Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement*, p. 29,

إن عروسًا في قرية زكريا ارتدت خمارًا أحمر اللون، يمكن أن نستنتج أن هذه القرية تنتمي إلى قيس.

(49) انظر: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 98f.,

«ويُعبَّر عن التباين القائم بين الحزبين في الأعراس، على سبيل المثال، من خلال ارتداء العروس القيسية اللون الأحمر، والعروس اليمنية اللون الأبيض. وإذا ما تزوجت عروس قيسية في قرية يمنية، فإنها تُشتمل برداء لونه أحمر من الخارج ثم تحمل على جمل، وما إن تصل إلى مكان سكنها لمستقبل أيامها، حتى يوعز العريس الذي ينتظرها هناك إلى أقاربه أن يخلعوا عنها رداءها قسرًا، في ما يبدو، ويقلبوه =

التي تمكنت من الوصول عروسًا بألوان قيس إلى قرية الخَضْر المجاورة التي تنتمي إلى حزب اليمن.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «السيف يحمي العروس ممن يحاول أن يقلب خمارها (إلى وجهه الآخر). لقد أخذوا تمام جاد الله (ابنة جاد الله عودة [2]) عروسًا إلى الخَضْر، وكانت تلبس لون حزب قيس، وحين وصلوا إلى منتصف الطريق عند البرك، أرادوا قلب خمارها إلى الوجه الآخر. (وصاح أهل أرطاس): «انتبهوا!»، وضربت الرجال بالسيف، وجرحت اثنين منهم؛ [فقالوا]: «اللعنة على أهلك! جرحْتِنا!» لقد دافعت عن نفسها. وفي اليوم التالي ركبت الجمل مرة ثانية بخمارها نفسه بلون قيس، وصفقوا حتى وصلت إلى بيتها. وقال أقرباؤها (أهلها) وأقرباء زوجها (عيلتها): «نعمت المرأة!»»

ولربما كان في كثير من الأماكن بطلة كهذه، أو أكثر، يتفاخرون بالحديث عن فعالهن. وحدثتني معلمة من بيت لحم، كنت التقيتها عرضًا في القدس، كيف أن عروسًا جيء بها من بيت لحم إلى بيت جالا، شقت طريقها وهي تلوح بسيفها بشجاعة حتى وصلت بلون حزب اليمن إلى بيت جالا التي تنتمي إلى قيس، والتلحميون يهللون فرحًا بابنتهم الشجاعة. ولهذه الروايات أهمية بالغة؛ لأنها تبين كيف تتشبث الزوجة بموطنها، وبأهلها وبمصالحهم.

وهذه الفكرة نفسها تظهر على نطاق أوسع في الروايات المتعلقة بالمرأة

= ليظهر وجهه الداخلي ذو اللون الأبيض؛ أي إنه يجعلها تقبل بالثوب الأبيض». انظر أيضًا: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent*, p. 130.

«لا يسمع في هذه الأيام الكثير عن الصراعات القديمة إلا عندما يتزوج القيسيون واليمنيون من بعضهم بعضًا؛ إذ على العروس أن تقبل بحزب زوجها، وعندما تذهب من قرية إلى أخرى، يُحضر الزوج ثوبه 'الهديني' الجديد و'قمبازه' الحريري الذي يكون مبطنًا بالأبيض إذا كان قيسيًا، وهو ما تسدله خمارًا على رأسها، ووجهه الأحمر إلى الخارج إذا كان أبوها قيسيًا، أما إذا كان يمنيًا، فالأبيض. وعندما يغادر الموكب القرية، تجعل الأم ابنتها في حماية الشيخ، وعندما يصلون إلى القرية التي تنتمي إلى الحزب الآخر، يخرج بعضهم ويحاول قلب ردائها، وينبغي على أهلها أن لا يسمحوا بذلك، لأن الناس سيرون وجهها إذا ما قُلب 'القمباز'».

في العهد القديم؛ فالزوجات الغريبات يشعرن بأنهن لا يزلن ينتمين إلى أقوامهن(50).

ومع أنه الآن، في أيام الصهيونية والحكومة المركزية القوية في فلسطين، لم يعد حزبا قيس واليمن يقتتلان، أو نادرًا ما يفعلان، فإن ذكريات الصراع بينهما تبقى حية في هذه العادات؛ إذ ما زال أهل أرطاس يعتقدون أنه من غير اللائق أن يؤتى بعروس تنتمي إلى حزب اليمن إلى القرية في لباسها الأبيض. وقد علق بعضهم على أن عروس عيسى خليل [11]، فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) جاءت إلى القرية بثوب أبيض، وإن كانت مسدلة خمارًا أحمرَ على وجهها، وأعربوا عن استيائهم؛ لأنها لم تجبر على تغيير اللون. وقال الناس: «ما كان ليحدث شيء كهذا في الأيام الخوالي، ولكن العادات الحسنة كلها تتلاشى، وتغيرت الأيام نحو الأسوأ».

وعندما جاء محمد يوسف [149] بعروسه سعدة درويش (زوجة محمد يوسف [149]) من الخَضْر في خريف عام 1926، أشيع قبيل ذلك العرس بأن شغبًا سيحدث، وعندما أُخرجت العروس بثوبها الأبيض، كانت هناك غمغمة وتبرم عن قيس ويمن بين الحضور، إلا أن صراعًا لم ينشأ من ذلك؛ إذ كانت السلطة المحلية أرسلت شرطيًا إلى المكان. وعلقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة: «وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يحضر فيها شرطي عرسًا لحفظ الأمن في هذا الجزء من البلاد». وبعد فترة وجيزة، في السنه نفسها، عندما كانت عروس من صُورِيف التي ينتمي أهلها إلى حزب قيس، ستستبدل بعروس من جِبَع التي ينتمي أهلها إلى حزب اليمن، نشأ شجار عنيف، قيل فيه كلام كثير في أرطاس؛ لأن أحمد إسْمَعين [52] استدعي ليقضي بينهم.

---

(50) ولهذا، على سبيل المثال، وقفت زوجة شمشون إلى جانب 'أبناء جلدتها' ضد زوجها (الآية الخامسة عشرة وما يليها من الإصحاح الرابع عشر من سفر القضاة). انظر كذلك الآية الخامسة وما يليها من الإصحاح السادس عشر من سفر القضاة. وكان الزواج من غريبات خطرًا شديدًا، لبقائهن على دينهن، فلربما كنَّ سببًا في ترك الزوج عبادة يهوه. ويذكر بوضوح أن زوجات سليمان سُمح لهن بالإبقاء على آلهتهن وأن: 'زوجاته أملن قلبه نحو آلهة أخرى' (الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «أراد أهل جِبَع وأهل صُورِيف أن يكون بينهما نسب (بدهم يتناسبوا). وشاء الله أن يكون هذا، وقالوا: «سنلتقي يوم كذا وكذا في الوادي بين جِبَع وصُورِيف». ووضع كل عريس منهما أخته على جمل، ثم تبع كلًا منهما موكبه، وعندما التقوا، أرادوا أن يضعوا فتاة صُورِيف على جمل جِبَع، وفتاة جِبَع على جمل صُورِيف؛ فقال أهل جِبَع: «يجب أن لا تركب جملنا إذا لم تلبس ثياب (عروس) حزب اليمن!» وقال أهل صُورِيف: «لن يحدث هذا!»».

وأصيب كثيرون في القتال الذي وقع[51]، وانتهت بأن أخذ أهل صُورِيف كلتا العروسين إلى قريتهم. وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «وكانت الغلبة لقيس، وسوي الأمر في ما بعد، وتبين أن أهل جِبَع كانوا المذنبين».

وكانت العادة تقضي، في ما مضى، أنه إذا مر موكب عرس بقرية تتبع حزب العريس وقومه، فعلى هذه القرية أن تدعو كل من هم في موكب العرس إلى وليمة. ولهذا، كان موكب الإياب يستغرق وقتًا طويلًا. وهكذا، فإن على أهل بيت جالا أن يدعوا أهل أرطاس إلى وليمة إذا مروا بقريتهم في موكب عرس، وعلى أهل أرطاس أن يعاملوهم بالمثل إذا مروا بأرطاس في رحلة كتلك، على الرغم من أن أهل بيت جالا مسيحيون، فالتضامن السياسي هنا أهم من اختلاف الأديان. وفي الماضي، كانت هناك مباريات في الرماية في الأعراس، وإفراط في ملح البارود.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «عندما تخرج (العروس) من بيت

---

(51) يقول ماكليستر في: Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement*, p. 30,

إنه عادة ما يقع شجار عند التقاء موكبي عرس من مكانين مختلفين. وأظن أن هذا يحدث عندما يكون الموكبان من حزبين سياسيين متناقضين. ويضيف المؤلف: «في آخر العرس الأخير، أصيب بعض الناس بجروح خطيرة، وما زال عدد ممن شارك في الحدث في السجن». وعندما جيء بعروس من بيت نتيْف ذات مرة، قتل رجل من قرية زكريا. ويروي غودريش فرير في: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent*, p.130f.,

عن قتال وقع عند وصول موكب عرس لبلدة رام الله المسيحية، والسبب في ذلك أن أهل العروس من قيس بينما أهل رام الله من يمن. وقد استدعي الشيوخ من قرية البيرة المسلمة المجاورة ليصلحوا بينهما.

أبيها، يظهرون امتنانهم له، ويبدأون بإطلاق البارود والخرطوش. ويشتري العريس أرطالًا من البارود والخرطوش. ويقال: «هيا يا شباب! فلنذهب ونتدرب على الرماية بالبندقية على الأهداف!» وعندما يدخل العروسان إلى بيت العريس، يذهب الشباب للرماية على الأهداف»[52].

ومواكب الأعراس كلها متشابهه بوجه عام، ولكنها قد تختلف في ما بينها في التفاصيل؛ فليست المراسم كلها بالأهمية ذاتها، ويمكن أن يترك الناس بعضها. وعلى أي حال، من الواضح أن الأعراس التي ينتمي فيها العريس والعروس إلى الحزب نفسه، إما قيس وإما يمن، لا يحدث فيها خصام سياسي. وبوجه عام، تكون الأعراس أكثر بساطة[53] عندما يكون العريس والعروس من القرية نفسها؛ إذ يستغنى عن الموكب المهيب إلى بيت العروس. وإذا كانت المسافة بين بيت العروس والعريس قصيرة جدًا، يسير الناس في جولة قصيرة

---

(52) يُذكر التدريب على إصابة الهدف في الأعراس عند كل من: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 97; Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuchein Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 117, 132; Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement*, p. 31, and Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating*, p. 186.

في ما يتعلق بإطلاق النار عند مغادرة العروس بيتها انظر الصفحتين 121 و135 من المرجع السابق. ويقول غرانت في: Grant, *The People*, p. 58,

«وما إن تبين أن الطقوس قد انتهت، أطلق عيار ناري». وفي ما يتعلق بإطلاق النار في موكب العرس انظر الصفحتين 116 و132 من كتاب غرانت المشار إليه سابقًا. انظر كذلك: Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, p. 72f.; Wilson, *Peasant Life*, p. 110, and Conder, *Tent Work*, p. 323,

(الحديث عن الناصرة)
Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*. Neue Folge, p. 138f.

(الحديث عن سورية).
Musil, *Arabia*, p. 190, andRichard Francis Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Meccah*, II (London, 1855), p. 81.

انظر أيضًا أدناه في الصفحة 410 من هذا الكتاب.

(53) في ما يتعلق بزواج الأرملة أو المطلقة ضمن احتفال أقل من الاحتفال الذي يقام للبكر، انظر أدناه في الصفحة 92 و304 من هذا الكتاب. وانظر: Lane, *An Account of the Manners and Customs*, p. 215, 239; Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 152, and Snouck Hurgronje, *Mekka*, II (Haag, 1889), p. 155.

في القرية أو خارجها مع جمل العروس(54)؛ ليرقص الرجال أمام جمل العروس أو فرسها.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «لا ينبغي أن يعود الموكب من الطريق التي ذهب منها، ويسري هذا على ختان الأولاد وعلى العرائس، فليس ذلك محمودًا ولا جيدًا؛ فالدابة (التي يركبها الولد أو العروس) إما أن تموت، وإما أن ينشب بها شيء(55)».

ويزداد حرص الناس على الالتزام بمراسم الموكب عادة، إذا احتفل بعدة أعراس في القرية في وقت واحد؛ فيروي الناس بفخر، مثلًا، أنه كان في موكب العرس جملان أو حصانان أو أكثر تحمل العرائس.

---

(54) يروي باومان في: Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, p. 72,

أن موكب العرس في البيرة يذهب خارج القرية ثم يعود مرة أخرى. وفي ما يتعلق بأخذ الأصدقاء للعريس في جولة على ظهر الحصان حول القرية انظر: Wilson, *Peasant Life*, p. 111.

ويقول ماكليستر عن العروس في: Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement*,p. 31

«وبعد أن أُخذت في جولة في القرية، أُحضرت إلى بيت العريس». انظر أيضًا: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 138,

(الحديث عن سوريا)

(55) انظر باور في: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 228,

«ينبغي على العروسين أن يعودا إلى البيت من طريق تختلف عن الطريق الذي سلكاه لعقد القران في الكنيسة، حتى لا يعاجل الموتُ الرجلَ». ويذكر في هذا السياق أيضًا أنه وبحسب يلسون في: Wilson, *Peasant Life*, p. 114,

«في بعض أجزاء البلاد لا يجوز للعريس أو العروس عبور جدول لمدة سبعة أيام بعد العرس، لأن ذلك يجلب نحسًا عظيمًا، إذ إنه يقطع الذرية؛ فالمصطلح العربي الدال على عبور النهر هو 'قطع'».

وفي المغرب أيضًا بحسب ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 326,

فإن العروس في طريقها إلى بيت العريس «تؤخذ إلى نهر، وعليها أن تعبره على ظهر بغلها ثلاث مرات جيئة وذهابًا» حتى «لا تجلب الشر معها إلى بيتها الجديد». وفي المغرب أيضًا، ولغاية مشابهة، تدور العروس حول بيت العريس، أو خيمته، أو مسجد قريته، أو القرية نفسها. وتُقاد العروس عند بدو سيناء ثلاث مرات حول خيمة العريس، بينما يصرخ الحاضرون لموكب العرس بحسب بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 150.

ويكون الموكب أكثر مهابة، كما تقدم، إذا جيء بالعروس من مكان غريب. ولكن في حالة تبادل عروسين بين قريتين مختلفتين، يسير موكب من كل قرية لجلب العروس، آخذين معهم العروس التي من قريتهم، وعندما يلتقي الموكبان في منتصف الطريق، يوقف جملا العروسين ويناخان، وتستبدل العروسان. وقد حدث في تبادل كهذا أن وقع شجار بين أهل صُورِيف وأهل جِبَع، عندما حاولوا تغيير لون عروس قيس الأحمر إلى لون يمن الأبيض(56).

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كيف أمضى المدعوون ليلة في بيت أُمَّر لطول المسافة، عندما حُملت على جمل إلى صُورِيف في زواجها الثاني:

«مكثت أربعين يومًا في أرطاس بعد الخِطبة، وبعدها جاء الكوافنة إلى أرطاس ليأخذوا العروس. واشتروا أحد عشر رأسًا من المعز والخراف، وكيسًا من القمح المجروش، وكيسًا من الأرز، وكيسًا من الشعير للخيول(57)، وحزمتين من الحطب. وجاء الجمل من صُورِيف يحمل الأرز واللحم، وعاد يحمل عروسًا. وقلنا: «لن نصل إلى صُورِيف اليوم، سنمر ببيت أُمَّر، أي سنبيت هناك.» وأمضى حوالى 300 إنسان الليلة في بيت أُمَّر، وكان هناك عروسان: عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) من أرطاس، وحِسِن، وهي امرأة زنجية (العبدة) لزنجي أبي فرح».

عندما عاد بعض أهل صُورِيف بعليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عروسًا،

---

(56) انظر أعلاه في الصفحتين 392 و393 من هذا الكتاب. ويذكر بالدنسبيرغر في:
Baldensperger, *The Immovable*, p. 122,
كيف يلتقي موكبان لعرسين في القرية، وكيف أن قتالًا زائفًا يجري بين العريس وابن عم كل عروس من العروسين. وكانت العروسان ستتزوجان في عشائر أخرى. في ما يتعلق بقتال زائف بين أخي العروس أو عمها والعريس في المغرب انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 346.
وترمى الحجارة على مواكب الأعراس لإبعاد همزات الشر بحسب الصفحة 191 من المرجع المذكور. وفي أنجرة قيل للمؤلف «إن هذا اللقاء سيتسبب بموت إحدى العرائس».

(57) انظر أدناه في الصفحة 315 من هذا الكتاب.

التقوا في بيت أُمَّر مع آخرين من قريتهم جاءوا ليأخذوا عروسًا لزنجي أبي فرح.

«عائلة أبي فرح قالوا: «تعالوا من أرطاس إلى بيت أُمَّر! فالأغنام المعدة للذبح لموكب العرس هناك، ووليمة العروس (عزومة العروس) هناك»، وذهبنا معًا إلى صُورِيف: أنا إلى بيت الشيخ نوفل، وحِسِن [الزنجية] إلى بيت سيدها (أي سيد زوجها)».

وجرت العادة أن لا تركب الأرملة جملًا، وعليها أن تمشي طوال الطريق من بيتها إلى بيت العريس[58]. ومع أن عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كانت أرملة، فإنها حُملت على جمل؛ لأن القرية التي ذهبت إليها كانت بعيدة جدًا. وتباهى محمد محمود [35] بأنه جاء بزوجته فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) من قريتها أبوديس إلى أرطاس في عربة. وعندما أُخذت حمدة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]) في خريف عام 1926 إلى لِفتا عروسًا، ركبت على فرس في موكب العرس من بيت أبيها إلى السيارة التي كانت تنتظر على الطريق المؤدية إلى برك سليمان. وكانت أول عروس من أرطاس تُؤخذ في سيارة. وجلست العروس في السيارة الأولى. وعندما جيء بصبحة (زوجة سليم مسلَّم [199]) من دورا في شهر كانون الثاني/يناير من عام 1927 إلى أرطاس عروسًا، جاءت هي أيضًا في سيارة. وجلست العروس في السيارة الأولى يتبعها ثلاث سيارات أخرى تحمل أقاربها وأقارب زوجها. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يؤتى فيها بعروس إلى أرطاس في سيارة. وعندما وصلت إلى القرية، حملت على جمل، وأخذت إلى بيت زوجها؛ وهكذا يحاولون

(58) يذكر ماكليستر الأمر نفسه في: Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement*, p. 30.

ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 329,

إن العروس لا تحمل إلى بيتها الجديد على جمل إذا كانت أرملة أو مطلقة، بحسب عادات أولاد بوعزيز، بل تذهب إليه مشيًا.

أن يجمعوا بين القديم والجديد(59). ولما كانت المسافة من الطريق إلى بيت زوجها قصيرة جدًا، فقد ذهبوا في جولة قصيرة يرقصون ويغنون أمام الجمل.

---

(59) في ما يتعلق بركوب العروس الجمل في فلسطين انظر: Baldensperger, *The Immovable*, p. 121,

وفي الكتاب حديث عن تجهيزات العروس على الجمل. انظر أيضًا: Macalister, «A Day in a Fellah Village,» in: *Palestine Exploration. Fun Quarterly Statement*, p. 29.

أما في ما يتعلق بعروس فلاحة تمتطي مهرًا. انظر: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 121, 135, and Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 121,

ويقول فان غنب في: John Murray, *Bible Lands* (London, 1875), p. 551,

«في بلدات فلسطين ومصر تمشي العروس تحت مظلة، يحرسها من كل جانب رجل شاهرًا سيفه». ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 78f.,

«إذا كانت المسافة التي تفصل بين البيتين كبيرة، تركب العروس في سيارة، لتنقل إلى بيت زوجها» [ترجمة عن الفرنسية]. وفي مؤاب تؤخذ العروس على الجمل بحسب جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 53.

ويقول موسل في: Musil, *Arabia*, p. 188,

إن العروس عند الفلاحين تحمل على مهر، أو بغل، أو جمل. وفي سوريا (لبنان وسواه من الجبال) في الصفحة 138 من مقالة ليتمان المشار إليها سابقًا، تؤخذ العروس إلى بيت العريس على ظهر حصان أصيل. ويحسب لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 239,

تجلس عروس القرية في مصر على جمل. أما عند بدو سيناء فتركب العروس على الجمل وتُقاد إلى مضارب زوجها إن كانت من مضارب بعيدة بحسب بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 150f.

ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 191,

«تعد الدابة التي تمتطيها العروس ذات تأثير سحري عليها، في كثير من الأحيان». وقد تكون الدابة التي تمتطيها العروس بغلًا أو جملًا، أو مهرًا أو حصانًا. ويختلف هذا باختلاف المناطق في المغرب. في ما يتعلق بالعروس التي تحمل في صندوق مغلق [هودج] على ظهر الدابة، انظر الصفحة 189 من المرجع المذكور.

الفصل الخامس
في بيت العريس

وصول العروس

عندما يقترب الموكب من بيت العريس، يسبق العريس الضيوف ليكون مستعدًا أمام باب بيته عند وصول العروس.

وعندما جاء العريس عبد درويش [126] راكبًا يتقدم الآخرين إلى الساحة أمام بيته، استقبلته أخته حمدة (ابنة درويش محمد [119]، وزوجة رشيد موسى [142]، ومن بعده سليم موسى [143]) بأغنية ترحيب؛ إذ زغردت وغنت:

«يا ذا العباءة الواسعة (يا أبو شالت إلرُّوحراحي

بأزرار بحجم التفاح أُو إزرارها تفاحي

يا مرحبًا بعريسنا الذي أتانا يا مرحبا بعريسنا إللي أجانا

والمرحوم هو الذي ذهب» أو المرحوم يللي راحي)

وعندما وصلت العروس تركب الجمل، غنت لها أخته رحمة (ابنة درويش محمد [119]):

«يا مرحبًا وأهلًا (يا مرحبا أُو أهلا

بالعين الكحيلة بعوينت إلكحلا

يا نخلة طويلة
بين الحرم والصخرة»

(يا نخلِه طويلِه
بين إلحرم أُو الصخرة)(1)

وكانت أخت العروس حلوة (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة علي درويش [125]) التي تزوجت أخا العريس قبل ذلك، هناك أيضًا، وزغردت وغنت هي أيضًا لوصول العروس:

«مرحبًا بأحبائي
وتصهل مثنا مهرة حمراء
ومن لا تفرح بمجيئها
فلتنكسر كما ينكسر الزجاج»

(يا مرحبا يا عزازي
ميتين حمرا إتزازي
أُو إللي ما تفرح بجيتها
تتشسر تشسر إلقزازي)(2)

وإلى جانب الترحيب بالعروس، فإن في هذه الأغنية شيئًا من الوعيد لشقيقات العريس اللاتي لم يستبشرن بمقدم العروس. وكانت حلوة (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة علي درويش [125]) تعلم هذا، وأعلنت أنها ستقف إلى جانب أختها. وهذا «اللدغ» في أغاني الترحيب ليس بالأمر الغريب(3)، ويمكن أن يُقصد به الضيوف إذا كان بينهم أعداء يودون الأذية، أو حتى العروس ذاتها أحيانًا، إذا لم يكن أهل العريس يكنون لها المودة(4).

---

(1) يورد ليتمان صيغة مختلفة قليلاً لهذه الأغنية في: Enno Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge (Berlin, 1902), v. 3, p. 99.

لأغنية ترحيب مماثلة تغنيها والدة العريس للعروس انظر: M. Safi, «Mariage au Nord du Liban,» *Anthropos*, vol. XII-XIII (Wien, 1917-1918), p. 141.

(2) انظر ليتمان في: Littmann, Ibid., p. 97, n. 4,
«فلتنكسر قلوب الأعداء».

(3) يُقال، على سبيل المثال، في إحدى أغاني العرس التي يوردها ليتمان في المصدر نفسه، ص 127: «فليأتِ الأصدقاء كلهم ليتمنوا لي الخير/ أما الأعداء فليتهم يبقون بعيدين ولا يأتون إلي». ونجد ما يشبه ذلك في أغنية عرس يذكرها ليتمان في الصفحة 122 من المرجع المذكور.

(4) بحسب ما قالت عليا (ابنة ابراهيم عودة [1]) فإن امرأة من جبع استقبلت ضرتها لدى وصولها عروسًا بالأغنية الآتية:

«ورأسك كالنتش (وراستش زي النتشة =

وأخيرًا، غنت زوجة أخي العروس، فاطمة (ابنة إبراهيم عايش [98]، وزوجة عيسى أحمد [121])، وزغردت لها:

«أنتِ طويلة كشجرة السرو	(طولك طول إلسَّرو
ويميل عنقك (لطوله)	أُو إلعنق مايل ميل
وخصرك لهَيَفِه	أو إلخصر من روقتا
استنفد القوة والقدرة»	هدُّ إلقِوى أُولحيلا)[(5)]!

دخول العروسين إلى بيت العريس

تظهر الصورة في (الشكل رقم 23) عبد درويش [126] واقفًا على الدرج مع والدته، وهو يحمل غصنًا أخضر، وكلاهما ينظر إلى العروس لحظة إنزالها عن الجمل.

وروت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي عما حدث بعد ذلك:

«أنزلها أخو زوجها، علي درويش [125]، عن الجمل، وأمسك بإحدى يديها، وأمسكت رحمة إنَّعيمة (زوجة يوسف شاهين [138]) باليد الأخرى، وعندما وصلت إلى الباب، أعطيت عجينًا خميرًا، أعطتها إياه حماتها، ثم ضرب (أي العريس) على يدها ثلاث مرات، ودخلا البيت. وهمَّ (الشباب) بضرب العريس فلم يسمح لهم محمد درويش [123]، وإبراهيم محمد خلاوي [114] بذلك. قالوا: نريد أن نترك هذه العادة (حرفيًا: نقطعها)، ولم يرق ذلك للشباب».

=

وخدودك [سمان] كالكرش	وإخدودتش زي التشرشة
أقسم بحياة كبار أهلك الخمسة	وحياة إتشبار اهلتش هالخمسة
ما نالنا منك إلا القلق»	ما نبلشنا فيتش غير بَلْشة)

(التتش نبات شوكي قصير ينمو في بلدان الشرق الأوسط ويسمى أيضًا البلان الشوكي) [المترجمتان]

وبحسب ليتمان في المصدر نفسه، ص 111: فإن امرأة أغاظت كنتها بالأغنية: «كنتي، يا زوجة ابني، لا يعجبني شيء فيك/ سوى حاجبيك المسوَّدان وزينتك/ ورائحتك النتنة أصابت ابني بالدوار». وفي أغنية أخرى يوردها ليتمان في الصفحة 112 من المرجع المذكور: «أزغرد لك زغرودة/ وليسمعها رب السماء/ فحتى لو نمت على رأسك شجرة / لن يتمكن أحد من إخراجه من البيت».

(5) يذكر ساريسالو هذه الأغنية بشكل مختلف بعض الشيء في: Aapeli Saarisalo, «Songs of the Druzes,» *Studia Orientalia*, vol. IV (Helsingfors, 1932), p. 26.

وهذه الرواية مقتضبة، إلا أن فيها حقائق عدة جديرة بالملاحظة. سأبدأ أولًا بمناقشة دخول العروسين إلى البيت، ودلالة العتبة، ومن ثم مراسم العجين الخمير، ومراسم الماء المتصلة بها، ثم عادة ضرب العريس العروس على يدها، التي ما إن ينتهي منها، حتى يضربه الشباب الحاضرون.

إن دخول البيت عند الفلاحين أمر خطير في كل وقت وحين؛ فالناس لا يتخطون العتبة قط إلا أن يقولوا (بسم الله) استعاذة من (الجن) الذين يحاولون دخول البيت معهم. وأولئك الذين لديهم القدرة على رؤية الجن، يرونهم متجمعين ليدخلوا مع الذي يفتح الباب، ولكن إذا ذكر اسم الله مُنعوا، أو أن المرء يقول «المعذرة (دستور)» عندما يتخطى العتبة؛ لأن الجن يسكنون هناك[6]. ولهذا، لا يدوس أحد العتبة أو يجلس عليها أبدًا[7].

---

(6) يورد جوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 339,

إحدى الصيغ المرتبطة بما يسمى «أضحية الخيمة» (ذبيحة بيت الشعر): «الإذن يا صاحبة المكان» (دستور يا صاحبة المحل). وتُذكر في الصفحة 342 من المرجع المذكور الصيغة نفسها في سياق الحديث عن «أضحية الدار» (ذبيحة الدار). ويشرح المؤلف الأمر في الصفحة 339 قائلًا: «أي، وكما يفسر العرب أنفسهم الأمر: أيها الجن الساكن في هذا الموضع، اسمح لي بالدخول إلى الخيمة والعيش فيها» [ترجمة عن الفرنسية]. وفي أرطاس ثمة أضحية تُذبح فوق عتبة البيت حديث البناء؛ إذ يُذبح شيء من النعم لكي يجري الدم على العتبة. وعلى الرغم من هذا كله، يجب على المرء أن يقول (دَستور) أو (بسم الله) عند دخوله إلى البيت في كل مرة لتلافي الجن. في ما يتعلق بلفظة (دستور) انظر أدناه في الصفحة 471 من هذا الكتاب. انظر أيضًا: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, II (London, 1925), p. 532,

«يقول المغاربة إن «سادة البيت»، أي أصحابها من الجن، يدخلون ويخرجون فوق العتبة». ويجدر بنا أن نأخذ في الاعتبار ملاحظة ليتمان الواردة في: Enno Littmann, «The Legend of the Queen of Sheba' in the Tradition of Axum,» in: *Bibliotheca Abessinica Studies Concerning the Languages, Literature and History of Abyssinia* (Leyden; Princeton, 1904), p. 32,

«يعتقد الساميون أنها موضع تجمع الأرواح الشريرة، وقد يكون هذا هو أحد أسباب نقش أهل البلدات المسيحية في سوريا الكثير من الأقراص الرمزية، أو الكتابات التي تتضرع لله أو للمسيح، فوق مداخل البيوت». ويستشهد المؤلف ويشرح على الصفحتين 32 و34 من دورية: *Publications of the American Archaeological Expedition*, vol. II.

(7) يروي الكابتن كوندِر في: Claude Reignier Conder, *Tent Work in Palestine* (London, 1885), p. 306,

عن حرص الفلاح على أن لا تطأ قدمه عتبة الباب عند دخوله الكنيسة. ويذكر في كتابه: Claude Reignie Conder, *Heth and Moab Explorations in Syria* (London, 1885), p. 293, =

الشكل رقم 23: العريس وأمه بانتظار العروس

الشكل رقم 24: مشاهدة العروسين يدخلان البيت

وقالت الست لويزا:

«لا تجلس امرأة ذات دين على العتبة أبدًا».

فعند تخطي العتبة، يعرض المرء نفسه لقوى خفية، إما خيِّرة وإما شريرة[8]، ولا بد من حماية العروسين من سوء الطالع عندما يدخلان البيت معًا للمرة الأولى.

ويعتقد الناس أن الرجل عندما يدخل مع عروسه يكون الخطر أكبر منه في أي ظروف أخرى[9]؛ إذ إن البيت الجديد أكثر عرضة للخطر من البيت القديم، كما تكون البهيمة الجديدة في البيت أكثر عرضة للخطر من تلك الموجودة في البيت منذ مدة طويلة، وكما يكون الطفل أكثر عرضة للخطر من البالغ.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ذات مرة:

«إذا دخلت العروس، وكان كل شيء على ما يرام، يقولون: إن عقبها أخضر، وإذا ما أصابت الفاقة زوجها، يقولون: إن عقبها قاسٍ. أعقاب النساء، وعتبة البيت، والخيول، هذه الأشياء الثلاثة إما أن تجلب الحظ أو النحس. فعلى سبيل المثال، قيل عن زوجة أحمد عِثمان [34]: «إن عقبها قاسٍ»[10]،

= أحد المعتقدات السورية: «من الشؤم أن يطأ عتبة الباب. ويوضع في المساجد كلها حاجز خشبي يضطر معه الداخل إلى تخطي العتبة، وقد لاحظت العادة نفسها في المقامات الريفية». ويقول ويسترمارك في: Edward Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 220 n. 1,

«لا يسمح لأحد بالجلوس على عتبة باب البيت أو على مدخل الخيمة، وإن فعلها أحدهم فقد يمرض، أو يجلب المرض (باس) إلى البيت».

(8) في ما يتعلق بالقوة السحرية للعتبة انظر: Littmann, «The Legend of the Queen of Sheba' in the Tradition of Axum,» in: *Bibliotheca Abessinica Studies Concerning the Languages, Literature and History of Abyssinia*, p. 32.

الملكة بلقيس «شفيت ما إن دخلت باب سليمان؛ أي تخطت عتبته». وقد استعرض ترُمبُل الخرافات المختلفة المتعلقة بعتبة الباب في كتابه: Henry Clay Trumbull, *The Threshold Covenant* (New York, 1896).

(9) تُعدُّ عتبة الباب في أرمينيا بحسب: Manuk Abeghian, *Der armenische Volksglaube: Inaugural-Dissertation* (Leipzig, 1899), p. 91,

مأوى للأرواح، ولما كان حديثو الزواج أكثر عرضة للتأثيرات الشريرة، وحماية لهم يعتني بهم رجل يحمل سيفًا، ويرسم به صليبًا على الجدار الذي يعلو كل باب.

(10) حرفيًا «الفتَّاحة»؛ أي فتَّاحة الكتاب - وهي جزائرية.

وتقول العرَّافة للرجل الأعمى محمد خليل [166]: «غيِّر عتبة بيتك! عتبة بيتك غير مباركة»».

والمرأة أيضًا كالعتبة؛ إما أن تجلب الحظ وإما سوء النحس إلى البيت، ولهذا فإن في تخطي العروس للعتبة خطر مضاعف(11). ويتضح ذلك في قريتنا، في قصة جميلة (زوجة إبراهيم خليل [7]، ومن بعده محمود خليل [8]) الأرملة التي تزوجت أخا زوجها الأول بعد وفاته؛ فعندما ضربها زوجها الأول على يدها يوم الزفاف، اصفر وجهه، فقال الناس: «الرجل ميت!»، ثم توفي الرجل حقًا بعد مدة لا تزيد على بضعة أسابيع. وليتجنبوا تكرار النحس في زواجها الثاني، سيَّروا حمارًا مع العروس، وقالوا: «هذه عروسك يا حمار»، آملين أن ينتقل الخطر بهذا من العريس إلى الحمار(12).

ولا يقصد من هذه الإجراءات إبعاد الخطر وحسب، وإنما على المرء أيضًا أن يسعى لكي يكون دخول العروس مباركًا قدر الإمكان. وقد عرضنا إلى أهمية الأغصان الخضراء في ما تقدم - الأخضر هو لون الحظ لدى المسلمين - وقد رأينا أن جمل العروس - وفي أيامنا هذه السيارة - وكذلك العروس تزين بالأغصان الخضراء، ورأينا أن العريس أيضًا يحمل بيده غصنًا أخضر، حتى يجلب دخول العروس الرخاء إلى البيت. ويلجأ الناس لتحقيق هذه الغاية إلى وسائل أخرى، وقد تكون مراسم العجين الخمير عند دخول العروس إلى بيت العريس هي إحدى هذه الوسائل.

---

(11) بحسب ويلسون في: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London, 1906), p. 114,

العروس في فلسطين «تُحمل في كثير من الأحيان فوق عتبة الباب كي لا تلمسها قدماها؛ فلمسها يعد فألًا سيئًا». وعادة حمل العروس فوق العتبة واسعة الانتشار، وقد فسرت هذه العادة على وجوه مختلفة قديمًا وحديثًا. في ما يتعلق بعرض أمثلة من مناطق مختلفة من العالم، وبحث مستفيض عن معناها مع الإشارة إلى الأدبيات انظر: James Edward Hanauer, *Folk-Lore of the Holy Land* (London, 1907), p. 1ff.,

انظر على وجه الخصوص الصفحة 6 وما يليها. وانظر كذلك: Westermarck, *The History of Human*, p. 531f., 535ff.

(12) انظر أدناه في الصفحة 611 من هذا الكتاب.

وكما روت حمدية (ابنة سليمان سند [183])، فهم يعطون العروس عندما تصل إلى بيت زوجها قطعة من العجين الخمير، وتلصقها على أسكفة الباب، وبينما هي تفعل ذلك، يضربها العريس على يدها. وأضافت حمدية ضاحكة، أنه إذا ما كان غاضبًا أو مغتاظًا؛ لأنه نال عروسًا لم يكن يريدها، يضربها بقوة فيؤلمها.

بالطبع سألتُ النساء عن الغاية من العجين الخمير.

فأجابت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «تجعل العروس العجين الخمير تحت يدها للتخفيف من وطأة الضربة.

وعلقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بقولها: «عندما يضرب العريس العروس، إذا بقي شيء من العجين الخمير في يدها، تأخذه والدتها أو أختها وتضعه في مكان نظيف، خشية أن يدوسه أحد».

وقالت الست لويزا: «لأن للقمح قدسية».

ولأن النساء لم يستطعن تفسير طقوس العجين الخمير على نحو واضح ومقنع، حاولت الحصول على المزيد من المعلومات عن استعمال العجين الخمير، والغاية منه.

عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«نحن نضع قطعة صغيرة من العجين الخمير بين عيني البقر، أو البغل، أو الفرس، وبعيدًا من السامعين، أو الحمار، عند شرائه، حتى نمنع أذى الناس عن هذه الحيوانات؛ فنحن نضع العجين الخمير على الحيوان عند شرائه لجلب الحظ، عسى أن يكون مباركًا، ولتجنب عيون الناس الحاسدة»(13).

وعلقت الست لويزا: «ويترك الناس العجين الخمير على الحيوان حتى يسقط من تلقاء نفسه».

(13) في ما يتعلق بكسر بيضة على جبهة حصان، أو بغل، أو حمار، عند شرائه، والتدابير الأخرى التي تتبع مع حيوان كهذا في المغرب انظر: Edward Westermark, *Ritual and Belief in Morocco*, II (London, 1926), p. 285.

وأستأنفت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة:

«لا يُقطع العجين الخمير؛ فإذا كان للمرأة طفل واحد فقط، فليس لها أن تقطعه، وإذا كان للمرأة أخ واحد فقط، فليس لها أن تقطعه، خوفًا من أن تُقطع حياته(14). ويذكرون لذلك سببًا خياليًا، فيقولون: «عجيننا الخمير عروس، إما أن تأخذها كلها، أو لا تأخذ شيئًا منها!»».

وهم يعنون بعبارة «عجيننا الخمير عروس» أنه قليل جدًا، ولذلك لا يستطيعون أن يعطوا منه شيئًا.

وسمي العجين الخمير هنا عروسًا، وهناك مثلٌ يقارنه بالجارة، وفي كلتا الحالتين، كما أشارت ست لويزا، ينظرون إليه على أنه امرأة؛ إذ يقول هذا المثل عن العجين الخمير: «في الشتاء جارة، وفي الصيف خسارة (في الشِّتا جاره أو في الصِّيف خساره)».

وتقول الست لويزا في تفسير ذلك: «في الشتاء يحتاجون إلى كمية أكبر من العجين الخمير ليختمر العجين، ولكن استعمال الكثير منه في الصيف تبذير»(15).

ويبدو أن لدى النساء فكرة - وإن لم يعبِّرن عنها صراحة - مبهمة، تشبِّه العجين الخمير الذي يرتفع وينتفخ عندما يختمر، بالمرأة عندما تحمل وتزيد في أفراد العائلة عندما تلد الأطفال.

وربما كانت فكرة أنها ستضيف أفرادًا جددًا إلى العائلة، هي التي تكمن وراء إلصاق العروس للعجين الذي يعطى لها على عضد الباب.

وهناك مراسم أخرى ترتبط بهذه العادة، فعندما تزوج سليم مسلَّم [199]

---

(14) انظر أيوب أبيلا في: Eijūb Abēla, «Beiträge zur Kenntniss abergläubischer Gebräuch in Syrien,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. VII (Leipzig, 1884), p. 98,

«بعد غروب الشمس لا ينبغي للمرء أن يُعير الخميرة البتة، ولا أن يعطي نارًا لأحد؛ إذ يجلب من يفعل ذلك المتاعب على نفسه».

(15) يقول السيد ستيفان: «كذلك لأنهم يأكلون كثيرًا من الفاكهة وقليلًا من الخبز في الصيف».

صبحة (زوجة سليم مسلَّم [199]) من دورا، لاحظت أن ماءً سُكب وقت دخول العروس. وبحثت في الأمر مع عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، فقالت:

«في دورا يضعون سيفًا ووعاء فيه ماء على عتبة البيت ومن فوقهما تمر العروس[16]».

وأضافت:

«يجب أن يصب الماء أمام العروس وخلفها، ليدخل الشرف والثروة أمامها وخلفها»[17].

فلنقارن أفعال العروس الرمزية - في صباح يوم العرس - إذ تملأ جرتها من نبع القرية حتى تغدو هي نفسها «ممتلئة»، أي حبلى[18]؛ فثمة حياة في العجين الخمير، لذلك ينتفخ، وفي ماء النبع أو البئر حياة، وقدرة على وهب الحياة[19].

---

(16) انظر: Philip Baldensperger, «Women in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, vol. XXXII (London, 1900), p. 143f.,

«توضع سكين فولاذية على عتبة الباب حيث ستمر العروس قبل دخولها، ويهدف هذا إلى إبطال السحر كله».

(17) يقول كنعان عن إحدى العرائس في: Tawfiq Canaan, «Water and 'The Water of Life',» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. IX (Jerusalem, 1929), p. 60,

«يسكب الماء في بعض المناطق أمامها عند دخولها إلى البيت. ويرمز الماء في هذه العادة إلى البركة الوفيرة والحظ الحسن». وفي ما يتعلق بصب الماء في تلك المناسبة انظر أيضًا: Gustav Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1910), p. 122, 135.

(18) انظر أدناه في الصفحة 435 من هذا الكتاب.

(19) روى غير باحث أن على العروس عند دخولها إلى بيت العريس أن تحمل جرة ماء، وأن تلصق قطعة من العجين الخمير على أسكفة الباب أو عضادته، ولهذا فعند الحديث عن النساء في البلدات يذكر الأمر نفسه مع اختلافات طفيفة، انظر المصدر نفسه، ص 122، 135، Elihu Grant, *The People of Palestine* (London and Philadelphia, 1921), p. 58f.; Wilson, *Peasant Life*, p. 114; H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete* (Leipzig, 1927), p. 127f., 131f., and Baldensperger, «Women in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 143,

«تدخل العروس إلى البيت وظهرها للخلف ووجهها قبالة العريس، ويقدم لها رغيف خبز وجرة ماء، فتأكل وتشرب...». وسمع شباور وحداد (انظر الصفحة 132 من المرجع المذكور سابقًا): «يجب =

وفي العرس الذي ذكرته للتو، تبين لي أنه عندما يتخذ الرجل زوجة ثانية،

= أن تكون الجرة ممتلئة بالماء، وتعطى للعريس ليشرب منها أولًا، ثم تقدم للعروس بعد ذلك». ويكتب هذان المؤلفان في الحاشية الثالثة من الصفحة 127 وما يليها أن العروس تضع عجينًا خميرًا على جبهتها، إضافة إلى وضعها لقطعة عجين على الباب. ويشير باور إلى الأمر نفسه في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, 2nd Edition (Leipzig, 1903), p. 108,

«وعند وصولها إلى بيت العريس تُسلم السيف، وتقدم لها قطعة من العجين الخمير فتلصقها على جبهتها، وعلى أسكفة الباب، وتدخل الحجرة حاملة جرة ماء على رأسها». وقد رأينا سابقًا أن المرء يضع قطعة من العجين الخمير على بهيمة اشتريت حديثًا لمباركتها، ولإبعاد عين الناس الحاسدة.

ويرى بالدنسبيرغر في الصفحة 143 من المرجع المذكور، عند الحديث عن الأسباب المتعلقة بما يفعلونه بالماء والعجين الخمير، أن تناول العروس للخبز، وشربها للماء «يرمز إلى الوفرة في المستقبل». ويعتقد غرانت في الصفحة 59 من المرجع المذكور سابقًا أن العجين الخمير وجرة الماء يشيران إلى مهارات التدبير المنزلي الحسنة. ويرى باور في الصفحة الصفحة 108 من المذكور سابقًا أنه: «قد تشير هذه الأفعال إلى أن من أهم الواجبات التي على الفتاة الشابة أن تتوقعها هي الاهتمام بتدبير أمر الطعام والشراب». ويقول ويلسون عن جرة الماء التي ينبغي على العروس حملها إلى البيت في الصفحة 114 من المرجع المذكور أعلاه «ربما يكون للأمر علاقة بأدائها لنصيبها من عمل البيت». لكنه يضيف «إذا كانت أطول من أن تتمكن من عبور الباب وهي تحمل الجرة على رأسها، تُستبدل الجرة ببيضة»، ويبدو أن ثمة مغزى آخر لهذا؛ إذ يعد البيض وسيلة لرد الحسد. ويستخدم البيض كذلك لتنمية الخصوبة، ويعزز هذا التأويل إشارة ويلسون المتعلقة بطقوس العجين الخمير في الصفحة 114 من المرجع المشار إليه سابقًا: «يعبر الفعل عن أمنية؛ فكما أن الخمير الذي يوضع على العجين يزداد حتى يختمر العجين كله، فلعلها تنشئ عائلة كبيرة، ومن خلالها تكبر العشيرة وتزداد». ويفسر شباور وحداد طقوس العجين الخمير في الصفحة 131 من المرجع المشار إليه أعلاه كالآتي: «لكي تجلب له الخير وتنمو وتزداد في البيت كالعجين الخمير». أما جوسان الذي كتب عن طقوس العجين الخمير في نابلس فيقول في: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 79,

«هذا الفعل يبشر بخصوبة العائلة الناشئة» [ترجمة عن الفرنسية]. ويضيف: «في بعض الأحيان تسحق العروس رمانة وتنثر حبوبها: إشارة إلى عدد الأطفال الذين ستنجبهم لزوجها» [ترجمة عن الفرنسية].

هنا نجد سحق العروس لرمانة؛ إذ يقولون في أرطاس مواساة للمرأة إذا مات طفلها، ولا سيما إذا كان طفلها الأول والوحيد: «لم يكن سوى حبة واحدة من حبوب الرمانة». ويعنون بذلك أنه وكما أن الرمانة تحوي حبوبًا كثيرة، كذلك هي يمكنها أن تنجب الكثير من الأطفال.

ويؤكد طقس الرمانة – ترمز حبوب هذه الفاكهة إلى الأطفال الذين سيُولدون من الزواج – أهمية طقس العجين الخمير الذي يشير بشكل رئيسي إلى خصوبة العروس. وبالطبع، فقد ترمز هذه الطقوس، في الوقت ذاته، إلى تدبير العروس لشؤون البيت في المستقبل، وربما كانوا يفعلونها من باب حماية العروس من العين، أو حتى يكون هناك الكثير من الطعام والشراب في البيت، أو للحظ الحسن والبركة بشكل عام. =

يجب أن تمر زوجته الأولى مع العروس فوق العتبة، حتى لا تلحق الأذى

= ويخرج المرء بالنتيجة ذاتها بمقارنة ما هو معروف خارج فلسطين؛ إذ ثمة نظائر للطقوس المذكورة اعلاه في بلاد كثيرة، وهي على الأرجح طقوس ذات أصل قديم. ويقول كونِدِر في: Conder, *Heth and Moab*, p. 293,

أن العروس عند المارونيين، حالما تصل إلى بيتها الجديد «تطرح رمانة بين الحضور، فيتلقفها رفاق العريس ويتقاسمونها بنهم». ويكتفي موسِل بوصف الحقائق في: Alois Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 191,

إذ يقول: «تترجل العروس أمام خيمة العريس أو بيته، فتعطيها النساء رمانة، فتهشمها على العتبة، أو على عمود الخيمة الأمامي. ثم ترمي العروس حبات الرمان داخل البيت أو الخيمة..». ويبين جوسان السبب في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 54,

«تهشم الزوجة عند دخولها إلى بيت زوجها للمرة الأولى رمانة، تتناثر حباتها في إشارة إلى الأطفال الكثيرين المتوقع إنجابهم في الزواج» [ترجمة عن الفرنسية].

ومن سوريا هناك أخبار مشابهة عن العادات نفسها؛ فيقول أيوب أبيلا في: Abēla, «Beiträge zur Kenntniss abergläubischer Gebräuch in Syrien,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 93,

«عندما تصل العروس إلى بيت عريسها، تقدم لها قطعة من العجين الخمير لتلصقها فوق الباب. كما توضع رمانة على عتبة الباب لكي تطأها العروس فتتناثر حباتها. وهم يطمئنون بهذا إلى أنها ستعيش مع عائلة زوجها بانسجام، وتنجب الكثير من الأطفال». ويقول صافي في: M. Safi, «Mariage au Nord du Liban,» *Anthropos*, vol. XII-XIII (Wien, 1917-18), p. 141,

«وتُعطى عجينًا خميرًا لتضعه مرة واحدة على أسكفة الباب لتشكل صليبًا» [ترجمة عن الفرنسية]. ويظهر هنا التأثير المسيحي. ويضيف المؤلف: «وبعد ذلك تُعطى رمانة لترمى بكل قوة فوق البيت، فإذا تجاوزت الرمانة البيت فهذه إشارة حسنة على أن العروس ستكون شجاعة وقوية في الشدائد، بل إنها ستتحمل كل شيء في سبيل سعادة عائلته. أما إذا وقعت الرمانة على الشرفة فهذا نذير شؤم من أنها ستكون خجولة، وجبانة، وجالبة للمشاكل» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر أيضًا: Trumbull, *The Threshold*, p. 28f.

(سوريا الشمالية).

(يقصد بسوريا الشمالية المناطق الشمالية من سوريا الطبيعية التي تضم سورية والأردن ولبنان وفلسطين) [المترجمتان].

وفي الجزائر تبعًا لفيلو: Etienne Villot, *Moeurs, coutumes et institutions des indigènes de* l'Algérie (Alger, 1888), p. 105,

«يؤخذ الزوجان الشابان سرًا إلى بيتهما الجديد، وتستقبلهما الحماة هناك، وتناول العروس جرة من السمن، فتغمس الفتاة يدها في الجرة وتدهن الخيمة. ويهدف هذا الطقس الذي بات أصله مجهولًا بمرور الوقت، إلى إنزال بركة السماء على البيت الجديد» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 221f.,

«ترمي العروس حملًا على خيمة العريس، لكي يكون هناك الكثير من الخراف في القرية. وتدهن عمود الخيمة الأفقي بالزبد، لكي يكون هناك وفرة من الزبد أو «الدهن» في البيت. وتؤخذ إلى الزوايا الأربع للخيمة كإشارة إلى «عتبات» الأولاد، والخراف والماشية، والأمان والهدوء، والرخص. وتمارس =

بالعروس، وتمنعها من إنجاب الأطفال[20].

وسألتُ حمدية (ابنة سليمان سند [183]) لماذا يضرب العريس العروس على يدها ثلاث مرات حين تضع الخميرة فوق عضد الباب، فلم يتعد جوابها أن قالت: «إنها العادة»، ولم أتمكن من الحصول على أي تفسير آخر، ولكن يبدو أن منشأها هو أن العريس يريد أن يجعل العروس تهابه[21].

= العروس أو حماتها طقوسًا أخرى، لكي تكون ولودًا، ولا سيما أمًا لأولاد ذكور..». وقد نذكر، في هذا الصدد، الطقس الآتي الذي يمارسه اليهود في المغرب في الوقت الحالي بحسب يانسن في: H. Jansen, «Mitteilungen über die Juden in Marroko,» *Globus*, vol. LXXI (1897), p. 359.

«قبل الزفاف بأربعة عشر يومًا، وفي يوم خميس، يُكسر إناء مملوء بالحبوب على باب حجرة العروس، ويرمز هذا إلى الرغبة في أن تكون العروس ولودًا». ويضيف في الصفحة 360 أن العريس يأخذ بعض القطن ويغمسه في مزيج من العسل والحناء، ويلصقه مع مسكوكة فضية على رأس العروس «كإشارة إلى رفاهيتها وازدهارها في المستقبل».

وفي روما القديمة كانت العروس تمسح عضادتي باب بيت العريس بالدهن أو الزيت، وتعلق صوفًا عليها بحسب كل من: August Rossbach, *Untersuchungen über die römische Ehe* (Stuttgart, 1853), p. 351, 356ff., and Ernst Samter, *Familienfeste der Griechen und Römer* (Berlin, 1901), p. 80.

وبحسب روزباخ في الصفحات 351 و361 وما يليها، وسماتر في الصفحة 14 وما يليها، في المرجعين المشار إليهما أعلاه، كانت العروس تستقبل في روما «بالماء والنار» (لتُستقبل بالماء والنار *aqua et igni accipere*). في ما يتعلق بطقوس الماء المختلفة انظر أيضًا: Westermarck, *The History of Human*, p. 506ff.

(20) انظر أدناه في الصفحة 485. وانظر كذلك أيوب أبيلا في: Abëla, «Beiträge zur Kenntniss abergläubischer Gebräuch in Syrien,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 93,

«لا يسمح سوى لإمرأة متزوجة ولديها أطفال، ولا سيما من الصبيان، أن تقود العروسين إلى غرفة الزوج، لكي تصبح العروس، مثلها، أمًا».

(21) انظر: Baldensperger, «Women in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 143,

«وتبسط العروس يدها على عضادة الباب، بينما يضرب العريس يدها بقبضته كرمز لخضوعها، ولسلطته». انظر أيضًا: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubëbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 127f. n. 3,

«في بعض الأماكن، يستقبل العريس العروس التي ينتظرها عند عتبة الباب بلكمة على رأسها».

ويذكر كوندِر في: Conder, *Heth and Moab*, p. 293,

أن العريس عند المارونيين يقف على السطح فوق الباب، ويحمل سيفًا فوق رأس العروس.

ويكتب ويلسون في: Wilson, *Peasant Life*, p. 114,

«وعند دخول العروس الدرزية باب العريس يعاجلها بضربة موجعة بالعصا، لكي يريها أنها تحت سلطته». =

وحدثتني حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن عادة ضرب الحضور للعريس بالعصي، ما إن يضرب العروس على يدها، فقالت:

«عندما يضربها، ينهالون عليه ضربًا، (فيهتف): «أنا في حمايتك يا عمي (أنا في وجهك يا عمي) عبد!» (فيجيبه هذا الأخير): «أهلًا بك! لن أدع أحدًا يمسك!» ويقف خلفه عندما يضربها (أي العروس)، ويدفعه إلى الأمام (بسبب الزحام)، ويدخل العريس إلى البيت. وعوضًا من التفكير بالعروس وحدها، يفكر في خوفه».

وصرحت بأن الغرض من ضرب العريس هو تحويل تفكير العريس عن عروسه، خوفًا من أن تمنعه فرحته الغامرة بالعروس من معاشرتها.

«خوفًا من الفرحة الغامرة. إذا فرح كثيرًا، فلن يتمكن من معاشرتها (ما بنفعش العروس)[22]. ولكن هكذا، تشغله الضربات، ولا يفكر بالعروس، ولا يلحق به الأذى».

«يُخشى على العريس من أن يجعله الفرح ضعيفًا وعنينًا، فلا يتمكن من معاشرة العروس (ما ينفعش العروس). وإن لم يستطع إرضاءها، فستكون هناك متاعب له ولها، إذا لم يستطع أن يكون كالرجال الآخرين، تبدأ بازدرائه، فيضربها لازدرائها له. وهذا يجلب البغض، وهذا يجلب الحب.

= وفي سورية، يجب على العروس، بحسب أيوب أبيلا في الصفحة 92 من المرجع المذكور سابقًا، أن تذهب إلى الكنيسة أولًا، وإذا كان عرسهما في بيت العريس فعليه أن يذهب خارجًا «لكي تتمكن العروس من الدخول أولًا ثم يتبعها بعد ذلك، لكي يحتفظ بسلطته على زوجته للأبد. وثمة عادة تنتشر على نطاق واسع عند الفلاحين عمومًا؛ فما إن تصل العروس إلى العريس، حتى يضربها على رأسها بغليونه، لكي لا تسيطر عليه». وعند البربر الجزائريين بحسب: L. Féraud, «Moeurs et coutumes kabiles,» *Revue africaine*, vol. IV (Constantine, 1862), p. 431,

وبعد أن ترمي العروس الحبوب والملح فوق كتفيها «ويقترب الزوج بدوره، ساحبًا بندقية أو مسدسًا فارغين فوق رأسها، وفي بعض الأحيان يطلق النار فوق رأسها. هذه هي البطولة الخشنة، تشكل مقدمة لإخضاع النساء، وكتحذير للمرأة من أن الرجل هو السلطة المطلقة في حياتها» [ترجمة عن الفرنسية]. في ما يتعلق بمحاولة العريس نيل السلطة على زوجته بطرائق مختلفة انظر: Westermarck: *Marriage Ceremonies*, p. 356, and *The History of Human*, p. 491f.

(22) حرفيًا، لا ينفع العروس بشيء.

حتى لا يفرح كثيرًا، فقد يفرح العريس حتى لا يستطيع أن يأكل، ولكن إذا ما ضُرب، يصبح قلقًا، ولا يحصر تفكيره بالعروس وحدها»[23].

وأحيانًا، كما شهدت بنفسي، يطلقون النار[24] لدى دخول العروسين إلى بيت العريس (دخول العرايس). ويتبع العروس والعريس حشد كبير من النساء، بقدر ما يتسع المكان، حتى يصبح الزحام شديدًا، إلا أنهم يحاولون ترك فسحة صغيرة أمام العروسين لتغني فيها النساء ويرقصن للعريس[25].

«بالله عليكن يا نساء أعمامه	(بالله عليكو يا نسوان إعمامو
بالله عليكن، ارقصن أمامه	بالله عليكو ترقصن قدامو
بالله عليكن يا بنات العائلة	بالله عليكو يا بنات إلعيلة
بالله عليكن، ارقصن الليلة	بالله عليكو ترقصن الليلة
عريسنا وسيم، لا تقولوا أسمر	عريسنا شلبي لا تقولوا أسمر
هو أشد بياضًا من الجبن، وأحلى من السكر»	أبيض من إلجِّبنه وأحلى من السكر)

(23) قارن ما يقوله روتشتاين في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 122, 136,

من أن الشباب يضربون العريس «كيلا يكون جبانًا، بل ليكون سعيدًا وذا قلب قوي». في ما يتعلق بهذه العادة انظر أيضًا: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 128.

وفي ما يتعلق بضرب العريس والعروس على نحو طقوسي انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 517f.

(24) في ما يتعلق بإطلاق النار في الأعراس، فهو يهدف، أو كان يهدف في كثير من الحالات في الأقل، إلى تبديد الأرواح الشريرة، أو التأثيرات الشريرة الأخرى، وإخافتها من خلال الضجة، ومن خلال «رائحة البارود التي يُعتقد أنها تخيف الجن (اجْنون) كثيرًا»، انظر المصدر نفسه، ص 392 و393 وما يليها.

انظر أيضًا أعلاه في الصفحتين 392 و393 وما يليها من هذا الكتاب.

(25) انظر أيضًا: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 122ff., and Safi, «Mariage au Nord du Liban,» *Anthropos*, p. 141.

وليمة العرس

ويعجل العريس إلى ضيوفه من الرجال الذين يكونون في بيت آخر، أو جلوسًا في الخارج، وقد بسطت الحصر والفرش، وتقدم لهم القهوة التي يعدها رجال ويطوف عليهم بها رجال، ويدعى الرجال إلى التدخين بإلحاح (انظر الشكل رقم 26)؛ فالرجال مغرمون بذلك. ويذبح رجال من أقرباء العريس البهائم للوليمة: معز، أو خراف، أو في بعض الأحيان عجل أو بقرة، ويطهون الأرز واللحم على نار كبيرة.

وبعد إعداد وليمة العرس، يضعون الأرز في أطباق خشبية كبيرة، ويضعون قطع اللحم فوقه، ويحملونه إلى الرجال الضيوف[26].

ويُغنى للرجال:

«خبزنا كافٍ	(يا عيشنا كافي
بيتنا دافئ	يا بيتنا دافي
سيفنا سابغ	يا سيفنا وافي
كلوا يا رجال الله	تغدوا يا أجاويد الله
عسى أن يكون صحة وعافية	يا ريته صحة أو عوافي)[27]

(26) في ما يتعلق بوليمة العرس هذه، والتي تكون عشاء (العشا) عمومًا، إكرامًا من العريس لضيوفه، انظر أيضًا: Frederick Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina, «*Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p. 97f.; Eberhard Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1908), p. 75f., and Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 120, 134.

وعن ولائم الأعراس في سورية انظر: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 139.

وعن الأمر نفسه بين بدو سيناء انظر: John Lewis Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I (London, 1830), p. 81f.

(27) دوّن شباور وحداد أغنية تبدأ كالآتي: «والأرز ليس خبزًا». وقد سمعت صيغة أخرى في أرطاس. انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 98.

ثم يتجمعون حول الأطباق، ويتعجلون في أخذ قطع اللحم التي يفتتونها ويأكلونها بأصابعهم؛ فالقرويون لا يستعملون الشوكة ولا السكين ولا الملعقة عندما يأكلون. وبعد الأكل يغسل الرجال الكبار أيديهم ولحاهم، ويقوم على خدمتهم أولاد صغار، يصبون الماء على أيديهم.

وعندما ينتهي الرجال من الطعام، ينقل الطعام إلى المنزل حيث تجلس النساء مع العروس. وفي الغالب، يحمل الرجال الأرز واللحم إليهن، ولكن في الشكل رقم 25، وهو صورة التقطت يوم عرس شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126])، تظهر أختها حلوة أحمد (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة علي درويش [125]) تحمل طبقًا من الخشب فيه أرز ولحم، قدمته بعد ذلك للنساء. إلا أن تلك كانت حالة استثنائية. وفي المناسبة نفسها أيضًا، قدموا طعام العرس في بيت العروس، قبل أن يأخذوا العروس من بيت أبيها. وبينت ست لويزا أن جلد الذبائح وأحشاءها تترك في هذه الحالة لعائلة العروس لينتفعوا بها.

وفي ما يأتي أغنية تغنى للنساء الضيفات:

«تغدين يا صبايا، لعله يكون صحة	(تغدين يا صبايا يا ريته صحة
ومن لا تقول لكُنَّ صحة	أو إللي ما تقولتشن صحة[28]
ليت بطنها يوجعها	يا ريت قلبها يوجعها
ويكون دواؤها من عندي وأعطيها	أو دواها من عندي أو أعطيها
دواءً لا ينفعها»	دوا إللي ما ينفعها)

وهنا أيضًا نجد التهديد للعدو مرة أخرى.

وفي هذا السياق، ينبغي أن نذكر أيضًا الوليمة التي على العريس أن يقدمها لشباب قرية العروس، إذا كان قد أخذها من قرية أخرى. ولهذه الوليمة، يعطيهم خروفًا يسمى «شاة الشباب»[29]، أو يعطيهم مالًا عوضًا من ذلك.

---

(28) تعني حرفيًا «الصحة!».

(29) انظر: Hilma Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village* (Helsingfors, 1931), p. 123f. =

الشكل رقم 25: إحضار اللحم والأرز للضيوف

الشكل رقم 26: بعد الوليمة

وعلى العريس أن يوفر العلف لخيول ضيوف العرس «عشا الخيل على العريس»، ويقدم الشعير للخيل[30].

وبينما يعد طعام العرس ويؤكل في بيت العريس، يذبح الرجل الذي سيعد عشاء العروس ماعزًا أو خروفًا ويطهو اللحم والأرز.

وفي المساء، بعد أن تغرب الشمس ويحل الظلام، تذهب بعض النساء إلى بيت العريس لجلب عشاء العروس، تتقدمهن المرأة التي اختيرت لحمل الطبق - أحيانًا تكون زوجة الرجل الذي أعد الوليمة - وغالبًا ما تحمل في يدها شعلة، في مشهد يسر الناظرين، ويستهويهن أن يسلكن طريقًا ملتفًا، ويزغردن ويغنين إكرامًا للرجل الذي أعد الطعام[31].

«خرج منسف البهلول وقد اخضر عوده	(طلع منسف إلبهلول[32] مخضر عودُه
من يدك يا علي، لا حرمتم منه	من كَفّاك يا علي ولا تِعدمنُه
يستحق الطبق الأحمر الخليلي	يستاهل الباطية الحمرة الخليلية
هذا لعلي لأنه زعيم المئة	هادا لعلي عمنه إمصدِّر إلمية
يستحق الطبق والعبد الذي يحمله	يستاهل الباطية أُو إلعبد حاملها
هذه لعلي لأنه أهل لها»	هادي لعلي عمنه من عوايدها)

وعندما يصلون إلى البيت الذي توجد فيه العروس، تستقبلهم أم العريس أو أكبر نساء بيته، وتأخذ الطبق وتعطي المرأة التي حملته أفضل قطعة لحمة فيه قائلة: «خذي حقك لقاء صنيعك».

= ويتحدث شباور وحداد عن وليمة تسمى «ذبيحة الشباب» في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 128 n. 1,
«(الطبخة) هي الوليمة التي يقدمها العريس للشباب غير المتزوجين».

(30) انظر أعلاه في الصفحتين 395 و396 من هذا الكتاب.

(31) انظر أعلاه في الصفحتين 381 و382 وما يليها من هذا الكتاب.

(32) أيضًا «درويش».

وأم العريس هي التي تأخذ الطبق عادة، وتحرسه، فلا يمسه أحد غيرها، ثم تقدمه إلى العريس والعروس.

وكنت أعود إلى بيتي إذا سمعت زغاريد النساء وأغانيهن وهن يجبن القرية في موكب عشاء العروس؛ لأنني أعلم أن هذا ينبئ ببداية آخر مراسم العرس.

الإعداد للقاء العروسين في المساء

يحتشد الرجال لجمع المال للعريس (نقوط العريس). وقد وصفنا هذه العادة من قبل[33] - وفي أثناء ذلك، تعمل النساء على إعداد العروس للقاء العريس.

---

(33) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 129, 130 n. 2.

في ما يتعلق بنقوط العريس في أماكن أخرى انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 122f.,

«يستخدم مصطلح (نقوط) في الواقع، للحديث عن الهدايا النقدية فحسب، وفي ما بعد عن هدايا العرس الأخرى. وفي رام الله يقدم النقوط قبل العَشاء، وفي سلوان بعده، أما في البيرة ففي أي وقت كان». ويضيف المؤلفان في الصفحة 123 أن الهدايا تمنح إكرامًا لكبير الحاضرين، أو إكرامًا للرسول، أو إكرامًا للعريس، وما إلى ذلك. ويقول المؤلفان في حاشية الصفحة 122 وما يليها إن مقدار الهدايا النقدية الممنوحة تعلن على مسامع الرجال المجتمعين. «في سلوان يجب على أولئك الرجال الذين لم يشاركوا بالحفلة الجماعية من خلال الرقص على سبيل المثال، أن يؤدوا ما عليهم من خلال مبلغ صغير. ويُعطى هذا المال إلى عازف الموسيقى». ولدينا وصف مفصل لهذه العادة في لفتا لروتشتاين الذي يذكر أيضًا الصيغة التي تقال للشكر على الهدايا، انظر: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 118f., 133f.

وكلما نودي باسم أحد الذين قدموا الهدايا يقال له «عوضك الله خيرًا!»، ويذكر بعد ذلك مقدار العطية، وإكرامًا لمن أعطيت. ويحصل العريس على ما قيمتة أربعة إلى خمسة مجيديات من المبلغ المجموع ليعطيها للعروس كهدية عرس، ويعطى ما تبقى من المال إلى والد العريس. ولدينا تقارير مشابهة من البيرة يذكرها باومان في: Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, p. 76.

ويضيف المؤلف أن الهدايا تمنح على قاعدة (أعطيك لتعطيني)، وأن عائلة العريس تستخدم هذه الهدايا لتسديد نفقات العرس. ويقول ويلسون كذلك في: Wilson, *Peasant Life*, p. 112,

إن قائمة تعد بالهدايا الممنوحة وقيمتها «وعندما يكون هناك عرس عند عائلة أي من المانحين، فإن على العريس صاحب هذه المناسبة أن يقدم هدية مكافئة». انظر: Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, p. 99; =

عندما جيء بفاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) من بيت لحم عروسًا، كان شعرها مجدولًا ومتموجًا، ففكوا جدائلها، ومشطوا شعرها بعناية، ودهنوه بالزيت والطيب. وكذلك صنعوا بعروس من شَرَفات عام 1930، لكن العادة المألوفة هي الرسم على وجه العروس وكسوته بورق الذهب، «نقوش العروس».

تجلس إحدى النساء أمام العروس وفي يدها قطعة من الخشب فيها تجاويف صغيرة للألوان التي ستزين بها وجه العروس. وتستعمل لكل لون إصبعًا مختلفًا، لتضع بقعًا من الألوان على وجه العروس، وتصور أشكالًا مختلفة، بحسب مهارتها وذوقها؛ فقد تكون نقاطًا وخطوطًا فحسب، وقد تكون أنماطًا أكثر تعقيدًا من ذلك (الشكل رقم 27)[34].

George Robinson Lees, *Village Life in Palestine* (London, 1905), p. 126; Ermete Pierotti,*Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge, 1864), p. 188f., and Stewart Macalister and E.W.G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII (London, 1905), p. 348. =

وبحسب باور في: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 108,

فإن هذه العادة غير سائدة بين المسيحيين في فلسطين «هنا يضغط الضيوف بقطعة نقدية في يد العريس أو العروس عند وداعهم». انظر: Musil, *Arabia*, p. 195.

ويرد في الصفحة 205 من المرجع المذكور: «وعلى صديق العريس أن يشكر الناس علنًا على ما يقدمون، ولهذا يدعى المُخلِّف، ويفعل ذلك بأن يهتف بصوت مرتفع: خلف الله عليك يا فلان الفلاني».

وفي صفاقس بحسب: Karl Narbeshuber, *Aus dem Leben der Arabischen Bevölkerung in Sfax* (Leipzig, 1907), p. 5ff.,

فإنهم وعلى الرغم من إعلانهم عن الهدايا المالية على نحو مشابه، إلا أن المال يجمع لعازفي الموسيقى. ويقول لين في: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 236,

إن المغنين «يحصلون على نقوط (أو تبرعات مالية) من العريس وأصدقائه»، ويذكر في الصفحة 240 عادة قضاء العريس يومًا كاملًا من اللهو في الريف برفقة عدد من أصدقائه، في اليوم التالي للعرس. «في بعض الأحيان يقوم العريس نفسه بالترتيبات كافة لهذا اليوم، ويدفع جزءًا من النفقات، إذا تجاوزت ما أسهم به أصدقاؤه؛ فهم يدفعون النقوط في هذه المناسبة».

(34) انظر: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 122.

ويتحدث بيروتي في: Pierotti, *Customs and Traditions*, p. 184,

عن تكلفة تزيين وجه العروس، وهي أعطية تبلغ مئة قرش يعطيها العريس لوالد العروس «التغطية =

الشكل رقم 27: رسم حمدية للنخلة والورد والقمر

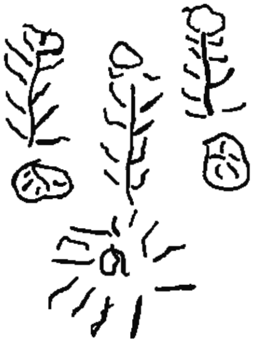

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «لا يغطى وجه العروس بورق الذهب قبل عقد القران، فقبل ذلك تُرسم نخلة أو جرة على وجهها، وحسب؛ فالنخيل من شجر الجنة.

ويكون كل لون في تجويف مختلف، ويوضع الأحمر والأبيض والأخضر على الخدود وعلى الجبهة وعلى الأنف وعلى الذقن، ويرسمون جرة، ووردة، ونخلة، وفوق ذلك كله يأتي غطاء ورق الذهب، ويستخدمون إبرة للنقش».

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «الخيَّاطة ماهرة في النقش، وتستعمل الألوان: الأحمر، والأخضر، والأصفر، وترسم نخلة ووردة وقمرًا أيضًا؛ فالعريس هو النخلة والعروس هي الوردة».

وتغني النساء:

«شباك إبريقك (أي فم العروس) حلاوة
(شباك شربتكي حلاوة

حب البنات جلب العداوة
حب البنات ربّى عداوة

شباك إبريقك ورق توت
شباك شربتكي ورق توت

= تكاليف تزيين وجهها قبل العرس بساعات». وتقول فريدريكا بريمر (Fredrika Bremer)، وكانت في أرطاس في أيار/ مايو من عام 1859، في عملها: Fredrika Bremer, *Lifvet i Gamla verlden*, IV (Stockholm, 1861), p. 102, إن الناس يرسمون زهورًا، بل وحتى مناظر طبيعية كاملة على وجه العروس.

حب البنات يجلب الموت
حب البنات يؤدي على الموت
شباك إبريقك ورق تين
شباك شربتكي ورق تين
حب البنات وخز السكاكين»
حب البنات دق إلسكاكين)

وفي ما يأتي أغنية أخرى تغنى في هذه المناسبة:

«أوصيك بخطيبتي يا نقاشة
(وصاتكي يا منقشه خطيبتي
ما رأيتها حتى أنفقت كل ما ادخرت
ما شفتها تني تكِّيت ذخيرتي
أوصيك يا نقاشة يا أم الحلق
وصاتكي يا منقشه يا إم إلحَلَق
ما رأيتها حتى قدمت كل الثياب
ما شفتها تني تكِّيت من إلخَلَق
أوصيك بعروسي يا نقاشة
وصاتكي يا منقشه عروسي
ما رأيتها حتى أنفقت مالي»
ما شفتها تني حطيت فلوسي)

وأوضحت الست لويزا دلالة هذه الأغنية قائلة: «إن العريس يخشى أن تؤذي المرأة عروسه وهي تزينها».

وقد روي عن دلال (زوجة عوض الله خليل [97]) من بيت أُمَّر التي اتخذها عوض الله خليل [97] زوجة ثانية له، أنها استعانت بمرآة لتتزين لعرسها، ولم تثق بأن تزينها امرأة من أرطاس، ولا سيما بعد أن علمت بأن ضرتها مستاءة من مقدمها، ولكن تلك كانت حالة استثنائية.

وتشاهد الحاضرات عمل المرأة التي ترسم وتنقش على وجه العروس باهتمام بالغ، ويبدين ملاحظاتهن؛ فقد تستحسن استخدام الألوان لبشرة المرأة الزنجية، على سبيل المثال.

وهذه الألوان هي في الحقيقة الأساس لكسوة الوجه بورق الذهب، وعندما ينتهي الرسم، تبسط النقاشة ورق الذهب على وجه العروس التي تجلس مغمضة العينين طوال الوقت. وما إن تنتهي من ذلك، حتى تنهض العروس، وتغطي وجهها بخمارها الغليظ. وعندئذ تهتف النساء بأن العريس قادم.

ويأتي العريس إلى عروسه

يقف العريس متأهبًا مع بعض أقاربه المقربين خارج الباب، ثم يأتي والسيف في يده، ويضغط به، أو كما يقولون، «يهدد» به، ثلاث مرات على وجه العروس: على أنفها وجبهتها أولًا، ثم على كل خد من خديها. ويقول الناس إنه يفعل هذا لتهابه العروس. وبعد ذلك، يطوي طرف الخمار بأسلة سيفه ثلاث مرات، فينكشف وجهها.

ويكون ورق الذهب ملتصقًا بوجهها تمامًا من الحرارة تحت الخمار، فيرى العريس وجهًا ذهبيًا، وتبدو العروس كصنم هندي، ويمسح العريس الذهب عن وجهها بمنديل، فيجعلها تبدو بشرًا مرة أخرى، ولكنها تظل واقفة مغمضة العينين؛ فلا يليق أن تفتح عينيها وتنظر إليه، هذا إذا كان لديها ما يكفي من الجرأة والفضول لتفعل ذلك. وفي بعض الحالات، يرى العريس عروسه للمرة الأولى في هذا المقام.

ويضغط العريس بقطعة من النقود على جبهتها، وبقطع أخرى على خديها وذقنها، وعندما تسقط قطع النقود عن وجهها، تلتقطها والدتها التي تقف إلى جوارها، باستخدام كم ثوبها الأيمن الذي تعده لجمع المال الذي يقدمه الناس لابنتها.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن هذه العادة:

«يأتي العريس مع أخواته، وبدلًا من أن يضربها، يضغط بالسيف ثلاث مرات على وجهها (بهايب بالسيف)، وتبسط أمها أو أختها كمها، فيضعون الهدايا النقدية في كم أمها أو أختها، وكل من يريد أن يقدم هدية، يفعل ذلك قبل إزالة ورق الذهب عن وجهها. ويقول العريس عندما يعطي عروسه المال: «هذه إكرامًا لله وللرسول، وإكرام لأمك ولأبيك!!»»[35].

---

(35) وعلى نحو مماثل، يصف روتشتاين دخول العريس على عروسه في ساعة متأخرة من يوم العرس في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 122, 136.

وعندما جاء عِثمان محمد [37]، «هدد» بالسيف ثلاث مرات، ثم رفع الخمار، ووضع النقود على جبهتها، وقال: «افتحي يدك - خمسين قرشًا!»».

وقالت الست لويزا:

«فعل هذا، حتى لا تأخذ أختها النقود؛ إذ كانت وقفت بجوارها لتلتقطها في كمها؛ فقد خشي أن تسرق الأخت النقود من العروس».

واستأنفت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بقولها:

«قالت أخت العريس، صبحة (ابنة محمد عِثمان [33])، وهي تقدم الشلن الأول: «هذا إكرامًا لله وللرسول!»، ثم قدمت شلنين، وقالت: «هذا إكرامًا للعريس وللعروس!» وفي المرة الثالثة (قدمت) لأجل زوجها أبو صبحي، وفي المرة الرابعة، قدمت شلنًا آخر قائلة: «هذا لأجل عائلة زوجي، صغارهم وكبارهم!»، وفي المرة الخامسة قالت وهي تقدم شلنًا: «هذا إكرامًا لأبي ولأمي!»».

وعقبت الست لويزا قائلة:

«عندها بكى الناس؛ لأنهما ميتان».

= انظر أيضًا: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 129; Adela Goodrich-Freer, *Inner Jerusalem* (London, 1914), p. 319, and Florence Mary Fitch, *The Daughter of Abd Salam* (Boston, 1930), p. 31f.

وبحسب: Snouck Hurgronje, *Mekka*, II (Haag, 1889), p. 180,

يدخل العريس على عروسه، ويتلو سورة الفاتحة بينما يضع يده اليمنى على ناصيتها؛ أي مقدمة الرأس، حيث ينمو أول الشعر، ويضغط بقطعة نقدية على وجه عروسه. ويتحدث لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 237,

عن «ثمن كشف الوجه» في القاهرة، وهي هدية من المال على العريس أن يقدمها للعروس عند دخوله مسكنها، قبل أن يحاول إزاحة الشال السميك الذي أسدلته فوق رأسها «وهو ما لا تمكنه منه إلا بعد أن تبدي ممانعة، أو حتى مقاومة عنيفة، لتبرهن على حيائها العذري». وعند نزعه للغطاء يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم يرحب بعروسه التي يرى وجهها عندئذ للمرة الأولى. انظر أيضًا: Edward William Lane, *Arabian Society in the Middle Ages* (London, 1883), p. 237, and John Lewis Burckhardt, *Arabic Proverbs* (London, 1830), p. 116f.

ويقول لوبل في: D. T. Löbel, *Hochzeitbräuche in der Türkei* (Amsterdam, 1897), p. 35,

إن العريس عند الأتراك، يقدم للعروس هدية عندما يكشف الغطاء عنها، وتسمى هدية «رؤية الوجه»، وهي في الغالب خاتم ثمين.

وواصلت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) حديثها قائلة:

«ثم قدم أخو العروس ثلاثة جنيهات هدية لأخته، وقدمت لها أمها (هي في الحقيقة ضرة أمها) جنيهًا واحدًا، لكن أمها (الحقيقية) جلست بعيدًا، وتركت كل شيء لضرتها صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18])، وهذه من باب السياسة الحسنة».

وكما يتجلى من رواية عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])؛ فالعديد من الناس يقدمون هدايا نقدية للعروس[36].

وقد أعطى أحمد خليل [98] لابنته العروس شلبية أحمد (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]) 50 إلى 60 جنيهًا، ضغط بها قطعة قطعة في يدها، فأثار بذلك دهشة النساء الواقفات وإعجابهن؛ فقد ذهلن لرؤية كل هذا المال مرة واحدة.

وتدعى هذه العادة «تقديم المال للعروس» (نقوط العروس)[37].

(36) يقدم الضيوف الهدايا العينية إضافة إلى المال عند جمع الهدايا للعروسين؛ فيجلبون معهم السكر، والقهوة، والأرز، وأصنافًا متنوعة من الفواكه، والخراف، وما إلى ذلك. انظر: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 74, and Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 100.

(37) يروي روتشتاين في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 122, 136,

أن النساء في قرية لفتا القريبة من القدس يقدمن الهدايا النقدية للعروس بعد أن يأتي العريس ويقدم هديته النقدية لها. انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 129,

«كذلك تُقدم فتيات القرية لها (أي للعروس) هدايا لكن دونما تشليف (وهو الإعلان بصوت عال عند استلام الهدية النقدية). ويقول المرء ببساطة: 'هذه للعريس وللعروس!'». ويضيف المؤلف في الصفحة 129 من المرجع المذكور أن العريس يفرك الذهب من على وجه العروس بأحد أكمامها. ويصف جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 72f.,

«في السهرة الأولى للزواج» [ترجمة عن الفرنسية]. عندما تُظهر العروس للنساء الحاضرات «فخامة وروعة الملابس التي أهداها لها خطيبها للعرس: وهي نقوط أو نقطة العروس» [ترجمة عن الفرنسية]. ويضيف «وتستمر السهرة حتى الصباح. وقبل الانتهاء يوضع المال الذي جُمع في يد العروس: والنقود هي المال الذي يقدمه الحضور للعروس لاستخدامها الشخصي» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول في الصفحة 77 من المرجع المذكور: «وعند مغادرتها بيت أبيها تتلقى المزيد من الهدايا: فضة، قلادة، خاتم، وما إلى =

ويأخذ العريس مكانه بجوار العروس، ويقف هناك حاملًا سيفه في يده.

وفي عرس محمد سعيد (ابن سعيد موسى [131]) عام 1930، شهدت محاولة لإدخال رقصة الـ «جلوة» إلى أرطاس. كانت العروس من شَرَفات القريبة من القدس، وقبل أن تبدأ الرقصة، دخلت أم العريس إلى الحجرة تحمل جمرة، وأخذت تلوح بها فوق رأس العروس ومن حولها، ثم قربتها من أنف العروس. وقد أرادت أن تحميها بهذا من العين. بعد ذلك غيرت العروس ثيابها، وجعلت تتمايل في الحجرة مغمضة العينين جيئةً وذهابًا، مستندة إلى إحدى صديقاتها، بينما مشت بمحاذاتها امرأة أخرى تحمل سيفًا، لحمايتها من العين في ما يبدو. وأخبرتني بعض الشابات من بيت لحم، كن يساعدن العروس في الرقص، أنهن إنما أردن أن يفعلن فعل أهل القدس في الأعراس، إلا أنهن قلن: «نحن لا نستطيع فعل ذلك بصورة تامة هنا في القرية». وفي هذه المناسبة، بدلت العروس ثوبها مرة واحدة فقط، مع أن العادة في رقصة الـ «جلوة» أن تلبس العروس ثيابها الجديدة كلها، الواحد تلو الآخر، وترقص في كل ثوب، لتريه لصديقاتها[38].

= ذلك» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول ليتمان عن سورية في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 138,

«في بعض الأماكن، يحملون العروس على محفّة ويطوفون بها، لكي يُقدم لها أقاربها ومعارفها الهدايا». وفي مصر وبحسب لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 231,

فإن العرورس «تتلقى هبات (تسمى نقوط) من ضيوفها» في «ليلة الحناء».

(38) يروي جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 81,

«في اليوم الأخير يُقاد العريس بواسطة أصدقائه إلى حجرة مليئة بالنساء اللواتي يغنين ذاكرات صفات عروسه. ويتقدم وسط تصفيق الجميع، ويجلس بجوارها، ثم تقف العروس بعد ذلك قبالة العريس، وتقترب منها امرأة من الحضور ممسكة بها من الخصر، وتميلها بهدوء نحو العريس الذي يبدو ساكنًا. وترافق تمايلات الجسم أغنية ذات إيقاع» [ترجمة عن الفرنسية]. ويستشهد بالأغنية [بعد ذلك]. ويشبه هذا ما رأيته في أرطاس. ويقول جوسان إنه وجد هذا الطقس بين مسيحيي نابلس فقط. وشهدت في حيفا - بين المسيحيين كذلك - في خريف عام 1926، الطقس الآتي والذي يجري في بيت العروس قبل يوم من عرسها: تمشي العروس برفقة صديقاتها وهي تتمايل بجسدها جيئة وذهابًا وهي تحمل شمعة في يدها. وقيل لليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 106 n. 4, =

وبعد أن رقصت العروس، جلست إلى جوار العريس تشاهد أمه وهي ترقص أمامهما[39]، وفي أثناء ذلك، تقدمت منهما امرأة، وأمسكت برأسي العريس والعروس، وضربت أحدهما بالآخر[40]، ونثرت طفلة صغيرة من الحضور الأرز على العروسين، وتلك أيضًا ليست من عادات أهل أرطاس[41].

وعندما انتهت أم العريس من الرقص، جاء رجل يحمل سيفًا، وحث الحضور على مغادرة البيت.

التهاني

قبل أن يغادر الضيوف، يقدمون التهاني التي تختلف صيغتها ومضمونها باختلاف المتلقي[42]. وفي ما يأتي بعض عبارات التهنئة التي دونتها مساء يوم عرس شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]).

تقول النساء من الضيوف لأم العريس:

«مباركة كنتك» (امبارتشه تشنتش)

فتجيب:

«بارك الله فيكِ» (الله يبارتش فيتش)

= إن «إحدى عادات مدينة الناصرة أن تؤدي العروس «الجلوة» بعرض سبعة من الأعمال اليدوية المختلفة في سبعة أثواب مختلفة». ويصف المؤلف الجلوة في الصفحات 89 و106 وما يليها من المرجع المذكور سابقًا، ويورد عددًا كبيرًا من الأغاني التي تُغنى في هذا الطقس. في ما يتعلق بالجلوة انظر: Gustaf Dalman, *Palästinischer Diwan: als Beitrag zur Volkskunde Palästinas* (Leipzig, 1901), p. 254; Goodrich-Freer, *Inner*, p. 318f.; Henry Van-Lennep, *Bible Lands: Their Modern Customs and Manners Illustrative of the Scripture* (London, 1875), p. 547, and Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, p. 122 n. 2.

(39) انظر الصفحة 107 من مقالة ليتمان المشار إليها سابقًا.

(40) في القُبيبة تبعًا لشباور وحداد في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 129,

يُضرب رأس العريس برأس العروس، وتربط أكمامهما بعضها إلى بعض.

(41) انظر أعلاه في الصفحتين 382 و383 وما يليها من هذا الكتاب.

(42) قالت لي السيدة ليديا أينسلر في بداية إقامتي الأولى في فلسطين أنها طالما أعجبت بالعرب لتنوع العبارات اللطيفة التي يتبادلونها.

ويقولون لأخت العريس:

«مباركة عروس أخيكِ»	(مبارتشه عروس أخوتش)

فتجيب:

«بارك الله فيكِ»	(الله يبارتش فيتش)

ويقول والدا العروس للعريس:

«فلتكن لك خيرًا وبركة يا بني! ولتكن لك زيتًا، وزيتونًا، وماءً من ماء كانون الأول، وكانون الثاني»	(إمليحه أو مبارتشه يا ابنيي عليك، يا ريتها زيت أو زيتون أو مويه من موية تشانون)

وقالت ست لويزا: «أحسن ماء للأرض هو ماء شهري كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير».

ويقول ضيوف العرس:

«مباركة العروس! فليكن مقدمها خيرًا! ولعلها تعمِّر وتثمِّر! ولعلها تكثِّر الأولاد»	(إمبارتشه العروس، يا ريتها إقدام خير، يا ريتها تعمِّر أو تْمِر، يا ريتها اتْنشر إلغلمان)

في عرس شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]) قال الناس لسليم - ابن حلوة (ابنة محمد درويش [119]) أرملة رجل من صور باهِر الذي أراد أن يتزوج ابنة خالة (ابنة موسى درويش [124]): «عسى أن يكون عرسك قريبًا أيضًا يا سليم (عقبال عرسك يا سليم)!».

فأجاب: «إن شاء الله الأسبوع القادم (إنشا الله إلجُّمعة إلجَّاي)!».

وعقبت ست لويزا بقولها: «الناس يتمنون عروسًا لكل رجل عزب»[43].

عندما عدت من عرس شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش

(43) بحسب: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 139, ينتهي العرس في سورية بالكلمات الآتية: «بعودة عريس، إفرح واهنأ يا عريس».

[126])، في ضوء القمر إلى البيت، سألتني النساء، كما فعلن مرارًا، هل أعجبني عرس الفلاحين، وأجبت كعادتي، بأنه أعجبني كثيرًا. وعاد الجميع إلى بيوتهم من هذا العرس وهم على قناعة بأن لا شيء في هذا العالم أحسن من عرس الفلاحين، إلا ربما حفل ختان. وقد كان عبد السلام إبراهيم [92] بدأ في الإعداد لختان أولاده، وبعد بضعة أيام فقط، غنت النساء: «لا فرحة تعدل فرحة الختان!» كما غنين بعد ذلك في احتفالٍ لبناء بيت: «لا فرحة تعدل فرحة البناء!».

وكنت من آخر الضيوف الذين غادروا البيت، وكانت العروس لا تزال تجلس على وسادة مغمضة العينين، ولكن كان أمامها طبق الأرز واللحم الذي ستأكله مع العريس. وفي بعض الأحيان يشاركهم في طعامهم أقرب الأقرباء: الأب، والأم، والأخوات، والإخوان.

خلوة العروسين

ثم بعد ذلك، عندما يترك الأقارب العروسين، يقال إنهما في خلوة؛ فعبارة «خلوة العرسان» مألوفة بين الناس(44).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«تكون الخلوة للعروسين حتى لا يسمع أحد حديثهما، ولتكون لهما الحرية، ويطمئن أحدهما إلى الآخر، «سنترك العروسين (بدنا نخلي للعرسان)!»، ويقول أهل العريس: «اتركوهما (إخلوا عنهم)!». وعلى أقارب العريس أن يوفروا لهما مكانًا لمدة سبع ليال، وليس ذلك مهمًا أثناء النهار، ولكن في الليل، يجب أن يتركوهما وشأنهما.

وعندما لا يبقى معهما أحد، يغلقان الباب، ويأكلان معًا. يذهب الجميع، ويبقيان وحيدين لمدة سبعة أيام. ويقال عندئذ: «العروسان في خلوة (العرسان بكونو في خلوة)!»».

(44) يتحدث الناس إضافة إلى «خلوة العروسين» عن «خلوة الدراويش»، عندما يحاولون الهيمنة على الجن. كما أن المريض قد يمضي بعض الوقت في خلوة مع ذلك الذي يمرضه فحسب.

وفي بعض الأماكن في فلسطين، يتشدد الناس في خلوة العروس، حتى إنه ليس لها أن تظهر على الناس طيلة أسبوع العرس. وعندما تزوج سليم مسلَّم [199] امرأة من دورا، قيل لي إنه في تلك القرية لا تترك العروس فراش الزوجية، ويجب أن لا يمسه أحد، ولكن الخلوة في أرطاس ليست كاملة كما هي في دورا، ولا تكون إلا في الليل(45).

وما يحدث في الخلوة لا يبقى سرًا(46)؛ إذ لا يخفيه العروسان، ويسمح الأقارب بإذاعته، فلا يمضي وقت طويل حتى تسمع به القرية بأكملها.

---

(45) يقول فيلهاوزن عن العرب القدماء في: Julius Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 444,

«تنصب للعروسين خيمة خاصة (أو أي ملاذ آخر)، وهذا هو الطقس الأهم في العرس برمته، ومنه أخذ الاسم». وفي ما يتعلق بخلوة العروسين في الوقت الحاضر قارن ما يقوله جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 83,

«تبقى المرأة رهينة حجرة الزفاف لسبعة أيام، أما زوجها فلا يلتزم بهذا الحجز؛ إذ بإمكانه ممارسة أعماله الاعتيادية» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول ليز في: Robinson Lees, *The Witness of the Wilderness* (London, 1909), p. 123,

إن العريس والعروس عند البدو في فلسطين «يختلون لثمانية أيام، أو يعتزلون في التلال ويعيشون وحدهم لمدة شهر». ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 54,

«في المضارب يخصص للعروس مكان في الخيمة يُسمَّى خُلَّة..؛ حيث تبقى فيه لثمانية أيام بدءًا من ليلة الدخلة» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر أيضًا: Musil, *Arabia*, p. 195, 206.

ويروي بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 152,

أن بدو سيناء يعتقدون أن من الحشمة بقاء العروس البكر لمدة أسبوعين في الأقل داخل خيمتها، فلا تخرج منها إلا ليلًا. وبحسب جينينغز بريملي في: Effendi El-Barghuthi, «Judicial Courts among the Bedouin of Palestine,» in: *Studies in Palestinian Customs and Folklore*, I (Jerusalem, 1922), p. 24f.,

«تؤخذ العروس إلى خيمة نصبت بعيدًا من المضارب... ثم يلحق بها زوجها، ويمكثان هناك مدة ثمانية أيام - لا يراهما أحد - ويضع أصدقاؤهما الطعام خارج الخيمة. وليس من الحشمة أن تمكن المرأة أحدًا من رؤيتها إلا بعد مضي وقت على زواجها، ويذهب الزوجان في كثير من الأحيان إلى التلال حيث يمكثان وحدهما هناك مدة شهرين». انظر أيضًا: Maurice Benhazera, *Six mois chez les Touareg du Ahaggar* (Alger, 1908), p. 18; S. Biarnay, *Étude sur le dialecte berbère de Ouargla* (Paris, 1908), p. 474; Westermarck: *Marriage Ceremonies*, p. 291, 323, 333, and *The History of Human*, p. 528f.

(46) بحسب روتشتاين في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 123, 136,

يمكث أولاد القرية الفضوليون خارج البيت بغية سماع حديث العروسين.

وإذا لم يأكل العروسان عشاءهما بصحبة أقاربهما قبل أن يغادروا البيت، فإنهما يأكلانه في «الخلوة»(47).

ثم يأتي «فك الحذاء» (فك الوطا).

وتصف عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) هذا الطقس كالآتي: «يقول لها: «اخلعي ثوبك!»، ويلقي لها بعشرة قروش، فلا تستجيب، فيلقي لها بعشرة قروش أخرى، فلا تستجيب».

وهكذا يفعل حتى ترضى. ويقال إن حسنة (زوجة محمد جبر [159])، عروس محمد جبر [159]، جعلته يدفع 50 قرشًا، أي نصف جنيه، قبل أن تفك حذاءها(48).

ليس للعريس أن يقترب منها قبل أن يرشيها، وتتمنع العروس أحيانًا(49)،

---

(47) في ما يتعلق بعادة تناول العروسين لبعض الطعام معًا قبل الجماع، ويكونها «وسيلة لتوطيد اتحادهما»، وبأنها تخدم بلوغ «الغاية وهي أن يألف أحدهما الآخر قبل الحدث العظيم الذي من خلاله يكتمل الزواج»، انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 258f.

انظر أيضًا للمؤلف نفسه ما يتعلق بعادة تناول العروسين الطعام والشراب معًا في: Westermarck, *The History of Human*, p. 448ff.

(48) قيل لروتشتاين في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 123, 136,

إن العروس ترفض خلع حذائها قبل حصولها على المال. ويكتب شباور وحداد في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 130,

عن «خلع الحذاء وفديته» قائلًا إن العروس تطلب المزيد فيزيدها، ثم تخلع ملابسها كلها باستثناء الثوب الأبيض. في ما يتعلق بالمال الذي يعطيه العريس للعروس في الخلوة، انظر أيضًا: Musil, *Arabia*, p. 195.

وفي ما يتعلق بالمال الذي يعطيه العريس للعروس قبيل الجماع أو بعيده، انظر أيضًا: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 263, 325.

(49) أخبرتني حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أن العروس عند البدو تفر من العريس فيدركها. ونجد في الأدبيات المتعلقة بهذا أمثلة كثيرة عن عروس هاربة، أو تبدي مقاومة.

ويقول خوري (Churi) في: Churi Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammedanischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXXVI (Leipzig, 1913), p. 134, =

لكنه يجب أن يبني بها «يدخل عليها»[50] في الليلة الأولى، إذا أراد أن يتجنب

= «تسود عند البدو في مناطق غزة وبئر السبع عادة هروب العروس في يوم العرس». ويقول موسِل في: Musil, *Arabia*, p. 206,

«تفر العروس من عريسها في الحال، بعيدًا إلى الصحراء. وعلى العريس أن يطلبها هناك، ومعه زاده وغطاءان من الجلد... وإذا لم تهرب المرأة، فإنها تجر على نفسها عارًا كبيرًا، وتتجنب أطفالًا جبناء. ثم يخاطبونها بقولهم: 'يا رَبوخ' أي يا عديمة الحياء». وهناك بحسب موسِل قبيلة تهرب فيها العروس كل ليلة طوال شهر في الأقل، وثمة قبائل أخرى تهرب العروس فيها كل ليلة ولمدة نصف عام تقريبًا، ولكن هناك أيضًا قبائل لا تهرب فيها العروس البتة. ويروي بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 61f.,

أن العريس من قبيلة عنزة عندما يذهب بعد الغروب بقليل إلى حيث تنتظره العروس في خيمة نصبت له، تهرب منه العروس خجلًا من خيمة إلى أخرى من خيام صديقاتها إلى أن تمسكها النسوة، ويأخذنها إلى العريس الذي يجبرها على الدخول. ويقول المؤلف في الصفحة 150 من المرجع المذكور: بين بدو سيناء كلما أكثرت العروس من «المقاومة، والعض، والضرب، والصراخ، واللكم، كانت موضع ثناء أكبر ممن هم حولها أبد الدهر». انظر الصفحة 153 في المرجع المذكور حول عادة هروب العروس إلى الجبال حتى يدركها العريس، تعود في الصباح إلى خيمة أبيها، وتهرب مرة أخرى في المساء، وهكذا إلى أن تحمل. ويقول جينينغز بريملي عن العروس التي تؤخذ إلى خيمة العريس في: W. E. Jennings-Bramley, «The Bedouin of the Sinaitic Peninsula,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXIX (London, 1907), p. 24,

«في بعض الحالات لا تعلم أنها تزوجت حتى تلك اللحظة. وسواء كانت تعلم أم لا تعلم، فالعادة تقتضي أن ترفع صوتها في التعبير عن نفورها من الزواج، وينبغي أن يظهر أنها تساق إلى الخيمة قسرًا».

وعليها أن تقاوم حتى داخل الخيمة مع العريس. ويروي بيركهارت في الصفحة 62 من المرجع المذكور، أن عروس قبيلة عنزة إن كانت بكرًا فعليها أن تصرخ، ويقول في الصفحة 151 أن على عروس بدو سيناء أن تبكي بحرقة شديدة ليس عندما تساق إلى مضارب زوجها فحسب، بل لاحقًا عند الجماع أيضًا. وفي حاشية في الصفحة 151 يقول عن بدو سيناء «يحدث في بعض الأحيان، كما أكد لي بعضهم، أن يضطر الزوج إلى ربط عروسه، بل حتى ضربها، قبل أن يتمكن من حملها على الإذعان لرغباته». ويُقال في الصفحة 152 من المرجع نفسه عن الأرملة أو المطلقة عند بدو سيناء: «ولا تبدي أي مقاومة عندما تصحبها صديقاتها إلى خيمة الزوج». ويرد في الصفحة 62 من المرجع السابق، أن الأرملة من قبيلة عنزة يجب أن لا تصرخ.

في ما يتعلق بمقاومة العروس الناشئة عن الخجل أو الحياء من الجنس، سواء أكان هذا حقيقيًا أم مصطنعًا، انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 272.

(50) من الضروري حتى في الحياة الزوجية الاعتيادية أن يذكر العريس اسم الله قبل معاشرته لزوجته خشية أن يسبقه الشيطان فيتلبسها. انظر أدناه في الصفحة 156 وما يليها من هذا الكتاب. ويمكن الافتراض بأن ليلة الزفاف تستلزم اتخاذ احتياطات أكبر بكثير. فالعرس، كما سماه فان غنب، طقس انتقال، ويعد إتيان الشيء للمرة الأولى محفوفًا بالمخاطر، في هذه الحال، كما في غيرها.

ويروي جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 82, =

ازدراء الناس. والكلمة العربية لإتمام الزواج بالجماع هي «دخول» من الجذر «دخل»، والعبارات: «دخل عليها»، و«دخل» بمعنى تزوج، شائعة في اللغتين العربية والعبرية(51).

= عن طقس ديني يؤديه العريس عندما يذهب منفردًا قبيل منتصف الليل إلى عروسه في حجرتها ليحييها، وهي هناك وحدها، فيرفع خمارها، ليراها من دون خمار وجهًا لوجه للمرة الأولى. ويكتب: «وتجلس العروس على البساط وتمد ذيل ثوبها، ويصلي عريسها ركعتين ساجدًا فوق ذيل الثوب، وهو ما يسمى: 'صلى على ذيل ثوبها' (صلى على ذيالها)» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر كذلك: Lane, *An Account of the Manners*, p. 237.

ويروي ويسترمارك أيضًا في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 255,

عن ركعتين يصليهما العريس، ترتبطان بالخطوات الإحترازية التي يأخذها العريس لحماية نفسه، أو حماية العروس، أو لحمايتهما معًا من الأخطار التي تحيط بهما عند دخوله إلى الحجرة أو الخيمة، حيث تنتظره العروس. قارن ذلك بما يرد في الآية الثانية وما يليها من الإصحاح الثامن من سفر طوبيا: ويأخذ طوبيا جمرًا مشتعلًا ويلقي عليه كبد وقلب السمك لكي يبعد الدخانُ والرائحةُ الشيطانَ الذي يرهق سارة، ثم يصلي الاثنان معًا لله ليلة زفافهما. ويخبر موسل عند حديثه عن الأعراس عند الفلاحين في: Musil, *Arabia*, p. 195,

عن ذبيحة تذبح في وقت متأخر من المساء عندما يساق العريس إلى البيت أو الخيمة حيث تنتظره العروس. ويشير إلى أن: «ذبيحة «الحِليَّة» ضرورية جدًا إذا ما أراد المرء إتمام الزواج». ويضيف: «يذبح العريس ذبيحة «الحِليَّة» بنفسه على السطح الذي يعلو المدخل، أو في المدخل، أو في الحجرة، حيث سيدخل بعروسه، ويرش العروس بالدم». وعند البدو بحسب موسل (في الصفحة 206 من المرجع المذكور) ثمة ذبيحة كهذه. «يرش العريس والعروس كليهما بالدم»، وتُردد في الوقت نفسه الكلمات التالية: «حِلّي حلّكِ الله!». ويتحدث جوسان كذلك عن أضحية في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 54,

«وفي وقت متأخر من المساء، وعندما ينال التعب من المساعدين، يحضر أصدقاء زوجها ذبيحة تسمى ذبيحة الحُليَّة، ليذبحها بنفسه بغية ضمان اتحادهما بصورة مؤكدة. وفي معان وجوارها يُدمغ العريس والعروس كلاهما بالدم» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 151n.:

«يرى بنو حرب أن من الضروري أن يسيل دم الخروف على الأرض لإتمام الزواج، ولا يتفق البدو جميعهم مع هذا الرأي. وفي مصر يذبح الأقباط خروفًا ما إن تدخل العروس بيت العريس، وعليها أن تمر فوق الدم الذي يسيل على العتبة عند المدخل». وفي ما يتعلق بالدم كرمز للاتحاد بين الطرفين، أو كعنصر فاعل فيه، انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 445f.

وللحديث عن استخدام الدم في طقوس الزواج انظر الصفحة 447 وما يليها من المرجع المذكور.

(51) رأى بعضهم أن عبارة (دخل عليها) - وهي نقيض العادة التي سادت زمن النبي محمد [عليه الصلاة والسلام]، عندما كان يؤتى بالزوجة لزوجها - تعود إلى نظم اجتماعية أقدم، مما يشير إلى أن العرب، والساميين بوجه عام، كانوا في وقت من الأوقات، يعيشون عند أهل الزوجة. انظر: Robertson Smith, *Kinship and Marriage in Early Arabia* (Cambridge University 1885), p. 167f.; Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 444, andC. G. Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab = Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II (Cambridge (Mass.), 1918), p. 140f.

وسبق أن مرت بنا كلمة «دخول» في عبارة «دخول العرسان» التي تصف دخول العروسين معًا إلى بيت العريس للمرة الأولى، ثم في عبارة «دخول العريس» عندما يأتي إلى عروسه في المساء ليكشف الخمار عن وجهها ويراها.

وحاولت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أن تفسر استخدام كلمة «دخول» كالآتي:

«تخرج المرأة من بيت أبيها، وتدخل إلى بيت أقرباء زوجها، من هنا تأتي كلمة «إلدُّخول».ودخول الرجل يعني في الليل حين يعاشر عروسه (إبتطلع من دار ابوها أُو بتدخل دار عيلتها أو هاذي إلتشلمِه إلدُّخول دخول إلزَّلمه معناتِه في الليل وقت ما بدخل عليها)».

= للحديث عن هذه العبارة من وجهة نظر تاريخية، وعن عبارة مرادفة لها، وهي (بنى عليها) 'أي بنى (خيمة) فوق زوجته' والتي كانت شائعة عند العرب بمعنى إتمام الزواج بالجماع. وقد افترض أن العبارة الأخيرة ليست بقدم عبارة 'دخل عليها'، لكنها قد تمثل مرحلة انتقالية على طريق التحول إلى العيش في بيت أهل الزوج، كما هو سائد الآن عند العرب.

الفصل السادس
أسبوع العرس

وفي ما يتعلق بسلوك العريس والعروس في صباح اليوم الذي يلي زواجهما؛ فقد رويت لي الحقائق الآتية:

قالت الست لويزا:

«يجب أن لا يرى أحد العروسين في الفراش، فذلك قد يلحق بهما الأذى؛ لذلك تحذره والدته من ذلك في الليلة السابقة، بأن لا يراه أحد في الفراش، وترتب أمر حضورها»[1].

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«قبل طلوع النهار، توعز إليه والدته أن يأخذ بيد عروسه ويخرجا ثم يعودا. ويتخطى العريس والعروس عتبة البيت ثلاث مرات جيئة وذهابًا قبل أن يدخل عليهما أي كان، خشية أن لا تحمل العروس بالأولاد»[2].

---

(1) انظر موسِل الذي يذكر في: Alois Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 195,
أن أم الزوجة الشابة أو إحدى أقرب قريباتها تأتي بالطعام للعروسين في الصباح الباكر قبل شروق الشمس. ويسمى هذا (صُبحة العُرسان أو الفُطرة).

(2) انظر: H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, v. 1 (Leipzig, 1927), p. 132,
«إذا ما زارت امرأة حائض العروس في اليوم التالي للعرس، فإنها تمنعها من الحمل..» وإذا حدث هذا فعليهم أن يفعلوا الآتي: عليهم أن يحمموا العروس في ماء وضعوا فيه كرات صغيرة من الفضة، أو خرزات حمراء قديمة ومصقولة. ويجب بعد ذلك أن تفتح عجوز آيسة رأس خروف أبيض ذبح حديثًا ولمّا يبرد، على رأس العروس. وليس بإمكانها أن تحمل إلا إذا فعلوا ذلك.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن العريس:

«في الصباح الباكر يذهب العريس إلى منتدى الرجال (الساحة) يحمل القهوة والسكر[3]؛ فإذا لم ينظر في أعين الناس، يكون خجلاً، وإذا كانت عيناه تنظر إلى العالم بجسارة، يكون قد فض بكارتها».

أما عن العروس فقد قالت:

«في صباح اليوم التالي، تحمم الأم ابنتها العروس، وتنزع عنها قميصها وتلبسها غيره».

وقالت أيضًا:

«على سبيل المثال تحضر لها أختها أو أمها قميصًا لتلبسه تحت ثوب الحرير (ثوب إلحرير)؛ فالأم تقصد أن تغسل القميص، وأن يعلم الناس بذلك».

وهي تعني بعبارتها الأخيرة أن أم العروس تريد غسل القميص عند النبع، حتى يعلم الناس أن العروس كانت عذراء.

---

(3) يقول شباور وحداد في هذا الصدد في الصفحة 130 من المجلد الأول من المصدر نفسه: «في الصباح يملأ منديله بالسكر والقهوة ويذهب إلى المضافة، ويبارك أهل القرية له قائلين: 'مباركة العروس'». ويضيف المؤلفان: «وعندئذ يأتي الشباب ويقولون: 'نريد طعامنا!' فتصنع أمه الكعك... ويأكل الشباب في المضافة». ويحسب روثشتاين في: Gustav Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1910), p. 123, 136,

على العريس أن يذبح ذبيحة ويولم في الصباح. وبعد ذلك يذهب كل إلى بيته. ويقول مكاليستر وماسترمان في: Macalister and Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII (London, 1905), p. 348,

«عاد العريس في الصباح التالي إلى ديوان القرية، حيث صنع والده وليمة صباحية من الأرز واللحم للقرية كلها». وبهذا ينتهي العرس. وثمة أهمية كبيرة لما يرد عند موسل في: Musil, *Arabia*, p. 195,

ويحملون ذبيحة تلو الأخرى إلى السطح ويذبحونها ليسيل الدم إلى الأسفل فوق الباب ثم إلى عتبة حجرة العروس. ويطهون هذا اللحم ويأكلونه. ويسمى هذا بحسب المؤلف (إقرى إلعُرس).

في ما يتعلق بالصباح التالي للعرس في مصر انظر: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 240.

ويقول بيركهارت في: John Lewis Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I (London, 1830), p. 151,

«في الصباح يحضر كل رب أسرة في العشيرة ماعزًا كهدية للعروس، وتذبح عنزتين أو ثلاثًا منها، وبعد غداء وافر يختتم الاحتفال».

وفي صباح اليوم التالي لعرس التلحمية فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11])، نشرت والدتها ملابسها الداخلية بعد أن غسلتها على حبل أمام باب البيت (الشكل رقم 29). وقال الناس إن تلك ليست من عادات أهل أرطاس، وما كان أحد ليفعل ذلك لعروس من القرية. ويعلم أهل أرطاس، ويتناقلون روايات، بأن هناك أماكن يعلن الناس فيها ليلة العرس على الملأ أن العريس ألفى عروسه عذراء[4]، وأن على العروس في أماكن أخرى، أن تذهب إلى النبع بقميصها الملطخ بالدم في صباح اليوم التالي لليلة العرس[5]. وقالوا إن هذا أيضًا ليس من عاداتهم في أرطاس؛ حيث يبحث هذه الأمور «الرجال في ما بينهم»، «والنساء في ما بينهن»[6]، بمعزل عن بعضهم بعضًا.

---

(4) انظر: Ermete Pierotti, *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews* (Cambridge, 1864), p. 188,

«في بعض المناطق الأقل تحضرًا من البلاد، ينتظر والدا العروس مع قلة مختارة من الأصدقاء إلى أن يعلن العريس بنفسه رضاه عن طهارتها. ويتلقى الأهل البراهين على هذا بصيحة فرح، ليسود الصمت بعدها مرة أخرى». ويعطي جوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 83,

الوصف الآتي «وينضم الزوج إلى زوجته، (يَدخُل عليها)»: «وبعد ساعة أو اثنتين يغادر العريس غرفة العروس، وتدخل أمها، المنتظرة بالقرب منها، إلى الفتاة لتعتني بها، والهدف الرئيس من الزيارة إثبات عذرية ابنتها. وبهذه الحقيقة يقطع دابر كل التلميحات الخبيثة، والافتراءات القاتلة، والكلام السيئ الذي قد يمس شرفها. وكدليل على عفة ابنتها، ترسل الأم إلى أقربائها قطعة من القماش مغمسة بدم ابنتها. ويعرض الفلاحون علنًا قميص العروس». ويضيف «وفي حال كانت العروس لم تحافظ على عفتها، فيعيدها زوجها مباشرة، والعرف صارم في هذه المسألة، لكن الأمر نادر الحدوث في نابلس...». [ترجمة عن الفرنسية].

(5) انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 130 n. 2,

«أخبرنا الشيخ رشيد إبراهيم الفوز أن الفتاة في بلدة البيرة تذهب إلى النبع في اليوم التالي لإحضار الماء، وهناك تري رفيقاتها الثوب الأبيض الملطخ بالدم». ويقول شميت وكاله في: Hans Schmidt and Paul Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, Heft 17 (Göttingen, 1918), p. 259,

«بعد العرس يبرهنون على ما كان من عذرية الفتاة (يجب على الفتاة البكر في بيرزيت – ليظهر البرهان – أن تذهب إلى النبع في الصباح التالي لليلة العرس بقميصها الملطخ بالدم الذي كانت ارتدته ليلًا)».

(6) انظر: Frederick Klein, «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*, vol. VI (Leipzig, 1883), p. 100, =

ويفضي هـذا إلى المزيـد من الاهتمـام النـاس بالـزواج الجـديد،

= «وقبيل ظهر اليوم التالي يأتي والدا الزوجين الجديدين وأقرب أقربائهما إلى بيتهما للسؤال عنهما، وتهنئتهما مرة أخرى... وأهم ما يشغلهم في هذا الاجتماع، ولا سيما النساء منهم، هو التثبت من 'عذرية' (بكارة) العروس من خلال إظهار 'علامة البكارة' أو علامة العذرية، أو 'خرقة الدم' (انظر الآيات الثالثة عشرة إلى الحادية والعشرين من الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية). وتحتفظ العروس بهذه الخرقة، في كثير من الأحيان، لفترة طويلة في صندوقها، وتظهرها، كما في حالات كثيرة سمعت بها، كدليل يدحض التشكيك بعفتها». ويضيف: «وغياب مثل هذا الدليل - باستثناء الحالات التي يمكن فيها إثبات براءة الفتاة - يعطي الزوج الشاب الحق بطلاق زوجته في الحال. ولم أرَ (لا يحدث هذا بوجه عام إلا نادرًا) رجلًا يلجأ إلى عمل متطرف كهذا قط؛ إذ إن الاتهامات والتسويات تكون ضمن أضيق الحدود». ويقول شباور وحداد في: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubêbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 130,

«تلتفت النساء إلى الفتاة، ويتظرن هل بنى العريس بها أم لا. فإن لم يكن فعل ذلك، يقلن: 'لم يستطع أن يخضعها!'. ثم يخبرن أباه، فيكلمه في الأمر، وفي الليلة الثانية يصبح سيدها». انظر أيضًا الصفحة 224 من الجزء الثاني من المجلد الرابع من المرجع المذكور.

وفي سوريا يُعرض القميص بحسب: Johann Gottfried Wetzstein, «Die syrische Dreschtafel,» *Zeitschrift für Ethnologie*, vol. v (Berlin, 1873), p. 290,

ويتحدث المؤلف عن «عرض غنيمة الملك الملطخة بالدم»، ويضيف في الصفحة 291: «وهذا الفعل الذي يبدو عبثيًا، هو في حقيقته بالغ الخطورة. فمن جهة العريس، هو إقرار علني بعذرية العروس، وإن اتهمها بغير ذلك في ما بعد، كانت حياته في خطر، أما إذا أخبر 'الشبين'، عندما يحضر 'الصبحة' أنه لا يمكن إقامة أسبوع الملك، فقد يقدم أبو العروس أو أخوها أو وليها في الغالب على قتلها. كما أن عقد الزواج يعد بذلك لاغيًا. إلا أن مثل هذه الحالات نادرة جدًا». ويترجم المؤلف هنا لفظة «شبين» بكلمة «اشبين» أو «مندوب العريس»، ولفظة «صبحة» بـ «وجبة الصباح».

ويقول بيركهارت عن مصر في: John Lewis Burckhardt, *Arabic Proverbs* (London, 1830), p. 117f.,

«جرت العادة عند الطبقات الاجتماعية الدنيا من المسلمين في القاهرة، أن تطوف بعض قريبات العروس بقميصها الداخلي، في اليوم التالي لزفافها، على بيوت الجيران، بفخر واعتزاز. إلا أن الأرفع مكانة من أهل المدينة لا يفعلون ذلك، ولا يعرض قميص العروس لديهم إلا أمام النساء المجتمعات في بيت العريس؛ وفي حالات كثيرة، يرى النخبة من أهل المدينة أن حتى مثل هذا العرض لا يليق، وبات عندهم محظورًا». أما لين فيقول في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 241 n.,

«في صعيد مصر يجتمع أقرباء ومعارف العروسين معًا في اليوم التالي للعرس، وبينما يصفق بعض الرجال بأيديهم على إيقاع دف أو دفين، وأي آلة موسيقية أخرى يمكن الحصول عليها، ترقص العروس أمامهم لفترة قصيرة، وهي تلبس خمارًا يصل إلى عقبيها، ويغطي منديل قطني مزخرف وجهها بالكامل، وترتدي من الخارج أجمل ثياب عرسها (يذكر بيركهارت ذلك في الموضع المشار إليه سابقًا، وفي بعض الأماكن في مصر، يُعلق الثوب على باب بيت الفلاح بعد الزفاف)». ويشير لين هنا إلى الصفحة 117 من كتاب بيركهارت المشار إليه سابقًا. ويكتب بيركهارت في كتابه: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 151n., =

ويظل العريس خجلًا حتى يقول الناس إنه قد فض بكارة زوجته (أخذوِجَّها)[7].

وفي الصباح يتبادل أقارب العريس وأقارب العروس والأصدقاء التهاني.

= «ثمة عادة غريبة بين العرب في صعيد مصر؛ فعندما يدنو العريس من عروسه في ليلة الزفاف، ترافقه إمرأتان، وتشهد هاتان عند خروجهما من حجرة العروسين بأن العريس قد وجد عروسه عذراء. ولا يزور العريس عروسه بعد ذلك مرة أخرى قبل الليلة الثالثة». ويقول المؤلف في الصفحة 62 من المرجع المذكور إن قبيلة العنزة لا يطلبون أي «براهين فظة»؛ فحال الفتاة العذراء الجديد يحملها على الصراخ، ويعد هذا برهانًا كافيًا على حيائها العذري. وإذا ما تزوجت أرملة من قبيلة عنزة، فليس من اللائق أن تطلق مثل هذه الصرخات. ويضيف بيركهارت في الصفحة 63 من المرجع المذكور: «وإذا ما ساور العربي شك في عذرية عروسه عند جماعها، فإنه لا يعجل بكشف سترها خشية إلحاق العار بأهلها، لكنه يطلقها بعد يوم أو يومين، ويذكر أنها فشلت في إشباع رغباته، كسبب كافٍ لذلك». وفي مكة بحسب: Snouck Hurgronje, *Mekka,* II (Haag, 1889), p. 185f.,

ما إن يغادر العروسان الحجرة في الصباح، حتى تهرع أم العروس إلى سرير العروسين: «وتمسك بالملاءة (الشرشف) الملطخة بالدم لتريه للنساء اللاتي كن بتن هناك تلك الليلة، فيرحب الجميع بعلامة العفة بالزغاريد (غطرفة) الملائمة».

ويروي ليو أفريكانوس (Leo Africanus) في: Leo Africanus, *The History and Description of Africa,* II (London, 1896), p. 450,

الآتي عن عرس في فاس قبل أربعمئة عام: «... وتقف امرأة على باب حجرة العروس تترقب إلى أن يناولها العريس منديلًا ملطخًا بالدم بعد أن يفض بكارة عروسه، فتحمله وهي تعجز عن ضبط نفسها لتريه إلى الضيوف، وتعلن بصوت مرتفع أن العروس كانت حتى ذلك الوقت عذراء طاهرة لم تشبها شائبة... أما إذا تبين أن العروس لم تكن عذراء، يبطل الزواج، وتعاد العروس إلى بيت والديها بخزي عظيم». ويكتب ويسترمارك عن الوقت الحاضر في: Edward Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 267f.,

«إن عرض الثوب الذي يحمل علامات العذرية علانية، عادة شائعة في المغرب، وإن لم تكن عامة».

وأختم هذه المراجعة بالإشارة إلى كتاب: Ernest Crawley, *Studies of Savages and Sex,* Edited by Theodore Besterman (London, 1929),

حيث يقال في الصفحة 330 وما يليها إن فضل العذرية يعود إلى غريزة التملك المستندة إلى أفضلية بيولوجية. في ما يتعلق بفضل العرائس العذراوات، انظر: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage,* I (London, 1925), p. 163.

(7) يقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes,* p. 83,

إذا كان العروسان متعبين جدًا «يمكن تأجيل اللقاء الأول، وبالتشاور مع الوالدين، يومًا واحدًا، لكن لا يجوز تأجيله أكثر من ذلك، لكي لا يسمحا للشائعات بأن تطال أهليهما» [ترجمة عن الفرنسية].

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«في الصباح، عليها أن تقبِّل يد حماتها، وأخت زوجها، وحماها، والأقارب، وكل من يدخل عليها.

وتقول حماتها:

«مبارك بيتك يا بنيتي (امبارتش بيتتش يمّا)!».

فتجيب:

«بارك الله فيك!».

ويقول حماها:

«مبارك بيتكِ يا بنيتي (يابا)!»[8].

فتجيب:

«بارك الله فيك!»».

وعندما يذهب العريس إلى منتدى الرجال، على العروس أن تذهب إلى النبع في الصباح الباكر لتملأ جرتها بالماء.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ذات مرة:

«تذهب العروس إلى النبع لتملأ جرتها، حتى يأتي معها الخير».

---

(8) نلاحظ أن الحماة تخاطب الزوجة الشابة بلفظة «يَمَّا»؛ أي «يا أمي»، وأن حماها يخاطبها بلفظة «يابا»؛ أي «يا أبي»، وفي الترجمة استخدمت كلمة «ابنة». ويتفق هذا في اللغة العربية واستخدام المرأة للفظة «أمي» عند مخاطبتها لابنها، واستخدام الرجل للفظة «أبي» عند مخاطبته لأبنائه، الأولاد والبنات على حد سواء. انظر أدناه في الحاشية الثانية من الصفحة 308 من هذا الكتاب. ويشير ليتمان إلى الأمر ذاته في: EnnoLittmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge (Berlin, 1902), v. 3, p. 96.

انظر كذلك الصفحة 134 حيث يحاول المؤلف تفسير أصل هذا الاستخدام اللغوي من ناحية نفسية. انظر أيضًا: Béchara Chémali, «Moeurs et usages au Liban. L'Éducation,» *Anthropos*, vol. XII-XIII (Wien, 1917-1918), p. 628,

«من الطريف والمألوف جدًا أن ينادي الأب، والأم، والجدة، وما إلى ذلك، الابن أو الابنة، والحفيد أو الحفيدة، مستخدمين لفظة الأب والأم والجدة، وما إلى ذلك، مطلقين عليهم اللقب الذي ينبغي أن يكون لهم» [ترجمة عن الفرنسية].

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«وتفعل ذلك لتحبل، وتظل ملأى بالأطفال (منشان تحبل وتضل ملانة)»[9].

ولست أدري، فربما تفعل ذلك أيضًا لتأكيد انتمائها لمجتمع النساء في القرية؛ فكما أن منتدى الرجال هو مكان اجتماعهم، فالنبع هو مكان اجتماع نساء القرية، وقد يكون لهؤلاء النساء الحق في الاطلاع على أحوالها. كما يعرف الرجال في منتداهم كل شيء عن العريس. وعند النبع، تمطر النساء العروس بالأسئلة.

وبحسب ما قالت الست لويزا، تحب النساء مداعبة العروس التي تشعر بالخجل، بسؤالها أسئلة محرجة، ولكن يجب أن لا يغلظن عليها.

وروت لنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن لقائها بشلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]) عندما جاءت إلى النبع في الصباح الباكر من اليوم التالي لعرسها، ووجدت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) هناك تتوضأ للصلاة، فكان تبادل التحيات الجميلة الآتية بين المرأتين: العجوز حمدية (ابنة سليمان سند [183]) والعروس الشابة شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]).

حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«عافاك الله يا شلبية (إلعواف يا شلبية)!»

العروس الشابة شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]):

«عافاك الله وأحيا لك إخوتك (الله يعافيتش أو يخليلتش إخوتتش)!»

(9) بعد الحديث عن الأفعال المذكورة أعلاه (في الصفحتين 403 و407 من هذا الكتاب) والمتعلقة بالعجين الخمير بهدف إنماء العروس للعائلة، يقول ويلسون في: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London, 1906), p. 114.

«وللغاية ذاتها، عليها أن تذهب في الصباح التالي فتجلب الماء مرتدية ثوبًا أبيض ذا حاشية خلقة تحت ثوبها الخارجي، وترمز خيوطة الكثيرة البادية إلى الذرية الوافرة».

حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«ليكن بيتك خيِّرًا ومباركًا (مليح ومبارتش بيتتش)!»

شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]):

«بارك الله فيكِ (الله يبارتش فيتش)!»

حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«إن شاء الله ستعمري بيتك بالأولاد (إنشا الله بتعمْري أو بتشْري)»[10]!

شلبية (ابنة أحمد خليل [98]، وزوجة عبد درويش [126]):

«ختم الله لك بخير (الله يعطيتش إلآخرة الصالحِة)»[11]!

حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«عوضك الله خيرًا (الله يعوض عليتش)!».

وبحسب ما قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) فإن المرأة التي تأتي إلى بيت العريس في صباح اليوم التالي ليوم العرس، تتبادل التحيات الآتية: مع العروس وأهل البيت.

تقول المرأة الزائرة:

«صبحكم الله بالخير، وبارك في ما عملتم (الله يصبحكو بالخير مبارتش ما سويتو)!»

فيجيبون:

«بارك الله فيكِ (الله يبارتش فيش)!».

وتقول الزائرة:

«إن شاء الله ستعمر البيت بالأولاد (انشا الله بتعمِّر أو بتشِّر)!».

(10) الست لويزا: «أي بالأطفال، لأن الأطفال هم عمار البيت».

(11) الست لويزا: «ليس تعبيرًا إسلاميًا، بل يُظهر تأثيرًا مسيحيًا».

وتلتفت إلى العروس وتقول:

«فليكن مقدمك زيتًا وزيتونًا وخضرة (يا ريتتش زيت أو زيتون أو حِلة خضرة)!»[12].

فتجيب العروس:

«فليرزق الله كل من اشتهى (الله يطعم كل مِشْتهي)!».

وهذه عادة النساء في اليوم التالي ليوم العرس؛ إذ يذهبن إلى بيت العريس للتهنئة. وقد حذوت أنا والست لويزا حذوهن. ودونت في مفكرتي الملاحظات الآتية عن زيارة كهذه في 25 تشرين أول/ أكتوبر من عام 1926، اليوم التالي لعرس يوسف محمد [149]، وسعدة درويش (زوجة يوسف محمد [149]).

لقينا العريس خارج البيت وهنأناه. وفي البيت، رحبت بنا أمه رحمة إنَّعيمة (زوجة يوسف شاهين [138]) ودعتنا للجلوس، وقدمت لنا العنب، وحدثتنا عن تكاليف العرس: كان مهرها مئة جنيه تنقص خمسة قروش، وكيسي أرز، وكيس قمح، وتسعة من المعز، وسمنًا، وزيت السمسم، وسكرًا، وقهوة، وتبغًا (تتن) وتبغًا (تنباك) للشيشة، ولم يفعل الرجال أي شيء على الإطلاق. وهناك الثياب! فقد كسونا نساء العشيرة قاطبةً باستثناء صبحة شختور (زوجة جبر أحمد [156]) لأنها لم تكس أحدًا عندما احتفلت بزواج ابنها[13].

واستدعوا العروس، فجاءت وقبلت أيدينا تحية لنا، وجاءت أمها وحيَّتنا. وقالت لنا أخت العريس إنها أخذت زوجة أخيها إلى النبع في الصباح (الشكل رقم 28)، وعقبت أم العروس بقولها إنهم لا يعرفون هذه العادة في قريتهم، أي قرية الخَضْر؛ فهناك لا تذهب العروس لجلب الماء؛ إذ لا يوجد نبع في الخَضْر؛ فهل يمكن أن تكون عادة ذهاب العروس لملء جرتها بالماء في صباح اليوم التالي لعرسها، رهن بوجود ماءٍ جارٍ، أو «ماء حي»[14] في القرية؟

---

(12) ليس «ثوبًا أخضر».

(13) انظر: Hilma Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village* (Helsingfors, 1931), I, p. 129.

(14) في الآية العاشرة وما يليها من الإصحاح الرابع من إنجيل يوحنا.

الشكل رقم 28:
سعدة تذهب إلى النبع بعد زفافها.

الشكل رقم 29:
امرأة قادمة لتهنئة العروس في اليوم التالي للعرس.

الشكل رقم 30: ذبح بهيمة قدمها ضيوف العرس هدية.

وعندما أخبرنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بزيارتنا لبيت العريس، وبأن أم العروس لا تزال هناك، قالت:

«تمكث أم العروس عشرة أيام، أو خمسة عشر يومًا، أو عشرين يومًا، أو حتى شهر، إلى أن تستقر ابنتها هناك».

وإذا لم تستطع أمها فعل ذلك، يرافق العروس بعض أقاربها ليطلعوا على حالها في بيت زوجها، ويفعلون ما في وسعهم لأجل راحتها وسعادتها. بهذه الطريقة تمكن كل من عم فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) وأمها من مساعدتها في تحقيق رغبتها بأن يكون لها ولزوجها حجرة خاصة بهما.

وخلال الأسبوع الذي يلي العرس، يأتي الناس من أماكن أخرى: فيأتي الأنسباء أو الأصدقاء لتهنئة العريس وعائلته. ويسوقون معهم في العادة ماعزًا أو أكثر «قَوَد»[15]. وعندما يصل الزوار، تصعد امرأة إلى سطح بيت العريس، وتحييهم بالزغاريد وأغاني الترحاب، فتغني على سبيل المثال:

«جاءتنا ذبيحة تمشي (أجتنا جريرة[16] تمشي)

(15) في ما يتعلق بلفظة (قود)، والتي تعني حرفيًا «قيادة»، وتشير إلى بهيمة للذبح، انظر: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 119 n. 3 and 134 n. 1.

ويقول في الصفحة 119 عن عريس في لفتا: «إن كان له أصدقاء أو أنسباء في قرية أخرى، يحضرون له (قَوَد)، ويمكثون لحضور العرس، ويقدمون الهدايا كالآخرين. إلا أن من الواجب على العريس أن يكسو كل واحد منهم ثوبًا». انظر: Elias Hadad, «The Guest-House in Palestine,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. II (Jerusalem, 1922), p. 281,

«إذا لم يكن الضيف مجرد عابر سبيل، وإنما تعمد المجيء، فإنه يحضر ذبيحة أو أكثر كهدية. ويأتي الضيوف بالذبائح في الأعراس، وزيارات العزاء، والتهنئة بسلامة العائدين من سفر».

(16) الجريرة هي خروف بحسب عليا (ابنة ابراهيم عودة [1]). ووضحت أيضًا قائلة: «هي ذبيحة». انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 246,

«إذا لم يتسنَّ للمدعوين حضور الدفن، يذهبون بعد سبعة أيام أو أكثر إلى أهل الميت، وتحضر كل عشيرة خروفًا، يسمى جِريرة (تسمى الدعوة إلى الأفراح جِريرة أيضًا). ويذبح أحد أقرباء المتوفى الخروف.. للعشاء». انظر أيضًا الحاشية السابقة.

ومعها خروف وكبش — معاها خاروف أُو كبشي

وهذا فعلك يا عيسى — أُو هذا فعلك يا عيسى

فالنذل لا يفعل مثل هذا» — أُو النذل ما يفعلش!)

وما إن يصل الضيوف إلى بيت العريس، حتى يذبحوا الأغنام التي ساقوها إكرامًا للعريس. وفي (الشكل رقم 30) صورة لمشهد كهذا أمام بيت عبد درويش [126]، عندما وصل رجال لتهنئته يسوقون أغنامًا. ويهيئ الضيوف الطعام لمضيفهم، ثم يكون عليه أن يضيفهم في صباح اليوم التالي قبل مغادرتهم.

وبعد زواج سليم مسلَّم [199] للمرة الثانية، جاءه رجال من سِعْير، وهي قرية أمه حليمة (زوجة مسلَّم عبد الله [197])، ومن بيت جالا؛ حيث تزوجت ابنة عمه هدله (ابنة سلامة عبد الله [196]). وكلما زادت صلات الرجل، وارتفعت مكانته، ازداد عدد مهنئيه.

ولا يعمل العريس ولا أهل بيته في أول أسبوع بعد العرس(17)، ويلزمون

(17) سمي الزفاف عند قدماء العرب «سِبَع» لأن الاحتفالات كانت تدوم أسبوعًا. انظر: Julius Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 442,

واحتفل الإسرائيليون القدماء كذلك بأسبوع الزفاف. انظر الآية السابعة والعشرين من الإصحاح التاسع والعشرين من سفر التكوين: «أكمل أسبوعها». انظر كذلك شرح غُنكل على سفر التكوين في: Hermann Gunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*, Edited by Wilhelm Nowack (Göttingen, 1922), p. 329.

وانظر الآية الثانية عشرة من الإصحاح الرابع عشر من سفر القضاة، والآية السابعة عشرة من الإصحاح الحادي عشر من سفر طوبيا، والآية الثامنة من الإصحاح الرابع من سفر المكابيين الثالث. ويقول سنوك هرخرونيه في: Hurgronje, *Mekka*, p. 186,

«ينبغي على الرجل شرعًا أن يمكث ثلاثة أيام متتالية مع زوجته الجديدة، وإذا كانت الزوجة بكرًا، فعليه أن يكرس لها سبعة أيام». وبحسب موسل في: Musil, *Arabia*, p. 196,

في الأيام السبعة الأولى بعد العرس، يسمى الرجل المتزوج حديثًا «عريس»، والمرأة المتزوجة حديثًا «عروس»، وخلال هذا الوقت عليهما أن يمتنعا عن أي نوع من العمل.

وقد حظي وصف فتزشتاين للحياة الملكية للعريس بكثير من الاهتمام في الأدبيات، انظر: Wetzstein, «Die syrische Dreschtafel,» *Zeitschrift für Ethnologie*, p. 288,

«أجمل الأوقات في حياة الفلاح السوري هي الأيام السبعة الأولى التي تلي عرسه، والتي يعيش =

البيت استعدادًا لاستقبال الضيوف. وحتى العروس لا تفعل الكثير، بل ترفل متألقة في ثوب العرس الذي يميزها عن الأخريات بثيابهن البسيطة.

= فيها مع زوجته الشابة حياة ملك (مِلِك) وملكة (مِلِكة). ويعاملهما أهل القرية، والمدعوون من جيرانهم كما لو كانا كذلك». وينظر إلى العريس في المغرب كسلطان بحسب ويسترمارك في: Westermarck: *Marriage Ceremonies*, p. 118, 274, and *The History of Human*, II, p. 261 n. 5,

وقد يكون الأبسط والأقرب للطبيعة أن نرى في هذا تعبيرًا عن التكريم الذي يحظى به العروسان؛ فللعريس وللعروس مكانة خاصة في القرية، وهما موضع اهتمام الجميع. ومن التفسيرات المعروفة لعادة النظر إلى العروسين كما لو كانا ملكًا وملكة، هو الرغبة في إبعاد الأخطار عن العروس والعريس، فهما عرضة لأنواع كثيرة من همزات الشر في ما يعتقد، ولا سيما تلك الخارقة للعادة، كالأرواح الشريرة، وألوان السحر، والعين. قارن ذلك بما يرد عند: William Oscar Emil Oesterley, *The Sacred Dance: A Study in Comparative Folklore* (Cambridge, 1923), p. 29,

«والطريقة الأخرى لمقاومة، أو في الأقل، لتلافي هذه الأخطار، هي تغيير الهوية، ومن هنا نشأت هذه العادة العالمية، التي لا تزال متبعة في بعض البلدان، من تقمص العروسين حالة «ملكية»، ومعاملتهما كملك وملكة خلال فترة احتفالات الزفاف».

ووجود هذه العادة في فلسطين ليس مؤكدًا. ويشير ليتمان في: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*, Neue Folge, p. 88,

إلى أغنية عرس دونها يقال فيها عن العريس: «ويمشي كالملك ببطء ووقار». ويقول المؤلف في الصفحة 88 وما يليها إن العريس – الملك يسمى باسم الملك الذي يحكم البلاد. ويروي روتشتاين في: Rothstein, «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem,» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, p. 123, 136,

أن العريس يحتفل لسبعة أيام، ويفسر الأمر في الصفحة 427 والحاشية الرابعة قائلًا: أي إنه لا يعمل خلال هذا الوقت، لكن الأمر لا يمت بصلة لما يسمى بـ «أسبوع الملك». ومعظم أولئك الذين كتبوا عن عادات الأعراس في فلسطين، لا يذكرون شيئًا عن «أسبوع الملك».

وفي المقابل، أخبر غير باحث عن وليمة اليوم السابع بعد العرس، ومنهم، على سبيل المثال: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 83.

وبحسب بيروتي في: Pierotti, *Customs and Traditions*, p. 189f,

يرسل والد العروس هدية لها في اليوم الثالث بعد العرس «ليبرهن أنه لن ينساها، وأنه مستعد لمساعدتها دائمًا إذا ما دعت الحاجة لذلك. فتأخذ المال وتدعو بعض الأصدقاء إلى الغداء، وهؤلاء يهدونها المال أيضًا قبل أن يغادروا». وإضافة إلى ذلك هناك وليمة اليوم السابع بعد العرس، والتي يدعو الزوج إليها أقرباء العروس، انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 145 n. 2.

ويقول موسل في: Musil, *Arabia*, p. 195,

نتيجة للعادة التي تقتضي أن لا تغادر العروس البيت لسبعة أيام بعد العرس: «مع حلول الليلة السابعة، تجتمع النساء أمام بيتها، ويذبحن ذبيحة (ذُبيحة الحنا)، ويرقصن، ويخضبنها بالحناء، ويأكلن =

وبعد العرس بأسبوع، تزور العروس بيت أبيها، وهي تحمل طبقًا من الأرز واللحم على رأسها، وفي مقابل ذلك، تحصل على هدية من والديها[18].

وعندما ينتهي الأسبوع، تلبس الزوجة الجديدة ملابسها اليومية البسيطة، وتبدأ الحياة العادية في بيت زوجها.

= اللحم». وفي سوريا أيضًا بحسب صافي في: M. Safi, «Mariage au Nord du Liban,» *Anthropos*, vol. XII-XIII (Wien, 1917-1918), p. 143,

تكون هناك وليمة كبيرة في منزل العريس في اليوم السابع بعد العرس. وبحسب سنوك هرخرونيه في: Hurgronje, *Mekka*, p. 186,

ثمة وليمة في اليوم السابع، لأن على العريس أن يكرس سبعة أيام للعروس البكر. ويتحدث لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 274,

عن احتفال في اليومين السابع، واليوم الأربعين بعد العرس، ويقول عن احتفال اليوم السابع: «جرت العادة عند الأزواج في مصر أن يحرموا أنفسهم من حقوقهم الزوجية خلال الأسبوع الأول بعد الدخول بعروس بكر، ويعد انتهاء هذه الفترة سببًا للابتهاج». وفي حاشية جديرة بالاهتمام، يقارن هذا الاحتفال بما يشار إليه في الآية السابعة والعشرين من الإصحاح التاسع والعشرين من سفر التكوين، والآية الثانية عشرة من الإصحاح الرابع عشر من سفر القضاة. ويتحدث ويسترمارك في: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 291ff.

عن احتفالات في اليومين السادس والسابع بعد وصول العروس في المغرب.

(18) بحسب جوسان في الصفحة 84 من المرجع المشار إليه سابقًا، يختتم احتفال الأيام السبعة بعد العرس بعودة الزوجة الشابة إلى بيت أبيها لبضعة أيام. «تحصل في اليوم الثالث على هدية من والديها – ثياب أو أساور – ثم تعود إلى بيت زوجها» [ترجمة عن الفرنسية]. وفي حاشية يشير المؤلف: «وتتوقع العروس أن تنال حقها من الهدايا. وأستشهد هنا بمثال المرأة الشابة التي ظلت في بيت أبيها شهرين مطالبة 'بالهدية التقليدية'. وقدموا لها على التوالي ثوبين جديدين، إلا أنها رفضت 'بحجة أنها لم تكن كافية!'؛ فقد أرادت العودة إلى زوجها بأثواب تليق بمكانتها» [ترجمة عن الفرنسية]. ولعلي أضيف إلى هذا، ما حدث في أرطاس، إذ جاءت بعض النساء المتزوجات في قرى أخرى لحضور زفاف أخ لهن، ثم أبين العودة إلى بيوت أزواجهن قبل أن يحصلن على ثياب ثمينة بما يكفي لتعويضهن من الهدايا التي كن أتين بها. ويقول صافي في: Safi, «Mariage au Nord du Liban,» *Anthropos*, p. 143,

«وبعد عرسهما بثلاثة أيام، يذهب الزوجان برفقة أصدقائهما إلى منزل والدي العروس التي تدخل بيت أبيها رسميًا للمرة الأخيرة» [ترجمة عن الفرنسية].

الحياة الزوجية

الفصل السابع
المرأة في بيت زوجها

الزوجة وأقارب زوجها

لا تتغير حال الرجل في مجملها بالزواج، فمع أن بإمكانه الآن أن يؤسس عائلة جديدة (عيلة أو دار)، وأن يكون بذرة لنسل جديد، إلا أن هذا لا يحدث بين ليلة وضحاها، فهو لا ينشئ بيتًا جديدًا بزواجه، بل يمكث مع زوجته في بيت العائلة.

وعند انتهاء أسبوع العرس، يعود أفراد العائلة الذين تركوا البيت مساء يوم العرس، ويخصصون للعريس زاوية صغيرة لفراشه هو وزوجته. ويبدو أن هناك نمطًا متبعًا في هذا المجال؛ إذ بيَّنت لنا النساء مواضع فُرُش كل فرد من أفراد العائلة؛ ففي حجرة واحدة، يعيش الرجل وزوجته، وأولاده وبناته العزاب، وكذلك أولاده المتزوجون وزوجاتهم وأولادهم. ويتناولون الطعام معًا، ويرون في المشاركة في النفقات ميزة لهم؛ فهم يدركون أن التكاليف تكون هكذا أقل بكثير من أن يعد كل فرع في العائلة طعامه وحده.

ولهذا لام الناس التلحمية فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11])، بعد زواجها من عيسى خليل [11] عام 1927 حين أصرت على أن يكون لها ولزوجها حجرة خاصة بهما، ولم تقنع بالعيش مع أهله. وأيدها في ذلك عمها وأمها، وكان لها ما أرادت. وعاشت فاطمة شختور (زوجة عيسى خليل [11]) هي وزوجها في أرطاس قرابة عام ونصف، ثم أقنعت زوجها بالرحيل إلى

بلدتها بيت لحم، وشجعته على تأسيس تجارة صغيرة هناك، ولا ندري حتى الآن، إن كانت ستتمكن من إنفاذ خطتها الكبرى بالذهاب إلى أميركا الجنوبية.

وخلافًا لفاطمة (زوجة عيسى خليل [11])، يؤكد الناس في أرطاس أهمية بقاء الزوج مع أقاربه، ويتمسكون بالرأي القديم القائل بأن الرجل بمفرده ضعيف، وأن الأخوة إذا ما اتحدوا، وعملوا معًا في وئام، فلا غالب لهم[1]. وفي فترة انتقالية كالتي نحن فيها الآن، قد يزداد تمسك الناس بهذا المبدأ؛ فعندما ينفك أحدهم عن مجتمع العائلة، تجد الناس يذكرونه بالقيم القديمة، في تناقض صارخ مع التهاون الحديث.

وفي ما مضى، كان موسى شاهين [135] زعيمًا حقيقيًا للعشيرة، يرشد عشيرته، ويدبر أمورها كلها في ما يتعلق بالزواج، وبالشؤون المالية أيضًا[2]. وحتى الآن، يصرِّف رجل واحد في العائلة، في الغالب، مواردها المالية؛ فهو يحوز كل ما يصل إليها من مال، ويدبر نفقاتها. وهذا هو واجب الأب أو الأخ الأكبر. وحتى لو عمل أحد أفراد العائلة خارج القرية، فإن عليه أن يضم أجره إلى موارد العائلة المشتركة. وليس للرجل أن يحصر اهتمامه بزوجته وحسب؛ فالزواج لا يعني التحرر من العائلة، كما هي الحال عندنا، بل على العكس من ذلك، إنه يعزز ارتباط الرجل بأفراد عائلته الذين ساعدوه في الحصول على عروسه، وينتظرون منه الآن الوفاء بالتزامه نحوهم. ولأن العريس عادة ما يكون صغير السن، فإنه لا يفكر في التحرر، ويتولى جزءًا من عمل البيت، ويطيع أخاه الأكبر أو أباه كما كان يفعل من قبل، وينتمي، كما كان دومًا، إلى العائلة الكبيرة التي هو جزء منها[3].

---

(1) انظر المزمور 133.

(2) انظر: Hilma Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village* (Helsingfors, 1931), I, p. 54.

(3) يقول جوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 14,
«إذا لم يشأ الزوج مغادرة منزل أو خيمة أبيه، يُخصص جزء لاستخدامه ليعيش تحت سلطة وتعليمات الأب، كما كانت عليه الحال قبل الزواج. ويهيء خيمة له ولزوجته، إذا كان أكثر ميلًا للاستقلالية، ليؤسس بيتًا جديدًا» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول جيننغز بريملي في: W. E. Jennings-Bramley, «The Bedouin of the Sinaitic Peninsula,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXIX (London, 1907), p. 25, =

ونتيجة لهذا النظام العائلي الأبوي، لا ترتبط الزوجة بزوجها وحسب، بل تنضم إلى بيتها الجديد «عيلتها» تابعة لزوجها، ويكون لها بالطبع واجباتها الخاصة بها، لكنها تكون، على أي حال، جزءًا صغيرًا من منظومة أكبر بكثير[4]. ومع ذلك، أو بالأحرى لذلك، فإن التغيير الأكبر الذي يحدثه الزواج يصيب المرأة دون الرجل؛ فهم يجتثونها من محيطها «أهلها» ويغرسونها في بيئة مختلفة تمامًا - بيت أبي زوجها - حيث يكون عليها أن تروّض نفسها لتوائم منزلها الجديد، بين أفراد أسرتها الجديدة «عيلتها»، وهم أهل زوجها «أهله»[5]. ويبرز هذا الواقع الجديد في أغاني الأعراس التي تعبر عنه في صور عديدة،

= «.. قد يضطرا للعيش في خيمة أبيه (والتي تقسم عندئذ بحجاب) إلى أن تغزل وتنسج العروس الشابة ما يكفي من شعر الماعز لصنع خيمة لهما. وتعد بعض الفتيات الخيمة قبل الزواج. وقلة هم من يشترونها؛ إذ إنها تكلف ما بين 4 إلى 5 جنيهات استرلينية». ويرى غُنكل في شرحه لسفر التكوين في:
Hermann Gunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*, Edited by Wilhelm Nowack (Göttingen, 1922), p. 315,

أن كلام رِفقة لإسحاق في الآية الرابعة والستين من الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين يشير إلى أن المرأة أقامت عند الإسرائيليين القدماء في بيت حميها أو خيمته. وهو يحيل على: Haller 94.

(4) يتحدث شميت وكالِه في: Hans Schmidt and Paul Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, Heft 17 (Göttingen, 1918), p. 108, n. 27,

عن الشعور المميِّز للعلاقة بين الفلاحين: «الرجل أقرب إلى أخيه من زوجته. وهذه تشعر... بأن زوجها وأخاه وحدة واحدة إزاءها». ويقولان في الصفحة 259 من المرجع المذكور: «ويشعر رجال العشيرة الواحدة أن أحدهم أقرب إلى الآخر من الرجل إلى زوجته».

(5) تحدثت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن معنى لفظتي «أهل» و«عيلة» بالطريقة الآتية:

«في ما يتعلق بالرجل، فإن أباه، وأمه، وإخوته، وأخواته؛ أي بيت أبيه كله، هم 'أهل'. أما أولاده وبناته وزوجته فهم 'عيلة'. عندما يأتي يوسف بن أحمد اشمعين الذي يسكن في حبيلة إلى أرطاس يقول: 'سأذهب إلى البيت إلى أهلي (بدِّي أروِّح على أهلي)!' - وعندما يعود إلى زوجته وأطفاله يقول: 'سأذهب إلى البيت إلى عائلتي (بدِّي أروِّح لعيلتي)!'». ثم تتحدث عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن الأمر ذاته من منظور المرأة: «زوجها وأطفالها وحماتها وحموها وإخوة زوجها وأخوات زوجها (بنات الحما) هم 'عيلة'». وبينما تشير لفظة «عيلة» عند الرجل إلى زوجته وأطفاله، نجد أنها عند المرأة لا تقتصر على الزوج والأطفال، بل تضم بيت أهل الزوج أيضًا التي باتت هي أحد أفراده.

وقد أشارت الست لويزا غير مرة إلى أن: «الناس يقولون: 'للمرأة حماة، لكن ليس للرجل حماة' - وهم يعنون بذلك أن الرجل لا يدخل بيت والدي زوجته إلا في حالات استثنائية، بينما تعيش هي في بيت والديه».

تدور جميعها حول محور واحد هو: «تذهب العروس من بيت أبيها إلى بيت زوجها، تذهب من بيت الفرح إلى بيت البؤس، من بين أهلها إلى الغرباء».

وهذا هو قدر المرأة البائس؛ أن تخرب بيتها، لتعمر بيت «الغريب».

ومن أقوال الناس في هذا:

«بيت البنت خرب؛ فهي تعمر بيت الآخرين (البنت بيتها خارب بتعمر بيت غيرها)»[6].

ويتحرج أهل العروس من التخلي عن أحد أفراد العائلة للغرباء، ولهذا يسود الفرح في بيت العريس؛ حيث يرقصون ويغنون قبل يوم العرس بأيام عديدة، بينما يسود الصمت والسكون في بيت أبي العروس. وحتى العروس ذاتها تكون حزينة، وتبكي كلما مر في خلدها هاجس ترك بيت أبيها. وقد رأينا أن النساء يحاولن تأسيتها بأغانيهن؛ إذ يذكّرنها بأن أخاها سيزورها[7]، ورأينا كذلك أن أباها وإخوتها يؤكدون لها عند مغادرتها بيتهم أنهم سيحملون همومها حتى في مستقبل الأيام، وعمها يعدها أن يظل ركيزة وسندًا لها ما دام حيًّا. ويدل هذا كله على أن ارتباط المرأة ببيت أبيها يظل وثيقًا حتى بعد زواجها[8].

وفي الواقع، فمن الضروري لحياة المرأة أن لا تنقطع علاقتها ببيت أبيها بصورة تامة أبدًا، وتتيسر إدامة هذه العلاقة إذا ما تزوجت أحد أقاربها، أو في الأقل، رجلًا من قريتها، بينما يصبح ذلك عسيرًا إذا تزوجت غريبةً في مكان آخر[9]. غير أنه يبقى لعلاقتها ببيت أبيها أعظم الأثر في حياتها على الدوام. فمكانة المرأة في بيت زوجها رهن بالدعم والتقدير الذي تحظى به من بيت

(6) انظر أعلاه في الصفحة 556 من هذا الكتاب – انظر أيضًا في: Elihu Grant, *The People of Palestine* (London and Philadelphia, 1921), p. 65:

«الأولاد يزيدون البيت، والبنات ينقصنه» ويعقب الكاتب على ذلك بأن البنات مساءة، لأنهن يذهبن ليعززن بيتًا آخر، لا البيت الذي أطعمهن ورباهن.

(7) انظر أعلاه في الصفحة 354 وما يليها من هذا الكتاب.

(8) انظر أعلاه في الصفحتين 440 و441 وما يليها من هذا الكتاب.

(9) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 94f.

أبيها. ولهذا تستحق المرأة المقطوعة (قطيعة)، أي التي مات أقاربها الرجال: أبوها وإخوتها وأعمامها، الكثير من الشفقة؛ إذ لا يكون لها سند من أهلها في مواجهة عائلة زوجها[10] الذين يظلون دومًا «غرباء» عنها. هكذا هي حال المرأة بعد الزواج، و«المرأة الحكيمة» لا تقر أبدًا بأنها أكثر راحة في بيت زوجها، حتى لو كان الأمر كذلك؛ فبالنسبة إليهم ستظل غريبة، وعلى الأرجح، فإنهم لن يدعوها تنسى هذه الحقيقة.

وتبين القصة الآتية، أن المرأة تنظر إلى أهل زوجها كما لو كانوا أعداءها الطبيعيين.

حدثتنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن جارة لها زارت امرأة شابة حديثة عهد بالزواج، ودار بينهما الحوار الآتي:

«كيف هم حماتُك وابنة حماتك وحماك؟	(تشيف حماتتش أو بنت حماتتش أُو حماتشي
ايه، أتمنى أن يهلكوا جميعًا!	يي يا خَيْتي يِقطع هجُّرا
الحماة حُمَّى، وابنتها عقرب سامة	إلحماة حِمة أُو بنت إلحماة عَقربِه إمسمه[11]
ولعل الأشيب الهرم يجاور الشيطان»	أُو إلشّايب إتّلَعبان في جيرة إلشّيطان)

وفي غمرة الحديث، لم تلاحظا أن حماها كان يستريح في الزاوية وقد غطى رأسه بعباءته، كما يفعل الشيوخ دائمًا، واستمع صاحب اللحية البيضاء.

«وأنصت ذو اللحية البيضاء لها ثم قال: أنتِ!	(إلشّايب ناصت عليها أُوبِقُلها يا فلانة
قالت: لك العون يا عم	قالتلو عونك عمي[12]

(10) انظر أيضًا: Hilma Granqvist, «Bruderschaft und Frauenehre,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, XXIII (Berlin, 1927), p. 12ff.

(11) يُقتبس المثل أيضًا في: Eberhard Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXXIX (Leipzig, 1916), p. 166, and Lydia Einsler, «Arabische Sprichwörter,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XIX (Leipzig, 1896), p. 83.

وتقدم المؤلفة المذكورة أعلاه صيغة أخرى للمثل: «الحماة سم وابنتها عقرب سامة، أما حفيدتها فلا تسمي (الحماية سمة وبنتها عقربة مسمة؛ وبنت بنتها ما بتسمى)».

(12) في ما يتعلق بمناداة المرأة لحميها بلفظة «عمي» انظر: Enno Littmann, *Beduinenerzählungen*, = II (Strassburg, 1908), p. 43.

قال: ماذا تقولين؟ قَلها شو بتقولي؟

أي عم، ماذا أقول؟ قالت يا عمي شو بَقول

الحماة حمّام (بهيج) وابنتها جنة وينبوع إلحماة حمَّام أو بنت الحماة جَنه أو شِيدِزوَان

ولعل الأشيب الهرم يجاور الرحمن أو إلشّايب إتّعبان في جيرة الرحمن

فقال: كان الله في عونك يا كنتي، يا محرفة الكلام» الله يجيرتش يا تشنه يا قلابِة إلتشلام)!

ألا يظهر هذا بوضوح الحيرة التي تعيش فيها الزوجة؛ إذ عليها أن تبجل أولئك الذين تمقتهم، وتقاسي منهم؛ فها هي أخت الزوج تتذمر: «عندما جاءت زوجة أخي، أفسدت علي صباحي». ويُحزن الحماة أن عليها أن تحمل ابن عدوتها في حجرها، بينما لا يمكن لابن حبيبتها أن يبقى معها.

ويقول الناس:

«لا ينفع المرأة العجوز ابن ابنتها، وإنما ابن ابنها، لكن العجوز حمقاء (ما بنفع إلعجوز ابن بنتها، إلا ابن إبنها، آلاً العجوز جهول)»[13].

ويقولون أيضًا:

«ابن الحبيبة ذهب وتركني (ابن الحبيبة راح أو خلاّني

= ويحسب سليغمان في: C. G. Seligman, «The Kabâbish, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II (Cambridge (Mass.), 1918), p. 126f.,

ينادي الرجل حماته مستخدمًا لفظة «عمتي» وإن لم يكن متزوجًا من ابنة عمته.

(13) قارن هذا بما يقوله تايلور في: «The Arabian Matriarchate» A reply to Dr. Redhouse's Notes on Prof. E. B. Tylor's Arabian Matriarchate, propounded by him as President of the Anthropological Section of the British Association, Montreal, 1884, in: *Journal of Royal Asiatic Society*, p. 19,

«ينص قول بليغ ومعروف من الأقوال العربية المأثورة على الآتي: 'أبناء أبنائنا هم أبناؤنا؛ وأبناء بناتنا هم أبناء غرباء'». وفي السياق ذاته انظر الصفحة 18 من المرجع المذكور: «لقد تجاوزت الدراسة الحالية بعد المراجعة جميع الحجج المادية، الواحدة تلو الأخرى، والتي ساقها البروفيسور ويلكن (Wilken) في دراسته الخاصة الموسومة بالعنوان: عن الأمومية عند العرب القدماء (On the Matriarchate among the Old Arabians)؛ إذ لم يكتشف أي أساس يصلح لدعم القول بوجود نظام كهذا بينهم أو بين نظائرهم من الأمم السامية في أي وقت من الأوقات». انظر: Julius Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 446.

وجاء ابن العدوة وكرهني» ابن العدوة عدًّا أو عدّاني)

وهي تعني بـ «الحبيبة» ابنتها التي تترك البيت عند زواجها، وتعني بـ «العدوة» كنتها التي تنافسها في حب ابنها.

لهذا تقول المرأة عن ابنها:

«هو دميتي في طفولته (أو هو ولد لعبتي
وحبيبي في شبابه أو هو شب حبيبي
وعدوي إذا تزوج» أو هو متجوّز عدوي)

والأمثال الآتية تظهر قلة التعاطف والوئام بين أم الرجل وزوجته:

«حتى لو صار البحر جنة (إن تشان البحر بيصير جنه
لا يمكن للحماة أن تحب الكنة عُمْر الحماة ما حبَّت إلتشنه
وحتى لو صار البحر مقثأة إن تشان إلبحر بيصير مقثاة [14]
لا يمكن للكنة أن تحب الحماة» عمر إلتشنه ما حبَّت الحماة)

ويظهر الشيء نفسه في الرواية الآتية التي تحكي عن زيارة امرأة لحماتها في اليوم التالي للعرس:

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): تأتي امرأة وتقول:

«مبارك ما عملتِ (مبارتش ما سوّيتي
لقد أدخلت حية إلى البيت جبت حيَّة لبيتي[15]

(14) في ما يتعلق بهذا التعبير قارن: Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 162,

«أ) اعمَل البحر مقاثي أو ب) بلِّط البحر = انظر: Löhr, S. 108, 6.

اجعل البحر مقثأة. بَلِّط البحر!.. قارن في هذا الصدد، ثمة تصحيح في الآية الثانية عشرة من الإصحاح السادس من سفر عاموس حَرَش يام».

(15) قارن هذا بالمثل الذي يردده الناس كثيرًا في أرطاس: «الأفعى لن تصبح أختًا أبدًا (إلحيَّة ما بتصير خيَّة)، وقد دونه باومان أيضًا في الصفحة 166 من المصدر نفسه.

أَخذَتْ مَن ربيتُ　　　　أخذت ما ربيتي
وأَخرَجتْ ما خبأتُ»　　　　أُو طالت ما خبيتي)!

(أي وضعت يدها على مخزون البيت من مال وطعام وما إلى ذلك).

ويظهر هذا الكلام أن الكنة قد تكون لها اليد العليا إزاء حماتها في بعض الأحيان؛ فهيمنة إحدى الامرأتين على الأخرى رهن بقوة العزيمة إلى حد كبير، وليس العمر هو الفيصل بينهما دائمًا، إلا أن السائد هو أن تكون الهيمنة للحماة كما ينبغي. وتُنصح العروس بإطاعة حماتها، والابن البار يتحيز إلى أمه في مواجهة زوجته. والمرأة الفطنة، تدرك أن ابنتها لن تبقى في البيت إلا بضع سنين، وأن كنتها هي التي ستبقى عندها طوال حياتها، فتبادر، لتتلافى خطر تمرد الكنة عليها، إما إلى اختيار فتاة صغيرة السن تروضها كيفما تشاء(16)، وإما إلى اختيار فتاة من أقاربها ترجو أن تكنَّ لها المودة(17)، وتكون لها اليد العليا عليها.

ولهذا؛ فهناك مقولة أخرى تناقض المقولة السابقة على حد قول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«أصبحت مبتهجة بكنتي التي دخلت البيت بالأمس　　　　(ليلة التشنه أصبحِت فرحانة)».

«فسألْت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «لماذا تعد الأم نفسها محظوظة؟»

وتلقيت الإجابة الآتية:

«أولًا: الكنة تحمل أعباء عمل البيت.

ثانيًا: لن تحمِّلني عبء غسيل ثياب زوجها ورفئها؛ فهذا الآن عمل الزوجة.

ثالثًا: لأنها ستبني البيت».

وقد قدمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) وصفًا مجملًا ودقيقًا لواجبات

---

(16) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 44f.

(17) انظر الصفحة 95 من المصدر نفسه.

المرأة المتزوجة؛ فمن جهة هناك عمل البيت[18]، ومن جهة أخرى، بناؤه، أي إنجاب الأولاد[19]. وهاتان الوظيفتان أساسيتان، ولا ينبغي أن تطغى إحداهما على الأخرى[20].

وقد بيَّنا من قبل، أن زواج الرجل قد يكون لتلبية رغباته هو نفسه وحسب، ولكن، ليس ثمة ما يستلزم ذلك ضرورة؛ فقد يتزوج الرجل لحاجة أهله إلى من يتولى واجبات تختص بها النساء، ولا تليق بالرجال، أو لحاجة للنساء للمساعدة في عمل البيت؛ ففي كثير من الأحيان، يتزوج الرجل لتحل زوجته مكان أخت أو ابنة ذهبت، أو لأن أمه صرحت بأنها لم تعد قادرة على تدبير شؤون البيت، وأنها في حاجة لمن يعينها. وحتى لو كانت تريد أن تنفع ابنها بهذا الزواج، فإنها هي التي تسعى إليه، وتكون المساعدة في عمل البيت أهم عندها من زواجه، ولا سيما إذا كان ابنها صغيرًا، لن يحتاج إلى زوجة إلا بعد مضي سنوات[21]. وفي هذه الحالة، يكون على الزوجة أن تتعامل مع حماتها مدة من الزمن قبل أن تُمكِّن لنفسها عند زوجها. ونلاحظ أن المرأة ما إن يصبح لديها كنة في البيت لا تعود مضطرة إلى طحن الحبوب بنفسها. وكان طحن

(18) في ما يتعلق بعمل الزوجة انظر: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 87ff.; Alois Musil: *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 211, and *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (New York, 1928), p. 231f.

(19) انظر الآية الحادية عشرة من الإصحاح الرابع من سفر راعوث: «فليجعل الرب المرأة الآتية إلى بيتك كراحيل وكليئة اللتين بنتا بيت إسرائيل». وقد قالت الست لويزا غير مرة إن البدويات «يبنين البيت» حقًا؛ فهن يغزلن وينسجن أستار بيت الشعر. انظر: Musil, Ibid., p. 211, «هي تنسج من شعر الماعز أستار البيت وتخيط بعضها إلى بعض، وتبني البيت وتنقضه». انظر أدناه في حاشية الصفحة 516 من هذا الكتاب.

(20) قارن المثل «في الليل ممدودة، وفي النهار مشدودة (فِلّيل ممدودة، وفِنْهار مشدودة)»، والمثل «في الليل امرأتي، وفي النهار حمارتي (فِلّيل مَرّتي وفِنّهار حمارتي)»، إلا أن نساء أرطاس أنكرن هذا المثل الأخير لما ينطوي عليه من السخرية، وقلن إنه لا ينطبق على قريتنا. وورد هذا المثل أيضًا لدى كل من: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 15, and Musil, Ibid., p. 15.

ويقول جوسان في ما يتعلق بهذه المسألة (في الصفحة 14 وما يليها من المرجع المذكور) إن المهمة الأولى للمرأة في الفكر السامي هي إنجاب الأطفال لزوجها، أما مهمتها الثانية فهي العمل كخادمة. انظر كذلك: Musil, *The Manners and Customs*, p. 231.

(21) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 43f.

الحبوب من أشد الأعباء ثقلًا على النساء؛ إذ تطلّب جلوس المرأة إلى الطاحونة حتى منتصف الليل. وتجلب الكنائن الماء أيضًا، ويجمعن الحطب والزبل، وما إلى ذلك. ولهذا يقول الناس إن مثل المرأة التي لديها كنائن كمثل «السيدة» ذات الخدم، وتنظر المرأة ذاتها إلى هذه المكانة المثالية بعين السرور. وكما أن النظام العائلي الأبوي فيه رجل بارز، له الرياسة والزعامة، تكون السيادة بين النساء، أو ينبغي أن تكون، للمرأة الأكبر سنًا[22]. والكنة لا تتولى من أعمال النساء إلا ما يوكل إليها، ولهذا فهي تعد مفيدة، حتى لو كانت صغيرة جدًا، لا تحسن إلا أعمالًا متفرقة كرعي الماعز، وربما ستكون لها في المستقبل مكانتها في البيت، فتسود بدورها على نساء أولادها، ولكن في شبابها، عليها السمع والطاعة[23].

الزوج والزوجة

إذا كان عمل الزوجة الصغيرة بهذه الطريقة يبين طبيعة علاقتها بحماتها، ويجعلها تابعة لها، فوظيفتها الأخرى، أي بناء البيت، والتي لا تقل أهمية عن عملها هذا، تحدد علاقتها بزوجها. وإذا كان العريس والعروس لا يزالان أطفالًا، تراقبهما أم العريس، ولا تسمح بالاتصال الجنسي بينهما حتى ينضجا، ولكن قد يحدث بالطبع أن يقع الزوجان الصغيران في هذا في غفلة منها؛ فقد روي عن محمد أحمد [178]، وزوجته فاطمة (ابنة إبراهيم خليل [175]، وزوجة محمد أحمد [178]) أنهما اغتنما فرصة غياب أمه، عندما ذهبت

(22) سنتناول هذه المسألة المتعلقة بسلطة امرأة على نساء أخريات في سياق الحديث عن تعدد الزوجات، حيث يبرز هذا المفهوم - أي ضرورة أن تكون الرياسة لإحداهن - بصورة جلية. انظر أدناه في الصفحة 194 وما يليها من هذا الكتاب.

(23) يقول ويلسون في: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London, 1906), p. 116,

«في كثير من الأحيان، تكون حياة الشابة حديثة العهد بالزواج، في الأماكن التي تعيش فيها العائلات بعضها مع بعض، شاقة جدًا؛ فهي في مثل هذه الحالات، ليست إلا أمة لحماتها، وكثيرًا ما يؤدي هذا إلى الشقاق والتعاسة، ولا سيما عند المسيحيين. وعادة ما تخلو العلاقة بين الحماة وكنتها من الود، وتتصرف الحماة في كثير من الأحيان على نحو استبدادي تجاه زوجات أبنائها، وهي تذكر بلا ريب، ما عانته في بداية حياتها الزوجية؛ تمامًا كما يكون أقسى ساسة العبيد ذلك الذي كان هو ذاته عبدًا يومًا ما».

تساعد جارتها في الولادة[24]. وإذا رأت أم الزوج أن الوقت قد حان لتبدأ كنتها في الزواج، تجلب لها ثيابًا جديدة، وتهيئها لذلك. وأحيانًا يسمح للزوجة الصغيرة أن تبقى في بيت أبيها حينًا من الزمن بعد العرس.

وقالت عِثمانة (ابنة عِثمان [66]، وزوجة علي شاهين [136]): «أنا لن أعطي ابنتي حتى تأتي زوجة ابني إلى البيت!» وكانت الأخيرة طفلة، وأُخذت يوم العرس إلى بيت عريسها؛ حيث «نامت في حضن أمها»، ثم عادت إلى بيت أبيها، ولم تذهب إلى بيت زوجها حتى كبرت.

وحدث الشيء عينه مع حمدة (ابنة خلاوي [108]، وزوجة محمد خليل [6]).

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي:

«أركبوها مع حميها على حصان العروس في البداية، لكنها لم ترغب في البقاء مع أهل زوجها، وعادت إلى بيت أبيها. وبعد ثلاث سنوات قال محمد خليل [6]: «أريد زوجتي!»، فقال أبوه: «هيئ لها جهازها (على الزوج أن يشتري جهاز العروس)، وبعد ذلك سأحضرها لك!». وخضبوها بالحناء، ثم جاءوا لأخذها في اليوم التالي، فأجلسوها على جمل، وغنوا، وأعدوا وليمة من الأرز واللحم».

إذا ظلت الزوجة الصغيرة في بيت زوجها، فيخشى أن يواقعها قبل البلوغ.

كان محمد يوسف [149]، ذو العشرين ربيعًا، والذي تزوج عام 1926 بنتًا تبلغ أحد عشر عامًا، كئيبًا ومستاءً؛ لأنه لم يستطع أن يحتفل بأسبوع زواج حقيقي، ثم بدأ أهله يتركون الزوجين معًا لوحدهم ليتيحوا له فرصة البدء بحياته الزوجية، وقالوا إن على سعدة (زوجة محمد يوسف [149]) أن تتعلم أن لا تخاف من زوجها.

---

(24) علقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على هذا قائلة إنه ليس بالإمكان الركون إلى فرخ الديك (فرخ الذنشر ما بنحَقّر). انظر أيضًا: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 36 No. 10.

وفي ظل مثل هذه الظروف، قد يحدث أن تحمل الزوجة بطفل قبل أن تبدأ بالحيض[25]. ولا يجد أهل القرية في ذلك حرجًا، ولكن الزوجة الطفلة قد تتمرد على ذلك بقوة؛ فقد أخبرتني حمدة الزير (زوجة محمد إسْمَعين [53])، وهي امرأة من التعامرة جيء بها إلى أرطاس وهي لا تزال طفلة، أنها ظلت تنادي زوجها بلفظة (عمي) مدة طويلة[26]، وعندما علمت أنه زوجها، فرت إلى أهلها. ويروى الشيء نفسه عن نساء أخريات. وبطبيعة الحال، فإن أهل العروس الطفلة، يريدون أن تحظى ابنتهم بالحماية والرعاية لأطول فترة ممكنة، ويركنون في ذلك عادة إلى الزوج وأهله، ولكن الأم الحريصة قد تلجأ إلى السحر أحيانًا لحماية طفلتها. ومن المعروف أنه من الممكن استخدام السحر عند إبرام عقد الزواج للتأثير في العريس و«ربطه» ليبتعد عن عروسه، فلا يستطيع معاشرتها. وهذه هي الفرصة التي تغتنمها أم العروس الطفلة أحيانًا، فتعمل عمل الخاطب الذي رُفضت خطبته، أو العدو الذي يريد الانتقام[27]، ولكن، في حين يرمي هؤلاء إلى عرقلة الزواج أو إبطاله، إنما تريد هي المَطْلَ في دخول العريس بابنتها.

وهذا ما قالته عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«إذا كانت العروس صغيرة جدًا، همست أمها لأبيها: «ابنتنا صغيرة جدًا،

---

(25) انظر المصدر نفسه، ص 34.

(26) كانت تنادي زوجها بلفظة «عمي» لأنه كان أكبر منها بكثير. في ما يتعلق بمخاطبة المتزوجين بعضهم بعضًا كأبناء عم (بنت عمي، إبن عمي)، انظر المصدر نفسه، ص 81. وثمة ألفاظ أخرى مستخدمة. حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «ينادي الرجل زوجته: 'يا امرأة (يا مرا)!'. وعندما يتحدث عنها يقول: 'زوجتي (حُرمتي)'. وتنادي المرأة زوجها بكنيته لأكبر أبنائه؛ فتقول على سبيل المثال: 'يا أبا اسْمَعين (يا بو اسْمَعين)!'. وعندما تتحدث المرأة عن زوجها تقول: 'زوجي (زَلْمَتي)'. وعندما يكتب رجل يخدم في الجيش رسالة إلى زوجته يقول: 'ألف حمل سلام إلى زوجتنا (ألف حِمْل سلام لجوزتنا)!' - ويكتب لأخته: 'لِشقيقتنا (لَشقيقتا)'».

ومن الأدب مخاطبة الزوجة بكنيتها لأكبر أبنائها، والزوج بكنيته لأكبر أبنائه. ويقول ستيفان في:
Stephan Hanna Stephan, «Palestinian Animal Stories and Fables,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. III (Jerusalem, 1923), p. 189 n. 4,

«يحب الناس أن يكنّوا باسم الابن البكر». انظر أيضًا: Grant, *The People*, p. 73.

(27) انظر أعلاه في الصفحة 331 وما يليها من هذا الكتاب.

وسيكون عارًا علينا إذا فرت من بيت زوجها!»، فيشفق الأب على ابنته، ويعقد عُقَدًا (في شريط من القماش أو خيط)، لكنه لا يحكمها كثيرًا، لكي يتمكنوا من فكها لاحقًا (عندما تكبر ابنته)، ويحتفظون بالخيط».

وفي هذا السياق، روت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) حكاية من صُورِيف:

«تزوجت عروس طفلة، وفعلت أمها هذا عند إبرام عقد الزواج، ولما فطنت (أي نضجت)، وكانت تصنع الشعيرية، وجلس [أي زوجها] إلى جوارها، حطت ذبابة على الشعيرية، قالت: «كشش! سأدخل العصا في جسدك!»، فقال: «وهل تدخل العصا في جسم الذبابة؟» قالت: «الجلد مطاط». فذهب إلى أمها وأخبرها بذلك، فأرسلت أمها في طلبها، وفكت العقد، وحممتها، ثم عاشرها»[28].

(28) انظر أعلاه في الصفحتين 28 و80 وحاشيتيهما من هذا الكتاب. انظر كذلك: J. Scheftelowitz, *Altpalästinischer Bauernglaube* (Hannover, 1925), p. 100,

حيث يقول: «من المعتقدات الراسخة في التراث الشعبي الفلسطيني القديم، أن بالإمكان ربط الرحم أو إبطال خصوبة الرجل باستخدام وسائل سحر الربط لمنع إنجاب الأطفال، حتى تفك العُقد مرة أخرى». وبحسب الكاتب، فإن «الربط» يعني «السحر». ويقول المؤلف في الصفحة 97 من المرجع المذكور: «بحسب فهم معظم البسطاء، فإن كل سحر ضار هو 'ربط'». كما ويتحدث في الصفحة 100 عن «إزالة السحر بفك العُقد». ويظهر الاعتقاد بسحر العُقد في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۞ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ۞﴾. ويشير مارمادوك بكتال (Marmaduke Pickthall) في الصفحة 677 من ترجمته للقرآن (New York, 1930) إلى هذا قائلًا: «ذلك أن أحد أشكال السحر التي كانت شائعة بين النساء في الجزيرة العربية هو ربط عقد في خيط والنفث فيها بلعنة ما». انظر أيضًا: Ignaz Goldziher, *Islam fordom och nu: Studier I Korantolkningens historia* (Stockholm, 1915), p. 76f.

ويروي المؤلف كيف أن يهود المدينة (بحسب الصفحة 4 وما يليها من المجلد الثاني من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد البغدادي) أغروا الساحر لبيد بن الأعصم وبناته ليسحروا النبي [عليه الصلاة والسلام] الذي كان عاد لتوه من الحديبية. فحصلوا على بضع شعرات من شعر النبي [عليه الصلاة والسلام]، وعقدوا فيها إحدى عشرة عقدة وأخفوها في زهرة نخلة ذكر، وألقوها في بئر ثم سدوه بحجر. وكان للسحر تأثيره؛ فقد أصبح النبي [عليه الصلاة والسلام] هزيلًا وفقد شهيته للطعام، وبدأت تعصف به خواطر شريرة. وأخيرًا تدخل الملكان جبريل وميكائيل فأخبراه عن السبب وراء ما يحدث له. فأخرج غصن شجرة النخيل من البئر وفُكَّت العُقد، وبهذا بطل السحر وذهب عن النبي [عليه الصلاة والسلام] =

ويمكن أن تحول بين العريس والعروس أمور أخرى؛ فحتى شدة فرحة العريس بعروسه يمكن أن تضره[29].

روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن عريس زنجي:

«لم يستطع أن يفعلها لشدة فرحه، وذهبت أمها في صباح اليوم التالي، وقالت لها: «مريم!»، قالت: «نعم!». قالت: «هل خلعت قميصك؟»، فسألت: «وهل ينبغي أن أخلعه؟ لماذا؟ ليس ثمة ما يدعو لذلك». قالت الأم: «هل أعطيتُ ابنتي لامرأة؟» قالوا لها: «اصبري قليلًا!». وهنا جاءت أم العريس آيسة، وقالت له: «لم تزوجتَ؟» فأجاب: «يا أمي، عندما أكون بعيدًا عنها أكون على ما يرام، وعندما أكون معها أكون مثلها (أي كالمرأة)»، هذا من الفرحة. وعسى أن يكون بعيدًا من السامعين، أشعلوا فرن الخبز (الطابون)، وذهب وخطا فوق الفرن (الطابون) ثلاث خطوات. وفي الليلة التالية، نام معها، وكان كغيره من الرجال».

كذلك قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن قريب لها:

«فرح سعد جدًا، ولم يستطع أن يعاشر العروس (ما نفعش الحرمة)، قالوا له: «اخطُ من فوق الفرن (الطابون) ثلاث مرات!» وبعدها زال (سحر الربط) باسم الله!».

ولا يمكن إبعاد الرجل عن المرأة بهذه الطريقة في الفترة الأولى من الزواج وحسب، بل يمكن أن يدوم تأثير السحر سنوات[30]؛ فقد قالت لنا عليا

= ما كان به من البلاء. ويشير غولدتزر إلى كل من: Edmond Doutté, *Magie et Religion dans l'Afrique du Nord* (Alger, 1909), p. 217; *Mitteilungen der Anthropologischen Gesellschaft in Wien* (Wien, 1901), XXI, p. 137; *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes* (Wien, 1902), XVI, p. 142; *Archiv für Religionswissenschaft*, VIII Beiheft, p. 23ff., and *Proceedings of the Society of Biblical Archaeology*, XXVIII, p. 80.

(29) انظر أعلاه أيضًا في الصفحة 310 وما يليها من هذا الكتاب.

(30) انظر: Taufik Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, vol. XXI (Leipzig, 1929), p. 41,

«يُنظر إلى العنِّين على أنه 'مربوط' (بتأثير الجن)».

(ابنة إبراهيم عودة [1]) إن السحر فرق بين محمود عِثمان [32]، ونفيسة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة محمود عِثمان [32]) خمسة وعشرين عامًا.

«جاء شيخ من غزة، ووضع حجر «حِيضان» (وهو حجر يستعمل تميمة سحرية من أجل الخصوبة) في النار حتى احمرَّ، ثم قال له الشيخ: «تبوَّل على الحجر!»[31] ثم سلقوا بيضة، وكتب الشيخ على البيضة، وقسمها بينه وبينها، فامتنعت عن أكلها، حتى هددوها بأن يزوجوها لبدوي من التعامرة، فقالت: «لن أذهب! أفضل أن آكل البيضة». وأكلت البيضة فزال السحر في تلك الليلة[32]. في اليوم التالي، ذبحوا ثورًا ورقصوا وزغردوا، وبعد تسعة شهور أنجبت محمد محمود [35]».

ولا توجد أسرار في الزواج في القرية، ويكون الزواج الجديد محل اهتمام العامة. وصحيح أنهم يقولون «إنهم يفصلون بين العروسين خشية أن يسمع أحد حديثهما، وذلك كي لا يخجلا من بعضهما بعضًا عندما يحين اللقاء»، إلا أن الناس، كما بينا سابقًا، يتتبعون أخبارهما في اهتمام كبير.

ومع أن الناس في أرطاس لا يعلنون نبأ فض البكارة على الملأ، فإن الرجال يتحدثون عن ذلك في ما بينهم، وكذلك النساء، كما قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183])، واهتمامهم هذا يطال الرجل والمرأة على حد سواء.

---

(31) انظر: Edward Westermark, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London, 1926), p. 573,

«عند قبيلتي آيت سعد الدين وآيت وارين، يحرق الرجل المسحور ذكر ثعلب، ويعرض ذكره للدخان الصاعد منه». لوسائل مشابهة انظر الصفحتين 322 و324 من المجلد الثاني من المرجع المذكور.

(32) تستخدم البيضة هنا لأغراض سحرية. في ما يتعلق باستخدام البيض بهدف زيادة الخصوبة انظر أعلاه في حاشية الصفحة 103 من هذا الكتاب. انظر كذلك: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, II (London, 1925), p. 485f., and Ibid., II, p. 311,

«البيضة... تستخدم في ممارسات سحرية أو علاجية ولأغراض متعددة: لزيادة الخصوبة عند المرأة، وزيادة القدرة على الإنجاب عند الرجل، وتسهيل الولادة، وتحسين الجو، وفي الأعراس لجعل حياة العروس أو العريس أو كليهما مشرقة وسعيدة، أو لمساعدة العريس على المعاشرة الزوجية». في ما يتعلق باستخدام البيض لأغراض سحرية في العرس، انظر أعلاه في الصفحة 359 وما يليها، وفي حاشية الصفحة 307 من هذا الكتاب.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «قد يقال عن العروس: «إن عينها لم تُكسر». العين المكسورة لا راحة لها، ولكن الأخرى تنظر في ثقة إلى الناس. في الحالة الأولى يقال: «إن المحراث ليس حادًا، لا بد أن نأخذه إلى الحداد ليشحذه».

وفي الصباح التالي لليلة العرس، يحمل كل عريس القهوة والسكر، ويذهب إلى منتدى الرجال ليتلقى التهاني. وإذا كان ضعيفًا بدت عيناه متعبتين، وإلا فإنه يكون طيب الخاطر عندما يذهب إلى المنتدى.

وقد قالوا عن أحمد مصطفى [74] الذي عرض له حادث قبل الزواج: «لن تحمل منه امرأة». وعندما تزوج فض بكارتها كما يفعل الرجال، ولطخ منديله، وقال: «هذه دماء ابنة سند (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) لا تقولوا إنني لا أفهمها (أي لا يرجى مني نفع)!»، وكان هذا في المنتدى أمام الرجال».

وقالت الست لويزا: «ذهب مزهوًا بنفسه إلى منتدى الرجال يحمل منديله. ولو لم يكن مثل الرجال لأخذ أهل العروس ابنتهم منه، وكانت أمه في قلق شديد تخشى أن يضيع كل ما أنفقوه».

ويشق على الرجل أن لا يتيسر له أن يعلن أنه قد فض بكارة زوجته بعد ليلة العرس الأولى.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «كان عبد خلاوي [110] خائفًا من زوجته حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110])، فضحك الشباب والكبار منه، وقالوا له: «أنت لم تفض بكارتها!». كان قلبه ضعيفًا، ولكنه تذرع بأنها لم تسره، ثم جاء بقطعة من أذن ماعز وفركها بقميصها. وفي صباح اليوم التالي وجدوا أن شيئًا من أذن الماعز قد قطع. لماذا؟ الأمر جلي.

وبعد ذلك حملت وأنجبت ولدًا، فقال: «الولد ليس ابني!»».

وأدى غياب الانسجام بينهما إلى فسخ زواجهما، كما سنبين لاحقًا[33].

وفي حالات الشك، يأتي إخوة المرأة، المسؤولون عنها، فيسألونها: «هل يأتيك زوجك؟» فإذا كان الزوج عنِّينًا، أو لا يأتي زوجته، لن يمنحها الزواج الحماية المطلوبة؛ إذ إنها لن تأمن القذف، وستكون سمعتها في خطر؛ فعندما يقال: «إن الزوج حماية (إزّلمة سترة)!» لا يعنون بذلك أنه يحميها ويعينها عند الحاجة؛ فهذا واجب الإخوة بشكل رئيس، ولربما يضطرون لحمايتها حتى من زوجها؛ وإنما يحميها زواجها من القذف والشك في شرفها (إلعرض). وسنبين لاحقًا كيف أرغم أخوة امرأة في أرطاس زوجها العنِّين على فسخ الزواج وطلاق أختهم[34].

ومن جهة أخرى، فإن من الأهمية بمكان أن تكون العروس عذراء، ومن الخير لها أن يعلم أهل القرية ذلك[35].

وثمة سبب آخر يسهم في عزل العروسين أحدهما عن الآخر، وهو الرغبة في حمايتهما من الأخطار بأنواعها، والتي تحيط بهما خاصة. ولا يقتصر الخطر على ليلة العرس وحسب؛ فكلما كان بينهما اتصال كانا عرضة للخطر، ولا سيما من الشياطين (الجن)[36].

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «عندما يذهب الرجل لينام مع زوجته، وعندما يرفع طرف ثوبها يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم!»

وإذا لم يقل هذه الكلمات فسيأتي الشيطان قبله، وسيكون الأولاد شياطين»[37].

---

(33) انظر أدناه في الصفحتين 532 و564 من هذا الكتاب.

(34) انظر أدناه في الصفحة 570 وما يليها من هذا الكتاب.

(35) انظر أعلاه في الصفحة 127 وما يليها من هذا الكتاب.

(36) في ما يتعلق بالجن انظر: Taufik Canaan, *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine* (London, 1927), p. 86f., and Westermarck, *Ritual and Belief*, I, p. 374ff., 378f.

(37) انظر أعلاه في الحاشية 164 في الصفحة 124من هذا الكتاب. وانظر كذلك: Canaan, =

وتبين القصة الآتية عن رجل من أرطاس أتى زوجته في بستانهما، كم ينبغي أن يكون المرء حريصًا!

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«محمد إسْمَعين [53]، وسعدة (زوجة محمد إسْمَعين [53]) لم يطلبا الإذن ولا المعذرة (ما طلبوا لا دستور ولا حاذور)[38] ولا سمّيا (أي لم يذكرا اسم الله) يجب أن يقولا: «يا أهل الأرض! نحن تحت حمايتكم «(يا أهل الأرض نحنا في العرض)!»[39].

وكان هذا تحت شجرة تين «قراوية»»[40].

وكانت عاقبة استهتارهما أن تلبَّس جني المرأة[41]، واستدعوا شيخًا ليطرده.

«كلم الشيخ أبو السعود، وهو الذي فسر حلم السلطان محمود، الجنيَ وأمرَه: «أخرج منها!»، فأجاب الجني: «لن أخرج!» فسأله الشيخ: «أين أتتك؟»،

«Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, p. 22, =

«إذا لم يذكر الرجل اسم الله قبل البدء بالجماع فإنه سيرى في اللحظة الحاسمة من الإلقاح أن جنيًا سيأخذ مكانه ملقحًا فيسلبه الأبوة».

(38) في ما يتعلق بلفظة «دستور» وحدها أو مرافقة للفظة «حاذور» انظر: Canaan, Ibid., p. 86f. Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 339, 342f.

انظر أعلاه في الحاشية الأولى من الصفحة 403 من هذا الكتاب.

(39) انظر أيضًا: Canaan, *Mohammedan Saints*, p. 87.

(40) أشار دلمان في: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I (Gütersloh, 1928), p. 379,

إلى أن لشجرة التين الكثير من الأوراق والأغصان، حتى إن الناس ليلجأون إليها طلبًا للعزلة، ولا سيما إن تدلت أغصانها إلى الأرض، ويضيف: «ولهذا اجتمع الحَبر عقيبة بتلاميذه تحت شجرة تين، وجامع رجل زوجته هناك».

(41) انظر: Theodor Nöldeke, «Ancient Arabs,» in: James Hastings, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, I (Edinburgh, 1908), p. 670,

«كثيرًا ما يدخل جني (واحد من الجن) إلى الإنسان فيصبح ممسوسًا أو مجنونًا». ويقول المؤلف نفسه في حاشية في المرجع المذكور: «'أن يكون المرء ممسوسًا' يعني أنه قد 'جُنَّ'، واسم المفعول 'مجنون' تعني 'ممسوس'».

فقال: «أتتني عندما كنت تحت شجرة التين القراوية»، وسأله ثانية: «لماذا أتيت إليها؟» قال: «أنا لم آتِ إليها! هي وزوجها أتيا إلي، وقد نامت علي من غير إذن ولا معذرة. هذه غنيمتي، ولن أخرج منها حتى آخذ حياتها»»(42).

وعندما يعود الرجل من رحلة طويلة، عليه أن ينتظر بعض الوقت قبل أن يأتي زوجته(43).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «سليمان جاد الله [22] عاد من شرق الأردن، وكان هناك ملاريا. وقالت له عائلته: «احترس من الجنابة!» ولم يستمع لنصيحتهم، ومرض وأشرف على الموت، وجاءوا له بقطعة نقد قديمة (توضع هذه في النار، وتخرج بملقط)، وكواه الرجال على عورته.

إن الذين يأتون من البحر (أي من أوروبا أو أميركا)، والذين يأتون من شرق الأردن، والذين يأتون من الخدمة العسكرية، لا يجرؤون على مخالطة زوجاتهم قبل مضي ثلاثة أسابيع. ومن لا يستطيع أن ينتظر (من كانت روحه سيئة) سيقع في المتاعب».

وتروي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي عن الأحكام التي يجب أن يتبعها الرجل بعد معاشرة زوجته:

«يغتسل الرجل بعد أن يأتي زوجته، ويقول عند الغسل: «أغتسل بماء طهور طاعة لله العظيم ولرسوله لأطهر قلبي»».

---

(42) ثمة تشابه كبير هنا بين الطريقة التي يحاول الشيخ من خلالها طرد الجن من المرأة «الممسوسة» وما يرد في الإنجيل عن الطريقة التي شفى بها المسيح «رجلًا تلبَّسته الشياطين لفترة طويلة، ولم يكن يرتدي الثياب» (انظر: الآية السادسة والعشرين وما يليها من الإصحاح الثامن من إنجيل لوقا، والآية الأولى وما يليها من الإصحاح الخامس من إنجيل مرقص، والآية الثامنة والعشرين وما يليها من الإصحاح الثامن من إنجيل متّى). وفي كل حالة من هذه الحالات دار حديث بين الجن وذلك الذي سعى لإخراجه. انظر أيضًا أدناه في الصفحة 469 من هذا الكتاب. انظر: Musil, *The Manners and Customs*, p. 412.

(43) يقول ويسترمارك في: Westermark, *Ritual and Belief*, p. 4,

«قيل لي في فاس إن من المكروه أن يأتي الرجل زوجته ليلة سفره، لكنني سمعت العكس تمامًا في طنجة».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ذات مرة: «بعيدًا منك! في فترة الحيض (إلعذر، إلحيض، إلعادة)، لا تكون المرأة طاهرة. ويكون الرجل غير طاهر في حالة واحدة، أما المرأة ففي حالتين: الجنابة من زوجها، ونجاسة الحيض، ويكون الرجل جُنبًا إذا أتى زوجته.

وإذا لم يكن طاهرًا، لا يجوز أن يصلي (قبل أن يغتسل)، أما إذا كان طاهرًا فإنه ينهض ويصلي. وإذا كان في قرية لا نبع فيها، فهو لا يأتي إلى صلاة الفجر، وهكذا يعرف الناس، ويقولون: «إن الرجل جنب».

على كل الرجال أن يغتسلوا ويصلوا ركعتين للوضوء قبل الصلاة. يملأ الرجل إبريقه بالماء، ويكشف رأسه، ويقول: «نويت الاغتسال لرفع الجنابة، وأقول: لا إله إلا الله»... إلى آخره. وبعد ذلك يصبح طاهرًا، وهذه هي سنة الغسل، ويجب أن يفعل ذلك قبل أن يقرب الصلاة، وإلى ذلك، هناك الوضوء المعتاد»(44).

ثم أضافت:

«إذا لم يكن الرجل طاهرًا شرعًا، فإنه لا يجرؤ على ذبح دجاجة. وعندما يذبحون خروفًا أو ماعزًا، يقولون: «أسألك بالله، هل أنت طاهر أم غير طاهر؟»(45) فإذا كان طاهرًا يقول: «والله إني طاهر». وإذا لم يكن طاهرًا، فإنه

(44) يقول ويسترمارك في المصدر نفسه، ص 4، «يعد الجماع نجاسة بطبيعته، ولهذا يجب أن يتبعه الاغتسال». ويقول تالكفست في: Knut Tallqvist, *Paradisets nyckel eller Hur man tillber Allah* (Helsingfors, 1930), p. 28,

يجب الغسل للطهارة في حالات خمس: الختان، والجماع، القذارة، والحيض، والنفاس. ويقول المؤلف في الصفحة 13 من المرجع المذكور إن الوضوء ضروري للطهارة لمن يريد الصلاة. ويرد في الصفحة 98 من المجلد الأول من ترجمة كتاب المشكاة لماثيوز (Calcutta, 1809): «قال النبي [عليه الصلاة والسلام]: 'إذا جاوز الختانُ الختانَ وجب الغسلُ' أي على الرجل والمرأة». انظر أيضًا الآية السادسة عشرة من الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين: «وإذا خرج مني الجماع من رجل فعليه أن يغسل جسده كله بالماء، ويعد نجسًا حتى المساء». وكذلك الآية الثامنة عشرة من الإصحاح الخامس عشر من السفر نفسه: «والمرأة التي يضطجع معها رجل فيمني يستحمان بماء، ويكونان نجسين حتى المساء».

(45) انظر: Jaussen, *Coutumes palestiniennes*, p. 89, =

لا يتكلم مطلقًا. وإذا لم يكن الرجل طاهرًا، لا يجوز له أن يمشي في جنازة؛ فهم يتوضأون قبل الصلاة على الميت. ولا يجوز له أن يوزع حصص القمح عند البيدر، ولا يجوز له أن يصوم؛ فهو يأثم بذلك كما تأثم المرأة، ولا يجوز له أن يدخل مسجدًا؛ فذلك إثم عظيم (كثير حرام). وإذا كان عليه أن يحلف يمينًا (يحلف إلدّين)، لا بد أن يكون طاهرًا. والذين يقرأون القرآن، ليس لهم أن يمسوا المصحف إلا إذا كانوا على طهارة. وعلى سبيل المثال، لا تجرؤ زريفة (ابنة سعد إبراهيم [5]، وزوجة علي خليل [10]) على مسِّ المصحف؛ لأنها تحمل طفلًا على ذراعها، وابنتها الصغيرة هي التي تناول أباها المصحف؛ لأن الصغيرات (البنات قبل البلوغ) طاهرات على الدوام.

ولا بد من مراعاة الطهارة كذلك في ما يتعلق بالموتى[46].

ولا بد من الطهارة لمن يحضر مجلس ذكر (ترديد اسم الله وتوحيده وما إلى ذلك) من الرجال والنساء[47].

وإن لم تكن المرأة طاهرة، لا يجوز لها أن تمس كفن الميت، ولا يجوز لها أن تدخل مسجدًا، ولا بيدرًا. وإذا لم تكن طاهرة، لا تجرؤ على زيارة امرأة في المخاض، ولا على زيارة المرضى».

وتارة أخرى، قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«بعد الجماع، يكون الرجل جنبًا (جِنِب)، ويجب عليه الاغتسال من الحدث الأكبر (إلغسل)، وإذا لم يغتسل، لا يستطيع أن يحرث الأرض؛ لأنه

= «تعفى النساء من بعض الأعمال المنزلية؛ فذبح دجاجة أو أرنب لا يمكن أن يكون من ضمن اختصاصها. ويرتبط الأمر بالشعور بأن الأضحية تناط بالرجل دون سواه. ويضاف إلى ذلك أن ثمة شعوراً آخر يسيطر على عقول النساء وهو شعور النجاسة؛ فإذا ما ذبحت هي الأضحية فستكون الذبيحة عندها ملوثة بصورة أو بأخرى، ولا ينبغي للعائلة أن تأكل لحمها» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول ويسترمارك في: Westermark, *Ritual and Belief*, p. 367,

قد يفسد الصيد إذا لم يكن الصياد طاهرًا.

(46) للغسل عند الموت انظر المصدر نفسه، ص 434، 444.

(47) في ما يتعلق بتحريم الصلاة والعبادات الأخرى خلال الحيض انظر: A. N. Matthews, *Mishkât*, English Translation (Calcutta, 1810), p. 125.

ليس طاهرًا. ويقولون عنه: «فلان ليس على طهارة اليوم! المحراث مكسور». وليس له أن يلمس كومة القمح (صَليبِة)[48] قبل أن يغتسل[49]، وليس له أن يشارك في جنازة؛ لأنه ليس طاهرًا. وعلى الدرويش (ابن الطّريقة) أن يبعده عن النعش.

كان حسن إحسين [41] جنبًا، ومشى في جنازة، فدفعه النعش بعيدًا! ويعلم الدرويش إن كان في الحضور رجل جنب، ويدفعه بعيدًا. وهل يجرؤ أحد على دخول الحرم في القدس إن لم يكن طاهرًا؟ قطعًا لا! لا النساء، ولا الرجال[50].

وإن لم تكن المرأة على طهارة (إلنّجْسة)، لا ترافق الزوار إلى مقام النبي موسى. وماذا سيحدث إن فعلت؟ ستثور زوبعة وستقذف الحجارة في وجوههم. وسيقولون للدراويش: «ابحثوا وتبينوا!» (إن كان أحد نجسًا).

والجماع محظور في مقام النبي موسى، للمتزوجين والعزاب»[51].

وأخبرتنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) بالقصة الآتية، والتي حدثت هنا في موسم النبي موسى في العام 1926:

«روى الذين شاركوا في الاحتفال الآتي: «جلسنا هناك، ثم ثارت زوبعة، وغطى الناس وجوههم (من الغبار). ثم قالوا: «يا زوار، انظروا ما الأمر!» وعلم

(48) انظر: Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 581.

(49) انظر: Westermarck, *Ritual and Belief*, p. 243,

«يجب على كل من يذهب إلى مخزن الحبوب... أن يكون طاهرًا من الجنابة. فهم يعتقدون أنه إذا لم يكن طاهرًا، لن تذهب بركة الحبوب وحسب، بل سيصاب هو نفسه بالمرض... وعادة لا يسمح للنساء بالذهاب إلى مخازن الحبوب كي لا تذهب بركتها». وقد يكون ثمة استثناء للنساء المصليات.

(50) انظر: Taufik Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, vol. XXI (Leipzig, 1929),p. 44.

(51) انظر: Canaan, *Mohammedan Saints*, p. 95,

«تثور حفيظة رجال الدين إذا زنى أحدهم داخل الضريح أو بالقرب منه. ويُعتقد أن الجبل حيث بني ضريح النبي موسى يهتز بعنف عند الإتيان بمثل هذا الفعل الشائن». في ما يتعلق بتحريم الجماع في الأماكن المقدسة انظر: Westermarck, *Ritual and Belief*, p. 230f.

أحد الرجال بأمرهم (أي الذين لم يكونوا على طهارة) وقال: «اتبعوني!» وذهب إلى حيث كانوا. وهناك وجدوا رجلًا وامرأة يتعانقان. فساقوهما إلى المفتي في جمع غفير. وأمر المفتي بحبس الرجل، وربطوا يديه وراء ظهره. وعهد بالمرأة إلى الناس لينظروا من أي قرية جاءت»».

وزادت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) في روايتها للقصة ذاتها:

«كان رجال الشرطة على ظهور الخيل، وثارت زوبعة، وتحركت حتى وقفت بجانب الرجل والمرأة. وأحاط الناس بهما، وهما من قريتين مختلفتين، وأخذوهما وأعلما المفتي. وضربا بالسياط، وأخذوا الرجل وحبسوه، ولكنهم استبقوا المرأة حتى سأل عنها أهلها، وجعلوها تعترف.

ويقول المثل:

«لا بد للزيارة من الطهارة (الزْيارة بدها طهارة)».

وإذا لم تكن المرأة طاهرة، لا يجوز أن تزور المرضى، أو امرأة في مخاضها؛ لأنهم يعتقدون أن هذا سيلحق بهم الأذى[52].

قالت الست لويزا:

«إذا كان بعيني أحدهم أذى، وأطالت إليه النظر امرأة بها نجاسة، فلن يأتي ذلك بخير».

وإذا اقتربت امرأة غير طاهرة من ميت بعد غسله، فإنها تدنسه، حتى لو كانت من أقرب أقربائه. ولا يمكن أن تخيط الكفن أو تلمسه، من غير أن تؤذي الميت.

وليس للمرأة أن تصوم في رمضان، أو تصلي، إذا كانت بها نجاسة،

---

(52) يقول كنعان في: Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, p. 44f.,

«في بيت جالا، يثبتون عصا فوق الباب على نحو أفقي، كعلامة على وجود مريض في الحجرة، وبهذا يحول المرء دخول من هم على غير طهارة... والتأثير السيئ للدم والمني يُسمى ’كبس‘ (كبسة)».

وليس لها أن تدخل الأماكن المقدسة، وإذا فعلت، فإنها تعاقب، كما فعل أبو سَكَّري عندما عاقب صبحة (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة عبد خلاوي [110]) من أرطاس، عندما وطأت ضريحه في غفلة منها في بيت سكاريا، وهي غير طاهرة(53).

وحدث هذا عام 1926. وعنه روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«صعدت صبحة (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة عبد خلاوي [110]) إلى سطح الضريح وهي حائض، وخطت خطوتين، وعندما أرادت أن تخطو الخطوة الثالثة، وقفت كالعصا بلا حراك. لم تستطع أن تمشي أو تجلس. قالوا لها: «انزلي!» قالت: «أنا مكبلة». وقرأوا سورة الفاتحة، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا. وقال الناس: «انذروا نذرًا، اذبحوا ذبيحة!» وما إن سال دم الذبيحة حتى استطاعت أن تنزل، ثم سألوها: «أمجنونة أنت أم ثملة (إنتي مجنونة ولا ستشرانه)؟»(54) فأجابت: «لقد كان ما كان»».

ولقد عبرت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) بتأكيد النظرة العامة إلى مسائل الطهارة، عندما قالت ذات مرة: «لا ينجس الرجل إلا من خلال المرأة؛ فالجماع نجاسة». ومن جهة أخرى، تنجُس المرأة في حالات ثلاث: بعد الجماع، كالرجل تمامًا، وكلما حاضت، وأخيرًا كلما وضعت طفلًا. وقد يكون

---

(53) لا تشارك المرأة في موكب الاحتفال بموسم النبي موسى إذا لم تكن طاهرة. انظر أعلاه في الصفحة 160 من هذا الكتاب. انظر كذلك: Canaan, *Mohammedan Saints*, p. 93,

«إذا لم تكن المرأة طاهرة، فليس لها أن تدخل مزارًا أو أن تقترب منه، أو أن تلمس شجرة مقدسة، أو أن تجلب الماء من بئر مقدسة، أو أن تقترب من نبع مقدس». ويقول في الصفحة 94 من المرجع المذكور: «بعض المقدسات المسيحية لا تدخلها النساء أبدًا، كما هي الحال في بعض الأديرة اليونانية كدير القديس مار سابا، والحجرة التي يحتفظون فيها بالحجر المقدس في دير القديس جورج... ولا يسمح للمرأة في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بدخول الكنيسة إذا لم تكن طاهرة. وحتى بعد الولادة يجب عليها أن تنتظر أربعين يومًا، وأن تغتسل قبل أن تدخل بيت الله».

(54) يبدو أنها عبارة دالة على التعجب والغضب من تصرف غريب لشخص ما. انظر أدناه في الصفحة 178 من هذا الكتاب. ونجد سؤالًا مشابهًا من عالي لحنَّة في الآية الرابعة عشرة من الإصحاح الأول من سفر صموئيل الأول.

من المثير للاهتمام أن نستكشف أثر خصائص المرأة الجسدية في مكانتها(55). ويعيب المرأة أن الرجل ينجُس بمعاشرتها، وفترات الحيض المتكررة تضع الكثير من القيود على مشاركتها في الحياة والدين(56).

وأحكام نجاسة المرأة عند السامريين أكثر تشدّدًامن هذا(57)؛ فهم

---

(55) نسمع في كثير من الأحيان عبارة: «المرأة وعاء (إلمرة ماعون)». وقد فسرت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) هذه العبارة كالآتي: «يكون الطفل داخل المرأة، وكذلك دم الحيض – وحتى للزوج هي وعاء». انظر: Ignaz Goldziher, *Muhammedanische Studien*, I (Halle, a. S. 1888), p. 124,

«... ما الأمهات إلا آنية يُعهد إليها بالحفظ، أما المهام السامية فهي للرجال». ويعقب المؤلف على ذلك بالقول: «ومن جهة أخرى، نجد ما يشبه هذه النظرة في أدبيات شعوب كثيرة، ونجد لدى لوغوفي (Legouvé) في كتابه تاريخ القيم الخلقية للمرأة (*Histoire morale des femmes*, 3rd ed., pp. 214-220) عددًا كبيرًا من النظائر لهذه الفكرة في الأدب الهندي واليوناني، إلا أنها أفسدت حياة المجتمع في المشرق الإسلامي على نحو ليس له مثيل في أي مكان آخر، على الرغم من أنها كانت نشأت أصلًا لمكافحة التحيز». انظر الآية السابعة من الإصحاح الثالث من رسالة بطرس الأولى في العهد الجديد، حيث تسمى المرأة الإناء الضعيف.

(56) تقول سارة كون عند حديثها عن أحكام القرآن في: Sara Kohn, *Die Eheschliessung im Koran* (London, 1934), p. 8,

«من أحكام الطهارة... اعتزال النساء في المحيض. أما في الجاهلية فحرمت العبادات على الحائض (انظر: Julius Wellausen, *Reste Arabischen Heidentums* (Berlin, 1897), p. 170)»

إلا أنه لم يكن ثمة ما يجبر الرجل على اعتزال المرأة في المحيض. أما النبي محمد [عليه الصلاة والسلام] فقد أمر بلزوم اعتزال النساء في المحيض، وحرم معاشرتهن» (انظر الآية 222 من سورة البقرة). ويقول تالكفست في: Tallqvist, *Paradisets nyckel*, p. 29,

«وفقًا للمذهب الشافعي على الأقل، فإن المرأة نجسة حقًا طيلة فترة الحيض، وكذلك بعد الولادة طيلة فترة النفاس التي تقدر عادة بـ 40 يومًا، وخلا هذه الفترة لا يجوز لها أن تصلي، أو أن تطوف بالكعبة، أو أن تصوم، أو أن تمس المصحف، أو أن تتلو آيات من القرآن الكريم بنفسها، أو أن تدخل المسجد، إلا بعد انقضاء مدة 40 يومًا، وعندئذ تغتسل لتصبح طاهرة مرة أخرى» (ترجمة عن السويدية).

أما ويسترمارك فيقول في: Westermarck, *Ritual and Belief*, p. 4,

«في كل مكان، هناك حكم صارم يقضي بمنع معاشرة المرأة الحائض أو النفساء». ويقول في الصفحة 92 من المرجع المذكور: «النُفساء لا تصوم، كما ينبغي على الحائض ترك الصيام، وإذا أرادت استئناف الصيام فعليها أن تغتسل بماء ساخن قبل ذلك؛ فالصيام عبادة مقدسة لا تمارسها المرأة إلا إذا كانت طاهرة».

(57) يتفاخر السامريون باتباعهم الصارم لشريعة موسى الأصلية. ونجد الأحكام المتعلقة بهذا في الآية الخامسة والعشرين وما يليها من الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين، والآية التاسعة عشرة من الإصحاح الثامن عشر من السفر نفسه.

يخصصون للمرأة جانبًا من الحجرة، لا تستطيع أن تخرج منه ما دامت نجسة. ولقد رأيت بنفسي في نابلس في بيت سامري امرأة شابة تجلس صامتة في البيت على هذا النحو خلف ستار، بعد أن أنجبت طفلًا، ومع أن الطفل توفي، فإنها ظلت جالسة هناك في مكان ضيق إلى أن انقضى الوقت المعلوم. وبالمقارنة، فإن للمرأة المسلمة حرية أكبر في الحركة(58)، ولكنها على أي حال، تنقطع عن أشياء كثيرة في ربيع حياتها، ومن المؤكد أن بإمكانها أن تخالط الناس بحرية أكبر بعد انقطاع الحيض، واليأس من الإنجاب؛ فعندئذ يمكنها أن تكون قابلة أو ممرضة، ويمكنها أن تصوم وتصلي لله، وتزور الأماكن المقدسة بحرية، كل ذلك لأنها طاهرة من الدماء(59).

وأخبرتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بالأحكام الآتية لطهارة المرأة:

«الكبار في السن يقولون:

«في اليوم الثامن اغتسلي وتوكلي (يوم الثَّامن إغسل أُو آمين)!»».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) تارة أخرى:

«(تغتسل) في بيتها. ويجب أن يكون رأسها مكشوفًا (حتى تتمكن من غسل رأسها أيضًا)، وتقف منتصبة، وتحمل إناء الماء بيدها، وتصبه على جسدها كله. وتصلي ركعتي الطهارة لله تعالى».

ولم تنس عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أن تؤكد أهمية اتخاذ الاحتياطات الضرورية لهذا الأمر؛ لأن أي نوع من الاغتسال لا يخلو من المخاطر، وهم يخشون غسل الأطفال على وجه الخصوص، ولكن قد يكون الكبار أيضًا عرضة للخطر من الجن؛ لذلك على المرء أن يقول (بسم الله) قبل أن يبدأ بالاغتسال. وعلى المرأة التي تغتسل من النجاسة، أو تتوضأ، أن تذكر اسم الله.

---

(58) يقول موسل في: Musil, *The Manners and Customs*, p. 231,

«خلال فترة الحيض تطبخ المرأة وتأكل مع الآخرين كالعادة».

(59) كنا رأينا خلال حديثنا عن الحماة والكنة أن سلطة المرأة ونفوذها في المسائل المتعلقة بشؤون المنزل تبدأ عند تقدمها في السن، وسنرى في الفصل الأخير، ما يؤكد هذا، إذ تصبح الأم الأرملة ذات سلطة ونفوذ في إدارة أملاك أولادها.

«وإذا لم تذكر اسم الله، فسوف يكون ذلك خطرًا عليها؛ فعندما توضأت زوجة العَبْبِية، لم تطلب الإذن ولا المعذرة، ولم تقل: «أعوذ بالله» وما إلى ذلك (ما طلبت لا دستور ولا حاذور ولا أعوذ بالله). وتمكن الشيطان منها. وأصبحت كالمجنونة، ورفعت ثوبها أمام الناس، وأبرأها الجزائري بأن اختلى بها «طاح إلخلوة»، وأخرج الشيطان منها»[60].

وهناك أيضًا شيخة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة موسى أحمد [120])، وهي امرأة من أرطاس، تلبَّسها جني لتهاونها في هذا. وهكذا روت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن أسباب صرَعها:

«استحوذ جني على زوجة موسى أحمد [120]، ذهبت إلى حجرة لتغتسل في الزاوية، وصبت الماء الساخن على نفسها، فسقط الماء على وجه الجني، ولم تطلب الإذن ولا المعذرة (لا طلبت لا دستور ولا حاذور). ومنذ ذلك اليوم الذي سقط فيه الماء على الأرض أصابها الصرع، واستدعوا لها الشيخ. وقال لهم (أي لأهلها): «المرأة دخلت لتغتسل في زاوية، وسكبت الماء الساخن، فسقط على وجه الجني». وقال [الجني]: «هي رشقتني بالماء المغلي، فضربتها من الغضب». وقال الشيخ للجني: «اخرج منها!»، فقال الجني: «لن أخرج! إما أن تموت هي وإما أموت أنا»، ومات هو».

وعقَّبت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بقولها: «أولئك الذين ينتابهم الصرع، إنما ينتابهم مس من الجن».

وفي أثناء تجوالنا في القرية، كنا نصادف أحيانًا امرأة تبدو متأنقة على غير المعتاد. وإذا ما سألناها لماذا؟ فلربما أجابت: «لقد اغتسلتُ (أي من الحيض)»، لكن العقد والسوار وغطاء الرأس الأسود الفاخر دلت كلها على أنها لم تلبس الثوب الحسن لأنها غسلت ثوبها المعتاد فحسب؛ فلا بد أن ذلك كان أيضًا إغراءً للزوج.

---

(60) انظر أعلاه في الصفحة 462 من هذا الكتاب.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«في صُورِيف، إذا ارتدت امرأة أحسن ثيابها يقولون: «هذا هو ثوب الاستجداء (ثوب إلشِّحدة)، سوف تستجدي (الجماع) من زوجها»».

وقد تغضب المرأة وتترك البيت إذا تجاهل زوجها إغراءها له، ولا سيما إن كانت لها ضرة. وهكذا فعلت صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77])، كما قالت لنا ضرتها مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77])؛ فمعاشرة الرجل لزوجته حق لها، أو هذا ما تعتقده المرأة.

وإذا وضعت المرأة طفلًا، لا تطهر قبل مضي أربعين يومًا، ولا يحق للزوج أن يقربها إلا بعد أن تغتسل عند نهاية هذه المدة(61)، إلا أن النساء قلن إن الزوج لا يلتزم تمامًا بهذا الحكم، وأنه يأتي زوجته قبل نهاية المدة.

ومن العجيب أن أعظم شرف للمرأة، وهو إنجاب طفل، يعد ذاته سببًا في نجاستها. ومن الطبيعي أن لا تشعر المرأة بالسعادة إذا كانت لا تنجب الأطفال، ولكن سعادتها أو تعاستها ليستا رهنًا بذلك؛ فعلى الرغم من أن علي خليل [173] يقول إنه يحب زوجته الثانية فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) إلى حد لا يبالي معه أأنجبت أم لم تنجب، فإنه حين يغضب منها لا يملك إلا أن يقول: «ليس ثمة ما يمنع قطع الشجرة التي لا تثمر (شجرة بلا ثمرة قطعْها حلال)»، فيؤذيها بذلك في موطن ضعفها، حتى إنها تركته وعادت إلى بيت أبيها بعد أن قال لها شيئًا كهذا ثلاث مرات(62).

وبعد حفل الزواج، يتمنى الناس للعروس أن تثمر وتكثر الأولاد (يا ريتها إثِّمِر، يا ريتها إتنشر إلغلمان)، وإذا لم يحدث ذلك، يقال في النساء «لا عَمَّروا ولا أثمروا (لا عَمَّروا ولا ثمّروا)»(63).

(61) انظر أعلاه في الحاشية 544 في الصفحة 467.

(62) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, I, p. 244.

(63) قيل هذا على سبيل المثال عن حسنة شختور (زوجة محمد جبر [159]). قارن ما قيل أيضًا عن فاطمة علي (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) في المصدر نفسه، ص 117.

وفي مثل الحالة الثانية يظهر عامل نفسي ديني؛ إذ تقول المرأة عن الله: «إن أراد أن يرزقني (حرفيًا: يطعمني) الأولاد فلن يخطئ فمي، وإن أراد أن يحرمني فلن يستحيي مني (إن أطعمني مش تايه عن ثِمي، أو إن حرمني مِش مِستْحي مني)».

ويقال أيضًا: «الله هو الذي يرزقنا (حرفيًا: يطعم) الأولاد (الله إللي بِطعم الصِّبيان)».

أما عيشة (زوجة علي خليل [173])، وهي ضرة فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) التي لم تنجب كما ذكرنا آنفًا، فقد قالت ذات مرة: «لقد رزقني (حرفيًا: أطعمني) الله ثلاثة أولاد، ولا أتطاول إلى السماء، بل أقبِّل الأرض (الله أطعمني هاتْلات صُبيان ما بطولش السما ببوس إلأرض)».

وتسلم المرأة في هذه الحالة أمرها كله إلى الله(64)، وتتوكل عليه بالكامل، ويتجلى هنا واحد من أهم جذور التدين الشخصي الفردي.

والحرمان من الأولاد قد يكون له عاقبة وخيمة؛ إذ قد يجد الزوج نفسه مضطرًا للزواج مرة أخرى، ويكون على الزوجة حينئذ أن توطن نفسها على وجود ضرة لها في بيت زوجها، وربما أيضًا على وجود أولاد لضرتها من زوجها.

---

(64) انظر: Abd Allāh, *Mishkat*, p. 97,
«ما من كل الماء يكون الولد وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء». ويقول غُنكل في الصفحة 332 من شرحه لسفر التكوين: «ولا يُفتقد الجانب الديني تمامًا في نهاية المطاف: الله هو من يعطي الأبناء (الآية الثانية من الإصحاح الثلاثين)، وهو من يفتح الرحم أو يغلقه (انظر الآية الحادية والثلاثين من الإصحاح التاسع والعشرين، والآية الثانية من الإصحاح الثلاثين)، وله تصلي العاقر (انظر الآية السادسة والآية السابعة عشرة من الإصحاح الثلاثين)، وله حمدُ الأمهات (انظر الآية الخامسة والثلاثين من الإصحاح التاسع والعشرين). قارن هذه الفكرة الأساسية القديمة بفكرة أن الحمل والولادة هي من عند الله (انظر الآية الثانية من الإصحاح السادس عشر)». انظر أيضًا الصفحات 198، و227، و294، و387 من المرجع المذكور، وكذلك الآية الأولى وما يليها من الإصحاح الأول من سفر صموئيل الأول. وتشير الأرقام التي يقدمها غُنكل إلى اقتباسات مأخوذة من سفر التكوين. انظر: Grant, *The People*, p. 117, and Samuel Ives Curtiss, *Primitive Semitic Religion Today* (Chicago; New York;Toronto, 1902), p. 157.

معاملة الزوجة ومكانتها

من الصعب أن نعرف كيف يعامل الرجل زوجته؛ فهناك مراسم في الأعراس تبين للزوجة منذ البداية أن الرجل هو رب البيت وسيدها[65]، وأنه قيِّمها، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الرجل يسيء معاملة زوجته[66]. وهناك رجال نالوا ثناء الناس؛ لأنهم لم يضربوا امرأة قط، لا زوجة ولا ابنة، ومنهم أحمد جاد الله [21] من عشيرة سعد. ويروي الناس في القرية عن عواد خليل [164] من عشيرة شاهين، أنه كان بارًا بزوجته التي من قرية القَبو، والتي لم تكن صحيحة العقل، وعندما توفي، عبر أقاربها بالأهازيج عن إعجابهم وامتنانهم لصبره على جنون زوجته.

---

(65) انظر أعلاه في الصفحتين 409 و420 من هذا الكتاب.

(66) يتحدث ماثيوز في الصفحة 109 من المجلد الثاني من ترجمته لكتاب المشكاة، كيف يجب أن يُقدم النصح للزوجات بأسلوب لطيف [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء]، ويشير في الصفحة 112 من *Mishkat*، أن خير الرجال هو خيرهم لأهله [قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي وإذا مات صاحبكم فدعوه]، وأن خير المؤمنين هو ألطفهم بأهله [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم]. ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes palestiniennes*, p. 86,

«يحتوي الفقه القرآني الرسمي بلا ريب، على توصيات إنسانية موجهة للرجال لخير زوجاتهم؛ فهم مدعوون للعدل بينهن، وتوفير احتياجاتهن الضرورية، واللطف تجاههن، والتعامل معهن بالحسنى، إلا أن الرجال قوامون عليهن؛ أي أعلى منهن درجة (الآية الثالثة، والآية المئة وتسع وعشرون من سورة النساء) [ترجمة عن الفرنسية]». ويضيف: «وتُظهر الحياة اليومية بصورة عملية صعوبة انتقاد التعاليم الأخيرة» [ترجمة عن الفرنسية]. في ما يتعلق بعزل النساء في نابلس عن أي كان، باستثناء أزواجهن انظر: Stewart Macalister and E. W. G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII (London, 1905), p. 347f., and Musil, *Arabia*, p. 354ff.

ويقول موسل في المرجع المذكور ص 211: «عند الفلاحين الذين لا يتزوجون بدافع الحب أبدًا، تُضرب الزوجة في كثير من الأحيان، ولا ينبغي أن تجد غضاضة في ذلك، ما لم يسفك دم أو يكسر عظم؛ فلحم الزوجة للرجل، وعظمها لأهلها (لحم المرة لزوجها وعظمها لَهَلْهَا)». وقد سمعت هذا في فلسطين، لكنني لا أدري إن كان ينبغي أن يحمل على محمل الجد. في ما يتعلق بالتعامل مع الزوجات انظر: Musil, *The Manners and Customs*, p. 231,

حيث يقول إن على الزوجة أن تعمل، ويساعدها زوجها إذا كان يحبها، وإلا كان عليها أن تعمل وحدها. ويُقال في الصفحة 234 من المرجع المذكور إن الشجار بين الأزواج ممنوع.

ووصفت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كالآتي:

«يتميز رجال الرابعة بحنانهم (حِنّية) تجاه زوجاتهم؛ فهم يعتنون بالمرأة إن وضعت طفلًا أو مرضت.

عِثمان جبرين [77] حفظ مكانة أمه عامرية (زوجة جبرين عِثمان [76]) (حَفَظ مَقام إمُّه)، ولم يكن هناك عجوز مدللة كعامرية (زوجة عِثمان جبرين [76])».

ولا يعزى هذا إلى رقة في طبع الزوج أو ضعف؛ فقد يكون الرجل حنونًا على زوجته، وغليظًا وعنيفًا في سائر أحواله، ولا ينبغي أن نستغرب هذا. قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «هو يفعل ذلك بالطبع»، وساقت المثل الآتي لتعزز قولها:

«يأكل الغول(67) الدنيا كلها إلا زوجته (إلغول أكل كل إلدِّنيا إلا مَرَتُّه)».

وللمرأة قيمة كبيرة جدًا عند الرجل، بحيث يكون من مصلحته أن يقدرها ويعتني بها؛ إذ إن الحصول على زوجة جديدة ليس بالأمر اليسير، ثم إن النساء أنفسهن يبغضن المعاملة السيئة، ولا يرضين بها. وإذا كان للمرأة أب أو أخ؛ فلن تخضع أبدًا لنزوات رجل مستبد. وفي فصل آت(68) سنرى أن امرأة استطاعت، بدعم من عائلة أبيها، أن تنفذ مشيئتها، على الرغم من معارضة زوجها وعائلته.

وهناك نساء في أرطاس ذوات سطوة وحضور مهيب، ولا ترضى نفوسهن الذل أبدًا، ولا يملك أزواج هؤلاء إلا أن يستسلموا لرغباتهن في كثير من الأحيان؛ فليس الأمر رهنًا بكون اليد العليا للرجل أو للمرأة؛ فالسؤال هو من

---

(67) تعد الغيلان حيوانات على صورة إنسان، ويُقال إن لنسائها أثداء طويلة تتدلى على ظهرها من فوق أكتافها عندما تتحرك. وتأكل الغيلان لحم الإنسان، ويُعرف عنها جشعها وحبها المفرط لأطفالها. انظر: Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, p. 17f.; Stephan, «Palestinian Animal Stories and Fables,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, p. 170 n. 8; Lane, *An Account of the Manners*, p. 312; Enno Littmann, *Arabic Proverbs*, Collected by Mrs. A. P. Singer (Cairo, 1913), p. 38; E. A. Wallis Budge, *Egyptian Tales and Romances: Pagan, Christian and Muslim* (London, 1931), p. 309 ff., and Nöldeke, «Ancient Arabs,» in: Hastings, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, p. 670.

(68) انظر الفصل التاسع.

منهما هو صاحب الشخصية الأقوى. وبالطبع، تعرف المرأة في أرطاس، كما في جميع أنحاء العالم، كيف تحصل على مرادها من طريق المكر، إذا كان زوجها سيئًا.

ويقول الناس:

«كيد النساء يغلب كيد الغيلان (حِيل إلنِّسوان غلبو حِيَل الغيلان)».

وإذا ما علم الرجل أن زوجته قد احتالت عليه، تأسى بهذا المثل(69). ومن جهة أخرى، يروق للرجل أن يقول:

«على أي حال، ما المرأة إلا ضلع قصير (إلمرة ضلع قصير)».

وهو يعني بهذا أن الرجل متفوق على المرأة؛ إذ لا يمكن أن نتوقع أن تكون المرأة بحكمة الرجل، وبهذا يبرر لطفه بها؛ فالرجل يكون لطيفًا مع النساء، كما يكون الناس لطفاء تجاه من هم دونهم.

وتعلم المرأة أن زوجها يصيبه الزهو إذا قالت عنه:

«هو رب صغير (هو رب إزغير)»(70).

وعندما كانت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) تقول أحيانًا للفتيات الصغيرات:

«لا تحسبن الزوج مطمعًا، الزوج ذل وهوان
(لا تِحسبو إلجُوز غِيه إلجُوز مذلتن أُو هوان)».

وهي بذلك تعبر عن نظرة قاتمة للزواج، بينما وصفت الزواج تارة أخرى بأنه حلو ومر في آنٍ معًا (حِلوِة أُو مرة).

---

(69) انظر: Bauer, «Arabische Sprichwörter,» p. 99, and *Mosaik aus dem heiligen Lande* (Jerusalem, 1898), p. 93,

«نعوذ بالله من أمور ثلاثة: تشدد الرهبان، وكيد النساء، وجور السلاطين».

(70) انظر: Abd Allāh, *Mishkat,* vol. II, p. 116,

لو كان لبشر أن يسجد لبشر، لوجب على الزوجات السجود لأزواجهن [لو كنت آمر أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من حق].

ويستغرب الناس بوجه عام من نجاح الزواج[71]، ويعبرون عن ذلك بالمثل الآتي:

«هناك طير في السماء يقول سبحان الذي يؤلِّف بين الأجناس
(في طير في السَّما بيقول سبحان موفق إلأشتشال)».

ويفسرونه بقولهم:

«توافقَ النجم (إلنِّجم إلموافق)».

ولكن عندما لا يوافق النجم، يظهر التنافر في الزواج، ويدخل النحس بيت الزوج مع دخول الزوجة إليه، ويعود هذا في بعض الأحيان إلى أن اسم الزوجة لا يلائمها ولا يلائم العائلة، ويمكن إصلاح ذلك بتغيير اسم الزوجة[72].

وقد أخبرتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن حالة كهذه؛ إذ غيروا اسم زوجة تعمرية في أرطاس من صبيحة إلى فاطمة (زوجة حسن إسْمَعين [54]) عملًا بنصيحة أحد الشيوخ:

«النجم لا يوافق الجميع. اسمٍ صبيحة (زوجة حسن إسْمَعين [54]) غير ملائم؛ فكلما نادى أحد باسمها، حلّ بنا البلاء. وذهبوا إلى رجل حكيم، وفتح لها (أي نظر في كتابه)، وقال: «ما اسمها؟» قالوا: «اسمها صبيحة (زوجة حسن

(71) الحب يأتي بعد الزواج. انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 62.
انظر أعلاه في الصفحة 16 من هذا الكتاب. وكذلك: Ernest Crawley, *Studies of Savages and Sex*, Edited by Theodore Besterman (London, 1929), p. 82.

(72) قيل لي في نابلس إن المسيحيين العرب كذلك يسألون شيخًا قبل الزواج عن اتساق اسمي الرجل والمرأة المقبلين على الزواج وفقًا للنجوم، وتغير المرأة اسمها إذا لم يكن ملائمًا. انظر: Lane, *An Account of the Manners*, p. 361f.

وفي فلسطين هذه الأيام، يغير الناس أسماء الأولاد أيضًا. وخلال زيارات عديدة أتيحت لي إلى بيوت السامريين في نابلس، صادفنا ولدًا في إحدى العائلات غيروا اسمه عملًا بنصيحة شيخ، لأن الولد كان دائم البكاء، ولم يكن يهدأ. انظر: Macalister and Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestin,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 153,

«وهناك عادة أخرى أكثر شيوعًا، وهي تغيير اسم الشخص في حال إصابته بمرض خطير». وقد وجد المؤلفان هذه العادة بين اليهود في فلسطين، وذكرا يهودية إسبانية غيرت اسمها بعد أن خضعت لعملية جراحية خطرة.

إسْمَعين [54])»، فقال: «هذا غير ملائم، النجم لا يوافق.» وأضاف: «غيرِّوا اسمها!» قالوا: «ما اسمها بحسب أوراقك (أو كتابك)؟» قال: «ادعها فاطمة! بيتها من نار وبيته من تراب، بيتها أعلى من بيته»».

فغيروا اسمها من صبيحة إلى فاطمة (زوجة حسن إسْمَعين [54]).

«بعد ذلك، كان بينهما وئام عظيم، كالسمن والعسل!».

وبعد فترة قصيرة من رواية عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) لهذه القصة، لقينا فاطمة (زوجة حسن إسْمَعين [54]) ذاتها في القرية؛ فصدَّقت ما قالته عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) من لزوم النحس لها في بداية زواجها، وأن أولادها كانوا يموتون، ولكن بعد تغيير اسمها، أصبح كل شيء على ما يرام[73]. وفكرة انتماء الناس إلى بيوت مختلفة هي من حكمة الشيخ، ولم تجد النساء لها تفسيرًا شافيًا، وربما كان علو بيت فاطمة (زوجة حسن إسْمَعين [54]) فوق بيت زوجها يعزى إلى انتمائها في الواقع إلى عائلة أرفع مكانة من عائلته، ولكن يبدو أن الممكن تفسير موضوع البيوت تفسيرات أخرى، بحسب كل حالة على حدة.

وهناك حالة أخرى أكثر خطورة عن فتاة من أرطاس، وهي خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]) التي اتخذها شيخ من البدو زوجة ثانية له، بعد أن كان ضيفًا

---

(73) هذه النظرية المتعلقة بتغيير الأسماء مثيرة للانتباه أيضًا، لأنها تنسجم مع الفكرة التوراتية. انظر الآيتين الخامسة والخامسة عشرة وما يليهما من الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين؛ إذ يظهر الله لأبرام ويأمره بأن يغير اسمه إلى إبراهيم «لأني جعلتك أبًا لكثير من الأمم»، وتغير اسم ساراي إلى سارة «أميرة» لأن «ملوكًا للأمم سيكونون من نسلها»، انظر أيضًا الآية الثامنة والعشرين وما يليها من الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين، حيث تكون البركة هي تغيير للاسم. وفي ما يتصل بهذه الشواهد يتحدث غُنكل في: Gunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*, p. 268, 362,

عن تغيير الأسماء كعادة «منتشرة في العالم كله» ويستشهد في الصفحة 268 بكل من: Richard Andree, *Ethnographische Parallelen und Vergleiche*, I (Leipzig, 1889), p. 173ff.; Giesebrecht, *Gottesname*, p. 10, andWilhelm Heitmüller, *Im Namen Jesu*, p. 161f.,

«إن تغيير الاسم ليس رمزيًا وحسب، بل إن له قيمة حقيقية؛ فالاسم قوة، وينبوع أقدار حامله. ومع الاسم تتغير طبيعة المرء وقدره». ويضيف غُنكل في الصفحة 268: «ومن الشائع أن يتغير الاسم بميلاد الابن الأول، فيدعى المرء بعد ذلك 'أبو فلان'».

في بيت أبيها، ولكنها جلبت النحس إلى بيت الشيخ؛ إذ نزل المرض بالأولاد والبهائم وماتوا، وقيل إن «وجه المرأة الفلاحة» هو الذي جلب ذلك عليهم. ولم يجدوا وسيلة للنجاة من نحسها خيرًا من إخراجها من البيت. وفي فصل الطلاق، سنأتي على رواية قصة الحيلة التي أغروها بها للخروج إلى الخلاء حيث طلقها الشيخ[74]. ولما كان زواج خضرة الثاني (ابنة محمد عِثمان [33]، وزوجة عبد الحميد أحمد [57]) من عبد الحميد أحمد [57] في أرطاس سعيدًا، فلا بد أنها لم تكن ملائمة للعائلة البدوية، بل كانت خطرًا عليهم.

ولكن هناك نساء يجلبن النحس حتمًا أينما حللن، والمرأة من هؤلاء تدعى (قَشرَة) أي «جالبة النحس»[75]. ومن جهة أخرى، هناك نساء يقال عنهن إن «وجوههن تجلب السعد»[76].

وعمومًا، ينظر إلى مصادر السعد أو النحس على أنها ثلاثة أنواع مختلفة.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في هذا:

«إن الأشياء التي تجلب الرخاء والجاه والثراء هي: عتبة البيت، والمرأة، والحصان. والأشياء التي تعدم الجاه والثراء هي: عتبة البيت، والعقب (أي عقب المرأة)، والحصان».

يمكن أن يكون عقب المرأة «أخضرَ»، وعندئذ تجلب السعد. ولكن يمكن أن يكون عقبها «مستديرًا» أو «قاسيًا»، وعندئذ تجلب النحس؛ أي تكون (قَشرَة).

وفي آخر يوم لي في أرطاس، في أول فترة إقامة لي في فلسطين، أدركت

(74) انظر أدناه في الصفحة 571 وما يليها من هذا الكتاب.

(75) انظر أعلاه في الصفحة 403، وأدناه في الصفحة 608 وما يليها من هذا الكتاب.

(76) لدينا في أرطاس رجل يدعى موسى خليل [174] يقال إن وجهه يجلب السعد والرخاء. غير أنني لم أسمع برجال يجلبون النحس، لكنني سمعت بذلك يقال عن صبيان يكونون سببًا في موت إخوانهم أو أخواتهم الأصغر منهم سنًا (في إقشرعَ إخوتو)، لغيرتهم منهم. يضاف إلى ذلك أن هناك رجالًا ونساءً يحسدون الناس، وبهذا يجلبون النحس.

كم كان هذا الرأي والمعتقد حيًّا في الأذهان حتى ذلك الحين؛ فقبل مغادرتي القرية، جلب محمد محمود [35] الوبال على نفسه وعلى أبي زوجته الأولى بتجارة بائسة. وعندما ذهبت مع الست لويزا إلى عائلة محمد محمود [35] لنودعهم، قالت أمه نفيسة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة محمود عِثمان [32]) كلامًا عن أن المرأة مصدر للنحس، وأومأت بذلك إلى زوجة ابنها فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) من أبو ديس؛ فقد عزت البلاء الذي حل بهم إلى كنتها وليس إلى ابنها. وشعرنا بالأسف لفاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35])، المرأة الغريبة التي جلست هناك، تسمع هذه الكلمات القاسية، وهي لم تزل شاحبة ضعيفة من أثر الولادة[77]، وطفلتها الرضيعة في حجرها.

وتبين لنا مثل هذه الحالات سبب ما يبديه الناس من حرص شديد على العادات في إقامة مراسم الأعراس والتهنئة، والتي كان الناس أشد تمسكًا بها في ما مضى؛ فهي ليست عادات ومظاهر فارغة، وإنما الغاية منها هو أن يكون دخول العروس إلى بيت زوجها ميمونًا. وندرك أيضًا أن اليُمن لا يعني السعادة التي تتأتى من إنجاب الأطفال وحسب، بل كذلك سعادة البيت في سائر شؤونه؛ فالمرأة ليست هينة الشأن، فهي - كما قال رجل في أرطاس: «المرأة إما تعمر البيت أو تخربه (إلمرة يا بتعمر إلبيت يا بتخِربو)»[78].

(77) في ما يتعلق بتبدل الرأي حول فاطمة العرقات (زوجة محمد محمود [35]) انظر أدناه في الصفحة 553 وما يليها من هذا الكتاب.

(78) في ما يتعلق بوصف الزوجة الصالحة انظر: Abd Allāh, Mishkat, p. 79, 116. ولوصف لأفضل النساء انظر الصفحة 116 من المرجع المذكور.

الفصل الثامن
تعدد الزوجات

سليم مسلَّم يتزوج امرأة ثانية

سأروي أولًا كيف اتخذ الشرطي الزنجي سليم مسلَّم [199] لنفسه زوجة ثانية[1]؛ إذ كنت شهدت ذلك بنفسي.

سليم مسلَّم يعمل في القدس، ويعيش في أرطاس. ويعود إلى أرطاس كلما سنحت له الفرصة، وله دخل كبير إلى حد ما، ولا ينفق منه إلا القليل في القرية حيث نفقات المعيشة قليلة، وحيث يملك قطعة أرض. ولبقية أفراد عائلته دخل جيد أيضًا؛ فأمه حليمه (زوجة محمد عبد الله [197])، وهي أرملة، تكسب من عملها في بيت لحم من حين إلى آخر، وأخته العزباء مريم (ابنة محمد عبدالله [197]) تعمل خادمة لمدير مستشفى الحكومة البريطانية للأمراض العقلية الواقع بين بيت لحم وأرطاس. وهكذا علا شأنهم، واستطاعوا أن ينتقلوا من كوخ بسيط كانوا يعيشون فيه إلى بيت جديد جميل جدًا بالنسبة إلى الأحوال في أرطاس، ثم فكر سليم مسلَّم [199] بالزواج من امرأة أخرى ليتوج نجاحه؛ فهكذا يستعرض الرجل قوته. وأراد في البداية أن يستبدل ابنة

(1) على الرغم من أن سليم مسلم [199] زنجي، يمكننا اتخاذه مثلاً، فكما كنت ذكرت في Hilma Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village* (Helsingfors, 1931), I, p. 91.
فقد تبنت عائلات الزنوج عادات وأعراف أهل أرطاس، وكان ذلك يسيرًا لأنهم أيضًا مسلمون.

عمه الزنجية من دورا بأخته. ولكن، عندما رفضت أخته الذهاب إلى دورا رفضًا قاطعًا، قرر أن يدفع مهرًا للعروس[2].

وقبل أن أعلم شيئًا عن نيته في هذا الزواج، ذهبت أنا والست لويزا لزيارة العائلة في بيتهم الجديد، لتهنئة مريم مرجان (زوجة سليم مسلّم [199]) زوجته الأولى بمولودها الجديد. وهموا بأن يسموه عامرًا؛ لأنه ولد عندما كان البيت الجديد في طور البناء، إلا أنهم سموه محمدًا في ما بعد. ووجدنا مريم مرجان (زوجة سليم مسلَّم [199]) جالسة على الأرض، وابنها الصغير على ثديها، بجوار أخت زوجها مريم (ابنة مسلم عبد الله [197]) حيث كانتا تصنعان طبقًا من القش. وأم مريم مرجان (زوجة سليم مسلَّم [199])، والتي كانت قد تزوجت عبد أبيها في الخليل، على الرغم من كونها امرأة عربية (حرة)، كانت هناك أيضًا. ووجدنا أن مجيئها من الخليل من أجل ولادة حفيدها أمرٌ طبيعي.

وبادرتهم الست لويزا بالتحية الرسمية لدى الباب «مُبارك العريس (مْبارك العريس)»، ولكن لم تظهر عليهن أي علامات للفرح، ودعونا للجلوس بتثاقل، وكان الحديث بطيئًا، فلم نمكث هناك طويلًا، وفي طريقنا إلى البيت، تساءلنا عما كان منهم؛ إذ لم نعتد مثل هذه البرودة. وتحدثت الست لويزا إلى عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) التي رأت أن أخته كانت هناك لتراقب حماته؛ خشية أن تعطيها زوجته شيئًا، أو أن تأخذ شيئًا من الهدايا التي تلقوها بمناسبة اكتمال بناء البيت؛ إذ إن الأقارب والأصدقاء يقدمون الهدايا عند الاحتفال بالانتهاء من أعمال البناء، تمامًا كما يفعلون في الأعراس والاحتفالات الأخرى[3]. ولذلك فقد كان البيت يزخر بمخاريط السكر، والقهوة، وبأشياء أخرى. وهم يخشون الآن أن تأخذ أم مريم مرجان (زوجة سليم مسلَّم [199]) بعض هذه الأشياء، ولهذا لم يكن في البيت بهجة.

وبعد بضعة أيام، كنت أعدّ للذهاب إلى القدس عندما جاءت عليا (ابنة

---

(2) انظر أيضًا الصفحة 70 وما يليها من المصدر نفسه.

(3) انظر أعلاه في الصفحة 421 من هذا الكتاب.

إبراهيم عودة [1]) بأخبار مثيرة؛ إذ لقيت مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) لدى عودتها من بيت الزنوج.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) وجدت البيت وقد قُلب رأسًا على عقب - «ما خطبكم؟» - سليم مسلَّم [199] يريد أن يتزوج!»، فقالت أم مريم مرجان (زوجة سليم مسلَّم [199])، المرأة الخليلية: «ها أنا أمامك يا ابنتي، تعالي معي!» فقال سليم مسلَّم [199]: «أريد تغيير طعامي، دائمًا لحم لحم! يكفي هذا، أنا أكرهه(4). هذه المرة أريد خبزًا وزعترًا (بدي أغير الطّعام لحم لحم ما بصرش، تشرهت بدي هالمرة خبز أو زعتر(5))». والتفت إلى أمه، وقال: «أمي، أنت قلت إنه سيكون بإمكاني الزواج بعد البناء!»».

---

(4) قال هذا لأن الناس أخبروه أن زوجته الخليلية كانت من عائلة أفضل من عائلة الفلاحة التي أراد الزواج بها. لكن سليم مسلَّم [199] دافع عن نفسه بقوله إن المرء قد يمل حتى أفضل الطعام، وهو اللحم، إذا ما أكله كل يوم، وقد يفضل، من باب التغيير، طعامًا بسيطًا. انظر: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, III (London, 1925), p. 74,

«سألت سيدات إنكليزيات أحد أشراف المغرب بحضوري ذات مرة لم لا يقنع المغاربة بزوجة واحدة كالأوروبيين، فكان جوابه: 'لماذا؟ لأن المرء لا يستطيع أن يأكل السمك على الدوام'. ويكتب ويلسون في: Samuel Wilson, *Persian Life and Customs* (Edinburgh; London, 1896), p. 263,

عن قول شبيه بهذا لأحد المسلمين عندما سئل عن رأيه في تعدد الزوجات؛ إذ قال: «أنت لا تلزم نفسك بصنف واحد من الطعام، بل تضع أنواعًا مختلفة على المائدة». في ما يتعلق برغبة الرجل بالتنويع كسبب لتعدد الزوجات انظر أدناه في الصفحة 512 وما يليها من هذا الكتاب.

(5) في ما يتعلق بالزعتر، النبات العشبي ذو الأوراق الخضر الباهتة، وهو في الأغلب نبات الزوفا المذكور في العهد القديم. انظر: Grace Mary Crowfoot and Louise Baldensperger, *From Cedar to Hyssop: A Study in the Folklore of Plants in Palestine* (London, 1932), p. 71ff., and Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I (Gütersloh, 1928), p. 342, 454, 543,

حيث الإشارة المثيرة للانتباه إلى أن هذا النبات «يصلح لزوفا الفصح، ولطقوس التطهير الشرعية (انظر الآية الثانية والعشرين من الإصحاح الثاني عشر من سفر موسى الثاني [الخروج]، والآيات الرابعة، والسادسة والحادية والخمسين وما يليها من الإصحاح الرابع عشر من سفر موسى الثالث [اللاويين])». انظر أيضًا: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 183.

«يصنع أولئك الذين لا يملكون العيش الرغيد، طعامًا من الخبز وخليطًا يدعى 'دُقَّة'، يتكون عادة من الملح والفلفل مع الزعتر أو النعنع أو بذور الكمون وبعض المكونات الآتية، أو كلها: بذور الكسبرة، والقرفة، والسمسم، والحمص. وتغمس كل لقمة من الخبز في هذا الخليط».

وهكذا، ظهرت مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) والشجار على أشده، عندما آست أم مريم مرجان (زوجة سليم مسلَّم [199]) ابنتها وهي في حالة من اليأس والغيظ الشديدين؛ إذ بُشِّرت بضرة لها، بأن عرضت عليها العودة معها إلى الخليل، وستراود مريم مرجان (زوجة سليم مسلَّم [199]) فكرة ترك البيت غير مرة بعد ذلك، وينبغي أن نلاحظ مساعي الناس المختلفة لثنيها عن ذلك.

غير أن سليم مسلَّم [199] قال لزوجته:

«المفتاح بيدك يا مريم، هذا شأنك، إن رضيت فسأتزوج! وإن غضبت فسأتزوج أيضًا».

وهنا، أخذا يتجادلان حول جهاز العروس؛ فعندما يتخذ الرجل لنفسه زوجة جديدة، عليه أن يعطي زوجته الأولى، أو زوجاته، جهازًا جديدًا يماثل جهاز عروسه(6). وحاول سليم مسلَّم [199] أن يقتصد، فلم يشتر منديلاً جديدًا لمريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) التي استشاطت غضبًا لذلك.

«قال سليم مسلَّم [199] لزوجته: «لديك لحاف مبطن، ومتكأ، وصندوق، وخزانة، ووسائد»، فأجابت: «أنا أريد منديلًا أسود (شنبر)!» قال: «منديلك الأسود لا يزال جديدًا، ولديك أيضًا منديل من الحرير الأبيض (خرقة حرير)». قالت مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]): «أهي (أي العروس) خير مني؟!».

وبدأت مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) وحماتها بالشجار، وأخذ منها سعيد موسى [141]، وهو رجل من أرطاس كان حاضرًا، المفتاح والطفل».

ونزاعات كهذه حول سفاسف الأمور، قد تبدو مضحكة مبكية في آنٍ معًا، عندما يكون المرء في وضع يخسر فيه أمورًا جسامًا، غير أن هذه بالتأكيد

---

(6) وكذلك في المغرب بحسب: Edward Westermarck, *Marriage Ceremonies in Morocco* (London, 1914), p. 331,

يجب على الرجل الذي يتخذ زوجة ثانية من غير أن يطلق الأولى أن يقدم للأولى مثل الهدايا التي يقدمها للعروس، من ثياب وحلي وأشياء أخرى.

هي طبيعة البشر؛ فمثل هذه القشور تربك المرء، وتصرفه عن اللباب إلى أمور تافهة، فتنشأ بعد ذلك حولها النزاعات. وقد يكون هذا نافعًا في بعض الحالات، إلا أنه يزيد في التعاسة والمرارة التي تشعر بها المرأة، فوق تهيجها الشديد؛ فقد شعرت مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) بالذل مرة أخرى؛ لأنها لم تنل منديلًا جديدًا، بينما نالته الزوجة الجديدة.

وأبرأ سليم مسلَّم [199] نفسه من الملامة بأن وعد بأن يكتب ما تحصل عليه هي وما تحصل عليه زوجته الجديدة، وأن يترك الحكم للمفتي.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«إلى جانب المهر البالغ 100 جنيه إسترليني، أعطى سليم مسلَّم [199] زوجته الثانية، صبحة (زوجة سليم مسلَّم [199]) من دورا، حوالى 70 جنيهًا إسترلينيًا».

وحصلتُ على الجدول الآتي الذي يبين نفقات عرسه:

جهاز الزوجة الجديدة (تشسوة العروس)(7)	جهاز الزوجة الأولى
ثوب يسمى «ملكة» (مَلَكِه) 6 جنيهات	مثله
ثوب «أخضر» (خضاري) 3 جنيهات	مثله
سترة مطرزة (تقصيرِه) 2.5 جنيهات	مثله
منديل أسود 3 جنيهات	منديل أبيض من الحرير (خرقة حرير) 2 جنيهان
3 قمصان: قميص قطني (يماني) قميص أزرق (إزرق) قميص أبيض (بافت)	مثلها

يتبع

(7) انظر أيضًا أعلاه في الصفحة 348 وما يليها من هذا الكتاب.

تابع

حزام (إحزام) 0.5 جنيه	مثله
زناق (إزناق) 3 جنيهات مع مسكوكات ذهبية (إفطيرة) 6 جنيهات	تملك مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) زناقًا، ولم تحصل على واحد جديد
أساور 4 جنيهات	لم تحصل على أساور

وإلى جانب هذه، كانت هناك النفقات المعتادة لأقارب العروس والوليمة:

لأخي العروس عباءة سوداء (شالِه)	3 جنيهات
لجد العروس لأبيها قفطان من الحرير (هِدِم حرير)	3 جنيهات
لجد العروس لأمها قفطان قطني أبيض (سياط)	3 جنيهات
لعم العروس عباءة سوداء (شالِه)	3 جنيهات + 2 جنيهان نقدًا
لخال العروس عباءة سوداء (شالِه)	3 جنيهات + 2 جنيه نقدًا
ثوب الأم (ثوب إلإم)، لأم العروس؛ لأنها علمت ابنتها	2 جنيهان
ثوب الأخت (ثوب إلأخت)، لأخت العروس	1 جنيه

وبقي على سليم مسلَّم [199] نفقات الوليمة في قرية العروس، وأرسلوا الآتي إلى دورا: حناء، وكيسًا من الأرز، وثماني بهائم للذبح، ومن رطلين إلى ثلاثة أرطال من السمن، وقهوة، وسكرًا، وتبغًا (تنباك، تتن).

وكان على سليم مسلَّم [199] أن ينفق مثل ذلك لوليمة العرس في أرطاس، إلا أن أربع ذبائح كانت كافية.

وليس غريبًا أن تتقبل أم سليم مسلَّم [199] حليمة (زوجة مسلم عبدالله [197]) زواج ولدها وتنحاز إلى جانبه في مواجهة كنتها عندما أصبح زواجه أمرًا واقعًا، بعد أن وقفت ضده في البداية إذ قالت: «لم تتزوج؟ ولديك امرأة مثمرة تنجب لك الأولاد (إلك حبَّاله أو ولاَّده)».

وهنا، يئست مريم (زوجة سليم مسلَّم [199])، وهددت بأن تذهب إلى بيت أبيها.

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) المزيد:

«قال عبد السلام إبراهيم [92] لمريم (زوجة سليم مسلَّم [199]): «هل أنت مجنونة أم سكرانة (إنتي مجنونة ولاً ستشرانه)؟[8] ألا تريدين هذه الأشياء الثمينة كلها؟».

ثم كلم سليم مسلَّم [199] زوجته مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) مرة أخرى قائلًا: «إذا ذهبتِ مع الولد، فستضره الريح، وستضره الشمس، وسيضره منامه، وإذا ما حدث شيء لابني، سأحمل أهلك وزره (إن شردتي بالولد إلهوا بضره أُو الشمس بتضره، أُو المنام بضره، أُو إن صار في إبني إشي يلزم أهلتش')!»[9].

إلا أن مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) أخذت الولد والمفتاح، وجلست على رأس جبل محيرس (في راس محيرس) ترجو أن يلحقوا بها. ولم يذهب أحد ليعيدها، فعادت مرة أخرى. وقال لها الجميع: «أليس لك النصف ولها النصف (من كل شيء)؟»».

وتأخر الزواج لأسباب عدة، وفي الخامس من شهر كانون الثاني/يناير عام 1927 حدثتنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن وجود معوقات للزواج في دورا[10]. وفي السادس عشر من الشهر نفسه أقيم العرس، وفي ذلك اليوم، بيَّنت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): ما ينبغي على الرجل فعله، إن تزوج امرأة أخرى وزوجته الأولى في قيد الحياة، وحدثتنا عن المراسم التي ترافق عرسًا كهذا.

فقبل أن يذهب سليم مسلَّم [199] ليحضر عروسه الجديدة، كان عليه أن يكلم زوجته الأولى. وقد قال لها في ما روت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

(8) انظر أعلاه في الصفحة 466 من هذا الكتاب.

(9) انظر أدناه في الصفحة 536 وما يليها من هذا الكتاب.

(10) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 70f.

«يا ابنة عمي، اعتني بالبيت، أنت سيدة البيت، وهذا سهم أصابني. وألقى بنا أحمد إسْعيد في الماء ولم ينتشلنا أحد، وصلت أقدامنا الماء ثم انتشلونا عطاشًا (يا بنت عمي ديري بالتش عالبيت، إنتي صاحبة إلبيت أُو هذا سهم أُو نفد، أُو هو غرَّقنا أُو ما حدا نشلنا، وصلوا إجرينا المية أُو نشلونا عطشانين)».

وهكذا يصف سليم مسلَّم [199] نفسه ضحية لتدبير الآخرين وكيدهم، ولا سيما أحمد إسْعيد الذي دبر كل شيء، أما هو فلم يكن له ذنب في شيء مما حدث.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«أحمد إسْعيد هو السبب. قال لسليم مسلَّم [199]: «ستكون رخيصة، ولن يكون بيننا رسميات» حتى استطاعوا أن يخضعوه، ثم أثقلوا عليه (أحمد إسْعيد إلسَّبب قال لسليم ارخيصه ما فيش بينّا تكليف، تَخَلّو تحت إلهْوا أُو رَصُّوه)».

وقالت الست لويزا:

«كان الجميع يعلم أنه ميسور الحال، فأثقلوا عليه، وما قال ما قاله لمريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) إلا ليطيب خاطرها، فتبدو راضية عندما يعودون».

وكما كلم سليم مسلَّم [199] زوجته الأولى، كذلك كلمتها أمه حليمة (زوجة مسلم عبد الله [197]) في يوم العرس؛ فقد قالت لمريم (زوجة سليم مسلَّم [199]):

«نحن خدم لك ولابنك، أنت سيدة البيت ونحن نقف في الخارج (نحنا خدامين إلتش أُو لإبنتش إنتي إلتش من إلباب أُو جوّا أُو نحنا من إلباب أُو برَّا)».

وقالت الست لويزا:

«هي تعني أنت سيدة البيت، ونحن نقف خارجه».

ولم يمض وقت طويل حتى أيقنتُ أن هذه الكلمات المتواضعة في ظاهرها، كان لها في الواقع أثر كبير، وأن هذا اللطف لم يذهب سدى؛ فعندما

وصل موكب العروس إلى القرية، وجيء بالعروس على جمل إلى بيت سليم مسلَّم [199] في الجبل، وقفت المرأة الخليلية، أم الزوجة الأولى مريم (زوجة سليم مسلَّم [199])، في مدخل البيت وزغردت وغنت أغنية الترحاب المعتادة لوصول ضرة ابنتها:

«يا مرحبًا وأهلًا	(يا مرحبا أو يا هلا
بالعيون المكحلة	بعوينت إلكحلا
يا نخلة طويلة	يا نخلة طويلة
بين الحرم والصخرة»	بيْن الحرم والصخرة)[11]

ولكنها أضافت بنبرة حادة:

«إن كنتِ حلوة	(إن تشان إنت حلوة
فأمامك مَن هي أحلى»	قدامتش أحلى أو أحلى)

وبالطبع ضحك أهل أرطاس من هذا المديح؛ فهم لا يرون جمال الزنوج ولا يقدرونه، ولكن الأم، في كل حال، وقفت إلى جانب ابنتها في شجاعة.

وعلى الزوجة أن تستقبل ضرتها عندما يؤتى بها عروسًا إلى البيت. ولهذا، فقد ذهبت مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) في يوم عرس زوجها بهدوء وطاعة - كما ينبغي على الزوجة أن تفعل - لاستقبال العروس، وصحبتها إلى داخل البيت[12]. وبالطبع، أردتُ أن أعرف عن هذا، وعن سبب هذه العادة.

قالت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«عندما وصلت العروس، جاءت ضرتها لاستقبالها؛ فعلى الزوجة الأولى أن تأخذ بيد الزوجة الجديدة، وإلا ستقبض رحمها[13]، ويجب أن تتخطيا عتبة

(11) انظر أعلاه في الصفحة 398 من هذا الكتاب.

(12) انظر أيضًا أعلاه في الصفحات 407 وما يليها، والحاشية الأولى في الصفحة 409 من هذا الكتاب.

(13) انظر أعلاه في الصفحة 407 وما يليها من هذا الكتاب.

البيت معًا (يوم أجو بالعروس راحت لاقتها ضرتها إلعتيقه. لازم تمستش إيد إلجِّديدة ولاً بتتشبسها لازم إيفوتو إلعتبه سوا)».

وقالت الست لويزا:

«وإلا فستقبض رحم الجديدة بمزاجها المعكر، فلا تحمل أولادًا؛ لذلك على سليم مسلَّم [199] أن يحرص على رضاها».

وقالت مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]):

«تأخذ القديمة بيد الجديدة، وتدخلان البيت معًا، وهذا يعني أن إحداهما لن تعلو على الأخرى، ويعني أنها لن تقبض رحمها. وخوفًا من أن لا تحمل أولادًا، يجب أن تتخطيا عتبة البيت معًا (هذا إلمعنى ما حدا يعلا على حدا، هذا منشان ما تتشبسهاش، من خوف عليها ما تجيبش ولاد لازم إيفوتو إلعتبة سوا)».

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن العريس عند دخول العروسين إلى البيت:

«عندما تزوج خليل عوده [3] للمرة الثانية، ضرب على يد (زوجته الأولى) سارة (زوجة خليل عودة [3])، وكذلك على يد (العروس) ذبلة (ابنة خلاوي [108]، وزوجة خليل عودة [3].)»[14].

يجب أن يفعل الرجل هذا بزوجته الأولى وبعروسه الجديدة أيضًا؛ فيتجلى على هذا النحو أيضًا، أنْ ليس للرجل أن يحرم الزوجة الأولى من حقوقها عند إدخال الزوجة الثانية (ضرة) إلى البيت.

وفي المساء، عندما يؤتى بعشاء العروسين إلى بيت العريس، تأخذ الزوجة الأولى الطبق، ثم تحرسه أم العريس.

وعند تزيين العروس بالذهب، تجلس الزوجة الأولى بجوارها، وتنال حظها من الزينة. وعندما يأتي العريس ليرفع الخمار عن عروسه ويعطيها

(14) انظر أيضًا: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 115.
وانظر أعلاه في الصفحتين 401 و409 من هذا الكتاب.

الهدايا، تقف الزوجة الأولى إلى جوار العروس، وعلى العريس أن يزيل قناع الذهب عن وجهها كما يزيله عن وجه العروس، وعلاوة على ذلك، ينبغي أن يكون لها نصيب من المال الذي يقدمه للعروس.

تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن هذه الهدية المالية[15] النْقوط):

«تبسط أم العروس كمها للهدية (النْقوط)، وتقف أم الزوجة القديمة (إم العتيقة) إلى جوارها لترى وتعاين ما يُقدم، وهي تقف هناك لتحفظ مكانة ابنتها.

وأحضرت النساء وسادة لمريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) لتقف عليها، عندما رأين أنها أقصر من العروس، خوفًا من أن تعلو العروس عليها (من خوف العروس تعلا عليها)؛ أي أن تكون خيرًا منها.

وإذا ما تزوج الرجل ثلاث نساء، فينبغي أن ينلن هدايا متماثلة، غير أن الأولى هي التي تنال التكريم؛ فالزوجة الجديدة هي ضيفة الآن (أما إلأوَّلة مكرمة، إلجْديدة هَلْحين ضيفة)».

كما أن هدية العروس التي تدعى فك الحذاء (فك إلوطا)[16]، تقدم إلى الزوجتين كلتيهما؛ فتنال كل منهما مجيديين، أي أربعين قرشًا.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«وعند «فك الوطا» تنال كل واحدة منهما مجيديين؛ فقبل أن يذهب لينام مع الزوجة «الجديدة»، يعطي الزوجة القديمة هذه الهدية».

ويقول: «يا ابنة عمي (بنت عمي)[17]! سيكون الأمر كما تريدين، وأنت صاحبة البيت والمكان (تفضلي يا بنت عمي أُو إنتي مرحبابيتش أُو إنتي صاحبة إلبيت وإنتي صاحبة المطرح)».

---

(15) انظر أعلاه في الصفحة 420 من هذا الكتاب.

(16) انظر أعلاه في الصفحتين 425 و426 وما يليها من هذا الكتاب.

(17) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 81.

وانظر أعلاه في الصفحة 455 وحاشيتها من هذا الكتاب.

فتقول له: «مباركة عروسك، وهنأكما الله (إمبارتش عروستك الله يجعلتشوا تتهنوا)!»».

وعن الأحكام التي يجب أن تتقيد بها الزوجتان، القديمة والعروس، في صباح اليوم التالي، روت مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) الآتي:

«ليس من اللائق أن تدخل الزوجة القديمة على الجديدة (إلعتيقة تخش على إلجَّديدة) حتى تغتسل وتلبس. بعد ذلك تذهب الجديدة إلى النبع لتملأ جرتها بالماء، وهذا خشية أن تقبض رحمها فلا تنجب أولادًا (هذا منشان ما تتشبسهاش، من خوف عليها ما تجيبش ولاد). ولكن هذا الحكم يسري على اليوم الأول فقط».

ولم تزل أم مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) ترغب في أخذ ابنتها إلى بيتها في الخليل، من حنقها على مصير ابنتها التي جاءت أخرى لتأخذ مكانها، وقالت: «يتزوج امرأة أخرى! هل أنتِ بعين واحدة؟ وما إلى ذلك».

ولكن عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) نصحتها بأن لا تفعل؛ إذ قالت: «لا تذهبي! إن لك شيئًا من الحظوة الآن، إذا ذهبت ستخسرين».

وواست عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) مريم (زوجة سليم مسلَّم [199])، الزوجة الأولى الحزينة بقولها:

«اجعلي حجرك ثقيلًا (أي كوني راجحة وهادئة ولا تثوري بسرعة). إن وتد خيمتك في «المصطبة» (أي في مكان عالٍ)، ففي بثبات كما يطفو الدهن على الماء! لا تكوني خفيفة، أنتِ محور البيت، الجميع معكِ، الأبيض والأسود (حرفيًا: الحر والعبد)، والله مع الجميع (خلي حجرتش ثْقيل، إنتي وَتَدِتش في إلمصطبه، إجمدي زي إدّهن علمُويِه، لا تتخفّفيش، إنتي سدر إلبيت، إنتي إلكل معتش، إلحُر أو إلعبد، أو الله مع إلكل)!»

فأجابت مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]):

«أشكركِ يا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])! لن أطيع أمي (تشكّر خيرتش ما بردّش على إمّي)!».

ثم قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«أنت الآن قنطار، بعدها لن تكوني إلا أوقية (هَلقيت إنتي قُنطار، بعدين بتصيري أوقيه)»(18).

بالطبع، لم يكن هذا الكلام عبثًا. وفي الحقيقة، يمكن للمرأة الذكية في ظروف كهذه أن تحتفظ بحظ وافر من منزلتها بالحكمة وحسن المعشر.

وفي ما يتعلق بالتعاطف العام مع مريم (زوجة سليم مسلّم [199]) الذي ذكرته عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، فقد تجلى على النحو الآتي:

قالت الست لويزا:

«قالت لي مريم يوسف (ابنة يوسف شاهين [138]، وزوجة مصطفى عبد [151]) في بيت العريس سليم مسلّم [199] قلنا: «تزوج يا سليم [199]! فمريم (زوجة سليم مسلّم [199]) تثير المتاعب؛ فهي تسعى بالقيل والقال، وستأدبها بزواجك بامرأة أخرى! وأبناء العشيرة ليسوا راضين عنها»».

وكما يحدث في كثير من الأحيان، استحالت العداوة شفقة، عندما علم الناس بالضيق الذي لحق بمريم (زوجة سليم مسلّم [199])، ولم يظهر ذلك عندما وضعوا الوسادة تحت قدميها فحسب؛ فعلى حد قول الست لويزا، تذمرت أم العروس قائلة:

«يبدو أن الجميع في صف مريم (زوجة سليم مسلّم [199])».

---

(18) انظر: Lane, *An Account of the Manners*, p. 378,

«تعادل الوقية أو الأوقية اثني عشر درهمًا، أو جزءًا من اثني عشر جزء من الرطل؛ أي ما يعادل 571.5 إلى 576 غرين إنكليزي [أصغر وحدة قياس للوزن]» انظر الصفحة 378 من المرجع المذكور: «القنطار (وزن المئة؛ أي مئة رطل) وهو يساوي وزنًا 97.8 إلى 98.75 رطل إنكليزي».

الرطل = اثنتي عشرة أوقية

الوقية = (حوالى 250 غرام) = 75 درهم

القنطار = مئة رطل

ولأنها جلست بجوار ابنتها طوال العرس، كان لديها الوقت الكافي والفرصة لكي تلاحظ ذلك.

وفي الحقيقة، كانت عيون الناس كلها على مريم (زوجة سليم مسلَّم [199])؛ لينظروا، كيف ستستقبل هذا اليوم؟ وكما يحدث في أوقات الشدة، في كثير من الأحيان، كان أداؤها مذهلًا؛ فإحساسها بأن بعض شؤونها كانت محور اهتمام الناس، ومحط أنظارهم، منحها قوة كادت تفوق طبيعة البشر، وأدت واجبها بعيون متألقة. دخلت إلى الحجرة وهتفت: «هيا أيتها النساء، اجلبن الماء!»، وقادتهن إلى النبع، ورقصت في عرس زوجها[19]، وظلت طوال الوقت حاضرة ومشغولة. وعندما نزلت إلى بيتنا بطعام العرس، ابتسمت وأكدت لنا أنها كانت مسرورة جدًا (كثير مبسوطة)، ولكن لم يكن ثمة حاجة إلى بصيرة نافذة في شؤون النفس البشرية ليرى المرء أنها إنما كانت تتكلف ذلك كله، وأنها إنما حملت نفسها على إظهار الرضا حملًا، وظلت على حالها هذا مدفوعة بما حولها من الإثارة. غير أنه لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى قيل إن مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) «حردانة»؛ أي إنها عادت إلى بيت أبيها[20]، ولم يزعج ذلك أحدًا من أهل القرية.

والرجال هم آخر من تتوقع منهم مريم (زوجة سليم مسلَّم [199]) التعاطف معها؛ فقبيل العرس، صادفنا أبا زهية هلال (زوجة خليل شاهين [150]) في الجبال، وهو شيخ من بيت لحم، وقالت له ست لويزا:

«هلا نزلت إلى أرطاس وسويت الأمور هناك، وكلمت سليم [199] الذي يريد أن يتخذ زوجة ثانية!»، فأجاب: «أحل له الشرع أن يتزوج أربعة[21]،

---

(19) انظر: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 331,
«وعلى الرغم من أن الزوجة القديمة حزينة جدًا، فهي تدعو صديقاتها إلى 'وليمة عرس' عندما يتخذ زوجها زوجة ثانية».

(20) في ما يتعلق بلفظة «حردانة» انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

(21) يرد في الآية الثالثة من سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي من الإماء.

والقاضي أيضًا لديه زوجتان»؛ فقالت: «ولكن لماذا يتزوج الرجل امرأة ثانية؟» قال: «عندما لا يكون هناك وئام، يختل التوازن، فيتزوج مرة ثانية»، فقالت: «وإذا ظل الوئام مفقودًا؟» قال: «عندئذ يتزوج الثالثة أو حتى الرابعة، حتى يجد التوازن».

ثم بدأ غير واحد من الشباب في الحديث عن الزواج للمرة ثانية؛ فقد سمعوا عن فرص مواتية للحصول على زوجات.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«لدى المفتي في القدس أيتام (فهو يدير ملجأ للأيتام). وعندما تكبر الفتيات اليتيمات، يبحث لهن عن أزواج. وهكذا جاء خليل شختور من بيت لحم للمفتي، وطلب منه واحدة، فأعطاه. غير أنه دفع لها المهر الذي دفعه خليل شختور على شكل متاع للبيت. خليل شختور دفع مهرها للمفتي، وأعطاها هذا الأخير حمل سيارتين من المتاع للبيت. والآن، ها هم جودة إبراهيم [95](22)، وعطية عبد [155]، وخليل شاهين [150]، يتساءلون عن بنات المفتي».

وفي ما يتعلق بنظرة النساء إلى حال مريم (زوجة سليم مسلّم [199])، وإن كن تعاطفن معها، وعاملنها بلطف في يوم العرس وبعده بقليل؛ فقد قلن فيها:

«هناك نساء أخريات لهن ضرائر، من تكون هي حتى تتذمر؟ هل هي أفضل من فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])(23) هل هي أرفع مكانة من إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])؟(24) هما أيضًا لهما ضرائر؛ فأي حق لها في أن تتذمر؟».

الضرائر والزوج

روت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الكثير من الأمثال التي تبين شعور

(22) اتخذ في ما بعد زوجة ثانية، انظر أدناه في الصفحة 567 من هذا الكتاب.

(23) انظر أعلاه في الصفحة 470، وأدناه في الصفحات 539 و547 وما يليها من هذا الكتاب.

(24) انظر أدناه في الصفحة 507 وما يليها وفي الصفحة 512 من هذا الكتاب.

المرأة تجاه ضرتها، وهي تعبر في صور مختلفة عن الفكرة نفسها: أن الضرة تعب ومرارة:

«ليلة مجيء السلفة أصبحتُ مختلفة (أي مريضة أو مهمومة) (ليلة إلسِّلفة أصبحت مِخْتلفة
ليلة مجيء الضرة أصبحتُ وقد أصابني الضرر ليلة إلضُّرة أصبحت مِنضرَّة
ليلة مجيء الكنة أصبحتُ مبتهجة» ليلة إلتَّشنة أصبحت فرحانه).

و:

«الضرة مُرة، حتى لو كانت عسل في جرة» (إلضُّرة مُرَّة لَنْها عسل في جرة).

وفسرت الست لويزا المثل الثاني كالآتي:

«مهما كانت الضرة لطيفة، فهي منافسة، وقد تعترف المرأة بأن ضرتها امرأة طيبة، ولكنها تبقى مع ذلك عدوتها».

وتظهر الفكرة ذاتها في الأمثال الآتية:

«الضرة مُرة، حتى لو لم تكن سوى مقبض جرة (الضرة مُرة لَنْها دان جرة)»
«ذهبتُ إلى جرة الماء وظننتُها ضرة، فعدتُ بعطشي والله يعلم
(خَشْيتْ عَجَّرَة أو أَحسَبْتها ضرة إطلِعت عطشانِه أو إلعلم عند الله)».

وقالت الست لويزا معقبة:

«أي الله وحده يعلم ما في قلبي، وكيف كان شعوري عندئذ».

والمثل يشير إلى قصة رجل أراد أن يسخر من زوجته، فألبس جرة ملابس امرأة لتخالها زوجته ضرة، وقد نجح في مزاحه، وشعرت الزوجة باليأس[25].

«ليلة مجيء الضرة أصبحتُ في ضيق (ليلة إلضُّرة أصبحت من مرَّة
ولو كانت عسلًا في جرة لَنْها عسل في إلجَرة
ما طاقتها نفسي ما طاقتها نفسي

(25) انظر: Adela Goodrich-Freer, *Arabs in Tent and Town* (London, 1924), p. 26.

ليلة مجيء السلفة أصبحت مختلفة (أي مريضة أو مهمومة) ليلة إلسَّلفة أصبحت مِخْتِلفه
ولو كانت عسلًا على الشفة لَنْها عسل عَشَّفَّة
ما طاقتها نفسي ما طاقتها نفسي
ليلة مجيء الكنة أصبحتُ ولي رفيقة مثلي ليلة إلتَّشنة أصبحت مَلْتَمِّه)

وعلى الرغم من كل ما يقال من أن الزوجة الأولى هي صاحبة الحظوة والشرف؛ فالحقيقة المرة هي أن عليها أن تفسح الطريق للزوجة «الجديدة» في الأقل في أسبوع العرس(26)؛ فقد باتت سارة مصلح (زوجة خليل إبراهيم [3]) خارج البيت في «ليلة الضرة». وإذا كان للزوجة الأولى أم، فستفعل فعل أم مريم (زوجة سليم مسلَّم [199])، وتنصر ابنتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا.

ويسعد الرجل بفتنة زوجته الجديدة، في أول الأمر في الأقل، ولا سيما إذا كان قد تزوجها لإشباع رغباته؛ فقد تفاخر سليم مسلَّم [199] بسعادته بابنة خالته السوداء أمام رجال القرية؛ إذ قال إنه الآن يعرف معنى الزواج للمرة الأولى.

ويحسب ما قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، فإن الزوجة الأولى تتذمر قائلة:

«يا أميمة، يا أمي! ما أصعب الضرَّة! (يا ميمتي، يمَّه، يا مصعب إلضُّرَّة
من عاشرها ليلة يصبر على حكم الله! مين عاشرها ليل يصبر على حُتشم الله
أهلي وجيراني ما طاقوا نيراني أهلي أُو جيراني ما طاقوا نيراني!
والكلب عزَّاني في ليلة الضرة والتشلْب عزاني في ليلة إلضُّرَّة،
غسلت له رأسي وقلت له تفضل! غَسلت لِه راسي أُو قلت لِه تفضل
قال لي عسى أن يصيبك الصلع، فانصرفي! قَلّي إلقرَعْ، يا الله

(26) انظر أعلاه في الصفحة 440 وما يليها من هذا الكتاب. انظر أيضًا: Westermarck, *Marriage Ceremonies*, p. 331,
«لكن عليه أن يمكث مع العروس سبعة أيام، سواء أكان لديه زوجة أخرى أم لا».

غسلت له وجهي، وقلت له تفضل!	غسلت لِه وجهي أُو قلت لِه تفضل
قال لي عسى أن يصيبك البرص، فانصرفي!	قَلّي إلبَرَصْ، يا الله
كحلت له عيني بالمرود[27] الجميل، وقلت له تفضل!	
	كحلت لِه عيني بِالمرود إلزِّيني أُو قلت لِه تفضل
قال لي عسى أن يصيبك العمى، فانصرفي!	قَلّي إلعمى، برًّا
غسلت له بطني، وقلت له تفضل!	غسلت لِه بطني أُو قلت لِه تفضل
قال لي عسى أن تشتكي وجع الطحال، فانصرفي!	قَلّي إلطّحال برّا
غسلت له يدي وقلت له تفضل!	غسلت لِه إيدي أُو قلت لِه تفضل
قال لي عسى أن يصيبك الشلل، فانصرفي!	قَلّي إلسَّطَع، يا الله
غسلت له رجلي ولبست له الخلخال وقلت له تفضل!	
	غسلت لِه رجلي لبست لِه إلحَجَلْ أُو قلت لِه تفضل
قال لي عسى أن يصيبك العرج، فانصرفي!	قَلّي إلعرج، يا الله
هيأت له الفراش وقلت له تفضل!	فرشت لِه إلفرشِه أُو قلت لِه تفضل
قال لي أخرجي بهذا الحلس!	قلّي جَرده، برًّا
طهوت له دجاجة، وتبلتها بمئة نوع	طَبخت لِه إلجَّاجة حطيت فيها
من التوابل، وقلت له تفضل	ميت حاجة أُو قلت لِه تفضل
قال لي هذا الكلب في الخارج	قلّي إلتّشلب برًّا
جاءت الجديدة	أجت إلجَّديدِه
قالت طبختُ له البقلة[28] بلا دهن	قالت طبخت لِه إلبقلِه قِفلِة
ولا ملح (جافة وحلوة) وقلت له تفضل!	وحلوِه أُو قلت لِه تفضل
قال لي يا الله! كم هو لذيذ!	قلّي زاكي، يا الله

(27) انظر: Lane, *An Account of the Manners*, p. 52,

«ويوضع الكحل بأداة صغيرة مصنوعة من الخشب أو العاج أو الفضة، مستدقة في نهايتها لكنها ليست حادة...، وتسمى 'مِروِد'».

(28) انظر: Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 330 n. 6.

فرشتُ له حلسًا، وغطيته بكيس خشن فرشت لِه إلجَرده، غطِّيته بالفاردة

قال يا الله! هذا حرير معطرا» قال حرير مندًّى، يا الله)

وثمة أغنية أخرى عن الضرة تجمل أهم مراسم الخِطبة والزواج.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«يا نائمة، يا نائمة، قالت دعوني أنام

(عَنَّايمة عنَّايمة قالت خلُّوني نايمة

قالوا لها زوجك خطب، قالت دعوني أنام

قالوا هَي جوزتش خطب، قالت خلُّوني نايمة

قالوا لها زوجك ذبح(29) (أي أولم للخطبة)، قالت دعوني أنام

قالولها جوزتش ذبح، قالت خلُّوني نايمة

قالوا لها زوجك اشترى الجهاز(30)، قالت دعوني أنام

قالوا جوزتش هيًّا تشسا، قالت خلُّوني نايمة

قالوا لها زوجك خضب بالحناء(31)، قالت دعوني أنام

قالوا جوزتش هيًّا حنًّا، قالت خلُّوني نايمة

قالوا العروس على الجمل(32)، قالت دعوني أنام

قالوا العروس عَجَّمل، قالت خلُّوني نايمة

قالوا زوجك اشترى متاع البيت، قالت دعوني أنام

قالوا جوزتش فرش، قالت خلُّوني نايمة

قالوا زوجك ضرب العروس(33) (على يدها)، قالت دعوني أنام

قالوا جوزتش دقّ العروس، قالت خلُّوني نايمة

---

(29) انظر اعلاه في الصفحة 631 من هذا الكتاب.

(30) انظر اعلاه في الصفحتين 343 و344 وما يليها من هذا الكتاب.

(31) انظر اعلاه في الصفحة 351 وما يليها من هذا الكتاب.

(32) انظر اعلاه في الصفحتين 379 و380 وما يليها من هذا الكتاب.

(33) انظر اعلاه في الصفحتين 401 و409 من هذا الكتاب.

قالوا زوجك جمع النقوط[34]، قالت دعوني أنام
قالوا جوزتش نقَّط، قالت خلُّوني نايمة
قالوا زوجك ذهب لينام (مع العروس)، قالت سأنهض من فوري»
قالوا هيًّا جوزتش رقد، قالت بالعَجَل قايمة)

وفي ما يأتي المزيد من الأغاني والأمثال عن الضرائر كما وصلتني من عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]).

المثل الآتي يبين ما يجول في خاطر كل من الضرتين:

«كيف حالك يا قديمة (أي الزوجة القديمة)؟	(كيف حالتش يا عتيقة
حالي حال كلبة نائمة على العتبة	حالي حال التشليبه في العِتيبِه نايمة
كيف حالك يا جديدة (أي الزوجة الثانية)؟	كيف حالتش يا جديدة
حالي حال سيدة تجلس في الحجرة العلوية	حالتي حالة سراري في إلعلالي قاعِدة)

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«اسألي زوج الضرائر فيجيب:

««وجدت النوم عند القديمة كفرن ممتلئ بالزبل! ووجدت النوم عند الجديدة كليلة عيد الله» (نومتي عند إلعتيقة طابون مزبل عليٍّ! نومتي عند إلجَّديدِه ليلة عيد الله عليٍّ)».

ويقول في الأغنية:

«القديمة بقدمها	(إلعتيقة بعتِقتْها
كالحمارة في حلسها	زي إلحمارة بجردتها
أفٍّ لها كم أمقت النوم معها!	إخّي ما أشنع نومتها

(34) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 129f.
وانظر اعلاه في الصفحة 416 من هذا الكتاب.

هي حمارة وأنا الحمار | هي حمارة أو أنا الحمار[35]
أما الجديدة بحداثتها | أما الجَّديدة بجدَّتها
كالمهرة في لجامها | زي المهيرة بعدتها
بخن بخن ما أحسن النوم معها! | إخّي ما أحلى نومتها
هي الوزير وأنا السلطان | هي الوزير أو أنا السُّلطان
أما العتيقة التي تجوب المكان | أما العتيقة الدَّوَّارة
تتصيد دجاجات الحي» | تقبض جاجات الحارة).

ويبدو من هذه الأمثال والأغاني كيف تحتل الزوجة الجديدة مكان الزوجة القديمة، حتى إنها في بعض الأحيان تحمل الزوج على طلاقها.

وهكذا روت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي:

«تزوج حسن عبدالله [85] نجمه (زوجة حسن عبدالله [85]) أولًا، ثم تزوج سلمى (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة حسن عبدالله [85]). وفي الليلة الأولى قالت لنجمة (زوجة حسن عبدالله [85]): «يجب أن لا تفعلي شيئًا دون إذنٍ مني!» فقالت لها نجمة (زوجة حسن عبدالله [85]): «أنا لا أتتمر بأمرك، ولا طاعة علي لك!» فقالت سلمى (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة حسن عبدالله [85]): «إذًا تغادري»، ولم يهدأ لها بال حتى طلق حسن عبدالله [85] نجمة (زوجة حسن عبدالله [85]، ومن بعده علي زَلَمة [100]).

وقالت سلمى (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة حسن عبدالله [85]): «غادري». وضيقت عليها حتى طلقها. وقالت لزوجها: «إذا بقيت هي فلن أبقى أنا، فإما أن تطلقها أو تطلقني!»، فطلق نجمة (زوجة حسن عبدالله [85])، واستدعوا الشيخ الذي كان أبرم عقد الزواج. وقال الشيخ: «يجب أن يكون

(35) الست لويزا: «ما أبشع هذا التشبيه، فهم يقولون: 'عسى أن يكون بعيدًا منك' - حمار، أو روث، أو حذاء، أو اسكافي» وما إلى ذلك.

لكل منهما بيتها!» قال حسن عبدالله [85]: «لا أستطيع أن أفتح بيتين! قال الشيخ: «اتركها وشأنها! دعها تبحث عن سعادتها!» قالت نجمة (زوجة حسن عبدالله [85]، ومن بعده علي زَلَمه [100]): «إثمها وإثم الصبي (أي إبن حسن ونجمة) في عنقك!» ثم أضافت: «هذا الإثم سيكون فراشك عندما ترقد! وسلسلة في عنقك عندما تنهض!»».

وفسرت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قول الشيخ إن على الزوج أن يعطي لكل زوجة حجرة كالآتي:

«هذه شريعة الإسلام[36]، يجتمعون للطعام والشراب، ولكنهم يتفرقون عند المنام (هاذي الشريعة لِسلامية إلأتشل أُو إلشُّرب سوا، أُو إلمنام كل من هو من حالِه)»[37].

---

(36) انظر: Theodoor Willem Juynboll, *Handbuch des Islamischen Gesetzes Nach der Lehre der Schafiitischen Schule nebst einer allgemeinen Einleitung* (Leiden, 1910), p. 54

«القانون المقدس الذي هو من عند الله يسمى في العربية الشرع أو الشريعة».

(37) يقول القُدوري في الصفحة 84 من كتابه المختصر إن من واجب الزوج أن يجعل لها بيتًا خاصًا بها لا يسكنه أي من أقربائه، إلا إذا شاءت هي ذلك. ويقول فلنغر (Fehlinger) في: Hans Fehlinger, «Über das Ehe- und Familien-Recht der Mohammedaner,» (by Kaurimsky), in: *Archiv für Rassen u Gesellschafts-Biologie*, XII (München; Leipzig; Berlin, 1916-1918), p. 113,

يسمح للمسلم أن يتخذ أربع زوجات، ويحق لكل زوجة منهن أن تطالب بمسكن منفصل. وتذكر غودريش فرير في: Adela Goodrich-Freer, *Inner Jerusalem* (London, 1914), p. 263,

أن الشريعة الإسلامية تحرم على الرجل أن يكون له زوجتان في بيت واحد. وتروي في كتابها: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent*, p. 23,

أن النساء العربيات أكدن لها: «إذا كان هناك زوجتان، فسيكون هناك أسرتان. ويكون اللقاء سارًا، بين الفينة والفينة. أما الأطفال، فيكون لهم جميعًا أب واحد، ويلعبون ويدرسون معًا. أما في ما يتعلق بكون إحداهن هي الأولى، ألا تكون إحدى الأختين هي الكبرى؟».

ويذكر بالدنسبيرغر في: Stewart Macalister and E.W.G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII (London, 1905), p. 131,

أن الشريعة الإسلامية تحرم على الرجل أن يكون لديه أكثر من زوجة في بيت واحد، ويقول إن والدي الزوجة يحاولان، قدر المستطاع، الحصول على بيت منفصل، أو في الأقل، على حجرة منفصلة لابنتهم، إلا أنه قلما يتيسر ذلك. «ويعيشون عادة في حجرة واحدة». ويشير جوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 95,

إلا أنه بحسب الشريعة ينبغي أن يكون لكل زوجة مسكن منفصل. ويشير المؤلف نفسه المشار إليه =

وكان رأي نسائي في سلمى (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة حسن عبدالله [85]) كالآتي: «كانت سعيدة (إلها بخت) مع زوجها الأول، وكذلك مع زوجها الثاني». فقد كانت تزوجت رجلًا من مكان آخر في ما مضى، وعندما تزوجت حسن عبد الله [85] عرفت كيف تؤثر فيه حتى إنه طلق زوجته الأولى من أجلها.

= أعلاه في كتابه: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 56,

«بغية الحفاظ على السلام بين زوجاته، يقسم الزعيم الخيمة الرئيسة إلى أقسام منفصلة، كما فعل طلال. وفي حالات أخرى ينصب خيامًا خاصة، وتعيش كل منهن وحدها تقريبًا، ويزورهن من حين إلى آخر» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول في الصفحة 56 وما يليها من المرجع المذكور: «ولبعض الزعماء زوجات عدة في أماكن مختلفة، ولهذا فلسلطان، شيخ العدوان، زوجتان في خيمته، وزوجة ثالثة في بيت مستقل في السلط يزورها باستمرار» [ترجمة عن الفرنسية].

ويقول بيركهارت في: John Lewis Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I (London, 1830), p. 158,

معللًا لحقيقة أن «تعدد الزوجات قلما نجده بين البدو»: «لا يملك أحد إنشاء بيوت عديدة إلا الشيوخ، وهو ما يقتضيه تعدد الزوجات؛ إذ لن تمكث زوجتان شرعيتان لرجل واحد طويلًا معًا في خيمة واحدة».

ويقول بيرتون في كتابه: Richard Francis Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Meccah*, III (London, 1855), p. 51 n.,

«تعرف أوروبا الآن أن الزوج المسلم يجعل لكل زوجة من زوجاته منازل منفصلة أو مساكن مستقلة، إلا إذا كانت إحداهن عجوزًا والأخرى صغيرة السن، كما يحدث أحيانًا. ومع أنهم يعترفون أن تعدد الزوجات بيئة خصبة للحسد والكره والحقد، إلا أن المسلم يسأل هل يخلو الزواج من واحدة من المنغصات؟ ووفقًا لملاحظاتي المحدودة، فإن تعدد الزوجات هو الحالة الاجتماعية الوحيدة التي يكون فيها الحسد والشجارات المرتبطة بالجنس الاستثناء لا الأصل في الحياة». أما لين فيقول في كتابه: Lane, *An Account of the Manners*, p. 182,

«قلما تمكث زوجتان أو أكثر في المنزل نفسه، وإن حدث ذلك، يكون لكل واحدة منهن حجرة منفصلة، بوجه عام». ويقول في الصفحة 252 من المرجع المذكور: «يجعل معظم الأغنياء، أو متوسطي الحال، بل وحتى كثير من رجال الطبقات الدنيا، ممن لديهم زوجتان أو أكثر، منزلًا منفصلًا لكل زوجة».

ويعطي فريزر في كتابه: James George Frazer, *Folk-Lore in the Old Testament*, I (London, 1919), p. 538, 540, 541f., 555ff.,

أمثلة من بلدان مختلفة؛ حيث يمارس تعدد الزوجات، ويكون لكل زوجة مسكن أو منزل أو حجرة منفصلة. ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human*, p. 86,

«تزداد تكاليف تعدد الزوجات كثيرًا مع الحاجة إلى تجهيز مسكن منفصل لكل واحدة منهن. ويؤكد ما جمعت من الشواهد أن الحالات التي تعيش فيها كل زوجة في بيت منفصل، أكثر بست مرات من الحالات التي تعيش فيها الزوجات معًا في بيت واحد، على الرغم من أنني اعتنيت بتدوين الشواهد من الصنفين على السوية؛ لكن الأرقام ليست كبيرة (41 و7 على التوالي) وذلك لأن ملاحظاتي حول هذا كانت محدودة. والحكمة من إفراد بيت منفصل كل زوجة هي منع المشاجرات والنزاعات..».

إلا أن الزوجة «الجديدة» لا تمسك دائمًا بزمام الأمور، ولا حتى على المدى الطويل، وليست هي دائمًا الأكثر فتنة؛ فمقولة «إذا كنتِ حلوة، فأمامك مَن هي أحلى»، يمكن أن تكون حقيقة واقعة.

«حتى لو اتخذ مئة زوجة	(لو يوخذ ميه
أظل أنا غطاء الجرة	أنا غَطَاة البُرْنية
وكل النساء تحت قدمي»	أو كل النِّسوان تحت إجريِّه)

كانت تلك تحية إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) للزوجة الجديدة عند وصولها إلى البيت(38)، كانت أنشودة النصر التي أعلنت من خلالها إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) لأهل القرية أنها لن تسمح لأحد بأن ينتزع السلطة منها، وأنها ستظل هي السيدة.

وعليه، فقول الزوج وأمه للزوجة الأولى في صباح يوم العرس إنها صاحبة المكان (صاحبة إلمطرح) وصاحبة البيت (صاحبة إلبيت) وتواضعهم لها بقولهم: «نحن خدم لك ولأولادك»(39)، كلام لا يقال من باب الإطراء فحسب، فمقولة «إن الزوجة الأولى هي صاحبة الحظوة والمنزلة الرفيعة» في البيت، يمكن أن تكون حقيقة واقعة. وفوز إحدى الزوجتين بمنزلة السيدة الحقيقية للبيت رهن بالرجل من جهة، وبالمرأتين من جهة أخرى؛ أي بأيهما هي صاحبة الشخصية الأقوى، وإن كانت هناك عوامل أخرى تؤثر في هذا أيضًا سنأتي على تفصيلها في سياق الحديث عن أسباب اتخاذ الرجل زوجتين أو أكثر.

والزوج، بوجه عام، يميل إلى إحداهن، وتُعد هي «إلمحظية»،

---

(38) انظر أعلاه في الصفحتين 397 و398 وما يليها من هذا الكتاب. وكذلك: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 102.

قارن ذلك أيضًا بأغنية يذكرها ليتمان في: Enno Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge (Berlin, 1902), v. 3, p. 112.

وتغني المرأة وهي تنتظر ضرتها، وعند وصولها: «الحمد لله، يا رب، اشترينا جارية».

(39) انظر أعلاه في الصفحة 483 وما يليها من هذا الكتاب.

والمحبوبة «إلمحبوبِه»، وينفر من الأخرى، وتُعد «مُش مَحْبوبِة»، المكروهة «المبغوضة»[40]. أما النساء في ما بينهن: «فلا بد أن تسود إحداهن على الأخرى، وإلا فلن يستقيم أمر البيت (لازم تتروس وَحَدِه في إلبيت ولّا بيخرب إلبيت)». وعندئذ تكون هي «الكبيرة» (كبيرة إلبيت، إلكبيرِه) التي تطيعها الزوجة الأخرى وتتبعها (هاذي تحت إيد هاذي)[41].

على سبيل المثال، سارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) هي الكبيرة (إلكبيرِه) من بين زوجات خضر إحسين [40] الثلاث الباقيات. ومن بين زوجتي علي أسعد [42]، سلمى العلي (زوجة علي أسعد [42]) هي «المحبوبة»، وصبيحة (ابنة جاد الله عودة [2]، وزوجة علي أسعد [42]) هي «المبغوضة»، ولكن عندما كانت سلمى العلي (زوجة خليل شحادة [170]، ومن بعده علي أسعد [42]) زوجةً لخليل شحادة [170] في ما مضى، كانت تابعة لضرتها حسنة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خليل شحادة [170]) (سلمى

---

(40) انظر: Gunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*, p. 332, «ليس من النادر أن يكون للإسرائيلي زوجتان، إلا أن حَميَّتهما وغيرتهما، كما هو معهود لدى النساء الإسرائيليات (الآية الأولى من الإصحاح الثلاثين من سفر التكوين) تجعلان حياته مريرة (الآية الثانية من الإصحاح الثلاثين من سفر التكوين). وهو ذاته لا يميل إلى العدل إلا قليلًا؛ وإنه ليقول: لا يمكن لأي كان أن يحب امرأتين؛ فهو 'يحب' واحدة، و'يبغض' الأخرى. ومن رواية كهذه، يدرك المرء كم هي مألوفة تلك الظروف، فالرواية لا ترمي بأي حال من الأحوال إلى النيل من بيت يعقوب بسوء، وإنما تبين أمورًا - كما يعلم الجميع - تحدث في كل مكان في إسرائيل. قارن أيضًا الآية الخامسة من الإصحاح الأول من سفر صموئيل الأول. وتتوقع القوانين العرفية مثل هذه الأمور». ويشير غُنكل إلى الآية الخامسة عشرة من الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية، حيث الزوجة «المحبوبة» والزوجة «المكروهة» مصطلحان تشريعيان. في ما يتعلق بكون إحدى الزوجات هي «المفضلة» انظر: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 95; Lane, *An Account of the Manners*, p. 253, and Edward Westermarck, *Wit and Wisdom in Morocco: A Study of Native Proverbs* (London, 1930), p. 79.

(41) في ما يتعلق بارتفاع منزلة إحدى الزوجات، وهي في الغالب الزوجة الأولى، فوق الأخريات، ورياستها عليهن، انظر: Lane, Ibid., p. 252f.; Frazer, *Folk-Lore*, p. 534ff., and Westermarck, *The History of Human*, p. 29, 43.

وتميز الزوجة الرئيسة بلقب خاص، كأن يقال لها «الكبيرة» أو «السيدة» أو «سيدة البيت»، وما إلى ذلك. انظر فريزر في الصفحة 536 وما يليها من المجلد الأول، ووسترمارك في الصفحة 32 وما يليها من المجلد الثالث في المرجعين المشار إليهما سابقًا.

تحت إيد حسنة). وريا (ابنة عِثمان أحمد [31]، وزوجة أحمد إسْمَعين [52]) كانت تابعة لضرتها محبوبة (ابنة جبرين عِثمان [76]، وزوجة أحمد إسْمَعين [52]) (ريا تحت إيد محبوبة). أما نساء عِثمان جبرين [77] الثلاث، خضرة (ابنة أسعد إحسين [39]، وزوجة عِثمان جبرين [77])، وصبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77])، ومدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77])؛ فقد قالت لي الأخيرة إن أيًا منهن لم تعلو على الأخريات، وكانت النتيجة خراب البيت.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): كلما غابت صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) كانت خضرة (ابنة أسعد إحسين [39]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) هي «الكبيرة» (صبحة تِكبر خضرة) ولكن، بوجه عام، لم يطع أحد أحدًا. كان لكل عقله في رأسه، غير أن أحدًا لم يستمع لنصيحة الآخر (كل من هو عقلِه في راسِه، أما ما حدا يرد عَالثّاني)، لكل أفكاره في رأسه عندما يحزم أمره (كل من هو قياسِه في راسِه بعمل خلاصِه)، وبهذه الطريقة خرب بيت عِثمان جبرين [77][42]. (أو من هذا خربت دار عِثمان جبرين)».

«الرجل يجني والمرأة تبني (الزّلمه جنًّا أو إلمرة بنًّا)».[43].

وهناك مثل ينسب للرجل وهو:

«ليتهن كن مئة (يا ريتهم ميه
كل واحدة في حجرة عالية كل واحد في عِلّيِّه

(42) يقول ويلسون في: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London, 1906), p. 104,

«حتى المسلمون أنفسهم يدركون أن تعدد الزوجات مصدر دائم للمتاعب والهموم في العائلة» ويستشهد بالمثل الآتي: «زوجة واحدة في البيت تبني، وزوجة ثانية تهدم، والثالثة هي الخراب كله».

(43) انظر أيضًا: Eberhard Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXXIX (Leipzig, 1916), p. 168,

«(الزّجال جنًّا، والمرة بنًّا). الرجل هو من يجني، والمرأة هي التي تبني. ينبغي على المرأة أن تدخر ما يجنيه الرجل».

تغضب واحدة — واحد يزعل
وترضى عني واحدة»[44] — واحد يرضى عليّ)

ويمكن أن تكون حياة الرجل أطيب إذا اتخذ زوجتين أو أكثر[45]، والدارج أن تقوم المحبوبة منهن على خدمته والعناية بشؤونه، وهي تفعل ذلك بسرور؛ فهذا شرف يميزها من الأخريات، وإذا تنافست الزوجات في ود الرجل، بات في إمكانه أن يُحرِّش بين الواحدة والأخرى، ولكن هذا لا ينجح دائمًا، وقد يكون سلاحًا ذا حدين، فيلحقه منه الأذى، إن لم يكن حازمًا بما يكفي.

ويطيب للناس التندر بتعدد الزوجات، ويسخرون من الزوج العديد الزوجات، كما نرى في الأبيات الآتية، التي رددتها النساء مبتسمات:

«أيا أُخيَّ! حياة زوج الضرائر مُرة — (يا خيِّي جوز إلضَّراير عيشتِه مرَّه
نادي الحظيَّة لتناوله الصرة — نادي على إم إلبخت تَتناولِه إلصُّره
أيا أُخيَّ! ما حياة زوج الضرائر بحياة — يا خيِّي جوز إلضَّراير عيشتِه عيشِه
نادى الحظيَّة لتناوله الشيشة — نادي على إم إلبخت تَتناولِه إلشِّيشِه
أيا أُخيَّ! زوج الضرائر خَلَس الحمار — يا خيِّي جوز إلضَّراير شد عَجَّحشِه
نادى الحظيَّة لتناوله الفراش — نادي على إم إلبخت تَتناولِه إلفرشة
أيا أُخيَّ! زوج الضرائر أسرج حصانه — يا خيِّي جوز إلضَّراير شد عَحصانِه
نادى الحظيَّة لتقف قبالته — نادى على إم إلبخت تَتِقَف إقبالِه)

وتظهر التجربة أن تعدد الزوجات يمكن أن يكون همًا عظيمًا؛ فها هو الزوج يتذمر قائلًا:

---

(44) انظر: Alois Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 193.
«أتمنى لفلان خمسًا من النساء الحسان
واحدة على ركبتيه، وأخرى على البساط
وواحدة تحضر طعام العشاء وواحدة تنادي تعال وكل
أما الخامسة فتبختر جيئة وذهابًا بحذاء ذي كعب عال».

(45) انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 82.

«الضرتان الاثنتان (إلضَّراير وِثِّنتين
تتشاجران حول منام الليل (أي أيهما نوبتها الليلة)[46] يتقاتلو عَنوم إلليل
كالأرانب والغزلان مثل إلأرانب والغِزلان
حقًا لقد ضرتني الضرائر أمَّا إلضَّراير ضرُّوني
أذللنني من بعد عز من بعد عزِّي هانوني
حتى العشاء لم يقدمنه لي عشا ولا عشُّوني
حرقوا شيبتي بالنار» شعوطو شيبي بالنار)

وتشير الكلمات الأخيرة إلى حادثة فكهة روتها لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

كان لرجل زوجتان، إحداهما تدعى حانا، والأخرى بانا. نتفت حانا العجوزُ شعره الأسود، ونتفت بانا الصبية شعره الأبيض. ونهض ليغتسل، فوجد أن لحيته قد ذهبت، وذهب إلى منتدى الرجال (إلسَّاحة)، وقالوا له: «لم أنت متلثم؟ «قال لهم: «من النساء»، ونزع اللثام، ورأوا أن لا لحية له؛ فسألوه: «ولم هذا؟» قال: «بين حانا وبانا ذهبت لحانا (بين حانا أُو بانا راحت لحْانا)»»[47].

فذهب قوله مثلًا.

---

(46) انظر أدناه في الصفحة 504 وما يليها من هذا الكتاب.

(47) أخبرني إلياس حداد من القدس بصيغة مختلفة قليلًا من المثل: «بين حانا ومانا» وما إلى ذلك. وقد دونها قبل ذلك كل من: Lydia Einsler, «Arabische Sprichwörter,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XIX (Leipzig, 1896), p. 80 No. 65, and Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*,p. 189f. No. 269.

ويستشهد باومان بكل من: Landb. 119; *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, vol. XXXVII, p. 198 No. 578.

ويعقب بيركهارت على هذا المثل في: John Lewis Burckhardt, *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gerbräuche der neueren Aegyptier* (Weimar, 1834), p. 56,

قائلًا: «يستمد هذا المثل أصله من قصة، يرد شبيه لها عند لافونتين... ويوجد في مصر كلمات أخرى، مثل حانا وبانا، وهي تستخدم فقط للتشابه الصوتي فيها... وينبغي الإشارة هنا إلى أن الكثير من القصص الفكاهية المتداولة منذ فترة طويلة في أوروبا، تعود في الأصل إلى الجزيرة العربية».

وعقبت الست لويزا بقولها:

«لم تشأ المرأة العجوز أن يبدو الرجل صغير السن، فنتفت الشعر الأسود؛ ولم تشأ الصغيرة أن يبدو كبير السن، فنتفت الشعر الأبيض، وكانت النساء تنتف شعر اللحى؛ لأن الناس لم يكن لديهم مرايا».

ويقول المثل أيضًا: «المرأة مرآة زوجها (إلمره إمرا جوزها)»، ويمكن أن يعني هذا أيضًا أن وجه أحدهما يعكس خلجات الآخر، فابتسامُك يجلب السعادة، أما إذا كان وجه الزوجة مكفهرًا وغاضبًا تعكر مزاج الرجل.

وللحية قيمة عظيمة[48]؛ فالرجل يمسك بلحيته ويحلف: «وحياة لحيتي (أُو بِحْياة هلْلّحِيه)!»[49].

وذكرتني الست لويزا أيضًا بأنه في العهد القديم، حُلقت لحى بعض رجال الملك داود لإهانتهم وإهانة ملكهم[50].

وقد تلجأ النساء إلى السحر في تنافسهن في حب الزوج، فتستخدمه إحداهن ضد الأخرى؛ فقد روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) كيف عملت

---

(48) أخبرني السيد إميل بالدنسبيرغر من يافا الكثير من القصص التي تظهر التقدير الذي يكنه العرب للخبز؛ إذ من غير اللائق، وفقًا للآداب الشرقية، أن يذكر الخبز وأي شيء مزدرى، كالحذاء، في الوقت نفسه. كما انهم يخلعون الأحذية عندما يصلون. انظر الآية الخامسة من الإصحاح الثالث من سفر الخروج. ويشير بيركهارت في كتابه *Arabische Sprüchwörter* ص 314: إلى أن الخبز والخنازير لا يذكران معًا.

(49) انظر: Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 184; Adela Goodrich-Freer, *In a Syrian Saddle* (London, 1905), p. 326, and Lane, *An Account of the Manners*, p. 39,

«يحلفون به [أي الخبز]، ويقولون إن الرجل يدنسه بسلوكه الآثم».

(50) انظر الآية الرابعة وما يليها من الإصحاح العاشر من سفر صموئيل الثاني: «فأخذ حانونُ عبيد داودَ وحلق أنصاف لحاهم، وقصَّ ثيابهم من الوسط إلى أردافهم، ثم أطلقهم. ولما أخبروا داود أرسل للقائهم لأن الرجال شعروا بخزي شديد. وقال الملك أقيموا في أريحا حتى تنبت لحاكم ثم ارجعوا». ويعقب لين على هذه الآيات التوراتية في كتابه: المصدر نفسه، ص 39، قائلًا: إن مثل هذا العقاب «استخدم كثيرًا في العصور الحديثة، لكن ليس بكثرة حلاقة اللحية كلها». انظر الآية السابعة والعشرين من الإصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين.

لها ضرتها في صُورِيف سحرًا صورتها فيه على هيئة زنجية، وصورت نفسها على هيئة البدر في تمامه وعلى هيئة غزالة، ثم بدت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) للزوج زنجية بغيضة حقيرة، بينما بدت له زوجته الأولى جميلة فاتنة، ولم تستطع عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أن تتحمل ما آلت إليه حالها في البيت، فهامت على وجهها في الخلاء، حتى عُثر على السحر، وأبطله شيخ، وقالت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إن إحدى قريبات زوجها، المدعو نوفل، هي التي وجدت السحر.

«رأت قطعة من الخشب، وجذبت خيطًا كان فيها، فوجدت السحر، وذهبت إلى الشيخ تطلب النصيحة؛ فقال للمرأة التي وجدت السحر: «اغسليه بالماء والقِ به في التراب»، وأضاف: «لا يبطل القذارة إلا القذارة»».

ولكن حتى بعد زوال السحر، استمرت الكراهية بين زوجتي نوفل. وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بطريقة غريبة كيف تنافست هي وضرتها، التي تدعى عليا أيضًا، في شرف خدمة الزوج:

«كلما نادى نوفل: «عليا» هبت الضرتان كلتاهما لإجابته».

وأضافت:

«قسم العمل بين الضرتين: عمل البيت وجلب الماء بالتناوب».

وكما سنروي لاحقًا، فقد قضت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) معظم وقتها وهي في عصمة نوفل من صُورِيف، في بيت أبيها في أرطاس[51]، ولم تستطع تحمل الحياة في بيت زوجها؛ فقد بلغ بغض الضرتين إحداهما للأخرى كل مبلغ. ومن الواضح أن التنافر في البيت لشدة النزاع بين الضرتين، لا يفسد حياتهما وحسب، بل وحياة الزوج أيضًا، كما يحمِّله المزيد من النفقات[52].

---

(51) انظر أدناه في الصفحة 529 من هذا الكتاب.

(52) انظر: Wilson, *Peasant Life*, p. 104; Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 94; Lane, *An Account of the Manners*, p. 136, and Westermarck, *The History of Human*, p. 86, 89ff.

ويمكن أن تستخدم النساء السحر ضد الزوج، لغيرتهن من بعضهن، فيلحقن به الأذى من جراء ذلك أحيانًا. وعلى حد قول الست لويزا، فإنه يمكن للمرء أن يشتري تمائم تدعى (محبَّة أُو نْكول) من أسواق القدس(53).

وحتى عند الموت وبعده، يستمر هذا الحب وهذا البغض بالثناء على الزوج المشترك أو ذمه؛ فقد قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«ذهبت ضرتان إلى قبر زوجهما (في صباح اليوم التالي لوفاته). حملت معها المحبوبة منهما «إلمعزوزِه»، كما تقتضيه العادة، «المفتوتِة» (وهو خبز رقيق يخلط مع الكراوية والسمن والسكر أو العسل في طبق من الخشب)، وقالت:

«صباح الخير يا إحسين»، فقالت الزوجة الثانية «إلمبغوضه»: «أيها القبر، كن ثقيلًا عليه! اضغطه حتى تخرج عيناه! كم كان يلعن أمواتي! ويكلح في وجهي!» (ولكن المحبوبة عجلت وقالت): «لا تسمع لها يا قبر! كم قشر لها البيض وأطعمها».

(ضرتين راحوعَ قبر جوزهن، وَحَدِه إلمعزوزِه أخذت هالهَنَابِه إلمفتوتِه، أُو قالت صبحك بِلخير يا إحسين.

هذيكا إلمبغوضة، قالت يا قبر عُص عليه...بَزِّز حَلَقْ عِنيْه،

ياما رحَّم عَمواتي...ياما حَنْزَرلي عِنيه،

يا قبر لا تسمع منها... ياما قشَّر بيض أُو أطْعَمْها)!».

ويخشى على الرجل المتعدد الزوجات من التقصير في واجباته الدينية. علي خليل [173]، وهو نفسه زوج لامرأتين، قال بجد عن الرجل المتعدد الزوجات: «إنه يتحمل عبئًا عظيمًا»؛ فوفقًا للشرع، عليه أن يعدل بينهما، فإن أعطى إحداهما شيئًا، عليه أن يعطي الأخرى مثله، كما هي الحال في جهاز

(53) انظر: Robinson Lees, *The Witness of the Wilderness* (London, 1909), p. 189, and Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 37.

العروس[54]. وفي ما عدا أسبوع العرس الذي يمضيه الزوج عند العروس الجديدة، فإذا أمضى الرجل ليلة مع إحدى زوجتيه، فإن الشرع يقضي بأن يمضي الليلة التي تليها مع الأخرى[55]. هذا هو الحكم الشرعي، والنساء يتمسكن بحقوقهن[56].

وروت مدللة سليمان (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) أن إحدى ضرائرها، وهي صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77])، غضبت غضبًا شديدًا، عندما اغتسلت من الحيض، وانتظرت زوجها عِثمان جبرين [77]، الذي تجاهلها وذهب إلى زوجة أخرى

---

(54) انظر أعلاه في الصفحة 480 من هذا الكتاب.

(55) ثمة مثل يعالج هذه المسألة بصورة هزلية أو مضحكة: «زوج الضرائر عريس كل ليلة، فكل ليلة يخلع قميصًا ويرتدي آخر (جوز إضّراير كل ليلة عريس، يشلح ويلبس كل ليلة قميص)».

(56) انظر: Jaussen, *Coutumes palestiniennes*, p. 95,

«وعلى أي حال، إذا ما أعطى الزوج، متبعًا تعاليم القرآن والسنة والمتعلقة بمراعاة العدل، الاحتياجات الضرورية لكل زوجة من زوجاته، وأسكن كل واحدة منهن في بيت منفصل، وزارهن كلٌّ بدورها وبانتظام، فسيسود الانسجام والوئام في الحرم». ويقول في حاشية في المرجع المذكور: «في ما يتعلق بمراعاة المساواة بين النساء، انظر الآيتين 128 و129 من سورة النساء، والحديثين 67 و97 وما يليهما من المجلد الثالث من صحيح البخاري» [ترجمة عن الفرنسية]. ويعرض موسل في: Musil, *Arabia*, p. 207f.,

لبعض الأمثلة المثيرة للانتباه عن حقوق «الضرائر» عند العرب؛ فإذا ما نام الزوج مع إحدى زوجاته أكثر مما ينبغي؛ فإن الزوجة المهجورة تحصل على خروف أو ماعز «لأن هذا هو ثمن ليلتها». ويذكرنا هذا براحيل التي باعت ليلتها للينة مقابل نبات اللفاح. وعند قبائل الحيوات والظّلّام والعزازمة، إذا لم ينم الزوج مع إحدى زوجاته في يومها، فإن الزوجة المهجورة تذهب إلى أهلها الذين يقولون للزوج: «نطالب بحقها»، وعليه أن يدفع عن تلك الليلة. - «عند قبيلة الترابين تهرب الزوجة في الصباح الباكر إلى خيمة أهلها، وعند سؤالها: 'يا امرأة لم أنت غاضبة إلى هذا الحد..؟' تتذمر قائلة: 'حرمت السرير والمعيشة..' فيخبرون شيخ القبيلة بالأمر، ويستدعى الرجل. فإذا ما أقسم: 'صدقًا، لم أؤثر فيها أو استبدل ليلتها..' يبرّئونه، وإلا وجب عليه أن يدفع للمرأة ليرة مقابل ليلتها». ويقول موسل في كتابه: Alois Musil, *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (New York, 1928), p. 230,

«إذا كان للرجل زوجتان، تطبخ كل منهما له يومًا بالتناوب، وفي ذلك اليوم يأكل وينام معها عادة. وهذا هو حق المرأة 'حقّها' «الذي لا ينبغي لأحد أن يحرمها إياه. انظر أيضًا الصفحة 231 من المرجع المذكور. وبحسب ماثيوز: A. N. Matthews, *Mishkât*, English Translation (Calcutta, 1810), vol. II, p. 108,

يقال إن النبي [عليه الصلاة والسلام] قسّم وقته بين زوجاته بالسوية.

من زوجاته الثلاث؛ فخرجت صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) من البيت مغضبة، وأمضت الليلة في العراء أمام الباب. ولم يملك عِثمان جبرين [77] السيطرة على نسائه اللاتي كنَّ في شجار دائم، وكثيرًا ما تركن البيت غاضبات[57]. وعندما توفي، لم يكن بقي معه منهن في البيت سوى صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77]).

ولم يكن الوضع مختلفًا في العهد القديم، فنستدل من قصة يعقوب على أن الرجل المتعدد الزوجات كان يخضع لقواعد مشابهة؛ فقد كان لليئة الحق في أن تطلب من راحيل ليلة مع يعقوب، وكانت راحيل تملك أن تمنحها ليلتها من غير أن تستأذن زوجها يعقوب (انظر الآية الخامسة عشرة وما يليها من الإصحاح الثلاثين من سفر التكوين): «وقالت راحيل، إذًا يضطجع معك الليلة عوضًا من لُفَّاح ابنك، فلما أتى يعقوب من الحقل في المساء، خرجت ليئة لملاقاته، وقالت، إليَّ تأتي، فقد استأجرتك بلُفَّاح ابني؛ فاضطجع معها تلك الليلة، وسمع الله لليئة، فحبلت وولدت ليعقوب ابنًا خامسًا».

ولا يزال الحال كذلك في فلسطين اليوم؛ فقد روت عيشة (زوجة علي خليل [173])، وهي زوجة علي خليل [173] الأولى أنه قال لزوجته المحبوبة فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) إنه لم يعد يأبه لزوجته عيشة (زوجة علي خليل [173])، ولكنها أضافت بنبرة المنتصر: «وهكذا ولد محمود (أصغر أبنائها من علي خليل [173])!».

وعندما يصبح هذا الواجب، المسلَّم به نظريًا، عبئًا ثقيلًا على الزوج، يهجر إحدى زوجاته، فتذهب إلى منتدى الرجال (إلسَّاحة) لتطالب بحقوقها[58].

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«تشكو المبغوضة بؤسها للناس. وعندما يلوم الناس زوج الضرائر (جوز إلضَّراير) يقول:

---

(57) انظر أدناه في الفصل التاسع من هذا الكتاب.

(58) انظر أدناه في الصفحة 533 وما يليها من هذا الكتاب.

«أيها الجمع! (يا جماعه

لا يتسع الرأس لقبعتين إلرّاس ما بِسَع طاقيتين

ولا يتسع القلب لمحبوبتين» أو إلقلب ما بِسَع مْحبتين)!

وهذا كله بما فيه من الهزل، يخفف من وطأة ظلمه لها في أعين الناس، فيلتمسون له العذر، وينسون جريرته؛ فهو، في نهاية المطاف، لم يقل إلا حقًا.

وفي الواقع، كثيرًا ما يغفل الزوج عن إحدى زوجاته، وفي بعض الأحيان يهملها تمامًا، وتسمى هذه الزوجة المنبوذة «مهجورة».

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) في تعريف المهجورة:

«المهجورة هي المرأة التي لا يكون زوجها معها. قد تكون معه في البيت يأكلان ويشربان معًا، ولكنها لا تملك (في إيدها) النوم معه».

المهجورة إذًا هي المرأة التي لا يعاشرها زوجها[59]؛ فهي المبغوضة المنبوذة. وصبيحة (ابنة جاد الله عودة [2] وزوجة علي أسعد [42]) هي الآن ضرة مهجورة في القرية.

وتعلم القرية بأكملها إن كان الرجل يعاشر زوجته أم لا. وللمعاشرة الزوجية قيمة كبيرة عند المرأة، حتى لو لم تكن ترغب بها؛ فهي علامة مهمة على مودة الزوج وحسن نيته تجاهها في السر والعلن، وبناءً على هذا يعدها الناس زوجة «محبوبة» أو «مبغوضة»، كما أن للمعاشرة الزوجية قيمة وأهمية في هذه الأوساط بوصفها حقًا من حقوق الزوجة.

والأعجب من ذلك، والأكثر طرافة، هو وجود نساء سمون بأنفسهن فوق معايير الرأي العام، وحرَّمن الفراش على أزواجهن، وبهذا، ازددن لديهم مكانة ونفوذًا. إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) هي إحدى هؤلاء؛ فقد «عزلت زوجها عن فراشها» عندما اتخذ لنفسه زوجة ثانية.

(59) انظر أدناه في الصفحة 575 من هذا الكتاب.

وقد روت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أخبارها:

«إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) أعفت[60] زوجها (أي عزلته عن فراشها)، وتدعوه الآن بقولها «أخي»؛ فقد قالت له: «لقد أعفيتك من الرقاد، وليكن فراشك معزولًا عني! فلديك الآن امرأة مثمرة ولود. وأنا ما عاد يرجى مني إنجاب بنت ولا صبي. أنا أكلت نصيبي منك، وأنت أكلت نصيبك مني. أعتقني (وكأنها أمَة) لوجه الله. أنا أكلت فاكهتي، والتوى عرقوبي[61] (إطعيمة سامحت جوزها، بتقلّه يا خيٌّ، قالتلِه إني سامحتك في المِرقاد أو فراشك مَذيور عليّ، هايْ إلك حَبّالِه أو ولّادِه، أنا لا عاد فيٍّ أجيب لا بنت ولا صبي، أنا أكلت نصيبي منك أُو إنت أكلت نصيبك مني، إعتقني لوِجْه الله، أكلت خروبي والتوى عرقوبي)!»».

وعقبت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على روايتها عن إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) بالآتي:

«يقال هذا عن المرأة التي انقطع حيضها وبيضها[62]، ويقال عندما يتخذ زوجها زوجة أخرى (هذا بِنْقال عن إلمره يوم بِتِقطع إلحيض أُو إلبيض، هذا بِنْقال يوم بوخِذ غيرها)».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن إحدى زوجات جدها عودة:

«قالت عيشة إلعامريّة لزوجها عودة: «نعمة كريم! لا تنم معي! (نعمِةْ كريم لا تْنامِش عِندي)!»».

---

(60) انظر أدناه في الصفحة 564 من هذا الكتاب.

(61) انظر: Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 163,

«(أتشل خروبِة وإلتوى عرقوبِه) أكل خرنوبة والتوى عرقوبه. والخرنوب هو طعام الفقراء المزدرى (قارن ذلك بما يرد في الآية السادسة عشرة من الإصحاح الخامس عشر من إنجيل لوقا). ويقال في حالات الإعياء الشديد». وقد سمع دلمان في: Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 58,

تعبيرًا يستخدم للإشارة إلى ذي عاهة: «(هو زي قَرن إلخرُّوب ما بنعض ولا بنمَضَغ) 'هو كقرن الخرنوب لا يُعضُّ ولا يُمضغ'».

(62) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 37, No. 17.

وقالت لي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) إنه تبين أن الزوج والزوجة كانا في هذه الحالة أخوين في الرضاعة، ولهذا قالت عيشة ما قالته[63].

وروت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن هذه العادة أيضًا أن المرأة التي تعزل زوجها عن فراشها تقول: «أنا أعفيك من عمل الرجال (أنا مسامحك في شغلِة إرجال)»، لكنها أضافت أيضًا: «إذا لم يتزوج (امرأة أخرى)، فلن يقبل بهذا، وسيسأل: «أتريدينني أن ألجأ إلى الحمير وإلى الفاحشة؟»».

وعلى الرغم من أن هذه العادة المثيرة للاهتمام تدخل في جانب منها في فصل الطلاق، فإنني فضلتُ بحثها هنا؛ فقد صدقتْ النساء بقولهن إن الرجل لا يقبل بالعزل إلا إن كانت له زوجة أخرى. ولكي تكون صيغة العزل المذكورة آنفًا نافذة، يجب أن تقال بحضور شهود. ويقال عن المرأة التي تتخلى عن معاشرة زوجها لها بملء إرادتها: «لقد زهدت في الدنيا (رمت إلدّنيا من عينها)».

وتفسر العبارة الأخيرة كيف يحدث هذا، ولماذا، وكيف يمكن أن يصبح سلاحًا في يد المرأة الحصيفة؛ فقد كان لطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) مكانتها الدينية (درويشة)، وعلاوة على ذلك، كان لها، بذكائها وحذقها، تأثير حاسم ونفوذ كبير على زوجها، ولا يمكن لأحد رآهما معًا أن يشك في أنها تهيمن عليه. وعندما أراد أن يتزوج للمرة الثانية، كانت هي التي أمسكت بزمام الأمور، واستخدمت نفوذها في انتقاء العروس، وحرصت على أن يكون اختياره وفقًا لذوقها، وهي تحب أن تروي للناس كيف صممت على ذلك على الرغم من تردد زوجها، وكيف غزلت الصوف وباعته وباعت المعز والخراف لتجمع المال اللازم لمهر العروس. وتقول عن سلفتها عيشة (زوجة علي خليل [173])، والتي كان لها ضرة أيضًا، إنها لا تفهم

(63) انظر الصفحة 64 وما يليها من المصدر نفسه. وانظر أدناه في الصفحة 572 والحاشية من هذا الكتاب.

سبب غيرتها أبدًا. وتنصح عيشة (زوجة علي خليل [173]) بقولها: «إذا كان عندهما فراش واحد، أفرشي تحتهما فراشين!». وتحاول التأثير فيها بقولها: «لم الخصام؟ هل يصلح الخصام شيئًا من أمور الدنيا؟».

وقالت لي عيشة (زوجة علي خليل [173]) في آخر أيامي في أرطاس، من فترة إقامتي الأولى في فلسطين، إنها فعلت الآن فعل إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])، وأعفت زوجها من معاشرتها. ولكن الست لويزا شككت في ذلك قائلة: «عيشة (زوجة علي خليل [173]) المسكينة ليست إلا امرأة عادية جدًا من لحم ودم، عانت طويلًا لأنها الزوجة المبغوضة». وهي لا تستطيع أن تسمو بنفسها عاليًا كما فعلت إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])، ولم يكن لها أي نفوذ على زوجها قط، ولا سيما في أوقات الشدة. أما إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) فهي ابنة شيخ ورثت عنه صلفه، وهي ذات شخصية قوية.

وإطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171])، وإن كانت ذات نظرة فلسفية، إلا أنها دائمة التأمل في مسألة الضرائر، ولم نزرها قط من دون أن تتحدث فيها، وتحاول أن تنظر إليها من جوانب عدة.

والأرقام الآتية تبين تعدد الزوجات في أرطاس وفقًا للقوائم التي أعددتها:

26 من 199 من الرجال المتزوجين (العدد الكلي): متعددو الزوجات، أي 13 في المئة.

12 من 112 من الرجال المتزوجين الأحياء: متعددو الزوجات، أي 10.7 في المئة.

14 من 87 من الرجال المتزوجين الأموات: كانوا متعددي الزوجات، أي 16 في المئة.

الرجال متعددو الزوجات			
الموتى	عدد الزوجات	الأحياء	عدد الزوجات
1. إبراهيم عودة [1]	4	1. مصطفى جاد الله [12]	2
2. جاد الله عودة [2]	3	2. محمد محمود [35]	2
3. خليل إبراهيم [3]	2	3. خضر إحسين [40]	4
4. سعد إبراهيم [5]	2	4. علي أسعد [42]	2
5. عِثمان أحمد [31]	4	5. أحمد إسمعين [52]	3
6. أسعد إحسين [39]	2	6. علي محمد [58]	2
7. سالم عِثمان [67]	2	7. حسن عبدالله [85]	2
8. عِثمان جبرين [77]	4	8. أحمد خليل [98]	2
9. إبراهيم عايش [82]	4	9. خليل محمد [112]	3
10. عوض الله خليل [97]	3	10. محمد خليل [171]	2
11. محمد حلاوة [109]	2	11. علي خليل [173]	2
12. شحادة [169]	2	12. سليم مسلَّم [199]	2
13. خليل شحادة [170]	2		
14. عبد سليمان [190]	2		

تبين الأرقام عدد الزوجات لكل رجل، ولكنها لا تعني أنه جمع بينهن في وقت واحد. ومن الرجال الأحياء، نرى أن خضر إحسين [40]، هو وحده الذي جمع بين ثلاث زوجات في وقت واحد، ولم يجمع غيره بين أكثر من زوجتين. ومن الرجال الأموات، عِثمان جبرين [77]، وحده هو الذي جمع بين ثلاث زوجات في وقت واحد، ويغلب الظن أن أحدًا من الآخرين لم يجمع بين أكثر من

زوجتين[64]، وإلا لتفاخروا بأعداد زوجاتهم، ولتذكر الناس ذلك؛ فهم يتفاخرون بمثل هذه الأمور[65].

والإحصاءات التي أعددتها عن سكان أرطاس تظهر قلة في عدد النساء قياسًا إلى عدد الرجال. ومع ذلك، نرى تعدد الزوجات في القرية، ويعزى ذلك إلى أن عددًا كبيرًا من الرجال تزوجوا نساءً من أماكن أخرى. ومن أسباب قلة عدد النساء أيضًا أن كثيرًا من الرجال كبار السن اتخذوا زوجات شابات، وبذلك استولوا على جزء من نصيب الشباب[66]، إلا أنه، وكما رأينا، فإن قلة

---

(64) في ما يتعلق بعدد الزوجات اللاتي يمكن أن يجتمعن لرجل واحد في الوقت ذاته قارن غودريش فرير في: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent*, p. 26,

«بين الفلاحين قد تجد من لديه زوجة ثانية، أو ثالثة، أو رابعة». وباور في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, 2nd Edition (Leipzig, 1903), p. 114,

«من حسن الحظ أن استخدام الحق المشروع في الزواج من اثنتين أو أربع ليس بالعادة واسعة الانتشار. وفي المقابل، كثيرًا ما يتخذ الرجال من أبناء الطبقة العليا من المسلمين لأنفسهم جواري للفراش، وليس هذا بنادر الحدوث، حتى في القدس». ويقول موسل في: Musil, *Arabia*, p. 207,

«الرجال بني صخر أن يتزوجوا ما شاءوا من النساء... أما الفلاحون، فيعتقدون أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أكثر من أربع نساء. إلا أنه من النادر أن تجد عند العرب أكثر من زوجة واحدة». وجوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 56,

«البدوي البسيط، والشيخ، وأهله، يتزوجون اثنتين، وأحيانًا أربعاً. ولا تتجاوز عشيرة الجهالين هذا الرقم. ويدرك بدو منطقة مؤاب حقهم في الزواج من أربع نساء في الوقت نفسه. وإذا ما زاد العدد نتيجة لعطية، أو رغبة جديدة، فعندها يطلقون إحداهن، أو يهجرونها. ولا يوجد عند البدو زوجات من الدرجة الثانية، ولا حظيات؛ فلنساء جميعهن حقوق متساوية، ويسري هذا على الأطفال أيضًا» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 137,

«يفسر الكثير من أغنياء المسلمين هذا النص تبعًا لأهوائهم، اتخذ زوجتين، أو ثلاث، أو أربع زوجات، وامتلك، إلى ذلك، عددًا من الجواري للفراش». ويقول سنوك هرخرونيه في: Snouck Hurgronje, *Mekka*, II (Heag, 1889), p. 106,

إن الأغنياء فقط يتزوجون من أربع نساء، أما بيركهارت فيقول في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 61,

إنه لم يلتق قط بدويًا له أربع زوجات.

(65) انظر: E. Graf von Mülinen, «Beiträge zur Kenntnis des Karmels,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXX (Leipzig, 1907), p. 172,

«حدثني بعضهم بإعجاب واضح عن أحد أغنياء قرية الطيرة، أنه اتخذ لنفسه أربع زوجات، وهو الحد الأعلى الجائز شرعًا».

(66) لأن آخر فترة استقرار للناس في أرطاس بدأت قبل مئة عام فقط، لم تستوِ النسبة بين الرجال والنساء حتى الآن، انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 14.

النساء أوضح ما تكون في عشيرة شاهين، وهي العشيرة الوحيدة التي لا نجد فيها تعدد الزوجات على الإطلاق[67]. وبالطبع، ليس من الصواب أن نعزو ذلك إلى ميل رجالهم إلى الاكتفاء بزوجة واحدة، أو إلى سمو أخلاقهم فوق أخلاق سائر رجال القرية، وإنما يعود ذلك إلى أنهم لا يكادون يجدون نساءً من عشيرتهم للزواج أو البدل[68]؛ فمن الطبيعي أن يمارس بعض الرجال تعدد الزوجات، إذا تيسر لهم ذلك[69].

---

(67) انظر الصفحتين 83 و138 من المصدر نفسه.

(68) وفي المقابل، قد تؤدي زيادة عدد النساء على الرجال إلى تعدد الزوجات. انظر: Musil, *Arabia*, p. 207.

في ما يتعلق بالتناسب العددي بين الجنسين كأحد أسباب الاكتفاء بزوجة واحدة أو تعدد الزوجات انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 52ff.

وفي ما يتعلق بالفقر كأحد أسباب الاكتفاء بزوجة واحدة انظر: Mülinen, «Beiträge zur Kenntnis des Karmels,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 172; Wilson, *Peasant Life*, p. 104, and Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 56.

(69) يعتقد ويلسون في: Wilson, Ibid., p. 104,
أن تعدد الزوجات أقل شيوعًا في الريف منه في الحضر. ويعلق في إحدى الحواشي في الصفحة 104 قائلًا: «في نطاق قلة من العائلات المسلمة الأرستقراطية في القدس، ثمة ما يشبه ميثاق شرف يحظر عليهم أن يتخذوا أكثر من زوجة واحدة، كما يحظر طلاقها. ولدي من الشواهد ما يحملني على الاعتقاد بأنهم يلتزمون بهذا الميثاق حتى لو كانت المرأة عاقرًا. ولكن بالطبع، لا يمنع هذا وجود الجواري». ويقول باور في: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 114,
«يكتفي رجال الطبقة الوسطى والفلاحون، بوجه عام، بزوجة واحدة». أما بالدنسبيرغر فيقول في: Philip Baldensperger, «Women in the East,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXII (London, 1900), p. 139,

«إن تعدد الزوجات شائع بين أغنياء المسلمين وحسب». وتقول غودريش فرير في: Goodrich-Freer, *Inner*, p. 271,

«في سوريا، في الأقل، من النادر جدًا أن يتخذ الرجل أكثر من زوجة واحدة، باستثناء رجال الطبقات الدنيا». وتقول المؤلفة نفسها في كتاب: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent*, p. 19,
«قلما التقيت مسلمًا له أكثر من زوجة واحدة، في ما عدا مسلمي الطبقات الفقيرة من الفلاحين،... في فلسطين يقتصر تعدد الزوجات والطلاق على اليهود بشكل رئيس». وتقول في الصفحة 26 من الكتاب المذكور: «قد نجد بين الفلاحين زوجة ثانية، أو حتى ثالثة ورابعة. والفلاح مزارع، وبهذا يحصل على أفضل صنوف الأيدي العاملة وأقلها تكلفة. وقد اطلعت على حالات كهذه في فلسطين، كما إنها شائعة إلى حد ما في مصر». وتكتب المؤلفة نفسها في: Goodrich-Freer, *In a Syrian*, p. 56,

«تعدد الزوجات ليس شائعًا في مأدبا، ولكن في الكرك، من حيث يأتي الناس، نجده شائعًا، حتى بين المسيحيين، وكذلك بين الآخرين». ويقول نيبور (Niebuhr) في: *Reisebeschreibung nach Arabien und den umliegenden Ländern*, II. (Kopenhagen, 1778), p. 434, =

أسباب تعدد الزوجات

يسهل على الناس، في المجتمعات التي لا يمنع فيها الدين والعادات تعدد الزوجات، تبريره، بل وعدّه ضروريًا أيضًا. وقد وضعنا أيدينا على أسباب تعدد الزوجات، ويبقى الآن أن نجمل ما توصلنا إليه ونتممه(70).

= «إن تعدد الزوجات جائز بين الدروز بحكم القانون، أو ربما بحكم العادة ليس إلا. إلا أن المرء لا يجد الكثير ممن لديهم أكثر من زوجة واحدة. ومن النادر جدًا، حتى بين أبناء الطبقة العليا، أن يكون لأحدهم أكثر من زوجتين». انظر: Lane, *An Account of the Manners*, p. 251f.,

«تعدد الزوجات... أكثر ندرة في الطبقتين العليا والوسطى منه في الطبقات الدنيا، وهو ليس شائعًا جدًا حتى بين هؤلاء... وأعتقد أنه لا يوجد أكثر من رجل واحد من بين عشرين، له زوجتان». ويقول بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 61, 158,

إن تعدد الزوجات نادر بين البدو. ويقول سنوك هرخرونيه في: Hurgronje, *Mekka*, p. 106,

«زواج امرأة واحدة هو السائد». في ما يتعلق بنسبة تعدد الزوجات في مناطق مختلفة من العالم انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 2ff.

(70) في ما يتعلق بالرغبة في الذرية الكبيرة كسبب رئيسي لتعدد الزوجات انظر: Jaussen: *Coutumes Palestiniennes*, p. 93, and *Coutumes des Arabes*, p. 14, 57.

والسبب الثاني بحسب جوسان قيمة الزوجات كأيدٍ عاملة؛ فيقول في *Coutumes des Arabes* ص 14: «كلما سألت البدو عن دوافع تعدد الزوجات، زعموا أحد هذين السببين» [ترجمة عن الفرنسية].

ويقول موسل في: Musil, *The Manners and Customs*, p. 230,

«في الحالات التي لا يكون فيها الزوج راضيًا تمامًا عن زوجته الأولى، فإنه غالبًا ما يتخذ زوجة ثانية». ويحسب لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 252,

«تعد العاطفة المتقلبة أحد أكثر الأسباب الظاهرة والشائعة لتعدد الزوجات وتكرار الطلاق».

للأسباب الأخرى لتعدد الزوجات قارن: Westermarck, *The History of Human*, p. 64ff.,

والذي يقول إن الرجل، على سبيل المثال، قد يرغب بالحصول على أكثر من زوجة، لأن الاكتفاء بواحدة قد يضطره إلى كبح شهوته دوريًا في فترة معينة من كل شهر، ولفترة قد تطول أو تقصر خلال فترة النفاس. لكن ليس هناك ما يدفعنا للاعتقاد أن هذه الظروف قد تؤدي إلى تعدد الزوجات في فلسطين؛ فعلى الرغم من أنه ينبغي على الرجل أن يمسك عن مجامعة زوجته الحائض لفترة ثمانية أيام، وفي الأقل خلال الشهر الأخير من حملها، ولمدة أربعين يومًا بعد الولادة، إلا أنه لا يلتزم دائمًا بهذه الضوابط؛ فالمرأة لا تحيض [بعد النفاس] إلى أن تفطم الطفل، وقد يستمر الفطام إلى أن تحمل مرة أخرى. وأشار ويسترمارك في الصفحة 84 من المرجع المذكور إلى ما قد يكون سببًا آخر لتعدد الزوجات، وهو زواج الأخ أرملةَ أخيه. ولعلنا نذكر هنا أن هذا يختص بأولئك الذين يعدون زواج الأخ أرملةَ أخيه واجبًا لا مفر منه. فإذا كان على الرجل أن يتزوج أرملة أخيه الكبير فقد يكون في هذا شيء من الإجبار على تعدد الزوجات، كما هي الحال في الهند على سبيل المثال. ولكن في أرطاس، حيث زواج الأخ أرملةَ أخيه حق له، وليس واجبًا عليه، ليس ثمة ما يجبر الرجل على تعدد الزوجات لهذا السبب، وإن كان هذا يحدث أحيانًا. انظر أدناه في الصفحة 618 وما يليها من هذا الكتاب.

كما رأينا، فإن السبب في تعدد الزوجات يكمن عادة في الرجل الذي قد يرغب في زوجة جديدة؛ لأن زوجته الأولى أصبحت كبيرة، وفقدت جمالها، وربما لم تعد قادرة على الإنجاب، فهناك مثل يقول: «وقت المرأة محدود، ووقت الرجل ممدود «إلمره عَداد أو إزّلمه مَداد» وقد يتزوج الرجل ابنة عم له تكبره كثيرًا، أو أن أبويه اختارا له زوجة وهو حديث السن، ثم ها هو ذا قد اشتد عوده، ولديه من المال ما يكفي للزواج مرة أخرى، أو صار له ابنة يمكنه أن يستبدل بها عروسًا، ويريد أن يختار لنفسه هذه المرة. وهكذا فعل علي خليل [173]؛ إذ استبدل بابنته حلوة (ابنة علي خليل [173]، وزوجة أحمد علي [47]) زوجة ثانية، وهي الشابة الجميلة الذكية فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، أو قد يكون الرجل ملَّ من زوجته، ويرغب في التغيير. وتعدد الزوجات علامة جاه وثراء، وهذا مما يتفاخر به الرجال، وقد يكون الغرور وإطراء الجيران وأهل القرية وأناس ربما كان لهم فيه مآرب، دافعًا آخر لاتخاذ زوجة جديدة، كما رأينا في حالة سليم مسلَّم [199][71]، أو ربما لم يجد الرجل الوئام مع زوجته، فدفعه ذلك إلى البحث عن امرأة تفوقها جاذبية أو حذقًا، وقد يتزوج الرجل لا لسبب إلا ليعاقب زوجته الأولى، إذا ظن أنها أساءت إليه[72].

ويقول المثل:

«لا يحسن تربية المرأة إلا امرأة أخرى (ما بِربّي لِنثى إلا لِنثى)».

ولهذا يقال:

«اقهر النساء بالنساء، ولا تضربهن بالعصا (إكْهَرْ إلنِّسا بِالنِّسا ولا تُضْرُبهن بِلْعصا)»[73].

وحتى إن كان هذا، كما رأينا سابقًا، سلاحًا خطيرًا، وسيفًا ذا حدين، يمكن

---

(71) انظر أعلاه في الصفحة 483 من هذا الكتاب.

(72) انظر أعلاه في الصفحة 488 من هذا الكتاب.

(73) انظر: Westermarck, *Wit and Wisdom in Morocco*, p. 79,

«إذا ما اشتكى رجل لأصدقائه من تصرفات زوجته، فقد يقدمون إليه النصيحة: -... 'اقهر زوجتك بأخرى' (أنجرة)».

أن ينقلب على الزوج نفسه، فهو في الأقل يضع الكثير من القيود على حرية المرأة، ويفسد أفضل أسلحتها، وهو أن تذهب إلى بيت أبيها وتترك زوجها تائهًا وحده[74]، وقد قيل في هذا:

«ليس أسخف من المرأة التي تهرب وهناك ضرة لها في البيت! ولا أسخف من الجمل الذي يهرب والفرس في عقالها في البيت (ما أردا من إلمرة إللي يِتِحرَد أو ضُرِّتها في الدَّار، ما أردا من إلجَّمل إللي بُشرد أو إلفرس مربوطة)!».

ومع ذلك، هناك حالات تعلن فيها المرأة نفسها عن رغبتها في أن يكون لها ضرة.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«قالت إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]): «أنا لا أستطيع أن أقوم بأعباء الحقل وحدي»؛ فقال زوجها عندئذ: «سأتزوج مريم (ابنة أحمد جاد الله [21]، وأرملة إبراهيم عودة الله [24]) فهي امرأة حاذقة»، ودفع سبعين جنيهًا مهرًا لها، ودفع لابن عمها علي سليمان [27] خمسة جنيهات».

غير أن الزواج لم يتم بهذه البساطة كما وصفته عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) هنا؛ فقد حدثتني إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) بنفسها كيف فكرت في البداية في امرأة أخرى لزوجها عندما عزم على الزواج، ولكن عندما تزوجت هذه المرأة رجلًا آخر، وقع اختيارها على مريم (ابنة أحمد جاد الله [21]، وأرملة إبراهيم عودة الله [24]). وإطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) امرأة ذكية، وذات إرادة قوية، وإن كان لا بد لها من ضرة، فيغلب الظن أنها إنما تدخلت في اختيارها؛ لأنها أرادت أن يكون لها ضرة يمكنها أن تهيمن عليها. وعلى حد قول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، كانت إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد

(74) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

خليل [171]) هي التي بادرت إلى فكرة الزواج الجديد؛ لأنها كانت في حاجة للمساعدة في العمل الذي لم تعد قادرة على القيام بأعبائه وحدها.

وقد ذكرنا سابقًا أن الزوجة قد تطلب كنة لها لتعينها على العمل. إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) كان لديها كنتان في البيت، ولكن هذا لم يكن كافيًا، ولا سيما أن إحداهما كانت طفلة، وإطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) كانت كبيرة في السن. وفي مثل هذه الحال، يمكن للزوج، بطبيعة الحال، أن يأخذ بزمام المبادرة.

وغنت لنا إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) بنفسها وهي تبتسم، أغنية عن المصير الذي يتهدد الزوجة الكسولة أو العاجزة، عندما ذهبنا أنا والست لويزا لزيارتها، ووجدناها تمخض اللبن. والممخضة في تراثهم هي وعاء من جلد البهائم مملوء بخثارة اللبن الحامض، ومعلق بين ثلاث عصي مغروسة في الأرض ومربوط من الأعلى.

وغنت إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) وهي تهز الممخضة: «امخض امخض هيا، وإلا تزوج زوجي زوجة أخرى».

ولكن قد تخطر للمرأة خواطر متناقضة في هذا الصدد، ويعبر المثل الآتي عن ذلك بشيء من السخرية:

«كم هو جميل أن يكون زوجك لك وحدك!
وكم هو جميل أن تكون الطاحونة بين الزوجتين!

(ما أحلى جوزتش من حالِتش
أو ما أحلى الطاحونة بين إلثّنتين)!».

وتطغى حاجة المرأة للعون في العمل أحيانًا على نفورها من أن يكون لها ضرة، ولا سيما أنه ليس من عادة الفلاحين الاستعانة بالخادمات(75).

---

(75) انظر: Goodrich-Freer, *Arabs in Tent*, p. 26,
«قد نجد بين الفلاحين زوجة ثانية، أو حتى ثالثة ورابعة. والفلاح مزارع، وبهذا يحصل على أفضل صنوف الأيدي العاملة وأقلها تكلفة». ويذكر ويلسون في: Wilson, *Peasant Life*, p. 104, =

ومن الواضح أن الزوجة الجديدة ستكون، في مثل هذه الظروف، كالخادمة للزوجة الأولى.

وهناك سبب آخر، أكثر شيوعًا، يمكن أن يدفع المرأة لحث زوجها على اتخاذ زوجة ثانية، ألا وهو أن لا يكون لها أطفال، أو أن يكون جميع أطفالها إناثًا. وهذا السبب ناشئ عن بنية اجتماعية وفكر اجتماعي مختلفين تمامًا عن نظيريهما الغربيين. ولم نتناول هذا الموضوع حتى الآن إلا من منظور الرجل وحسب؛ فالرجل يعمد في مثل هذه الحالة إلى اتخاذ زوجة ثانية لتنجب له ابنًا كما قلنا سابقًا(76)، ولكن، ليس غريبًا، من جهة أخرى، أن تحث المرأة زوجها هي أيضًا على الزواج مرة أخرى ليرزق بأبناء ذكور(77).

= مثلًا يقول: «حطبتان في الموقد، وزوجتان في البيت؛ أي لإدامة النار التي قد تنطفئ لو كان هناك واحدة فقط». في ما يتعلق بكون الزوجتين عونًا كبيرًا على العمل انظر أيضًا: Jaussen, *Coutumes Palestiniennes*, p. 95.

(76) في أرطاس، اتخذ أحمد خليل [98] زوجة ثانية، علها تنجب له ولدًا، إلا أن أيًا من أبنائه من الزوجتين لم يبق حيًا. ويقول الناس إنها لعنة لحقت به، لأنه كان سببًا في موت أرملة عمه. انظر أدناه في الصفحتين 612 و613 وما يليها من هذا الكتاب. وقد وجد مسيحيًا له زوجتان في إحدى القرى، انظر: Elihu Grant, *The People of Palestine* (London and Philadelphia, 1921), p. 63f.

ذلك أنه لم يرزق بأطفال من زوجته الأولى، فتزوج الثانية متحديًا الكنيسة، لكنه لم يرزق أطفالًا حتى من الزوجة الثانية. وذلك لأن لعنة ألمت به لسرقة ارتكبها. ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 15f.,

«وللرغبة في الحصول على ولد جذورها في القلب، حتى إن المسيحيين يجدون صعوبة في تقبل الحدود التي فرضتها المنظومة الخلقية للإنجيل» [ترجمة عن الفرنسية]. ويستعرض المؤلف عددًا من الأمثلة. أما لين فيقول في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 252,

«إذا كان للرجل زوجة ابتليت بالعقم، ولم يرغب بطلاقها لتعلقه بها، فقد يحمله ذلك أحيانًا على اتخاذ زوجة ثانية، رغبة في الذرية ليس إلا». في ما يتعلق بعقم الزوجة، أو إنجاب الإناث فحسب، كسبب شائع جدًا لاختيار شريك آخر، إضافةً إلى الشريك الأول، انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 75.

(77) انظر: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 16,

«وأحيانًا أخرى، تتخذ المرأة هذا القرار بنفسها، وأستشهد بامرأة مسيحية أرثوذكسية من مأدبا، صرخت على زوجها في يوم وفاة ابنها الوحيد، وفي أثناء مراسم الدفن، بالكلمات الآتية: 'تزوج امرأة شابة لتنجب لك أطفالًا؛ فأنا كبيرة'» [ترجمة عن الفرنسية].

وعندما زوَّجت راحيل جاريتها، بِلهة، ليعقوبَ (الآية الثالثة من الإصحاح الثلاثين من سفر التكوين)، وزوَّجت ليئة جاريتها، زِلفة، ليعقوب (الآية التاسعة من الإصحاح الثلاثين من سفر التكوين)، أدت النساء الأربع طقسًا تتبني بموجبه كل سيدة طفل خادمتها فيصبح طفلها. وقد وصف هذا الشكل =

ولكنني لم أجد في ما بين يدي من دراسات، أن المرأة التي لا أطفال لها، أو على الأصح، المرأة التي لا أبناء لها، قد تقدم على أمر كهذا، لا لشيء، إلا لمنفعة ذاتية، وهي توطيد مكانتها في البيت. ومع ذلك، فقد كان هذا هو السبب الأساس لإحدى حالات تعدد الزوجات في أرطاس في الوقت الحاضر.

وأخبرتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي، في معرض حديثها عن بعض أقاربها المقربين (وأكد الزوجان القصة بنفسيهما):

«تزوج مصطفى جاد الله صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18])، ولم تلد له أبناءً، وسخر منه أخوه عودة الله جاد الله [19] قائلًا: «كل أملاكك لي!» فقالت صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]): «يجب أن أزوِّجه»، فقال: «لن أفعل. لمَ أجعل العائلة أكبر مما هي؟»، ثم جاء بعض التعامرة إلى أرطاس، فسألتهم صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]): «أليس لديكم بنت عاقلة (بنتْ عاقْلِه)؟ نريد واحدة من أجل الأطفال»، ما إن تكلمت إلا وشاء الله أن يكون ذلك، وإلا لكان ضاع كل شيء (بِتروح وِرثِه)[(78)]».

وهكذا رأينا كيف أمسكت صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]) بزمام الأمور؛ فعندما أظهر أخو زوجها سروره بأن الأملاك ستؤول إليه؛ إذ لا أبناء لأخيه، كان لذلك أثر بالغ في صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]) دون غيرها؛ إذ لن يكون لها الحق في

= من أشكال التبني في الآية الثالثة من الإصحاح الثلاثين من سفر التكوين. انظر: Gunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*, p. 185,

«بحسب تقاليد الشريعة الإسرائيلية، تستطيع الزوجة، إذا كانت عاقرًا، أن تستبدل بنفسها امرأة أخرى، وتتبنى أطفالها» وقد أرادت سارة أيضًا أن تستمر السلالة من خلال خادمتها هاجر. انظر الآية الثانية من الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين: «وقالت ساراي لأبرام، انظر الآن، لقد أمسكني الرب عن الولادة. أتوسل إليك أن تدخل على جاريتي لعلي أرزق بالأطفال بواسطتها». (في العبرية: بُني بواسطتها).

ويعرض ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human*, p. 75,

أمثلة عن إصرار الزوجة العاقر على اقتران زوجها بزوجة أخرى.

(78) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 76f.

البقاء في بيت زوجها بعد موته إذا لم يكن لها أبناء؛ لهذا حثت زوجها على اتخاذ زوجة أخرى لتنجب له أولادًا، فتضمن صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]) بذلك حقها في البيت. وفي هذه الحال أيضًا، ليست الزوجة الثانية سوى وسيلة لحماية مصالح الزوجة الأولى.

الضرائر والأطفال في العائلات المتعددة الزوجات

على الرغم من أن الزوجة الثانية لمصطفى جاد الله [18]، فاطمة محمد (زوجة مصطفى جاد الله [18])، هي أم لولدين وبنتين، فإنها تابعة بالكامل لصبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]) التي لا أولاد لها(79).

وعندما كانت خضرة (ابنة مصطفى جاد الله [18]، وزوجة عِثمان محمد [37]) ابنة فاطمة محمد (زوجة مصطفى جاد الله [18]) مقبلة على الزواج، تولت ضرتها، صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18]) إدارة الأمر كله.

وذكرت عليا (ابنة إبراهيم عودة[1]) لي واقعة معبرة تمامًا عن هذا الحال حدثت مساء يوم العرس الذي كان في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1926، عندما جاء العريس والمدعوون، كما جرت العادة، لتقديم الهدايا المالية للعروس (نقوط إلعروس):

«ثم قدم أخو العروس ثلاثة جنيهات هدية لأخته، وقدمت لها أمها (التي هي في الحقيقة ضرة أمها) جنيهًا واحدًا، لكن أمها الحقيقية (الحارَّة أو الكارَّة) فاطمة محمد (زوجة مصطفى جاد الله [18])، جلست بعيدًا وتركت كل شيء لضرتها صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18])، وهذه سياسة جيدة».

---

(79) انظر مرة أخرى: Lane, *An Account of the Manners*, p. 253,

«إذا كانت سيدة البيت عاقرًا، وأنجبت من هي دونها مكانة، زوجة أكانت أم أمة، طفلًا لزوجها أو سيدها، تصبح الأخيرة في الغالب هي المفضلة لدى الرجل، وتصبح السيدة 'حقيرة في عينها'، كما كانت زوجة إبراهيم في عيني هاجر للسبب ذاته» (الآية الرابعة من الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين).

وإلا لكانت فاطمة (زوجة مصطفى جاد الله [18]) أفسدت كل شيء. وهكذا، حتى في عرس ابنتها، تجلس الأم بعيدًا، وضرتها القوية هي التي تدبر الأمور، وقد تحدثتُ من قبل عن قلة اكتراثها بمصالح العروس(80).

ومن الأمثلة الحسنة على المرأة الذكية التي تحسن استغلال وضعها الضعيف، إذا لم يكن لها أولاد، أو في الأقل، إذا لم يكن لها أولاد في قيد الحياة، نذكر سارة آنفة الذكر (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) شقيقة صبحة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة مصطفى جاد الله [18])، التي لا تقل عن صبحة قوة ودهاء. كان لسارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) ولدان، شب أكبرهما وتزوج، ولكنه توفي هو وجميع أولاده. أما ضرتاها، عيدة (زوجة خضر إحسين [40])، وصفية (زوجة خضر إحسين [40])، فكان لكل منهما ولدان، ومع ذلك، يقال عن الزوجة الأولى:

«سارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) حاضرة على الدوام، وهي التي تعطي الأوامر، وهي أثقل عليهن من البيت (أثقل من إلبيت عليهن)».

وكنت قد دونت الملاحظات الآتية خلال فترة إقامتي الأولى في أرطاس، عما قلنه لي الست لويزا، وعليا (ابنة إبراهيم عودة[1])، وحمدية (ابنة سليمان سند [183])، عن هيمنة سارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) على ضرتيها:

«لسارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) خادمتان حقيقيتان. سارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) وزوجها يسكنان الجزء الأمامي من المنزل، والأخريات يسكن الجزء الخلفي منه. وضرتاها لا تجرؤان على وضع الملح في العجين من غير إذن منها، وشجر المشمش، وكل شيء آخر تحت تصرفها، وهي قاسية كحجر الصوان على ضرتيها. وأولاد ضرتيها يدعونها «أمي» مع أن العادة في مثل هذه الحالات أن يقول الأولاد لمن هي مثلها «زوجة أبي»».

---

(80) انظر: Granqvist, Ibid., p. 152f.

وعندما أكدت لي النساء أن سارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) تجعل أولاد ضرتيها يدعونها «أمي»، إنما أردنني أن ألاحظ كيف كانت هذه المرأة الذكية تحاول أن تستولي على أولاد ضرتيها؛ فهي تعلم جيدًا أنه يمكن لها بهذه الطريقة أن تديم هيمنتها على البيت. وعندما زرتها، رأيت بوضوح أن الأولاد يتجاهلون أمهم المنبوذة التي كانت تعمل في مكان آخر من البيت، وأنهم يتجمعون حول ضرتها، سعداء بدلالها لهم، وقد سمعتهم يدعونها «أمي»؛ فسارة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خضر إحسين [40]) هي التي تملك مفاتيح الخزائن، كخزانة الزبيب وغيرها، وليست أمهم المسكينة[81]، وهي تعرف كيف تستخدم جميع الوسائل لتكسب حب الأولاد لها، وشخصيتها القوية تؤثر فيهم.

وعندما كنا نذهب لزيارة إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) التي أتينا على ذكرها مرارًا، كانت تلاطف أولاد ضرتها وتمسح على رؤوسهم وتقبلهم، وتقول إنها تحبهم كما تحب أولادها، وفسَّرت ذلك بقولها: «لا شيء يدعم البيت كالحجارة الصغيرة، ولا شيء يدعم الرجل كالأطفال الصغار»، وقدمت لهم السمن (سمنِه) عندما أرتنا مخزنها.

وفي إحدى زياراتنا لها في عام 1927، صورتُها وهي جالسة تحدثنا كيف أصبحت «درويشة»، بينما كانت تطرز ثوبًا كالثياب التي ترتديها الفلاحات، وابن ضرتها الصغير يدرج حولها، ويظل قريبًا منها لوجودنا هناك.

وكذلك فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، وهي سلفة إطعيمة (ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) التي لا أولاد لها، كانت تأتي إلينا خلال فترة إقامتي الأولى في أرطاس ومعها ابن ضرتها الصغير، وكانت تبدو سعيدة جدًا وهي تلاعبه وتحنو عليه، ويبدو أنها

---

(81) انظر: Westermarck, *Wit and Wisdom in Morocco*, p. 79,
«عندما يكون للرجل زوجتان، تكون إحداهما هي المفضلة، وقد تضطر الأخرى إلى استئذانها كلما أرادت أن تفعل شيئًا، ولهذا فهم يقولون: ... 'طامو هي الخزنة، وعويشة (المفضلة) هي المفتاح'».

تأمل بأن تفوز بحبه بمرور الوقت، وكثيرًا ما كانت المسكينة تشعر بالحزن؛ لأنه ليس لها ولد[82].

والقصة الآتية تبين قيمة الأولاد للأم عندما يكون لزوجها نساء غيرها:

اتخذ عوض الله خليل [97] زوجة جديدة، وهي دلال (زوجة عوض الله خليل [97]) من بيت أُمَّر، التي استبدلها بابنة زوجته حليمة (ابنة علي شاهين [136]، وزوجة عوض الله خليل [97]). ودلال (زوجة عوض الله خليل [97]) هي في الواقع، زوجته الثالثة؛ فقد تركته زوجته الأولى التي كانت ابنة عم يتيمة له (بنت إلعم)، والتي كان قد تزوجها من أجل الأرض التي ورثتها، ولهذا كان لدية زوجة واحدة فقط في البيت.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في ما يأتي كيف التقت دلال (زوجة عوض الله خليل [97]) قبل يوم العرس بوقت قصير، وتحدثت إليها:

«عندما خطب عوض الله خليل [97] دلال (زوجة عوض الله خليل [97])، قالت له: «هل أنت متزوج؟»، فقال لها: «اصمتي أيتها القبيحة! لا تدعي أحدًا يسمعك! هي مجذومة وتعيش في كهف».

وعندما التقيت دلال (زوجة عوض الله خليل [97]) ذات مرة، قالت لي: «من أين أنت يا أختي؟» فقلت لها: «أنا امرأة من أرطاس!»، فقالت: «ماذا يكون لك عوض الله خليل [97]؟» قلت لها: «ليس هناك صلة قربى بيني وعوض الله خليل [97]». قالت: أصحيح أن زوجته مجذومة وتعيش في كهف؟» قلت لها: «معاذ الله! أيكون لها ولدان، وتعيش في كهف!»، وقلت أيضًا: «لها وتدا خيمة في المصطبة (مكان مرتفع)، حتى وإن جاءت مئة دلال (هاذي إلها وتدين في المصطبِه تَتيجي ميت دلال)، أم القَعوُد للبيت تعود (إم إلقَعوُد لَدَّار تْعود)».

ثم قلت لدلال (زوجة عوض الله خليل [97]): «من أنت إذًا؟» قالت:

---

(82) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 117.
انظر كذلك أعلاه في الصفحة 470، وأدناه في الصفحة 548 وما يليها من هذا الكتاب.

«أنا دلال (زوجة عوض الله خليل [97])». قلت لها: «من يمسك بقضيب من الحديد ليس كمن يمسك شجرة جميز (إللي ماستش قضيب إلحديد مُش زي إللي ماستش إلجُّميزِه)» فقالت: «هل أنا إذًا شجرة الجميز هذه (يِبقى أنا جُميزِه)؟»[83] فهذه المرأة لها ابنتان وولدان!»

وعلى حد قول الست لويزا، فإن الرجل المتزوج قد ينكر وجود زوجته الأولى إذا كان يبحث عن زوجة ثانية، حتى لا تخاف خطيبته الجديدة. ويقال إن محمد محمود [35] فعل هذا عندما خطب فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]). وفي المثال المذكور أعلاه، قال الرجل إن زوجته الأولى مجذومة ليبرر رغبته في زوجة جديدة.

وقصة أحمد إسْمَعين [52] الذي طلق زوجته الأولى ريا (ابنة عِثمان أحمد [31]، وزوجة أحمد إسْمَعين [52]) عندما اتخذ زوجته الثانية، وهي محبوبة (ابنة جبرين عِثمان [76]، وزوجة أسعد إحسين [39]، ومن بعده أحمد إسْمَعين [52])، تبين بوضوح قيمة الولد للمرأة في أوقات الشدة؛ فنتيجة لحب الولد العظيم لأمه، اضطر أبوه إلى إرجاعها[84] بعد أن كان قد طلقها.

ومن الطبيعي أن يقف الأولاد إلى جانب أمهم ضد ضرتها، وأن ينظروا إلى هذه الأخيرة، أي عدوتها، كعدوة لهم. وقبل أن أستشهد بالأمثال والأقوال التي تبين أحاسيس الأفراد المختلفين في العائلات المتعددة الزوجات تجاه بعضهم بعضًا، سأذكر الأسماء التي يتداعون بها، والتي يذكر بها بعضهم بعضًا[85].

في العائلات المتعددة الزوجات، تدعو المرأة زوجة زوجها (ضُرْتِي)،

---

(83) لا مفر من أن نفهم هذا على هذا النحو من السياق. وعلى الرغم من أن الجُمَّيز شجرة كبيرة، ولأغصانها ظل وافر، إلا أن الناس يتجنبونها؛ إذ يُقال: «من ينام تحت شجرة جميز يصاب بالجنون». انظر: Dalman, *Arbeit und Sitte*, p. 505.

(84) انظر أدناه في الصفحة 569 وما يليها من هذا الكتاب.

(85) انظر أيضًا: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 151f. n.

أي شريكتي في الزوج. وتقول لها أحيانًا «شريكتي (شْريكتي)» أو «رفيقتي (إرفيقتي)» أو «جارتي (جارْتي)»[86]. وكثيرًا ما تدعو المرأة ضرتها «زوجة زوجي (مرة جوزي)». والطفل في العائلات المتعددة الزواج يقول لضرة أمه «زوجة أبي (مرة أبوي)» ولابنها «ابن أبي (إبِنْ أبوي)».

ويقول المثل:

«زوجة الأب غضب من الرب، لا تحِب ولا تُحَب

(مَرة إلأَب غَضب مِن إلرَّب لا بِتحب ولا بتنحب)».

ولهذا، فامرأة الأب تقول أيضًا:

«لا تأتِ المسرة من ابن الضرة (ابن إلضُّرة ما مِنّيش مْسرَّة)».

وثمة هوة بين أبناء الضرائر أيضًا:

«ابن أبيك مثل أولئك الذين يحاربونك (إبِن أبوك مثل إلقوم لا حاربوك)».

ويقال في المقابل:

«ابن أمك كالذهب في كمك (أخوك من إمك زي إلذَّهب في تشمك)».

والقاعدة هي أن:

«أولئك الذين هم من صلب واحد، ومن رحمين مختلفين (أي الأولاد من أب واحد وأمهات مختلفات) لا يحبون بعضهم بعضًا (من ظهر واحد أُو كرِشْتين بِحبُّوش بعِضْهم)».

ولا يشعرون أنهم إخوة وأخوات، إلا إذا كان لهم جميعًا أب واحد وأم واحدة، ولهذا يقال:

«أخي هو الذي جاء من صلب أبي إلى رحم أمي

(اللي أجا من ظهر أبوي لبُطْن إمي هو أخوي)».

---

(86) انظر أيضًا: Musil, *The Manners and Customs*, p. 230.

ويقول المثل الآتي الشيء ذاته، ربما بوضوح أكبر:

«أخي هو ابن أمي وليس ابن ضرتها[87]؛ فقد تقلبنا معًا في رحم واحد (خيّي إِبِن إمي ولا ابن ضرة، تْقَلَّبِت أنا وِيَّا في بُطْن واحَد)».

وكما رأينا من قبل، فحق الأخ الشقيق في أخته، عندما يريد أن يحصل مقابلها على عروس أعظم من حق ابن زوجة الأب، ولكن الحقوق تتبعها واجبات؛ فأن يكون للأخت المتزوجة أخ يمكن تركن إليه، أمر في غاية الأهمية.

(87) انظر: Littmann, «Neuarabische Volkspoesie,» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse,* Neue Folge, p. 128,

«أخي هو ابن أمي، وليس ابن ضرة». وانظر للمؤلف نفسه: Enno Littmann, *Arabic Proverbs,* Collected by Mrs. A. P. Singer (Cairo, 1913), p. 73,

«يدل تعبير 'ابن أمي' على الأخ؛ وفي الأمهرية بات هو المصطلح الشائع لكلمة 'أخ'».

الفصل التاسع

مشكلة المرأة الحردانة

المرأة المتزوجة وبيت أبيها

تحرد المرأة، إذا شعرت بالظلم في بيت زوجها (دار عيلتها)، أو لتعلي شأنها فيه، فتخرج من البيت، وتذهب إلى بيت أبيها (دار أبوها). وعلى الرغم من أن هذه العادة شائعة في فلسطين كلها[1]، وربما خارجها، ومع أن مسألة (الحردانِه) مهمة في أي دراسة للزواج ومكانة المرأة المتزوجة في الأرض المقدسة، فإنها لم تحظ باهتمام يذكر حتى الآن[2].

---

(1) أخبرني أحدهم عن هذه العادة في مدينة الناصرة.

(2) نجد أحد الأمثلة الاعتيادية على المرأة الحردانة في ما يذكره شميت وكاله في: Hans Schmidt and Paul Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, Heft 17 (Göttingen, 1918), p. 44f., 47,

عن امرأة ضربها زوجها: «فغضبت غضبًا شديدًا وذهبت إلى أهلها (قامت هاذي حِردِت وراحَت على أهلها)»، فندم الرجل: «فذهب إلى هناك وأرسل أناسًا لأهلها وأعادها». ويذكر شميت وكاله باقتضاب أن الزوجة تجد الحماية عند أهلها، من غير أن يتوسعا في المسألة. ويستشهد باومان بمثلين في: Eberhard Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXXIX (Leipzig, 1916), p. 196, No. 333, p. 229, No. 616,

الأول «(زي الحردانة بتروح قملة وبترجع صيبانة) كالحردانة، تذهب قملة وتعود صؤابة». والثاني «(يا حردانة راس يا مْعَاودة مداس) يا من تحردين من البيت رأسًا، وتعودين مداسًا». ويضيف في ما يتعلق بالمثل الثاني أنه يخاطب امرأة متزوجة غير راضية عن حالها، وتهدد بترك زوجها، ويعني: «إنك ستحطين من شأنك». ويقول إن المثل الأول يستخدم لوصف امرأة تذل إذا ما اضطرت للاعتماد على نفسها. ولم يكن المؤلف ليقنع بهذا التفسير السطحي لو أنه أدرك كم هي مهمة وجديرة بالانتباه هذه العادة التي يكشف عنها هذان المثلان.

وثمة أشكال مختلفة لهذه العادة يعرضها كل من: Alois Musil, *The Manners and Customs of the* =

والمعنى الحرفي لكلمة (حردانِة) هو «مستاءة وغاضبة». وعوضًا من الصفة (حردانِة)، يمكن أن يستخدم الفعل (حِرْدِت). ويمكن أن يقال عن الشاب (حردان)، وغالبًا ما يقال هذا عن الشاب الذي يريد الزواج؛ فقد يترك الشاب بيت أبيه مغضبًا ليحمله على ترتيب أمر زواجه، وقد يفعل ذلك لخلافات أخرى مع أبيه. وكنا قد ذكرنا في فصل «اختيار العروس» [الفصل الثالث من الجزء الأول من هذا الكتاب] قصة مماثلة عن شاب هرب عبر النهر إلى شرق الأردن[3]، وهي السبيل المعتادة للهرب من فلسطين، وإذا ما حصل على ما يريد، فإنه يعود إلى البيت. وغالبًا ما يستسلم الأب لرغبات ابنه في حالات كهذه؛ لأنه لا يريد أن يخسره؛ فهو يعلم أن البدو يرحبون بالغرباء.

أما عندما يهرب رجل عبر نهر الأردن مع امرأة يحبها، ما كان له أن يتزوجها إلا بهذه الوسيلة؛ فهو يخرق بذلك نواميس المجتمع، ويعرض حياته للخطر إذا ما عاد إلى قريته؛ فلأهل المرأة الحق في الانتقام منه لما ألحق بهم من الخزي والعار. ويعني هذا للمرأة بصفة خاصة، أنها قد قطعت، وإلى الأبد، صلتها بأهلها، وأن عودتها إلى مسقط رأسها باتت مستحيلة؛ فهي تعني الموت في مثل هذه الظروف؛ لأن إخوتها سيقتلونها استجابة لما يقتضيه المجتمع؛ فقتلها هو السبيل الوحيد لاستعادة شرفهم المهدور (إلعرض)، ولهذا فالفرار نادر جدًا. وحتى لو لم يكن الموت يتهددها، فمن الصعب أن نتصور امرأة

= *Rwala Bedouins* (New York, 1928), p. 235; Charles Doughty, *Passages from Arabia Deserta*, selected by Edward Garnett (London; Toronto, 1931), p. 66ff., and John Lewis Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I (London, 1830), p. 64, 151.

وبحسب موسل في الصفحة 235 من المرجع المشار إليه سابقًا، تسمى امرأة كهذه «زعلانة»، وهي لفظة تعني «غضبانة». وهي حالة مختلفة، إذ يقول موسل في الصفحة 235 من المرجع المذكور، إن المرأة التي تترك زوجها غاضبة لا تطلب الحماية عند أهلها، بل في خيمة أي رجل، حيث يرسل زوجها عادة أحد الأقارب، أو خادمًا ليقنعها بالصلح والعودة إليه. ويروي ويسترمارك في كتابه: Edward Westermark, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London, 1926), p. 533f.,

عن زوجة هاربة تطلب الحماية في خيمة رجل آخر. بيد أن الأمر هنا مختلف تمامًا، لأن على صاحب الخيمة أن يتزوجها، فهي لا تفعل ذلك لتعلي من شأنها في هذه الحالة، بل لتعلن انفصالًا تامًا عن الزوج.

(3) انظر: Hilma Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village* (Helsingfors, 1931), I, p. 51.

تهرب من بيت أبيها؛ لأنها تفقد بذلك دعم أهلها المادي والمعنوي كله، كما تفقد حقوقها القانونية.

أما بيت زوجها، فلها أن تتركه إن لم تكن راضية عن بعض أحوالها فيه. وتطلق كلمة «حردانة» على المرأة المتزوجة، ولا يسهل التمييز دائمًا بين المرأة التي حردت بملء إرادتها والمرأة المطلقة؛ فقد يتلفظ الرجل بأحد ألفاظ الطلاق في سورة غضب، من دون وعي منه للعواقب الخطيرة لتصرفه، فيكون على زوجته أن تترك البيت. وعلى أي حال، فمصلحته تكمن في عودتها في أقرب وقت ممكن.

حالات من الواقع

كان أول اطلاع لي على حالة كهذه في شتاء عام 1926، عندما عجبنا لطول مكث فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) في بيت أمها مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) في شهر كانون الثاني/ يناير، فقد كانت متزوجة في بيت صَفافا (بالقرب من القدس)؛ فسألنا: «لمَ هي هنا؟» فقيل لنا إنها إنما جاءت لزيارة أمها وأخيها جبرين عِثمان [79]، ثم قيل لنا تارة أخرى، إنها إنما جاءت لتجمع الحطب.

وما عدت أسأل عن ذلك، ففي الخريف الماضي، جاءت خضرة (ابنة سليمان جاد الله [22]) خالة فضة (ابنة عِثمان جبرين [77])، وهي زوجة لتاجر جزائري في عمّان على الضفة الأخرى من نهر الأردن، ومكثت عند اختها مدللة سليمان (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) وابنها جبرين عِثمان [79]، وعندما سألنا عن السبب، قيل لنا أحيانًا إنها إنما جاءت لتبحث عن دواء لعلة في عينيها، وأحيانًا أخرى إنها إنما جاءت لحضور وليمة نذر لأخيها عبدالله سليمان [28]، وأحيانًا أخرى إنها تنتظر عرس ابن أخيها محمود علي [30]، وأحيانًا إنها جاءت تطلب ميراثها؛ فقد قيل إن أخاها غبنها.

ولكنها اختفت في أحد الأيام، وقيل لنا إن زوجها كتب لها يقول: «ما

الأمر؟ لِمَ لا تعودي؟». وحدث هذا في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر بعد أن أمضت خضرة (ابنة سليمان جاد الله [22]) أكثر من شهرين في أرطاس. ووليمة النذر كانت لمرض ألم بعبدالله سليمان [28] في الخريف نفسه، قبيل مجيئي إلى أرطاس؛ فقد ظن أنه ميت لا محالة، ونذر للقديس جورج آيسًا أنه سيذبح له ماعزًا إذا ما شفي من مرضه[4]، لكنه لم يفِ بهذا النذر في أرطاس قط. وحتى عبدالله سليمان [28] كان حينئذ في القرية لأمر عارض، فقد كان تزوج امرأة سورية في صهيون إبان الحرب، ووصلته هو كذلك رسالة من زوجته يومًا كتبت فيها تقول: «يا ابن عمي، لِمَ أطلت البقاء هناك؟»، وحثته على العودة. وهكذا اختفى هو الآخر في أحد الأيام، وقلت لنفسي سيحدث الشيء نفسه مع فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]).

ولكن عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) جاءت يومًا، وقالت: «فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) حردانة!» ثم علمنا أن فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) هربت من زوجها الذي وصل لتوه من بيت صَفافا ومعه رجلان وحمار، وقد أحضر الرجلين ليكونا شاهدين، وجاء يلتمس عودة فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) إليه، وكانوا يريدون العودة من فورهم، إلا أن أخاها جبرين عِثمان [79] دعاهم ليبيتوا ليلتهم، ويأكلوا معهم، وأراد أن يذهب إلى بيت لحم لشراء اللحم والأرز للضيوف، غير أن زوج فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) أقسم (بِحلف))[5] عليه ألا يذهب إلى بيت لحم، ولكن جبرين عِثمان [79] قال: «والله لن تعودوا الليلة». وقد كانت الست لويزا أخبرتني قبل ذلك بوقت قصير أن العوز الشديد يسود في القرية في مثل هذا الوقت من العام؛ لأن ما ادخروه في موسم الحصاد يكاد ينفد، وسيمضي وقت طويل قبل أوان الحصاد المقبل. وقالت لي إن كثيرًا من البيوت ليس لديهم ما يصنعون به خبز يومهم، وذكرت مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) وابنها جبرين عِثمان [79] كمثال على ذلك.

(4) انظر أعلاه في الصفحتين 365 و363 من هذا الكتاب.

(5) انظر اعلاه في الصفحتين 382 و383 والحاشية الأولى، وكذلك أدناه في الصفحة 577 من هذا الكتاب.

ومع ذلك، ذهب إلى بيت لحم، واشترى لحما وأرزًا بالدَّين من إحدى الدكاكين، وكثيرًا ما يفعلون ذلك راهنين محصول الحصاد المقبل، وأعدوا وليمة على الرغم من فقرهم[6]، وأحضرت لنا مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) طبقًا من الطعام في المساء، ثم عادت بعد ذلك بقليل تلتمس بعض الصابون، وقالت الست لويزا ضاحكة: «أترين! لو لم يغسل الضيوف أيديهم بعد الطعام، لفسدت الوليمة برمتها!». وفي الصباح الباكر، جاءت الزوجة الحردانة فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) بنفسها تلتمس بعض العسل؛ فهم يقدمون السمن والعسل للضيوف في الصباح، وبدت فخورة؛ لأن عودتها إلى بيت زوجها اقترنت بهذه المراسم كلها، ثم ذهبت مع الرجال ذلك الصباح.

وقد وصفت هذا بالتفصيل؛ لأن هذه القصة تشبه ما يروى في الآيات الأولى إلى العاشرة من الإصحاح التاسع عشر من سفر القضاة في العهد القديم. وعلى الرغم من أنني أحاول أن أتجنب خطر تكلف الاستشهاد بالنظائر التوراتية، فإنني لا أملك إلا الإقرار بأن هذه القصة هي مثال حديث للقصة المروية في العهد القديم.

ولم يمضِ وقت طويل حتى عادت فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) إلى أرطاس مرة أخرى؛ ففي إثر مشاجرة جديدة، قال لها زوجها في غمرة غضبه: «أنت طالق! ولن تبيتي ليلتك في هذا البيت!». وعبثًا حاول الجيران إقناعها بقضاء الليلة عندهم، لتعود إلى بيت زوجها في صباح اليوم التالي. ولكن فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) قالت: «أليس لي أخ؟!» وعادت إلى أرطاس ومعها ابنها الصغير. وسأروي لاحقًا كيف فشلت حماتها في مهمتها؛ إذ أرسلت لإرجاعها، وكيف عمد أهلها إلى إعادتها بأنفسهم عندما مرض ابنها، ولكنني سأذكر أولًا بعض النساء اللاتي تركن بيوت أزواجهن مغضبات خلال فترة إقامتي الأولى في أرطاس.

---

(6) انظر: Hilma Granqvist, «Aus dem Erzählungsschatz palästinischer Bauernfrauen,» *Palästinajahrbuch*, vol. XXIII (Berlin, 1927), p. 128ff.

في ربيع عام 1926، جاءت أخت فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) لأبيها (أي أختها من أم أخرى) مرة بعد مرة إلى بيت أمها وإخوتها في أرطاس، وكانت مريم (ابنة عِثمان جبرين [77]) متزوجة في قرية الخَضْر المجاورة، وكان لها ضرة، وطلبت الآن حجرة خاصة بها (بيت شرعي)، وهذا حق لها. وذهبنا في وقت لاحق من شهر أيار/مايو في زيارة إلى فاغور حيث يوجد ضريح امرأة مسلمة صالحة يقال لها حميدية، وفي طريق عودتنا التقينا ضرة مريم (ابنة عِثمان جبرين [77]) - لأهل الخَضْر كروم عنب وأشجار فاكهة في فاغور - ووقفنا لنكلمها، فقالت لنا إنها الآن أيضًا حردانة بسبب مريم (ابنة عِثمان جبرين [77])، ورفعت ثوبها أمام نور الشمس، لنرى كيف خرقته ضرتها مريم (ابنة عِثمان جبرين [77]) بسكين، وكان الثوب يزخر بالثقوب. وذهلنا لذلك، حتى إننا لم نستطع أن نقول شيئًا على الإطلاق. وبعد ذلك، جلسنا نستريح على جانب الطريق عندما سألت الست لويزا حمدية (ابنة سليمان سند [183]): «ماذا يعني ذلك؟ تخيلي فتاة من أرطاس تتصرف على هذا النحو في مكان غريب!» فأقرت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أنه أمر خطير، ولكنها أضافت: «قد ينمو العشب حتى بين أفضل سنابل القمح»، وقد التقينا في فاغور أيضًا امرأة حردانة من التعامرة.

وفي خريف عام 1926 كانت سارة (ابنة علي سليمان [27]، وزوجة محمود محمد [29]) حردانة، أو هكذا وصفها الناس، على الرغم من أنها لم تكن تزوجت حتى ذلك الحين؛ فقد كانت هي التي أرادوا إقامة وليمة عرسها على الرغم من أن الشيخ لم يجرؤ على إبرام عقد زواجها (إلصّفاح) خوفًا من الحكومة المركزية[7]، ثم رأوا، على أي حال، أن تعيش سارة (ابنة علي سليمان [27]، وزوجة محمود محمد [29])، وتعمل في بيت حماتها التي كانت دفعت مهرها، ولم تكن لتبحث لابنها عن عروس أكبر سنًا؛ إذ لم يكن قد جاوز العاشرة من عمره.

---

(7) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 41.

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«كان ذلك في موسم جني العنب، حين نضج العنب في بيت سكاريا، وجلست «أي الصغيرة سارة (ابنة علي سليمان [27]، وزوجة محمود محمد [29])» بجوار كرمة وقطفت حبة من العنب. فجاءت عندئذ حماتها ودفعتها بعيدًا من الكرمة، وقالت لها: «ليس لك أن تأكلي العنب قبل أن نبيعه، ولا تظني أنهم سيطعمونك منه[8]!» فذهبت إلى أبيها باكية، فقال لها: «امكثي في البيت واهدئي، إلى أن تطلب يامنة (زوجة محمد عبدالله [25]) الصلح (حرفيًا: إلى أن تهدأ)، وندمت يامنة (زوجة محمد عبدالله [25])؛ لأنها عاقبتها لرغبتها في حبة عنب (حرفيًا: لأن هذه الكرمة جلبت الغمَّ ليامنة (زوجة محمد عبدالله [25])، وعلقت عليا على القصة بقولها: لن تبقي كنة لها في البيت أبدًا [أي للؤمها]».

وفي شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه، سمعنا أن جارتنا زهية خليل (زوجة خليل شاهين [150])، حردانة في بيت أبيها في بيت لحم. ولكأنني أستطيع رؤيتها الآن وهي عائدة إلى القرية بعد أيام؛ فقد التقيتها وهي في طريق عودتها إلى أرطاس عندما كنت في طريقي إلى القدس مارةً ببيت لحم. وكانت تمشي في الطريق مبتسمة وجذابة، بين رجلين من أقارب زوجها المقربين. وقد ذهب الرجلان إلى بيت أبيها في بيت لحم لإرجاعها، وأمضيا الليلة هناك، وأكلا وشربا كما تقتضيه العادة، ثم رضيت زهية (زوجة خليل شاهين [150]) بالذهاب معهما، وحملت ثيابها التي كانت قد أخذتها معها عندما تركت بيت زوجها في حزمة كبيرة على رأسها، بينما حمل أحد الرجلين، وهو عطية عبد [155]، ابنها الصغير الذي كانت قد أخذته معها أيضًا. ولدي ملاحظة صغيرة في مفكرتي في الرابع من كانون الثاني/ يناير من عام 1927 عن زيارة موسى شاهين (ابن شاهين موسى [139]) لنا، وهو أخو زوج زهية (زوجة خليل شاهين [150])، ودار الحديث عن زوجة أخيه:

---

(8) قارن أحد الأمثال التي يستشهد بها ويلسون في: Charles Thomas Wilson, *Peasant Life in the Holy Land* (London, 1906), p. 116,

وفيه تقول امرأة لكنتها: «لا تأكلي المقسوم ولا تقسمي الصحيح، وكلي حتى تشبعي».

كانت زوجة أخيه حردانة؛ لأنها لم تكن لطيفة مع حماتها، ولهذا ضربها زوجها، هذا ما رواه موسى شاهين (ابن شاهين موسى [139]) أخو زوج زهية (زوجة خليل شاهين [150])، وأضاف: «ما الزوجة مقارنة بالأم؟»- «الزوجة بحاجة إلى العقاب مرة واحدة، وهذا يكفي لتأديبها»، كان ذلك رأي هذا الشاب الأعزب.

أما رأي الست لويزا فكان كالآتي:

«ولكن الرجل أيضًا سيحذر من ضربها مرة أخرى؛ فقد بينت له أنها لن تتحمل سوء المعاملة، وأنها ستتركه إن فعل».

كما أن حمدة (ابنة أحمد عِثمان [34])، وهي زوجة لرجل من لِفتا الواقعة إلى الشمال من القدس، مكثت أسابيع عدة في أرطاس، مع أننا لا نعلم أجاءت بملء إرادتها أم طلقها زوجها، والتقينا بها في الجبال ذات مرة، وكلمناها في أمر غيابها عن لِفتا، ولن أنسى نبرة صوتها؛ إذ قالت: «أنا في بيت أبي (أنا في دار أبويٍ)»، ومن غير وعي مني، فكرت في تلك اللحظة في أن العبارة التوراتية «في بيت أبي عدة قصور»[9] ربما كان جذورها آتية من هنا. وبالطبع، لبيت الأب أهميته للرجل أيضًا، ولكنه لا يتركه إلا في حالات استثنائية، ولكن واقع المرأة مختلف تمامًا.

وأخيرًا، لدي ملاحظة أخرى في مفكرتي من فترة إقامتي الأولى في فلسطين:

---

(9) انظر الآية الثانية من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا. انظر كذلك الآية الثالثة من الإصحاح الثلاثين من سفر العدد: «في بيت أبيها»، وفي الآية العاشرة من الإصحاح نفسه: «في بيت زوجها». وتحث نُعمي كنائنها في الآية الثامنة وما يليها من الإصحاح الأول من سفر راعوث لتعود كل واحدة منهن إلى «بيت أمها»، متمنية أن تجد كل منهن الراحة «في بيت زوجها». وفي الآية الثانية من الإصحاح التاسع عشر من سفر القضاة ذهبت امرأة من عند زوجها «إلى بيت أبيها في بيت لحم في اليهودية». وفي الآية العاشرة من الإصحاح الثاني والأربعين من سفر ابن سيراخ ذكر لبكر «في بيت أبيها». وتستخدم عبارة «بيت الأب» في الآية الرابعة عشرة من الإصحاح الرابع من سفر استير للدلالة على العائلة.

في الخامس عشر من آذار/مارس من عام 1927، ذهبنا بعد الغداء إلى بيت صبيحة (ابنة جاد الله عودة [2]، وزوجة علي أسعد [42])، وكان بيتها في الحقيقة كهفًا في الحي الغربي من القرية، وقد كان زوجها علي أسعد [42]، قسمه إلى ثلاثة أقسام لأولاده الثلاثة، وكان الأب يعيش في بيت آخر في الحي الشرقي من القرية. وهناك، وجدنا عليا (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة موسى محمد [50]) مع أمها وإخوتها، فقد كانت حردانة. وكانت ذهبت مع ابنها الصغير إلى بيت أخيها محمود علي [48] حيث تعيش أمها الآن، على الرغم من أن الثلج كان يتساقط في تلك الأيام. وأمها، صبيحة (ابنة جاد الله عودة [2]، وزوجة علي أسعد [42])، مهجورة[10]، فقد حرم عليها زوجها فراشه «منذ أن جاء الإنكليز إلى البلاد»، ولهذا ذهبت عليا (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة موسى محمد [50]) إلى أمها، ولم تذهب إلى بيت أبيها الذي يعيش مع زوجته الثانية.

عندما تركت القرية، كان الناس يقولون - كما روينا سابقًا - إن مريم (زوجة سليم مسلَّم [199])، الزوجة الأولى للشرطي الزنجي سليم مسلَّم [199] ذهبت مع أمها إلى الخليل (حردانة).

تركت سبع نساء، في الأقل، أزواجهن على هذا النحو خلال الأشهر العشرين التي قضيتها في أرطاس في زيارتي الأولى للقرية، وهذا يبين أن هذه العادة شائعة.

ما قالته لي النساء عن الأيام الخالية في أرطاس، يثبت أن هذه العادة لا تعزى بالضرورة إلى الانحلال الشائع هذه الأيام، وما يرافقه من تفسخ في منظومة الأخلاق، كالذي أفضى إلى ازدياد حالات الطلاق في الغرب؛ فقد قالت لي مدللة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) والدة فضة (ابنة عِثمان جبرين [77])، أول امرأة حردانة أتينا على ذكرها، وإحدى زوجات عِثمان جبرين [77] الثلاث، إن هؤلاء الأخيرات تركن بيت أزواجهن

(10) انظر أعلاه في الصفحة 506 من هذا الكتاب.

مغضبات مرارًا وتكرارًا، وإنه عندما توفي عِثمان جبرين [77]، لم يكن معه في البيت إلا صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77])، وهكذا، يبدو أن البنات يقتدين بأمهاتهن، وسنجد أن حمدية (ابنة سليمان سند [183]) سبق لها أن كانت (حردانِة) في زمانها. وقد حدثتنا عليا (إبراهيم عودة [1]) عن زواجها الثاني في صُورِيف؛ حيث كان عليها أن تزاحم ضرتها:

«كنت متزوجة لمدة خمسة عشر عامًا، وأنجبت بنتًا سميتها رحمة، وماتت في أرطاس؛ حيث كنت (حردانِة) معظم الوقت، ولم تتحمل إحدانا الأخرى ولا حتى لعام واحد».

وكان عُمر هاتين المرأتين بين 55 و70 عامًا.

بيت أبيها مفتوح دائمًا

تساءلت يومًا: «هل تستطيع الزوجة أن تركن إلى استقبال أهلها لها عندما تترك زوجها؟»، فقالت عليا (إبراهيم عودة [1]) مرارًا: «بيت أبيها مفتوح على الدوام (دار أبوها دايمن مفتوحة)»، وكانت عليا (إبراهيم عودة [1]) قد حدثتني في وقت آخر عن أغنية تؤازر تأكيدها هذا، وفيها تخاطب الابنة أباها بهذا الرجاء:

«أيا أبتي! وسع صدر بيتك	(يا بوبي وسِّع صدر بيتك
للزائرات والمغضبات»	لزَّايرات وللحَرَادِه)!

فيجيب الأب:

«بيتي واسع وصدري واسع	(بيتي أوسيع أو صدري واسع
للزائرات والمغضبات»	لزَّايرات وللحَرَادِه)

وتبين القصة الآتية أنه يمكن للمرأة أن تفرض إرادتها من خلال هروبها إلى بيت أبيها؛ فقد روت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قصة يامنة (ابنة عودة الله جاد الله [19]، وزوجة حسن محمد [168])، وهي ابنة ابن عمها، عودة

الله جاد الله [19] الذي يعيش في بيت سكاريا. وكانت يامنة (ابنة عودة الله جاد الله [19]، وزوجة حسن محمد [168]) أول فتاة من عشيرة عودة تتزوج رجلًا من عشيرة شاهين، وتم الزواج قبل أن يفي الرجل بجميع التزاماته من جهاز العروس، والهدايا الأخرى، وكانت النتيجة أنه لم يستمتع بصحبة زوجته لفترة طويلة؛ فعندما علمت أنه ينوي المماطلة، ذهبت إلى بيت أبيها، لتجبر زوجها على الوفاء بالتزاماته.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«حقوقها كالآتي؛ إذا لم يكن لديها ثياب ملائمة، فمن حقها أن تغضب حتى يعطوها إياها. إذا كان لها مال عندهم فمن حقها أن تأخذه. يامنة (ابنة عودة الله جاد الله [19]، وزوجة حسن محمد [168]) كانت حردانة في بيت سكاريا، أرسلوا في طلبها مرة، فقالت: «أريد ثيابي ومالي!» وأرسلوا في طلبها مرة ثانية، فقالت: «لن آتي حتى يعطوني حقوقي، ولو نبت الريش على رؤوسكم». وفي الواقع، لم تذهب حتى فعلوا، أحضروا سبعة جنيهات وزينة بقيمة أربعة جنيهات، جاء إحسين (ابن محمد علي [166])، وهو أخو زوجها، وأعطاها إياها غاضبًا، ما أرادت إلا حقوقها».

وأعتقد أني وجدت هنا سلاحًا لا يخطئ، تحارب به المرأة زوجها وأقاربه. ولنلاحظ كيف أكدت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أن المرأة حردت لأنها أرادت حقوقها.

كما أكدت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) هذا أيضًا عندما روت قصة هروبها من زوجها في بيت لحم إلى بيت أبيها في أرطاس. وإن كان هناك اختلاف في قصتها؛ فمطالبها شملت حق أبيها في بقية مهرها، علاوة على حقها في إنفاق زوجها عليها بما يكفيها. ومع ذلك، يبدو لي أن هناك شيئًا آخر في حياة المرأة، هو أهم ما تطلعنا علية حمدية (ابنة سليمان سند [183]) في قصتها القصيرة هذه.

الصعوبات التي تواجه المرأة الحردانة

الحمل

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«عندما تركت زوجي (يوم خْرِدِت)، كنت لا أزال جاهلة بشؤون النساء (جاهْلِه)[11]، كان عمري بين أربعة عشر إلى خمسة عشر عامًا، وأرادت أمي أن تذهب إلى بيت لحم، عندئذ قلت لها: «أماه، أحضري لي ليمونًا وفجلًا!»، وكانت عمتي سلمى (ابنة (سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1]) قابلة، فلم تلبث أن أدركت الأمر، وقالت: «يا زوجة أخي! إنها حامل اشهدي عليها (شَهْدي عليها)!» فذهبت أمي إلى بيت لحم، إلى شيخ (إلشّحادة) الذي كان جالسًا في منتدى الرجال، وقالت أمي:

«أنتم أيها الحضور، اشهدوا أن ابنتي حامل. إذا جاءها الحيض في ثوبها، فهو في ثوبها. ولكن إذا كانت حاملًا، فهو من زوجها (عَما تِشهدو يللي حاضرين إنْ بنتي فيها أولاد، إن أجاها إلدَّم في ثوبها، أو إن طِلعِت حِبلى من جوزها)!»

وفعلت هذا حتى لا يقول الناس: «إنه ابن سِفاح (بندوق)!» ومكثتُ في بيت أبي حتى أنجبت الطفل، ومكثت سبعة أيام بعد ذلك، عندئذ جاءوا من بيت لحم، وأحضروا معهم لحمًا، وأرزًا، وقهوة، وسكرًا، وسمنًا (سمنة). وجاء مع زوجي شختور، وأبو إرمان، وعايش حمد (جاء بهم الزوج شهودًا)، وظلوا يتباحثون الأمر بينهم من المساء إلى الصباح، وكان إسْمَعين [51] إلى جانب والدي، وقال والدي: «ادفعوا ما عليكم وبعدها خذوا ابنكم واذهبوا! ليس لكم عندي نساء!» وذهب عايش حمد إلى عاصم بك في القدس وأعلمه بالأمر، وجاء معه شرطي (جندي من الخيالة) إلى أرطاس، وقرأ وثيقة الدَّين (التي تبين ديون زوج حمدية (ابنة سليمان سند [183])) فوجدها كثيرة، واتفقوا على تسوية الدَّين بخمسة عشر جنيهًا، عندئذ عدنا إلى بيت لحم».

(11) في ما يتعلق بهذه العبارة انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 36.

فسألتها: «أيعني هذا أنك كنت حردانة؟»
فأجابت: «نعم لأنني لم أنل شيئًا منه، لا ثيابًا ولا طعامًا!».

وهكذا اختتمت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) روايتها لهذا الفصل من حياتها، وهي تعتقد أيضًا أنها فعلت ما هو حق لها. وما يميز هذه القصة عن سابقتها، هو أن حمل حمدية (ابنة سليمان سند [183]) اكتُشف عندما كانت تعيش في بيت أبيها، وأن ذلك أُعلن على الملأ في منتدى الرجال في بيت لحم، حيث يعيش الزوج. وللوقوف على خطورة هذا الأمر، سنسرد في ما يأتي قصة مشابهة عن امرأة من أرطاس:

روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي:

«تزوج عبد خلاوي [110] حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110])، وكانت حردانة في بيت أبيها في أرطاس، وتبين أنها حامل - نسأل الله العافية. وكانت جاهلة (جاهْلِه). وأخطأوا إذ لم يعيدوها (إلى بيت زوجها) عندما اكتشفوا حملها. قالت بعُّونية (لقب لصبحة (زوجة خليل عايش [83]) من القبو): «لا تعيدوها، اصبروا، ولننتظر لنرى إلامَ يؤول هذا الأمر؟!»، ولكن عندما بات حملها واضحًا، قال زوجها: «هذا ليس مني!». ومكثت في بيت أبيها حتى أنجبت ولدًا. ورموا له الولد، وقال له أخوها عبد سليمان [190]: «خذ ابنك!»، فأجاب: «هذا ليس ابني!» ورفعوا الأمر إلى الحكومة، فجاء جندي، وقال عبد خلاوي [110] مرة ثانية: «هذا ليس ابني!» فقال له الجندي: «طلقها إذًا! ودعها تجرب حظها!». وغضب أخوها عبد سليمان [190]، وأخذها معه إلى دورا، وزوجها هناك. وبقي الولد معها إلى أن مرض ومات. وكان يقول مهددًا قبل ذلك: «عندما أكبر، سترى عائلة خلاوي (عائلة أبيه) مني ما تكره!»».

وفي مرة أخرى، روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن هذه الحكاية:

«أخذ عبد سليمان [190] أخته حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110]) إلى دورا؛ فبعد أن أنجبت ولدًا، حملوه إلى أقارب أبيه

ليأخذوه، ولكنهم لم يعترفوا به (ما قِبلوهوش)؛ لذا، أخذ عبد سليمان [190] الولد وأمه حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110])، وكذلك والدته حمدة (زوجة سليمان عودة [188])، إلى دورا؛ ذلك أن عبد خلاوي [110] (الأب) - يا الله، ويا مخافة الله - قال: «هذا ليس ابني!»، وحتى لا تكون هناك فضيحة في القرية، أخذوها إلى دورا. «من يغلق فمه، يستر عيبه وعيب أمه (إللي بِضُب تِمّه بستر عيبِه أو عيب إمّه)»».

وهناك تشابه كبير بين الحالتين؛ فقد اكتشف أن حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110]) كانت حاملًا أيضًا عندما كانت حردانة، وأنجبت كل من حمدية (ابنة سليمان سند [183]) وحلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110]) ابنها في بيت أبيها، وفيما عادت الأولى إلى بيت زوجها، لم يعترف زوج الأخيرة بولدها ابنًا له، وطلق زوجته، وهكذا وسمت بالعار في القرية إلى الأبد، ولم يجد أخو حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110]) حلًا سوى أن يأخذها بعيدًا من أرطاس، إلى حيث لا يعرف أحد تاريخها الحزين. وكان عليه أن يعتني بابنها أيضًا، ولن نعلم أبدًا، أكان الولد لينفذ تهديده وينتقم من أبيه لسوء معاملته لأمه وله؛ إذ توفي بعد ذلك بوقت قصير. أما عبد سليمان [190] الذي تزوج امرأة من دورا بدلًا بأخته حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110])، فقد عاد إلى أرطاس من منفاه الذي اضطر إليه من أجلها بعد أن لحق العار بها.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إن خطأها كان أنها لم تعد إلى بيت زوجها قبل أن يعلم الجميع بحملها، أو ربما كان عليها أن تفعل فعل والدة حمدية (ابنة سليمان سند [183])، فتعلن نبأ حملها على الملأ بالصيغة التي يقضي بها العُرف؛ فقد كان من شأن ذلك أن يحميها من العار ومن القيل والقال.

وما زال لدي مثالان نموذجيان من أرطاس، يبيِّنان الأهمية البالغة لإعلان نبأ الحمل على الملأ في منتدى الرجال إلسّاحه[12]. وفي كلا المثالين، تترك

(12) انظر: Elias Hadad, «The Guest-House in Palestine,» *Journal of the Palestine Oriental* = *Society*, vol. II (Jerusalem, 1922), p. 280,

الزوجة بيت زوجها وتذهب إلى بيت أبيها، ثم تلتقي بزوجها في الحقل، فيجبرها على الجماع، ويفضي ذلك إلى الحمل.

فقد روت لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ذات مرة:

«كانت بَنُّورة (ابنة محِمَّد [117]، وزوجة محمد خلاوي [109]) حردانة، ولقيها زوجها تحت شجرة تينٍ لأبيها كانت تحرسها، وفعل ما يفعله الرجال عنوة، فذهبت إلى منتدى الرجال وحدها وأعلنت ما كان منه، ومكثت في بيت أبيها حتى أنجبت ابنها أحمد [113]».

وقالت في وقت آخر:

«ذهبت بَنُّورة (ابنة محِمَّد [117]، وزوجة محمد خلاوي [109]) إلى البيت تبكي، فقالت لها زوجة أخيها: «ما يبكيك؟» قالت: «جاء محمد خلاوي [109]، وغشيني!»، فقالت لها زوجة أخيها: «ولمَ تبكين؟ اذهبي إلى منتدى الرجال!».

فذهبت إلى منتدى الرجال، وقالت: «أنا أشهد بالحق أمامكم - والله الذي يعلمه! كنت أحرس أملاك إخوتي، وفجأة رأيت هذا الرجل ينقض علي، فغشيني ونال مراده وذهب.

إذا جاءني الحيض فهو في ثوبي، وإذا حملت فهو من زوجي
(إن أجتني في ثوبي، أو إن إحبِلِت من جوزي)!»

فقالوا له: «يجب أن تذهب وتعتذر وترجع زوجتك!» وطبخوا لحمًا وأرزًا وأطعموا الحاضرين».

والزوجة الثانية كانت حمدة (ابنة إبراهيم عودة [1])، وهي أخت عليا

= «يسمح للمرأة بدخول المضافة في حال توجيهها تهمة ضد أحدهم بحضور كبار السن والمختار. وبعد أن تعرض قضيتها تغادر، ويتولى أقرب أقربائها الدفاع عنها. وتناط هذه المهمة بالمختار إذا لم يكن لها أقرباء». وعند الإسرائيليين القدماء، كان بإمكان المرأة الظهور أمام الجماعة كلها لعرض قضيتها والمطالبة بحقوقها (الآية الثانية من الإصحاح السابع والعشرين من سفر العدد).

(ابنة إبراهيم عودة [1]) والتي كانت متزوجة في أبو ديس، حيث كانت لها ابنتان، وكان قد مضى على وجودها في أرطاس (حردانِه) زمنًا طويلًا، عندما التقت بزوجها في الحقل ذات يوم، فحملت منه وأنجبت ولدًا في بيت أبيها، فكتموا كل شيء، وأخذوا الولد إلى دير في بيت لحم، وما كان ليحدث شيء لولا أن رجلًا ألمح لإخوتها بالفضيحة في ما بعد، وكان عليهم عندئذ، بحسب مبادئ الفلاحين، أن يقتلوا أختهم، ففعلوا، ويقال إن هذا كان سبب موتهم في سن مبكرة.

وهكذا نرى أن المرأة تعرض نفسها لخطر عظيم، عندما تكون (حردانِة)، وأنها يمكن أن تجلب المصائب على عائلتها أيضًا.

وفي الواقع، إن الإعلان عن حمل المرأة عندما تكون في بيت أبيها، باستخدام الصيغة آنفة الذكر، هو جزء من منظومة قوانين حماية المرأة. وما يدل على ذلك، هو أنه يُستخدم في حالات غير تلك التي تكون فيها المرأة حردانة أيضًا؛ فعندما عزم زوج عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الأول، بعد زواجهما بوقت قصير، على العودة إلى أهله عودة نهائية، فقد كان بدويًا من التعامرة، أعلنت والدتها هذا على الملأ.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«كنت حاملًا لشهرين خليا عندما جاء ليأخذ متاعه، عندئذ قالت أمي في منتدى الرجال:

«أيها الجمع، أيها الحاضرون! لقد حملت ابنتي منذ شهرين، وهذا عهد ثقيل ألقيه عليكم، إنها حامل، إذا جاءها الحيض فهو في ثوبها، أما إن كانت حاملًا، فهو من زوجها (يا جماعة إنتو حاضرين كلكو بنتي إلها شهرين ناقل، معكو مؤدْعَه إنها فيها أولاد، إن أجتها إلعادِه في ثوبها، أو إن طِلعِت حامل من جوزها)!

وكان زوجي جالسًا بين الرجال في المنتدى، ثم حمل متاعه ورحل».

وسنجد ما يشبه ذلك مرة أخرى في فصل الترمل؛ فالأرملة التي لا يظهر

عليها الحمل، تعلن على الملأ أنها قد تكون حاملًا، لتحمي نفسها من الشك ومن القيل والقال»[13].

ولكن حتى وإن تقبَّل الزوج والمجتمع الطفل، عندما يظهر حمل المرأة وهي في بيت أبيها، فإنها تتحمل عبئًا عظيمًا هي وأهلها إذا مكثت في بيت أبيها بعد ذلك؛ إذ إن طبيعة الخطر فحسب هي التي تتغير؛ فهو يزول عن المرأة وسمعة عائلتها، وينتقل إلى الطفل.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن هذا، وتذكر في الوقت نفسه صيغة الإعلان الذي يعلنه الرجل، والتي تقابل الصيغة العرفية التي تعلنها المرأة:

«إذا كانت الزوجة الحردانة حاملًا، كان على زوجها أن يُشهد عليها الناس، كالآتي:

«أيها الحاضرون، أنتم شهود، حكومة وفلاحين، على أن زوجتي حامل، وإذا حدث شيء، فهم (أي أهلها) مسؤولون، وإذا لم يعيدوها لي، واختنق الطفل أو غرق، فعلى أهلها أن يدفعوا الدية!».

أما إذا لم تكن حاملًا (حرفيًا: فارغة)، فلا ضير؛ هذه هي الكلمات أمام الحكومة في المحكمة.

هذا المثال كان عن مقالة الرجل من الخَضْر، لأولاد عِثمان جبرين [77]، عندما كانت أختهم مريم (ابنة عِثمان جبرين [77]) حردانة في أرطاس.

(الحردانِه إذا تشان حِبله لازم إشهِّد عليها جوزها، عَمَا تِشهدو يا حاضرين دولِة أو فلاحين إنْ حُرُمْتي فيها أُولاد، إنْ صار إشي يِلزَمهم، أو إنْ ما أعطونيش إياها إنْ شِرِق، ولّا غِرِق بِحُطُّو أهِلْها دِيِّه، لَنْها فارغه مَعْلِش، هذا إلقول عند الحَكومِه في السَّرايا، هذا قول الخُضْري لأُولاد عِثمان جبرين)».

---

(13) انظر أدناه في الصفحة 599 وما يليها من هذا الكتاب.

وهذا يفسر توقف زيارات مريم (ابنة عِثمان جبرين [77]) المتكررة إلى أرطاس؛ إذ لم يجرؤ إخوتها على تحمل عبء بقائها عندهم بعد أن تبين أنها حامل، وبعد أن تلفظ زوجها رسميًا بالصيغة العرفية المذكورة أعلاه.

أولادها

روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن فضة (ابنة عِثمان جبرين [77])، وهي أخت مريم (ابنة عِثمان جبرين [77])، عندما تركت زوجها للمرة الثانية:

«عندما حردت فضة (ابنة عِثمان جبرين [77])، أخذت ابنها معها، وجاءت حماتها وابنة حماتها، وأعلنت فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) أنها لن تعود معهما إلى زوجها، فقالت حماتها:

«اعلمي أن الريح ستضره	(شوفي إلهوا بِضُرُّه
والشمس ستضره	أو إلشَّمِس بِضُرُّه
والنوم سيضره	أو إلنُّوم بِضُرُّه
والطعام سيضره	أو إلأكِل بِضُرُّه
والماء سيضره	أو إلمويِه بِضُرُّه
والفراش سيضره»	أو إلمِرقَد بِضُرُّه)!

وتبدو هذه الكلمات كما لو أنها تعويذة.

واستأنفت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة:

«عندئذ قالت فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) (وهي تناولها الطفل): «خذي ابن ابنك معك (خذي إبن إبنتش مَعِتش)»، فقالت الحماة: «ولكن ماذا عن هذا الذي في رحمك! كل شيء سيضره! النوم سيضره، وإذا ما حملت شيئًا فسيضره ذلك، وإذا ما أكلت شيئًا فسيضره، كل ذلك ضرر، وسيكون إخوتك مسؤولين، وسيكون الوزر على أهلك (أما إللي في بُطِتِش كُلشي بِضرُّه، إن نِمتي بِنضر، أو إن حملتي إشِي بِنضر، أو إن أتشلتي إشي بِنضر، كُلشي ضْروُرة بِلزم إخوتِتش أو أهلتش بِتحمليهم إلدَّم)!».

قالت هذا لتحملها على العودة معها (جَكاره مِنشان تروِّح)».

ثم أضافت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في إشارة إلى الولد الذي أحضرته أمه فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) معها إلى أرطاس:

«إذا مات فعلى إخوة فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) أن يدفعوا ديته (إن مات بِحُطُّو ديتُه(14))».

وكما ذكرنا سابقًا، فقد مرض ابن فضة (ابنة عِثمان جبرين [77])، وعجل أهلها ليعيدوها إلى زوجها، فأخذوها معهم إلى بيت لحم، وتركوها عند بعض معارفهم من قرية زوجها بيت صَفافا، وتشدقوا ببعض الكلمات الرسمية؛ مفادها أنها يجب أن تعامل في بيت زوجها معاملة حسنة، وأن أقاربها سيراقبون سلوك زوجها تجاهها، بينما كانوا في الحقيقة مسرورين لخلاصهم من هذا العبء بسلام. ولو مات الطفل، لكان لزوج فضة (ابنة عِثمان جبرين [77]) الحق في المطالبة بديته.

ليس من حق المرأة أن تأخذ أولادها من بيت أبيهم؛ لأنهم يتبعون للزوج(15) وليس لأهلها، وكذلك الأمر حتى لو لم تكن حردانة.

وعندما جاءت هَذْلَة (ابنة سلامة عبدالله [196])، المتزوجة في جِبَع، إلى أرطاس لزيارة والديها، مرضت ابنتها الصغيرة، فعجلت إلى زوجها، الذي قال:

««انظري إلى ابنتي! ذهبت من هنا مثل التفاحة، وها هي الآن تموت!»، وقال لزوجته: «ليس لك مكان في بيتي بعد اليوم!»، هذا ما قاله الجِبَعي أحمد لزوجته هَذْلَة (ابنة سلامة عبدالله [196]) عندما عادت من زيارة أرطاس وماتت ابنتها.

---

(14) في ما يتعلق بالدية انظر: Elias Haddad, «Blood Revenge among the Arabs,» *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. I (Jerusalem, 1921), p. 109; Effendi El-Barghuthi, «Judicial Courts among the Bedouin of Palestine,» in: *Studies in Palestinian Customs and Folklore*, I (Jerusalem, 1922), p. 24f., and Alois Musil, *Arabia Petraea*, III (Wien, 1908), p. 366ff.

(15) قال شميت وكاله الأمر نفسه في: Schmidt and Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, p. 259.

وهمَّ بطردها، ولكن أهل القرية هدّأوه، وقالوا له: «هذا من الله (هَذا من الله)»».

ولم تكن تلك سوى زيارة عادية لبيت أبيها، ولسوء الحظ، مرضت ابنتها هناك. وبالطبع، يكون الأمر أشد سوءًا إذا تركت امرأة بيت زوجها غاضبة، وأخذت الأطفال معها، أو إن كانت حاملًا، ثم حدث مكروه، ولا سيما إذا كان الزوج أشهد الناس عليها؛ فللزوج في هذه الحالة أن يجبر زوجته العنيدة على العودة إلى بيته. «أما إذا لم تكن حاملًا فلا ضير في أن تكون بعيدة عن زوجها»، كما قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]). ولكن، قد يكون لها أطفال صغار لا تستطيع أن تحمل نفسها على الابتعاد منهم؛ إذ لا بد أن يبقوا في بيت أبيهم، وإذا أخذتهم معها، فلن تطول إقامتها في بيت أبيها؛ لأن الزوج سرعان ما سيطالب بأولاده، وإذا تركتهم في بيت أبيهم، فسيدفعها حبها وشوقها لهم على الأرجح إلى العودة قبل أن يمضي وقت طويل؛ فالمرأة قد تتحمل الكثير من أجل أولادها، ولهذا آثرت سارة مصلح (زوجة إبراهيم خليل [3]) من صُورِيف، أن تتحمل الأذى والمهانة في بيت زوجها في أرطاس من أجل أطفالها. وعندما جاء إخوتها لاستعادتها وإنقاذها مما هي فيه، فرت منهم والتجأت إلى بيت شيخ، وطلبت إليه أن يساعدها ليُسمح لها بالبقاء، وقالت سارة مصلح (زوجة إبراهيم خليل [3]):

«تستطيع أن تقطع رأس الكلبة وهي عند جرائها (إلتَّشلبة تِقطع راسها عند إولادها)»

أي إنها تفضل الموت على ترك أولادها بإرادتها.

ويقول المثل أيضًا:

«أم القَعود للبيت تعود (إم إلقَعود عَالدّيار تْعود)».

وبمِثل هذا المثل يتعزَّى الرجل، إذا ما تركته زوجته مغضبة.

ونتيجة هذه الظروف، فلا يكون لحَرَد المرأة أثر حقيقي، إلا إن كانت عاقدة العزم فعلًا على أن تبعد عن بيت زوجها حتى تنال مرادها، وكذلك إن كانت عونًا كبيرًا له في حياته، بحيث لا يستطيع تدبير شؤونه من غيرها.

مكانتها في بيت زوجها

كنا استشهدنا بالمثل القائل: «ليس أسخف من المرأة التي تهرب ولها ضرة في البيت! ولا أسخف من الجمل الذي يهرب والفرس في عقالها في البيت». ومع ذلك، وكما رأينا، فإن الضرائر يحردن أيضًا.

ومقولة «البدائل كالضرائر (إلبدايل ضراير)» صحيحة تمامًا في هذا السياق؛ فإذا حردت الزوجة البديلة إلى بيت أبيها، كان لزوجها الحق في استعادة قريبته التي استبدل بها زوجته، أكانت أختًا أم ابنة أم ابنة عم. وبحسب ما قاله لنا علي خليل [173]، فإنها لا تقبل بذلك، إن كانت سعيدة مع زوجها. ولكن، قيل لنا ذات مرة، إنه هو ذاته أجبر ابنته حلوة (ابنة علي خليل [173]، وزوجة أحمد علي [47]) التي كان استبدل بها زوجته فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) على العودة إلى بيته عندما حردت زوجته فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«حردت فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) في موسم الحصاد. قال زوجها علي خليل [173] لابنه: «اذهب وأحضر أختك!»، وقال له ابنه محمد [179]: «لن تأتي معي يا أبي!»، فقال أبوه: «قل لها إذًا إنها ستحرم من البيت والأملاك، وإلى الأبد!».

وقالت فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) لأخيها: «سأذهب معك، فلتبكِ مئة أم، على ألا تبكي أمي (ميت إم تبتشي ولا إمي!»[16]، وتركت طفلها عند أهله (أي في بيت زوجها)، وعادت إلى بيت أبيها».

وأخيرًا، قد تخرج المرأة من بيت زوجها في نوبة غضب من دون مبرر كافٍ. ويبين المثلان الآتيان المهانة التي قد تتعرض لها، إذا ما أجبرت على

(16) مثل شعبي. انظر: Lydia Einsler: «Arabische Sprichwörter,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XIX (Leipzig, 1896), p. 84, and *Mosaik aus dem heiligen Lande* (Jerusalem, 1898), p. 81, and Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 173.

العودة إلى زوجها:

«ذهبت قملة وعادت صؤابة (بتروح قمله أُو بتيجي سيبانه)»

«ذهبت منشارًا، وعادت منقارًا (بتروح منشار أُو بتيجي منقار)»[17].

ولفتت ست لويزا انتباهي إلى دقة التصوير في المثل الأخير إذ قالت:

«المنشار يعلو ويهبط كالمرأة في نوبة غضب. أما المنقار، فيتجه إلى الأسفل دائمًا، وهكذا تكون المرأة ذليلة عندما تعود مطأطئة رأسها».

وفي شهر تموز/يوليو من عام 1930، جاءت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) بصورة أخرى للمثل الأول عندما تحدثت عن امرأتين، وقالت عن الأولى:

«ذهبت قملة وعادت صؤابة (بتروح قمله أُو بتيجي سيبانه)»،

وقالت عن الأخرى:

«ذهبت قملة وعادت جملًا (بتروح قملة أُو بتيجي جمل)».

والمرأتان اللتان قارنت بينهما حمدية (ابنة سليمان سند [183]) هما زوجة ابن أخيها فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187])، وابنة أخيها زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]). وكانت الأولى قد تركت بيت زوجها حيث تسكن حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أيضًا، وفعلت الأخيرة الشيء نفسه مؤخرًا، وعادت إلى زوجها قبل أسبوع واحد فقط.

وطلبتُ إلى حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أن تحدثنا عن هاتين الحالتين، ففعلت، وكان وصفها موجزًا، بحيث يتطلب تحليلًا مفصلًا، ولكنني سأكتفي هنا ببعض الشروح والملاحظات الموجزة.

---

(17) انظر أعلاه في الصفحة 516، وفي الحاشية الثانية من هذا الكتاب.

ذهبت قملة وعادت صؤابة

كان عبد صالح [187] زوج فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) عهد إليها بحفظ أحسن ثيابه في صندوقها، وهذا شرف عظيم، بحسب ما قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183])؛ لأن زوجها كان بإمكانه أن يعطي ثيابه لأمه حمدة (زوجة صالح سليمان [184]) التي كان لديها صندوق أيضًا. واحتاج زوج فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) إلى ثيابه ذات يوم للذهاب إلى عرس، غير أنها رفضت أن تعطيه إياها، فاضطر إلى أخذها بالقوة، وفتح الصندوق عنوة في غيابها، وعندما عادت، غضبت غضبًا شديدًا ولعنته.

وقالت الست لويزا:

«لكل امرأة صندوقها - قلة من الرجال فقط لهم صناديق خاصة بهم - وليس لأحد، ولا حتى الزوج، أن يفتح الصندوق، وهي تحمل مفتاحه معها.

وروت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي:

«كانت ثياب عبد صالح في صندوق زوجته فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187])، وأراد أن يلبسها، فناداها، ولكنها لم تجب، وكانت قد ذهبت لجمع الحطب، فاضطر إلى فتح الصندوق، فنزع مسمار القفل، وأخذ ثيابه ولبسها، وأعاد القفل كما كان. وارتدى ثيابه وذهب إلى العرس، ثم عادت من جمع الحطب، وقالت: «أين عبد؟» قالوا: «ذهب إلى العرس»، ثم فتحت الصندوق، فلم تجد الثياب، وأخذت تسب وتلعن. وقالت: «عسى أن لا يعود! عسى أن تكون طريقه! (أي أن يموت) عسى أن لا يهنأ! عسى أن تتمزق ثيابه!» عندئذ غضبت أنا (حمدية) ابنة سليمان سند [183])، وقلت لها: «اذهبي وتزوجي من هو خير منه إن لم يكن يعجبك!»

ثم جاءت أمه، وأخبرتها أخته عليا (ابنة صالح سليمان [184]) بما حدث، ثم أخبرته أمه حمدة (زوجة صالح سليمان [184]) بكل شيء، فقال: «والله العظيم! لن تبقى (أي الثياب) عندها، ولن أضعها في صندوقها!»، وأخذ

ثيابه منها وأعطاها لأمه. ومنذ ذلك الحين ظلت ثيابه مع والدته (في صندوقها). وأول من أمس، تركت حماتها حمدة (زوجة صالح سليمان [184]) صندوقها مفتوحًا، فجاءت فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) وسرقت الثياب، ووضعتها في صندوقها. وانتبهت حمدة (زوجة صالح سليمان [184]) لذلك، ولم تجد الثياب! وقالت لها: «أعيدي الثياب التي أخذتيها!»، فقالت: «أنا لم آخذ شيئًا، لن أعطيك الثياب!»، فقالت: «أعيديها بهدوء حتى لا تعلم القرية كلها بالأمر! لا تدعي اليمين تدركه!» (سيؤذيه القسم)، ورفضت فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) حتى جاء زوجها، ووجدهما تتشاجران، فسأل: «فيمَ الشجار يا أمي؟» فأجابت: «زوجتك هذه أخذت ثيابك ووضعتها في صندوقها!»، فقال لها: «لمَ جعلت اليمين تدركني؟». قالت: «إن عنايتي بالثياب خير من عناية أمك بها». قال: «ضعيها على كومة القمامة! ليس لك أن تأخذيها وتضعيها في صندوقك!»، وأضاف: «انهضي وافتحي الصندوق! وأخرجيها!» قالت له: «لن أنهض ولن أفتحه!» (واستهزأت به قائلة): «اذهب واكسره (كما فعلت من قبل)!». فضربها لأنها أغاظته كثيرًا، ففتحت الصندوق، وأعادتها إلى والدته.

قال (لزوجته): «لقد حلفت يمينًا، اذهبي إلى أهلك!»، فذهبت إلى بيت أبيها.

قال أبوها: «اذهبي واجلسي في صدر البيت، ومن تتكلم عليك بسوء دوسي عنقها! وإذا ما أرادك، فليهيء بيتًا شرعيًا (أي منفصلًا.)!»»[18].

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) التي كانت غاضبة جدًا من زوجة ابن أخيها، إن زوجها هو الذي طردها. وقالت أيضًا إن الكلمات الدافئة التي استقبلها بها والدها لم تكن نابعة من حبه لها وحسب، وإنما أراد أن يغيظ أقارب زوجها بحسن استقباله لها. وكان أقارب زوجها يعيشون جميعًا في مكان واحد، وهو كهف جعلوه منزلًا لهم، وكان والدها يظن أن أقارب الزوج هم الملومون؛ إذ لم يحتملوها، وانتقصوا من قدرها، وأفسدوا ما كان بينها وبين

---

(18) انظر أعلاه في الصفحة 495 وما يليها من هذا الكتاب.

زوجها من وئام، لذلك ذكَّرهم بأن للزوجة الحق في حجرة منفصلة. وعندما تكلم على العدو الذي سيطأونه، كان يعني زوجة ابنه زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74])، وهي أيضًا أخت زوج ابنته.

وانتقمت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) لنفسها بحديثها الساخر عن العمل الشاق الذي كان على فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) أن تقوم به في بيت أبيها:

«في الصباح تحمل الغربال لتغربل التراب هي وفاطمة (ابنة خضر إحسين [40]، وزوجة علي سالم [70])»، وهي زوجة عمها الذي يحق له أن يستعين بها.

واختتمت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) روايتها كالآتي:

«ذهبت لتستريح في بيت أهلها، فاستقبلوها بالغربال وقربة الماء، أينما ذهب السَّل جمع (القمامة)، وأينما ذهب الكلب عوى (راحت لَدار أبوها تِسْتريح لقوها بِلموْخِل أُو إسطيح، وين ما راح إلسَّل جرف، أُو وين ما راح إلتَّشلب هَرَف)».

وياستشهادها بهذا المثل، أرادت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) أن تقول إن فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) كانت تعمل عملًا شاقًا أينما ذهبت؛ فهي من المسخَّرين، لا من المبجلين، حتى في بيت أبيها؛ فحمدية (ابنة سليمان سند [183]) تعتقد أن فاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) كانت أحسن حالًا عندهم في بيت زوجها، لكنهم لم يأبهوا، على أي حال، لغيابها. هذا ما قالته حمدية (ابنة سليمان سند [183]) التي كانت غاضبة جدًا من زوجة ابن أخيها.

وقالت الست لويزا: «نعم؛ ففاطمة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة عبد صالح [187]) ليست صغيرة ولا جميلة، وليس لها أولاد يشتاقون إليها، وزوجها لا يحبها، ولأنهم لا أرض لهم، لا يهمهم أغابت أم حضرت».

ثم أضافت تكلمُ حمدية (ابنة سليمان سند [183]) بنبرة مختلفة: «أما ابنة

أخيك زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) فأمرها مختلف تمامًا؛ فهي صغيرة وجميلة، وزوجها يحبها!».

وطربت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) لهذا المديح لابنة أخيها وأومأت برأسها موافقة، وبدأت تحدثنا عنها.

وسأعرض لرواية حمدية (ابنة سليمان سند [183]) هذه بعد بضع كلمات للتوطئة.

ذهبت قملة وعادت جملًا

إن السبب الحقيقي في عزم زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) على ترك بيت زوجها وعودتها إلى بيت أبيها، هو عدم انسجامها مع أبويه، ولا سيما حماها مصطفى سالم [69] الذي لم يكن يطيقها. والقصة الآتية كانت سببًا كافيًا لما فعلت.

كانت زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) حاذقة جدًا في تطريز الثياب، وجميع النساء كنَّ يطرزن مقدمات ثيابهن، والمال الذي تكسبه المرأة من الخياطة أو غيرها هو لها وحدها وليس لزوجها حق فيه[19]. ويومًا ما، أعطت زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) زوجها بعض المال ليشتري لها خيوط الحرير للتطريز، فلم يشتر شيئًا، ولم يرجع إليها المال.

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«طلبت زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) من زوجها أحمد مصطفى [74] الحرير، ولم يحضره لها، فسألته: «لماذا لم تحضر الحرير؟» قال: «لم أتذكر» قالت: «أعطني المال الذي أعطيتك، وسأرسل في طلب الحرير!» قال لها: «ليس لدي مال!» قالت: «ولكن ها أنت توزع المال، فقد أعطيت والدك خمسة عشر قرشًا، وأعطيت عمتك إطعيمة

---

(19) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 145f.

(ابنة سالم عِثمان [67]، وزوجة محمد خليل [171]) مجيديًا (أي عشرين قرشًا)» قال لها: «أنت تريدين خراب البيت يا امرأة!» قالت له: «أنت يغيظك أن أسألك عن أي شيء، ولكن هذا مالي!»، فضربها على رأسها، وذهب إلى عمله، عندئذ حملت ثيابها وذهبت إلى بيت أخيها».

تركت زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) بيت زوجها بينما كان في عمله كباقي الرجال الذين كانوا يعملون في مقلع الحجارة في طنطور بالقرب من بيت لحم. وعندما عاد إلى البيت، وجد زوجته قد غادرت، فحاول أن يعيدها.

وروت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي في فخر:

«بعد ذلك أرسلوا فاطمة (ابنة خضر إحسين [40]، وزوجة علي سالم [70]) لتعيدها، وذهبت ثلاث مرات، ثم أرسلوا محمد علي [75]، فقلنا له: «محال!» ثم جاء علي سالم [70] الذي يقال له الأميركي. وقلنا له: «سنعيدها إذا صالحها مصطفى سالم [69] (حموها)، ولن نعيدها ما داموا غاضبين منها!»، ثم جاء ابن مريم (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة أحمد خليل [172]) وتلقى الجواب ذاته. قلنا له: «عندما يصالحها الكبار!»».

وعندما فشل كل هؤلاء - أقارب أحمد مصطفى [74] المقربون - في إعادة زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) إلى زوجها، تحدث إلى بعض زملائه في العمل بهذا الشأن، فسعى بعضهم، من قرية شَرَفات الواقعة بالقرب من القدس، في الصلح بينه وبين عم زوجته خليل سليمان [185]؛ إذ كان عمها وأخوها المسؤولين عنها؛ لأن أبا زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) متوفٍ.

وتظاهر خليل سليمان [185] في البداية بأنه لم يعلم ما جاء بهم. هل جاءوا لخطبة ابنته الصغيرة مريم (ابنة خليل سليمان [185])، أم أنهم أرادوا ابنه الصغير عبد (ابن خليل سليمان [185])؟ فأحيانًا يطلب الناس صبيًا من أبيه ليرعى لهم الغنم.

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«بعد ذلك اصطحب أحمد مصطفى [74] رجالًا من قرية شَرَفات إلى خليل سليمان [185] الذي كان يعمل في مقلع الحجارة أيضًا. وقالوا: «نحن هنا لله ومن أجل ابنك الصغير (إحنا قاصدين لأ الله أو لإبنك إلزّغير)». قال: أهلًا وسهلًا! قولوا لي لماذا أتيتم؟! إذا كنتم تريدون ابنتي فأهلًا وسهلًا بكم، خذوها!» قالوا: «حفظ الله ابنتك وأهلها!»، فقال: «إذا كنتم تريدون ابني عبد خذوه! وليس عندي عرائس للزواج!» قالوا: «حفظك الله أنت وابنك!» فأجاب: أيها الرجال الطيبون ما الأمر! ماذا تريدون؟ هذا كل ما لدي (ابني وابنتي ولن أمنعكم أيًا منهما)». أجابوا: «حفظ الله لحيتك! نحن نريد زوجة هذا الرجل». قال لهم: «المرأة لها زوج واحد لا مئة زوج». قالوا له: «يا أبا عبد، ما فات مات (إللي فات مات)، نحن أولاد اليوم»».

ثم التفت رجال شَرَفات إلى أحمد مصطفى [74]، وقالوا له:

«ماذا تقول يا أحمد مصطفى [74]؟ قال: «ألبس الثوب الذي تخيطونه لي (ثوب إللي بِتفصلو علي بَلبِس)!» (أي أنا راضٍ بحكمكم). فقال خليل سليمان [185]: «عليك أن تبعد والدك وزوجته عن هذه المرأة!». أجاب أحمد مصطفى [74]: «دع أمر أبي وأمي لي، إذا تكلما معها فأنا سيفها!»».

وبعد أن توصل رجال شَرَفات إلى هذا، التفتوا إلى خليل محمد [176]، وهو رجل من أرطاس، وطلبوا إليه أن يسوي الأمر، فذهب مع بعض الرجال إلى بيت أبي زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) ليكلموا أخاها عبد [187]:

«قال رجال شَرَفات لخليل محمد [176]: «اذهب وأتِ بها يا خليل. إذا لم تأت الليلة، فسنعود ليلة الغد». وذهب خليل محمد [176]، وما إن دخل الحجرة حتى قال: «مساء الخير، أنا هنا لله ولأهل هذا البيت، صغارهم وكبارهم، أحياؤهم وأمواتهم (قاصد لأ الله أُو لَأهِل هالدَّار إزغار أُو تشبار أُو إللي في ثياب أُو إللي في إلتّراب)!». فقال عبد [187]، أخو زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]): «تكلم! إذا كنت تريد عليا

(ابنة صالح سليمان [184]) أهلًا وسهلًا بك! زيارتك تشرفنا». فقال: «أعزك الله وحفظك من كل سوء!»، وبسطوا له فرشًا، وبدأوا بالحديث وهم جلوس.

وجاءوا بالعشاء، ولكنه لم يأكل، وقال: «والله لن أتعشى، لن أذوقه حتى تدعو زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) تذهب معي»[20]. فقال عبد [187]: «سيكون لك ما تريد!» وقالوا له: «لقد أقنعنا عمها في المحجر». وأجاب عبد [187]: «المشكلة ستستمر (حماها وحماتها سيبدآن باحتقارها)»، فقال خليل محمد [176]: «هي في حمايتي (أي أنا المسؤول)! مهما يحدث أنا المسؤول!» وأخذها وذهب.

والآن، حماها وحماتها هادئان. «قط ملجوم (بِس أُو عليه لجام)»».

والغاية من رواية حمدية (ابنة سليمان سند [183]) واضحة؛ فقد حرصت أن تبين لنا أن ابنة أخيها حازت تأييد أهلها الكامل عندما لجأت إلى بيت أبيها لتعلي من شأنها في بيت زوجها؛ فلم يسمحوا لزوجها بأن يأخذها حتى تأكد لهم أن حماها وحماتها سيبدلان مسلكهما تجاهها.

وروت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) فاكهةً أن حما زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74])، مصطفى سالم [69]، بات عليه أن يطلب المال منها، فكما قال، هي التي تدير شؤون العائلة الآن.

«قال مصطفى سالم [69] لأخيه علي سالم [70]: «أتقرضني قرشين لأستعيد قدرًا لي من عند مبيض النحاس؟» فأجابه: «أليس لديك مال يا أخي؟» فقال: «نحن لا نتحكم بشيء؛ فقد جاءنا مدير يتحكم بنا». فذهب علي سالم [70] إلى زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) وقال لها: «يا ابنة أخي[21]! ألم يترك أحمد [74] مالًا من أجل القدر؟» قالت له: «لا»، والتفتت إلى حماها مصطفى سالم [69]، وقالت: «عسى أن ينهدم

(20) انظر أعلاه في الصفحتين 314 و315 وحاشيته من هذا الكتاب.

(21) انظر أعلاه في الصفحة 435 والحاشية الأولى من هذا الكتاب.

بيتك، ابنك لم يترك مالًا!»، فقال: «من أين آتي بالمال للقدر؟»، ويقول أهل القرية: «تبدل الغزل (إلغَزْله إتبدل)»؛ فهم لا يغضبون منها الآن مهما حدث».

فلم يعد والدا زوجها يجرؤان على التدخل في شؤونها.

وتقارن حمدية (ابنة سليمان سند [183]) في ما يأتي أيضًا بين سلوك مصطفى سالم [69] تجاه زوجة ابنه زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) في السابق وسلوكه تجاهها الآن. زينب (ابنة أحمد مصطفى [74]) هي ابنتها الصغيرة، والناس يستخدمون زيت الزيتون لقلي الزلابية:

«قال مصطفى سالم [69]: «فرغت علبة زيت الزيتون من أجل زينب (ابنة أحمد مصطفى [74])! كل يوم زلابية، كل يوم زلابية!»، بينما كان يقول في ما مضى: «يا ابنة النَّوَرْ، يا ابنة المتسولين! أبوك فلان مات ولم يجد كفنًا!»

الآن لا يقول شيئًا من هذا، لا نوَرْ ولا متسولين، ووالدها مات ووجد كفنًا».

وأضافت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) موضحة:

«إنه لإرباك عظيم عندما يموت أناس لا يملكون أكفانًا، كثير من الناس ماتوا بلا أكفان على الضفة الأخرى من نهر الأردن! كما هي حال النَّوَرْ».

وابتهجت حمدية (ابنة سليمان سند [183])؛ لأن مصطفى سالم [69] لم يعد يجرؤ على إهانة زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) وأقاربها الذين هم بالطبع أقارب حمدية (ابنة سليمان سند [183]).

وذكرت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) في ختام حكايتها مرة أخرى في فخر واعتزاز، كم من الناس تدخلوا من أجل إعادة زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) إلى بيت زوجها، وكان ذلك شرفًا لها ولأقاربها، وأظهر مكانتها في بيت زوجها:

«مكثت زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) عشرة أيام في بيت أبيها، وكان الناس يأتون ليلة بعد ليلة؛ ففي عشرة أيام، جاء خمسة يريدون إعادتها.

وفي حادثة سابقة، كانت زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) حردت أيضًا، وجاءت أخت زوجها، حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95]) لاصطحابها إلى البيت، فقال عمها خليل سليمان [185]: «إني لأرد شفاعة مئة رجل، ولكنني لا أرد شفاعة امرأة واحدة (بَكْسِر جاه ميه ولا بكسر جاه وليه)»».

ففي ظروف معينة، كما سنبين لاحقًا، قد تثني الناس على الرجل لإجابته طلب امرأة. وقد بين خليل سليمان [185] أنه سمح لابنة أخيه زريفة (ابنة صالح سليمان [184]، وزوجة أحمد مصطفى [74]) بأن تعود لزوجها؛ لأن الذي جاء يلتمس عودتها كانت امرأة.

عودة فاطمة علي

عندما كانت فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) حردانة في نيسان/ إبريل من عام 1930، أعادتها الست لويزا إلى زوجها، ودونتُ ملحوظة عن ذلك في مفكرتي.

ذهبنا أنا والست لويزا إلى بيت أبي فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) لزيارة زوجة أخيها المريضة. كانت زوجة أخيها، حلوة (ابنة علي خليل [173]، وزوجة أحمد علي [47])، في بؤس شديد؛ لأن طفلها مات في رحمها. وكانت فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) حردانة أيضًا في بيت أبيها، وعند مغادرتنا، أخذت الست لويزا بيد فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) المترددة وأعادتها إلى بيت زوجها، وظنت الست لويزا أن الجميع كانوا ممتنين لها؛ لأن والدي فاطمة كان لديهما ما يكفيهما من المتاعب، بوجود كنتهما المريضة.

وكان زوجها علي [173] يعمل خارج البيت، ورأى فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) وهي تتمنع وتتظاهر بأنها لا تريد الذهاب. وكان مسرورًا، لكنه لم يظهر ذلك، وواصل عمله، وكان هذا في أكثر أوقات السنة شغلًا، ولذلك، لا بد أنه كان سعيدًا باستعادة زوجته لتعينه في عمله.

وحردت فاطمة مرة ثانية في شهر آب/ أغسطس لفترة قصيرة، ثم حردت في شهر نيسان/ إبريل من عام 1931، للمرة الثالثة في سنة واحدة، وهذه المرة كان الأمر خطيرًا جدًا.

وعلمت بهذا عندما جاءت لتراني في الثامن عشر من شهر نيسان/ إبريل، وسألتها عن سبب تركها زوجها، فأجابت: «إنه غاضب لأنني لا أنجب أطفالًا، وهو يضربني، وماذا يمكنني أن أفعل؟ لم يشأ الله أن يرزقني (يطعمني) أولادًا[22]. مسكينة أنا، ربما كان علي أن ألقي بنفسي في البِرَك»، ولكنها لم تعنِ ذلك حقًا.

وبعد ذلك بأيام، في الثالث والعشرين من شهر نيسان/إبريل، جاءت عيشة (زوجة علي خليل [173])، وزوجة علي خليل [173] الثانية، لزيارتنا. وسأقتبس الآتي من مفكرتي:

سألتها هل عادت فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، فقالت عيشة (زوجة علي خليل [173]): «لا، ضرتي ما زالت في بيت أبيها. لقد مضى على وجودها هناك خمسة عشر يومًا حتى الآن، وكانت قد تشاجرت مع علي [173] بشأن الأطفال - عيشة وزوجة ابنها، كلتاهما لديهما أولاد - فقد جاء علي [173] إلى البيت غاضبًا وتسرع بالتلفظ بكلمات، فخرجت مسرعة حتى أنها لم تترك وراءها سوى بولها، وذهبت مغضبة إلى بيت أبيها»؛ فقالت الست لويزا: «ولكنكم ستعيدونها بالتأكيد قبل العيد الكبير». ولم يكن بقي للعيد الكبير للمسلمين سوى بضعة أيام؛ فقالت: «بودنا أن نعيدها اليوم!».

ولأن عيشة (زوجة علي خليل [173])، ضرة فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) قالت ذلك، حسمت الست لويزا أمرها على عجل؛ فقد ظنت أن من الخير أن نعيدها إلى زوجها. وذكرتنا الست لويزا كيف نجحت في إعادتها قبل سنة عندما حردت إلى بيت أبيها؛ فقالت عيشة (زوجة علي خليل [173]): «نعم! افعلي ذلك! أعيديها لنا!».

---

(22) في ما يتعلق بهذا التعبير انظر أعلاه في الصفحة 370 وما يليها من هذا الكتاب.

وأخذت الست لويزا تستعد للخروج في جولة في القرية، وسنحاول الآن أن نعيد فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) إلى زوجها. وكانت الست لويزا تعرف جيدًا ما ستقول؛ ينبغي علينا أن نبادر أباها بالإطراء فنقول: «البيت كالغربال في غياب فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، فقد عمت الفوضى كل شيء. أعنا لنعيد البيت إلى سيرته الأولى - بيت المختار (أي زعيم القرية)»، وأضافت: «إنه لأمر طيب عند الشرقيين، أنهم يسعون دومًا في الشفاعة وإصلاح ذات البين».

وعندما مضينا في سبيلنا إلى بيت علي أسعد [42]، لقيتنا فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، فقالت الست لويزا: «نود زيارة أبيك»، فأجابت: «هو ليس في البيت الآن»، قالت الست لويزا: «هل لنا أن ندخل ونجلس؟» قالت: «أهلًا وسهلًا!».

وما إن جلسنا على فرش بالقرب من النافذة، حتى بدأت الست لويزا بالكلام، وقالت: «بيت شريكي خرب. وهم في حاجة ماسة لفاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) لتصلح من شأنه. أرجوك تعالي!». علي خليل [173] يتولى العناية بجبل فيه أشجار بلوط، تملكه الست لويزا هي وعائلة بالدنسبيرغر، ولهذا فهي تدعوه شريكها، وترجو زوجته أن تعود إليه مرة أخرى.

وأجابت فاطمة: «أريد أن أقضي العيد الكبير بصحبة أبي». قالت الست لويزا: «هذا ليس مكانك، مكانك في بيت زوجك». وأجابت فاطمة: «بيت أبي خير منه». وكان بعض الجيران إذ ذاك جاءوا يستمعون إلى حديثنا باهتمام. وقالت الست لويزا مرة أخرى: «تعالي معي!»: «لا! ليس الآن، لا يليق هذا في غياب أبي». «ومتى سيعود؟ في المساء؟»، «لن يعود اليوم، ولا غدًا»، «وأين هو؟» «إنه في القدس ليشتري خروفًا للعيد»، ولكننا فهمنا من أمها أنه سيعود اليوم. وقالت فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) التي كانت جاءت أيضًا: «اذهبي! اذهبي من أجل الست لويزا والست حليمة!». فقالت الست لويزا: «أشعر الآن بأنه لا يليق أن آخذ فاطمة (ابنة علي أسعد [42]،

وزوجة علي خليل [173]) في غياب أبيها»، وقالت لأمها سلمى علي (زوجة علي أسعد [42]) ونحن في طريقنا إلى الخارج: «ولكن أخبرونا عندما يعود أبوها لنكلمه».

وعندما خرجنا، بادرنا الناس الجالسون أمام بيوتهم بقولهم: «اذهبوا إلى حلوة الحجّة[23] (ابنة خليل شحادة [170])، وهي أخت زوج فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، وعندما مررنا ببيتها، أرادت أن تعرف ما كان من أمر فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، وقالت: «أعيداها إلى زوجها!»، فقالت الست لويزا: «لم يكن أبوها في البيت، أخبرينا عندما يعود!».

عدنا إلى البيت، وجلست للكتابة؛ فلم تلبث أن جاءت ابنة زوج حلوة الحجّة (ابنة خليل شحادة [170]) وقالت: «أبوها الآن هناك». «سوف نأتي حالًا». هيا بسرعة! فهو سيخرج مرة أخرى! تعاليا حالًا!».

ولم نلبث أن كنا في طريقنا إلى هناك، وعلمت القرية كلها بمهمتنا، ورأتنا فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) مقبلتين، وكانت تدخل ثم تخرج لتذكي النار لطعام العشاء. وكان أبوها علي أسعد [42] في البيت، وقال في الحال: «لن تذهب قبل العيد». وقالت لي الست لويزا: «لكي لا يبدو أن والدها حملها على ذلك من أجل العيد»، ثم تبين أن على الزوج أن يرسل في طلبها؛ إذ لا يليق أن تعود فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) من أجل كلمات قالتها ضرتها وحسب. وحسم علي أسعد [42] الأمر بقوله: «ربما تعود بعد العيد، إذا أرسل الزوج، وقال إنه يرغب في عودتها».

وتحدثنا في أمور أخرى لبعض الوقت، ثم عاد أبوها فقال إن زوجها شبهها بالبغلة التي لا تخلف إلا الروث، وفسرت الست لويزا ذلك لي قائلة:

---

(23) حتى عام 1927 كانت حلوة (ابنة خليل شحادة [170]) هي الوحيدة في القرية التي ذهبت إلى مكة حاجة.

«البغلة لا تلد»، وقالت لعلي أسعد [42]: «هذا إثم»، فقال عن زوج ابنته: «هو يقرأ القرآن، وينبغي أن يعلم أن الله هو الذي يهب الأولاد للمرأة، ماذا بوسعها أن تفعل هي؟».

وصرف علي أسعد [42] أولادًا جاءوا إلى البيت يتسقطون الأخبار. وكان رجل من القرية جاء أيضًا وجلس هناك، كما جاء أولاد علي خليل [173] الصغار وابنه لرؤية فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) وهي ليست في بيتهم.

وكان علينا أن نغادر من دون أن ندرك غايتنا. وعلى أي حال، عبرت الست لويزا عن تعاطفها مع فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) وآستها في محنتها، وأثنت على حكمة أبيها الذي كان حزينًا من أجلها.

وفي هذه المرة أيضًا، مررنا بالقرب من بيت حلوة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170])، وأرادت أن تعلم ما خلصنا إليه. وسألت: «لمَ لمْ تعيدوا فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])؟»، ثم علمت بما قاله أبوها عن زوجها من أنه أساء إليها وأهانها، وأرادت حلوة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170]) أن تعلم المزيد عما قاله علي أسعد [42]، فقالت الست لويزا: «قال إنه يمكنها أن تعود بعد العيد الكبير، ولكن ليس بناءً على كلام النساء، فلن تعود إلا إذا أرسل زوجها في طلبها». قالت حلوة إلحجّة (ابنة خليل شحادة [170]): «هذا حق، لقد نطق علي أسعد [42] حقًا بما يقتضيه القانون (إلقانون)». وقالت مرة أخرى: «هذا حق، فإذا عادت الآن، يمكن لزوجها أن يقول: «ومن طلب منك أن تعودي؟»؛ فمما لا شك فيه، أن على الرجل أن يبادر بنفسه إلى استعادتها».

وفي طريقنا، التقينا نفيسة (ابنة اسْمَعين [51]، وزوجة محمود عِثمان [32])، وقالت: «ألم تعيدا المرأة الحردانة؟» فذكرت لها الست لويزا ما قاله علي أسعد [42]، وقالت هي أيضًا: «هذا هو القانون، على الزوج أن يرسل في طلبها».

وسيكون من الشائق أن نرى ما سيؤول إليه هذا، والآن تعلم القرية كلها أننا بذلنا ما في وسعنا لإعادة السلام إلى بيت علي خليل [173].

«هنيئًا لفاعل الخير (نيالِه إللي بِسوِّي إلخير)!»، كان هذا ما قالته العجوز نفيسة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة محمود عِثمان [32]) عن زيارتنا إلى بيت علي أسعد [42]. وقالت الست لويزا: «إنهم ليقدرون حقًا ما تجشمناه من عناء في سبيل هذا[24]. إنه شرف عظيم لهم».

وهذا ختام ملحوظاتي عن ذلك اليوم، الثامن عشر من شهر نيسان/ إبريل. وفي السادس والعشرين من شهر نيسان/إبريل دونت الملحوظات الآتية في مفكرتي:

لقد عدنا للتو من نزهة مسائية؛ فقد أرادت الست لويزا أن تذهب إلى القناة[25]، ولم يكن لدي ما يمنعني من مرافقتها، ولم نبتعد كثيرًا في الجبل عندما لاحت لنا فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) من بعيد، فوقفنا وسألناها: «هل من جديد؟» - «لا شيء إلا الخير (بس إلخير)!»[26] - «ماذا؟ هل عدت إلى زوجك؟» فأومأت بالإيجاب. «وكيف حدث هذا؟» عندئذ روت فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) كيف جاء ابن زوجها الكبير محمد [179]، وقال إنه يريد أن يعيدها إلى والده. وقالت: «أبدًا!»، فتحدث إلى والدها، ثم أمسك بيدها ورفعها على ظهره وحملها وخرج بها من بيت أبيها. وبعد أن مشى بها هكذا مسافة قصيرة، قالت: «لا تفعل هذا، هذا مخجل». فأنزلها وذهبا معًا إلى بيت زوجها، فقالت لها الست لويزا: «والآن، لا بد أنك أعدت الأمور إلى نصابها»، فقالت: «نعم، لقد ذهبت إلى النبع وجلبت الماء، وبدأت أعد العدة للعيد. ولا شك في أن

(24) انظر: Charles Doughty, *Passages from Arabia Deserta*, selected by Edward Garnett (London; Toronto, 1931), p. 67.

(25) تنقل القناة الماء من برك سليمان إلى القدس.

(26) كانت هذه هي إجابة عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) المعتادة، كلما غبت عن القرية وسألتها عما حدث في غيابي.

ابنه محمد [179] أراد عودتك أيضًا من أجل أولاده؟» فقالت فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]): «بالطبع، أطفاله الصغار جاءوا إلي عندما كنت في بيت أبي». وأنا كنت أعلم ذلك؛ فقد كنت رأيت زينب بنفسي، وهي ابنة محمد [179] الصغيرة؛ إذ جاءت إليها عندما كنت في زيارة لبيت أبي فاطمة الخميس الماضي. وقالت لها فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) إذ ذاك: «انظري إلي يا زينب، تعالي!» وكانت سعيدة جدًا بها. وإلى هذا، فهم في حاجة إلى مساعدة فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) في بيت زوجها؛ لأن العمل الشاق يبدأ الآن. فحال انتهاء العيد، يبدأ جمع الكرسنة[27]، وهذا عمل النساء. فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173])، وابنة زوجها، وزوجة ابنه سيخرجن لهذا العمل.

وأعربت الست لويزا عن سرورها لعودة فاطمة (ابنة علي أسعد [42]، وزوجة علي خليل [173]) قبل العيد، وتبعناها بأنظارنا هنيهة وهي ذاهبة بملابس العمل تحمل كيسًا على رأسها لتجلب الشعير للبهائم، وقد عادت سعيدة مرة أخرى. وعندما مضينا في سبيلنا، قالت الست لويزا: «نعم، نعم، يختلف الأمر كثيرًا بالطبع عندما يقومون به بأنفسهم عما يكون عليه عندما نأتي نحن بكلماتنا «الأوروبية»». ثم أضافت: «لا بد أن تكون المبادرة من الزوج، وإلا فقد يقول: «ماذا تفعلين هنا؟ من طلب منك أن تعودي؟»».

وفي هذه الحالة تحديدًا، يتجلى أن عودة الزوجة إلى بيت زوجها ينبغي أن تأتي بمبادرة منه هو[28] من دون سواه، وأتيح لي في هذه الواقعة الحرجة أن أشاهد عن كثب المراحل المختلفة لعملية إعادة المرأة إلى بيت زوجها، وملاحظة القلق الذي عانى منه المعنيون بالمسألة.

(27) الاسم العلمي للكرسنّة هو (Vicia Ervilia). انظر: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I (Gütersloh, 1928), p. 403.

(28) يروي موسل في: Musil, *The Manners and Customs*, p. 235f., عن الصعوبات التي تواجة الزوجة عند بدو الرَّوَلة إذا تركت زوجها وكان غاضبًا جدًا فلم يرسل في طلبها.

وبالطبع، فإن تحسن أحوال المرأة عندما تكون حردانة رهن بحسن تصرفها، وبالدعم الذي تناله من أهلها؛ فهم يقعون في الحرج إذا كانت ابنتهم هي المخطئة. وكما ذكرنا سابقًا، كثيرًا ما يحملهم هذا الأمر تكاليف باهظة؛ إذ ينبغي أن يولموا للزوج، أو لشفعائه الذين يرسلهم، فيما هم يتباحثون في أمر عودة الزوجة.

ولا تستطيع المرأة التي تتزوج في قرية بعيدة أن تتخذ خطوة كهذه بسهولة. ورأينا سابقًا أن من حسنات زواج الرجل من امرأة غريبة، أن أهلها لا يستطيعون أن يتدخلوا في شؤونه العائلية بسهولة(29)، إلا أنهم يأتون أيضًا، إذا بلغهم أنها تعيسة، أو أنها تتلقى معاملة سيئة. وهكذا فعل إخوة سارة مصلح (زوجة خليل إبراهيم [3])؛ إذ جاءوا من صُورِيف لمعالجة الأمر بعد أن هجرها زوجها سنوات عديدة. وبعد وقت قصير من مغادرتي لأرطاس للمرة الأولى (عام 1927)، كتبت إلي الست لويزا تقول إن الحوادث المهمة في القرية كانت الزلزال الكبير، ومجيء إخوة عيشة الشَّمالية (زوجة محمد خليل [99]) من سلواد في شمال البلاد، على الرغم من المسافة، لتدبر أحوال شقيقتهم، عندما بلغهم أنها ضربت في بيت زوجها، فإن الإخوة لا يستطيعون أن يقدموا الدعم نفسه إلى أختهم في حياتها اليومية إذا كانت على مسافة بعيدة منهم.

وهناك، على سبيل المثال، حالة فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35])؛ ففي أواخر فترة إقامتي الأولى في القرية، عندما اضطر محمد محمود [35] فجأة إلى رد ما اقترضه من مال إلى دائنيه، وورطَ حميه من أرطاس في ما نزل به من مصائب، جنحت أمه إلى اتهام زوجته الثانية فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35])، كما ذكرنا سابقًا، بأنها كانت السبب في ذلك. وعندما عدت إلى فلسطين، قيل لي إن أخوة فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) جاءوا من أبو ديس إلى أرطاس حالما سمعوا بهذا، للوقوف على حقيقة الأمر، وإنصاف شقيقتهم.

---

(29) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 93f.

ووجد أهل أرطاس سلوك فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) رائعًا، وفازت بتأييد الناس في القرية، لأنها لم تفكر في نفسها وحسب، بل فعلت ما في وسعها لتكتم حال زوجها البائس الفقير عن أهلها. وكانت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، شديدة الإعجاب بفاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35])، وردت مسلكها إلى انتمائها إلى عائلة نبيلة، ذات أخلاق نبيلة؛ فقد أوصاها والدها محمد إلعَرَقات، عندما غادرت بيتها عروسًا، بأن تقاسم زوجها مصيره بلا تذمر، حتى وإن بات فقيرًا لا يجد سقفًا يظله، أو بيتًا يؤويه، فسكن في (طابون)، والطابون كوخ صغير من الحجر يخبز به الخبز.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«إذا نام في الطابون، نامي معه هناك. على الغريب أن يتسم بالحشمة، فلا يسرق ولا يقرب بساتين الناس أو أي جزء من أملاكهم، وإذا سمع كلمة عليه أن يطرحها وراء ظهره».

وفسرت ست لويزا العبارة الأخيرة كالآتي:

«يجب أن لا يلتفت إليها، ولا يرددها، حتى لا تكون فتنة».

ويشبه هذا مقولة استشهدت بها عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«المرأة الغريبة بحاجة إلى ثوب يجر على الأرض[30]	(إلغريبة بدها ثوب يجر
وخابية ملأى	أو الخابية تهُر
ورجل قوي»	أو زلمة مُر)

ولدي ملاحظة في مفكرتي في الحادي عشر من نيسان/ إبريل من عام 1931 تقول إن فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) كانت قد رافقت الست لويزا إلى بيت لحم في اليوم السابق. ودونت فيها الآتي:

وروت لي الست لويزا لاحقًا الحديث الذي دار بينها وبين فاطمة إلعَرَقات

(30) انظر الصفحة 401 من المصدر نفسه. وانظر أعلاه في الصفحة 74 من هذا الكتاب.

(زوجة محمد محمود [35]) في الطريق. قالت الأخيرة إن عمتها - وليست ضرة أمها - تولت رعايتها بعد وفاة أمها؛ فقد كانت تحممها وتمشط شعرها وتطبخ لها. وعندما تزوجت فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) وجاءت إلى أرطاس، نصحتها عمتها كيف تتصرف في مكان غريب، مهما تصرف الناس بحمق، «حتى وإن صنعوا من الطين خبزًا، افعلي ما يفعلون؛ أي من غير انتقاد! ومهما حدث، كوني قنوعة! ولا تدعي أحدًا يعلم ما يحدث في بيت زوجك!».

وعندما نزلت بزوجها تلك النازلة الشديدة، وخسر كل ما يملك، ثم علم إخوتها بأنها كانت في عوز وبؤس، جاءوا إلى أرطاس ليقفوا على حقيقة الأمر، وسألوها: «ألك حاجة يا فاطمة؟ أجابت: «لا، لدينا كل شيء، لدينا سمن وعسل، وزيت وزيتون، لدينا كل ما نحتاج إليه». وبسلوكها هذا، وكلماتها هذه، اكتسبت عطف الناس واستحسانهم؛ فقد دافعت - وهي ذاتها غريبة - عن أحد رجالهم إزاء الغرباء، وحفظت بذلك كرامة القرية. كما حاولت أن تحافظ على كرامة زوجها في أعين الناس في القرية. وروت للست لويزا، أنها كانت تمشي حاملة سلة مغطاة بطبق، ليظن الجيران أنها تحمل خبزًا في سلتها، مع أنها كانت فارغة؛ فالنساء يخبزن خبزهن كل يوم في الطابون، ثم يحملنه على رؤوسهن إلى البيت. ومع أنه لم يكن لديها إلا الماء لتضعه في القدر - النساء يطبخن خارج البيوت - كانت توقد نارًا وتترك الماء يغلي في قدر مغطاة ليظن الناس في القرية أن لديهم طعامًا للعشاء، وفعلت ذلك كله حتى لا يشمت الجيران بزوجها ويسخرون منه، فاجتمع أهل القرية على قول واحد فيها: «إنها امرأة نبيلة (هي أصيلِه)».

وليست فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) امرأة نبيلة وحسب، بل هي حكيمة أيضًا، تعرف كيف تحمي نفسها في غربتها. وإذا كانت حياة المرأة الغريبة شديدة وقاسية، فهي تعلم أن حياتها هي أشد وأقسى؛ فقد خسر زوجها كل شيء، كما أن له زوجة أخرى من القرية. ولو فعل إخوتها الآن ما يقتضيه واجبهم، فطالبوا بحقوقها التي لا يستطيع زوجها أن يلبيها لشدة فقره، لاضطرت، في نهاية الأمر، إلى العودة معهم وترك زوجها وأطفالها. ولهذا

دافعت عن زوجها أمام إخوتها، وأنكرت فقره والنازلة التي نزلت به؛ فقد كان هذا هو السبيل الوحيد لتفادي كارثة ما كانت لترغب فيها هي، ولا إخوتها، ولا زوجها، ولا أقاربه، ولا الناس في القرية. وهي تستحق أشد الثناء لما فعلت، ولأنها حاولت أن تكتم فقر زوجها عن أهل القرية. ومن مُثل العرب، أن يكون للمرء من الكبرياء ما يمنعه من التذمر في الشدائد والمحن، لكي لا يشمت به الأعداء. ولم يكن الزوج ليدع امرأة صالحة كهذه تتركه، ويُعد أخوتها وأقاربها محظوظين، لوجود امرأة نبيلة مثلها فيهم. وبفوزها بعطف الناس وإعجابهم على هذا النحو، بحسن تصرفها، نالت فاطمة إلعَرَقات (زوجة محمد محمود [35]) أكثر مما كانت ستنال لو أنها تركت الأمر لإخوتها، وإن كان حضورهم قد ترك أثرًا طيبًا عند الناس.

وإذا ما غادرت امرأة من أرطاس قريتها لتتزوج رجلًا غريبًا، فهي تنصح كذلك بالآتي[31]:

«صوني نفسك في غربتك بين أقارب زوجك! حبل أهلك شعرة (أي ضعيف)، وحبل زوجك من حديد (أُستري حالتش في غربتش مع عيلتش، قيـد الأهل غُمّة أو قيد إلجوز حديد)!».

وعلى الرغم من هذا، فقد رأينا أن كثيرًا من النساء اللاتي تركن أزواجهن وعدن إلى بيوت آبائهن كن متزوجات في أماكن أخرى: كالخَضْر، وبيت لحم، ولِفتا، وما إلى ذلك؛ فقد لا تملك المرأة إلا أن تستجيب لإغراء اللجوء إلى دعم أبيها أو إخوتها إذا كانت حياتها بائسة، ولم تستطع تحمل بيت زوجها.

المرأة المقطوعة

إذا لم يكن أبو الزوجة أو أي من إخوتها في قيد الحياة، فلن يتسنى لها الخروج من محنتها باللجوء إليهم؛ فهي عندئذ امرأة مقطوعة (قطيعة)،

(31) في ما يتعلق بالنصيحة التي تعطى للمرأة التي تذهب كعروس بين غرباء، انظر أعلاه في الصفحتين 378 و379 وما يليها من هذا الكتاب.

وحالها يرثى لها؛ إذ ليس ثمة من يصون حقوقها، وعلْم الناس بذلك يحط من مكانتها في بيت زوجها[32]. وبالطبع، لا يلزم أن يتدخل أبو المرأة أو إخوتها فعلًا؛ فمجرد معرفة الناس بوجودهم واستعدادهم لنصرة ابنتهم أو أختهم إذا اقتضى الأمر ذلك، يوقع المهابة في صدورهم، ويضمن للمرأة مكانتها في بيت زوجها، كما أنها تكون أكثر شجاعة وحزمًا لعلمها أن بإمكانها أن تركن إلى أبيها وإخوتها.

وهذا يفسر المثل الذي يقول:

«إذا كان لك رجال (في صفك) تقدمي وتكلمي!	(إلتش إرجال تقدمي وِحْتشي
وإذا لم يكن لك رجال، تأخري وابكي»	ما إلكيش رجال توخري أو إبتشي)!

والرجال هنا هم الإخوة، فهم الحماة الطبيعون للمرأة، وليس الزوج.

زوج المرأة وأخيها

أذكِّر القارئ هنا بالكلمات الجميلة الذي يقولها الإخوة عندما تغادرهم أختهم عروسًا:

«لها بيت أبيها، ولا يستطيع أحد أن يدوس على حاشية ثوبها (أي يهينها). عسى أن تكون أمورك كما تتمنين. لحانا على كيسك، أي لك ما لنا. نحن جِمالك (أي سنحمل أعباءك وأحزانك)؛ (إلها دار أبوها ماحدا بيقدر يخبط عَطرفها مرحبابتش، لحانا على تشيستش إحنا جمالتش)!»[33].

لا بد للمرأة من أن تترك بيت أبيها لأداء مهمتها في إنجاب الأطفال لهذا العالم؛ فهي تضطر إلى مغادرة بيتها لتعمر بيتًا غريبًا، هذا هو الجانب البائس من قدرها في الحياة، ولا يخفف عنها شيئًا من ذلك إلا أن تتزوج أحد أقاربها القريبين من بني عمومتها، كما أنه لا بد لها من الزواج لتحصن نفسها. فعلى

---

(32) انظر: Hilma Granqvist, «Aus dem Erzählungsschatz palästinischer Bauernfrauen,» *Palästinajahrbuch*, vol. XXIII (Berlin, 1927), p. 125ff.

(33) انظر أعلاه في الصفحة 379 وما يليها من هذا الكتاب.

الرغم من أن بيت أبيها يبقى هو بيتها الحقيقي، فإنها لا تأمن فيه أذى الناس أبدًا، سواء أكانت فتاة صغيرة في بيت أبيها أم امرأة متزوجة تركت بيت زوجها أم مطلقة أم أرملة؛ فالمرأة لا تأمن القيل والقال، وما تنفك سمعتها في خطر، ما لم يكن لها زوج؛ فإذا ما ارتاب الناس فيها، وقعت في حرج شديد، وكم من امرأة بريئة فقدت حياتها لما لهجت به ألسن الناس من شر؛ إذ لا يمكن تطهير بيت أبيها في حالة كهذه إلا بالموت. فهي في حاجة إلى زوج يكون سترًا لها، والتعبير المستخدم في مثل هذه الحالة: «إلزَّلمة سُترة»[34]، أي حماية، أو غطاء، أو حجاب، ويقال أيضًا إن الزوج ثوب[35] تلبسه المرأة أو تخلعه، أو يخلعها هو، أما الأخ فهو الحاضر دائمًا.

ويقول المثل:

«الزوج كالثوب عندما يكون مستعارًا! والأخ، أيتها الشقية - يا الله! - هو ذخر لك. وإذا احتاجت النساء شيئًا، وجدت أنت (في أخيك) ذخرًا لك (إلجوز مثل إلثّوْب لَن كان عيرة، وِلخَيْ، يا قَشْرة، يا الله ذخيرِة إن إعتازت إلنِّسوان تِلْقي إلذَّخاير)».

ولهذا يقال إن المرأة إن ما سئلت مَن تريد أن تحرر من الخدمة في الجيش - وهي في نظر الفلاحين كالموت تمامًا[36] - زوجها، أو ابنها، أو أخاها، اختارت أخاها.

---

(34) انظر أعلاه في الصفحة 460. يستخدك شميت وكاله في: Schmidt and Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, p. 90f., 209, and Eberhard Baumann, «Zur Hochzeit geladen,» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, VI (Berlin, 1908), p. 127f.

عبارة: «الزواج حماية (إلجيزة سُترة)!». انظر في هذا أيضًا:

(35) انظر: Julius Wellhausen, «Zwei Rechtsriten bei den Hebräern,» *Archiv für Religionswissenschaft*, vol. VII. (Leipzig, 1904), p. 41,

«للتعبير عن العلاقة بين الزوجين انظر الآية 187 من سورة البقرة؛ فالمرأة لباس الرجل، والرجل لباس المرأة». انظر أيضًا أعلاه في الصفحة 388 وحاشيتها من هذا الكتاب.

(36) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 58, 59, 142.

«الزوج يمكن الحصول عليه دائمًا. والولد يمكن أن يولد. ولكن، (إن مات أخوها) فمن أين لها بأخ عزيز يعود (الجوز موجود، إلولد مولود، إلأخ إلعزيز من وين يِعود)؟»[37].

ويعبر الفلاحون عن الحب بين الأخ والأخت بأساليب جميلة ولافتة؛ فهم يرون أن هذا الحب أجمل من الحب بين الرجل وزوجته؛ فهو لا ينبع من شغف حسي، وهو كأي حب حقيقي صادق، يبنى على أسس واقعية، لا على نظريات فارغة.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«هكذا هي الحال دائمًا؛ فمن يبادل بأخته، عليه أن يلبي رغباتها، وأن يقدم لها الهدايا (في العيد الكبير) دائمًا (دايمًا إللي بِبَدِّل بِشوف خاطرها، أو دايمًا بِعايِدها)».

وهذا صحيح، سواء استبدل الأخ بأخته عروسًا، أم دفع مهرها مهرًا لعروسه. وتلزم الأخ واجبات تجاه أخته في المستقبل، ولا سيما ذلك الأخ الذي حصل على عروس مقابلها.

ويقول الرجل، بحسب ما قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

هذه شقيقتي، وستحاسبني غدًا في الآخرة، أما زوجتي وأولادي فلا (هاذي شقيقتي بكرة بتحاسبني في الآخِرة، ولكن أُولادي أُو مرتي لا)».

ويبين هذا الأهمية التي يوليها الرجل لواجباته تجاه أخته؛ فهما مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، وواجباته تجاهها أعظم من واجباته تجاه زوجته وأولاده، ولها أن تلوذ به حتى من زوجها. وفي ما يأتي مثال آخر على ما تجده المرأة عند أخيها من حماية وعون:

ليس للمرأة أن تقسم يمينًا، وإذا طُلب منها ذلك، يقسم عنها أخوها، وليس زوجها.

(37) انظر أيضًا: Granqvist, «Aus dem Erzählungsschatz palästinischer Bauernfrauen,» *Palästinajahrbuch*, p. 127f.

ورووت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي عن امرأة اتهمت بالسرقة:

«النساء لا يقسمن. الرجل يقسم عن أمه، وأخته، وابنة أخته
(نسوان ما إلهم يمين، إلزّلمه بحلف عن إمّه، أخته، بنت أخته).

الرجل يقسم عن أخته. يأتي (إليها) ويجلسان معًا في خلوة، هو وهي. ويقول: «يا أختي أنا جملك، أو لا تظنين أنني كنت لأبذل من 10 جنيهات إلى 100 جنيه من أجلك؟ تكلمي! لن يعلم أحد بما تقولين!» ويحدث هذا في طي الكتمان».

ثم يرجوها أخوها أن تتذكر فداحة القسم، وسوء العاقبة له ولعائلته ولها إن هي دفعته إلى حلف يمين كاذبة.

«ستحملين إثم أولادي وعائلتي، وستصبحين مقطوعة؛ لأنني سأجلب اللعنة على نفسي وعلى عائلتي، وسأموت وستفنى عائلتي، ولن يبقى لك أحدا»

فتجيب هي: «فليكن الإثم في عنقي وعنق ابني! الذي ليس لي غيره (تقول هذا إن كان لها ولد)، فاذهب يا أخي في زيارة [لمقام أو ضريح أو غيره] ثم أقسم!».

وهي تقول هذا إذا كانت بريئة، ويطمئن الأخ بعد استجوابه لها إلى الإقدام على حلف اليمين نيابة عنها، واستعداد الأخ لاتخاذ خطوة خطيرة كهذه يبين للناس أنها بريئة من السرقة التي اتهمت بها. فمن واجب الأخ إذًا أن يبرئ شرف أخته، وإذا كانت مذنبة، يتولى إخوتها تسوية الأمر مع المتضررين.

وإذا ما ارتكبت المرأة المتزوجة خطأً أو ذنبًا، أو حتى إذا حامت الشكوك حولها وحسب، فإن تسوية الأمر تقع دائمًا على عاتق الأب أو الأخ، ولا يتأثر الزوج بشيء من ذلك[38]، ويؤكد هذا أيضًا أنها لم تزل تنتمي إلى بيت أبيها.

---

(38) انظر: Musil, *The Manners and Customs*, p.494,
«تثقل المرأة المتزوجة أكثر ما تثقل على أخيها، ومن هنا جاء المثل: 'أخو المتزوجة أبعد ما يكون عن خيرها، وأقرب ما يكون لشر اقترفته!... ولهذا، إذا ارتكبت جريمة قتل، يعد الأخ شريكها الرئيس. =

وتركن المرأة إلى تأييد أهلها لها؛ لهذا فضلت حلوة علي (ابنة علي خليل [173]، وزوجة أحمد علي [47]) أن تجازف بالانفصال عن زوجها على أن تعصي أمر أبيها بالعودة إلى بيته[39]، فتصبح مقطوعة (قطيعة)؛ فقد هددها بالقطيعة من بيته وأملاكه مدى الحياة إن هي لم تطعه. وكان علي خليل [173] هو أيضًا الذي أصر على أن تأخذ ابنة أخيه المتوفى عند زواجها ما تحتاج إليه من بستان أبيها ما دامت حية، وزاد في أهمية ذلك أنها تزوجت يتيمًا لا أرض له[40].

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«للأخت حق في أملاك أبيها ما دامت حية (الأخت إلها حق في رزق دار أبوها كل العمر).

وعندما سألت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ألا تأخذ المرأة حصتها من الإرث؟ قالت جادةً: «عندئذ لا يكون لها حق في بيت أبيها!».

ولربما كان حق المرأة في اللجوء إلى بيت أبيها، وشعور إخوتها بواجباتهم تجاهها، مرتبطًا بنصيبها في الميراث، ويستند «حرد» المرأة في جوهره إلى أن بيت الأب يبقى دائمًا بيت المرأة الحقيقي.

ويؤمل أن تجرى قريبًا دراسات في أماكن أخرى، تسلط الضوء على مسألة المرأة «الحردانة»، والتي لها جوانب مهمة عديدة، من أهمها علاقتها بالطلاق.

= وسيفر أهلها، بينما تبقى هي آمنه عند زوجها، إلا إذا طلقها... وكذلك إذا قتل أحدهم امرأة متزوجة، فإن من واجب الأخ أن ينتقم لها، بينما يطلب الزوج تعويضًا». ويشير البرغوثي للأمر نفسه في: El-Barghuthi, «Judicial Courts among the Bedouin of Palestine,» in: *Studies in Palestinian Customs and Folklore*, p. 25,

«خير المرأة لزوجها، وشرُّها على أهلها (خير إلمرة لجوزها وشرَّها على أهلها)».

(39) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 117.

(40) انظر الصفحة 90 من المصدر نفسه.

الفصل العاشر
الطلاق

المشهور عن الطلاق في البلاد العربية والإسلامية أنه صورة منقوصة للواقع؛ فقد اعتدنا بحث الجانب النظري من المسألة بالتركيز على حق الرجل الشرعي في أن يطلق زوجته في أي وقت، ولأي سبب كان، بتلفظه بكلمة الطلاق ليس إلا، كما اعتدنا مقارنة ذلك بافتقار المرأة لمثل هذا الحق، ورأينا فيه دليلًا واضحًا على حرمان المرأة التام من أي حقوق، واعتمادها الكامل على منة الزوج وفضله[1]. غير أن هناك حقائق أخرى، لا يستهان بها، تضبط حق الزوج الشرعي في الطلاق وتحد منه. ولهذا، إن أردنا أن نختط صورة تامة وصحيحة للطلاق، لا بد أن نعرف عدد حالات الطلاق، وما الظروف التي يحدث فيها، وما نتائجه الواقعية. وينبغي أن ينظر إلى هذا الفصل كمحاولة للبحث في هذه المسألة بالاستناد إلى حالات من واقع الحياة.

وسأبدأ بسرد جميع حالات الطلاق في أرطاس بإيجاز، ثم أتبع ذلك

---

(1) انظر: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, III (London, 1925), p. 311, «كما كانت عليه حال عند العبرانيين، كان العرب القدماء يسمحون للزوج بطلاق زوجته متى شاء..». انظر كذلك: Seymour Vesey Fitzgerald, *Muhammadan Law: An Abridgement According to Its Various Schools* (Oxford-London, 1931).

«يحق للمسلم البالغ الراشد أن يطلق زوجته وقتما يشاء». ويقول باور في: Leonhard Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*, 2nd Edition (Leipzig, 1903), p. 112,

«لقد رأينا أن الزوجة لا يكاد يكون لها حقوق، ويظهر هذا أكثر في ما يتعلق بالطلاق؛ إذ لا يحتاج الرجل إلا إلى النطق بصيغة الطلاق، فيقع الطلاق، أما المرأة فلا تستطيع أن تطلب الطلاق ولا أن توقعه».

بموجز عن نساء أرطاس اللاتي تزوجن خارج القرية ثم طلقهن أزواجهن، وسأذكر الأسباب والظروف المحيطة بكل حالة، ثم أبين إن مكثت المرأة في بيت أبيها بعد الطلاق، أم تزوجت مرة أخرى؛ فلمصير المرأة بعد الطلاق أهميته في الحكم على نظرة الشرع لها بوصفها امرأة مطلقة.

في الحالتين الأولى والثانية، كان هناك صراع خطير في القرية بين أقارب الأزواج، له علاقة بالسياسات الداخلية في القرية، أجبر الرجلين على طلاق زوجتيهما، وكان أحدهما في الأقل مكرهًا.

كان كل من سليمان خليل [165] من عشيرة شاهين، وعِثمان جبرين [77] من عشيرة الربايعة، قد تزوج شقيقة الآخر بالبدل. وكان سالم عِثمان [67]، شيخ عشيرة الربايعة، زعيمًا لأرطاس، لكنه بات مستبدًا، فتحزب بعضهم ضده في القرية، وأسندوا إلى جماعة من عشيرة شاهين، ومنهم سليمان خليل [165]، مهمة قتله. وبعد الجريمة، أخذ الربايعة ابنتهم سعدة (ابنة جبرين عِثمان [76]، وزوجة سليمان خليل [165]) في الحال من القاتل، وكان القتيل [67] هو عمها، وأعلنت أنها لا ترغب في البقاء مع زوجها بعد ما حدث، ثم زوجوها في ما بعد لمصطفى سالم [69]، وهو ابن الشيخ القتيل. وساد الرأي بين الناس بأن على عِثمان جبرين [77] أيضًا أن يطلق زوجته سارة (ابنة خليل إبراهيم [134]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) التي تنتمي إلى عشيرة شاهين، وهي أخت القاتل. وأخبرتني الست لويزا أن إخوتها الذين حضروا المشهد، قالوا مرارًا إن الطلاق كان فاجعًا لعِثمان جبرين [77]؛ فهو لم يكن ليطلق زوجته التي أنجبت له ثلاثة أطفال تحت أي ظرف من الظروف، ولكن أخاها سليمان خليل [165] الذي اضطر هو نفسه إلى طلاق زوجته، لم يرحمه، وقال:

«حتى وإن كان وراءها سبعة فرسان راكبين الخيل (أي سبعة أولاد) لا بد من طلاقها (أو لو إن وراها سبع فرسان راكبين إلخيل لازم عن طلاقها)!».

ووافقه على ذلك الرجال الحاضرون، وآذوا عِثمان جبرين [77]، وضيّقوا عليه حتى استسلم في النهاية، ونطق بالكلمات الحاسمة التي فصلته عن زوجته

التي أحبها إلى الأبد[2]. وزاد في حسرته أن كان عليه أن يراها بعد يوم واحد زوجة لإبراهيم عايش [82] حليف عشيرة شاهين الذي ربما كان وراء المؤامرة وجريمة القتل. وبإزاحة زعيم الربايعة ومنافسه على السلطة سالم عِثمان [67] من طريقه، بات هو أكثر الرجال تأثيرًا في القرية، وهو متزوج من قبل، وما زواجه الجديد هذا إلا انتقام من عدوه، وتعزيز لانتصاره عليه؛ فقد أراد أن يمعن في إذلاله بالاستيلاء على زوجته.

وفي حالات الطلاق هذه، وهي الأبرز في أرطاس، أمثلة أخرى على عودة المرأة إلى بيت أبيها إذا ما نزلت بها نازلة؛ فهي تنتمي إليه دائمًا وأبدًا، وتقدم مصالحها على مصالح زوجها وحتى على مصالح الأطفال الذين تضطر إلى تركهم في بيته.

وروي عن سارة (ابنة خليل إبراهيم [134]، وزوجة عِثمان جبرين [77] ومن بعده إبراهيم عايش [82]) أنها لم تستطع أن تنسى أولادها من زوجها الأول، وكثيرًا ما كانت تناديهم لتلقي لهم بحبات البرتقال وأطايب أخرى؛ فهي لم تكن تستطيع أن تتواصل معهم إلا في هذا النطاق الضيق.

ولا تزال سارة (ابنة خليل إبراهيم [134]، وزوجة عِثمان جبرين [77] ومن بعده إبراهيم عايش [82]) وسعدة (ابنة جبرين عِثمان [76]، وزوجة سليمان خليل [165] ومن بعده مصطفى سالم [69]) في قيد الحياة، الأولى أرملة في بيت أبيها، وهي ابنة وارثة - يقال إن أباها أوصى لها بنصيب مساوٍ لنصيب كل من أبنائه - بينما توفي زوجاهما السابقان سليمان خليل [165] وعِثمان جبرين [77] منذ وقت طويل.

وفي الحالة الثالثة، كان الجذام السبب في الطلاق[3]، ووالد الفتاة هو

(2) يقول بالدنسبيرغر في: Philip Baldensperger, «Birth, Marriage and Death among the Fellahin of Palestine,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXVI (London, 1894), p. 132, إن الجريمة وقعت في السابع عشر من تشرين ثاني/ نوفمبر في عام 1875، وإن الطلاق وقع في الثالث من شباط/ فبراير في عام 1883.

(3) كما هو معلوم، فإن الشريعة الإسلامية تقبل الجذام كسبب للطلاق. وتقول حمدية (ابنة =

الذي أصر عليه، فكان على سالف الذكر سليمان خليل [165] نفسه، أن يطلق امرأة مرة أخرى. ويقال في القرية إنه أصيب بالجذام نتيجة للرعب الذي ألم به لمشاركته في جريمة القتل، ورفضت خطيبته أن تتزوجه، وهي فتاة من عشيرة شاهين، وأجبره أبوها على التخلي عنها. وقد دونت هذه الواقعة كواقعة طلاق، وليس كواقعة فسخ خطبة؛ لأن عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) روت الآتي:

«إذا أبرم عقد الزواج فهي زوجته، وإذا أراد الانفصال، فعليه أن يطلقها أمام الحكومة أو المفتي (يوم إلصّفاح صارت حرمته، أُو إذا كان بدِّه يِفكُها لازم يِطلق قُدّام إلدُّولِه أُو إلمفتي)»[4].

وفي الحالة الرابعة اضطر رجل، بسبب الفقر والمجاعة خلال الحرب العالمية، إلى طلاق زوجتيه؛ إذ لم يعد قادرًا على إعالتهما.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«قال عبد ابن سليمان عودة [190] لزوجتيه جازية (زوجة عبد سليمان عودة [190]) وخضرة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عبد سليمان عودة [190]): «أنا لا أستطيع أن أطعمكما، اذهبا حيث شئتما! سامحكما الله! وليس علي إثم، اذهبا بسلام (أنا مانيش قادر أَمَوِّنتِشِن، وين ما رُحتن روحن، الله يسامحكو، روحن ما إلكوش في رقبتي خطيِّة مع إلسَّلامِة)!».

وذهبت جازية (زوجة عبد سليمان عودة [190]) مع أولادها إلى بيت أبيها في دورا، وتوفيت هناك، وعاد الأولاد إلى بيت أبيهم في أرطاس، ثم توفي هو أيضًا، فعاش الأولاد مع عمتهم الأرملة صبحة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة أحمد محمد [118])».

= سليمان سند [183]) عن محمد جاد الله [17]، وهو رجل آخر من أرطاس أصابه هذا المرض الفظيع، إن زوجته تركته لهذا السبب، بينما تؤكد عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، وهي من قريباته، أن زوجته مكثت معه حتى وفاته. وعاش في كهف في القرية.

(4) يُسمى الطلاق قبل الدخول في الشريعة الإسلامية. انظر أدناه في الصفحتين 586 و587 والحاشية الثانية من هذا الكتاب.

وتارة أخرى، روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) القصة نفسها، ولكن من منظور الزوجة الثانية:

«تزوجت خضرة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عبد سليمان عودة [190]) عبد سليمان عودة [190] وولدت له بنتين، ثم توفيتا، وكان لعبد عودة [190] زوجتان، وكانت زوجته جازية (زوجة عبد سليمان عودة [190]) من دورا. ويدأ بخضرة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عبد سليمان عودة [190]) فقال لها: «أنا أسامحك! أنت حرة (حرفيًا: حبلُكِ مفكوك)! اذهبي حيث شئت! اذهبي وابحثي عن نصيبك (بسامحتش، حبلتش مُطْلَق، روحي وين ما رحتي دوري عَ نصيبتش)!» وكان في العالم حرب ومجاعة.

ذهبت جازية (زوجة عبد سليمان عودة [190]) إلى إخوتها في دورا، فبيت الأب مفتوح دائمًا للمرأة.

وذهبت خضرة (ابنة سليمان جاد الله [22]، وزوجة عبد سليمان عودة [190]) إلى عمّان (عبر نهر الأردن)، وعملت هناك.

وقال (رجل جزائري) للمرأة التي عاشت عندها تغربل القمح: «انظري أتقبل بي هذه الفلاحة زوجًا على سنة الله ورسوله فتكون حلالًا لي! فالحرام لا يدوم (شوفي هَلْ فلّاحة بتوخُذني بسِنّة الله أُو سِنّة رَسولِه بِلحلال لا عاش الحرام)!

وأخذها ووضع مهرها في يدها (أربعين جنيهًا)».

وقد بحثنا الحالة الخامسة في سياق آخر، ورأينا كيف كره عبد خلاوي [110] زوجته حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110]) منذ البداية، وكيف تركته نتيجة لذلك، لتعيش في بيت أبيها، حيث أنجبت ولدًا، ورفض الأب أن يعترف به وطلق أمه. وهكذا، كان نزوحها إلى بيت أبيها - حيث كانت «حردانة» - سببًا في طلاقها، وتزوج عبد خلاوي [110] زوجتين

أخريين. أما حلوة (ابنة سليمان عودة [188]، وزوجة عبد خلاوي [110])، فقد رأينا كيف زوَّجها أخوها في دورا[5].

وفي الحالة السادسة، طلق عبد الحميد أحمد [57] زوجته وابنة عمه مريم (ابنة حسن إسْمَعين [54]، وزوجة عبد الحميد أحمد [57]) ومن بعده علي محمود [36])، وقال الناس: «لم يوافق نجمُه نجمها (إلنِّجِم مُش موافق)»، وقالوا أيضًا: «هذان صنفان من اللحم لا يمكن طهيهما في قدر واحدة»، ثم تزوجت مريم (ابنة حسن اسْمَعين [54]) علي محمود [36]، وتزوج عبد الحميد [57] خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]، وزوجة عبد الحميد [57]) التي كانت مطلقة أيضًا، وكاد أن يُطلق زوجته الثانية في ما بعد. ولدي الآتي في مفكرتي من الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1930:

جاءت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) اليوم تحمل قصة من القرية؛ فقد طلق عبد الحميد أحمد [57] زوجته. كانا مولعين ببعضهما، غير أن مرضًا أصابه الآن، ولامته زوجته لأنه لا يعمل. وبينما كانا يتشاجران، لم يملك نفسه من الغضب، ونطق بصيغة الطلاق، لكنه لم يلبث أن أضاف: «لن تدخلي بيتي لمدة ستة شهور، ولن تتخطي عتبة البيت، أو تشربي من الجرة (ست تشهر ما تخشيلي دار، ما تخشي إلعتبة، ولا تشربي من إلجرار)!».

وسمع الناس هذه الكلمات؛ فقد حدث هذا بالقرب من منتدى الرجال، ولكن ابنته الصغيرة مريم (ابنة عبد الحميد [57]) أخذت تبكي على أمها، فأدرك خطأه وندم، وأسرع في يأسه إلى والده وهو يضرب كفًا بكف، وينوح: «أبتي، أبتي ماذا فعلتُ؟» فسأل والده: «ما الأمر؟» - «لقد طلقت زوجتي». «أسرع إلى القاضي، قبل أن يمضي وقت طويل، قبل أن تترك البيت. إذا ذهبت إلى بيت أبيها، ومكثت هناك، وعلم أخوها أنك طلقتها، فسيكون عليك أن تتزوجها مرة أخرى».

أخذ عبد الحميد جنيهًا، وذهب إلى القاضي وأخبره بما فعل؛ فأفتى

(5) انظر أعلاه في الصفحة 459 وما يليها، وفي الصفحة 532 من هذا الكتاب.

القاضي بأنه يستطيع أن يصلح الأمر بالطريقة الآتية: على الزوجة أن لا تتخطى عتبة بيت زوجها لمدة ستة أشهر، ولكن هذا لا يسري على أي عتبة أخرى؛ «لذا يجب أن ترحلَ أنت عن بيتكَ هذه المدة. احلف على المصحف أنك لم تخف عني شيئًا مما قلت!» - «وماذا علي أن أفعل في ما يتعلق بجرة الماء؟» - «اشتر وعاءً من الصفيح!» فوضع يده على المصحف، وقال: «لقد أخبرتك بكل ما نطقت به شفتاي». وأخذ ما أفتى به القاضي مكتوبًا، ودفع له جنيهًا وعاد إلى بيته. وكان الرجل فقيرًا جدًا، وكان عليه إذ ذاك أن يرحل من بيته لكي تعود زوجته إليه.

وكان جميع من في القرية يتحدثون عن سوء حظه؛ إذ حلف بالطلاق في غمرة غضبه، ولولا مساعدة القاضي له لكانت حاله أشد سوءًا.

وفي المساء، أضفتُ الآتي إلى مفكرتي:

يقولون في القرية، إنهم أخذوا خضرة محمد (ابنة محمد عِثمان [33]، وزوجة عبد الحميد [57]) إلى بيت حماها حيث يحاولون إرضاءها.

بعدها بقليل جاءت إلينا حسنة (ابنة إسْمَعين أحمد [55]، وزوجة عبدالله حسن [61]) بالحليب، وقالت: «خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]، وزوجة عبد الحميد [57]) في بيت أبيها بأمر من أخيها؛ فقد قال إنها يجب أن تأتي إلى البيت، وكان عليها أن تطيعه. وفي جميع الأحوال، هي لا تستطيع أن تذهب إلى بيت زوجها.

وقالت الست لويزا: «والآن ليس لديه من يعد له طعامه، وعليه أن يحصل عليه من أهله».

وقالت حسنة (ابنة إسْمَعين أحمد [55]، وزوجة عبدالله حسن [61]): «ولكنه درس جيد للرجال»، ولم تكن هي ذاتها على علاقة طيبة مع زوجها، وكانت تعيش هي وابنتها الصغيرة في بيت أبيها، وقيل إن زوجها يفكر في طلاقها.

وقالت الست لويزا: «كل هذا الهرج والعناء بسبب امرأة!». ولكن حسنة (ابنة إسْمَعين أحمد [55]، وزوجة عبدالله حسن [61]) لزمت رأيها بأن الرجال يستحقون مثل هذا عندما يكونون مستبدين؛ إذ ينبغي أن لا يتصرفوا أو يتكلموا إلا بذهن حاضر.

أما أنا، فإني أرى رأي حسنة (ابنة إسْمَعين أحمد [55]، وزوجة عبدالله حسن [61])؛ إنه لدرس جيد للرجال، وسيكونون أكثر حذرًا عندما يرون المتاعب التي يواجهها عبد الحميد أحمد [57].

وفي الحالة السابعة، أبت حِسِن التعمرية (زوجة يوسف محمد [153]) أن تبقى في البيت الذي لُعن فيه أبوها[6]. وبعد أن طلقها، تزوج يوسف محمد [153] حِسِن (ابنة حسن إسْمَعين [54]، وزوجة يوسف محمد [153])، وتزوجت طليقته [حِسِن التعمرية] عبد الرحمن عبد [152]، وهو من أبناء عمومة زوجها الأول.

وفي الحالة الثامنة، كان الشجار بين الزوج والزوجة سببًا في الطلاق.

وحدثتني الست لويزا في فترة إقامتي الأولى في فلسطين عام 1926 قائلة:

«طلق جودة إبراهيم [95] زوجته حليمة (زوجة جودة إبراهيم [95])، وهي من حَلْحول، إذ قال الناس، دون وجه حق، إن جودة قتل ابنه وابن حليمة (زوجة جودة إبراهيم [95]). واتهمته زوجته بذلك، فطلقها. وتزوجت مرة أخرى في حَلْحول، حيث أنجبت أولادًا وبناتًا، وعاشت في سعادة. وقالوا: «جودة [95] الغبي!»، وعضت صفية (زوجة إبراهيم عايش [82]) أصابعها ندمًا؛ لأنها تركت حليمة تذهب.

«لم تعرف خيري إلا بعد أن جربت غيري (ما بتشوف خيري إلا بعد ما جرَّبتْ غيري)!»[7].

---

(6) انظر أيضًا: Hilma Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village* (Helsingfors, 1931), I , p. 94.

(7) تستشهد أينسلر بالمثل في: Lydia Einsler, «Arabische Sprichwörter,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XIX (Leipzig, 1896), p. 94,

«(ما بتعرف خيري غير تجرّب غيري) لن تعرف خيري إلى أن تجرّب غيري!». انظر أيضًا: Enno Littmann, *Arabic Proverbs*, Collected by Mrs. A. P. Singer (Cairo, 1913), p. 23.

ثم تزوج جودة [95] حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95])، ومات جميع أولادهما، وعاشت حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95]) أوقاتًا عصيبة مع صفية (زوجة إبراهيم عايش [82])، أم جودة [95]».

وعندما عدت إلى فلسطين عام 1930 علمت أن جودة إبراهيم [95] اتخذ زوجة ثانية من أبو ديس، وأنه كان يفكر بطلاق زوجته حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95]).

وقالت: عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«قالت الزوجة الديسية (إلدّيسيّة) لجودة: «أنا لن أبقى معك هذا الشتاء إلا إذا طلقت الأرطاسية (إلأرطاسيّة)».

وأخذ بالنصيحة كاللبن في الزّق (شار إلشُّورة زي إللبن في الخورة)».

وأخبرتني حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95]) بنفسها في الربيع، بأن جودة [95] أقنعها بالذهاب معه إلى القدس؛ حيث أخذها إلى المحكمة يريد أن يطلقها، ولكنها فرت قبل أن يحدث شيء، وقالت تشتكي لي وللست لويزا: «وأنا الآن لا في الشرق ولا في الغرب»؛ فبيت زوجها في الحي الغربي من القرية، وبيت أبيها في الحي الشرقي منها[8].

ولكننا التقينا بها في إحدى الأمسيات، وهي عائدة كعادتها من بيت العائلة التي كانت تعمل عندها في بيت لحم، وكانت متألقة؛ ففي ذلك اليوم، ذهب جودة [95] إلى بيت تلك العائلة لقضاء حاجة. وقالت الست لويزا: «لقد ذهب إلى هناك في الحقيقة، من أجل حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95])!» ورأينا أنها سُرت بما قالته الست لويزا، فهو ما حسبته هي أيضًا، وباتت تأمل أن تعود إلى زوجها، ولا سيما أن ضرتها كانت حردانة في بيت أبيها في أبو ديس. وأشيع أن أخا ضرتها قال إنه ليس من اللائق أن تذهب أخته إلى بيت لحم لتبيع في السوق، وإن عليها أن تعود إلى بيت أبيها.

(8) انظر أعلاه في الصفحة 316 والحاشية الأولى من هذا الكتاب.

وقيل أيضًا إن جودة كان غاضبًا منها لإهمالها واجباتها في البيت، ثم أخذ يتذكر كم كانت حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95]) جادة ومثابرة في عملها. وفي اليوم التالي، أي الرابع والعشرين من شهر تموز/ يوليو، أخبرتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بأنها عادت إلى زوجها مرة أخرى.

ويعود الفضل إلى حلوة (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة جودة إبراهيم [95])، في أنها منعت زوجها من أن يتعجل في الإقدام على شيء كان سيندم عليه.

وفي الحالة التاسعة، كان تعدد الزوجات هو سبب الطلاق؛ فقد ذكرنا في فصل تعدد الزوجات، أن زوجة حسن عبدالله [85] الجديدة، سلمى (ابنة سالم إبراهيم [90]، وزوجة حسن عبدالله [85])، أصرت على أن يطلق زوجته الأولى نجمة (زوجة حسن عبدالله [85])[9] التي تزوجت بعد ذلك حفيد عمه، علي زلمة [100].

وفي الحالة العاشرة أيضًا، كان للطلاق علاقة بتعدد الزوجات إلى حد ما؛ فقد أساء عبد سالم [68] معاملة زوجته وابنة عمه فاطمة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة عبد سالم [68])، وانتهى به الأمر إلى تهديدها باتخاذ زوجة ثانية، ليمعن في إذلالها؛ فغضب أبوها من ظلمه لابنته، وطلقها منه.

وليتسنى لنا فهم رواية عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتية لهذه الحادثة فهمًا تامًّا، لا بد أن نتذكر أن الزوج، عبد سالم [68]، هو أحد أبناء شيخ الربايعة [67] الذي قتله رجال من عشيرة شاهين كما روينا في الحالتين الأولى والثانية. ولهذا، فلا بد أن زواج فاطمة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة عبد سالم [68])، بعد طلاقها منه، لرجل من عشيرة شاهين، وهو عبد موسى [140]، أذله وأغضبه. وكان عِثمان جبرين [77]، والد فاطمة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة عبد سالم [68] ومن بعده عبد موسى [140])، أيضًا من أقارب شيخ الربايعة القتيل، ولكن أقاربه كانوا أجبروه على طلاق زوجته سارة (ابنة خليل

(9) انظر أعلاه في الصفحة 494 من هذا الكتاب.

إبراهيم [134]، وزوجة عِثمان جبرين [77] ومن بعده إبراهيم عايش [82]) - وهي من عشيرة شاهين، وأم ابنته فاطمة - على الرغم من أنه كان يحبها. وهكذا تزوجت فاطمة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة عبد سالم [68] ومن بعده عبد موسى [140]) في المرة الثانية رجلًا من عشيرة أمها.

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ثلاث روايات مختلفة عن هذا الطلاق، فقالت يومًا:

«كانت فاطمة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة عبد سالم [68] ومن بعده عبد موسى [140]) الزوجة الأولى لعبد سالم [68]، وكان سبب طلاقها هو ظلمه لها؛ فقد اتخذ زوجة ثانية، وهي حمدة (ابنة خليل شحادة [170]). ولم يتحمل عِثمان جبرين [77] ذلك، فذهب إلى موسى شاهين [135] واتفق معه وطلقها من زوجها. وفي اليوم التالي طبخ موسى شاهين (أي وليمة الخطبة) لها ولابنه عبد [140]، وكان الجميع يعلمون أنها كانت عذراء؛ لهذا سمح لها بركوب الجمل (ولا يسمح للمرأة المطلقة ولا الأرمله أن تفعل ذلك عادة)».

وتارة أخرى روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«قال عِثمان جبرين [77] لزوج ابنته [68]: «سأزوج ابنتي للأعداء، لقاطعي الرقاب (جكاره في عبد بعطي بنتي للقوْم لذبَّاح إلرَّقبِه)!»، وهذا ما حدث.

جاء موسى شاهين [135] (وطلبها لابنه). قال عِثمان جبرين [77]: «لك ما تريد! أحضر جملك ودعها تركب (عروسًا)!» ركبت الجمل في اليوم نفسه الذي ركبت فيه حمدة (ابنة درويش محمد [119]، وزوجة رشيد موسى [142]) عروسًا، فركبت كل منهما جملًا. وفي اليوم نفسه، جاءت أيضًا صفية (زوجة شاهين موسى [139]) عروسًا من شَرَفات. وكانت العروس رشيدة (ابنة موسى شاهين [135]) بديلة لها، وهي أول من ركبت الجمل، وتقابلوا عند باب الزقاق (عند تقاطع طريق القدس - بيت لحم مع تقاطع بيت لحم - بيت جالا)».

وهناك أبدلوا عروس شَرَفات بعروس أرطاس، كما هي العادة عندما يجري تبادل عرائس من قرى مختلفة؛ فالناس يرافقوهن إلى منتصف الطريق، ثم يجري التبديل.

وروت لي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) هذه الحادثة للمرة الثالثة بالطريقة الآتية:

«تزوج عبد سالم [68] فاطمة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة عبد سالم [68] ومن بعده عبد موسى [140])، ولم يوافق نجمه نجمها (إلنِّجم مُش موافق). كرهها الزوج وأهانها، وقال: «ليس من سبيل أمامي إلا أن أتزوج حمدة (ابنة خليل شحادة [170])، وتصبح فاطمة (ابنة عِثمان جبرين [77]، وزوجة عبد سالم [68] ومن بعده عبد موسى [140]) خادمتها». لم يرض أبو فاطمة بهذا، وقال: «أوَ أتركها لهذا الظلم وأنا أبوها؟!» فاشتكوا وطلقوها منه، ثم طلبها رجال عشيرة شاهين».

وفي الحالة الحادية عشرة، كان تعدد الزوجات هو سبب الطلاق أيضًا. ومرة أخرى، كانت الزوجة الأولى هي التي طُلقت؛ فالزوج، أحمد إسْمَعين [52]، كان مفتونًا بالزوجة الجديدة[10]. ولكن ابن الزوجة المطلقة طالب أباه بمراجعتها، وهدد بأن يذهب معها إلى ما وراء نهر الأردن. وعندما حار أحمد إسْمَعين [52] في ما يفعل لجأ إلى شيخ يدعى جابر من بيت صَفافا.

وروت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن ذلك ما يأتي:

---

(10) في قصة روتها لي حمدية (ابنة سليمان سند [183])، كانت الزوجة الجديدة هي التي طُلقت، فعند مقارنة الزوج للاثنتين وجد أن للأولى قيمة أكبر. وفي قصة أخرى، يدرك الزوج في وقت الشدة، قيمة ابنة العم (بنت إلعم)، ولهذا يبقي عليها، بينما يبدو له بوضوح أن زوجته الأخرى «الغريبة» لا يمكن أن تكون وفية عند الضيق، ولهذا يطلقها. انظر أيضًا: Hilma Granqvist, «Aus dem Erzählungsschatz palästinischer Bauernfrauen,» *Palästinajahrbuch*, vol. XXIII (Berlin, 1927), p. 96.

وقد دونت أيضًا قصصًا أخرى في أرطاس انتهت بالطلاق. وفي إحداها، طلق شيخ بدوي زوجاته لعدم اعتنائهن بأبيه المريض. وفي قصة أخرى طُلقت إحدى الزوجات لأنها لم تكن «تسمّي»؛ أي لم تذكر اسم الله في أفعالها كلها، وبهذا كانت تجلب الفقر والبؤس على زوجها وبيته. كما أن التقصير في إكرام الضيف كان أحد أسباب الطلاق في بعض رواياتهم.

«ذهب إلى الشيخ يطلب النصيحة. قال: «طلقت زوجتي، والولد عزيز علينا، لا نستطيع أن نأكل أو نشرب إذا لم يكن الولد معنا»، قال الشيخ: «اجعل منها أُختًا لك (خاويها)، وأعدها إلى عائلتك!»، فتلفظ بالكلمات الضرورية ليجعلها أختًا له (وخاواها)[11] ومكثت في البيت حتى ماتت».

في الحالة الثانية عشرة، طلق الزوج زوجته في نوبة غضب، ولكنه عندما سمع أنهم يعدون لزواج جديد لها. لجأ إلى المفتي، وهو أعلى سلطة دينية بين المسلمين في القدس، ليستعيد زوجته.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«تزوج علي محمد [58] ابن محمد اسْمَعين [53] بهية (ابنة أحمد إسْمَعين [52]، وزوجة علي محمد [58]) ودفع المهر. وعاشا معًا ثلاث أو أربع سنوات، ثم دبت بينهما الخلافات، وطلقها، فذهبت إلى إخوتها في خْبيلة، ثم بدأ الناس يطلبونها للزواج. لكن علي [58] لم يسمح بذلك، وذهبوا إلى المفتي الذي كتب لهم فتوى، أي حكمًا شرعيًا (المفتي قطع إلهم فتوى)، وكلفه ذلك خمسة جنيهات، وعادت كما لو كانت حردانة، دونما احتفال».

روي لي هذا في عام 1926، وعندما عدت إلى أرطاس عام 1931، وجدت بهية (ابنة أحمد إسْمَعين [52]، وزوجة علي محمد [58]) مطلقة مرة أخرى، وكان زوجها حاسمًا في ذلك هذه المرة. ولأنه كان لديه زوجتان، فلربما كان لتعدد الزوجات شأن في هذه الحالة أيضًا، ويذكر هنا أن المرأة التي طلقها علي محمد [58] هي ابنة عمه، وتلك التي أبقى عليها هي ابنة عمته.

وبعد سنة، اتخذ رجل من بيت صَفافا بهية (ابنة أحمد اسْمَعين [52]) زوجة ثانية له، وكانت زوجته الأولى أيضًا من أرطاس[12].

وفي الحالة الثالثة عشرة، طالب إخوة امرأة من أرطاس متزوجة في بيت لحم بطلاق أختهم.

---

(11) انظر أدناه في الصفحة 572 والحاشية الأولى من هذا الكتاب.

(12) انظر أعلاه في الصفحة 320 وما يليها من هذا الكتاب.

روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«تزوج محمد أبو عيد ذَبْلَة (ابنة خلاوي [108]) ودفع المهر، ومكثت عنده عشر سنوات، ولكنها ظلت عذراء[13].

قالوا شرف المرأة (العرض) لا يصان بالسيف (العرض ما بنحما بالسيف)!» واستجوبه إخوتها في الأمر. قالوا: «داو نفسك، ليس من سبيل آخر!» قال: «كتب علي أن أكون أبترَ»، فأعطوا الشيخ الكبير (أي زوج ذَبْلَة (ابنة خلاوي [108])) عشرة جنيهات ليطلقها، ويدعها تعود إلى البيت، ففعل.

ولبثت في بيت أبيها ستتين حتى قُدِّر لها (تَقسم إلنَّصيب)، وتزوجت مرةً ثانية (تزوجت خليل إبراهيم [3])».

وفي الحالة الرابعة عشرة، تزوجت امرأة من أرطاس شيخًا من البدو، ثم طلقها لأنها جلبت النحس إلى البيت.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي:

«تزوج شيخ بدوي خضرة (ابنة محمد عِثمان [33])؛ فعندما زار أرطاس ذات مرة، أقسم والد خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]) أن يطلق زوجته إذا لم يقبل الضيوف دعوته للعشاء (طلاق عَ عشا إلضّيوف)[14]. قال الشيخ: «سأتزوج ابنته»، وقُدر ذلك، وتزوجها.

بعد زواجها، بدأت البهائم بالنفوق: الجمال، والحمار، ثم مات أبناؤه من زواج سابق أيضًا. وعندما ماتوا، قال الناس: «هذا بسبب وجه الفلاحة (منوِجْه إلفلاحة)[15]! وقال زوجها (الشيخ البدوي) للخادم: «اذهب وأزل الأعشاب من بين القمح في الحقل»، ولكنه أسر له: «لا تدعها تعود إلي!»».

---

(13) في ما يتعلق بالطلاق عند المسلمين إذا كان الزوج عنّينًا انظر: Snouck Hurgronje, *Mekka* II (Haag, 1889), p. 107, and Westermarck, *The History*, p. 313.

وانظر كذلك أدناه في الصفحة 589 والحاشية الأولى من هذا الكتاب.

(14) انظر أدناه في الصفحة 577 من هذا الكتاب.

(15) انظر أعلاه في الصفحة 476 من هذا الكتاب.

وذهبت خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]) والخادم.

«ثم قالت: «هذا هو قمحنا» قال لها الخادم: «قال لي (أي الزوج): «لا تدعها تعود!» اذهبي إلى عرب عليا علي الكوُر (زوجة أحمد عِثمان [34])!»».

وهذه البدوية التعمرية، عليا علي الكور (زوجة أحمد عِثمان [34])، هي زوجة عم خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]) في أرطاس.

وأضاف: ««سيعيدونك إلى أهلك!» قالت: «لو كنت أعلم ذلك لأحضرت متاعي معي!» وبكت ومزقت شعرها حسرة. وهنالك مر بهما بعض الرعاة، فقالت للرعاة: «خذوني إلى بيت علي محمد، أحد أقارب عليا علي الكور (زوجة أحمد عِثمان [34])!»، قالوا لها: «أهلًا بك، سنأخذك إلى أهلك». والتقت هناك امرأة بدوية قالت لها: «أهلًا بك في بيتنا!» فلبثت في بيتها شهرًا، تأكل وتشرب وتعمل معهم.

ثم جاء رجل من لِفتا (الواقعة إلى الشمال الغربي من القدس)، وعمل في حقلهم لقاء شيء من الغلال. ثم قالوا للرجل اللفتاوي: «افعل لنا معروفًا، وخذ هذه المرأة الفلاحة إلى أهلها!.

قال لها: «من أين أنت؟» قالت: «أنا من أرطاس»؛ فقال لها: «أنت أختي في كتاب الله (إنتي أختي في كُتاب الله)!»[16] وما إلى ذلك»، وهي العبارة التي تبدأ بها صيغة اتخاذ المرأة أختًا. «وأخذها إلى القدس، وأراد أن يأخذها إلى لِفتا، فلم ترض بذلك، وجاءت إلى هنا (إلى أرطاس).

(16) هكذا تبدأ صيغة التبني للدخول في الأخوية. انظر: Granqvist: «Aus dem Erzählungsschatz palästinischer Bauernfrauen,» *Palästinajahrbuch*, p. 128, and *Marriage Conditions*, p. 9 n. 1.

وانظر كذلك: Hans Schmidt and Paul Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, Heft 17 (Göttingen, 1918), p. 14 n. 2,

«هذا الميثاق، الذي جاء ذكره مرارًا في رواياتنا، بين شاب وشابة، يؤكد للشابة أن الرجل سيعاملها كأخت له، وأنه لن يستغل وجودهما معًا استغلالًا سيئًا». ويقول سنوك هرخرونيه في: Hurgronje, *Mekka*, p. 104,

«إذا رغب أحدهم برفقة بعض الأصدقاء من غير تحفظات، فإنه يتخذهم أقارب لزوجته بالتبني كل بحسب عمره؛ فإما أب، أو ابن، أو أخ». والأقرباء بالتبني لا يستطيعون الزواج بعضهم من بعض.

ثم بعد حين، جاء الشيخ (زوجها) وأقاربه يريدون استعادتها. قالت: «لن أعود مهما كان!» وقالت ما عندها، وقال هو ما عنده، وتبين أنه هو المخطئ (طلع إلحق عَليه)، ووقع الطلاق بينهما أمام المفتي. وبعد ذلك، تزوجت عبد الحميد [57]، وأحب كل منهما الآخر».

ومن بين 264 واقعة زواج، انتهت 11 منها أو ما نسبته 4.1 في المئة بالطلاق، ويضاف إلى ذلك طلاق واحد قبل العرس، أو بالأحرى، قبل الدخول (قبل إلدّخول)[17].

وإذا نظرنا إلى النساء أولًا، واستثنينا تلك الفتاة التي طلبت الطلاق قبل الدخول (قبل إلدّخول)، نجد أن 11 منهن، أو ما نسبته 4.5 في المئة مما مجموعه 243 زوجة، قد طَلقهن أزواجهن[18]، وعادت إحداهن إلى بيت زوجها بإصرار من ابنها، ولكنها عادت كأخت لا كزوجة[19].

ومن المطلقات العشر الأخريات، تزوجت تسع نساء مرة أخرى؛ فقد تزوجت إحداهن عبد الرحمن [152]، وهو من أبناء عمومة (إبن إلعم) زوجها الأول يوسف محمد [153][20]، وتزوجت أخرى علي زلمة [100]، وهو ابن عم (إبن إلعم) زوجها الأول حسن عبدالله [85][21]، وهكذا لبثتا في عشيرة الزوج الأول، ولربما لم يشأ الزوج الأول أن يرى المرأة التي دفعوا مهرها تذهب إلى رجل غريب، وهناك مثل يقول: «لا ندع خيرنا يذهب إلى غيرنا (ما نطلع خيرنا لغيرنا)»، كما أن ذهاب زوجة الرجل إلى غريب يعد أمرًا مشينًا له ولعائلته.

---

(17) انظر أعلاه في الصفحة 563 من هذا الكتاب.

(18) يضاف إلى هذا أن زوج عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الأول، وهو من عرب التعامرة، عاد إلى أهله من دون أي طلاق فعلي، بينما مكثت عليا في بيت أبيها في أرطاس. انظر أعلاه في الصفحة 230 وما يليها من هذا الكتاب، وشهدت أمها على حملها. ولدينا في أرطاس كذلك امرأة اسمها حلوة (ابنة جابر أحمد [156]) تزوجت في بيت لحم وتقيم في بيت أخيها في أرطاس من دون طلاق فعلي.

(19) انظر أعلاه في الصفحة 569 وما يليها من هذا الكتاب.

(20) انظر أعلاه في الصفحة 568 من هذا الكتاب.

(21) انظر أعلاه في الصفحة 568 من هذا الكتاب.

قائمة بحالات الطلاق في أرطاس حتى عام 1927

الأزواج	المطلقات	الرجل الذي تزوجته المطلقة	ملاحظات
	الأموات:		
1. عبد سالم [68]	1. فاطمة عِثمان[ابنة 77]	عبد موسى [140]	
2. عِثمان جبرين [77]	2. ساره خليل [ابنة 134]	إبراهيم عايش [82]	
3. سليمان خليل [165]	3. سعده جبرين [ابنة 76]	مصطفى سالم [69]	
4. عبد سليمان [190]	4. جازيه عبد الحميد		ماتت في بيت أبيها
	5. خضرة سليمان [ابنة 22]	رجل جزائري في عمّان	
	الأحياء:		
1. أحمد اشتَمعين [52]	1. ريا عِثمان [ابنة 31]		بقيت عند زوجها كأخت له
2. عبد الحميد أحمد [57]	2. مريم [ابنة 54]	علي محمود [36]	
3. حسن عبدالله [85]	3. نجمة	علي زلمه [100]	
4. جودة إبراهيم [95]	4. حليمة خميس	رجل من خَلْحول	
5. عبد خلاوي [110]	5. حلوة سليمان [ابنة 188]	رجل من دورا	
6. يوسف محمد [153]	حِسن	عبد الرحمن [152]	
10 أزواج من 199 = 5٪	11 زوجة من 243 = 4.5٪	9 زوجات من 11 = 82٪	

وتوفيت واحدة فقط من جميع المطلقات الإحدى عشرة في بيت أبيها، وكان ذلك في الأوقات العصيبة إبان الحرب العالمية، عندما أتى الجوع والعسرة على كثيرين، حتى إن زوجها لم يتمكن من الزواج مرة أخرى قبل أن يموت، ولكن ضرتها التي طلقت في الوقت نفسه، ولا تزال في قيد الحياة، تزوجت مرة أخرى[22].

(22) انظر أعلاه في الصفحة 563 وما يليها من هذا الكتاب.

والمرأتان اللتان تزوجتا في أماكن أخرى ثم طلقتا، تزوجتا رجلين من أرطاس[23].

ومع ذلك، يقول المثل: «لا تقربوا المرأة المطلقة، ولا الأرض المشاع «إلمرة إلِمْطلقة أُو إلأرض إلمعلقة لا تقربوهاش)».

وهذا ينبهنا مرة أخرى إلى أنه من الخطأ أن نحسب أن الواقع يتبع القواعد النظرية دائمًا، أو أن القول والعمل يتفقان دائمًا، ولذلك ينبغي أن تأخذ الدراسات الاثنين معًا في الاعتبار.

أما في ما يتعلق بعدد الرجال الذين طلقوا زوجاتهم، فسأقارنه بعدد الرجال المتعددي الزوجات، ولا سيما أن الدراسات كثيرًا ما تذكر أن عدد الرجال المتعددي الزوجات قليل، وأن عدد الرجال الذين يطلقون زوجاتهم كبير جدًا[24].

فمن بين 199 رجلًا متزوجًا هناك:

26 رجلًا أو 13 في المئة متعددو الزوجات.

10 رجال أو 5 في المئة طلقوا زوجة واحدة أو أكثر.

فإذا ما نظرنا إلى الأموات من بين هؤلاء، وعددهم 87، وجدنا النسب هي 16 في المئة و4.6 في المئة؛ فقد كان منهم 14 من متعددي الزوجات، و4 فقط ممن طلقوا زوجاتهم، وفي الأقل، فعلها أحدهم مرغمًا؛ فقد أجبره الناس على الطلاق[25]، وآخر دفعه إلى ذلك عسر الحال إبان الحرب العالمية[26]. أما الأزواج الأحياء، وعددهم 112 رجلًا، فمنهم 12 متعددو الزوجات،

---

(23) انظر أعلاه في الصفحة 570 وما يليها من هذا الكتاب.

(24) انظر: Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 247.

وانظر كذلك أعلاه في الصفحة 510 والحاشية الأولى، والصفحة 561، وأدناه في الصفحتين 587 و588 وما يليها وحاشيتها من هذا الكتاب.

(25) انظر أعلاه في الصفحة 562 من هذا الكتاب.

(26) انظر أعلاه في الصفحة 563 وما يليها من هذا الكتاب.

و6 طلقوا زوجاتهم. وعلى هذا تكون النسب 10.7 في المئة و5.4 في المئة على التوالي. وبالقياس مع الرجال المتعددي الزوجات في أرطاس، نجد أن الذين طلقوا زوجاتهم هم الأقلية.

ونجد أنه من بين 65 امرأة تزوجن غرباء، طُلقت اثنتان فقط، علمًا بأن طلاق إحداهما كان بمبادرة من إخوتها، فيغلب إذًا أن عدد الرجال الذين طلقوا زوجاتهم في القرى القريبة من أرطاس لم يكن كبيرًا جدًّا[27].

وتعكس أقوال النساء صورة مخالفة لهذه النتائج؛ فهذه عليا (ابنة إبراهيم عودة) تقول:

«بحسب الشرع، يمكن للرجل أن يتزوج سبع نساء[28]: يهجر بعضهن[29]، ويموت بعضهن، وقد يطلق بعضهن، بحسب ضميره، (إلزّلمه في الشّرعْ بجوزلِه سبع نسوان، إشي بِهِجْرِه، أُو إشي بموت، أُو إشي بطلقِه، عَذِمتِه)».

وكانت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) تردد أغنية فكهة تصف فيها امرأة عزباء حسن حظها، فتقول:

«الخبز مخبوز	(إلخبز مخبوز
والماء في الجرة	أُو الموِيه في الكوز
وطعامي لا يحترق	لا طبيخي شايِط
ولا يبكي ابني	ولا ولدي عايط
وزوجي ليس في الزقاق	ولا جوزي في الزّقاق
يقسم علي بالطلاق»	بحلف عليٍّ في الطَّلاق)[30]

(27) انظر أعلاه في الصفحة 570 وما يليها من هذا الكتاب.
(28) أي في المجمل، لكن ليس أكثر من أربع زوجات في الوقت نفسه.
(29) انظر لفظة «مهجورة»؛ أي المرأة التي لا يعاشرها زوجها. انظر أعلاه في الصفحة 508 من هذا الكتاب.
(30) انظر: Eberhard Baumann, «Volksweisheit aus Palästina,» *Zeitschrift des Deutschen* = *Palästina-Vereins*, vol. XXXIX (Leipzig, 1916), p. 184, No. 213,

وتجد في أرطاس أيضًا[31] رجالًا يقفون عند الأبواب متبجحين، يقسمون بطلاق زوجاتهم؛ فمن المهابة و«الرجولة» أن لا يخشى الرجل التلفظ بكلمة الطلاق؛ لأنها تنطوي على المخاطرة بعواقب وخيمة. ويشبه هذا لعب الأطفال بالنار؛ فهم يدعون أنه ليس خطيرًا على الإطلاق إذا كان المرء حذرًا بما يكفي، وهو يستهويهم في الوقت نفسه؛ لأنه يمكن أن يفضي إلى عواقب مرعبة. وكان من الطبيعي أنني حاولت أن أتبين لمَ ليس لهذا التهديد الأرعن المتكرر بالطلاق سوى أثر ضئيل في الواقع؛ فالرجل، في ما يبدو، يخدع الآخرين بهذا التهديد، بل ويخدع نفسه أيضًا.

وعندما بحثت هذا الأمر مع رفيقاتي من النساء في القرية ذات مرة، ألقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) مرة عبارة عن الطلاق الهين «طلاق هيِّن» (طلاق هِيِّن) و«طلاق التفريق» (طلاق قطُع). وفي الحقيقة، علينا أن نتبين أن هناك فرقًا بين درجات الطلاق المختلفة[32]، إذ إن للصيغة وأنواعه، والصيغة المستخدمة في كل حالة حاسمة في التمييز بين هذه الدرجات؛ فليس لكل الصيغ القوة ذاتها والأثر عينه، بل إن بعضها ليس له وزن شرعي.

الطلاق المشروط شائع جدًا، وهو صنف قائم بذاته؛ فإذا ما أراد رجل أن يجبر أحدًا على إنفاذ أمره، أو الاستجابة لرغبته، هدد بطلاق زوجته في حالة الرفض.

وعندما هجر خليل إبراهيم [3] زوجته سارة مصلح (زوجة خليل إبراهيم [3]) مدة سبع سنوات، ولبث في بيت إسْمَعين [51] آملًا أن يتزوج ابنته، أهاب به أخوها أحمد إسْمَعين [52] أن يعود إلى زوجته وأطفاله قائلًا:

= «إن كان خبزك مخبوزًا، وماؤك في الكوز، فما حاجتك لعجوز (لامرأة عجوز)؟ – إن كان هناك من يقوم بعمل البيت، فما الحاجة إلى زوجة. لديك ما تحتاج، فماذا تريد أكثر؟».

(31) انظر: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 59,
«وغالبًا ما تكون كلمة الطلاق حاضرة على شفاه العرب» [ترجمة عن الفرنسية].

(32) يقول فيتزجيرالد في كتابه: Fitzgerald, *Muhammadan Law*, p. 73,
أن ثمة سبعة أنواع للطلاق: «الطلاق، والخُلع، والمبارأة، والفسخ، والإيلاء، والظِهار، واللِّعان».

«سأطلق زوجاتي ولا أدخل على أي منهن، وسيكنَّ كأخواتي[33]، ولن يكون لك عرائس عندنا ما لم تعد إلى عائلتك وزوجتك (عليًّ إلطّلاق من نسواني، ولا أَخُش عليهن، زي أُختي إنك ما بتوخذ منَّا بنات إلا ترجع لعيلتك أو لَمرتك)!».

وقال أحمد إسْمَعين [52] في مناسبة أخرى:

«سأطلق زوجتي، وأتخلى عن حصاني (عليَّ إلطّلاق من السَّرج لَلْفَرج) إذا لم أنجح، والله يشهد!»[34].

ويحدث هذا كثيرًا عندما ينزل بأحدهم ضيف؛ فهو سيحاول أن يجنب مضيفه التكاليف الزائدة، ولكن هذا الأخير يقسم بأن يعد وليمة، وإلا فسيطلق زوجته. وأحيانًا يسبقه الضيف ويهدد بأن يطلق زوجته، إذا ما أعد له المضيف أكثر من الوجبة المعتادة. ولم يكن هناك لحم آنذاك - في ما مضى، لم يعتادوا ذبح البهائم - ولكن كانوا يحاولون الحصول على بعض العسل ليقدموه للضيف مع السمن والبيض والخبز. ويجري الأمر نفسه عندما يأتي ضيوف إلى القرية، فيتنافس الناس، في كثير من الأحيان، في شرف استضافتهم للعشاء، ويحاول كل منهم أن يفوق الآخر في دعوته، حتى يقسم الرجل منهم بأن يطلق زوجته إذا لم يسمح له بذلك، فيقال: «لقد أقسم أن يطلق من أجل عشاء الضيوف (طلق عَشا إلضّيوف)»[35]. وكذلك يفعلون عندما يعرض رجل في

(33) هو مزيج من «الطلاق المشروط» وطلاق «الإيلاء»، ويكون بأن يحلف الرجل بالإمساك عن معاشرة زوجته لمدة طويلة أو قصيرة، أو للأبد، وبذلك تكون الزوجة مهجورة من دون طلاق. أما الظّهار فهو «نوع شبيه بطلاق الإيلاء بمضاهاتها بإحدى محارمه، كأمه أو أخته. انظر: Robertson Smith, *Kinship and Marriage in Early Arabia* (Cambridge University 1885), p. 193; Theodoor Willem Juynboll, *Handbuch des Islamischen Gesetzes Nach der Lehre der Schafiitischen Schule nebst einer allgemeinen Einleitung* (Leiden, 1910), p. 224ff., and Fitzgerald, *Muhammadan Law*, p. 82.

(34) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 55.

(35) في ما يتعلق بعادة حلف الرجل بطلاق زوجته إن لم يسمح له بتقديم وليمة أو استضافة أحد الضيوف، انظر أعلاه في الصفحة 471 من هذا الكتاب، وانظر كذلك: Schmidt and Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, p. 51; Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 59, and Edward Westermark, *Ritual and Belief in Morocco*, I (London, 1926), p. 517.

عرس بصورة رسمية، كما تقتضي العادة، أن يتولى أمر عشاء العروس (عشا العروس)[36]، أو عندما يموت أحدهم فيعرض رجل عند القبر أن يتولى أمر طعام الجنازة - حرفيًا: عشاء الميت (عَشا المِيِّت) - الذي لا يمكن أن يكون في بيت الميت، وليحظى بهذا الشرف من بين منافسيه، يقرن دعوته بالتهديد بطلاق زوجته إن لم يكن له ذلك.

وفي حالات أخرى عديدة في الحياة اليومية، يهدد الرجل بطلاق زوجته إذا فعل أحدهم هذا الشيء أو ذاك، أو لم يفعل كذا وكذا، «سأطلق زوجتي إذا جئـت (عليَّ إلطَّلاق إنك ما بتيجَ)!» «سأطلق زوجتي إذا مكثتِ في هذا البيت هذه الليلة (عليَّ إلطَّلاق ما بِظَلّ ليلتش في هالدَّار)!». «سأطلق زوجتي إن لم تأكل»، وما إلى ذلك. ويكون لمثل هذا الرجل ما يريد، وإلا وجب عليه أن يطلق زوجته[37]، فيتحمل من كان سببًا في ذلك مسؤولية عظيمة.

---

(36) انظر أعلاه في الصفحتين 390 و391 وما يليها من هذا الكتاب.

(37) انظر: Schmidt and Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, p. 50,

«يعد القسم بالطلاق (عليَّ الطلاق، أو تُحرم زوجتي [علي] إن لم أفعل هذا أو ذاك) مُلزمًا كالقسم باسم الله عند المسلمين». ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 59,

«لفظة 'طلاق'.. هي بمثابة صيغة قسم» [ترجمة عن الفرنسية]. ويرد في كتاب: Antonin Jaussen and Raphaël Savignac, *Mission archéologique en Arabie*/; Pubications de la société des fouilles archéologiques (Paris [1914] 1920), p. 26 n. 1, supplément au volume II: *Coutumes des Fuqarâ*.

«لإثبات صدق ما يقول يُدخل المرء القسم في حديثه؛ إذ لا يتردد الفقير [أحد أفراد قبيلة الفقراء] في لفظ صيغة» '(طلقت مرتي)، طلقت امرأتي' إن لم يكن ما أقول صحيحًا. وفي حال لم يكن على قدر مسؤولية كلامه، عندها قد يضطر إلى إرجاع زوجته [إلى أهلها]» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول ويسترمارك في: Westermark, *Ritual and Belief*, p. 517,

«ولهذا، إذا أراد الرجل منع زوجته من الصعود إلى سطح البيت، فإنه يقول: 'علي الحرام لا طلعتي للسطح'، وهذا تحريم مُلزم؛ فعصيانها لأمره يعقبه الطلاق». ويقول يونبول في: Juynboll, *Handbuch des Islamischen*, p. 226f.,

«يستخدم الطلاق المشروط لحمل الزوج على الالتزام بأمور معينه تجاه زوجته؛ كأن يقول على سبيل: تكون امرأتي طالق إذا ضربتها، أو إذا تزوجت عليها زوجة ثانية، أو إذا لم أنفق عليها». ويقول فيتزجيرالد في: Fitzgerald, *Muhammadan Law*, p. 77f.,

إن «الطلاق المشروط أو المعلق (طلاق التعليق) يستغله المحامون كوسيلة لحماية الزوجة 'يحمل الزوج على القول: تكون زوجتي طالق طلاقًا بائنًا إذا تزوجت زوجة ثانية، أو إذا اتخذت لنفسي جارية، =

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) ذات مرة: «الطلاق كالقتل «(إلطَّلاق زي إلذَّبح)»[38].

وهناك أيضًا كثير من الصيغ التي لا أثر لها:

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«خوفًا من المخاطرة بالطلاق، يقول الرجل الذي لا يرغب (حقًا) في طلاق زوجته: «علي الطلاق (عليَّ إلطَّلاق)»، ولكنه لا يلبث أن يضيف «من ذراعي!» أو يقول: «علي الطلاق من شاربي (عليَّ إلطَّلاق من شاربي)!» أو: «علي الطلاق من رأسي (عليَّ إلطَّلاق من راسي)!»، وهذا من باب المزاح ليس إلا؛ فهو لم يخسر شيئًا، ولم يتكلف شيئًا، ولا يحتاج إلى فتوى (حكم من القاضي)[39] لإبطال الطلاق».

ومهما رفع الرجل صوته مهددًا بالطلاق، فإن ذلك لا يعني شيئًا ما لم ينطق بصيغة الطلاق الصحيحة. ولكن، عليه بالطبع أن يحافظ على صفاء ذهنه في غمرة غضبه، وأن يتنبه إلى كلامه، فلا ينطق إلا بما لا يضر، ويكمن الخطر في مثل هذه الظروف، في أن يتجاوز الرجل الحدود؛ فما إن ينطق بإحدى صيغ الطلاق حتى يقع المحذور.

وفي الطلاق «الخفيف» أو «الطلاق الهين» (طلاق هِيِّن) يقول الزوج،

= أو إذا ضربت زوجتي'. ويقع الطلاق فور تحقق الشرط». ويقول في الصفحة نفسها من المرجع المذكور: «وتستخدم هذه الصيغة، وإن كانت مستهجنة، كصيغة توكيد للقسم: 'زوجاتي طالقات إن كنت أكذب في هذا'».

(38) بحسب حديث النبي [عليه الصلاة والسلام]: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». انظر:
Ameer Ali, *Mahommedan Law*, II (Calcutta, 1908), p. 511.

يستشهد ويسترمارك بكتاب أمير علي في: Westermarck, *The History of Human*, p. 311.

انظر كذلك: Fitzgerald, *Muhammadan Law*, p. 73.

(39) قيل لي إن الرجال في المدن يلقون بقفاز على الأرض عند نطقهم بصيغة الطلاق، في بعض الأحيان، قائلين: «إنما عنيت قفازي بذلك». انظر: A. N. Matthews, *Mishkât*, English Translation (Calcutta, 1810), p. 119.

«ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة».

على حد قول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): سأطلقك! لن تلبثي في هذا البيت الليلة (عليٍّ إلطَّلاق ما بِظَلّ ليلتتش في هالدَّار)!»، ثم يكون لها أن تعود في صباح اليوم التالي»، وربما تبيت ليلتها عند بعض الجيران. أما إذا ذهبت إلى بيت أبيها، فستكون استعادة الزوج لها أعسر.

وفي «الانفصال الحاسم»، أو «طلاق التفريق» (طلاق قطُع)، تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«لا رجعة بعده[40]، عليه أن «يذبح» ثانية - أي أن يولم للخطبة، و«يكسو» - أي أن يشتري الجهاز، ويدفع المهر (هذا طلاق قطُع ما وراهِش إرجوع، إلا يعاود يذبح، يكسي أُو يدفع فيد)»[41].

وأحيانًا، قد ينطق الزوج بصيغة الطلاق (عليٍّ إلطَّلاق)، ثم لا يحدث شيء، ويذهب غضبه. وحدثتني حمدية (ابنة سليمان سند [183]) ذات مرة عن امرأة طلقها زوجها، لكنها عمدت إلى كتمان ذلك عن أهلها. وعندما سألها بعضهم لماذا تركت زوجها، أجابت بأنها اشتاقت إلى أهلها، وأنها جاءت إلى بيت أبيها لتراهم. وبذكائها، استطاع زوجها أن يستعيدها بلا عناء ولا تكاليف

---

(40) في ما يتعلق بلفظة (إرْجوع) كمصطلح شرعي انظر: Juynboll, *Handbuch des Islamischen*, p. 231,

«.. رُجوع، رِجعة، ورَجعة؛ أي التراجع عن الطلاق، وإرجاع المطلقة».

(41) يمكن تقسيم الطلاقين الأول والثاني بحسب الشريعة إلى صنفين: طلاق رجعي، وطلاق بائن. ويستطيع الزوج في الطلاق الأول أن يرجع زوجته في أي وقت يريد ودون موافقتها، واستئناف العلاقات الزوجية كيفما يشاء. أما في الطلاق البائن فلا يستطيع إرجاعها، إلا برغبة منها، ومن خلال عقد زواج جديد، انظر: Fitzgerald, *Muhammadan Law*, p. 75.

وفي كلتا الحالتين، إذا انتهت فترة العدة من دون أن يمارس الرجل حقه بإلغاء الطلاق؛ يصبح الطلاق بائنًا. انظر: Juynboll, Ibid., p. 231,

«ويمكن للرجل، في حالة الصلح، أن يتفق مع مطلقته على زواج جديد، غير أنه يكون عليه إبرام عقد زواج جديد، ودفع مهر جديد لزوجته». وبحسب لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 140,

يسمى الطلاق البائن أيضًا بـ «الطلاق البائن بينونة صغرى» تمييزًا له عن الطلاق الثالث، أو الطلاق بالثلاث المسمى «الطلاق البائن بينونة كبرى». ويستطيع الرجل في الطلاق البائن بينونة صغرى أن يسترجع زوجته من خلال زواج جديد، أما في الزواج البائن بينونة كبرى فلا يستطيع ذلك إلا بعد زواجها رجلًا آخر أولًا.

عندما ذهب عنه الغضب[42]. وزوجة كهذه تثير الإعجاب؛ فعوضًا من الغلو في العناد، أنقذت زوجها من الحرج.

وإذا لم يشهد الطلاق غرباء، فلا يهم، بيد أن الأمر يكون مختلفًا إذا سمعه أحدهم. وقالت الست لويزا عن أحد إخوتها:

«سأل هنري الرجال: «ماذا تقولون عندما تطلقون زوجاتكم؟» فرفض الرجال أن يجيبوا، «لا نستطيع أن نقولها! ولو فعلنا، لوقع الطلاق»».

وإذا كان هناك شهود على النطق بالطلاق، وقع الطلاق حتمًا، حتى وإن كان الزوج نطق به في نوبة غضب، من دون أن يقصد ذلك، أو ندم عليه في ما بعد. وعلى المرأة أن تعود إلى بيت أبيها[43]، ويكون على الزوج أن يسعى لاستعادتها من خلال القاضي أو المفتي الذي يكتب لهم فتوى. ويقال عندئذ: (المفتي قطع إلهم فتوى)[44].

---

(42) انظر المصدر نفسه، ص 249، «ليس من النادر، أن يرجع الرجل زوجته بعد أن يطلقها للمرة الثالثة (إن رضيت هي بذلك، ولم يكن هناك شهود على النطق بالطلاق)، ويفعل هذا من دون أن يخضع نفسه للتشريع المزعج [زواجها من رجل آخر] المذكور آنفًا». انظر أيضًا: John Lewis Burckhardt, *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gerbräuche der neueren Aegyptier* (Weimar, 1834), p. 4,

«إن كان زوجي راضي، فما علاقة القاضي» (جوزي راضي وانت مالك يا قاضي).

(43) يقول باور في: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 112,

«على المرأة ترك الزوج، والعودة إلى أهلها فورًا». ويقول خوري في: Churi Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammedanischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXXVI (Leipzig, 1913), p.130,

«وتغطي المرأة نفسها، وتلتحق بأهلها». أما موسل فيقول في: Alois Musil, *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (New York, 1928), p. 233,

«ما إن تدخل خيمة أهلها، حتى تقطع الصلات التي تربطها بزوجها نهائيًا، وترتبط بأهلها وليس بسواهم». ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 57,

يكفي الرجل أن ينطق بصيغة الطلاق «لكي تضطر المرأة إلى مغادرة الخيمة والعودة إلى أهلها» [ترجمة عن الفرنسية]. ويرى سليغمان في: C. G. Seligman, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe,» in: *Harvard African Studies*, II (Cambridge (Mass.), 1918), p. 144,

«وتعود المطلقة دومًا إلى خيمة أبيها، حتى وإن كانت أمها مطلقة أيضًا ومتزوجة من رجل آخر». انظر أيضًا: Georg Jacob, *Altarabisches beduinenleben: nach den quellen geschildert* (Berlin, 1897), p. 213.

(44) يُروى أعلاه في الصفحة 565 وما يليها من هذا الكتاب كيف أن الرجل يندم فورًا بعد طلاقه =

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«إذا طلق رجل زوجته بوجود أحدهم «فانتشله هذا» (أي من الحرج) بقوله: «والله لن تطلقها!» لا يقع الطلاق (إن طلق أو حدا نشلِه، أو قال لا إنشاالله هالطَّلاق ما بمرُقَّش عليه)». وليس للرجل أن يطلق زوجته إذا كانت حاملًا(45). كما لا يجوز أن يطلقها إذا كانت مرضعًا (اللي فيها ولد ما بجوزش عليها طلاق، أو اللي بترضع ما بجوزش عليها طلاق)»(46).

= زوجته، وكيف يساعده القاضي لتجاوز أزمته بكتابة فتوى له. انظر: Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammed anischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p.130f.,

«عادة ما يتبع الندم كلمات الرجل المتسرعة... ويتمكن المفتي سريعًا في الغالب، بالاستعانة بآيات من القرآن الكريم، من الخروج بفتوى تسمح بعودة الزوجة المطلقة». انظر: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 112f.,

«غالبًا ما يتبع الندم تلك الكلمات التي تقال في نوبة من الغضب، ويبحث القاضي بمساعدة الأحكام الشرعية في المذاهب الأربعة عن مخرج يتيح له تفنيد يمين الطلاق، وجعل عودة الزوجين إلى بعضهما تبدو شرعية، ويسمح بعودة الزوجة إلى زوجها بموجب فتوى كهذه مرتين فقط». ويعرض باور في حاشية الصفحة 113 من المرجع المذكور مثالًا طريفًا عن إبطال الطلاق من خلال إحدى الفتاوى.

(45) يبدو أن حمل المرأة، بحسب أحكام سبق نشرها، لا يمنع الطلاق، على الرغم من اختلاف الضوابط المتعلقة بالأمور الواجب اتباعها إذا ما أرادت الزواج مرة أخرى. ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 140,

«إذا طُلقت المرأة أثناء حملها، فينبغي عليها أن تنتظر أربعين يومًا أخرى قبل أن يبني بها زوجها، حتى وإن كان بإمكانها عقد القران مباشرة بعد الولادة». ويقول موسل في: Musil, *The Manners and Customs*, p. 236,

«تستطيع الزوجة المطلقة في المراحل الأخيرة من الحمل أن تتزوج مرة أخرى في الحال، وإذا لم يكن حملها باديًا، فعليها أن تنتظر ستة أشهر، في الأقل، (ليها عِدّة). وما إن يتضح حملها لطفل في رحمها من زوجها، حتى يصبح بإمكانها أن تتزوج رجلًا آخر». انظر: W. E. Jennings-Bramley , «The Bedouin of the Sinaitic Peninsula,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXIX (London, 1907), p. 25, and John Lewis Burckhardt, *Notes on the Bedouins and Wahâbys*, I (London, 1830), p. 63,

«الطلاق شائع جدًا عند قبيلة عنزة، حتى إنه ليقع خلال الحمل». ويقول يونبول في: Juynboll, *Handbuch des Islamischen*, p. 239,

إذا كانت المرأة المطلقة حاملًا، فإن الأطفال ينسبون إلى الزوج الأول.

(46) تشير المراجع الآتية إلى أنه يمكن للمرأة المطلقة إرضاع طفلها. يقول خوري في: Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammed anischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 133,

«إذا كان للمطلقة أطفال، فإنهم يبقون مع أبيهم إذا كانوا بلغوا الفطام. وللأم الخيار في أن تأخذ أطفالها الصغار معها، ويكون عليها أن تنفق عليهم في هذه الحالة، ولا تجب النفقة على الأب إلا للرضيع، فيدفع لأمه مبلغًا من المال عن كل يوم إلى أن يبلغ الفطام». أما جوسان فيقول في: Jaussen, = *Coutumes des Arabes*, p. 16f.,

وإذا كانت هذه الأقوال صحيحة، فإن من شأنها الحد من حالات الطلاق النافذ[47]. وفي حالة واحدة على الأقل، لم يؤخذ بالحكم الأخير من عدم جواز طلاق المرضع؛ فقد طلقت سارة (ابنة خليل إبراهيم [134]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) من زوجها مع أنها كانت ترضع طفلها[48]، فكان على النساء في القرية أن يرضعن طفلها. غير أنه يقال إن إبراهيم عايش [82] تزوجها في اليوم التالي، دون أن ينتظر انقضاء فترة العدة الواجبة شرعًا (عِدّة)[49]، ليمعن في

= إنه لم يرَ سوى حالة واحدة أُخذ فيها طفل يبلغ الأربعين يومًا من أمه، وما عدا ذلك فمن العادة أن ترضع المرأة طفلها لمدة سنتين. ويقول موسل في: Musil, *The Manners and Customs*, p. 236,

«إذا كان عندها أطفال صغار فإنها تأخذهم وتعتني بهم حتى سن السابعة، ثم يعودون بعدها إلى خيمة أبيهم». ويقول بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 64,

إن طُلقت الزوجة وهي حامل فإنها «ترضع طفلها إلى أن يستطيع الجري، وبعدها يأخذه الأب إلى خيمته». ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 140,

«إذا كان للمطلقة ابن تحت سن الثانية، فلها أن تمسكه حتى يبلغها، وقد يكون ذلك واجبًا عليها بحسب المذهب الشافعي. أما بحسب المذهب المالكي، فعليها أن تمسكه حتى سن البلوغ. فيما يحدد المذهب الحنفي المدة التي يبقى فيها الولد مع أمه بسبع سنوات. أما الابنة فتبقى مع أمها حتى سن التاسعة، أو حتى سن البلوغ».

(47) انظر: Abd Allāh, *Mishkat*, p. 117,

لا يجوز للرجل أن يطلق زوجته أثناء فترة الحيض. ويقول توماس في: Bertram Thomas, «Anthropological Observations in South Arabia,» *The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*, vol. LXII (London, 1925), p. 311,

«ومن الأحكام السائدة عندهم أن المرأة التي تصاب بالعمى لا تُطلق أبدًا». ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human*, p. 311,

«غير أن هناك شروطًا معينة لا بد منها للأهلية لإيقاع طلاق صحيح؛ إذ ينبغي أن يكون الزوج بالغًا راشدًا، وبحسب المذهبين الشافعي والمالكي يجب أن يتصرف بمحض إرادته، ويفرض المذهب الشيعي شرطًا رابعًا وهو أن تكون لديه نية خالصة لإنهاء الزواج. لكن عند الحنفية كما وضعها كتاب فتاوى الأمجيري [كتاب الفتاوى الهندية على المذهب الحنفي للملك أورنكزيب] فإن 'الطلاق يقع متى تلفظ به أي زوج راشد، ولديه فهم لمسألة الطلاق، سواء أكان حرًا أم عبدًا، أم كان يتصرف بمحض إرادته أو مكرهًا، وحتى وإن نطقها لاهيًا أو مازحًا أو كانت مجرد زلة لسان'. ويقع الطلاق عمومًا في حالة السكر الشديد، لكن ينبغي أن يكون مدركًا عندما يتلفظها».

(48) انظر أعلاه في الصفحة 560 وما يليها من هذا الكتاب.

(49) في ما يتعلق بفترة العدة انظر: Lane, *An Account of the Manners*, p. 139, and Juynboll, *Handbuch des Islamischen*, p. 171, 186, 222, 229ff, 252.

ويقول يونبول في الصفحة 467 من المرجع المشار إليه سابقًا إنه لا يجوز طلب المرأة للزواج =

إذلال زوجها السابق الذي أخذ عدوه زوجته؛ ففي ظروف كالتي أحاطت بواقعة الطلاق هذه، لم يُعبأ بالأحكام الشرعية.

وكما هو معلوم، فللمسلم أن يطلق زوجته مرتين، وأن يراجعها في المرتين. أما الخطير في الأمر، فهو أن يطلقها للمرة الثالثة، أو أن يكرر كلمة الطلاق ثلاث مرات على التوالي، كأن يقول: «اذهبي أنت طالق (تروحي طالق)!» أو «علي الطلاق (عليِّ إلطَّلاق)!» ثلاث مرات، أو أن يقول شيئًا بهذا المعنى: «اذهبي أنت طالق ثلاث مرات (تروحي طالق بِالتَّلاتِة)!»، أو أن يكتفي بقوله: «ثلاث مرات (بِالتَّلاتِة)!»[50].

وعند إبرام عقد الزواج (إلصّفاح)، على العريس أن يسأل وكيل العروس أمام الشيخ ثلاث مرات: «هل تعطيني ابنتك - أو أختك - للزواج؟» فيجيب الوكيل بالإيجاب ثلاث مرات بحضور الشهود، بعد أن يستأذن أخته أو ابنته أمام الشهود أنفسهم ثلاث مرات، فتأذن له ثلاث مرات[51]. وفي ما بعد، إذا نطق الزوج بالصيغة التي تنقض عرى الزواج ثلاث مرات، كان الطلاق بائنًا. ألا يفسر هذا أن الرجل يمكن أن يطلق زوجته ثلاث مرات، وأنه يستحيل عليه

= أثناء فترة العدة. ويشير المؤلف نفسه في الحاشية «ج» من الصفحة 490، من المرجع المذكور، إلى أنه لا ينبغي الخلط بين عدة المطلقة وعدة الأرملة. انظر أدناه في الصفحة 592 من هذا الكتاب.

(50) يقول الرجل في بعض الأحيان:

«اذهبي فأنت طالق ثلاثًا	(وتروحي طالق بالثلاثة
على سبع مذاهب	عَ سبع مذاهب
لا راد لك	ما يردتش
لا شرع ولا شفاعة شافع	لا شرع ولا فرع
ولا خنازير الغور»	ولا خنازير الغور)

لصيغ أخرى انظر: Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammed anischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 131,

«أنت طالق على المذاهب الثلاثة للمسلمين، وكلما حللت لي حرمت علي» و«إذا ما اقتربت منك، فأنت حرام عليّ كحرمة أمي وأختي». انظر أيضًا: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 113,

«وكلما حللت لي بالفتوى زوجة شرعية حرمت علي».

(51) انظر أعلاه في الصفحة 328 وما يليها من هذا الكتاب.

مراجعتها بعد المرة الثالثة؟[52] ولنا أن نتساءل إن كان هذا هو أصل الأحكام المتعلقة بالطلاق الثلاثي[53] في الإسلام؟

ومما يدعم فرضية وجود علاقة بين الصيغة الثلاثية عند إبرام عقد الزواج[54] وعند فسخه، أنه يمكن للغريم أن «يربط» العريس والعروس ليفرق بينهما[55]، إما بنثر الطحين، وإما بعقد عقدة في خيط كلما نُطقت كلمة رابطة، كما يدعم هذه الفرضية الأهمية التي يتخذها الرقم «ثلاثة» في مراسم أخرى؛ فالعريس يضرب يد زوجته ثلاث مرات عند دخولهما البيت للمرة الأولى[56]، وعندما يأتي إليها في المساء، يضغط بسيفه على وجهها ثلاث مرات قبل أن يرفع به الخمار عن وجهها، ليوقع مهابته في قلبها، وسوى ذلك من المراسم[57].

وعلى الرغم من سهولة النطق بالصيغة الثلاثية للطلاق، فإن عواقبها

---

(52) ومن الواضح أن التفسير الآتي هو تفسير ثانوي؛ إذ فيقول باور في المصدر نفسه، ص 112، «وصيغة الطلاق هي: 'والله، عليَّ الطلاق بالثلاثة (مع أو بدون لفظة «مِنَّك»)!' ويتصل لفظ 'بالثلاثة' الموجز بالمذاهب الإسلامية». ويقول خوري في: Dschirjus, Ibid., p. 131,

«يتصل لفظ 'بالثلاث' بالمذاهب الإسلامية المسماة بأسماء مؤسسيها، وهي الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية. وبالطبع، فإن صيغة الطلاق التي ينطق بها الرجل، تتضمن مذهبه الديني وإن لم يذكره صراحة. إلا أن هناك حكمًا شرعيًا آخر، يستطيع الرجل بموجبه أن يطلق ثلاث مرات، يتبعها في كل مرة بلفظ 'بالثلاث' فيجمع ثلاث طلقات بطلقة واحدة، ويعطي لنفسه الحق بطلاق زوجته مرة ثانية وثالثة».

(53) والتفسير المعهود لذلك هو أن الطلاق بين العرب في الجاهلية كان يؤدي إلى إنهاء الزواج فورًا وبصورة نهائية، وعندما سن النبي محمد [عليه الصلاة والسلام] هذا التشريع، إنما أراد أن يمنع الطلاق المتسرع قدر الإمكان. انظر على سبيل المثال: Juynboll, *Handbuch des Islamischen*, p. 229.

إلا أن هذا على أية حال لا يفسر لم حدد النبي [عليه الصلاة والسلام] المسألة بثلاث طلقات.

(54) انظر أعلاه في الصفحة 329 من هذا الكتاب. وفي ما يتصل بذلك قد نذكر هنا ملاحظة خوري في: Dschirjus, Ibid., p. 135,

«ولا يقع الطلاق إلا إن كان هناك عقد زواج». ويشير أحمد شكري في: A. Shukri, «Muhammedan Law of Marriage and Divorce,» in: *Contributions to Oriental History and Philology* (New York, 1917), vol. VII, p. 94,

إلى أن الطلاق يعني حرفيًا «فكُّ العقدة».

(55) انظر أعلاه في الصفحة 331 وما يليها من هذا الكتاب.

(56) انظر أعلاه في الصفحتين 401 و409 من هذا الكتاب.

(57) انظر أعلاه في الصفحة 419 وما يليها من هذا الكتاب.

مهلكة؛ فالطلاق الثلاثي يفرق بين الرجل وزوجته إلى الأبد، إلا إذا تزوجت المرأة رجلًا آخر، ثم طلقها؛ فعندئذ يمكنها أن تتزوج زوجها الأول مرة أخرى[58]. ونجم عن هذا الضابط نوع مؤقت من الزواج، لا غاية له إلا أن يتمكن الزوجان المطلقان طلاقًا بائنًا من الزواج مرة أخرى؛ إذ يتعهد رجل بأن يتزوج امرأة مطلقة، على أن يطلقها حال إتمام الزواج[59]، ومن خلال هذا الزواج الجديد، «يحل» لزوجها الأول أن يتزوجها مرة أخرى. ويُدعى هذا الزوج المؤقت «مِستَحَل»؛ أي ذلك الذي يجعل شيئًا ما حلالًا. والمؤلم في الأمر، هو أن هذا الزواج المؤقت لا يجوز أن يكون زائفًا.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«يجب أن يدخل عليها «المستحل»، ويجب أن يتركا في خلوتهما»[60].

---

(58) انظر الآية 229 وما يليها من سورة البقرة. ويحرم على الرجل أن يرجع طليقته إذا ما تزوجت في هذه الأثناء رجلًا آخر، بحسب الآية الثالثة وما يليها من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية.

(59) ويختلف هذا بطبيعة الحال عن زواج المتعة المؤقت اختلافًا تامًا؛ إذ لا حاجة فيه لطلاق رسمي. انظر: Sara Kohn, *Die Eheschliessung im Koran* (London, 1934), p. 88ff.; Juynboll, *Handbuch des Islamischen*, p. 288, and George Wilken, *Das Matriarchat bei den alten Arabern* (Leipzig, 1884), p. 9ff.

(60) يقول فيتزجيرالد في: Fitzgerald, *Muhammadan Law*, p. 75,

إن الزوجة لا تجبر على القبول بزوج كهذا، «استخدم لغرض واضح وهو أن يطلق المرأة لكي تحل لزوجها الأول». انظر: Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammedanischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 132f.,

«يسمى في الشريعة 'التيس المستعار'، ويعرف عند العامة باسم 'مُستَحِل'، وبين بدو فلسطين باسم 'محَلّل'؛ أي المُحلّل... وقد يكون أداء مهمة المُستَحِل مربحًا في كثير من الأحيان، ولا سيما إذا اضطر الرجل المطلق إلى دفع مبلغ كبير من المال، لكي يجد من يرضى بهذا الفعل المشين، أو لكي يرد المُستَحِل الزوجة بإرادته مرة أخرى». انظر أيضًا: Bauer, *Volksleben im Lande*, p. 113; James Edward Hanauer, *Folk-Lore of the Holy Land* (London, 1907), p. 119, and George Robinson Lees, *Village Life in Palestine* (London, 1905), p. 121f.

ويقول جوسان في: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 347f.,

«ويسمى الزوج الثاني 'مُجَحِّش'.. في الاستخدام الدارج» [ترجمة عن الفرنسية]. أما لين فيقول في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 250,

«يقع الاختيار في العادة على رجل فقير (في العموم شخص قبيح جدًا وضرير في كثير من الأحيان) لأداء هذه المهمة. ويسمى 'مُسْتَحِل' أو 'مُحلِل'. ويحدث في كثير من الأحيان أن يرفض الرجل المستخدم لهذه الغاية... التخلي عنها». انظر: Burckhardt, *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gerbräuche*, p. 31,

«ألف حبيب ولا مُسْتَحِل» و«أحباب كثيرون لا يجلبون العار للمرأة كما يفعل مُسْتَحِل واحد».

ولا يحب رجل أن يعرض نفسه إلى مثل هذا الخزي، ولكنه لا يريد، في الوقت نفسه، أن يفقد زوجته(61).

قالت الست لويزا:

«يُسأل أمام القاضي: «أتسرق (بتسرق)؟ (أي الزوجة) أتزني (بتزني)؟»

وإذا لم يكن هناك سبب لطلاقها، يقول القاضي للزوج: «أعطها مهرها (بِحُط فيدها)!»».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «إذا طلبت هي الطلاق، فعلى أهلها أن يدفعوا. أما إن رغب هو في الطلاق، فعليه أن يدفع التكاليف. وإذا تركت وراءها أولادًا، يدفعون نصف المهر».

وقالت تارةً أخرى: «إذا طلبت هي الطلاق، تعيد المهر والتكاليف. وإذا رغب هو في الطلاق، يدفع المهر والتكاليف (إن طلبت هي إلطّلاق بتحط هي إلفيد أو إلمصاريف، أو إن طلب هو إلطّلاق بحط إلفيد أُو إلمصاريف)».

وفي ما أرى، فإن خسارة الرجل المادية إذا أراد الطلاق أكبر بكثير من خسارة المرأة (أي أهلها) إذا أرادته هي أو أهلها؛ فعلى أهل المرأة أن يعيدوا المهر(62)، ولكنهم في المقابل، يستعيدون ابنتهم التي يستطيعون أن يزوجوها مرة أخرى بمهر جديد. أما الزوج، فهو يخسر المهر الذي دفعه من أجل زوجته، من دون أن يحصل على شيء لقاء ذلك(63). وإذا كان الرجل قد أنفق مبالغ

---

(61) في ما يتعلق بـ «reprise de la femme» بين البدو من خلال «la victime de larepudiatio»، ومن خلال إعطاء المرأة حق الطلاق، انظر: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 347f.

(62) انظر أدناه في حاشية الصفحة 589 من هذا الكتاب.

(63) يقول ياكوب في: Jacob, *Altarabisches beduinenleben*, p. 212f.,

«يرتبط الطلاق بالنسبة إلى الزوج بخسارته للمهر». وقد ذكر غير باحث، أنه إذا ما رغب الرجل بطلاق زوجته في الوقت الحاضر من دون أن يكون لديه سبب شرعي لذلك، كسوء سلوكها أو عقمها، أو عدم قدرته على التفاهم معها، فبإمكانه طلاقها، على أن يعطيها تعويضًا يتفاوت [من طلاق لآخر] لكنه يشتمل عادة على جزء من مهرها، وهو الثلث عمومًا، وهو ما أبقاه منذ البداية ليدفعه في ظرف كهذا، أو عند موته، وتأخذ معها كذلك متاعها وأملاكها التي جلبتها معها عند الزواج. ويقول جوسان في: Antonin Jaussen, *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district* (Paris, 1927), p. 57, =

كبيرة ماديًا للحصول على زوجته الأولى، أو استعان بأقاربه على ذلك، فلن يقدم على طلاقها بلا سبب. وفي الغالب، لا يجد الرجل مالًا يحصل به على زوجة جديدة بدلًا من تلك التي تخلى عنها. وتجري هنا الضوابط المالية نفسها التي تجري في حالة تعدد الزوجات، بيد أن الرجل الذي لا يخسر عمل زوجته الأولى إذا ما اتخذ زوجة ثانية، يخسره إذا طلقها، وهذا ما يجعله يحجم عن الطلاق؛ فقيمة المرأة المادية هي بالتأكيد عامل حاسم في اتخاذه القرار بطلاق زوجته أو البقاء معها. وحتى إن كانت أحواله المالية حسنة تتيح له أن يطلق زوجته، فهو يكره أن يذهب ماله إلى الغرباء. وبينت لنا الأمثلة أنه من الذل والعار أن يرى الرجل زوجته تذهب إلى رجل آخر، وأن أحد الأزواج سارع باستعادة زوجته عندما علم بأن زواجًا آخر كان يدبر لها، وأن الزوج لا يسيء إلى أهل زوجته إلا مضطرًا.

ولا بد أن هذا كله يحدث في أماكن أخرى أيضًا، وإن كانت أرطاس قريةً

= «وللطلاق... يترك جزء من المهر من باب الاحتياط 'مؤخّر'» [ترجمة عن الفرنسية]. انظر: E. Graf von Mülinen, «Beiträge zur Kenntnis des Karmels,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, vol. XXX (Leipzig, 1907), p. 171,

«... والثلث المتبقي (فيد مُتأخّر) يكفل بواسطة إصدار سند (سَنَد إلمتأخّر). وتستطيع الزوجة في حال الطلاق أن تظهر هذا السند للقاضي، للحصول على مؤخرها (فيد متأخّر). لكن إن تركت المرأة الرجل، فعليها أن تتخلى عن مؤخرها». انظر أعلاه في الحاشية 11 من هذا الفصل. انظر أيضًا: Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammedanischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 133; Jaussen: *Coutumes palestiniennes*, p. 57, and *Coutumes des Arabes*, p. 59; Musil, *The Manners and Customs*, p. 469; Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 25, and Lane, *An Account of the Manners*, p. 139.

ويقول وسترمارك في: Westermarck, *The History of Human*, p. 312,

مشيرًا إلى: Ali, *Mahommedan*, p. 531,

«في الحالات التي يعزم فيها الزوج على الطلاق، عليه أن يقدّم لزوجته حسابًا عن إدارته لممتلكاتها خلال فترة الزواج، وأن ينقل إليها ممتلكاتها بالكامل، إضافة إلى ما اتفق عليه قبل الزواج، أو المهر، وإذا أخفق في ذلك فيكون عندها عرضة للخسائر إضافة إلى دفع المهر».

ويذكر لين حالة خاصة في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 140,

«إذا طلق الرجل زوجته قبل الدخول، يدفع لها نصف قيمة المبلغ الذي وعد أن يدفعه لها كمهر، وإذا لم يعدها بمهر، فيدفع لها نصف أقل مهر يُدفع بحسب القانون كما ورد أعلاه، وتستطيع الزواج مباشرة [من دون أن تعتد]». انظر الآية 236 وما يليها من سورة البقرة.

فقيرة قليلة النساء، حتى إن ذلك ليحد من حرية الأزواج في تطليق زوجاتهم. وسيكون أمرًا بالغ الأهمية والقيمة، أن نحصل على مادة للمقارنة من أكبر عدد ممكن من الأماكن، على شكل إحصاءات لحالات الطلاق وآثارها، وأسباب كثرتها أو قلتها، وأعتقد أن من شأن ذلك أن يصحح أفكارنا عن الرجل الشرقي الذي نحسبه جبارًا، يتخلص من زوجته بمجرد النطق بالعبارة اللازمة لذلك، والذي لا ينفك يفعل ذلك وقتما يشاء.

ولعلي أذكر هنا أن شكوكًا كانت تساورني، حتى قبل أن أبدأ عملي الميداني، عن كثرة الطلاق بين المسلمين التي يرد ذكرها كثيرًا(64) في

---

(64) انظر: Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 59,
«يقع الطلاق على نطاق واسع» [ترجمة عن الفرنسية]. ويقول ليز في: Robinson Lees, *The Witness of the Wilderness* (London, 1909), p. 114,
«... تسهيلات الطلاق والزواج شائعة جدًا؛ إذ في كثير من الأحيان، يبدل الرجل زوجاته أكثر من تبديله لملابسه». ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human*, p. 314,
«كتب إلي الدكتور تشيرتشر (Dr. Churcher) من طنجة أنه قيل له إن أحد الخدم هناك تزوج من تسع عشرة زوجة، على الرغم من أنه كان لا يزال في متنصف العمر. وقد التقيت أنا بنفسي أحد البربر من سوس، في جنوب المغرب، وأخبرني أنه طلق اثنتين وعشرين زوجة». ويسوق المؤلف هاتين الواقعتين، وهاتين الواقعتين فقط، ليوضح أن المغرب، أو بعض أجزائها، هي من البلدان حيث الطلاق بين المسلمين «يُمارس على نحو لا نظير له». ويروي بيركهارت في: Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 64,
أنه تعرَّف إلى عرب يبلغون من العمر خمسًا وأربعين عامًا وكانوا تزوجوا أكثر من خمسين زوجة مختلفة. ويقول لين في: Lane, *An Account of the Manners*, p. 247,
«ولكن، على الرغم من أن الرجل يكتفي بزوجة واحدة، فإنَّ له أن يستبدلها متى يشاء. وبالتأكيد، ليس هناك كثيرون في القاهرة ممن لم يطلقوا زوجة واحدة في الأقل، إذا كانوا متزوجين منذ فترة طويلة». وفي الصفحة 251 من المرجع المذكور يقول لين: «ويمكن تخيل التأثيرات المفسدة لتيسير الطلاق على الجنسين؛ ففي هذا البلد الكثير من الرجال الذين تزوجوا ما يقرب من عشرين، أو ثلاثين، أو أكثر من النساء خلال عشر سنين». بل إن لين سمع عن رجال اعتادوا أن يتزوجوا زوجة جديدة كل شهر.
وعلى الرغم من هذه الشواهد، ينبغي أن نحذر من الخروج باستنتاجات واسعة جدًا. وبغرض المقارنة، فلنفكر بما يرد في الصحافة اليومية الغربية من أخبار عن الطلاق، والجرائم، والسرقات، وما إلى ذلك، فلا يجوز أن نستند إلى هذه الحالات الاستثنائية في بناء رأي متعلق بأخلاقيات الغرب على وجه العموم. وقد تكون هذه الشواهد التي يرويها بيركهارت ولين قد وصلت إلى مسامعهما بسبب الاهتمام بالحالات الاستثنائية، المنتشر بكثرة، وهو سمة مشتركة مع الشرقيين أيضًا؛ فهم يميلون إلى الحديث عن الحالات المتطرفة فحسب.

الدراسات. ولربما أنني كنت سأستنتج أن كثيرًا من الرجال يطلقون زوجاتهم، لو أنني بنيت أحكامي على تلك الملاحظات من دون إجراء الإحصاءات.

وبالطبع، وحدها الإحصاءات المفصلة هي التي تحسم الأمر، ولكن، في ما أرى، يكاد لا يكون هناك ما يدعم القول بكثرة الطلاق بين المسلمين، وإذا كان الطلاق كثيرًا، فهو يرجع إما إلى وجود زيادة كبيرة في عدد النساء، حتى إنه ليتسنى للرجل أن ينتقي ويغير زوجاته كيفما شاء، وإما أن كثيرًا من الرجال لا يجدون غضاضة في الزواج من نساء كن زوجات لرجال آخرين. وقد يحدث هذا في حالات استثنائية وفي مدن كبيرة جدًا، ولكن إذا ما أردنا أن نتخذ ذلك قاعدة، وجدناها غير معقولة. ومن غير المعقول أيضًا أن نحسب أن الرجل العادي لا يكن الود لزوجته، وأنه يتركها تذهب إلى رجل آخر، في حين أن الزوج وأقاربه في أرطاس لا يدعون الزوجة التي دفعوا مهرًا من أجلها، وقدموا لها الهدايا، تذهب إلى رجل غريب إلا كارهين، وأنا أعتقد أن هذه هي طبيعة البشر. ولا بد أنه من المحال من الناحية الاقتصادية تغيير الزوجات المرة بعد المرة؛ إذ إن كل زواج يكلف الكثير من المال، ثم إن على المسلم في أي بلد كان أن يحسب حسابًا لأهل زوجته، فهو لا يجرؤ على إهانة أحد أفراد عائلتهم، وعلينا أن نميز هنا بين سهولة الطلاق النظرية وعواقبه العملية الخطيرة التي يفضل الرجل عادة أن يتجنبها.

ويقال إن المرأة لا تستطيع أن تطلق زوجها، ولكننا رأينا أنها تستطيع أن تترك بيت زوجها بإرادتها، وأن تفعل هذا بذكاء، مستعينة بالدعم الذي تتلقاه من أهلها[65]؛ فالمرأة لا تجد الدعم عند زوجها كما هي الحال عندنا، كما أن

---

(65) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب. انظر كذلك: Burckhardt, Ibid., p. 64,

«ويسمح الشرع للزوجة بنوع من أنواع الطلاق؛ فإذا لم تكن سعيدة في خيمة زوجها، تهرب وتلجأ إلى خيمة أبيها أو أحد أقربائها». وتفعل المرأة هذا، في بعض الأحيان، كخطوة أولى للحصول على الطلاق. ولما كان إنهاء الزواج بصورة قطعية بيد الرجل، فإن ذلك [هروب المرأة كخطوة أولى نحو الطلاق] لا ينتهي دائمًا النهاية المطلوبة؛ فإذا ما أصر الرجل على رفضه للطلاق، يحكم عليها أن تعيش حياتها وحيدة. ويضيف المؤلف نفسه في الصفحة 64 من المرجع المذكور: «وتسمى الزوجة المنفصلة عن زوجها من دون طلاق تام 'طامحة'، وتضم هذه الفئة عددًا كبيرًا من النساء». ويقول في الصفحة =

الزوج لا يواجه الزوجة وحدها عند الخصومة، بل يواجه العائلة كلها؛ فهي لا تزال فردًا من أفرادها أبد الدهر، وهي لا تظهر بنفسها على الملأ في مثل هذه الحالات، إلا أن إخوتها قد يجبرون الزوج على الطلاق في ظروف معينة[66].

= 154: «وعند عرب سيناء نادرًا ما يرفض الزوج المهجور طلاق زوجته الهاربة». انظر كذلك الصفحة 151 من المرجع المذكور. في ما يتعلق بالموقف الصعب للزوجة الهاربة التي لا يتلفظ زوجها بصيغة الطلاق المطلوبة، انظر: Musil, *The Manners and Customs*, p. 235f., and Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammedanischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 134f.

(عند حديثه عن البدو في غزة وبئر السبع).

Jennings-Bramley, «The Bedouin of the Sinaitic Peninsula,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 25.

(66) من الأمثلة على ذلك: إحدى الفتيات ترفض الزواج من رجل أصيب بالجذام وكانت مخطوبة له، وقد أجبره أبوها على التخلي عنها، انظر أعلاه في الصفحة 563 من هذا الكتاب. وامرأة ترفض البقاء في بيت لعن فيه أهلها ما أدى إلى الطلاق، انظر أعلاه في الصفحة 566 من هذا الكتاب. ورجل طلب طلاق ابنته لظلم زوجها لها، انظر أعلاه في الصفحة 568 وما يليها من هذا الكتاب. وأخو امرأة طلب طلاق أخته لأن زوجها كان عنّينًا، انظر أعلاه في الصفحة 570 وما يليها من هذا الكتاب.

وفي الأدبيات عن الموضوع ثمة ذكر لحالات طلاق كثيرة كالمذكورة أعلاه. وأهم أسباب طلب المرأة للطلاق هو عنّة زوجها. انظر: Dschirjus, «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammedanischer Ehegatten,» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, p. 134, and Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 57.

وسبب آخر يعطي المرأة الحق في الإصرار على الطلاق هو عدم حصولها على مسكنها «الشرعي»، واضطرارها للعيش مع عائلة زوجها، أو مع ضرّتها. وبحسب خوري في الصفحة 134 من المرجع المذكور، تحدث حالات الطلاق هذه في القرى، في بعض الأحيان. وثمة أسباب أخرى، مثل الأخطاء الجسيمة التي قد يرتكبها الزوج؛ كالمعاملة القاسية أو الإهمال، وفي مثل هذه الحالات يقرر القاضي ذلك. ويلخص سنوك هرخرونيه المسألة على النحو الآتي في: Hurgronje, *Mekka*, p. 107f.,

«وفي جعبة المرأة أيضًا العديد من الوسائل القانونية وغير القانونية لإنهاء الزواج. وبالنسبة إلى القاضي للمرأة الحق في المطالبة بحريتها بسبب سوء المعاملة، أو عدم قدرة الرجل على توفير المسكن، والكسوة، والطعام لها، أو عنّة الزوج أو جنونه. وعلاوة على ذلك، قد تشتري المرأة الغنية الطلاق من الزوج الفقير. والأيسر من هذا كله، هو أن تجعل حياة الزوج المكروه جحيمًا لا يطاق، لكي يضطر، بعد محاولات يائسة لإقامة سلطته، إلى المبادرة بطلاقها».

كثيرًا ما يكون على المرأة أو أهلها أن يعوضوا الرجل إن هي أصرت على الطلاق، وقد تصل قيمة التعويض في كثير من الأحيان إلى مهر العروس بكامله. انظر ما استُشهد به من المؤلفين أعلاه إضافةً إلى: Musil, *The Manners and Customs*, p. 235f.; Jennings-Bramley, «The Bedouin of the Sinaitic Peninsula,» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, p. 25, and Burckhardt, *Notes on the Bedouins*, p. 154. =

ومن شأن هذا أيضًا أن يزعزع الاعتقاد بجبروت الزوج في الشرق إلى حد بعيد؛ إذ يمكن أن تجبره عائلة الزوجة على طلاقها.

وأسوأ ما في الأمر بالنسبة إلى المرأة، هو أنها تخسر بالطلاق أولادها؛ فهم ينتمون إلى زوجها، ولا يجوز إبعادهم عن بيته. وسنرى في الفصل المقبل، أن هذه هي المسألة المحورية في الفسخ الطبيعي لرابطة الزواج الناجم عن الموت.

= وفي حديثه عن الخلع يقول يونبول في: Juynboll, *Handbuch des Islamischen*, p. 232,
«ما يميز هذا الطلاق هو أن المرأة تشتري حريتها من خلال إعادة المهر لزوجها. وبالطبع، لا تعيد المرأة المهر بنفسها، وإنما يعيده أقرب أقربائها الذكور، وهو الذي كان قبض المهر في البداية». ويقول ويسترمارك في: Westermarck, *The History of Human*, p. 311,
«كما كانت عليه حال عند العبرانيين، كان العرب القدماء يسمحون للزوج بطلاق زوجته متى شاء، لكننا نسمع أيضًا عن نساء ذوات حسب من العرب طلقن أزواجهن». ويستشهد ويسترمارك بكتاب:
Nicolas Perron, *Femmes arabes avant et depuis l'islamisme* (Paris; Alger, 1858), p. 127.
انظر أيضًا: Jacob, *Altarabisches beduinenleben*, p. 212,
«لا يحتاج الطلاق لأكثر من كلمات قليلة، إلا أن الزوجة تستطيع أيضًا تطليق نفسها بإدارتها للخيمة [إدارة اتجاه الخيمة المعهود] (Hâtim ed. Schulthess No. 50, 51)».

الفصل الحادي عشر
الأرمل والأرملة

موت الزوجة أو الزوج

عندما تموت المرأة، ليس لأحد من الرجال أن يلمسها إلا محارمها (محرَّمين عليها): والدها، وأخوها، وعمها، وخالها، وابنها، وجدها، وأولاد إخوتها، وأحفادها. غير أنه لا يجوز لأي من زوجها، وأخيه، وابن عمها (إبن إلعم)، وابن خالها (إبن إلخال)، والغرباء (إلزلام من برَّا) أن يلمسها[1]. ولهذا لا يستطيع زوجها أن يدفنها؛ فالزوج والزوجة يظلان في حقيقة الأمر غريبين، ولا يتجلى ذلك مثلما يتجلى في أنه يحرم على الزوج أن يتولى أيًا من طقوس دفنها من دون أن يرتكب ذنبًا كبيرًا؛ فالإخوة هم الذين يأخذون المرأة إلى

(1) انظر الآية الأولى وما يليها من الإصحاح الحادي والعشرين من سفر اللاويين، حيث يُقال إن الكاهن يمكن أن يتنجَّس لميت من «أقربائه القريبين»؛ وقد ذكرت أمه، واخته العذراء، وابنته ولم تذكر زوجته. وبحسب الشريعة الإسلامية لا يتنجَّس المرء بلمسه جسد ميت، لكن جسد الميت نفسه قد يتنجَّس بعد الغسل، ولهذا لا يجوز أن يقربه إلا من كان طاهرًا طهارته للصلاة. وإلى ذلك يقول تالكفست في: Knut Tallqvist, *Paradisets nyckel eller Hur man tillber Allah* (Helsingfors, 1930), p. 29,

«من الضروري الاغتسال عند ملامسة جسد الميت بحسب الشريعة الإسلامية. وتعد أجساد الأموات نجسة جدًا عند غالبية الناس. ولا يسمح لمن أصاب نجاسة بملامسة جسد الميت من الإسرائيليين بالدخول إلى المخازن أو المعابد إلى أن يطهُر (انظر الآية الثانية من الإصحاح الخامس، والآية السادسة من الإصحاح التاسع من سفر العدد). وعند البدو المعاصرين يبقى المرء نجسًا لسبعة أيام عند ملامسته جسد الميت» (عن السويدية). ويضيف: «في ما يتعلق بجثة المسلم، وُجد في التراث، كما هو موضح على نحو قاطع: 'لا يتنجس المرء بتاتًا، سواء كان حيًا أم ميتًا' [ترجمة عن السويدية]. انظر أيضًا أعلاه في الصفحة 462 وما يليها من هذا الكتاب.

مثواها الأخير، وعليهم أن يأتوا ويغطوها بعباءاتهم عند حملها على النعش إلى خارج البيت، لكي لا يراها أحد من الرجال[2]. وللسبب نفسه، يسترون مدخل القبر بعباءاتهم عند وضعها فيه، ويدخل أحدهم معها إلى القبر ليصلح من هيئتها، فيجعل يدها اليمنى تحت رأسها ويوجه وجهها إلى القبلة. وعلى سوء حال المرأة المتزوجة في مكان غريب؛ فهذه آخر وأسوأ نازلة يمكن أن تنزل بها، إذا كان إخوتها بعيدين جدًا، ولا يستطيعون أن يأتوا ليكونوا بجانبها في هذه اللحظة[3].

ولهذا، تشتكي إحداهن:

«آه من سينزلني إلى قبري (يا مَن يِدَليني بقبري

ويبعد الغرباء مني؟ أوِينحا الرجال إلغُرْب عني

كم هو بائس موت الغريب! يا حَسِرْتي موت إلغريب

وسم قلبي بصليب» تشواني على قلبي صليب)!

ويسري هذا على المرأة التي مات أقاربها القريبون قبلها؛ أي المرأة «المقطوعة»، فسينزلها إلى القبر هي أيضًا رجل غريب، ولكن بعد أن «يخاويها»[4].

وإذا ما مات الزوج أولًا، تنشأ الهوة نفسها بينه وبين زوجته في الحال، وعليها أن تودعه قبل أن يُغسل، ولا يجوز لها أن تلمسه بعد ذلك؛ فهي الآن كأي امرأة غريبة عنه. ولا يؤتمن عليه الآن من النساء إلا محارمه؛ أي: أمه، وأخته، وابنته، وجدته، وعمته، وخالته، وابنة أخيه، وابنة أخته، وحفيداته، وحماته،

(2) تروي غودريش فرير في: Adela Goodrich-Freer, *In a Syrian Saddle* (London, 1905), p. 121, في ما يتعلق بجنازة امرأة: «كان الجثمان لامرأة، لُفت بإحكام بثوبها وخمارها؛ حتى إننا لم نستطع أن نتبين سوى أنها كانت نحيلة».

(3) يُدفن الميت في الشرق بأسرع وقت ممكن؛ فهم يكرهون أن يبقى الميت فوق الأرض ولو حتى لليلة واحدة.

(4) في ما يتعلق بصيغة إنشاء رابطة الأخوة انظر أعلاه في الصفحتين 665 و666 من هذا الكتاب.

وأخته من الرضاعة (أُخته من الإرضاع)[5]، ولكل هؤلاء أن يلمسنه ويودعنه[6] حتى بعد أن يغسل[7].

وعلى الأرملة أن تتقيد بفترة الحداد.

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«تحد زوجة الميت مدة سنة، وأخواته مدة سنة، وأمه طيلة حياتها إن شاءت. أما المدة الشرعية فهي أربعون يومًا فقط».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«زوجة الرجل الميت تحد مدة سنة. ويكون الحداد كالآتي: أن لا تغسل منديلها، ولا تستحم، ولا تتجمل، ولا تلبس أحسن ثيابها، ولا تكتحل[8].

---

(5) في ما يتعلق بأحكام الزواج القرآنية الخاصة بالمحارم، والمصاهرة، والرضاعة، انظر: Hilma Granqvist, *Marriage Conditions in a Palestinian Village*, I (Helsingfors, 1931), p. 64f.

أما في ما يتعلق بمراتب التحريم في الكنيسة اليونانية، فانظر الحاشية الثالثة من الصفحة 66 من المرجع المذكور.

(6) انظر: Georg Jacob, *Altarabisches beduinenleben: nach den quellen geschildert* (Berlin, 1897), p. 140,

«ونجد في مواضع اخرى أيضًا، أن واجب النواح على الميت يقع جله على عاتق قريباته بالدم... إلا أن فيلهاوزن يبالغ إذ يزعم أن: 'الأم او الأخت هما من تصيفان أغاني النواح على الميت وليست الزوجة'. فثمة استثناءات..»، انظر: Julius Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen* (Göttingen, 1893), p. 450.

وبحسب فيتزشتاين أيضًا في: Johann Gottfried Wetzstein, «Die syrische Dreschtafel,» *Zeitschrift für Ethnologie*, vol. v (Berlin, 1873), p. 298,

فإن الأخت هي التي تنوح، ويعلق المؤلف على هذا قائلًا: «... يدور الجزء الأكبر من المرثاة حول العلاقة بين الأخ وأخته، وهي تكون غالبًا علاقة عاطفية جميلة، ولا سيما لدى العائلات الفقيرة».

(7) لعلنا نذكر هنا أن الرجل المتزوج من اثنتين يجب أن يغسل مرتين، ويكفن في كفنين. في ما يتعلق بغسل الميت عند المسلمين في فلسطين انظر: H. H. Spoer and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandete Gebiete*, v. 1 (Leipzig, 1927), p. 244.

(8) بحسب الشريعة الإسلامية، انظر: A. N. Matthews, *Mishkât*, English Translation (Calcutta, 1810), p. 134,

لا ينبغي للمرأة المُحدّة أن تكتحل في فترة حدادها على زوجها، حتى وإن اشتكت من ألم في عينيها، ولا أن ترتدي ثيابًا ملونة، سوى ما صبغ منها باللون القرمزي. في الأمر نفسه انظر: Edward =

والرسول [عليه الصلاة والسلام] أمر بالحداد أربعين يومًا، ولا يتبع أحد تعاليمه».

وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن زواج الأرملة:

«للأرملة أن تتزوج مرة أخرى بعد سنة، وإذا كانت ترضع طفلًا، فبعد فطام الطفل».

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«للأرملة أن تتزوج بعد أربعين يومًا، فبعد أن تتم الأربعين فأكثر يحق لها الزواج. وإذا كانت حاملًا، عليها أن تنتظر حتى يولد الطفل ويفطم (حرفيًا: يتعلم)، أي من ستة أو سبعة أشهر إلى سنة».

وفي الحقيقة، إن الشريعة الإسلامية تقتضي فترة انتظار تسمى (عِدَّة) قبل الزواج مرة أخرى، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام للأرملة، وثلاثة أشهر قمرية للمطلقة؛ لتتبين أهي حامل أم لا، فإن كانت حاملًا، كان عليها أن تنتظر أربعين يومًا بعد الولادة(9).

= Westermark, *Ritual and Belief in Morocco*, II (London, 1926), p. 473f., and Snouck Hurgronje, *Mekka*, II (Haag, 1889), p. 194.

(9) انظر: Abd Allāh, *Mishkat*, p. 135, and Edward William Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I (London, 1849), p. 140,

انظر أعلاه في الحاشية 437 من هذا الكتاب. ومن الجدير بالذكر أن العرب القدماء، بل وحتى في زمن النبي محمد [عليه الصلاة والسلام]، جعلوا للأرملة سنة حداد، انظر: Sara Kohn, *Die Eheschliessung im Koran* (London, 1934), p. 85.

أما في سيرة عنترة، التي يستشهد بها غولدتزر في: Ignaz Goldziher, *Muhammedanische Studien*, I (Halle, a. S. 1888), p. 246,

فتذكر فترة أربعين يومًا للحداد. ويتفق هذا مع رواية عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، وحمدية (ابنة سليمان سند [183]). وكما هي الحال في فلسطين، تختلف مدة حداد الأرملة في المغرب. ويقول ويسترمارك في: Westermark, *Ritual and Belief*, p. 473,

«.. لكن في مواضع أخرى في المغرب، اقتصرت بحكم العادة إلى أربعة أشهر (أجلو، قبيلة آيث ورياغر)، أو إلى ثلاثة أشهر وعشرة أيام (قبيلة آيث ورياغر)، أو إلى ثلاثة أشهر (قبيلة تِمسمان، بني عروس). أما عند قبيلة آيث سعد الدين، فلا تسمح عائلتها لها بالزواج مرة أخرى إلا بعد انقضاء فترة الحداد المعهودة للقريب؛ أي نحو سنة. وتتميز فترة حدادها بالتزمت على نحو خاص. ولا يسمح في أي من هذه الأماكن للأرملة الحامل من زوجها المتوفى بالزواج قبل أن تضع حملها». ويقول يونبول =

ويتمي الطفل عندئذ إلى أبيه وبيته، فيما تنتمي هي إلى بيت أبيها. وإذا أرادت الزواج مرة أخرى، كان عليها أن تعود إلى بيت أبيها أولًا، حتى لو كان زوجها الجديد هو أخو زوجها السابق؛ أي حتى لو كانت ستعود إلى البيت ذاته. والسبيل الوحيد للإبقاء عليها في بيت زوجها هو أن تتزوج فردًا آخر من أفراد عائلته، ولا سيما إن لم يكن لها أولاد، أو كنَّ بنات لا غير. وإذا لم يعاملوها بالحسنى، فقد تغادر حتى قبل انتهاء فترة الحداد، أو كما قالت الأرملة زريفة (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة موسى سعد [13]) إذ لم تلبث أن عادت إلى بيت أبيها بعد أن تشاجرت مع حماتها:

«ماتت الحمارة وانقطعت الزيارة! (ماتت إلحماره أو إنقطعت إلزّيارة)!».

وكانت زريفة (ابنة أحمد جاد الله [21]، وزوجة موسى سعد [13]) صغيرة السن، ولم يكن لها أولاد، ولم يمض وقت طويل حتى تزوجت أخا زوجها السابق.

وسنعرض لاحقًا لبعض الأمثلة التي تبين كيف يمكن أن تحار الأرملة في أمرها إذا كان لها أولاد، ثم تختار البقاء في بيت زوجها بملء إرادتها، على الذهاب إلى بيت أبيها، وكيف تتقبل هذه العائلات اختيارها هذا.

ولكنني سأذكر وأفسر أولًا بعض الأمثال التي تصور التغيير الجذري الذي يحدثه موت أحد الزوجين في حياة العائلة، وينبغي أن ننظر إلى هذه الأمثال على أنها كلمات عزاء عند الموت، وتختلف كلماتها تبعًا لمن بقي منهما حيًا: الزوج أم الزوجة.

= في: Theodoor Willem Juynboll, *Handbuch des Islamischen Gesetzes Nach der Lehre der Schafiitischen Schule nebst einer allgemeinen Einleitung* (Leiden, 1910), p. 163,

إن «خطبة الأرملة حرام، ما دامت في فترة الحداد». وقد يكون من النافع أن نذكر هنا ملاحظة غولدتزر في: Goldziher, *Muhammedanische*, p.146,

من أن الرجل إذا مات عن زوجته قبل الدخول بها فإن على أرملته أن تلتزم بفترة الحداد (العدَّة).

ويقال في هذا:

«في العيدان لا في الخشب (في الرَّق ولا في الخَشب)»؛ أي إن موت المرأة والأولاد أهون من موت الرجال.

وكذلك:

«يمكن تعويض الزوجة بالمال، ولكن الرجل هو عمود البيت، وما دام العمود قائمًا؛ فالبيت عامر (إلمرة من إلمال مخلوفِه، وإلزَّلمِه عمود إلبيت، ديمت إلعمود حاضر أُو إلبيت عامر)».

ولذلك تقول المرأة:

«فلتمت نساء أبنائنا، إن كان أبناؤنا سيحيون، وسندعهم يتزوجون كل عام (إتموت تشنايِنّا أُو تِسْلم بَنينّا، أُو نِدخلهم كل عام عريس)!».

لأنه:

«إن انقطع الخيط، تبعثرت خرزات السبحة (إنقطع إلخيط وِتْفَغْفَطَت إلمِسبحة)».

وكذلك:

«الأب يجمع والأم تفرق (إلأبو جَمَّاع أُو إلإم امفرقا)».

ومن جهة أخرى، يقال:

«إذا ماتت أمكم فاجلسوا على المزابل، وإذا مات أبوكم فاجلسوا في أحسن الأماكن (إن ماتت إمكو أقعدو عَلمزابل، أُو إن مات أبوكو أقعدو عَلمصاطب)».

أي في حالة وفاة الأب، يكون الأولاد هم الأكثر أهمية، أما في حالة وفاة الأم، فلا يمكننا أن نقول إن مصالح الأولاد تأتي أولًا؛ فهناك خطر زواج الأب مرة أخرى. ونحن نعلم، بل جاء عن العرب أيضًا أن:

«زوجة الأب غضب من الرب؛ فهي لا تُحِب ولا تُحَب

(مَرة إلأب غَضب مِن إلرَّب، لا بِتحب ولا بتنحب[10])».

---

(10) انظر أعلاه في الصفحة 520 من هذا الكتاب.

وهذا يتفق والواقع، سواء أتزوج الأب بعد وفاة زوجته أم تزوج امرأة أخرى في حياتها.

ولهذا يقال أيضًا:

«موت الزوجة خراب للبيت - بيت الزوج (موت إلمرة خراب إلبيت - بيت إلزِّلمة)».

وهذا ما يتجلى من قلة حيلة الرجل عندما لا يكون هناك امرأة في البيت؛ فالرجل يأنف من أن يعمل عمل النساء؛ فهناك حد واضح بين عمل الرجل وعمل المرأة، لا يستطيع أن يتخطاه، فمن سيجلب له الماء من البئر؟ ومن سيجمع له الحطب؟ مرة واحدة فقط رأيت شيخًا كبيرًا يحمل الحطب على استحياء ويتعذر لنفسه. ومن سيأتي بالعشب وأوراق الشجر للبهائم؟ ومن سيذهب بالحليب والفاكهة والخضار إلى السوق؟ من سيطحن له الحبوب، ويخبز خبزه اليومي[11]؟ ومن سيخيط له الثياب ويصلحها؟ ومن سينظف حجرته؟

ولذلك ذهب عِثمان محمد [37] إلى منتدى الرجال، وقال يشكو حاله بعد أن زوَّج أخته، ولم يبق لديه نساء في البيت: «بيتي خرب! بمَ تنصحون؟» ولم يخب ظنه في مروءة الرجال؛ فعلى الرغم من أنه لم يملك ما يكفي من المال، فإنه لم يمض أسبوع على ذلك، حتى غدا متزوجًا كما رأينا سابقًا[12].

زواج الأرمل وعطية القبر

حدثتني الست لويزا من خبرتها قائلة:

«إذا ترمل الرجل، يجب أن يتزوج مرة أخرى في أقرب وقت ممكن، أو أن يتخذ كنة، إن كان له ابن».

---

(11) صنع الخبز يوميًا لا يزال شائعًا في فلسطين. انظر الآية الثالثة من الإصحاح الحادي عشر من إنجيل لوقا «أعطنا خبزنا اليومي يومًا بيوم».

(12) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 152.

وربما كان عجز الرجل الكامل[13]، والذي يتجلى خاصة ساعة الفراق، هو منشأ عادة «أعطية القبر» التي أشرنا إليها من قبل، وسنأتي الآن على تفصيلها، وذلك في ما يتصل ببعض عادات الدفن الغريبة التي تجرى عند موت الزوجة أو الزوج.

يستطيع الأرمل أن ينزل في قبر زوجته قبيل دفنها فيه، ليطلب زوجة جديدة، وتُسمى الفتاة التي تُخطب على هذا النحو «أعطية القبر[14] (عطية إلقبر)، وهي شبيهة بـ «أعطية الجورة» (عطية الجوْرة) التي بحثناها بالتفصيل في الجزء الأول من هذا العمل[15].

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«عطية القبر تهدئ من روعه؛ أي تعزي الأرمل بفقدان زوجته. وهذه الهدية غالية (عطية إلقبر جَبْرِت خاطر هاذي إلعطيه غالية). ومهر العروس معروف، ولكن الهدية غالية، وتعد منةً إلى الأبد».

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن هذه العادة:

«وحتى وهم يغسلون الزوجة الميتة، يفكر الرجال في زواج زوجها الأرمل فيما هم يتحدثون عن موتها؛ فيقول أحدهم للآخر: «هذا الرجل يتمكَّث [يأبى الخروج] (بِغْصي) في القبر». «أليس لديك ابنة للزواج؟ إعرضها عليه!» أو: «أليس لديك أخت للزواج؟ شجعه على طلبها أمام الناس (إنْتخيلو فيها قُدَّام الناس)!»».

وقالت تارةً أخرى:

«لقد نزل إلى القبر والناس يحملون النعش في الخارج، واستلقى في القبر، كما لو كان يريد أن يدفن مع الميتة. واستثار هذا شفقة الناس، فلبث

(13) ذكر لي السيد حداد المثل الآتي: «أن تظل (الدهر كله) أعزب، (أهون) من أن تكون أرمل لشهر واحد (أعزب دهر ولا أرمل شهر)»

(14) انظر المصدر نفسه، ص 108، 110 وما يليها.

(15) انظر الصفحات 23 وما يليها، و110 وما يليها من المصدر نفسه.

الرجال هناك يتباحثون في الأمر: «أنت لديك ابنة! ألا تسمي نفسك قريبًا له؟ (إنتِه إسمك قرابِة)»، ثم يقولون للرجل في القبر: «سيكون لك ما تريد، اخرج من القبر!»

فيخرج من القبر، ويعده أحد الرجال بزوجة، ويجب أن يكسى هذا الذي يعده بزوجة ثيابًا جديدة، ولا بد أن يكون الأرمل أعد لذلك إما قفطانًا من الحرير، وإما شالًا، وإما عباءة زرقاء، كما أعد الكفن[16].

وسيتضح معنى الملاحظة الأخيرة عندما نصف مراسم العباءة عند القبر. ويظهر من كلام عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أن لأيٍ كان أن يعرض على الأرمل زوجة جديدة، وأن ذلك يعد سخاءً وفضلًا يشار إليه بالبنان، ويستحق الجزاء الحسن، إلا أنه يرجى من أقارب الأرمل بصورة خاصة أن يضطلعوا بواجبهم تجاهه فيزوجوه.

وهكذا حدث في الواقع عندما تمكَّث (عَصى) عبد الله عايش [81] في قبر زوجته الأولى مدللة (زوجة عبد الله عايش [81])، وكانت امرأة من التعامرة، فحصل على ابنة عمه فاطمة (ابنة خلاوي [108]، وزوجة عبد الله عايش [81]) كأعطية قبر (عطية إلقبر).

ومن جهة أخرى، قد يلجأ الأرمل إلى أقارب زوجته الميتة، للحصول على زوجة جديدة منهم، باستخدامه الصيغة الآتية: «الموت لا يقطع المصاهرة (إلموت ما بقطع نسب)!».

وفي مثل هذه الحالة، يعرضون عليه في الغالب أخت زوجته المتوفاة (زواج الأختين)[17].

---

(16) في ما يتعلق بالهدايا من الثياب التي تعطى إلى أقارب المتوفاة لغاية أخرى عند القبر، انظر: Spoer and Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem,» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*, p. 246.

وفيها أيضًا تصنيف لثياب كبار السن.

(17) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 86.

وحدث هذا في المثال الآتي، غير أن الأرمل رد العرض الذي عرض عليه في هذه الحالة، وطلب إحدى قريبات زوجته المتوفاة الأصغر سنًا. وهكذا أصبحت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أعطية القبر (عطية إلقبر) لزوجها الأول حسن أبو شَوريِّه من بدو التعامرة الذي كانت زوجته قبل ذلك خضرة (ابنة جاد الله عودة [2])، ابنة عم عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]).

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة) هذا بنفسها:

«أنجبت له خضرة (ابنة جاد الله عودة [2]) ولدًا، وكان الولد أعمى. وكان كلاهما في المستشفى - وبعيدًا من السامعين! - خرجت من المستشفى وماتت، فتمكَّث (عَصى) في القبر. وقالوا له: «خذ أختها!» قال: «لا، هي كبيرة جدًا، لن آخذها. سآخذ عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])!» قال أخي خليل [3]: «لن تأخذها حتى تحيض (بتوخُذهاش إلا تَتِجيها العادة)!»».

وذكرنا في ما سبق أنه عمل مقابل مهرها خلال فترة انتظاره؛ مما يبين أن أعطية القبر (عطية إلقبر)، في هذه الأيام في الأقل، لا ينظر إليها كهدية بالمعنى المعتاد للكلمة(18).

والمثال الثالث هي صبحة (ابنة خلاوي [108])، والتي أصبحت أعطية القبر (عطية إلقبر) لرجل من بيت لحم حيث لا يزالان يعيشان.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«ماتت فاطمة (ابنة محِمِد [117]) وهي عروس (في ليلة العرس)، وقد تزوجت الشيخ إبراهيم صبح من الفواغرة، وماتت نتيجة فض بكارتها (ماتت من أخذ وجهها)، ودفنوها عند قبر راحيل [بالقرب من بيت لحم]، وتمكَّث (عَصى) الزوج في القبر، وطلب منهم زوجة أخرى، وهي صبحة (ابنة خلاوي [108]) (إنتخولهم صبحة). ولم يشاءوا أن يعطوا إبراهيم صبح زوجة أخرى؛ فأعطوها لخليل صبح (أحد أقاربه). وهكذا كانت صبحة (ابنة خلاوي [108]) أعطية القبر، وكانت عانسًا (اتبنتت كثير) في بيت أبيها».

---

(18) انظر الصفحتين 108 و110 من المصدر نفسه.

وعلى الرغم من أنهم لم يشأوا أن يعطوا إبراهيم صبح زوجة أخرى، فإنهم لم يستطيعوا أن يتجاهلوا طلبه بالكامل، فأعطوا عروسًا لقريب له بدلًا من ذلك. وهذه إشارة أخرى إلى أن الفرد يتبع العائلة، وما يعطى لقريبه، كأنما أعطي له هو. والعروس الجديدة، لم تكن أختًا للزوجة السابقة، بل إحدى قريباتها؛ أي أنها لم تكن من البيت نفسه.

وكان إبراهيم صبح قد استخدم صيغة: «الموت لا يقطع المصاهرة (إلموت ما بقطع نسب)!» في طلبه، ويمكن أن يشمل النسب جميع أقارب الزوجة. وقد يكون التماس إبراهيم صبح في هذه الحالة الخاصة، محاولة منه لإشهار براءته من موت زوجته أمام أقاربها.

وتظهر سمات مختلفة في الحالة الرابعة من حالات أعطية القبر (عطية إلقبر) المعروفة في أرطاس، وتروي لنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) هذه المرة قصة حمدة الزير (زوجة محمد إسْمَعين [53]):

«أخذت عائلة الزير البدوية سعدة الزير (زوجة محمد إسْمَعين [53]) لدفنها عند قبر راحيل (بالقرب من بيت لحم حيث يوجد مقبرة للبدو)، وعند الجنازة، جاء عبد القادر، وهو كاتب سجلات الأنفس (أي موظف حكومي) لاستدعاء الأرمل محمد إسْمَعين [53] إلى الخدمة العسكرية، فغضب محمد الزير، وقال: «حمدة الزير (زوجة محمد إسْمَعين [53]) هي خطيبة ابني، ولكنني سأعطيها لمحمد إسْمَعين [53] (لإعفائه من الخدمة العسكرية)»، ولم يتفقوا على المهر أو على أي شيء آخر. وأبرموا عقد الزواج (إلصّفاح) أمام الشيخ، وعندما جيء بها إلى القرية عروسًا، وضعوا رايتين بيضاوين على جمل العروس. وكان موكب العرس في موسم الحصاد، وجاءوا بحمدة (زوجة محمد إسْمَعين [53]) على ظهر الجمل، وأمامها راية، وخلفها راية. وكانت هاتان الرايتان تكريمًا لمحمد الزير لما تفضل به عند القبر، ولم يعلم أحد بما اتفقوا عليه في ما بينهم، ولكنهم أعطوا محمد الزير مهرة، ومنديلًا صروا به مالًا (صُرةِ عرب)».

وفي هذه الحالة، لم يحصل الأرمل على زوجته الجديدة بتمكُّثه في القبر للمطالبة بخلف لزوجته المتوفاة، ولكنه كان سيضطر للالتحاق بالخدمة العسكرية، الأمر الذي أمكن تجنبه بزواجه من امرأة غريبة[19]. وفي ظروف كتلك، كان فضلًا عظيمًا من محمد الزير أن قدم خطيبة ابنه، وهي من أقاربه وأقارب الزوجة المتوفاة، للأرمل طواعية، والتي كانت قريبةً له وللزوجة المتوفية. وهذا مثال آخر على ما للرجل من سلطة على المرأة التي خطبها لفرد من أفراد عائلته[20]، أم أنه استطاع أن يفعل ذلك لأنه كان شيخ عشيرة الفتاة، أم لكلا الأمرين معًا؟

ويظهر تزيين الجمل برايتين بيضاوين إكبارهم لما فعله محمد الزير؛ فالرايات تستخدم للتكريم، وعندما يطلب المرء معروفًا عظيمًا، فإنه يقول: «رايتك بيضاء إن أنت فعلت كذا وكذا من أجلي!». كما تعلق راية بيضاء لله[21]؛ أي قطعة من القماش الأبيض ترفع على عمود خارج البيت شكرًا لله لاستجابته الدعاء، أو لعونه وقت الشدة؛ بالشفاء من مرض، على سبيل المثال، أو بعودة أحدهم سالمًا من رحلة طويلة، وغير ذلك.

إعلان الأرملة حملها وإحجامها عن الزواج

وعندما يموت رجل متزوج، تحدث مشاهد مشابهة عند القبر؛ فللأرملة أن تنزل إلى قبر زوجها لأسباب عديدة، ملتمسةً شيئًا من الرجال المجتمعين هناك.

فعندما قُتل سالم عِثمان [67]، كانت زوجته زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) حاملًا في شهرها الثامن، ولكن، لم يكن أحد يعلم إن كانت زوجته الأخرى عليا (زوجة سالم عِثمان [67]) حاملًا أم لا.

---

(19) انظر أيضًا الصفحات 58 و92 و147 من المصدر نفسه.

(20) انظر الصفحة 49 من المصدر نفسه.

(21) هل لنا أن نفسر عبارة «نرفع الرايات باسم يهوه» الواردة في الآية الخامسة من المزمور العشرين من خلال عادة مماثلة عند الإسرائيليين القدماء؟ انظر: T. K. Cheyne and J. S. Black, *Encyclopædia Biblica*, II, p. 1299.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«نزلت عليا (زوجة سالم عِثمان [67]) إلى القبر (طاحت في القبر)، وقالت:

«اشهدوا أني حامل (حرفيًا: رحمي ممتلئ وأثدائي ملأى)؛ فقد اغتسلت من الحيض قبل أربعين يومًا. إن جاءتني فهي في ثوبي، ولكن إن كنت حاملًا، فمن زوجي (عَمَا تِشهدو إلبُطن ملان أو إلحضن ملان، إلي أربعين يوم غاسل راسي، إن أجتني في ثوبي، أُو إن احبلت من جوزي)»».

وفي هذا السياق، علينا أن نتذكر الصيغ المستخدمة لحماية المرأة، والتي أتينا على ذكرها في فصلِ مشكلة المرأة الحردانة[22].

وقد رأينا الخطر الذي يحدق بالمرأة إذا ما ظهر حملها، ولم تحصل على حماية الزوج، حتى لو لم يمض وقت طويل على انفصالهما. وها نحن نرى ضرورة إعلان المرأة إمكان حملها عند موت زوجها، وهي تعلن ذلك أمام الرجال المجتمعين عند قبر زوجها؛ فتبرأ من الفرية، ويعترف الناس بطفلها وليدًا شرعيًا[23].

وأخبرنا خليل عِثمان (ابن عِثمان جبرين [77]) الذي جلب لنا الحليب حينًا من الزمن، الشيء نفسه عن أمه صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77])؛ فقبل أن تضعه، وهو أصغر أولادها، نزلت إلى قبر زوجها بعد أن ترملت، وقالت:

«أنا حامل منذ شهرين، تذكروا هذا ولا تلوموني في ما بعد! فما زلت طاهرة من شهرين».

---

(22) انظر أعلاه في الصفحة 531 وما يليها من هذا الكتاب.

(23) وجد ويسترمارك عادة مماثلة عند قبيلة الحياينة، انظر: Westermark, *Ritual and Belief*, p. 454, «إذا كان المتوفى رجلًا متزوجًا، وكانت أرملته حاملًا فإنها تمر مرة واحدة تحت النعش عند رفعه ليعلم الناس أن الطفل الذي ستنجبه هو من زوجها». وعند قبيلة آيت سعد الدين (انظر الصفحة 455 من المرجع المذكور): «إذا كان المتوفى رجلًا متزوجًا، وأرملته حاملًا فإنها تمر ثلاث مرات متتابعات تحت النعش بينما يسير الرجال به».

قال خليل (ابن عِثمان جبرين [77]) إنها فعلت هذا أمام جميع الناس عندما دفن أبوه، واستحسن فعلها هذا.

وقالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن هذا:

«نزلت صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) إلى القبر (خشَّت لَلقبر) وتمكَّثت (عَصَت) فيه. وقالت: «رحمي ممتلئ وأثدائي ملأى (بُطني ملان أو حضني ملان)»، فجاء إخوتها وقالوا لها: «سيكون لك ما تريدين! لن نزوجك إلا إذا طلبت أنت الزواج بلسانك (مرحبابتش ما بنجوزتش إلا تطلبي إلجِّيزه من إلسانتش)!»».

وهكذا صححت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بروايتها ما قاله الشاب خليل عِثمان (ابن عِثمان جبرين [77]) في هذا الشأن عن مولده هو، فقد أكدت أن صبحة (ابنة خليل شحادة [170]، وزوجة عِثمان جبرين [77]) أرادت بالكلمات التي قالتها في قبر زوجها أن تتجنب زواجًا جديدًا، وأن إخوتها الذين أدركوا مرادها، وعدوها بأن تظل أرملة، ما دامت ترغب في ذلك.

ومن الشائع جدًا أن تطلب المرأة هذا عند موت زوجها[24]؛ فقد فعلت والدة عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، وهي سلمى (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1])، الشيء نفسه، واستجاب أخوها لطلبها، ولو قيل له في ما بعد إن هذا أو ذاك يريد أن يتزوجها، لذكَّر القائل بالقسم الذي أقسمه:

«هذا حجاب بيني وبين النار (هذا حجاب بيني أو بين إلنَّار) أن لا أزوجها. ولها أن تمكث مع أولادها، وحتى لو قدموا لي وزنها ذهبًا، لن أزوجها لأحد (لَنْحُطو ثُقلها ذهب ما بعطيها لحدا)!».

وتبين القصة الآتية عن ذَبْلَة (ابنة خلاوي [108]، وزوجة خليل إبراهيم [3]) أن السبب وراء طلب المرأة أن تظل أرملة، ما هو إلا رغبتها في الاحتفاظ بأولادها، والبقاء معهم.

---

(24) انظر: Adela Goodrich-Freer, *Arabs in Tent and Town* (London, 1924), p. 24f.

وتروي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن زوجة أخيها خليل إبراهيم [3]:

«نزلت ذَبْلَة (ابنة خلاوي [108]، وزوجة خليل إبراهيم [3]) إلى القبر (خشَّت في القبر)، وقالت: «أريد أولادي!» فقال لها أخوها محمد [109]: «سيكون لك ما تريدين مرحبابتش)! أخرجي من القبر (إطلعي)! وأنا أعفيك من الزواج (مهجورة من إلجِّيزِه)، حتى لو لم يكن لديك إلا ابنتك رحمة، ولكن لك ثلاثة أولاد أيضًا!»».

وما إن نطق محمد خلاوي [109] بهذه الكلمات، حتى جاء أهل الميت وخلعوا عليه عباءة من الحرير (هِدِم)، مخططة بالأحمر والأصفر، فقال لهم:

«هذا من أجل الأيتام ليكون لي حجابًا من النار، وحتى لو قدموا لي وزنها ذهبًا، لن أزوجها لأحد (هذا لليتامى حجاب بيني أو بين إلنَّار لَيْحُطو ثُقلها ذهب ما بعطيها لحدا)!».

ويذكرنا هذا أن الأمر ليس التماسًا من الأرملة لإخوتها وحسب؛ فقد يميل أهل زوجها المتوفى إلى دعمها في طلبها، فأن تلبث مع أطفالها يعني أيضًا أن أهل الزوج لن يحرموا من عملها.

ويتكرر الشيء نفسه في رواية لحمدية (ابنة سليمان سند [183]) عن أختها حلوة (ابنة سليمان سند [183]) عندما ترملت في الوَلجَةِ، غير أنها كانت امرأة متزوجة في قرية أخرى، وفي هذه الحالة تضخم كل شيء، ولم يتطلب تسوية الأمور بين عائلتها وعائلة زوجها وحسب، وإنما بين أهالي القريتين عمومًا. ولم يكن أخو الأرملة صالح سليمان [184] وحده في هذا، بل كان إلى جواره زعيم أرطاس (المختار) أحمد إسْمَعين [52] الذي كان يتكلم باسم أهل أرطاس مستخدمًا ضمير المتكلمين «نحن»، ويخاطب أهل الرجل الميت باستخدام عبارة «أنتم رجال الوَلَجِة!». ولنلاحظ أيضًا أن أقرباء الزوج ليس لهم سلطة على الأرملة، وأن عليهم أن يلجأوا إلى رجال أرطاس ليتعاملوا مع ابنتهم في القبر. وعندما يتكلم أحمد إسْمَعين [52] بنبرة السلطة تلك، يتضح للجميع أي دعم تحظى به المرأة من أرطاس من أهل قريتها.

وجرت القصة كالآتي:

«في اليوم الذي مات فيه زوجها، غسلوه وحملوه إلى المسجد ليصلوا عليه، ونزلت هي في القبر وهم يصلون، قبل أن يأتوا بالرجل الميت. قالوا لها (أي رجال الوَلجَةِ): «أخرجي يا حلوة (ابنة سليمان سند [183])!» قالت: «لن أخرج». ولم يزل الرجال يقولون لها: «أخرجي!» ثم قالوا (أي رجال الوَلجَةِ) لأحمد إسْمَعين [52]: «تعال من أجل ابنتكم!»، فقال أحمد إسْمَعين [52] لأخيها صالح [184]: «انهض يا ابن أخي (يا عمي) من أجل أختك!» ثم نهض الاثنان معًا ووقفا عند مدخل القبر (في باب إلقبر). وقالت لهما: «لن أخرج!» فقال لها أحمد إسْمَعين [52]: «أخرجي وسيكون لك ما تريدين، إلا أن يشق علينا أنسباؤنا!» ثم التفت إلى الحشد، وأضاف: «اشهدوا لها يا رجال الوَلجَةِ! لا ذنب لنا نحن إن ضيق علينا أهل زوجها. لسنا مسؤولين عن العائلات (أي سيكون الذنب ذنبهم إذا تفرقنا وأخذناها معنا)».

ثم سترت نفسها (بعدين ضَبَّت على حالها) وخرجت من القبر، وتركوها بسلام. وما كان لأحد بعد ذلك أن يقول: «سنزوجها!»، وجاءوا (أي أنسباؤها) بعباءة لأخيها صالح [184]، وسترة من القماش لأحمد إسْمَعين [52]، وقال أحمد إسْمَعين [52]: «وأنا قبلت، فليكن كما تريدون، لن أفرق بين الأطفال وأمهم».

ولم تتزوج مرة أخرى، وما كان لأحد أن يخرجها من بيتها».

وثمة وسيلة أخرى تتجنب بها الأرملة الزواج مرة أخرى، وهي أن تدفع ما يسمى بالـ (إحضينِه، حِضينِه) التي تساوي عادة نصف مهر العروس، أو مثل مهر الأرملة(25).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) عن هذا:

«تدفع الأرملة التي لا ترغب في الزواج (إحضينِه) لأخيها. وقد دفعت سعدة أحمد (زوجة إحسين إبراهيم [93]) من الوَلَجِة الكثير، ودفعت حليمة

(25) انظر أدناه في الصفحة 606 من هذا الكتاب.

أم سليم (زوجة مسلم عبدالله [197]) (إحضينِه)، ودفعت عليا (زوجة سالم عِثمان [67]) (إحضينِه)».

وكل أولئك كن زوجات لرجال من أرطاس، ثم روت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن امرأة من أقارب زوجها من صُورِيف:

«دفعت أخت نوفل في صُورِيف بابنة لها كـ (إحضينِه) عوضًا من المال. غير أن الفتاة ماتت قبل أن تتزوج».

ويتضح لنا من هذه الأمثلة، أن المرأة عندما تترمل، تعود إلى بيت أبيها، ولكنها في الغالب تتزوج مرة أخرى، وفي كلتا الحالين يفرق بينها وبين أطفالها؛ فهم ينتمون إلى بيت أبيهم، ولهذا، ليس لها أن تأخذهم من عائلتهم إلى عائلتها، فضلًا عن أخذهم إلى بيت غريب تتزوجه[26]. ولكن المرأة لا ترغب عمومًا في فراق أبنائها؛ ولذلك، ففيما ينزل الرجل إلى قبر زوجته ليطلب زوجة جديدة،

---

(26) انظر: Hans Schmidt and Paul Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, Heft 17 (Göttingen, 1918), p. 108 n. 27,

«ينتمي الأطفال للرجل، ومن بعده لأقربائه الذكور. فعلى سبيل المثال، لقد تعرفت، إلى أرملة أخذ أخو زوجها أطفالها بعد وفاة زوجها». ويقولان في الصفحة 259 من المرجع المذكور: «ينتمي أطفال الأخ إلى عمهم أكثر من انتمائهم لأمهم». ويقول فيلهاوزن في: «Wellhausen, «Die Ehe bei den Arabern,» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*, p. 459f.,

«ليس من اليسير الإجابة عن السؤال، أين يمكث الأطفال إذا ما مات الأب، أو طلقت الأم؛ ففي زواج الأقارب، ليس لحقوق العشيرة شأن، إذا ما ذهب الأطفال مع الزوجة. ويذكر هذا في كتاب الأغاني (الجزء العاشر، 143، 21) كإحدى سيئات هذا النوع من الزواج، لأن الرجل يخسر الأطفال في حال الطلاق... ويذهب الأطفال مع ابنة العم المطلقة خلال حياة أبيهم، وبطبيعة الحال فإن ذهابهم مع الأم الأرملة بعد وفاة الأب أكثر حدوثًا، في حال عدم بقائها عند عائلة زوجها، وكثيرًا ما يحدث هذا. ويعتني العم بأطفال أخيه، وقد يتزوج أرملته». ويضيف أن أطفال الأرملة، في الزواج من خارج إطار العشيرة، يصيرون إلى عشيرة أخرى في حال ذهابهم مع أمهم، لكنه يعتقد أن العرب لا تبلغ بهم القسوة حدًا يجعلهم يأخذون أطفالًا صغارًا من أمهم. وينتهي المؤلف إلى القول إن الأطفال بهذا يشاركون أمهم مصيرها. وفي ما رأيت، فإن الأم التي تتزوج مرة أخرى لا تأخذ ابنها معها إلا في حالات استثنائية فحسب. وهكذا جاء سليمان عودة [188] مع أمه إلى أرطاس، انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 90.

لكن في المقابل عندما فعلت عيشة (زوجة شحادة [169]) الشيء نفسه، خيرت بين إعادة ابنها (خليل شحادة [170]) إلى أقاربه، أو ترك زوجها (انظر أدناه في الصفحة 325 من هذا الكتاب).

تنزل المرأة إلى قبر زوجها المتوفى لتلتمس العذر من زواج جديد، ويبين هذا أيضًا أنها تفضل بيت زوجها على بيت أبيها من أجل أطفالها[27]، فليس عبثًا إذًا أن يقال: «إذا مات أبوكم فاجلسوا في أحسن الأماكن، وإذا ماتت أمكم فاجلسوا على المزبلة».

وإخوة المرأة هم الذين يحسمون الأمر، فمن جهة، هي تنتمي إليهم، فيحق لهم إدارة شؤونها، ومن جهة أخرى، فإن بقاءها في بيت زوجها يعني خسارة لهم؛ فكما رأينا من قبل، فهم يفيدون من استعادة أختهم، فبتزويجها مرة أخرى، يمكنهم أن يحصلوا على عروس لأحدهم. وحقيقة أن الأرملة قد تدفع لأخيها (إحضينِه)، أي تعويضًا من المهر الذي يخسره أهلها إن هي مكثت مع أطفالها، لتفتدي نفسها، تبين أن المسألة هنا هي ذات طبيعة مادية، وهي تتعلق أيضًا بزواج رجل من أفراد عائلة أبيها. ولهذا، إذا سمح الأخ لأخته بالبقاء في بيت زوجها من غير تعويض؛ فهو فضل منه وتضحية، لها ولعائلة الرجل المتوفى الذين يظهر عرفانهم من خلال العباءة التي يقدمونها له.

زواج الرجل أرملةَ أخيه

تبين القصة الآتية أن أهل الرجل الميت قد يكون لديهم أسباب تجعلهم حريصين على إبقاء الأرملة بينهم، وعندها يأخذون بزمام المبادرة. والمرأة في القصة هي فاطمة شختور (زوجة محمد إبراهيم [132]) من بيت لحم، وفي هذه الحالة أيضًا، اتفقوا على كل شيء عند قبر الرجل الميت.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«مات زوج فاطمة شختور (زوجة محمد إبراهيم [132]) ثم جيء بالكفن وبأهلها من بيت لحم، وعندما دفنوه، وقال أخو فاطمة شختور (زوجة

(27) وفقًا للأعراف، يحسب للمرأة الشابة نذرها نفسها للعناية بأطفالها، ونرى هذا في الحديث الوارد في: Abd Allāh, *Mishkat*, p. 454,
«أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة. وأومأ يزيد بن ذريع إلى الوسطى والسبابة، امرأة آمت من زوجها، ذات منصب وجمال، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا».

محمد إبراهيم [132]) عند القبر: «سلمت رؤوسكم (سلامة روسكو)»، قدم له أهل الرجل الميت عباءة حمراء من الحرير «هدم حرير» وحزام ليلبسهما. قال أهلها: «ولكن ليس لها أولادا لماذا تبقى بينكم؟» (أي ليس هناك حاجة لبقائها عندكم). قال أخو زوجها السابق: «زوجة أخي عزيزة علي، كل شعرة على رأسها تساوي ألفًا (أي أنا أريد أن أتزوجها) (مرة أخويِ غاليِه عليِّ، كل شعره فيها ألف)!».

قال أخوها: «سيكون لكم ما تريدون (مرحبا بكو)؛ لأنكم عزيزون عندنا ونحن عزيزون عندكم!»».

وعلقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة: «وإذا كان لديهم رحمة في قلوبهم فسيسامحونهم»،

وقالت الست لويزا: «هذا يعني أنهم لن يأخذوا الهدية».

وعندما استأنفت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الحديث، بدا وكأنها لم تعد تفكر في هذه الحالة الخاصة، فقد أخذت تتحدث في المسلك العام في ظروف كهذه:

«تمكث الأرملة سنة واحدة في بيت زوجها، ثم يرسل أهلها في طلبها. وإذا كان أقارب زوجها (عيِلة) أساءوا معاملتها، تذهب إلى أهلها حال وصول رسالتهم الأولى. أما إذا كانت على وفاق معهم، فإنها تتجاهل الرسالة.

وتبكي الأرملة عندما تترك بيت زوجها (دار عيِلتها) في ما بعد، فتقول لها النساء هناك: «سيكون لك ما تريدين! هذا البيت بيتك، وهذا المكان مكانك!» وتمكث في بيت أخيها يومين أو ثلاثة، ثم يذهب أهل زوجها إلى هناك، ويرسلون المهر، ويذبحون، أي يولمون ويأكلون ويأخذونها معهم زوجةً لأخي زوجها المتوفى، وهم يجمعون بين الخطبة والزواج للأرملة؛ فالأرملة أقل درجة من البكر، نصف المهر[28]، نصف الجهاز، ونصف

---

(28) يقول غرانت في: = Grant, *The People*, p. 54,

الوليمة فقط[29] (إلأرملة إلطُّلبِه أُو إلجِّيزِه واحد، إلأرملة حرف ناقص، نص فيد، نص كِسوِة، نص طبخة)»[30].

ومرة أخرى، نجد هنا هبة العباءة عند القبر، والتي تدل في هذه الحالة على تأكيد الرغبة في تجديد علاقة النسب، أو كما يمكن أن يقال، استمرارها «نسب لا يقطعه الموت»[31]، فيعرض الأخ نفسه بديلًا عن الميت، وهذه حالة نموذجية من حالات زواج الرجل أرملة أخيه.

وفي حالتين من ست حالات من زواج الرجل أرملة أخيه في أرطاس، كان للأرملة ابن وبنات من زواجها الأول؛ في الحالة الأولى ابنة واحدة، وفي الثانية اثنتان. ومن الواضح إذًا، أن هذا الزواج ليس كزواج الأخ بأرملة أخيه كما يرد في العهد القديم؛ وهو أن ينشئ الأخ نسلًا لأخيه المتوفى[32]. ولكن

= «عندما تتزوج الأرملة مرة أخرى، فإن ما يحصل عليه أبوها من مهر، هو أقل مما حصل عليه في الزواج الأول». انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, p. 120,

حيث تستشهد المؤلفة بأدبيات أخرى.

(29) لا تتزوج الأرملة في احتفال بهيج كالبكر، انظر: Lane, *An Account of the Manners*, p. 239,

«.. لا تزف الأرامل والمطلقات أبدًا عند زواجهن مرة أخرى. وتصبح المرأة، عند وصولها سن البلوغ، زوجة شرعية لمن يتقدم طالبًا الزواج منها بمجرد تلفظها بعبارة 'وهبت لك نفسي' (حتى لو لم يكن هناك شهود، إذا لم يتيسر وجودهم). وتتزوج الأرامل والمطلقات عند المسلمين أحيانًا، في مصر، وعند العرب الآخرين على هذا النحو البسيط». وعبارة 'وهبت لك نفسي' معروفة في أرطاس. ويروى أن امرأة قالتها لرجل هناك بغية الزواج منه.

(30) تعني حرفيًا «الطبخ». انظر أعلاه في الصفحة 318 و324 من هذا الكتاب.

(31) في ما يتعلق بهذه العبارة، انظر أعلاه في الصفحة 598 من هذا الكتاب، وكذلك: Granqvist, Ibid., p. 86.

حيث تفسر عادة الزواج من أرملة الأخ، أو من أخت الزوجة المتوفاة من باب الرغبة في استمرار علاقة النسب. في ما يتعلق بالزواج من أرملة الأخ، أو أخت الزوجة المتوفاة، كعادة ذات وجهين، و«كمؤسسة ترمي إلى استمرار اتحاد العائلات التي تربط بينها علاقات طيبة، انظر أيضًا: Waldemar Jochelson, *The Koryak in the Publications of the Jesup North Pacific Expedition*, VI (Leiden; New York, 1908), p. 748, 750,

يستشهد ويسترمارك بهذا الكتاب في: Edward Westermarck, *The History of Human Marriage*, III (London, 1925), p. 264.

(32) انظر، على سبيل المثال، الآية الثامنة من الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين. وبحسب الآية الخامسة وما يليها من الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التثنية: «إذا كان هناك إخوة =

الزواج بأرملة الأخ، يتيح زواج الأرملة من جهة، وبقاءها مع أطفالها في الوقت نفسه؛ لأن زوجها الجديد[33] هو عمهم (إلعم)، وهو حاميهم الطبيعي والوصي عليهم، ولأن عم بنات الأرملة هو من محارمهن، يمكن لهن أيضًا أن يقين

= يعيشون معًا»، ومات أحدهم وليس له ابن، فعلى الأخ الحي أن يتزوج الأرملة، «ويؤدي واجب أخي الزوج تجاهها، ويجب أن يُسمى الابن البكر الذي تحمله باسم الأخ المتوفى، لئلا يمحى اسمه من إسرائيل». وفي الآية السابعة: «ليقيم لأخيه اسمًا في إسرائيل». واقتصر واجب زواج الأخ أرملة أخيه عند الإسرائيليين القدماء على الحالات التي يموت فيها الأخ قبل أن ينجب أطفالًا. وإذا لم يكن للمتوفى أخ حي، يناط هذا الواجب بأقرب أقربائه «ليقيم اسم الميت على ميراثه». انظر الآية الخامسة من الإصحاح الرابع من سفر راعوث، وتضيف الآية العاشرة من الإصحاح نفسه من سفر راعوث: «لئلا ينقرض اسم الميت من بين إخوته، ومن باب مكانه». ومارس الإسرائيليون عادة زواج الأخ أرملة أخيه من باب الواجب تجاه الميت. ويشير غُنكل في: Hermann Gunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*, Edited by Wilhelm Nowack (Göttingen, 1922), p. 413,

إلى أن هذه العادة مورست «كواجب حب تجاه الأموات، ليبقى اسمه، وتستمر حصته في ميراث اسمه»، لكن خلافًا لما يقوله شتادة في: Bernhard Stade: *Geschichte des Volkes Israel*, I (Berlin, 1881), p. 393f., and *Biblische Theologie des Alten Testaments* (Tübingen, 1905), p. 188,

ويقول شفالي في: Schwally, *Das Leben nach dem Tod nach den Vorstellungen des Alten Israel und des Judentums einschließlich des Volksglaubens im Zeitalter Christi: eine biblische Untersuchung* (Gießen, 1892), p. 28,

ويقول مارتي في: Karl Marti, *Geschichte der israelitischen Religion* (Strassburg, 1903), p. 57f,

لا يعدُّ غُنكل هذه العادة في مصادر العهد القديم إكرامًا للميت. ويقول غالتون في: Francis Galton, «Restrictions in Marriage,» in: *Sociological Papers*, II (London, 1906), p. 5,

«كان لأملاك العائلة وشرفها أهمية أكبر عند اليهود من الرغبات الفردية». انظر: James George Frazer, *Folk-Lore in the Old Testament*, II (London, 1919), p. 339f.,

«ثمة نوعان متأخران من زواج الأخ أرملة أخيه؛ الاقتصادي والديني». لمزيد من التوضيح حول زواج الأخ أرملة أخيه كعادة واسعة الانتشار، وكأثر متبقٍ من تعدد الأزواج انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 207ff., and Gunkel, «Genesis,» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*, p. 413.

ويشير غُنكل إلى: Robertson Smith, *Kinship and Marriage in Early Arabia* (Cambridge University 1885), p. 137.

في ما يتعلق بافتراض أن زواج الأخ من أرملة أخيه هو بقية لعادة الزواج الجماعي، انظر: Westermarck, Ibid., III, p. 261; Frazer: *Folk-Lore*, p. 341, and James George Frazer, *Totemism and Exogamy*, I (London, 1910), p. 502f.

(33) انظر: Westermarck, *The History of Human*, p. 264,

«يجد أطفال الأرملة العناية الفضلى، إذا كان عمهم هو زوج أمهم» وقد رأينا من خلال كتاب ويسترمارك (في الصفحة 518 وما يليها من المرجع المذكور) أن ثمة أماكن يضطر الرجل فيها إلى الزواج من أرملة أخيه المتوفى، إذا كان لديها عائلة؛ «إذ من واجبه أن يحميها، وأن يكفل أطفال أخيه». انظر كذلك أعلاه في الحاشية 484 من هذا الكتاب.

معها على الرغم من زواجها الجديد، في حين أنها لو تزوجت رجلًا غريبًا، لما كان ذلك ممكنًا.

حالات زواج الرجل أرملة الأخ في أرطاس		
الزوجة	الأزواج	أطفال الزوجة من زواجها الأول
1. صبحة (ابنة جاد الله عودة [2])	عبدالله إبراهيم [4] سعد إبراهيم [5]	ابنة، توفيت صغيرة
2. جميلة أبو حميدة	إبراهيم خليل [7] محمود خليل [8]	ـــــ
3. زريفة (ابنة أحمد جاد الله [21])	موسى سعد [13] اسمعين سعد [14]	ابن، ولد ميتًا
4. سعدة (ابنة أسعد إحسين[39])	عبد الله جاد الله [20] أحمد جاد الله [21]	ابن [25] وابنة، وهما متزوجان
5. فاطمة شختور	محمد إبراهيم [132] أحمد إبراهيم [133]	ـــــ
6. حمدة (ابنة درويش محِمد [119])	رشيد موسى [142] سليم موسى [143]	ابن وابنتان، ماتوا جميعًا من غير زواج

وفي الحالة الثالثة، كان للأرملة ابنة صغيرة ماتت قبل موت أبيها في ما يبدو. وفي الحالات الثلاث الأخرى، لم يكن للأرملة أي أطفال من الزواج الأول، أي إن أخا الزوج لم يتزوجها إلا لذاتها؛ لأنها عزيزة عنده (غاليِه).

ولا يعجل الرجل في طلب أرملة أخيه للزواج دائمًا، ولكنه قد يتريث قليلًا، ثم لا يلبث أن يطلبها، ولا سيما إذا سمع بأنهم يخططون لتزويجها؛ فالأمر شبيه بما رأيناه من قبل، من أن أهل الزوج يشعرون بالخزي إذا ما ذهبت زوجته إلى رجل غريب، ولربما كان ذلك خشية انتقال جهاز العروس والهدايا التي قدمها الزوج الأول لزوجته إلى بيت غريب؛ إذ إن للمرأة الحق في أن تأخذ ما تملكه معها أينما ذهبت.

هكذا كان الأمر مع زريفة أحمد (أرملة موسى سعد [13]، وزوجة

إسْمَعين سعد [14]). وعلى الرغم من أن حماتها صبحة جاد الله (زوجة سعد إبراهيم [5]) تشاجرت معها، حتى إنها غادرت بيت زوجها قبل نهاية فترة الحداد المعتادة؛ فقد ساد الهرج والمرج عندما بدأ الناس في القرية يقولون إن رجلًا لا يمت للعشيرة بصلة ينوي خطبتها، ولم يترك أقرباء الرجل المتوفى الأم تنعم بالراحة حتى رضيت باتخاذها كنة لها مرة أخرى، وهذا كان أن تزوجت زريفة أحمد (أرملة موسى سعد [13]) أخا زوجها الأول، إسْمَعين سعد [14]، وأظهرت حنكة عظيمة؛ فقد استطاعت أن تستأثر لنفسها بالأرض التي قدمها زوجها الثاني مهرًا لها، فسجلت باسمها، وبهذا نفعت زوجها الجديد، ولهما الآن العديد من الأولاد، وبات أهل زوجها فرحين بها.

وتروي لنا عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) في ما يأتي، كيف بات الناس ينظرون الآن إلى هذا كله، فزريفة أحمد (زوجة موسى سعد [13]، ومن بعده إسْمَعين سعد [14]) هي زوجة ابن أخيها:

«من الخير لنا أن تظل (أي الأرملة) عندنا (أي عند أهل الزوج). لقد عادت إلينا! لم يذهب خيرنا إلى غيرنا، وقد كان يومًا بائسًا عندما قيل «إن خليل محمد [112] يريد أن يتزوج زريفة أحمد (زوجة موسى سعد [13]، ومن بعده إسْمَعين سعد [14]). لا أعاده الله من يوم (إكثير إمليح إن كان بتظل عندنا، عاودت علينا ما راحِش خيرنا لغيرنا، يي يوم قالو إنُّه بدو يوخُذها خليل، الله لا يِعيدها)!».

وفسرت الست لويزا العبارة الأخيرة كالآتي:

«لأن زوجها الآن، وشقيق زوجها الأول، إسْمَعين [14]، قد يموت أيضًا، وعندئذ قد تذهب زريفة (زوجة إسْمَعين سعد [14]) إلى رجل غريب».

ولكن، لو حدث فعلًا أن مات زوج زريفة (زوجة اسْمَعين سعد [14]) الثاني، فلا يستبعد أن تتبدل نظرة أهل الزوج إليها مرة أخرى؛ إذ إن الفلاحين يرون في المرأة أحد ثلاثة مصادر للسعد أو النحس[34]، ولسهل عليهم أن

(34) انظر أعلاه في الصفحة 476 من هذا الكتاب.

يجعلوا الزوجة سببًا في موت الزوج، وتسمى المرأة التي تجلب النحس لزوجها (قَشْرَه)، ويجري هذا الوصف عند أهل أرطاس على زوجة واحدة عندهم في الأقل[35]، وهي جميلة أبو حميدة (زوجة إبراهيم خليل [7] ومن بعده محمود خليل [8]) التي جاءت من بيت لحم، وتزوجت إبراهيم خليل [7] أولًا، ثم أخاه محمود خليل [8]، وكلاهما ابن أخي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]).

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن زواج جميلة (زوجة إبراهيم خليل [7] ومن بعده محمود خليل [8]) من إبراهيم خليل [7]:

«عندما دخلتْ البيت (يوم دَخْلَت) عروسًا، وضربها العريس إبراهيم [7] على يدها (دَقْ إيدْها)، اصفر وجهه، وقال الناس: «الرجل ميت (إلزَّلمة مات)!» وظل صحيحًا مدة خمسة عشر يومًا، غير أنه لم يكن بين زواجه ووفاته سوى أربعين يومًا، وعادت بعدها إلى بيت أبيها.

ثم عاد محمود [8] أخو إبراهيم [7] من الخدمة العسكرية. وعندما دخل البيت، قال لأمه: «أين العائلة (عيلِة)؟»».

وهنا، لاذت أمه بالصمت؛ فهم لا ينطقون بالأخبار السيئة[36]، ولا بخبر موت قريب.

«وقال لها: «هل مات إبراهيم [7]؟» فأجابت: «جنبك الله الموت يا بني (تسلم إنتِه يَمَّا)!»[37]. وقال له الناس: «هل ستتزوج جميلة (أرملة إبراهيم [7])؟» قال: «حتى لو كانت تسكن سبع بيوت عالية، لخرجت منها جميعًا (لو إنها في سبع علالي لأطلع منهن)!»».

وإنما قال محمود [8] هذا لأنه، كسائر الناس في القرية، كان يعد جميلة

(35) تقول عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]): «هناك نساء 'قَشْرَه' يجلبن الخطر للبهائم مثل خضرة (ابنة محمد عِثمان [33]، وزوجة عبد الحميد أحمد [57])، كما أن هناك نساء 'قَشْرَه' لأزواجهن كجميلة أبو حميدة (زوجة إبراهيم خليل [7]، وزوجة محمود خليل [8])»

(36) بشارة - الكلمة العربية التي تعني «الأخبار»، وهي تشير إلى أخبار طيبة.

(37) حرفيًا «يا أمي»؛ إذا هكذا تخاطب الأم طفلها. انظر أعلاه في الصفحة 435 من هذا الكتاب.

(أرملة إبراهيم [7]) سببًا في موت أخيه. أولم يروا بأم أعينهم التغيير المفاجئ الذي طرأ على أخيه في يوم العرس؟ أو لم يعتقدوا بأنه ميت لا محالة؛ إذ بات وجهه شاحبًا عندما ضرب عروسه على يدها، وهم يمارسون مراسم العجين الخمير قبل أن يتخطيا عتبة الباب معًا؟ لقد خشي محمود [8] أن يحدث له الشيء نفسه إن هو تزوج جميلة (أرملة إبراهيم [7])، لا! لا يريد أن يكون له شأن بها.

وعلى الرغم من هذا كله، غيَّر محمود [8] رأيه؛ فبعد زيارة إلى بيت جميلة (أرملة إبراهيم [7]) في بيت لحم، تبدل حاله. وقيل إن جميلة (أرملة إبراهيم [7]) ربما وضعت له سحرًا في الطعام الذي أكله هناك، لتجعله يحبها.

واستأنفت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قائلة:

«ثم ذهب إلى بيت لحم ذات يوم، وتعشى في بيت أبيها، وسألتُه [أي عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])] بعد ذلك: «هل تريد أن تتزوج جميلة (أرملة إبراهيم [7])؟» فأجاب: «نعم، حتى لو قطعتنا جميعًا (أي كانت سببًا في موتنا)، سأتزوجها (لو إنها بتقطعنا كُلِّيتْنا غير أوخُذْها)!»».

وتظهر كلماته أنه على يقين، هو وغيره من الناس، من أن هذا الزواج يعرض حياته للخطر، ويظهر ذلك أيضًا من التدابير التي اتخذوها لدرء الشرور عنه في اللحظة الحاسمة عند دخول العروسين إلى البيت معًا (دخول العِرسان).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«بعد احتفال العرس، أدخلنا حمارًا أولًا، وقلنا: «هذه عروسك يا حمار (هاذي عروستك يا حمار)!» وإذا مات الحمار فسينجو الرجل».

ويشير تفادي الخطر الذي قد يتهدد العريس من خلال عروسه بهذه الطريقة، إلى وجود روح شريرة، لا تسمح لزوج الـ(قَشْرَه) أن يحيا، وهي الطريقة نفسها التي يتبعونها لمحاولة خداع «القرينِه»، والتي تسمى أيضًا «إتّبيعَه»[38] –

(38) يقول كنعان في: Taufik Canaan, «Dämonenglaube im Lande der Bibel,» *Morgenland*. = *Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*, vol. XXI (Leipzig, 1929), p. 47f.,

وهي عدو لعامة النساء، وتختص بعضهن بالعداوة - عندما تسعي لقتل أطفالهن الصغار، بأن يلبسوا الولد ملابس البنات، وما إلى ذلك، أو بأن لا ينادونه باسمه الصحيح. وهنا، يبدو أنهم يحاولون إقناع كائن خارق للعادة بأن الحمار هو زوج جميلة (زوجة محمود [8]) لينزل البلاء به[39]. وعاش محمود خليل مع جميلة (زوجة محمود [8]) أربع سنوات، ثم توفي وترك وراءه ولدًا اسمه إبراهيم، وهو يبلغ الآن نحو ستة عشر عامًا.

ويروى أن جميلة (زوجة إبراهيم خليل [7] ومن بعده محمود خليل [8]) - شأنها في هذه الحالة، شأن تامار في العهد القديم[40] - أكدت أنها ستتزوج الابن الثالث على الرغم من أمه، أي حماتها، ولكنها لم تنجح في بلوغ غايتها، فقد حلفت يمينًا كاذبة، وجنت على نفسها بذلك موتًا مبكرًا - وهو العقاب الذي لا يخطئ من يحلف كاذبًا.

وحامت الشكوك أيضًا حول حمدية (ابنة درويش محمد [119]، وزوجة رشيد موسى [142] ومن بعده سليم موسى [143]) بأنها امرأة جالبة للنحس (قَشْرَه)؛ فقد تزوجت رشيد موسى [142] أولًا، ثم تزوجت أخاه سليم موسى [143]، ومات كلاهما. وعندما مات أطفالها الأربعة جميعًا في ما بعد، قيل إن أهل زوجها أرادوا التخلص منها.

= «هذه الجنية والمعروفة أيضًا بالاسم (الأخت) و (الشقيقة)، وتعني اللفظتان 'الأخت'، موجودة منذ بدء الخليقة. ولا يؤمن المسلمون دون غيرهم بهذه المخلوقات الشريرة، بل يؤمن بها أيضًا المسيحيون واليهود. وتعرف هذه الجنية بين اليهود بالاسم 'ليليث'» انظر: Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au pays de Moab* (Paris, 1908), p. 30, and Snouck Hurgronje, *Mekka*, II (Haag, 1889), p. 123f.

(39) تتخذ احتياطات مشابهة في بعض مناطق الهند عند الزواج من أرملة، حماية لزوجها الجديد من التأثير الشرير لشبح الزوج السابق. وفي بعض الحالات «يزوجون الأرملة رسميًا، ليس لزوجها الجديد، بل لكلب، أو رمح، أو فأس، أو سيف؛ إذ يعتقدون أن الشبح، إما أن يختطف الكلب، وإما يهلك بواسطة أحد هذه الأسلحة القاتلة، ظنًا منه أن الزوج الخيالي هو الزوج الحقيقي»، انظر: Robert Russell, *The Tribes and Castes of the Central Provinces of India*, III (London, 1916), p. 81.

ويستشهد فريزر بهذا الكتاب في: Frazer, *Folk-Lore*, I, p. 527f.

ويستعرض فريزر في الصفحة 829 من المرجع المذكور الكثير من الأمثلة المتعلقة بالزواج الزائف من مناطق مختلفة من الهند؛ أي كالزواج من حيوان، أو من شجرة، أو من جماد.

(40) انظر الآية السادسة وما يليها من الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين. وانظر كذلك الإصحاحات من الثالث إلى الثامن من سفر طوبيا.

قالت الست لويزا:

«يعتقد أن حمدية (ابنة درويش محمد [119]، وزوجة رشيد موسى [142] ومن بعده سليم موسى [143]) قتلت زوجين وأربعة أطفال، ولهذا قالت لها عائلة أبو شاهين: «لا يمكنك أن تمكثي في بيتنا! تدبري أمر عودتك إلى بيت أبيك؛ فنحن في خطر، ما دام منديلك يرفرف هنا! وقد تفنى العائلة كلها!»».

وإنه ليعد أمرًا فظيعًا أن تفقد المرأة بالموت أزواجًا عدة كانوا أشقاء (أي بزواج الرجل أرملة أخيه) أو ذوي رحم، فتذوق العائلة ذاتها ألم الفراق مرارًا وتكرارًا، ويشعر أفرادها بأنهم قد جلبوا الهلاك لأنفسهم باستقبالهم هذه الزوجة، ويرون فيها سبب الشؤم الذي نزل بهم، ويمكن أن يعتقد الناس بشؤم المرأة التي يتوفى أزواجها حتى لو لم تربط بينهم صلة قربى.

زواج الأرامل

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي عن صبحة (ابنة خلاوي [108]، وزوجة أحمد محمد [118]) التي تزوجت ثلاثة رجال؛ اثنين من الخَضَر وواحدًا من أرطاس، وماتوا جميعًا:

«أيها الرجال الطيبون، احذروا من تلك التي تجلب النحس وتنزع غطاء الرأس (قَشْرَه وقبّاعِة لَواطي حاذرو يا أجاويد منها)!».

وفي هذا السياق، استشهدت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بأبيات تحذر من زواج الأرملة:

«ثلاثة أشياء تطيل عمرك:	(طولِت عُمرك ثلاث تشِلْمات
زواج البنات الصغار	أخذك إلبنات
وركوب الخيول الأصيلة	أو رِتشبَك إلمضهوات
والمشي بين الخضرة	أو مشيك عنَّبات
وثلاثة أشياء تقصر العمر	أو قَصَران إلعُمْر ثلاث تشِلْمات

زواج الأرملة أخذك العَزَبات

والسفر في الصحراء أو قَطْعَك إلمفازات

والمشي في الجنائز» أو مشيك في الجَّنازات»[41].

وتبين هذه الأبيات فضل العذراء وسمو مكانتها إزاء الأرملة من الناحية النظرية، ولكن في الواقع، كثيرًا ما يقنع الرجال بزواج الأرامل في ما يبدو. وفي الحقيقة، أحيانًا يحرص الرجل على الزواج من أرملة بعينها، مفضلًا إياها على أي فتاة صغيرة. ولقد تزوج 19 رجلًا من أرطاس، أو ما نسبته 9.5 في المئة من الرجال، من أرامل، بل إن أحدهم تزوج أرملتين[42]. ومن جهة أخرى، تزوج عشرة من هؤلاء أبكارًا أيضًا؛ أي إن هناك 9 رجال، لم يتزوج أي منهم إلا من الأرامل.

ومن بين 42 أرملة، هناك 18 لم يتزوجن مرة أخرى، و18 تزوجن مرة أخرى، و5 تزوجن مرتين، ثم بقين أرامل، وواحدة تزوجت ثلاث مرات، ثم بقيت أرملة بعد وفاة زوجها الثالث.

وهذه الإحصاءات لزواج الأرامل مثيرة للانتباه؛ فهي تبين أن الأسباب التي تدعو الأرملة للزواج مرة أخرى، وتلك التي تدعوها للبقاء أرملة، تستوي جميعًا في أهميتها.

---

(41) انظر على نحو مماثل: Gustaf Dalman, *Arbeit und Sitte in Palästina*, I (Gütersloh, 1928),p. 424f.

(42) أي إن هناك 20 زواجًا، أو ما نسبته 7.5 في المئة من المجموع الكلي، كانت مع أرامل. وقد اضطر 15 أرمل للزواج مرة اخرى، بينما لم يضطر لذلك آخرون ممن فقدوا زوجة واحدة؛ إذ كان لديهم زوجات أخريات. وأعرف بوجود رجل واحد فقط مات أرمل. وظل آخر أرمل لفترة طويلة، ثم تزوج مرة أخرى. ولدينا الآن أرمل واحد وهو محمد إبراهيم [91] الذي لا يجد المال للزواج مرة أخرى، لأنه زوَّج ابنه. ويصعب الحكم من خلال إحصاءاتي على أمد حياة الرجال والنساء؛ فمن بين 243 زوجة توفيت 88، أو ما نسبته 36.2 في المئة، بينما توفي 87 زوجاً، أو ما نسبته 43 في المئة من 199 زوجاً. ولهذا فإن معدل الوفاة بين الرجال المتزوجين هو أكبر قليلًا من نظيره لدى النساء المتزوجات، لكن الفرق يتوازن إذا ما تذكرنا حقيقة أن الكثير من الرجال كبار السن يتزوجون فتيات صغيرات، ولذا فمن الطبيعي أن يبقين أحياء بعد وفاتهم.

لماذا تتزوج الأرملة؟

تتمثل الأسباب التي تدعو الأرملة للزواج مرة أخرى، والتي تلبي في الغالب حاجات أهلها، في المنفعة المادية لإخوتها، والحماية التي يوفرها الزوج لسمعتها (العرض). والخوف الذي يعبرون عنه من بقاء امرأة قريبة أرملة ليس له ما يبرره قط، كما بدا في المثال التراجيدي الآتي في أرطاس؛

فهناك مثال محزن في أرطاس، يبين أن الخوف الذي يتحدث عنه الناس من بقاء الأرملة من أقاربهم من دون زواج، ليس سوى ذريعة يتذرعون بها وحسب؛ فقد كانت صفية الأطرش (زوجة محمد عايش [84]) أرملة ظلت مقيمة في بيت زوجها، عندما حامت حولها الشكوك بأنها حامل، نتيجة لمرض ألم بها (ورم في البطن)، وكانت عاقبة هذه الفرية أن اضطر أخوها إلى قتلها عقابًا لها. وعند فحص الجثة، ظهرت براءتها، ثم لم يلبث أن مات الأخ بسبب اللعنة التي لحقت به لإزهاقه روحًا بريئة، وانقطع بذلك نسل العائلة برمتها. في حين أن الرجل الذي دفعت فريته الأخ لارتكاب فعلته، لم يبق أي من أبنائه حيًا.

وتذكر مثل هذه الحالات للعبرة، وكثيرًا ما يقول الأب أو الأخ عن الأرملة من أقاربه: «لن تبقى من دون زواج!»، ثم يأخذها إلى البيت ليزوجها مرة أخرى.

الزوج «الزائر» (جوز مِتْسَرِّب)

ومن جهة أخرى، لا ترغب الأرملة في الزواج مرة أخرى، وذلك، من أجل أطفالها. وسأبين في ختام هذا الفصل أن لها في ذلك دوافع مختلطة، ولا يقتصر الأمر على استعدادها للتضحية من أجل أطفالها لحمايتهم ورعاية مصالحهم؛ فبهذه الطريقة، ستكون أفضل حالًا من ناحية اقتصادية، وسيكون لها قدر أكبر من الاستقلال والحرية، ولكنني سأعرض أولًا لحل وسط غريب، يجمع للمرأة كل هذه المزايا، وهي عندما تتزوج المرأة، ولكنها لا تذهب لتعيش في بيت زوجها، ولا يأتي هو ليعيش معها[43]، بل يبقى هو أيضًا في بيته الذي قد يكون

(43) كما حدث في حالات استثنائية في أرطاس. قارن، على سبيل المثال، حالة الراعي الذي جاء =

بعيدًا جدًا من قرية الزوجة. ويكون له بالطبع زوجة أو أكثر حيث يعيش، لكنه يذهب بين الفينة والفينة لزيارة زوجته البعيدة، ويدعى زوج كهذا «الزوج الزائر» أو «الزوج العائد» (جوز مِتْسَرِّب)[44].

وتصف حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الزوج الزائر كالآتي:

«الزوج الزائر، أو الزوج العائد (جوز مِتْسَرِّب)، هو حماية للزوجة؛ فهي تعيش في بيت تملكه هي، ولا يحمل لها معه شيئًا إلا ليفوز بودها (حرفيًا: يُحَلِّيها[45])».

أي يفترض أن تكون مستقلة ماديًا. ولكن، هل هناك من النساء من تملك البيت والموارد المادية لذلك؟ لقد رأى السيد إلياس حداد، عندما كان في زيارة لأرطاس، وتباحثنا بهذه المسألة مع عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) وحمدية (ابنة سليمان سند [183])، أن هذا النوع من الزواج ممكن للأرملة دون غيرها، لكنني أميل إلى الاعتقاد أنه يمكن أيضًا للفتاة، إذا ما مات أبوها ولم يترك أولادًا، فورثته هي. ولا نملك أن نجيب عن هذا السؤال يقينًا من دون أن تتوافر بين أيدينا معلومات من أماكن مختلفة عن هذا النوع النادر من الزواج.

= إلى والد فتاة، وعمل عنده من أجلها، ومكث عنده في بيته بعد أن تزوجها على الأقل مدة من الزمن. انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, I, p. 108f.

- وكنعان [180] إذ جاء من حلحول وتزوج فتاة من أرطاس، ثم لبث في بيت أخيها. انظر الصفحة 89 من المرجع المذكور.

- وكان هناك شيخ يدعى عِثمان الذي لجأ إلى قريتنا لبعض الوقت، وتزوج ابنة الرجل الذي مكث عنده في أرطاس.

(44) انظر مقالة جوسان المثيرة للانتباه: «Le ğoz musarrib,» *Revue Biblique*, vol VII. (Paris, 1910), p. 237ff.,

حيث يقارن تاريخيًا، في بعض الجوانب، الزواج في الجزيرة العربية قديمًا، وزواج شمشون من امرأة فلسطينية [من الفلسطينيين القدماء] من تِمنة، انظر الإصحاحين الرابع عشر والخامس عشر من سفر القضاة. ولما كان جوسان أولى اهتمامًا عظيمًا للأهمية التاريخية التي لا يمكن إنكارها لهذا النوع من الزواج، لا حاجة بنا إلى إطالة الوقوف عند هذا الجانب من المسألة.

(45) انظر الآية التاسعة عشرة من الإصحاح الرابع عشر من سفر القضاة، حيث يترك شمشون زوجته في بيت أبيها ويذهب إلى بيت أبيه، بعد نهاية أسبوع العرس، لكنه «زار زوجته ومعه جدي» في الآية الأولى من الإصحاح الخامس عشر.

وفي ما يأتي سرد للحالات التي رويت لي في أرطاس:

في المثال الأول، ورثت أرملة أملاك أبيها، واتخذت لنفسها زوجًا زائرًا (جوز مِتْسَرِّب) من قرية أخرى.

وقد تزوجت أرملة الشيخ سالم عِثمان [67]، زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67])، زوجها الثاني من الشِيوخ، وهي قرية بعيدة إلى الجنوب من أرطاس بالقرب من الخليل، وكان اسم زوجها الجديد سالم أيضًا، وكان كذلك شيخًا ذا مكانة رفيعة، كشيخ و«درويش»، ذاع صيته خارج قريته؛ فهو يتحدر من سلالة هدمِة[46]، وقد قيل في زواجها منه: «جاء شيخ عوضًا من شيخ ذهب (شيخ مطرح شيخ برح)»[47].

وقد كان لزهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) قبل ذلك خاطب آخر؛ فكما فعل زوجها الأول الشيخ سالم عِثمان [67]، عندما توفي والدها من دون أن يترك ورثة ذكورًا؛ إذ ادعى ملكية التركة، بصفته ابن عمها، واتخذها زوجة[48]، أراد عِثمان جبرين [77]، وهو ابن عمها الآخر، أن يفعل الشيء نفسه، وجاء بما يلزم لوليمة الخطبة إلى بيتها، بيد أنها نقضت خططه فجأة، وتزوجت الشيخ من قرية الشِيوخ.

ولكننا سندع عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) تروي هذا:

«جاء الشيخ سالم من الشِيوخ ليداوي خليل عايش [83] الذي كان يعاني من سكتة دماغية، وداواه منها، هو أعطاه الدواء، والله شفاه، وبات له موطئ قدم في أرطاس.

وكانت زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) أرملة،

---

(46) إحدى جماعات الدراويش المسماة نسبة إلى هِدْمة، والذي لا يذكر اسمه البتة من دون أن يتبع بكلمة (دستور)!. قارن ذلك بالعبارة التي تتبع دائمًا ذكر اسم النبي [عليه الصلاة والسلام].

(47) إذا تزوجت أرملة رجلًا يحمل اسم زوجها الأول، كعِثمان على سبيل المثال، يُقال: «عِثمان عوضًا من عِثمان الذي مات».

(48) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, I, p. 76.

وأحست بألم في رأسها، وقالت: «سوف أسأل عما أشتكي من رأسي (بِدّي أفتح لراسي)!»، (يرجع الشيوخ إلى كتبهم)، وذهبت إليه.

وجاءت كلمات، وذهبت كلمات، ثم همس لها: «ألا تتزوجينني؟» فأجابت: «لقد أحضر عِثمان جبرين [77] الأرز والسمن، وسيذبح (أي سيولم لخطبتنا أنا وهو)». قال: «قفي وتشاجري معه، قولي له: أنا لن أتزوجك!». وتشاجرت مع عِثمان جبرين [77]، وغضب عِثمان جبرين [77] غضبًا شديدًا، وأخذ الأرز والسمن وكل شيء. ولولا خوفنا من الله (الله أو خوف الله)، لقلنا إنها أعطت الشيخ مالًا للأرز وللذبائح(49)، وذبحوا لوليمة الخِطبة.

قال عِثمان جبرين [77] العريس المهجور: «ذهبت لتسألي عما اشتكيت من رأسك، فسحرت لتتزوجي!» قالت له: «أريد أن أتزوج!».
وأبرم عقد الزواج، ودخل بها (أو طَقّ إلصّفاح أو دخل عليها)».

ويتفق وصف عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) لهذه الحالة الخاصة في أرطاس عمومًا مع وصف حمدية (ابنة سليمان سند [183]).

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«كان زواج زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) والشيخ سالم من الشِيوخ كالآتي؛ ظلت هي في بيتها الذي كان أيضًا بيت زوجها الأول، ولم تذهب قط إلى الشِيوخ. كان زوجًا زائرًا أو عائدًا (جوز مِتْسَرِّب) كالضيف. لقد أعطت خيرها للغرباء».

ونطقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بهذه الجملة الأخيرة باستنكار، ثم أضافت:

«لم يرق ذلك للأقارب. أخذته رغم أنوفهم. قالت: سأتزوج، سواء أرضيتم أم سخطتم (إلقرايب ما حبُّوش، هي أخذته بِلْغصب أو طَيِّب، إن رضيتوا وِلّا ما رضيتوا بتجوَّز)».

---

(49) على الرجل أن يتكفل بمصاريف الخطبة والعرس، وليس على المرأة شيء.

ويبدو أن زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) فعلت ذلك لتنال حريتها. وكان على ضرتها من زواجها الأول، عليا (زوجة سالم عِثمان [67])، أن تغادر البيت الذي عدته زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) ملكًا لها وحدها؛ لأنه كان تركة أبيها، واضطرت عليا (زوجة سالم عِثمان [67]) إلى العيش مع أولادها في كهف في القرية.

ولم يكن لأقارب زوج زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) الأول، وهم أقاربها أيضًا، السلطة ذاتها عليها كما كان لهم في السابق، إذ لا علاقة لهم بزواجها الجديد، ولهذا كانوا ساخطين. وحتى أمام زوجها الجديد، كانت زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، على الرغم من أنه كان شيخًا؛ لأنها كانت سيدة بيتها، في حين لم يكن هو أكثر من ضيف. وكان كل شيء على ما يرام، طالما لزم حدوده، ولم يأت إلا لزيارات متفرقة، ليعود بعدها ويعيش في الشِيوخ. ولكن عندما خطر له أن يأتي بإحدى زوجاته معه من الشِيوخ ذات مرة، استثقلت زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) ذلك منه كثيرًا؛ إذ لم يرق لها استقبال ضرة في بيتها، وقيل إنها لم تأذن له بالدخول. وعلى أي حال، ليس عندي عن هذا إلا الملاحظة الآتية التي ذكرتها عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«أول طفل لزهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) من شيخ قرية الشِيوخ كان بنتًا ولدت ميتة، ثم أنجبت ولدًا (أحمد)، وجاء الشيخ بإحدى زوجاته (صفية) معه، وفطمت زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) ولدها أحمد، وانقطعت زيارات الشيخ لها، وعاش أحمد هنا (في أرطاس) إلى أن ماتت أمه».

وعلى الرغم من أن الولد نشأ في بيت أمه في أرطاس، فإن أباه طلب أن يأتي الولد إليه في الشِيوخ.

قالت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]):

«قبل أن يموت الشيخ سالم، أرسل في طلب ابنه ليأتي إليه، وقال: «إذا لم تأت سأحرمك من الميراث». فذهب إليه، وتزوج فتاة تدعى بدويِّه، وكانت «بنت طريقَه» (أي إنها كانت تنتمي إلى الدراويش). وبعد موت والده، جاء هو وزوجته إلى أرطاس، وهو الآن في الشِيوخ؛ فهو يتنقل بين أرطاس والشِيوخ.

ويدعى الآن الشيخ أحمد، ويلبس عمامة خضراء».

ونقطة الضعف في هذا الزواج، في ما يبدو، هي أن الابن لم يكن له وطن معلوم، على الرغم من أنه يدعى شيخًا.

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) أن أخاه الأكبر في أرطاس، عبد سالم [68]، استقبله وزوجته أحسن استقبال، ولكن ذلك لم يمنعه من خداع أخيه من أمه، والاستيلاء على حصته من تركة الأم.

وهكذا يتنقل ابن الزوج الزائر أو العائد (جوز مِتْسَرِّب) بين الشِيوخ وأرطاس بين قرية والده وقرية أمه، من دون أن يتمكن من المطالبة بحقوقه القانونية، في الأقل في أرطاس.

وتبين الحالتان الآتيتان سمات أخرى لهذا النوع من الزواج.

ففي عام 1931، عندما كنت أعد العدة لمغادرة فلسطين والعودة إلى بلدي، شاع في القرية أن رشيد عبدالله [86] كان يفكر في أن يكون زوجًا زائرًا (جوز مِتْسَرِّب) لأرملة أخيه سارة محمد (زوجة إحسين عبدالله [87])، وهي من بيت لحم.

وروت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) الآتي:

مات إحسين عبدالله [87] في الثامن عشر من رمضان، وعندما كان على فراش الموت، استدعى أخوته وعهد إليهم برعاية زوجته سارة (زوجة إحسين عبدالله [87]) وبناته، وقال لهم: «أعطوني أيديكم أقبلها، أنا أعهد إليكم بسارة (زوجة إحسين عبدالله [87]) وبناتها، وأوصي بكرم العنب الصغير لسارة (زوجة إحسين عبدالله [87]) جزاء اعتنائها بي.

والآن تريد سارة (أرملة إحسين عبدالله [87]) أن تخرج من بيته ومن أرطاس.

وفسرت عليا (ابنة إبراهيم عودة) هذا كالآتي:

«بدأت عشيرة مِشاني يتحدثون عنها، ويقولون بأنها ترغب في الزواج من ابن عبد السلام [92] تارة، ومن ابن محمد إبراهيم [91] تارة أخرى، ووصلت هذه الإشاعات حتى إلى أبيها وأمها في بيت لحم؛ فأرسلا إليها، وذهبت إلى بيت لحم.

وقال لها أبوها: «الجسم الذي حمل يجب أن يعيد (بُطن إنحفَّظ نَفَّض)»، اتركي بناتك لأقربائهن وعودي إلى البيت! ليس علينا في عنقك ذنوب (في ما يتعلق بهن)».

وقد بدأت المسلة بالخياطة، ولما يُعد عشاؤه بعد (أي عشاء الميت)».

طلب أبو سارة (أرملة إحسين عبدالله [87]) منها العودة إلى البيت في بيت لحم، عندما بدأ الناس يفترون عليها الكذب، ويتحدثون عن رغبتها في الزواج مرة أخرى، بحيث يمكنه أن يزوجها، عندما تحين الفرصة، لرجل آخر.

قالت الست لويزا:

«أبو سارة (أرملة إحسين عبدالله [87]) مسرور؛ فقد زوَّج إلى الآن أربع بنات، وحصل حتى الآن على أربعة مهور، وسيكون هذا هو المهر الخامس».

ورأى أنه ما من بأس في أن يأخذها من بيت زوجها المتوفى ويعيدها إلى بيته؛ إذ ليس عليه واجبات تجاه أطفالها؛ أي البنات الأربع اللاتي يتمين إلى عائلة والدهن.

وعندما بدا أن سارة سترحل (أرملة إحسين عبدالله [87])، بدأ أخو زوجها المتوفى، رشيد عبدالله [86]، وهو متزوج، وزوجته تدعى نَزهة (زوجة رشيد عبدالله [86])، يفكر بأن يكون زوجًا زائرًا لها (جوز مِتْسَرِّب).

وبعد أن فكر رشيد عبدالله [86] في الأمر، عزم على أن يكلم زوجته

نزهة (زوجة رشيد عبدالله [86]) في نيته، وربما كانت بدأت تساورها الشكوك في ذلك، واختار يومًا علم فيه بأن سارة ذهبت إلى بيت أبيها في بيت لحم.

«كان رشيد عبدالله [86] وعائلته جالسين معًا؛ فقال لزوجته: «نَزهة، أريد أن أقول لك شيئًا!» قالت: «هات، قل لي ما الأمر؟» قال لها: «لن تخبري أحدًا عن رغبتي؟» أجابت: «سيكون سرك في بئر!» قال رشيد [86]: «يعلم الله أن بعض العقلاء ينصحونني بأن أجمع بيني وبين سارة (أرملة إحسين عبدالله [87])، بأن أصبح زوجًا زائرًا لها، حتى يتسنى لها أن تمكث هنا، وتربي بناتها!».

أجابت زوجته في غضب شديد: «تحدث عن أي شيء إلا هذا!» وأضافت: «يمكنك أن تجمع بينها وبينك، ولكن، عندئذ عليك أن تطلقني (حرفيًا: تعذرني)! وسأبحث عن حظي!» فخرَّ رشيد [86] كالبغل».

وقالت الست لويزا:

«لقد شعر بخجلٍ شديد من كلمات زوجته».

وختمت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) بقولها:

«ثم نقول صباح الخير، ونجد الشرف والخير مع الله».

وكانت نَزهة (زوجة رشيد عبدالله [86]) وعدت زوجها، بأن سره سيكون وكأنه في بئر، إن هو استأمنها عليه، ولكنها كانت غاضبة جدًا، ولم تستطع أن تمتنع عن الشجار مع سارة؛ فما إن عادت سارة (أرملة إحسين عبدالله [87]) من بيت لحم، حتى بدأ الشجار، وسُمع في جميع أنحاء القرية، وعلم الجميع بالأمر.

وعلقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على هذا بقولها:

«كان بئرًا لا قاع له».

وقد لاحظنا أن رشيد [86] علل رغبته في أن يكون زوجًا زائرًا لأرملة أخيه، هو أن تتمكن من البقاء في بيت أخيه المتوفى، وتربي بناتها.

وتفسير عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) لمعنى الزوج «الزائر» في هذه الحالة، هو كالآتي:

«كانت ستسكن في بيت زوجها المتوفى، ولسكنت نزهة (زوجة رشيد عبد الله [86]) في بيتها (أي بيت رشيد [86]). ولتحدث رشيد عبدالله [86] وسارة سرًا، كلما خرجت نزهة (زوجة رشيد عبد الله [86])، ولناما معًا سرًا، ولكان كل شيء سرًا»[50].

ولم أعلم قط، إن كان رشيد عبدالله [86] استطاع أن يحقق مبتغاه، أم أنها ظلت خطة في خياله.

والقصة الثالثة هي عن امرأة في القرية المجاورة، الخَضْر، لها زوج زائر.

قالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]):

«في الخَضْر، تزوج إحسين خليلية، وكانت من قبل زوجة عمه (وأصبحت أرملة)، وكان لها من زوجها الأول ولدان وبنت، وتزوجها إحسين من أجل أولاد عمه، وكان زوجًا زائرًا أو عائدًا (جوز مِتْسَرِّب)، ومكثت في بيتها، وأنجبت لحَسين ولدًا وبنتًا، ومكثت هناك حتى زوجت ابنها الأكبر، ثم ذهبت إلى بيت زوجها.

وذهبت إلى بيته مع أولادها منه، وضرتها التي كانت في بيت إحسين كانت أصغر منها سنًا، وأصبحت هي «الكبيرة (إلكبيرِه)» في البيت، وفي كل شيء».

وهكذا، على الرغم من أن الزوج والزوجة لا يعيشان في مكانين مختلفين، فإن كلًا منهما ظل في بيته بعد الزواج. ولا يتعلق الأمر هنا بكون الزوجة ابنة وارثة. وربما لم يرض زوجها الجديد بأن يكون زوجًا زائرًا أو عائدًا (جوز مِتْسَرِّب) لها إلا لأنه من أقارب زوجها الأول القريبين. وإلا، فإنها كانت ستضطر إلى ترك بيتها والتخلي عن أولادها لتذهب إلى بيته. وعلى أي حال، فإن المغزى الأهم للقصة هو اجتهاد الزوجة لرعاية مصالح أولادها كلهم، لينال

---

(50) تشير رواية عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) إلى أحد أشكال «الزواج السري» (نكاح السِّر).

كل منهم حقه في بيت أبيه؛ فكما أخبرتنا حمدية (ابنة سليمان سند [183])، لو لم تبق في بيت زوجها الأول بعد الزواج الجديد، لاستطاع الزوج الجديد أن يستولي على البيت (تشان هو إتملّتش)، ولما بقي البيت لأطفالها من زواجها الأول. أما وقد لبثت فيه حتى كبروا، فقد استطاعت أن تتركهم آمنين في بيتهم، وتذهب إلى زوجها الثاني مع أولادها منه، ليحصلوا هم أيضًا على حقوقهم في بيت أبيهم(51). وهي تعلم أن لها أن تسكن آمنة في بيت زوجها حتى لو مات قبلها، فللأرملة الحق في البقاء في بيت زوجها المتوفى إذا كان لها أولاد. وهكذا، تمكنت من حماية أطفال كلا الزوجين، ورعاية حقوقهم وحقها في الوقت نفسه.

وأضافت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) بإعجاب شديد:

«ظلت سيدة (شيخَه) بيتها، وأولادها، وأملاكهم».

وقد سمعنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) تقول آنفًا إنها أصبحت الكبيرة (إلكبيرِه) والحاكمة في البيت الجديد، على الرغم من وجود ضرتها هناك قبلها.

من الواضح أن للزوجة التي تعيش وحدها، وتتمتع باستقلال مادي تام عن زوجها، قدر عظيم من الحرية، ولا سيما أن الزوج يأتي إليها ضيفًا ليس إلا، وليس له أن يأمرها بشيء في بيتها، سواء أكانت تعد البيت إرثًا لها من أبيها، كما في المثال الذي ذكرناه من قريتنا - حتى إن زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) أخرجت ضرتها مع أولادها من البيت بعد وفاة الزوج - أم كانت تدير أملاك أولادها على نحو يبعث على الإعجاب والتقدير، كما في المثال الثاني من قرية الخَضْر المجاورة.

وعلى أي حال، فهذا النوع من الزواج نادر جدًا، فما يهمنا هنا - إلى جانب قيمته التاريخية - هو أن زواجًا كهذا ممكن في الشرق في ظل ظروف معينة.

---

(51) قارن ذلك بالمذكورة أعلاه في الصفحتين 616 و617 من هذا الكتاب من تهديد الشيخ من بلدة الشيوخ لابنه الذي يعيش في أرطاس بحرمانه من حقه في أملاك أبيه إن لم يعد إلى بيته.

مكانة الأرملة

لا يمكن أن يكون للمرأة بعد وفاة زوجها نفوذ وسلطة وحرية، عمومًا، إلا إذا ظلت أرملة، فتدير أملاك أولادها بصفتها وصية عليهم، كما فعلت الزوجة من الخَضْر، في المثال الذي ذكرناه آنفًا؛ إذ حمت أولادها من زواجها الأول، وحالت بين زوجها الثاني والاستيلاء على أملاكهم بصفته من أقاربهم القريبين؛ فالأرملة تدرك أن الغرض من وجودها إلى جانب أولادها هو حماية حقوقهم، حتى من عائلة زوجها. ويقول عم اليتيم لليتيم عادة: «أنا جملَك، كُلْ من كتفي حتى تشبع (أنا جملك إشبع من تِشِتْفِي)!» وعلى الرغم من هذه الكلمات الجميلة، فإنه غالبًا ما يستبد في إدارته بإرثهم، ويستغله لخدمة مصالحه الشخصية. وقد يظن المرء أن مصالح أم الأولاد لا بد من أن تصطدم بمصالح عمهم، وأن ذلك قد يجلب للأرملة الكثير من المتاعب، بيد أن رغباتها تُقدَّم على رغباته هو في ما يبدو، ويمكنها أن تفعل ما يحلو لها، كما أن لها مكانتها كأم للأولاد. ولم أجد مثالًا واحدًا يثبت عكس ذلك في دراستي لأهل القرية كلهم، وما آلت إليه أحوالهم. غير أنني سأروي هنا قصة أرملة أخرجها الابن البالغ لضرتها التي تكبرها كثيرًا من البيت، وسأبين كيف سوي الأمر في ما بعد. ولعل هذه القصة تستحق الاهتمام، كنظير لتلك التي تقدم ذكرها، عندما أخرجت زهور (ابنة موسى ربيع [64]، وزوجة سالم عِثمان [67]) ضرتها مع أطفالها من البيت، معلنة أنه بيت أبيها. وتبين القصة أن وجود الأطفال يجعل للأرملة حقًا معلومًا في بيت زوجها، إذا كان البيت ملكًا وإرثًا له - كما هي الحال في الغالب - وإذا ما قررت الأرملة البقاء فيه مع أطفالها بعد موته.

والأرملة في القصة، هي أم عليا (ابنة إبراهيم عودة [1])، سلمى (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1])، وروت لنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي عن الصعوبات التي واجهتها مع خليل عودة [3]، ابن ضرتها عيشة (زوجة إبراهيم عودة [1]):

«عندما مات إبراهيم عودة، كانت زوجته سلمى (ابنة سالم محمود سند

[182]، وزوجة إبراهيم عودة [1]) حاملًا بعليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) لسبعة شهور خلت. وكان مع زوجة إبراهيم عودة [1] الثانية، عيشة (زوجة إبراهيم عودة [1])، ابنها خليل [3] الذي كان زوجًا لسارة (زوجة خليل إبراهيم [3])، وعاشوا جميعًا مع بعضهم بعضًا مدة ثلاث سنوات، ثم أخرج خليل عودة [3] زوجة أبيه سلمى (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1]) من البيت لمدة ثمانية أشهر، وذهبت إلى أخيها، في حين لبث أطفالها الأربعة والعبد، عبدالله إلعبد(52) في البيت... ثم ذهبت سلمى (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1]) إلى زعيم القرية (المختار) إسْمَعين [51] وقالت: «أريد أولادي!» فذهب إسْمَعين [51] إلى جاد الله عودة [2]، شقيق زوج سلمى (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1]) وقال: «إنها تريد أولادها!».

قسمت الأملاك بين الضرتين، عيشة (زوجة إبراهيم عودة [1])، وسلمى (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1])... كل ما كان في الصناديق والخوابي (كالعسل وزيت الزيتون والذرة والزبيب)، وقسمت الأرض بين الأرملتين وأولادهما.

وتعهد سليمان سند [183] أرض أخته سلمى (ابنة سالم محمود سند [182]، وزوجة إبراهيم عودة [1]) حتى كبر ابنها عبدالله [4]، وقد حرث وحصد لها مدة سبع سنوات»(53).

(52) كان لعائلة عودة عبد. حدثتني عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) قالت: «جاء عندما كان صغيرًا جدًا مع والد سلامة عبدالله [196]. وروى لنا كيف اختطفوا كما تختطف النعاج، وجيء بهم إلى يافا ليباعوا». انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, I, p. 63, 91.

انظر أعلاه في الصفحة 366 وما يليها من هذا الكتاب.

(53) لاحظ كيف دعم الأخ أخته، حتى في ظروف كهذه، على الرغم من أنها فضلت كأرملة أن تبقى في بيت زوجها المتوفى من أجل أولادها. وعلقت الست لويزا هنا بقولها إن الأخ كان بإمكانه أن يزوجها، ولا سيما أنهم أخرجوها من بيت زوجها. - كانت سلمى (ابنة سالم محمود [182]، وزوجة إبراهيم عودة) لا تزال صغيرة وجميلة، وتقدم كثيرون لخطبتها، وكان بإمكانه أن يحصل على مهر لها، إلا أنه آثر مساعدة أخته لتحقيق رغبتها، ثم ساعدها في عملها.

ونرى هنا أن حق الأرملة مصون؛ لأن لها حقًا في أطفالها؛ فالأطفال حماية لأمهم ودعم لها.

ويقول الناس: «الولد وتد في البيت (إلولد وتد في البيت)». ويقال عن الأرملة التي لها أبناء، إن لديها من الأوتاد بعدد أبنائها، وإن بيتًا كهذا لا يمكن هدمه، وقد نسمعها هي ذاتها تقول: «بناتي فراشي وأولادي غطائي (أُو بناتي فراشي أُو أولادي غطايٍ)».

وتعلم الأرملة التي لها أولاد أنه، وبسبب أولادها، لا يمكن إخراجها من بيت زوجها أبدًا، وتعلم أن بإمكانها أن تدبر شؤون أولادها وتخطط لهم. وبالطبع، لا بد أن يكون للأرملة سلطة ونفوذ، وما يكفي من الأملاك حتى تستطيع أن تفعل ذلك. وحتى في قريتنا الفقيرة، لدينا أمثلة على هذا الصنف من الأرامل القديرات.

وكانت عيشة (زوجة شحادة [169]) والدة خليل شحادة [170] واحدة من هؤلاء. وقد تزوجت الزوج الثاني، أبو قَدُّوم، في سِعْير، وأخذت ابنها خليل [170] معها إلى هناك، ولكن عمته حلوة (زوجة سالم محمود سند [182]) ذهبت إلى هناك، وأعادته معها إلى بيتها في أرطاس؛ لأنها قالت إن زوج عيشة (زوجة شحادة [169]) الجديد كان يعامله معاملة سيئة. ولكن الأرجح أن أقارب الولد ما كانوا ليأذنوا بإخراجه من القرية، ثم جاءت الأم تنشد ولدها. وكما فعلت الأرملة المذكورة أعلاه، لجأت عيشة (زوجة شحادة [169]) أيضًا إلى إسْمَعين [51]، وكان رجلًا ذا سلطة، وزعيمًا للقرية (مختار)، لتحصل على حقها، فخيرَّها بين ابنها وزوجها.

وتروي حمدية (ابنة سليمان سند [183]) الآتي:

«جاءت عيشة (زوجة شحادة [169]) إلى إسْمَعين [51] تستنصره، أي تلتمس منه العون (أطْنَبَت عليه) وقالت: «أنا أستنصر الله ثم أستنصرك (أنا طنيب على الله أُو عليك)!»[54] فقال لها: «أبشري! سيكون لك ما تريدين

(54) في ما يتعلق بعبارتي (أنا طنيب عليك) و(أنا دخيل عليك) اللتين تستخدمان لالتماس العون من =

(إبشري مرحبابتش بللي بِدِّتش إيّاه)!» قالت: «أريد ابني!» قال: «ستحصلين على ابنك (مرحبابتش بِـ إبنتش)!» ثم استدعوا حلوة (زوجة سالم محمود سند [182])، وقال لها إسْمَعين [51]: «أعطِ الولد لأمه!'!» فأجابت: «لن أعطيه لأبي قدُّوم ليجلده!»، فقال إسْمَعين [51] لعيشة (زوجة شحادة [169]): «يا عيشة (زوجة شحادة [169])، هل ستمكثين هنا أم ستعودين إلى زوجك؟» أجابت: «لا، لن أعود إلى زوجي! أنا أريد ابني!» فقال لها: «أهلا بك في بيتي (مرحبابتش في بيتي)!».

وكبر ابنها، وبنوا بيتًا. وقد لبثت سنة عند إسْمَعين [51]».

ومن الواضح أن الأرملة، عيشة (زوجة شحادة [169])، كانت تملك مالًا، فقد استطاعت أن تبني بيتًا لها ولولدها، واستطاعت كذلك أن تشتري أرضًا، وكانت شريكة لرجل من قرية الخَضْر المجاورة، وكان لها أن تبذر في أرضه وتزرعها لقاء أجرها. ولكن، عندما حاول أن يضيق عليها في ما بعد، اشترت منه حصته في الأرض. وقالت حمدية (ابنة سليمان سند [183]) ذات مرة: «اشترت أم خليل [170] حصته من الأرض بمئة زلطة (قسم خليل شحادة إلإم عيشة شرته بميت زلطة)». وسواء وضعت بذلك أساسًا لأملاك العائلة في أرطاس، أو أنها - كما أرجح أنا - وسعت نطاق أملاك العائلة التي كانت موجودة من ذي قبل، فسأعرض هنا ما روته لنا حمدية (ابنة سليمان سند [183]) برهانًا على القوة والحصافة اللتين بلغت بهما عيشة (زوجة شحادة [169]) مرادها.

«أرسلت أم خليل شحادة [170] ابنها ببعض القمح إلى شريكها من

= شخص آخر انظر: Taufik Canaan, *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine* (London, 1927), p. 89.

ويقول روبرتسون سميث في: Smith, *Kinship and Marriage*, p. 48,

«يسمى الغريب المحمي في الجزيرة العربية حاليًا (دخيل) من عبارة (دخلتُ عليكَ)؛ أي جئت أحتمي بخيمتك... بل يكفي أن يلمس حبال الخيمة، لالتماس الحماية». ويذكر المؤلف أن «لمس حبل الخيمة لا يزال مبدأ أساسيًا في العرف البدوي». - وتعني لفظة (طُنُب) «حبل الخيمة». انظر كذلك: Schmidt and Kahle, «Volkserzählungen aus Palästina,» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*, p. 277, 287.

الخَضْر ليبذره؛ فأخذ الخَضْري يسب ويلعن، وعاد الولد إلى أمه باكيًا. قالت له: «ما بالك؟» - «رفض الخَضْري أن يبذر القمح» - «حقًا! حقًا! سأُريه الآن! خذ القمح وأنا وراءك!».

وجاءت للخَضْري، وقالت: «ازرع لي هذا القمح!» قال: «أوهذا أيضًا!» فقالت والدة خليل شحادة (زوجة شحادة [169]) الأرض أرضي! أبعد البقرات! هاك يا شريكي! خذ مالك!» قال الخَضْري: «ولكن لماذا؟» قالت أم خليل شحادة (زوجة شحادة [169]): «أنت لن تبقى في هذه الأرض!» وأخذت المئة زلطة من غطاء رأسها، وأخرجت الخَضْري وبقراته».

وكانت المرأة قديمًا تحمل مالها مخيطًا في غطاء رأسها، وتستعمله عند الحاجة؛ أما في هذه الأيام، فهي في الغالب للزينة فقط. ولم تتردد الأرملة عيشة (زوجة شحادة [169]) في التضحية بمالها من أجل ابنها. وكما قد ذكرنا في السابق، فإن إسْمَعين [51] زوَّج ابنته حسنة (ابنة إسْمَعين [51]، وزوجة خليل شحادة [170]) لخليل شحادة [170]، وعلقت عليا (ابنة إبراهيم عودة [1]) على ذلك بقولها: «هكذا اختلط الناس وصاروا من أهل القرية (من هذا إتبلَّدو إلنَّاس)». وكان شحادة [169] أبو خليل [170] جاء فارًا من سِلوان الواقعة بالقرب من القدس. وقالت الست لويزا ذات مرة: «والآن لهم أرض جميلة بالقرب من برك سليمان، وهم الوحيدون في أرطاس الذين لم يبيعوا أيًا من أراضيهم».

وأبناء عائلة شحادة ميسورو الحال وفقًا لمعايير أرطاس في أيامنا هذه[55]، ولقد أحسنوا البناء على الأساس الذي وضعته لهم جدتهم الأرملة عيشة (زوجة شحادة [169]).

وفي الوقت الحاضر، يوجد في القرية ثلاث أرامل ذوات شأن: إحداهن

---

(55) انظر: Granqvist, *Marriage Conditions*, I, p.89,
حيث يقال أيضًا إن عائلة شحادة هي العائلة الأكبر ضمن المجموعات الصغيرة، والوحيدة من بينها التي بلغت مثل هذه القوة والحجم؛ حتى بات زواج أبناء العم بينهم ممكنًا.

هي سعدة أحمد (زوجة إحسين إبراهيم [93]) من الوَلَجَة التي أعطت أخاها مالًا (إحضينه)[56] ليأذن لها بالبقاء في بيت زوجها بعد موته. وقالت الست لويزا عنها: «لديها أرض تديرها كالرجال، بل أفضل من كثير من الرجال». وتزوج أحد أولادها ابنة أخيها، وتشعر سعدة أحمد (زوجة إحسين إبراهيم [93]) بأنها محظوظة لأنها حصلت على فتاة من عشيرتها وقريتها لتكون عونًا لها، وتسري عنها في أيام عجزها.

وهناك أرملة أخرى ذات مال، وهي مريم (ابنة مصطفى سالم [69]، وزوجة أحمد خليل [172]). ولها ولدان، الأصغر علي أحمد (ابن أحمد خليل [172]) والأكبر محمد أحمد [178]، وهو الآن متزوج. وعندما تقدم أخو زوجها، علي خليل [173] لخطبتها، وهو ابن لخليل شحادة [170] سالف الذكر، أجابت بفخر، وهي تفكر بولديها: «محمد أحمد [178] غطائي وعلي (ابن أحمد خليل [172]) فراشي (محمد غطاءٍ وعلي افراشي)!».

والأرملة الثالثة، ذات الشأن، هي صفية (زوجة إبراهيم عايش [82]) التي زُوجت وهي بنت صغيرة لرجل كبير السن، ولكنها بعد موته، أصبحت سيدة البيت المتحكمة في شؤونه. وتبتسم الآن، وهي في أوج قوتها، كلما تذكرت خوفها من زوجها فيما مضى[57].

وتستطيع الأرملة أن تحوز نفوذًا عظيمًا إذا كانت سيدة بيتها، وكان لديها مال تنفق منه كيفما تشاء، وكانت هي الوصية على أولادها. وإذا تعوَّد أولادها سلطتها، فقد تدوم لوقت طويل، حتى بعد أن يكبر الأولاد، فتظل هي قلب العائلة، وأهم أفرادها. ولا يخفي أولادها عنها شيئًا، ويستمعون لنصائحها، وعندما يتزوجون، يكون ذلك في الغالب بترتيب منها، وتكون نساؤهم تحت تصرفها، ويصبحن خادماتها اللاتي يطعن أوامرها.

(56) انظر اعلاه في الصفحة 603 من هذا الكتاب.

(57) انظر المصدر نفسه، ص 49.

ويمكننا أن نفهم لمَ قد تفضل المرأة بيت زوجها المتوفى على بيت أبيها، وتختار البقاء مع أولادها على العيش مع إخوتها؛ فإلى جانب حبها لأولادها، وعلى الرغم من حديثها عن بيت أبيها، وأهميته الكبيرة لها، فإن أولادها هم القادرون على تلبية حاجاتها في مستقبل أيامها، وبعد حين، عندما لا يبقى أحد من إخوتها حيًا، يمكنها أن تجد في أولادها الدعم والحماية، ولأنها أمهم، فستكون موضع إجلالهم، وستحظى بنفوذ ما كانت لتحوز مثله في بيت أبيها أبدًا؛ فبغيابها عن المستجدات التي طرأت هناك، تصبح غريبة فيه إلى حد ما، في حين أن ما يستجد في بيت زوجها، ما ينفك يعوِّدها على ما كانت تجده غريبًا عليها هناك. ويموت أقرباء زوجها الذين ينتمون إلى الجيل القديم: حماتها، وحماها، وأعمام زوجها، في حين ينتقل أشقاء زوجها في الغالب كل إلى بيت خاص به، عندما تكبر عائلاتهم، ويبلغون درجة من الاستقلال وسعة الحال، وتبقى هي كبيرة العائلة، في بيئة كان لها يد في إنشائها، مع أبنائها وأسرهم.

الخاتمة

وهكذا أختتم دراستي لأحوال الزواج في قرية عربية في فلسطين؛ فبعد أن استعرضنا الأسس التي يبنى عليها عقد الزواج، ومراسم الخطبة والزواج، تتبَّعنا المرأة المتزوجة بدءًا باليوم الذي تؤخذ فيه من بيتها في بيت أبيها إلى بيت زوجها؛ حيث يكون عليها أن تتكيف لتوائم مكانها الجديد، ولا سيما تجاه حماتها في العمل، وتجاه زوجها بأن تكون زوجة له، وفي كثير من الأحيان، تجاه ضرة أو أكثر من ضرة، وتجاه أطفالها وأطفالهم. ولكننا بيَّنا في فصل «المرأة في بيت زوجها»، بل حتى قبل ذلك، عندما تحدثنا عن اختيار العروس، أن بيت أبيها يبقى هو المركز لها، حتى بعد زواجها؛ فبيت أبيها وبيت زوجها هما القطبان اللذان تدور حياتها في فلكهما، وأن بيت أبيها هو الأهم من بينهما، وأن سمعتها ومكانتها فيه، تحسمان أمر سمعتها ومكانتها في بيت زوجها. وتعود الزوجة إلى بيت أبيها في جميع المواقف الحرجة؛ فهي تلجأ إليه إذا لم تلق المعاملة التي تعتقد أنها تستحقها، أو عندما يطلقها زوجها، وحتى عندما تموت الزوجة، يكون على إخوتها أن يدفنوها؛ لأنها تنتمي إلى بيت أبيها، وإذا مات زوجها، فإنها تعود إليهم تلقائيًا كأرملة. ولكننا رأينا أيضًا أن هذا يمكن أن يكون نقطة تحول لها؛ فعند موت زوجها تكون على مفترق طرق، وإن كان لها أولاد؛ فقد تختار البقاء معهم لتدعمهم، ولكن أيضًا لتجد الدعم فيهم، وقد يكون حالها كأرملة هو أفضل أوقات حياتها، عندما توجه أولادها وتدير شؤونهم، وهم يقدرونها ويجلّونها لأنها أمهم[1]، كما أنه يمكنها أن تعيش حياة اجتماعية أكثر نشاطًا كامرأة مسنة.

---

(1) قارن مثل هذه الحالة الاستثنائية بما يرد في الإصحاح الرابع والعشرين وما يليه من سفر أخبار الأيام الثاني عن «أم الملك».

وقد خطرت لي أفكار وأسئلة من جوانب عديدة، كانت قد برزت من قبل خلال دراستي للنساء في العهد القديم. وأنا واثقة تمامًا من أن فرصًا أخرى ستسنح لي بمواصلة عملي الميداني في فلسطين، لأتمكن من ملاحظة الحياة هناك، ومتابعة دراسة هذه الأفكار وغيرها. ولربما أتيحت لي الفرصة يومًا للعودة إلى نقطة البداية، «النساء في العهد القديم»، ودراسة هذه المسألة بالاستناد إلى خبرتي بالمرأة الفلاحة في فلسطين.

المراجع

Books

Abeghian, Manuk. *Der armenische Volksglaube:Inaugural-Dissertation.* Leipzig, 1899.

Ali, Ameer. *Mahommedan Law*, II. Calcutta, 1908.

Andree, Richard. *Ethnographische Parallelen und Vergleiche*, I. Leipzig, 1889.

Baldensperger, Philip. «Birth, Marriage and Death among the Fellahin of Palestine.» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXVI. London, 1894.

———. *The Immovable East.* London, 1913.

El-Barghuthi, Omar Effendi. «Judicial Courts among the Bedouin of Palestine.» in: *Studies in Palestinian Customs and Folklore*, I. Jerusalem, 1922.

Bauer, Leonhard. *Volksleben im Lande der Bibel.* Leipzig, 1903.

Baumann, E. «Zur Hochzeit geladen.» (el-Bīre) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, VI. Berlin, 1908.

Benhazera, Maurice. *Six mois chez les Touareg du Ahaggar.* Alger, 1908.

Biarnay, S. *Étude sur le dialecte berbère de Ouargla.* Paris, 1908.

Bremer, Fredrika. *Lifvet i Gamla verlden*, IV. Stockholm, 1861.

Budge, E. A. Wallis. *Egyptian Tales and Romances: Pagan, Christian and Muslim.* London, 1931.

Burckhardt, John Lewis. *Arabische Sprüchwörter oder die Sitten und Gerbräuche der neueren Aegyptier.* Weimar, 1834.

———. *Notes on the Bedouins and Wahábys*, I. London, 1830.

Burton, Richard Francis. *Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medinah and Meccah*, II. London, 1855.

Canaan, Taufik. *Aberglaube und Volksmedizin im Lande der Bibel*. Hamburg, 1914.

Cheyne, T. K. and J. S. Black. *Encyclopaedia Biblica*, II.

Conder, Claude Reignie. *Heth and Moab Explorations in Syria*. London, 1885.

———. *Tent Work in Palestine*. London, 1885.

Crawley, Ernest. *The Mystic Rose: A Study of Primitive Marriage and of Primitive Thought in it bearing on Marriage*. London, 1902.

———. *Studies of Savages and Sex*. Edited by Theodore Besterman. London, 1929.

Crowfoot, Grace Mary and Louise Baldensperger. *From Cedar to Hyssop: A Study in the Folklore of Plants in Palestine*. London, 1932.

Curtiss, Samuel Ives. *Primitive Semitic Religion Today*. Chicago; New York; Toronto, 1902.

Dalman, Gustaf. *Arbeit und Sitte in Palästina*, I. Gütersloh, 1928.

———. *Palästinischer Diwan*: *als Beitrag zur Volkskunde Palästinas*. Leipzig, 1901.

Doughty, Charles. *Passages from Arabia Deserta*. Selected by Edward Garnett. London; Toronto, 1931.

Doutté, Edmond. *Magie et Religion dans l'Afrique du Nord*. Alger, 1909.

Lydia, Einsler. *Mosaik aus dem heiligen Lande*. Jerusalem, 1898.

Fehlinger, Hans. «Über das Ehe- und Familien-Recht der Mohammedaner.» (by Kaurimsky), in: *Archiv für Rassen u Gesellschafts-Biologie*, XII. München; Leipzig; Berlin, 1916-1918.

Fitch, Florence Mary. *The Daughter of Abd Salam*. Boston, 1930.

Fitzgerald, Seymour Vesey. *Muhammadan Law: An Abridgement According to Its Various Schools*. Oxford-London, 1931.

Frazer, James George. *Folk-Lore in the Old Testament*, II. London, 1919.

Gennep,Van. *Les Rites de passag*. Paris, 1909.

Giesebrecht, F. *Die alttestamentliche Schätzung des Gottesnames und ihre religionsgeschichtliche Grundlage*. Königsberg, 1901.

Goldziher, Ignaz. *Islam fordom och nu: Studier I Korantolkningens historia*. Stockholm, 1915.

———. *Muhammedanische Studien*, I. Halle, a. S. 1888.

Goodrich-Freer, Adela. *Arabs in Tent and Town*. London, 1924.

———. *In a Syrian Saddle*. London, 1905.

———. *Inner Jerusalem*. London, 1914.

Granqvist, Hilma. «Bruderschaft und Frauenehre.» in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heiligen Landes zu Jerusalem*, XXIII. Berlin, 1927.

Granqvist, Hilma. «*Marriage Conditions in a Palestinian Village*.» in: *Societas Scientiarum Fennica: Commentationes Humanarum Litterarum*, III. 8. Helsingfors, 1931.

Grant, Elihu. *The People of Palestine*. London, 1921.

Gunkel, Hermann. «Genesis.» in: *Göttinger Handkommentar zum Alten Testament*. Edited by Wilhelm Nowak. Göttingen, 1922.

Hanauer, James Edward. *Folk-Lore of the Holy Land*. London, 1907.

Hastings, James. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, I. Edinburgh, 1908.

Jacob, Georg. *Altarabisches beduinenleben: nach den quellen geschildert*. Berlin, 1897.

Jennings-Bramley, W. E. «The Bedouin of the Sinaitic Peninsula.» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXIX. London, 1907.

Jaussen, Antonin. *Coutumes des Arabes au pays de Moab*. Paris, 1908.

———. *Coutumes palestiniennes, I. Naplouse et son district*. Paris, 1927.

——— and Raphaël Savignac, *Mission archéologique en Arabiel*. Pubications de la société des fouilles archéologiques. Paris, [1914] 1920. Supplément au volume II: *Coutumes des Fuqarâ*.

Jochelson, Waldemar. *The Koryak in the Publications of the Jesup North Pacific Expedition*, VI. Leiden; NewYork, 1908.

Juynboll, Theodoor Willem. *Handbuch des Islamischen Gesetzes Nach der Lehre der Schafiitischen Schule nebst einer allgemeinen Einleitung*. Leiden, 1910.

Kohn, Sara. *Die Eheschliessung im Koran*. London, 1934.

Lane, Edward William. *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, I. London, 1849.

———. *Arabian Society in the Middle Ages*. London, 1883.

Lees, George Robinson. *Village Life in Palestine*. London, 1905.

———. *The Witness of the Wilderness*. London, 1909.

Legouvé, E. *Histoire morale des femmes*. Paris, 1896.

Africanus, Leo. *The History and Description of Africa*, II. London, 1896.

Littmann, Enno. *Arabic Proverbs*. Collected by Mrs. A. P. Singer.Cairo, 1913.

———. Beduinenerzählungen, II. Strassburg, 1908.

———. «The Legend of the Queen of Sheba' in the Tradition of Axum.» in: *Bibliotheca Abessinica Studies Concerning the Languages, Literature and History of Abyssinia*. Leyden; Princeton, 1904.

———. «Neuarabische Volkspoesie.» in: *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Philologisch-Historische Klasse*. Berlin, 1902. volume 3. (Neue Folge)

Löbel, D. T. *Hochzeitbräuche in der Türkei*. Amsterdam, 1897.

Macalister, Robert Alexander. «A Day in a Fellah Village.» in: *Palestine Exploration Fun Quarterly Statement*, XLVII. London, 1915.

Macalister, Stewart and E. W. G. Masterman. «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine.» in: *Palestine Exploration Fund. Quarterly Statement*, XXXVII. London, 1905.

Matthews, A. N. *Mishkât*. English Translation. Calcutta, 1810.

Musil, Alois. *Arabia Petraea*, III. Wien, 1908.

Narbeshuber, Karl. *Aus dem Leben der Arabischen Bevölkerung in Sfax*. Leipzig, 1907.

Niebuhr, Carsten. *Reisebeschreibung nach Arabien und den umliegenden Ländern*, II. Hamburg, 1837.

Nöldeke, Theodor. «Ancient Arabs.» in: James Hastings, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, I. Edinburgh, 1908.

Oesterley, William Oscar Emil. *The Sacred Dance: A Study in Comparative Folklore*. Cambridge, 1923.

Perron, Nicolas. *Femmes arabes avant et depuis l'islamisme*. Paris; Alger, 1858.

Pickthall, M. *Koran*. English Translation. New York, 1930.

Pierotti, Ermete. *Customs and Traditions of Palestine Illustrating the Manners of the Ancient Hebrews*. Cambridge, 1864.

Redhouse, J. W. «Notes on Prof. E. B. Tylor's 'Arabian Matriarchate'. Propounded by him as President of the Anthropological Section, British Association (Montreal, 1884).

Rossbach, August. *Untersuchungen über die römische Ehe*. Stuttgart, 1853.

Rothstein, Gustav. «Moslemische Hochzeitsgebräuche in Lifta bei Jerusalem.» (arab. Text mit Übers.) in: *Palästinajahrbuch des Deutschen evangelischen Instituts für Altertumswissenschaft des heligen Landes zu Jerusalem*, VI. Berlin, 1910.

Russell, A. D. and Abdullah Al-Ma'mun Suhrawardy, «*A Manual of the Law of Marriage" from the Mukhtaṣar of Sīdī Khalīl*. London.

Russell, Robert. *The Tribes and Castes of the Central Provinces of India*, III. London, 1916.

Samter, Ernst. *Familienfeste der Griechen und Römer*. Berlin, 1901.

Scheftelowitz, J. *Altpalästinischer Bauernglaube*. Hannover, 1925.

Schmidt, Hans and Paul Kahle. «Volkserzählungen aus Palästina.» in: *Forschungen zur Religion und Literatur des Alten und Neuen Testaments*. Heft 17. Göttingen, 1918.

Seligman, C. G. and Z. Berenda, «The Kabâbîsh, a Sudan Arab Tribe.» in: *Harvard African Studies*, II. Cambridge, 1918.

Shukri, A. *Muhammedan Law of Marriage and Divorce*. New York: Columbia University Press, 1917.

Sīdī Halīl. *Mukhtaṣar*. London.

Smith, Robertson. *Kinship and Marriage in Early Arabia*. Cambridge University 1885.

Socin, A. and H. Stumme. *Diwan aus Centralarabien*, no. 110, prose text 13. Leipzig, 1901.

Tallqvist, Kunt. *Arabische Sprichwörter und Spiele*. Helsingfors, 1897.

———. *Paradisets nyckel eller Hur man tillber Allah*. Helsingfors, 1930.

Thomsen, P. *Die Palästina-Literatur: Eine internationale Bibliographie*, I-IV. Leipzig, 1908-1927.

Todd, David. *Tripoli the Mysterious*. London, 1912.

Trumbull, Henry Clay. *Studies in Oriental Social Life*. London, 1895.

———. *The Threshold Covenant*. New York, 1896.

Van-Lennep, Henry. *Bible Lands: Their Modern Customs and Manners Illustrative of the Scripture*. London, 1875.

Villot, Etienne. *Moeurs, coutumes et institutions des indigènes de l'Algérie*. Alger, 1888.

Wellhausen, Julius. «Die Ehe bei den Arabern.» in: *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften und der Georg-Augusts-Universität zu Göttingen*. Göttingen, 1893.

———. *Reste Arabischen Heidentums*. Berlin, 1897.

Westermarck, Edward. *Marriage Ceremonies in Morocco*. London, 1914.

Westermarck, Edward. *The History of Human Marriage*, I, II, III. London, 1925.

———. *Ritual and Belief in Morocco*, II. London, 1926.

———. *Wit and Wisdom in Morocco: A Study of Native Proverbs*. London, 1930.

Wilken, George. *Das Matriarchat bei den alten Arabern*. Leipzig, 1884.

Wilson, Charles Thomas. *Peasant Life in the Holy Land*. London, 1906.

Wilson, Samuel. *Persian Life and Customs*. Edinburgh; London, 1896.

Periodicals

Abēla, Eijūb. «Beiträge zur Kenntniss abergläubischer Gebräuch in Syrien.» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*: vol. VII, Leipzig, 1884.

Baumann, Eberhard. «Volksweisheit aus Palästina.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*: vol. XXXIX. Leipzig, 1916.

Canaan, Taufik. «Dämonenglaube im Lande der Bibel.» *Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des Ostens*: vol. XXI, Leipzig, 1929.

———. «Der Kalender des palästinensischen Fellachen.» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*: vol. XXXVI, Leipzig, 1913.

Chémali, Béchara. «Moeurs et usages au Liban. L'Éducation.» *Anthropos*: vol. XII-XIII, Wien, 1917-1918.

Dschirjus, Churi. «Über Scheidung und Wiedervereinigung muhammedanischer Ehegatten.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*: vol. XXXVI, Leipzig, 1913.

Einsler, Lydia. «Arabische Sprichwörter.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*: vol. XIX, Leipzig, 1896.

———. «Das böse Auge.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*: vol. XII, Leipzig, 1889.

———. «Der Name Gottes und die bösen Geister im Aberglauben der Araber Palästinas.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*: vol. X, Leipzig, 1887.

Féraud, L. «Moeurs et coutumes kabiles.» *Revue africaine:* vol. IV, Constantine, 1862.

Galton, Francis. «Restrictions in Marriage.» *Sociological Papers*: vol. II, London, 1906.

Granqvist, Hilma. «Aus dem Erzählungsschatz palästinischer Bauernfrauen.» *Palästinajahrbuch*: vol. XXIII, Berlin, 1927.

Haddad, Elias. «Blood Revenge among the Arabs.» *Journal of the Palestine Oriental Society*: vol. I, Jerusalem, 1921.

———. «The Guest-House in Palestine.» *Journal of the Palestine Oriental Society*: vol. II, Jerusalem, 1922.

———. «Political Parties in Syria and Palestine (Qaisî and Yemenî).» *Journal of the Palestine Oriental Society*: vol. I, Jerusalem, 1921.

Jansen, H. «Mitteilungen über die Juden in Marroko.» *Globus*: vol. LXXI, 1897.

Jaussen, Antonin. «Le ǧoz musarrib.» *Revue Biblique*: vol VII, Paris, 1910.

———. «Inscriptions arab d"Ortas.» *Revue Biblique*: vo l. XXXIII, Paris, 1924.

Kasteren, J. P. «Aus dem «Buch der Weibers».» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*: vol. XVIII, Leipzig, 1895.

Klein, Frederick. «Mittheilungen über Leben, Sitten und Gebräuche der Fellachen in Palästina.» *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*: vol. VI, Leipzig, 1883.

Mülinen, E. Graf von. «Beiträge zur Kenntnis des Karmels.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*: vol. XXX, Leipzig, 1907.

Saarisalo, Aapeli. «Songs of the Druzes.» *Studia Orientalia*: vol. IV, Helsingfors, 1932.

Safi, M. «Mariage au Nord du Liban.» *Anthropos*: vol. XII-XIII, Wien, 1917-1918.

Spoer, H. and E. N. Haddad, «Volkskundliches aus el-Qubēbe bei Jerusalem.» *Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete*: v. 1, Leipzig, 1926.

Stephan, Stephan Hanna. «Modern Palestinian Parallels to the Song of the Song.» *Journal of Palestine Oriental Society*: vol. II, Jerusalem, 1922.

———. «Palestinian Animal Stories and Fables.» *Journal of the Palestine Oriental Society*: vol. III, Jerusalem, 1923.

Thomas, Bertram. «Anthropological Observations in South Arabia.» *The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*: vol. LXII, London, 1925.

Ulmer, Friedrich. «Südpalästinensische Kopfbedeckungen.» *Zeitschrift des Deutschen Palästina- Vereins*: vol. XLI, Leipzig, 1918.

Wetzstein, Johann Gottfried. «Die syrische Dreschtafel.» *Zeitschrift für Ethnologie*: vol. v, Berlin, 1873.

ثبت الأعلام

آلت، ألبريشت (Alt, Albrecht) (1883-1956): هو الابن البكر لقس لوثري. أكمل المرحلة الثانوية في أنسباخ ودرس اللاهوت في جامعة ألكسندر - فريدريش في إيرلنغن، وجامعة لايبزغ. ورُشِّح ما بين عامي 1907-1908 إلى منصب محاضر في ميونيخ (مجمع المبشرين اللوثريين). ومنح في عام 1908 منحة دراسية من المعهد الألماني البروتستانتي للآثار في الأراضي المقدسة (Deutschen Evangelischen Institutes für Altertumskunde des Heiligen Landes) في القدس. وعين في العام نفسه مشرفًا على كلية اللاهوت في غريفسفالد. في عام 1909 كتب أطروحته الموسومة بالعنوان «إسرائيل ومصر» (*Israel and EgyptX*) لنيل درجة الدكتوراة من جامعة غريفسفالد. وشغل خلال الحرب العالمية الأولى منصب قائد في قسم رسم الخرائط في الجيش الألماني الشرقي. وبعد الحرب، عُين مرة أخرى أستاذًا في بازل، وفي عام 1921 عين في جامعة هالِة، وبعدها بسنتين؛ أي في عام 1923 في جامعة لايبزغ.

ألبرايت، وليام فوكسويل (Albright, William Foxwell) (1891-1971): عالم آثار أميركي، وباحث توراتي، وعالم في اللغات السامية الشمالية الغربية. ويُعدُّ ألبرايت المؤسس لعلم الآثار التوراتي؛ أي ذلك الفرع من علم الآثار الذي يسلط الضوء على البنية الاجتماعية والسياسية، والمفاهيم والممارسات والأنشطة البشرية الأخرى، والعلاقات الدينية التي وجدت، أو تلك التي تتعلق بالشعوب المذكورة في الكتاب المقدس وربطها بالمكتشفات الأثرية

في فلسطين. وعمل ألبرايت أستاذًا للغات السامية في جامعة جونز هوبكنز في الفترة ما بين عامي 1929 و1958، كما عمل محررًا لنشرة المدارس الأميركية للأبحاث الشرقية (Bulletin of the American Schools of Oriental Research) ما بين عامي 1931 و1968.

بالدنسبيرغر، فيليب (Baldensperger, Philip) (1856-1941): هو ابن المبشر الإلزاسي هنري بالدنسبيرغر، وأخو لويز بالدنسبيرغر (الست لويزا)، ولد ونشأ في فلسطين وعمل نحالاً، وله أبحاث عن النحل، واشتهر بكتابه الشرق الذي لا يتغير (*The Immovable East*).

بالدنسبيرغر، لويز (الست لويزا) (Baldensperger, Louise) (1862-1938): هي ابنة هنري بالدنسبيرغر (1823-1896)، وهو إلزاسي أرسلته إرسالية كريشونا (بالقرب من بازل/ سويسرا) في مهمة تبشيرية إلى القدس، وبعد ذلك ابتاع مزرعة في أرطاس وعاش بين سكانها، وهي كذلك شقيقة فيليب بالدنسبيرغر. وكان لوجودها في أرطاس، وإتقانها للعربية، ومعرفتها العميقة بالعادات في أرطاس، دور في تسهيل مهمة هيلما غرانكفست خلال تجميعها للمادة اللازمة لأبحاثها عن قرية أرطاس.

باور، ليونارد (Bauer, Leonhard) (1865-1964): مبشر ومدرس ألماني، عمل في دار الأيتام السورية في القدس، وهو رائد دراسة اللهجات العربية في فلسطين، وأسس جمعية الصداقة الألمانية الفلسطينية، وأنشأ فيها مجلة نشرت أبحاثه ودراساته. وقد عمل في بداية حياته مدرسًا منزليًا في ألمانيا. وكان قرأ إعلانًا في الصحافة عن فرصة عمل في دار الأيتام السورية في القدس، فسافر إليها في حزيران/ يونيو 1890، وقد كان يعلم الديانة باللغتين الألمانية والفرنسية، ثم تعهد بأن يتعلم العربية للتواصل مع العرب بصورة سليمة، ألف مجموعة كتب عن اللهجة الفلسطينية عند أهل المدن والفلاحين، وله كتاب الحياة الشعبية في أرض التوراة (*Volksleben im Lande der Bibel*)، وجمع فيه الأمثال والقصص الشعبية، ووصف الأخلاق،

والأغاني الشعبية، والألغاز والأحاجي. قال عنه دلمان أنه لا يعرف أحدًا درس اللهجة الفلسطينية بهذا العمق. اعتقله الإنكليز ووضعوه في سجن عكا عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية في عام 1939، فأصيبت إحدى عينيه بالعمى وأطلق سراحه بعد ذلك بشهرين ليعود إلى العمل في القدس. لجأ إلى إحدى الأسر الفلسطينية في رام الله على إثر النكبة في عام 1948، وبعد استقرار الأوضاع سافر إلى بيروت، وأقام في قرية شملان إلى الجنوب من بيروت ومات ودفن فيها في عام 1964.

بيركهارت، جون لويس (Burckhardt, John Lewis) (1784-1817): مستشرق سويسري رحالة. ولد في لوزان. ودرس في لايبزغ وغوتنغن في ألمانية. وزار إنكلترا سنة 1806 ودرس في لندن وكامبردج. وتجنس بالجنسية الإنكليزية. ورحل إلى حلب (سوريا) فتعلم العربية وقرأ القرآن وتفقه بالدين الإسلامي. وزار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشمال السودان، ثم مضى إلى الحجاز مسلمًا أو متظاهرًا بالإسلام، وتسمَّى بإبراهيم بن عبد الله، فأدى مناسك الحج وقضى بمكة ثلاثة شهور، ثم عاد إلى القاهرة في عام 1815 وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ. وفي السنة التي بعدها زار سيناء وعاد إلى القاهرة في عام 1816، وكان يعتزم السفر إلى فزان، ليبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفي في القاهرة، موصيًا بمجموعة مخطوطاته إلى جامعة كامبردج. وكتاباته كلها تدور حول رحلاته. كرحلة للشام والأراضي المقدسة، ورحلة إلى جزيرة العرب (*Travels in Arabia*)، ومعلومات عن البدو والوهابيين (*Notes on The Bedouins and Wahabys*). وقد تولت الجمعية الأفريقية بإنكلترا نشرها. وله بالعربية أمثال عربية (*Arabic Proverbs*) مع ترجمتها إلى الإنكليزية.

بيروتي، إيرميت (Pierotti, Ermete) (1840-1875): هو مهندس معماري إيطالي، وعالم رياضي. عمل قائدًا للمهندسين في الجيش الإيطالي. وعين في الفترة ما بين 1854-1861 مستشارًا هندسيًا للحاكم العثماني في القدس مصطفى سُريًّا، بهدف تحسن الطرق والبنية التحتية في المنطقة، مما سهَّل له

مهمة التعرف إلى فلسطين بالكامل. له مؤلفات في الثقافة، والتضاريس، والسكان، والحياة الشعبية في فلسطين، ومنها **عادات فلسطين وتقاليدها** (*Customs and Traditions of Palestine*). تقاعد في وقت لاحق إلى باريس.

تايلر، جون ليونيل (Tayler, John Lionel) (1874-1930): طبيب وكاتب أميركي، عمل قسًا في الكنيسة الموحّدة في الفترة ما بين عامي 1910 إلى 1930. من مؤلفاته: **طبيعة المرأة** (*The Nature of Woman*)، وقصة **حياة: سيرة ذاتية** (*The Story of A life: An Autobiography*). وأشار تايلر في سيرته الذاتية إلى أنه نشأ في أسرة ترى أن قضية اضطهاد المرأة مسألة لا جدال فيها، وهي أفكار تخلى عنها لاحقًا في كتاباته الاجتماعية.

تايلور، إدوارد بيرنت (Tylor, Edward Burnett) (1832-1917): أنثروبولوجي إنكليزي، وكثيرًا ما يشار إليه في البلدان الناطقة بالإنكليزية على أنه أبو علم الأجناس البشرية. وقد نشطت مؤلفاته في هذا الفرع من العلوم. وساعدت دراساته على تحديد مجال الأنثروبولوجيا وتطور الاهتمام بذلك العلم. كان أستاذاً للأنثروبولوجيا بجامعة أكسفورد (1896-1909)، وبقي أستاذًا بها حتى تقاعده في عام 1913. ومن أهم كتبه **الثقافة البدائية** (*Primitive Culture*)، و**الأنثروبولوجيا: مقدمة لدراسة الإنسان والحضارة** (*Anthropology: An Introduction to the Study of Man and Civilization*). وأسهم تايلور إسهامًا عظيمة في دراسة الثقافة، وكان أحد رواد المدرسة التطورية، وقال بالنظرية البيولوجية، كما وأسهم في الدراسات المقارنة للأديان.

جوسان، أنطوان جوزيف (Jaussen, Antonin Joseph) (1871-1962): من الآباء الدومينيكان، وكان من أوائل تلاميذ المدرسة التوراتية والآثارية الفرنسية في القدس (École biblique et archéologique française de Jérusalem)، وهو مستشرق ومتخصص بالدراسات اللاهوتية، ويعتبر بحق من أهم الرحالة الذين جالوا في منطقة جنوبي بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء، وعلى الرغم من الصبغة التوراتية لأهداف رحلاته، إلا أنه ترك للمعنيين بتاريخ تلك

المنطقة معلومات قيمة عن هذه البلاد، وعن طبيعة سكانها؛ فقد زار الكرك وجوارها ثلاث مرات في الفترة ما بين عامي 1895-1905م، وظهر نتاج تلك الرحلات في كتابين يعتبر كل منهما مرجع قائم بذاته، الأول ظهر تحت عنوان **العادات العربية في بلاد مؤاب** (*Coutumes des Arabs au Pays de Moab*). وأما كتابه الثاني فقد حمل عنوان **البعثة الأثرية في الجزيرة العربية** (*Mission archéologique en Arabie*). وعن العادات في فلسطين ألف كتاب **العادات الفلسطينية، المجلد الأول، نابلس وقضاؤها** (*Coutumes Palestiniennes, I. Naplouse et son District*). كما ساهم جوسان بدراسة آثار شمال الجزيرة العربية في مدائن صالح (الحِجر)، وتيماء، والعُلا بمساعدة زميله رافائيل سافينياك (Raphael Savignac). وينسب لجوسان فضل إنشاء دير الدومينيكان في القاهرة في عام 1928.

دلمان، غوستاف هيرمان (**Dalman, Gustaf Hermann**) (1855-1941): عالم ألماني لاهوتي، ولغوي، ومتخصص بالتراث الفلسطيني. جمع الكثير من الشعر الشعبي والأمثال الفلسطينية خلال أعماله الميدانية المكثفة في فلسطين. كان أول مدير للمعهد الألماني البروتستانتي للآثار في الأراضي المقدسة (Deutschen Evangelischen Institutes für Altertumskunde des Heiligen Landes) من عام 1902 إلى عام 1917. كما عمل مديرًا لمعهد الدراسات الفلسطينية في غريفسفالد الذي سمي في ما بعد بمعهد غوستاف دلمان. وكان دلمان كاتب غزير؛ فكتب في علم اللاهوت، واللغات القديمة، والفلكلور الفلسطيني، وجغرافيا وطبوغرافيا فلسطين التاريخية. ومن أهم كتبه المتعلقة بالتراث والفلكلور الفلسطيني: **العمل والتقاليد في فلسطين** (*Arbeit und Sitte in Palästina*)، و**الديوان الفلسطيني** (*Palästinischer Diwan*).

ريفرز، وليام هالس ريفرز (**Rivers, William Halse Rivers**) (1864-1922): عالم أنثروبولوجي، وطبيب أعصاب بريطاني. عمل في جامعة كامبردج بدءًا من عام 1893 حتى قبيل وفاته، ومارس ريفرز الطب وعلم النفس. وأجرى أول أبحاثه الميدانية على سكان جزر مضيق توريس الذي يقع بين أستراليا

وجزيرة غينيا الجديدة الميلانيزية. وساهم ريفرز مساهمات كبيرة في علم الأنثروبولوجية الاجتماعية عندما أدخل منهج علم الأنساب في الأبحاث الاجتماعية. وظهر هذا المنهج في دراسته المشهورة عن قبائل التودا في الهند والمنشورة في كتابه قبائل التودا (*The Todas*). اشتهر ريفرز كطبيب نفسي ساهم في العلاج النفسي للجنود العائدين من جبهات القتال في الحرب العالمية الأولى والمصابين بصدمات نفسية نتيجة لذلك، وكان من أشهر مرضاه الشاعر الإنكليزي سيغفريد ساسون (Siegfried Sassoon/1886-1967). وقد توفي ريفرز في صيف عام 1922 بعد ترشيح حزب العمال البريطاني له لخوض الانتخابات البرلمانية العامة بقليل.

ساريسالو، آبلي (Saarisalo, Aapeli) (1896–1986): عالم آثار فنلندي، وناشط في المؤلفات المتعلقة بالمسيحية، ونال الدكتوراة الفخرية في الفلسفة، ودكتوراه في اللاهوت في عام 1964. وعمل أستاذًا للآداب الشرقية من 1935–1963 في جامعة هلسنكي. وأدار عددًا من البعثات الآثارية الاستكشافية في فلسطين ومصر والعراق. من كتبه: **المسيح الملك، يسوع في الأناجيل في ضوء الأدب اليهودي** (*Messiaskuningas, Evankeliumien, Jeesus* juutalaisen kirjallisuuden valossa)، و**موسى الطبيب** (*Mooses lääkärinä*).

سليغمان، تشارلز غابريل (Seligman, Charles Gabriel) (1873–1940): عالم وباحث إثنولوجي بريطاني، أجرى الكثير من الأبحاث الميدانية في ميلانيزيا (جزيرة في المحيط الهادئ)، وسيلان (سريلانكا حاليًا)، والسودان، وغينيا الجديدة. وعمل رئيسًا لكرسي الإثنولوجيا في كلية لندن للاقتصاد. وكان له دور في لفت الانتباه للثقافات الأفريقية، وقال بأهمية أفريقيا في ما يتعلق بأصول البشرية. ويُعدُّ كتاب **أعراق أفريقيا** (*Races of Africa*) من أهم كتبه.

شباور، هانس هنري (Spoer, Hans Henry) (1873–1951): باحث أميركي في اللغات القديمة، والفلكلور والمسائل المتعلقة بالسحر والتنجيم، تحدَّث العربية وألف كتابًا عن العربية المحكية في فلسطين في بداية القرن العشرين

بالتعاون مع نصر الله حداد (*Manual of Palestinean Arabic for Self-Instruction*). تزوج من آدا مونيكا غودريش فرير في عام 5091، وكانت تكبره بنحو سبعة عشر عامًا.

غرانت، إليهو (Grant, Elihu) (1873-1942): باحث وكاتب أميركي عن فلسطين. عمل أستاذًا للأدب التوراتي في كلية سميت، ومن بعدها في كلية هافرفورد. وأدار في الفترة الواقعة ما بين عامي 1928 وعام 1933 أربعة مواسم من الحفريات الآثارية في منطقة مستوطنة «بيت شيمش» إلى الغرب من القدس. وأشارت مجلة التايم الأميركية آنذاك إلى عثوره على مكتشفات أثرية تعود إلى العصر البرونزي. وكانت حياة الفلاحين الفلسطينيين محور اهتمام غرانت، ومن مؤلفاته شعب فلسطين (*The People of Palestine*)، وفلاحو فلسطين (*The Peasantry of Palestine*).

غودريش فرير، آدا مونيكا (Goodrich-Freer, Ada Monica) (1857-1931): باحثة نفسية إنكليزية تُعرف أيضًا باسم آدلة مونيكا غودريش فرير، ونشرت معظم مؤلفاتها تحت مسمًى «الآنسة إكس»، وأحاط أعمالها في المواضيع النفسية كثير من اللغط. انتقلت إلى القدس في عام 1901، وتزوجت في عام 1905 من هانس هنري شباور، وانتقلت للعيش في أميركا في عام 1923، وماتت في نيويورك في عام 1931. من مؤلفاتها في عمق القدس (*Inner Jerusalem*)، والعرب في الخيمة والمدينة (*Arab in Tent and Town*).

فريزر، جيمس جورج (Frazer, James George) (1854-1941): عالم اسكتلندي برز في علم الإنسان الاجتماعي وكان له أثر كبير في علم الأساطير ومقارنة الأديان، ويعد من كبار مؤسسي علم الإنسان الحديث. ومن أهم أعماله: الغصن الذهبي (*The Golden Bough*)، والفلكلور في العهد القديم (*Folk-Lore in the Old Testament*).

فيلهاوزن، يوليوس (Wellhausen, Julius) (1844-1918): باحث توراتي ومستشرق ألماني درس اللاهوت وعرف بباعه الطويل في دراسة وفهم الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (*Pentateuch*) وعرف كذلك بأنه أحد مؤسسي الفرضية الوثائقية (Documentary hypothesis) التي تعرف أيضًا بفرضية فيلهاوزن. ومن مؤلفاته: **الزواج عند العرب** (*Die Ehe bei den Arabern*)، و**محمد في المدينة** (*Muhammed in Medina*).

كراوزه، فريتس (Krause, Fritz) (1881-1963): عالم ألماني درس الإثنولوجيا في جامعة لايبزغ، وحصل على شهادة الدكتوراه في عام 1907. وكانت أطروحته عن السكان الأصليين لجنوب غرب الولايات المتحدة الأميركية. ثم شارك في بعثة ميدانية إلى البرازيل في عام 1908. وفي عام 1920 أصبح أستاذًا في علم الإنسان في جامعة لايبزغ ثم مديرًا لمتحف الإثنولوجيا في عام 1920.

كلاين، فريدريك أغسطس (Klein, Frederick Augustus) (1827-1903): مبشر ألماني ولد في مدينة شتراسبورغ الفرنسية وعرف باكتشافه لنقش ميشع أو حجر مؤاب عام 1868 في ذيبان في الأردن، والتي كانت عاصمة المؤابيين. درس كلاين في معهد بازل التبشيري في سويسرا، ثم في كلية التبشير الكنسي في لندن، وأصبح عضوًا في جمعية التبشير الكنسي (Church Mission Society). ذهب كلاين إلى فلسطين مبعوثًا من الجمعية عام 1851، وهناك عمل قسيسًا في الناصرة حتى عام 1855، ثم في القدس لاثنين وعشرين عامًا، ثم ذهب إلى ألمانيا عام 1877 واشتغل بترجمة النصوص العربية.

كوندر، كلود (Conder, Claude) (1848-1910): جندي ومستكشف وآثاري بريطاني، درس في كلية لندن الجامعية والأكاديمية العسكرية الملكية، ثم التحق بسلاح الهندسة الملكي البريطاني سنة 1870، وطاف في بلاد الشرق. وألحق بصندوق استكشاف فلسطين من عام 1875 إلى عام 1878، ثم من عام 1881 إلى عام 1882. وقد أحيل كوندر إلى التقاعد برتبة عقيد عام

1904. ومن أعماله: **العمل في خيمة في فلسطين** (*Tent Work in Palestine*)، **ومسح أراضي غرب فلسطين** (*The Survey of Western Palestine*).

ليز، جورج روبنسون (Lees, George Robinson) (1860–1944): مبشر إنكليزي ولد في إحدى ضواحي مدينة ليدز في شمال غرب إنكلترا. رحل ليز مع عائلته إلى فلسطين للعمل في التبشير، وهناك لم يلبث أن توفي طفله، ثم توفيت زوجته أيضًا بعد ذلك بعام واحد. مكث ليز طويلًا في فلسطين، وكتب كتبًا عديدة عن مشاهداته وحياته هناك، ومنها: **حياة القرية في فلسطين** (*Village Life in Palestine*)، **والقدس بالصور** (*Jerusalem Illustrated*)، **ومشاهد توراتية من الأرض المقدسة** (*Bible Scenes from the Holy Land*).

لين، إدوارد وليام (Lane, Edward William) (1801 – 1876): مستشرق إنكليزي أقام مدة طويلة في مصر وارتحل فيها. كان حاذقًا في الرياضيات في دراسته الثانوية وعازمًا على الالتحاق بجامعة كامبردج والكنيسة، لكنه هجر هذا المسعى. وفي عام 1825 انطلق إلى مصر حيث أمضى ثلاث سنوات، وارتحل في حوض النيل مرتين، وألف وصفًا كاملًا لمصر اشتمل على أكثر من مئة رسم توضيحي، إلا أنه لم ينشر. من أهم أعمال لين: **المعجم العربي الإنكليزي** (*Arabic-English Lexicon*) وقد وافته المنية قبل أن يتمكن من إتمامه، **وعادات المصريين المحدثين وتقاليدهم** (*The Manners and Customs of Modern Egyptians*) الذي لم يكن إلا فصلًا من وصفه الكامل لمصر الذي تقدم ذكره.

ليون الأفريقي (Africanus, Leo) (1494–1554): الحسن بن محمد الوزان والمشهور بليون الأفريقي أو يوحنا ليون الأفريقي أو يوحنا الأسد الأفريقي. اشتهر بتأليفه الجغرافي في عصر النهضة، ومن أشهر مؤلفاته **وصف أفريقيا** (*The History and Description of Africa*).

مالينوفسكي، برونيسلاف (Malinowski, Bronislaw) (1884–1942): باحث في علم الإنسان ولد في مدينة كراكوفيا في بولندا لعائلة ميسورة. كان والده يعمل

أستاذًا في الجامعة، أما أمه فكانت ابنة أحد الإقطاعيين. كان يعاني من مشاكل صحية وضعف عام في مرحلة طفولته ولكنه كان مبرزًا في دراسته. حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جاجيولونيا عام 1908، وكان تركيزه على الرياضيات والعلوم الفيزيائية، ولكنه تحول بعد ذلك إلى دراسة الأنثروبولوجيا. وانتقل في العام 1910 إلى إنكلترا حيث درس في كلية لندن للاقتصاد التابعة لجامعة لندن. سافر مالينوفكسي في العام 1914 إلى بابوا غينيا الجديدة، حيث أجرى بعض الأبحاث الميدانية في منطقة مايلو ثم في منطقة جزر توربرياند، وما زالت النتائج التي توصل إليها في تلك الرحلة والأساليب التي اتبعها ذات أثر كبير على الدراسات الإنسانية التطبيقية حتى يومنا هذا. وفي العام 1922 حصل مالينوفسكي على درجة الدكتوراه في علم الأنثروبولوجيا وأصبح أستاذًا في كلية لندن للاقتصاد. وفي العام نفسه أصدر كتابه الذي ألفه بعنوان: **مغامرو غرب المحيط الهادي** (*Argonauts of the Western Pacific*) الذي احتل مكانة عالمية مرموقة وأصبح مالينوفسكي على إثره من أهم وأشهر علماء الإنسان في العالم، وبفضله أصبحت كلية لندن للاقتصاد خلال سنتين من أهم مراكز تدريس علم الإنسان في بريطانيا.

ماينور، كلوريندا سترونغ (Minor, Clorinda Strong) (1807-1855): أميركية من أتباع القس وليام ميلر مؤسس السبتية، وعندما ثبت بطلان نبوءته، تحولت إلى العمل التبشيري، وذهبت في رحلة إلى فلسطين حيث ألفت كتابها: **أنباء من القدس** (*Tidings from Jerusalem*). وفي عام 1851، عادت إلى فلسطين مع أحد أولادها واستقرت بالقرب من يافا في مستعمرة زراعية كانت تسمى «جبل الأمل» مع بعض الألمان والمبشرين الأميركان حتى توفيت ودفنت هناك عام 1855.

ميشولام، جون (Meshullam, John) (1799-1878): يهودي ولد في بريطانيا واعتنق المسيحية بعد حياة حافلة بالمغامرات، وتعمّد في مالطا في تموز/ يوليو من عام 1840. وذهب بعد ذلك إلى القدس، حيث أسس أول فندق أوروبي، لكنه في الوقت نفسه عمل في الزراعة في أرطاس، وكان له يد في

إعادة إحياء الزراعة فيها بعد أن كانت هجرت زمنًا طويلًا. وعاش ميشولام بقية حياته في فلسطين ودفن في القدس.

ويسترمارك، إدوارد (Westermarck, Edward) (1862-1939): فيلسوف وعالم اجتماع فنلندي درس ظاهرة تغريب الزواج (Exogamy)؛ أي وجوب الزواج من خارج وسط عائلي أو اجتماعي معين، وبحث كذلك في صلات القربى التي تحول دون الزواج في الثقافات المختلفة، وهو أول من وصف ظاهرة الأثر الجنسي العكسي (Reverse Sexual Imprinting)؛ أي الحصانة من الافتتان الجنسي بين اثنين عاشا سنوات الطفولة الأولى لأي منهما معًا في منزل واحد، وتعرف هذه الظاهرة الآن بمؤثر ويسترمارك. وقد ساهم ويسترمارك في تأسيس علم الاجتماع كمبحث أكاديمي في المملكة المتحدة، وأصبح أول بروفيسور في علم الاجتماع في جامعة لندن عام 1907. ولويسترمارك مؤلفات عديدة منها: منشأ الأفكار الخلقية وتطورها (*The Origin and Development of the Moral Ideas*)، وتاريخ الزواج عند الإنسان (*The History of Human Marriage*)، والطقوس والعقائد في المغرب (*Ritual and Belief in Morocco*).

ويلسون، تشارلز توماس (Wilson, Charles Thomas) (1852-1917): مبشر أسترالي تلقى تعليمه في جامعة أكسفورد في إنكلترا، ثم انضم إلى جمعية التبشير الكنسي (Church Mission Society) وأرسل إلى العمل في القسم الشرقي من أفريقيا الاستوائية، فكان من أوائل المبشرين في أوغندا، حيث عمل حتى استقال من عمله في الجمعية عام 1880 لأسباب صحية، وعاد إلى إنكلترا. وفي عام 1883 عاد إلى الجمعية مرة أخرى، وعمل مديرًا لمعهد بريبراندي التبشيري في القدس حتى 1903. من أعمال ويلسون: حياة الفلاحين في الأرض المقدسة (*Peasant Life in The Holy Land*)، وشهادة الكتب: فقرات من الكتاب المقدس والقرآن بالعربية (*The Testimony of the Books: Passages from the Bible and the Koran in Arabic*).

الثبت التعريفي

الإثنوغرافيا (Ethnography): أحد فروع العلوم الاجتماعية، ويعنى بدراسة الجماعات الإنسانية من طريق المُعايشة الفعلية باستخدام الملاحظة المشارِكة والمقابلات، ويقوم هذا الفرع من فروع الأنثروبولوجيا على العمل الميداني التطبيقي.

الإثنولوجيا (Ethnology): أحد فروع العلوم الاجتماعية، ويعنى بمقارنة خصائص الشعوب المختلفة، وتحليلها، وتحديد العلاقة بينها، كما يعنى بتصنيف الحضارات وتوزيعها وانتشارها في العالم.

أسفار أبوكريفية (الأسفار القانونية الثانية) (Apocrypha): أَبُوكْرِيفَا كلمة يونانية تعني «أشياء تم إخفاؤها»، وهي مجموعة من الأسفار التي لا يعترف بها اليهود ولا الكنيسة البروتستانتية، فيما يعدُّها الأرثوذكس والكاثوليك جزءًا من العهد القديم، ولهذا يسمونها «الأسفار القانونية الثانية». وتتكون هذه الأسفار من أسفار كاملة (طوبيا، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، والحكمة، ويهوديت، والمكابيين الأول، والمكابيين الثاني) أو من تتمة لبعض الأسفار الموجودة أصلًا (تتمة سفر إستير، وتتمة سفر دانيال، والمزمور رقم 151).

أعطية الحفرة «عطية الجورة» (The Gift from the Pit): هو أحد أشكال الزواج عند الولادة، حيث جرت العادة أحيانًا في المجتمع الفلسطيني أن تعطى البنت زوجة لابن أحد المباركِين بولادتها، فتكون البنت قد خطبت عند ميلادها لابن الشخص المبارِك. ويعد الشخص الذي يجود بابنته حينئذ صاحب

شهامة وكرامة، ولا يجوز لأحد أن يطلب يدها عندما تكبر؛ لأن المبارِك كان يقدم لها الهدايا الرمزية في كل عيد من الأعياد على اعتبار أنها مخطوبة لابنه الذي يكبرها قليلاً. وقد يرفض الخاطب الزواج من خطيبته المعطاة له عند ولادتها، أو ترفض هي ذلك، وهو نادر الحدوث. ويعود أصل التسمية إلى أن النساء الشرقيات يجلسن في أثناء الولادة على شيء مرتفع؛ ففي المدن، يستخدم كرسي يتوسَّطه ثقبٌ كبير، أما في القرى فتجلس المرأة في أثناء الولادة على حجر أو اثنين. ويسمى الفراغ ما بين الأرض والجسد «جورة»؛ أي حفرة. ويروى أن المرأة البدوية عندما تنجب طفلًا، تذهب إلى البرية وحدها، وتحفر حفرة في الأرض تدفن فيها المشيمة، وقد يكون هذا أصل عبارة (عطية الجورة).

أعطية القبر (عطية إلقبر) (The Gift from the Grave): هو شكل من أشكال زواج العوض، ويكون بأن يعوَّض الأرمل بعد وفاة زوجته بزوجة أخرى عند الدفن. وهو اسم يطلق على المرأة التي يعد أهلها بإعطائها للأرمل في يوم دفن زوجته الأولى، عندما ينزل إلى قبر زوجته في غمرة يأسه لفراقها، كما لو كان يريد أن يُدفن معها.

الأنثروبولوجيا (Anthropology): هو علم يدرس أصل النوع الإنساني، وثقافته، والظواهر المتعلقة به. وتنقسم الأنثروبولوجيا إلى نوعين رئيسيين، هما: الأنثروبولوجيا الطبيعية، وهي تعنى بدراسة التطور الإنساني، والباليونتولوجيا؛ أي علم حياة ما قبل التاريخ، والأجناس البشرية، وتكوين جسم الإنسان. والأنثروبولوجيا الثقافية التي تشمل علم الآثار؛ أي البقايا المادية للثقافات القديمة، والإثنولوجيا؛ أي الثقافات الموجودة في الحاضر. وللأنثروبولوجيا مدارس كثيرة مختصة في جوانب معينة ودراسات من زوايا مختلفة.

التوراة (Torah): تعني كلمة «التوراة» بالعبرية التعليم أو التوجيه، ولا سيما ذلك المتعلق بالمسائل والضوابط الدينية، وتتكون التوراة من الأسفار الخمسة الأُولى (التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية) من العهد القديم

«التناخ»؛ فهو يُقسم إلى ثلاثة أقسام، التوراة، وأسفار الأنبياء، وهو القسم المتعلق بالأنبياء، وأسفار الكتابات، وهو قسم الأدبيات اليهودية.

دراسات مفردة أو أحادية (monographic studies): دراسات تُعنى بموضوع واحد. وقد تصدر على شكل كتاب، أو مقالة. وقد يعلن المؤلف أن دراسته هي دراسة أحادية، وقد يحدد القارئ أو الناقد ذلك بنفسه. وتستخدم الدراسات الأحادية عادة بغية أن يكون العرض كاملاً ومفصلاً للموضوع الجوهري على مستوى أكثر تقدمًا من الدراسات التي تعالج جوانب متعددة للظاهرة موضع الدراسة.

الدوطة (Dowry): المهر أو الهدية التي تقدمها العروس أو أهلها للعريس أو لأهله. وتنتشر هذه العادة انتشارًا واسعًا في الهند.

زواج البدل (Marriage by Exchange): هو أن يتزوج الرجل مولِّيته؛ أي ابنته أو أخته على أن يزوجه الآخر مولِّيته، ولا صداق (مهر) بينهما. ويسمى هذا النوع من الزواج في الإسلام «بزواج الشِّغار»، وهو محرَّم في الإسلام.

السامريون (Samaritans): هي مجموعة دينية تنتسب إلى بني إسرائيل، وتختلف عن اليهود باتباعهم الديانة السامرية، المخالفة لليهودية على الرغم من أنهم يعتمدون على التوراة، لكنهم يعتبرون أن توراتهم هي الأصح، وأنها غير محرفة، وأن ديانتهم هي ديانة بني إسرائيل الحقيقة. ويقدر عدد أفرادها بـنحو 783 شخصًا يتوزعون بين مدينة نابلس ومنطقة حولون بالقرب من تل أبيب. وتتكون التوراة السامرية من خمسة أسفار، هي التكوين والخروج واللاويين ويسمى الأحبار والعدد والتثنية، وهي التوراة نفسها التي يؤمن اليهود الآخرون بها، إلا أن التوراة السامرية تختلف عن التوراة العبرية في بعض الألفاظ والمعاني، كما تزيد التوراة السامرية عن التوراة العبرية في الحجم. ولا يؤمن السامريون ببقية العهد القديم؛ أي أسفار الأنبياء، وأسفار الكتابات.

العشيرة (الحمولة) (Clan): هي مجموعة من الناس تجمعهم رابطة قرابة أو نسب فعلي أو متصور. وحتى لو كانت تفاصيل النسب غير معروفة، وقد يتجمَّع أعضاء العشيرة حول العضو المؤسس أو السلف الأول. وقد تكون الروابط القائمة على القرابة رمزية؛ فتتشارك العشيرة في سلف مشترك محدد يُعتبر رمزًا لوحدة العشيرة. ويمكن وصف العشائر على نحو أكثر سهولة بأنها قبائل أو مجموعات فرعية من القبائل.

علم الأنساب (جينيالوجيا) (Genealogy): وهو علم الأصول والأنساب، ويُعنى بدراسة الأسر، وتتبع أنسابها. ويعمد النسَّابون (علماء الأنساب) إلى استخدام التقاليد الشفوية، والسجلات التاريخية، والتحليل الجيني، وغيرها من السجلات للحصول على معلومات عن العائلة وإثبات صلة القرابة والأنساب بين أفرادها. وغالبًا ما تعرض النتائج في أشكال توضيحية، أو سلاسل أنساب، أو أشجار عائلات. ويعود السعي وراء التاريخ العائلي وأصوله إلى دوافع كثيرة منها: الرغبة في نحت مكان لعائلة واحدة في الصورة التاريخية الأكبر، والشعور بالمسؤولية للحفاظ على الماضي لأجيال المستقبل.

العهد القديم (Old Testament): هو الجزء الأكبر من الكتاب المقدس. ويحتوي على أسفار اليهود جميعها بما فيها التوراة؛ أي الأسفار الخمسة الأولى (التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية). ويعرف أيضًا باسم التناخ، وهي كلمة مركبة من الأحرف الأولى من كل قسم من أقسامه: توراة (التوراة/ التعاليم)، نبييم (الأنبياء)، وكتوبيم (الكتب). ويتكون العهد القديم بحسب الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية من ستة وأربعين كتابًا، تسمى أسفارًا (إضافة إلى تتمة لبعض الأسفار الموجودة أصلًا). وأما الكنائس البروتستانتية، فهي تتفق مع اليهود في قبول تسعة وثلاثين سفرًا فقط، وهي تلك التي دونت باللغة العبرية رافضة اعتبار الكتب المدونة باليونانية أسفارًا قانونية موحى بها. وتسمى الأسفار المختلف بشأنها بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة، والكنيسة البروتستانتية واليهود من

جهة أخرى بالأسفار الأبوكريفية أو الأسفار القانونية الثانية. وقسّم التراث المسيحي أسفار العهد القديم إلى التوراة، وأسفار الحكمة، والأسفار التاريخية، وأسفار الأنبياء.

الفلكلور (Folklore): الفلكلور؛ المأثورات الشعبية: عادات شعب ما وتقاليده وحكاياته وأساطيره وأقواله المأثورة وأغانيه ورقصاته المتحدِّرة عبر العصور من جيل إلى جيل، كما تتجلى عند قطاعات ذلك الشعب التي لم تفسدها المدنية والمؤلفة في المقام الأول من بسطاء الناس. ويُطلق اللفظ أيضًا على دراسة ذلك كله وتحليله على نحو مقارن، أو على نحو غير مقارن. وتعاظمت عناية العلماء بالفلكلور خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وهو يدرَّس اليوم في معظم الجامعات الأميركية، وفي كثير من الجامعات الأخرى، حيث يحلل الباحثون أساليبه وأغراضه ومضامينه ودلالاته الاجتماعية وأبعاده السيكولوجية. ولفظة فلكلور معناها في الأصل «المعرفة التقليدية (*Lore*) لشعب (*Folk*) من الشعوب».

المنهج الإحصائي/ منهج التوثيق الإحصائي (Statistical Method): هو استخدام الطرائق الرقمية والرياضية في معالجة وتحليل البيانات وإعطاء التفسيرات المنطقية المناسبة لها. ويعمد الباحث في المنهج الإحصائي الوصفي إلى وصف وتلخيص الأرقام التي جُمعت حول موضوع بعينه وتفسيرها في صورة نتائج. أما المنهج الإحصائي الاستدلالي، فيعتمد على اختيار عينة من مجتمع أكبر، وتحليل وتفسير البيانات الرقمية التي جُمعت عنها، بهدف الوصول إلى تعميمات واستدلالات على ما هو أوسع وأكبر من المجتمع موضع البحث.

المنهج المقارن (Comparative Method): هو المنهج الذي يعتمد المقارنة في دراسة الظواهر؛ فيبرز أوجه الشبه والاختلاف في ما بين ظاهرتين أو أكثر. وتكون المقارنة في الدراسات الأنثروبولوجية بين مجتمعات أو ثقافات مختلفة.

المهر (Bride Price): هو المال الذي يُدفع للعروس أو أهلها بغرض الزواج.

اليهودية (اسم مكان) (Judea): هي تسمية تاريخية يونانية رومانية للمنطقة الجبلية الواقعة في جنوب فلسطين. وتمتد هذه المنطقة من ساحل البحر الميت باتجاه الغرب، وتشمل القدس والخليل وبئر السبع. وسُميت نسبة إلى اسم قبيلة يهودا العبرانية. وظهرت في هذه المنطقة مملكة اليهودية، وهي إحدى المملكتين اليهوديتين القديمتين (اليهودية وإسرائيل)، ثم قامت فيها بعد الغزو الفارسي للمملكة الحشمونية، والتي صارت تعرف بمملكة اليهودية في أثناء الحكم الروماني لفلسطين.

فهرس عام

-أ-

إبراهيم، عليا: 22، 58

أبـو ديـس (بلـدة فلسـطينية): 233-234، 241-242، 275، 338، 488، 558، 580، 597

أبيلا، أيوب: 332

الإثنولوجيا: 39، 41-42، 44، 46، 49، 55، 201

الأحكام الشرعية: 616

الأحكام المتعلقة بالطلاق الثلاثي: 617

أرطاس (قرية فلسطينية): 15-23، 26-33، 36-38، 49، 50-55، 57، 60، 62-64، 70-71، 75-80، 84، 86-87، 91، 97-98، 100، 107، 114-115، 124-127، 130-134، 136-144، 146-152، 154، 156-171، 173-179، 186، 191-192، 199، 204-206، 208، 211، 215-216، 219-221، 223-225، 228-229، 257، 286، 300، 311-314، 316، 327-328، 337-338، 342، 347-348، 357، 362-363، 365-367، 370-376، 384-385، 390-394، 397-398، 423، 427-428، 431، 439، 453-454، 464، 467، 469-470، 476، 479، 483-489، 492، 494، 497، 502، 518، 525، 527، 534، 536-538، 546-556، 558-562، 570، 580-583، 589-592، 600-601، 603، 605-608، 620، 622، 635، 639، 641، 644، 646، 648، 651-659، 665-667

الأرملة (المرأة التي مات زوجها): 16، 54، 185-187، 189، 218، 398، 407، 558، 592، 625، 627-629، 636، 639-640، 642-643، 645، 647، 651-653، 663، 665-668

الأزمنة التوراتية: 15، 20

إسطنبول: 19

الاضطهاد الروسي: 165

الإعلان عن حمل المرأة: 558

إلجورة، عطية: 63-77، 79، 90، 102، 174-175، 632

الأماكن المقدسة: 476-478

أميركا: 66، 165، 199، 207، 218، 249، 254، 269، 273، 276

- الجنوبية: 96، 454، 471

أوروبا: 70، 338، 471
أوسترلي، وليام أوسكار إميل: 297
إيفانز - برتشارد، إدوارد إيفان: 25

-ب-

بالدنسبيرغر، إميل: 216
بالدنسبيرغر، فيليب: 330، 332
بالدنسبيرغر، لويزا: 17، 19، 22، 26، 57-60، 89، 92، 126، 182، 205، 211، 225
باور، ليونارد: 76
برك سليمان (برك ماء في قرية أرطاس): 27، 51، 149، 151، 168، 225، 357، 362-363، 391، 398، 667
برلين: 17
بلدة الشيوخ: 131، 178
البيانات الإحصائية: 21، 43، 139
بيت أُمَّر (قرية فلسطينية): 51، 140، 257، 397-398، 423، 538
بيت تعمر (قرية فلسطينية): 237-238، 242، 245-246، 249، 253-254، 257، 272، 275-276، 279-280
بيت جالا (بلدة فلسطينية): 115، 140، 168، 171، 338، 391-392، 394، 448، 599
بيت ساحور (بلدة فلسطينية): 140، 228-229، 280
بيت سكاريا (قرية فلسطينية): 66، 68، 142، 169-171، 476، 549، 553
بيت صَفافا (قرية فلسطينية): 80، 160-163، 166، 219، 250، 311-312، 561، 600-601
بيت لحم (مدينة فلسطينية): 15، 36، 70، 87، 98، 100، 105، 115، 126، 140، 156-157، 159-160، 164، 166-168، 178، 199، 214، 218، 222-223، 228، 234، 241-242، 245، 254، 258، 264، 268، 269، 272-273، 279، 312-314، 316، 320، 331، 341-342، 344، 347، 355، 357، 369-370، 372-373، 384-385، 391-392، 421، 427، 454، 489، 502-503، 546-547، 549، 553-555، 561، 569، 581، 583، 597، 599، 601، 634-635، 642، 648-649، 658-660
بيروت: 164
بيروقي، إرمتي: 47، 331

-ت-

التراث الشعبي الفلسطيني: 30-31
التعامرة (عرب): 27، 51، 110، 149، 156-157، 170، 192، 212-213، 217، 391، 464، 467، 534، 548، 558، 633-634
تعليم الأطفال: 16
التفويض: 319
التنمية المستدامة: 30-31

-ج-

جبع (قرية فلسطينية): 393-394، 397، 561
جبل محيرس: 495
الجذام (مرض): 591-592
الجراد: 169

جنوب الهند: 130
جهاز العروس: 183، 194، 218، 335، 344، 346، 362-463، 492، 553، 646
جوسان، أنطونين: 47

-ح-

حداد، إلياس: 22، 60، 75، 186، 297، 654
الحرب العالمية الأولى (1914-1918): 592، 605-606
الحرب العربية - الإسرائيلية (1967): 28
حركة الهجرة اليهودية: 29
حركة الفلكلور الفلسطيني: 30-31
الحرم الإبراهيمي: 209
الحزب القيسي: 115، 390-395، 397
الحزب اليمني: 390، 392-393، 395
الحكم الإسلامي: 27
- البيزنطي: 27
- الروماني: 27
- الصليبي: 27
- العثماني: 27
- المملوكي: 27
حكومة الانتداب: 28-29
الحكومة البريطانية: 87، 90، 107، 125، 163، 489
الحكومة التركية: 165
حلحول (مدينة فلسطينية): 80، 140، 147، 171، 179، 226-227، 238، 254، 267، 306، 596، 605
الحناء (عشبة للصباغ): 107، 224، 335، 346-351، 355، 368، 463، 507
حوسان (قرية في بيت لحم): 140، 216

-خ-

ختان الأولاد: 16، 21، 70، 199، 338، 373، 386-387، 396، 430
الخدمة العسكرية: 110، 151، 157، 165، 199، 214، 219-220، 471، 635-636، 648
الخضر (قرية فلسطينية): 80، 116، 140، 156، 163، 168، 184، 233، 238، 262، 279-280، 282، 327، 347، 357، 362-363، 365-367، 391-393، 445، 548، 559، 583، 651، 661-663، 666-667

-د-

داوسون، أغنس: 13، 297
الدراسة المونوغرافية: 18، 21، 47، 55
الدوطة (مال يدفع للعريس): 204
دوكهاك، جودي: 22

-ر-

رام الله (مدينة فلسطينية): 75، 77
الرجل الشرقي: 19، 78، 621
الرضاعة: 16، 116-117، 524، 627
الرواية الشعبية: 139
روبنسون، إدوارد: 51
الرياسة: 462
ريفرز، وليام هالس ريفرز: 22

-ز-

الزعامة: 462

-س-

سارة (زوجة النبي إبراهيم): 209
ساريسالو، آبلي: 76

السامريون: 48
ستيفان، ستيفان حنا: 297
سعيد، إدوارد: 26
سلطة الزوج: 217
السلطة المحلية: 393
سلواد (بلدة فلسطينية): 80، 220، 225، 257، 580
سليم، ليديا: 376
سن الزواج: 63، 71، 82، 84، 95، 97، 111، 208
سنجل (قرية فلسطينية): 220، 225، 254
السياحة البديلة: 31
سيغر، كارن: 17
-ش-
شباور، هانس هنري: 75
شرق الأردن: 101، 471، 544
الشركس: 228
الشريعة الإسلامية: 510، 628
شهر رمضان: 327
شهر محرَّم: 330
-ص-
صهيون (جبل): 137، 546
الصهيونية: 100، 393
صوريف (بلدة فلسطينية): 74، 140، 164-165، 169، 233، 261، 393-394، 397-398، 465، 480، 518، 552، 562، 580، 641
-ض-
الضرة (الزوجة الثانية): 177، 504-505، 507، 540
الضريبة: 151
ضريح إبراهيم (النبي إبراهيم): 209
الاضطهاد الروسي: 165
-ط-
الطلاق: 16، 41، 54، 107، 222، 230، 487، 524، 545، 551، 588-591، 594-596، 598-600، 604-608، 611-613، 614-617، 619، 622-624
- الثلاثي: 617-618
-ع-
عائلة الزير: 635
عائلة سند: 142، 148، 277، 284، 287
عائلة شحادة: 146-148، 179، 274، 283، 287، 667
عائلة الفواغرة: 105، 157، 159، 634
عائلة كنعان: 275، 284، 287
عادات الدفن: 632
عشيرة الربايعة: 51، 65، 142، 145، 247، 283، 287، 590-592، 598-600
عشيرة سعد: 51، 146، 231، 283، 287، 482
عشيرة شاهين: 105-106، 139، 146-147، 149، 266، 283، 287، 482، 528، 553، 590
عشيرة عودة: 553
عشيرة مِشاني: 143، 251، 283، 287، 659
عطا، إبراهيم: 22

عقد الزواج: 103، 319، 321، 324، 370، 464-465، 509، 592، 616-617، 635، 656، 671

عقوبة الإعدام: 209

علم الآثار: 17

علم الاجتماع: 24، 691

علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية: 18، 686

علم الأنساب: 22، 43، 55، 140، 686

علم اللاهوت: 17

علم المناخ: 42

عمّان (عاصمة الأردن): 27-28، 101، 545، 593، 605

العهد القديم: 24، 35-36، 38، 45-46، 132، 144، 155، 169، 393، 517، 521، 547، 644، 650، 672

عيد الأضحى: 311

عين كارم (قرية في القدس): 140

-غ-

غانو، كليرمون: 18-19

غرانت، إليهو: 75

غوتنغن (مدينة في شمال ألمانيا): 297

-ف-

فاغور (منطقة في بيت لحم): 548

فريزر، جيمس: 44، 61

فنلندا: 16، 24، 26، 165

فيتزشتاين، يوهان غوتفريد: 330

فيتش، فلورنس: 21-22

فيرث، رايموند: 18

-ق-

القاهرة: 19

القبيبة (قرية في القدس): 47، 75، 77

القدس: 15، 17-18، 28، 35، 52، 75-76، 98-99، 104، 114-115، 146، 151، 159، 162، 165، 168، 191، 203، 211، 213، 219-221، 225، 257، 297، 307، 313، 363، 370، 372، 392، 427، 474، 489-490، 503، 519، 545، 549، 550، 554، 569، 575، 597، 599، 601، 603، 667

القديس جورج: 363

قراءة سورة الفاتحة: 75، 230، 309-310، 321، 476

قطاف الزيتون: 222، 224

-ك-

كارستن، رافائيل: 13، 16، 299

كلاين، فريدريك: 331

كناعنة، شريف: 30-31

كنعان، توفيق: 22

كوبنهاغن: 16

كوفين (مدينة فلسطينية): 139

كولر، لودفيغ: 48

-ل-

لاندتمان، غونّار: 17

اللجنة التنفيذية العربية: 28-29

لندن: 18، 26، 29، 297

لومير، فنسان: 29

ليتمان، إينو : 331

ليز، روبنسون: 76

ليلة الحناء: 335، 346، 350-351

ليلة القدر: 139

لين، إدوارد وليام: 332

-م-

ماركس، إيمانويل: 26
مالينوفسكي، برونيسلاف: 18، 21
المجاعة: 188، 220، 592
المجتمع الريفي: 26
المجتمع الفلسطيني: 15، 18، 24، 29-30، 37، 61
مجلس شورى الملك الخاص في لندن: 29
المجمع العلمي الفنلندي: 13، 297
المذهب المالكي: 330
مراسم الخطبة: 300، 324-325، 507، 671
مراسم الزواج: 300، 507، 671
مراسم العقد: 321
مريم العذراء: 140
مصر: 330، 332
المعهد البروتستانتي الألماني: 17، 35
مكة: 165، 228
منظومة قوانين حماية المرأة: 558
المنهج الإحصائي: 43
المنهج التوراتي: 31
المنهج المقارن: 21، 24، 39، 55
المنهج الوظيفي: 18، 24
المهر (المال الذي يدفع للعروس): 66، 88، 99، 102، 107، 124، 128، 130، 164، 168، 184-189، 192-194، 196، 201-205، 208-211، 217، 226، 228-230، 285، 303، 307-308، 320-321، 325، 332، 375، 493، 503، 601-602، 612، 619، 635، 642-643، 659
مورز، أناليس: 20
موزل، لويس: 332
موسم الحصاد: 142، 169، 327، 330، 546، 563، 635
ميد، مارغريت: 25
ميشولام، جون: 27

-ن-

نابلس (مدينة فلسطينية): 38، 47-48، 138، 220، 376، 478
الناصرة (مدينة فلسطينية): 76-77
نابلي، فلسطين: 15، 32
النظام العائلي الأبوي: 455، 462
نهر الأردن: 51، 163، 228، 544-545، 572، 593، 600

-هـ-

الهجرة اليهودية: 29
هلسنكي (عاصمة فنلندا): 16-17، 24
هيرودس (ملك اليهود): 27
هيمبل، ماريا: 297
هيمبل، يوهانس: 297

-و-

وادي موسى (مدينة أردنية): 75
الوصي: 134، 645، 668
وير، شيلا: 26
ويسترمارك، إدوارد: 13، 16، 18، 22، 61، 138، 141، 299، 332، 335

-ي-

يافا (مدينة فلسطينية): 149، 162، 282

هذا الكتاب

قبل نحو تسعة عقود، توجهت طالبة فنلندية تدعى هيلما غرانكفست (1890-1972) إلى قرية "أرطاس" إلى الجنوب من بيت لحم في فلسطين، حيث شهدت مسيرتها الشخصية والأكاديمية منعطفًا أساسًا بتحولها إلى دراسة حياة المرأة الفلسطينية. فوضعت خمس دراسات مونوغرافية رائدة عن "الأحداث الثلاثة الأهم في حياة البشر"، وهي الولادة والزواج والموت، في قرية أرطاس. ونشرت دراساتها باللغة الإنكليزية، ولم تترجم قط إلى العربية أو أي لغة أخرى. وتعد هذه الترجمة لدراستيها الأولى والثانية حول الزواج مصدرًا من أغنى مصادر التوثيق لحياة القرية الفلسطينية المتاحة للقارئ العربي.

يأتي "أحوال الزواج في قرية فلسطينية" في "سلسلة ترجمان" في نطاق مشروع متكامل لترجمة الدراسات المتعلقة بالتراث الشعبي الفلسطيني ونشرها. وتتجاوز أهمية هذا المشروع البعدين الأكاديمي والدراسي، لأن هذه الدراسات تقدم شواهد فذة على وجود نشاط إنسانيّ وافر في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن العشرين، ناشئ عن مؤسسات وممارسات اجتماعية واقتصادية ودينية وفولكلورية حية معقدة التركيب ومغرقة في القدم. وهذه الدراسات التي وضعها مؤلفون أجانب مختصون عاشوا في فلسطين في تلك الفترة، تدحض دحضًا صريحًا المقولات الصهيونية القديمة والراهنة الرامية إلى محو الهوية الفلسطينية أو تشويهها أو انتحالها أو استلابها.

Marriage conditions in a Palestinian village

Hilma Natalia Granqvist

المؤلف

هيلما غرانكفست، (Hilma Granqvist) (1890-1972) عالمة أنثروبولوجيا فنلندية، تعدّ رائدة في الدراسات الميدانية، جنبًا إلى جنب مع أستاذها إدوارد ويسترمارك. احتلت دراساتها الميدانية عن قرية "أرطاس" في فلسطين مكانة مرموقة وضعتها ضمن رواد مدرسة "الأنثروبولوجيا الجديدة" التي نشأت في بريطانيا في عشرينيات القرن العشرين. تركز هذه المدرسة على العمل الميداني والملاحظة المباشرة كأدوات أساسية للبحث، وتهدف إلى فهم الثقافات في سياقاتها المعاشة. تستند سمعة غرانكفست الدولية إلى خمسة أعمال تناولت التقاليد والأعراف والممارسات الشعبية المتصلة بالزواج والولادة والطفولة والوفاة في فلسطين.

المترجمتان

خديجة محمد علي قاسم (1934-2009) من مواليد سلوان/القدس، درست في مدارس القدس، وعملت في القطاع الخاص، اعتنت عناية خاصة بالدراسات المتعلقة بالتراث الشعبي الفلسطيني. بدأت ترجمة الكتاب ولم تنجزه.

إخلاص خالد القنانوة باحثة أردنية تحمل درجة الدكتوراه في اللغات السامية الشمالية الغربية من جامعة برلين الحرة - ألمانيا الاتحادية. صدر لها، إضافة إلى هذا الكتاب، ثلاث ترجمات: **ما هي لفائف البحر الميت وما أهميتها؟** (دايفد نويل فريدمان وبام كولكن)؛ **لفائف البحر الميت: بعد خمسين عامًا**، (أيلين م. شولر)؛ **آثار قمران ومخطوطات البحر الميت** (جودي ماغنس).

- فلسفة وعلم نفس
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 20 دولارًا

ISBN 978-614-445-056-7

9 786144 450567

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies